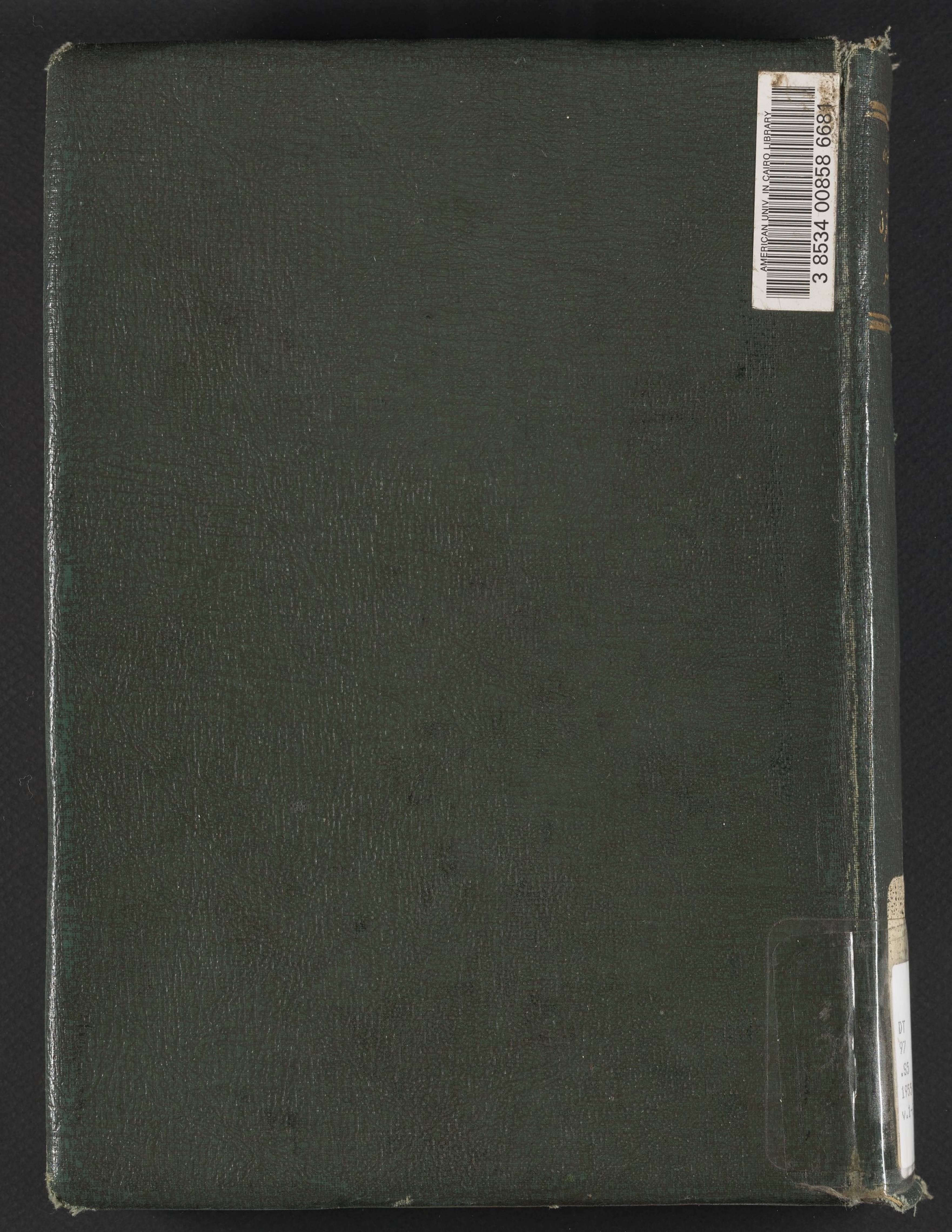

AMERICAN UNIV. IN CAIRO LIBRARY
3 8534 00858 6681
DT
97
.S5
1955
v.1-







mal Hamouda



١٤٢

دراسات فى تاريخ الجبرتى

مصر فى القرن الثامن عشر

الجزء الأول

١- عبد الرحمن الجبرتى
٢- الحياة الفكرية والاجتماعية

تأليف
محمود الشرقاوى

١٩٥٥

ملتزم الطبع والنشر
مكتبة الأنجلو المصرية
١٦٥ شارع محمد بك فريد (عماد الدين سابقا)
(صبحى وشركاه)

مطبعة لجنة البيان العربي
٤ شارع مصطفى باشا كامل ـ لاظوغلي

مقدمة

تاريخ الشيخ عبد الرحمن الجبرتى عن حياة مصر فى القرن السابع عشر والثامن عشر ، وشطرٍ من التاسع عشر ، الذى سماه « عجائب الآثار فى التراجم والأخبار » ، مرجع من أهم مراجع تاريخنا الحديث ، وأكثرها دقة ، وأوسعها شمولا وإحاطة .

وقد كان هذا المرجع الفريد ، مهملا فى مدى السنين الطويلة الماضية ، لأسباب . منها عنفه فى خصومة محمد على ، والحقائق المؤلمة التى سجلها عن الفترة الأولى من حكمه — وقد اتهم محمد على بقتل الجبرتى ، أو قتل ابنه على ما نراه فى ترجمته — فلم يكن مما يرضى عنه أحد من أسرة محمد على أن يُدرس هذا التاريخ ، ويعرف الناس ما سجله عن مؤسس الأسرة . ومنها المشقة البالغة التى يجدها من يطالع هذا الكتاب ، ويريد أن يستخلص منه وقائع التاريخ وحقائقه ، مجردة مما أقحمه عليها من توافه الأخبار ، وصغائر الأمور . وفى هذا الأسلوب الذى كتب به الجبرتى خاصة ، والطريق الذى سلكه فى التأليف .

ومن مظاهر التوفيق للدراسات التاريخية فى هذه السنين الأخيرة ، بدء اهتمامها بهذا المؤرخ الصادق الأمين . الذى سجل من تاريخ مصر فترة لم يكتب فيها أحد سواه . ولا نجد عنها كتابا باللغة العربية ، إطلاقا .

ومن دلائل هذه العناية ، أن تقدر الدولة الجبرتى ومؤلفاته ، فيعنى مجمعها اللغوى ، عناية خاصة ، بأفضل ما يؤلف عن ذلك من الكتب .

وتاريخ الجبرتى ، كما تقول دائرة المعارف الإسلامية ، أعظم تواريخ مصر فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر .

ويعتبر تاريخه مكملا لتاريخ مصر الذى وضعه ابن إياس وسماه « بدائع الزهور فى وقائع الدهور » ، فقد وقف هذا بتاريخه عند سنة ٩٢٨ . وتناول الجبرتى ما تلا ذلك من السنين ، إلى نهاية سنة ١٢٣٦ .

ومن الأمور السارة أن نجد مؤرخا مصريا ، هو الجبرتى ، يستأنف ، ويتمم ، ما وضعه عن تاريخ مصر ، مؤلف مصرى آخر ، وهو ابن إياس . فلا تسقط بذلك حلقة من حلقات هذا التاريخ .

وللجبرتى كتاب آخر ، لم يطبع ، هو « مظهر التقديس بذهاب دولة الفرنسيس » . كتبه فى تاريخ الحملة الفرنسية وفترة احتلالها مصر . ونجد حديثاً وافياً عنه فى هذا الجزء من كتابنا .

وقد كانت للجبرتى — إلى جانب مواهبه الكثيرة — كما كانت لأبيه من قبله ، مكانة اجتماعية ، وثراء ، مكـّنا له من الإحاطة بأسرار الفترة التى أرخ لها أتم إحاطة .

وقد استطعت ، فى نحو أربع سنين ، أن ألخص فى هذه الدراسات ، التى أقدم أول أجزاءها بهذا الكتاب ، تلخيصا أمينا ، شاملا ، دقيقا ، ما كتبه الجبرتى عن تاريخ مصر ، وتراجم رجالها . وأهم أحداثها . ومظاهر حياتها الإجتماعية والفكرية . بحيث أعتقد أن هذه الدراسات ، تغنى عن مطالعة مؤلفاته وتحـّمل ما فيها من جهد بالغ ، ومشقة ، وعناء كبير .

وهى ، فوق ذلك ، ترينا صورة جدّ كافية لفهم المظاهر المختلفة لتاريخنا ، والإحاطة بصورة الحياة التى كان يحياها أجدادنا ، وأهل وطننا ، فى هذه الفترة من الزمن . وهى فترة لها أهمية خاصة فى تاريخنا الحديث .

وقد رأيت أن أقسم هذه الدراسات تقسيما موضوعيا ، لا زمنيا ، كما يفعل المؤرخون عادة ، وكما فعل الجبرتى . فجعلت الجزء الأول منها خاصا بالحياة الفكرية والإجتماعية ، ومعه دراسة دقيقة ، وافية ، لأسرة الجبرتى ، وحياته ، ومؤلفاته ، وهو هذا الجزء . والثانى خاصا بأيام المماليك ، مظاهر حياتهم وأخلاقهم ، وتراجم كبارهم . كما يتناول الأزهر والعلماء . والجزء الثالث ، يتناول تاريخ الكفاح الذى قام به شعب مصر ضد ظلم حكامه من الأتراك والمماليك ، كما يتناول كفاحه للإحتلال الفرنسى ، والغزو الإنجليزى . ومعه صفحات من سيرة محمد على .

وتأريخ الحياة الإجتماعية ، التى هى موضوع هذا الجزء ، من الخصائص التى يكاد ينفرد الجبرتى بالعناية بها . وعنايته بها كبيرة ، كماً وكيفا ، وهى من الميزات البارزة التى تجعل لتاريخه أهمية خاصة فريدة .

وقد أدرك مؤرخوا الفكر العربى من الأوربيين ، أهمية هذه الناحية التى يكاد ينفرد بها الجبرتى . فقالت دائرة المعارف الإسلامية « إن هذا التاريخ ، له أهمية إجتماعية كبيرة ، لأنه صورة مفصلة عن حياة الشرقيين . وقد أفاد منه لين وهو يعلق على الطبعة التى أخرجها من ألف ليلة وليلة » .

ومع أن تاريخ الجبرتى هو مادة هذا الكتاب ، وأساس هذه الدراسات . فقد استعنت بمصادر أخرى كثيرة ، أكملت بها ما وجدت أن الجبرتى قصر فيه ، أو وفّيت بها ما لم يوفه ، أو أضفت منها فائدة جديدة . وترى ثبتاً بهذه المراجع ، فى الجزء الأخير من هذا الكتاب .

ويجد القارئ لتاريخ الجبرتى ، وللتاريخ العربى على العموم ، قبل عدة قرون من هذه الفترة ، يجد كثيراً من الأسماء والمصطلحات ، كانت معروفة لأهله ، متداولة بينهم . وهى أثر من آثار غلبة غير العرب على الحكم والسلطان فى البلاد الإسلامية ، ولكن هذه الأسماء والمصطلحات ، لا تمكن معرفتها الآن ، إلا بالرجوع لمظانّ وجودها وتفسيرها . ويجد القارئ تفسيراً لها فى مواضعها من الكتاب .

وأعتقد أننا لن نستطيع فهم حاضرنا ، وإدراك العواطف والعوامل ، التى تسيطر عليه وتوجهه . وكذلك لن نستطيع أن نضع المنهج السليم ، الناجح ، المستقيم ، لمستقبلنا القريب والبعيد ، إلا على أساس من التأمل الدقيق ، والإدراك الشامل ، والفهم العميق ، لهذه الفترة القريبة من تاريخنا ، التى أرجو أن أكون قد وفّقت فى دراستها إلى شىء .

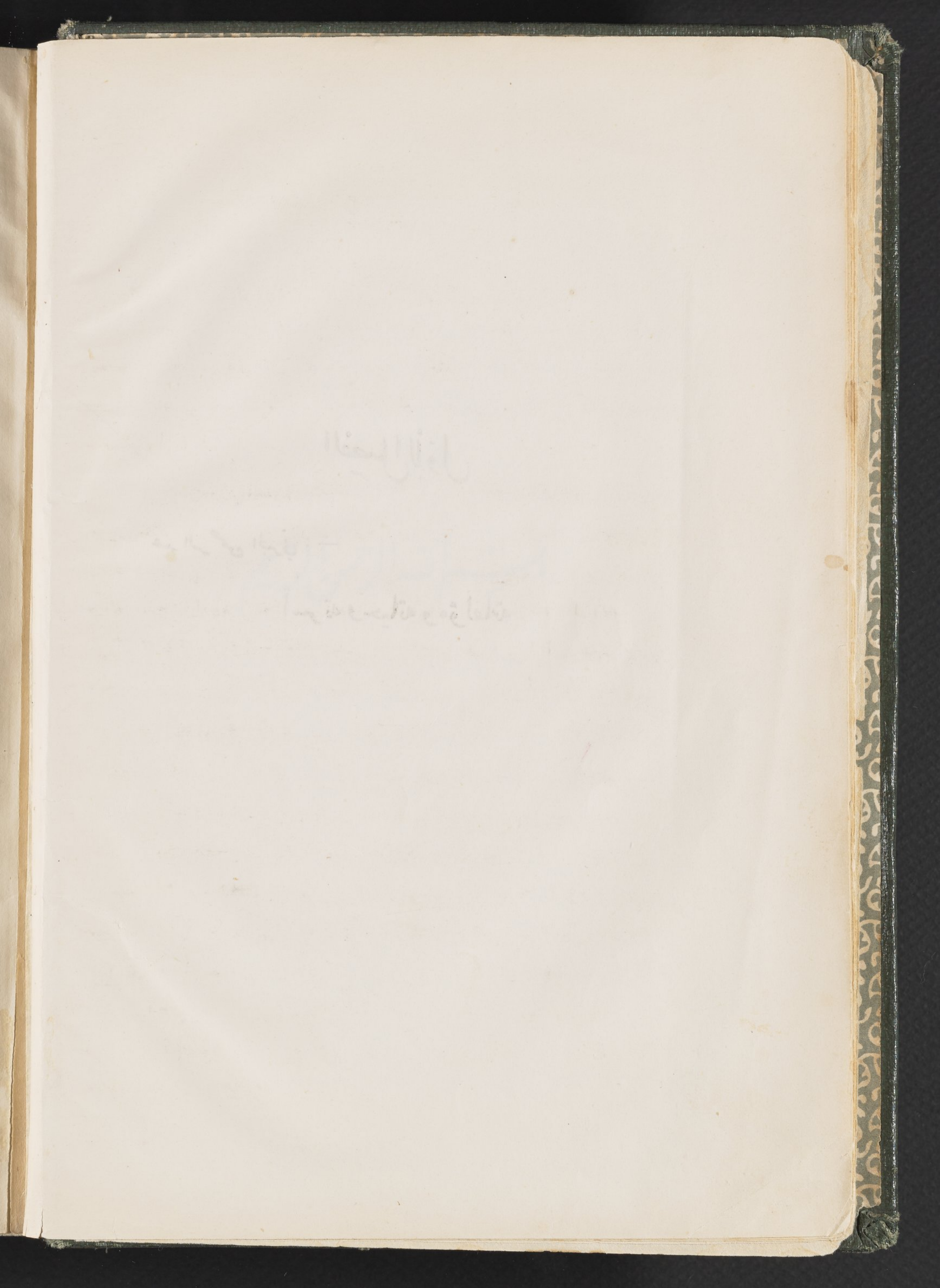
ربيع الثاني ١٣٧٤ — محمود الشرقاوى
ديسمبر ١٩٥٤

بسم الله الرحمن الرحيم

الفصل الأول

عبد الرحمن الجبرتي : —

أسرته وحياته ومؤلفاته



أسرته

ينتسب الجبرتى وأسرته إلى « جبرت » وهى إقليم الزيلع الاسلامى فى شمال بلاد الحبشة . وقد كتب الجبرتى ، عند الكلام على وفاة والده ، فصلا عن وطنه وصفات أهله ، وما فيهم من الحذق والفطانة ، ولطافة الطباع ، وصفاء القلوب ، وما عند نسائهم من الصباحة ، والملاحة والفصاحة ، والسماحة ، وذكر فى نساء وطنه شعراً لطيفاً [1] .

نزح الجد السابع للجبرتى ، واسمه عبد الرحمن ، من جبرت إلى جدة فى أوائل القرن العاشر ، ثم إلى مكة فجاور بها ، وحج مراراً ، ثم جاور بالمدينة سنتين ، ولقى من بالحرمين من كبار الشيوخ . ثم ارتحل إلى مصر واستقر بها وتزوج وولد له وكبر شأنه ، واتصل بالعلماء حتى اختير شيخاً لرواق الجبرت . وقد ظلت مشيخة الرواق ثلاثة قرون يتولاها أولاد الشيخ عبد الرحمن هذا حتى انتقلت عنهم بوفاة الجبرتى . وتزوج الجد الخامس للجبرتى ، الشيخ على ، زينب بنت الإمام القاضى عبدالرحمن الجوينى ، فلما ماتت تركت لولدى الشيخ «أما كن جارية» وقفتها عليهما .

ومات أبو حسن ، والد الجبرتى ، وعمره ست عشرة سنة ، وعمر ولده شهر واحد ، فكفلته جدته أم أبيه ، وتولت أمه تربيته ، وجعل وصياً عليه الشيخ محمد النشرتى الذى اختاره شيخاً للرواق كأسلافه . وكانت ولادة الشيخ حسن فى سنة ١١١٠هـ (١٦٩٨م) وللشيخ محمد النشرتى ، وكان شيخاً للأزهر ، كثير من الفضل فى تربية حسن الجبرتى ، وكذلك لجدته لأبيه أكبر الفضل فى تهيئة سبيله إلى تلك المكانة الممتازة التى بلغ إليها . فقد كانت سيدة ذات ثراء ، لها بيت يشرف على النيل بربع الخرنوب . أقام معها فيه حسن فترة من الزمن يغدو منه ويروح إلى الجامع الأزهر ومعه خادم . ثم احترق هذا المنزل واحترقت معه « أشياء كثيرة من المتاع والصينى القديم » .

---

(١) ص ٣٨٩ — ٣٩٢ جزء ١ .

وانتقلت الجدة إلى مصر ، وكان يذهب معها إلى مكان لها بمصر العتيقة فى أيام النيل « بقصد النزهة » وهى التى أعانته على طلب العلم ، وأنفقت عليه بسخاء . وكانت لها أملاك وعقارات وقفت عليه منها وكالة بالصنادقية وما حولها من الحوانيت ، وأخرى بالغورية ومرجوش ومنزلا بجوار المدرسة الاقبغاوية . ووقفت أيضاً على وجوه البر .

وتزوجت جدته هذه بعد وفاة زوجها ، بالأمير على أغا الطورى ، وكان حاكما على قلاع الطور والسويس والمويلح ، وكذلك تزوج الشيخ حسن ابنة الأمير على أغا هذا .

ولما مات على أغا نصب الشيخ حسن مكانه فى حكم هذه القلاع ، وكان هذا العمل غريباً عليه ، وهو من العلماء ، ولذلك لم يطل شغله له ، فقد أرسل خادماً له يسمى سليماناً الحصافى مشرفاً على قلعة مويلح فقتل هناك ، فتكدر الشيخ وترك هذا العمل وأقبل على الاشتغال بالعلم والتفرغ له . وماتت زوجه ، بنت على أغا ، فتزوج بنت رمضان جلبى بن يوسف المعروف بالخشاب ، « وهم بيت مجد وثروة ببولاق ، ولهم أملاك وعقارات وأوقاف » وكان رمضان جلبى هذا ، مع ثروته ، « إنساناً حسناً رقيق الحاشية » يقول الشعر ويقتنى الكتب .

ومات رمضان جلبى فى سنة ١١٣٩ ، وبقيت ابنته فى عصمة الشيخ حسن حتى ماتت سنة ١١٨٢ عن ستين سنة ، وكانت بنت رمضان جلبى هذه زوجاً بارة بوالد الجبرتى مطيعة له ، تشترى له الجوارى الحسان ، من مالها ، وتزينهن بالحلى والملابس ، وتقدمهن إليه ، وتعتقد أن فى ذلك مثوبة لها ، وكان يتزوج عليها كثيراً من الحرائر ، ويشترى الجوارى ، فلا تتأثر بذلك ، ولا تتحرك عندها الغيرة .

وقد روى الجبرتى عن زوج أبيه هـــذه قصة غريبة ، خلاصتها أن زوجها عند ما حج فى سنة ١١٥٦ إجتمع به فى مكة شيخ إسمه عمر الحلبى ، وأوصاه بشراء جارية بيضاء دون البلوغ ، وذكر له أوصافاً يرغبها ، فلما جاء الشيخ حسن من الحج ظل يبحث عن طلب صديقه حتى لقيه ، فلما اشترى الجارية وأدخلها عند زوجه وحان موعد رحيلها للشيخ عمر الحلبى ، قالت زوج الشيخ له إنى أحببت

هذه الجارية ولا أقدر على فراقها ، وليس لى أولاد ، وقد جعلتها مثل ابنتى ، وبكت الجارية أيضاً ، ثم دفعت الزوج ثمن الجارية ليشترى به أخرى للشيخ الحلبى ثم أعتقت الجارية وعقدت لزوجها عليها ، وجهزتها وفرشت لها مكاناً مستقلا وكانت لا تقدر على فراقها ساعة . وولدت الجارية لزوجها أولاداً فزاد حب سيدتها لها . وبقيت هذه الجارية زوجاً للشيخ حسن من سنة ١١٦٥ إلى أن مرضت فى سنة ١١٨٢ فمرضت سيدتها لمرضها ، وثقل عليهما المرض ، وقامت الجارية تنظر إلى مولاتها وهى فى غيبوبة ودعت الله أن تموت قبلها ، واستيقظت السيدة فى آخر الليل ووضعت يدها على جسد جاريتها وضرتها النائمة بجوارها وأخذت تناديها باسمها زليخا ، زليخا ، فقالوا لها إنها نائمة ، فقالت إن قلبى يحدثنى أنها ماتت . فلما تحقق لها ذلك جلست تبكى أحر بكاء . ثم استلقت على فراشها وماتت بعد جاريتها بيوم واحد . ويقول الجبرتى ، « وهذا من أعجب ما شاهدته ورأيته ووعيته ، وكان سنى إذ ذاك أربع عشرة سنة »

والد الجبرتى :

وكان الشيخ حسن الجبرتى عالماً من أكبر علماء عصره فى العلوم الشرعية والرياضة . تعلم الخط ، فأجاده ، والنقش على فصوص الخاتم ، فأحكمه ، وتعلم اللغة التركية — وهى لغة أهل السيادة والحكم — واللغة الفارسية فأجادهما ، « حتى أن كثيراً من الأعاجم والأتراك يعتقدون أن أصله من بلادهم ، لفصاحته فى التكلم بلسانهم ولغتهم » ثم اشتغل بالعلوم الرياضية فأتقن منها الفلك ، والهندسة ، والحساب ، والجغرافيا ، والمساحة ، والأوفاق ، وحل الرموز ، وفتح السكنوز ، و « انتهت إليه الرياسة فى الصناعة ، وأذعنت له أهل المعرفة بالطاعة »

ونزل القاهرة عالم متضلع فى الرياضة والحكمة والفلسفة ، اسمه الشيخ حسام الدين الهندى واستقر فى مسجد بمصر القديمة ، فقصده الشيخ وأعجب كلاهما بصاحبه وأحبه ، فلم يزل بالشيخ الهندى حتى نقله إلى داره وأفرد له مكاناً وأكرم نزله وأنفق عليه . وظل مقيماً عنده حتى رحل إلى بلاده .

وأخذ معارف الصوفية ، على الشيخ العارف عبد الخالق بن وفاء ، وكانت له فيها قدم ، وسلك طريق السادة النقشبندية ، وحفظ القرآن فى العاشرة .

وقد تلقى الشيخ حسن عن كبار الشيوخ فى عصره ، فى مصر وغيرها ، فمن شيوخه الشيخ على الصعيدى ، وعلى افندى الداغستانى ، والشيخ عبد ربه سليمان بن أحمد القشتالى الفاسى ، والشيخ عبد اللطيف الشامى ، والشيخ عمر الحلبى ، والشيخ حسين عبد الشكور المكى ، وحسن افندى قطة مسكين ، والشيخ مصطفى العيدروسى ، والشيخ محمد البنوفرى ، وغيرهم كثير . وكان أول شيوخه وهو فى الثالثة عشرة ، الشيخ حسن الشرنبلالى الصغير . وكذلك تلقى عن الشيخ كبار العلماء طبقة بعد طبقة . فمنهم الشيخ أحمد الراشدى ، والشيخ إبراهيم الحلبى والشيخ أحمد العروسى . والشيخ محمد الصبان ، والشيخ محمد الأمير ، والشيخ محمد النفراوى . وتلقى عنه عدد كبير من أهل الروم والشام والمغرب والحجاز والداغستان . وتلقى عنه بعض أمراء المماليك أيضاً علوم الأدب والفقه ، فقد ذكر الجبرتى فى ترجمة عثمان بك ذو الفقار أنه « قرأ على الشيخ الوالد تحفة الملوك فى المذهب ، والمقامات الحريرية ، وكتبها له بخطه الحسن فى خمسين جزءاً » .

(وكان والد الجبرتى يدرس فى الأزهر علوم الحكمة والهيئة والهندسة والتوقيت) ، وهو آخر من درسها فيه . وكانت له ثلاثة بيوت يتنقل بينها . بيت فى الأزبكية ، على شاطئ النيل ، وبيت فى بولاق ، وآخر بالصنادقية ، بجوار الأزهر فكان طلابه وتلامذته يقصدون إليه فى بيته لتلقى الدرس ، وكان يفضل أن يكون ذلك ببيت الصنادقية كيلا يشق عليهم ، وكان بعض تلامذته هؤلاء يقيم فى بيته طاعماً كاسياً ليتعلم ويراجع مايشاء فى مكتبة الشيخ العامرة ، التى جعلها مباحة ميسرة لمن يشاء القراءة والمراجعة والاستفادة . وكان ألصق هؤلاء به الشيخ محمد النفراوى ، والشيخ محمد الصبان ، فقد كانا بمنزلة أولاده لا يفارقانه إلا وقت إلقاء دروسهما . وكان إذا أتاه طالب فرح به ، وأقبل عليه ، ورغبه فى طلب العلم ، وأكرمه ، وخصوصاً إذا كان غريباً ، وربما دعاه للاقامة عنده ، كما فعل مع الشيخ حسام الدين الهندى ، وكما فعل مع الشيخ محمد الغلانى الكشناوى الذى قدم إلى

مصر ثم إلى الحجاز ، فلما عاد منه أنزله عنده هو وزوجه وعبيده وجواريه . وبقى مقيما عنده حتى أتم غالب مؤلفاته ، ومات وهو ضيف عليه ؛ ومن التلاميذ من أقام فى بيت الشيخ الجبرتى عشرين عاماً « لا يتكلف إلى شيء من أمر معاشه ، حتى غسل ثيابه ، من غير ملل ولا ضجر » وصار من جملة عيال الشيخ .

وكان الشيخ كذلك كبير القدر ، جليل المكانة ، واسع الثراء ، طيب العيش . له فى كل بيت من بيوته الثلاثة ، المماليك ، والعبيد ، والجوارى البيض والسود ، وهو ينتقل بين هذه البيوت ، ومعه تلامذته وأصحابه . ليباسط أخصاءه منهم ويمازحهم ، فلم يكن ، كبعض العلماء ، متعنتاً متزمتاً ، يروح عن جلسائه من هؤلاء الخاصة بالمناسبات والنوادر والأدبيات والشعر والمواليا والمجونيات والخطابات اللطيفة والنكات الظريفة ، ويذهب معهم إلى مواطن النزهة . يشتغلون بالعلم ومطارحة المسائل ، وأحياناً بالمباسطة والمفاكهة . وكان ، مع ذلك ، وقوراً محتشماً ، مهيباً محبوباً لا يعادى ولا يخاصم ، ولا يشتغل بأمور الدنيا ، متواضعاً قنوعاً ، مقبلا على الكبير والصغير على سجيته ، ولا يدعى علماً ولا مشيخة ، ولا يرضى أن تقبل يده ، حتى من تلاميذه . له منزلة كبيرة عند الأمراء والولاة والأعيان ، يزورهم ويزورونه ، ويتشفع به إليهم الناس فتقضى حاجاتهم . وكان من أصدقائه من ولاة مصر ، على باشا الحكيم ، وراغب باشا ، وأحمد باشا كور — أى الأعور — ومن أمراء المماليك عثمان بك ذو الفقار ، حج معه ثلاث مرات من ماله الخاص ، ولم يقبل من عثمان بك ، وكان أميراً على الحج ، سوى الهدايا .

وأراد الأمير إبراهيم كتخدا أن يشترى له داراً واسعة أو يبنيها ، بدلاً من داره التى بالصنادقية ، فلم يقبل ، وكذلك عبد الرحمن كتخدا . ولم يستطع أحدهما أن يجبره على ذلك لمكانته وفضله . وراسله سلطان تركيا ، السلطان مصطفى ،[(١)] وأرسل إليه الهدايا والصلات والكتب . وكانت لهذا السلطان معرفة وعناية بعلوم الرياضة والنجوم . وكذلك أهديت للشيخ الهدايا من ولاة تونس ، والجزائر ، وأكابر الدولة فى تركيا . يذكر الجبرتى ، فى حوادث شهر شوال من سنة ١١٨٢

(١) تولى السلطنة سنة ١١٧١ ومات فى سنة ١١٨٧ [١٧٥٧ — ١٧٧٣ م] .

أن على بك الكبير أرسل هدية حافلة وخيولا مصرية ، إلى السلطان ورجال الدولة، وكتب مع هديته رسائل « والتمس من الشيخ الوالد أن يكتب له أيضاً مكاتبات ، لما يعتقده من قبول كلامه وإشارته عندهم »وقد طلب على بك فى رسائله تلك عزل عثمان بك العظم من ولاية الشام . وكان على بك الكبير صديقاً للشيخ ، كبير الثقة فيه ، كثير المحبة له .

وفى ترجمة الأمير أحمد البارودى — وفيات سنة ١١٨٨ — أنه كان يزور الشيخ حسن الجبرتى فى بيته كل يوم جمعة ، وأنه التقى به مرة فى الطريق ، وهو راكب فى أبهته ، والشيخ راكب على بغلته ، فعند ما رآه نزل عن جواده ، وقبل يده ، فأكبر الشيخ ذلك واستحى منه واستعظمه . والتمس من الأمير أن يقيد به بعض الطلبة ليقرئه شيئاً من الفقه والدين ، فقيّد به الشيخ عبد الرحمن العريشى ، الذى تولى مشيخة الأزهر فيما بعد .

وكان الشيخ حسن محباً للكتب جماعاً لها ، يبذل فى اقتنائها المال الكثير ، فكانت داره عامرة بالكتب النادرة وبعضها باللغة التركية والفارسية ، مثل الشاهنامه وتواريخ العجم ،[1] وفيها آلات فلكية وهندسية . وأفرد فى بيته مكاناً خاصاً جمع فيه الكتب المتداولة بين علماء عصره فى الفقه ، والحديث والتفسير والتوحيد والمنطق واللغة وغيرها ، فكان العلماء والطلاب يجيئون هذا المكان ويأخذون ما يشاؤون من الكتب بغير استئذان ، وكان منهم من يأخذ الكتاب ولا يرده ، ومنهم من يأخذ كتاباً ويرد غيره ، والشيخ سمح لا يمنع . وكانت عنده أيضاً « التشاويه والتصاوير البديعة الصنعة ، الغريبة الشكل . وكذلك الآلات الفلكية من الكرات النحاس ، وآلات الإرتفاع والميّالات والأرصاد والأسطرلابات والأرباع والعدد الهندسية ، وأدوات غالب الصناع ، مثل النجارين والخراطين والحدادين والسمكرية والمجلدين والنقاشين والصاغة والرسامين » ، وكان يجمع الحاذقين من أهل هذه الصناعات عنده ليتعلم منهم ، ويعلمهم ، حتى تعلم خدمه بعض هذه

(١) كان فى خزانة كتبه كتاب زيج الراصد السمرقندى باللغة الفارسية ، وكان يقول إنه ليس فى الدنيا من هذا الزيج سوى ثلاث نسخ ، ونسخته مكتوب عليها بخط رستم شاه أنها شريت لدار سلطنة هراة بأثنى عشر ألف دينار .

الصناعات فصاروا « يقطعون البلاط بالمناشير ويمسحونه بالماسح الحديد والمبارد، ويهندسون اعتداله بالمساطر والقياسات بالبيا كير ويرسمونه أيضاً » .

ولما كثر عنده الراغبون فى تعلم هذه الصناعات جعل لهم معلمين يعلمونهم ، كان الطالب من أبناء العرب يتقيد بالشيخ محمد النفراوى ، وإن كان من الأعاجم تقيد بمحمود أفندى النيش . وانصرف هو بعد ذلك إلى دراسة الفقه والفتوى ، وكان إماما فى مذهب أبى حنيفة ، وقد رسم بنفسه كثيراً من المنحرفات والمزاول على الرخام والبلاط ونصبها فى مساجد كثيرة كالأزهر ، والامام الشافعى ، وقوصون والأشرفية ، والسادات .

وتجاوزت شهرة الجبرتى حدود مصر والبلاد الإسلامية ، فحضر إليه طلاب من الأفرنج — فى سنة ١١٥٩ — ليتعلموا عنده علم الهندسة ، وأهدوا إليه من صنائعهم وآلاتهم أشياء نفيسة ثم « ذهبوا إلى بلادهم ، ونشروا بها ذلك العلم ، وأخرجوه من القوة إلى الفعل » وضعوا به طواحين الهواء ، وآلات جر الأثقال واستنباط المياه .

واشتغل الشيخ حسن الجبرتى أيضاً بعلوم الطب ، وكان يضع خبرته فى ذلك لخير الناس ونفعهم ، كان الشيخ إبراهيم الصيحانى الغزى ، مفتى الحنفية فى غزة ، من تلاميذه فى الأزهر . فلما عاد إلى بلده كان يرسل إلى شيخه فى كل سنة « جانبا من اللوز المر فى غلق ، مقدار عشرين رطلا ، فنخرج منه دهنه ونرفعه فى الزجاج لنفع الناس فى الدهن ومعالجات بعض الأمراض والجروحات » .

وفى سنة ١١٧٢ كان فساد الموازين قد أصبح مشكلة كبرى للناس وللحكام فى مصر ، فاشتغل الشيخ بإصلاحها وأحضر الصناع لذلك من الحدادين والسباكين وحرر المثاقيل الصنج ورسمها على أصولها وهندستها .

وأنفق فى ذلك أموالا من عنده ، ثم أحضر كبار القبانية والوزّانين وعرفهم طريق الصواب ، وأصلحوا آلتهم ، واستمر العمل فى ذلك أشهراً ، ثم ألف لهم فى ذلك كتابا سماه « الدر الثمين فى علم الموازين » .

وكان الشيخ أيضاً يقول الشعر ، وقد أورد الجبرتى من شعر أبيه شيئا قليلا

بعضه فى النحو ، وبعضه فى ذكر من يدخل الجنة من الحيوان ، كناقة صالح ، وعجل إبراهيم ، والحوت والبقرة وغيرها ، ومنه شعر فى نظم ساعات النهار ، وبعض نصائح طبية . وكله شعر تافه ثقيل ، كشعر الفقهاء .

أما مؤلفاته ، التى دونها ابنه عبد الرحمن ، فهى تدل على ثقافته المتنوعة المختلفة ، فمن ذلك كتبه : نزهة العين فى زكاة المعدنين ، والأقوال المعربة عن أحوال الأشربة ، وكشف اللثام عن وجوه مخدرات النصف الأول من ذوى الأرحام ، وبلوغ الآمال فى كيفية الاستقبال ، ومؤلفات أخرى فى العروض ، وشرح الدر المختار ، ومناسك الحج ، وتقييدات على العصام والحفيد والمطول والمواقف والهداية ، وحاشية على شرح قاضى زاده على الجغمينى ، وبراهين هندسية شتى ، وغير ذلك .

ومع هذه المكانة المرموقة ، التى بلغها حسن الجبرتى ، وما كان له من جاه ومجد وعلم ، فقد كان متواضعاً ، « يجلس فى آخر المجالس على أى هيئة كان ، بعمامة أو بدونها ويلبس أى لباس ، ويتحزم ولو بكنار الجوخ ، أو خرقة أو شال كشميرى ، ولا ينام على فراش ممهد ، بل كيفما اتفق ، وكان أكثر نومه وهو جالس » ، وكان شجاعاً لا يحب الرياء ، يصوم رجب وشعبان ورمضان ولا يقول إنه صائم . أراد الأمير يوسف الكبير أن يدخل مسجداً فى عمارة بيته وسأل الشيخ أن يفتيه بهدمه وبنائه فى مكان آخر ، فمنعه من ذلك فامتنع . وكانت له فى العلم والفتيا مكانة كبيرة . فانكب عليه الناس يستفتونه ، وتقرر فى أذهانهم تحريه الحق . حتى أن القضاة لا يثقون إلا بفتواه . وكان كريما سمح النفس ، يكرم الضيف ، ويتلقف الوافد ، ويراعى الأقارب والأجانب بشوشا ، يخدم جلاسه بنفسه .

قدم مصر الشيخ إبراهيم بن أبى البركات العباسى المشهور بالسويدى ، فى سنة ١١٧٥ ، فأنزله الشيخ فى بيته ، وصار ينتقل معه ومع تلاميذه إلى بولاق وغيرها من المتنزهات ، ثم حل بالسويدى مرض فأنزله ببيته فى بولاق على النيل وقيد ، لخدمته جماعة من عبيده ، فكان كلما اختلى بنفسه ، وهبت عليه نسمات النيل المنعشة ، أخذ القلم ونقش على جدران البيت وأخشابه قصائد المدح فى مضيفة العالم الكريم ، وفى وصف النيل ورياضه وزهوره فكتب من ذلك عشرين قصيدة ، ظلت منقوشة

فى أماكنها زمناً ثم اندرست

وكان الشيخ محمد النفراوى قد بلغ النهاية فى العلوم الشرعية ، وأرد أن يتعلم الحكمة والرياضة ، فأحضره والده للشيخ حسن فى سنة ١١٧١ فرحب به واغتبط بما رأى من حسن استعداده ، وأعطاه مفتاح خزانة منزله ليضع فيها كتبه ومتاعه واشترى له حماراً ، ورتب له مصروفاً وكسوة . وأرسل الشيخ أحمد الدمنهورى خمسة أسئلة إلى على بك الكبير وقال له : سل فيها العلماء الذين يترددون عليك إن كانوا يزعمون أنهم علماء ، فأعطاها على بك للشيخ حسن . فكان لبقاً حكيما مترفعاً حيث قال إنها وإن كانت من عويصات المسائل يجيب عنها ولدنا الشيخ محمد النفراوى . فمكن ، مع لباقته وحكمته وترفعه ، لتلميذه أن ينال شهرة ومكانة بين العلماء ، وعند على بك .

وكانت تقال فى الشيخ المدائح ، فكان ، تواضعاً منه ، يقبلها ويجيز قائلها ، ثم يمزقها . وكان ، مع ثرائه العريض ، وما بلغ من مكانة فى العلم ، وفى الحياة ، يشتغل يالتجارة .

وهكذا عاش والد الجبرتى إلى أن جاءت سنة ١١٧٩ فتوفى ابنه ، أبو الفلاح على ، أخو الجبرتى لأبيه ، وكانت عمره إثنى عشرة سنة ، وكان الشيخ قد أنجب من زوجاته وسراريه أكثر من أربعين مولوداً لم يعيش منهم سوى على هذا ، وعبد الرحمن ، فلما مات ابنه على ثقل عليه الحزن ، وتوالت عليه الآلام والأمراض ، وترك بيوته على النيل ولزم بيت الصنادقية ، وقلت حركته ، ولكنه لم ينقطع عن الأملاء والأفادة والتحقيق ، ولم يزل كذلك حتى تعلل بالهيضة الصفراوية إثنى عشر يوما ، ثم مات عن سبع وسبعين سنة فى يوم الثلاثاء غرة صفر من سنة ١١٨٨ — أبريل سنة ١٧٧٤ — وصلى عليه فى الأزهر بمشهد حافل جداً ، ودفن عند أسلافه بتربة الصحراء ، بجوار الشمس البابلى ، والخطيب الشربينى ، وقيلت فيه المراثى الكثيرة من كبار شعراء العصر .

ذلك هو ، أبو التدانى ، نور الدين حسن الجبرتى ، أبو عبد الرحمن .

عبد الرحمن الجبرتي :

أما ابنه ، أبو العزم عبد الرحمن ، صاحب عجائب الآثار ، فقد ولدته إحدى السراري في سنة ١١٦٧ هـ « ١٧٥٤ م » بالقاهرة ، ولم أعرف أن التاريخ ذكر لنا عن هذه الجارية شيئاً ، هل كانت بيضاء أم سوداء ، ومن أي جنس أو بلد هي ، ولكني أعتقد أنها كانت بيضاء .

أرسله أبوه ، وهو طفل إلى مدرسة السنانية ، القريبة من منزلهم بالصنادقية ، ليحفظ فيها القرآن ، فإذا عاد تلقى على أبيه وعلى بعض الشيوخ الذين يترددون على بيته ، بعض العلوم . وأتم حفظ القرآن الكريم في سن الحادية عشرة ، ثم رغب الشيخ عبد الرحمن العريشي إلى في أبيه أن يلحقه برواق الشوام ، ليلقنه مذهب الحنفية ، فسلمه إليه .

وبادر أبوه فزوجه ، وهو في الرابعة عشر ، في سنة ١١٨٢ ، ولم يذكر لنا التاريخ أيضاً عن هذه الزوج شيئاً ، وقد سجل شاعر العصر الشيخ عبد الله الأدكاوي هذه الزيجة بقصيدة قدمها إلى والد الجبرتي قال في ختامها وبيت تاريخها : —

هذا هناء محبك الـ ... داعي لكم بسمو قدرك
والحال قـد أرّختـه ... شمس البها زفت لبدرك

وظل عبد الرحمن يتردد على حلقات الشيوخ في الأزهر بعد ذلك ، ثم يمضي إلى بيته فيتلقاه أبوه متحدثاً إليه في التاريخ وأحداث عصره ، فقد كان أبوه محبا للقصص ، والأغاني ، ودارساً معه ما يشتغل به الشيخ من علوم الفلك والرياضة والحكمة . وكذلك كان زوار الشيخ من كبار العلماء والشعراء والأمراء يلقاهم الجبرتي الصغير فيتحدثون إليه ويحدثهم ، ويفيد من علمهم وأدبهم وحسن توجيههم . وتتمكن العلائق بينه وبين الأمراء منهم خاصة .

وبقي حاله كذلك حتى مات أبوه ، وهو في سن الثانية والعشرين ، وترك له ثروة ضخمة ، مادية وأدبية . ترك له من الثروة المادية بيوته في بولاق والصنادقية ومصر القديمة ، وأرضا له بالقرب من كفر الزيات في بلدة « إبيار » وأوقافا كبيرة على مسجد بين رشيد والأسكندرية ، على بحيرة إدكو ، تنظر عليها بعد أبيه ، كان

أوقفها جده علىّ فى أيام الملك الأشرف قايتباى ، وكان الملك الأشرف يعتقد فى هذا الجد اعتقاداً كبيراً . وكذلك كان الجبرتى شيخاً على مقبرة الطحاوى بالقرافة .

وكان هذا الوقف « عدة أماكن وقيعان ، وأنوال حياكة ، وبساتين ، ونخيل كثيرة » . وكان بيته على النيل يرتفع عن مستوى الماء عشرين درجة ، وذكر الجبرتى أنه أجرى عمارة فى بيت الصنادقية ، بدأها فى سنة ١١٩١ وأتمها فى السنة الثانية . وأنشأ الشيخ مصطفى الصاوى فى ذلك قصيدة نقشها الجبرتى فى مجلسه من البيت .

وقد جعل الجبرتى من بيته ذاك ، بهذه العمارة ، قصراً أنيقاً ، فيه حديقة صغيرة ، وبئر ، ومساكن للخدم والعبيد ، وأخرى للضيوف . وحجرة متسعة للمذاكرة مع الطلبة ، والتدريس ، وأقام فيه أعمدة من الرخام المختلف الألوان ، نقش جدرانه بالخشب المحفور ، والقيشانى الملون ، ونثر فى حجراته الآنية الفاخرة ، والأرائك الثمينة ، وفرش أرضها بالسجاجيد الغالية والطراريح الحريرية ، ولبّس أبوابه بالصدف والنحاس البراق ، وعلق الثريات من البلور ، وجعل فيه حجرة رحبة للكتب ، وأنفق فى هذه العمارة مالا كثيراً .

وسكن الجبرتى ، فترة من الزمن ، فى بيت يطل على بركة الرطلى . وكانت ، كما يقول ، « يسكنها أهل الرفاهية من أهل البلد ، لطيب هوائها وانكشاف الريح البحرى ، وليس فى برها الآخر سوى الأشجار والمزارع ، وتعبرها المراكب والسفائن » .

أما الثروة الأدبية التى خلفها له أبوه ، فهى تلك المكانة المرموقة ، والمحبة التى ربطت بينه وبين علماء عصره وأهل الحكم والثراء فيه ، وذلك المجد الأدبى والعلمى الذى صار إليه اسم الجبرتى ، واسم آبائه وأجداده من قبل ، وتلك الكنوز العظيمة النادرة من الكتب ، التى أفنى أبوه فى جمعها مالا عظيما وجهداً عظيما .

بقى الجبرتى ، بعد وفاة أبيه ، متصلا بالأزهر وشيوخه ، يحضر دروسهم فيه ويزورونه فى بيته كما كانوا يزورون أباه من قبل ، باحثين مدارسين ، فلما كبر الجبرتى وأجازته شيوخه أخـذ يلقى دروساً فى الأزهر وفى بعض المساجد ، وفى بيته .

وقدم مصر ، فى السنة التى ولد فيها الجبرتى ، عالم كبير من اليمن ، هو السيد مرتضى الزبيدى ، صاحب تاج العروس ، فلما تعرف إليه الجبرتى فيما بعد ، أعجب به ولازمه وصادقه ، وأصبح من المواظبين على دروسه مع طائفة كبيرة من إخوانه ، الذين تبوؤا ، فيما بعد ، مكان الصدارة العلمية والأدبية فى مصر ، فدرس لهم الزبيدى فصيح تعلب ، وفقه اللغة للثعالبى ، وأدب الـكاتب لابن قتيبة ، وسمعوا كثيراً من شرحه للقاموس ، كما سمعوا فى الأمالى والشمائل . ودرس الجبرتى علوم الفقه ، ثم مال ميل أبيه لدراسة الفلك والحساب والهندسة . ومال إلى التصوف ، وكان من مريدى الشيخ محمود الـكردى يرافقة فى ذلك الشيخ عبد الله الشرقاوى . ودرس الطب وألف فيه .

وفى أواخر سنة ١١٩٥ تزوج الجبرتى مرة أخرى ، ولم يقل لنا أين ذهبت زوجه الأولى ، تزوج ربيبة صديقه على عبد الله درويش الرومى ، برغبة منه . وكان الرومى هذا رجلا يعمل عند المماليك ، « حسن السمت ، نظيف الثيات ، وجيه الطلعة ، مهيب الشكل ، سليم الطوية ، مقبول الروحانية ، نيف على التسعين ولم يسقط له سن ، ويكسر اللوزه بأسنانه » وكان مثقفاً غزير الأطلاع ، وربيبة على الرومى هذه هى التى أنجبت للجبرتى ولده خليلا ، ومات صهره هذا فى سنة ١١٩٩ﻫ وظل الجبرتى يفيد ويستفيد ، ويباشر شئونه الخاصة ، ويراجع فى مكتبة أبيـه الحافلة ، حتى جاءت الحملة الفرنسية إلى مصر ، فى صفر من سنة ١٢١٣ ﻫ ١٧٩٨م فترك القاهرة إلى مزرعته فى « إبيار » ثم عاد إليها بعد قليل ، عندما أرسل العلماء ، بأشارة نابليون ، إليه وإلى غيره ممن هاجروا ، ليعودوا . ولما ألف الجنرال منو ، قائد الجيش الفرنسى بعد نابليون ، الديوان الثالث . اختير الجبرتى عضواً فيه ، وكان أعضاؤه تسعة . ولما دخل العثمانيون القاهرة بقيادة يوسف باشا ، لأخلائها من

الفرنسيين ، وأخـذ هؤلاء بعض كبار الشيوخ من أعضاء الديوان رهائن ، بقى الجبرتى . والبكرى ، والسرسى والأمير، أحراراً ، وأمرهم الفرنسيون بأن « يكون نظرهم على البلد » أى يكون لهم الإشراف على شئون القاهرة .

وبعد انتهاء الحملة الفرنسية على مصر ، ودخولها مرة أخرى فى حكم الدولة العثمانية . دون حوادث هذه الفترة فى كتاب سماه « مظهر التقديس بذهاب دولة الفرنسين »، وكان له من مكانته إذ ذاك ، وعضويته للديوان، ومن علاقاته الخاصة ، وصداقته الوطيدة للشيخ إسماعيل الخشاب ، كاتم أسرار الديوان ، ما يمـكنه من معرفة دقائق الأسرار . وقد أهدى كتابه مظهر التقديس هذا إلى الوزير يوسف باشا ، فلما عاد إلى اسطنبول عرضه على السلطان سليم الثالث ، فأمر كبير اطبائه مصطفى بهجت بنقله إلى اللغة التركية ، ففرغ من ذلك سنة ١٢٢٢ — ١٨٠٧ م وترجمه بعد ذلك إلى هذه اللغة أحمد أفندى عاصم سنة ١٨١٠ .

ويبدو مما كتبه الجبرتى فى الفصول الأخيرة من كتابه ، أنه كان يشكو الأسقام والمرض . يشير إلى ذلك فى آخر حديثه عن سنة ١٢٢٥ حيث يذكر « تشويش البال ، وهم العيال ، وتكدر الحال ، وكثرة الأشتغال ، وضعف البدن ، وضيق العطن » .

ويذكر كثير من المؤرخين ، أن الجبرتى اشتغل فى أواخر حياته مؤقتاً للصلاة وهلالى رمضان وشوال فى بلاط محمد على ، ولم يذكر هو شيئاً من ذلك فى تاريخه ، وبعض المؤرخين يقول إن الذى تولى هذا العمل هو ابنه خليل .

وقد أصيب الجبرتى فى آخر حياته بمحنة قاسية، ففى صباح الثامن والعشرين من رمضان سنة ١٢٣٧ — ١٩ يونيو ١٨٢٢ — كان خليل عائد من قصر محمد على فى شبرا ، بعد صلاة الفجر ، فخرج عليه جماعة أخذوا يضربونه حتى قضوا عليه ، وخنقوه . ثم ربطوه برجل حماره . فلما أصبح الصبح عرفه الناس ، ووجدوا على صدره دفاتر مكتوبة ، وأسطرلابا لرصد النجوم والـكواكب .

وتناقل الناس ، والمؤرخون من بعدهم ، شائعات عن اشتراك سليمان أغا

السلحدار ، ومحمد بك الدفتردار ، صهر محمد على ، فى هذه المؤامرة ، وعن استئذان الدفتردار لمحمد على فى تدبيرها . وهى شائعات يذكرها المؤرخون ليفندوها . وقد وردت فى دائرة المعارف الإسلامية على أنها صحيحة ، وأن الذى قتل هو الجبرتى نفسه[١] .

وقد أصيب الجبرتى بموت ابنه على هذه الصورة ، وهو بين المرض والكبر والضيق ، بنازلة شديدة حطمت حياته ، فترك الكتابة والتأليف ، وانقطع عن القراءة ، وألح عليه الحزن ، وأكثر من البكاء ، حتى ذهب بصره . وبقى فى داره مريضاً ، حزيناً ، أعمى ، حتى مات فى سنة ١٢٤١هـ — ١٨٢٥م[٢] وأعقب بنتاً ، عاشت مغمورة من بعده ، وولداً ، أو ولدين ، على خلاف بين المؤرخين .

وبعد وفاته احترق منزله بالصنادقية ، واحترقت معه المكتبة العظيمة الحافلة التى تركها له أبوه ؛ والتى زاد عليها هو زيادة كبيرة . ويذكر بعض المؤرخين أن جزءاً من تاريخ الجبرتى ، احترق ايضاً . وكان يتضمن حوادث ما بعد سنة ١٢٣٦ ودفن الجبرتى مع أبيه ، ببستان العلماء .

صفاته وأخلاقه :

كان الجبرتى ، كما رأينا ، ورث عن أبيه وعن أسرته مالا ومجداً ، وهو مع ذلك متواضع . يذكر فيما سجله من مناقشات أعضاء الديوان أيام نابليون ، أشياء يقول إن « بعض الأعضاء » رد بها على الوكيل فورييه ، ولكنه لا ينسب ذلك لنفسه

---

(١) مادة « الجبرتى » ص ٢٧٩ من العدد الثامن ، المجلد السادس من الترجمة العربية وفى مقدمة الترجمة الفرنسية لعجائب الآثار أيضاً أن الذى قتل هو الجبرتى نفسه .

(٢) اختلف المؤرخون فى تحديد تاريخ وفاته . وأكثرهم على أنها كانت يوم ٢٨ رمضان سنة ١٢٣٧ ولكن المرحوم جورجى زيدان أثبت — فى الجزء الرابع من تاريخ أدب اللغة العربية — أنه عاش إلى نصف ربيع الأول من سنة ١٢٤٠ كما حقق الأستاذ خليلى شيبوب من طريق آخر — فى كتابه « عبد الرحمن الجبرتى » — أنه مات فى هذا التاريخ الذى ذكرته . وذكر تلميذاه ، البنانى والخضراوى ، فى نزهة الفكر ، أنه عاش إلى سنة ١٨٢٦

ويكتب عن وطنه بروح الاعتزاز والفخر ، وعن أسرته ، ولكنه يخشى أن ينساق إلى التفاخر فيستدرك قائلا ، إنه يذكر ذلك « بقصد التعريف بالنسبة » وعند ما ذكر أعضاء الديوان عمّى فى اسمه فقال « وكاتبه » . ولعله فعل ذلك عامداً ليحتاط لنفسه من غضب المصريين أو العثمانيين بعد عودتهم للقاهرة ، وهو إلى ذلك رجل خيّر ، رقيق العاطفة ، نبيل الخلق . ضاقت الحياة بصهره ، على درويش ، وتعطلت أسبابه ، فنقله وأسرته إلى بيته ، وعاش معه حتى مات ، وتولى دفنه ، وأثنى عليه ثناء كبيراً ، وقال إنه أفاد منه فى التراجم التى ضمنها كتابه .

وكان عبد الرحمن رجلا سمحاً يقدر الجمال ، متأنقاً فى حياته ، كان أصدقاءه الخلص كالشيخ حسن العطار والشيخ إسماعيل الخشاب يدعونه إلى مجالس الغناء . حيث يقول ثانيهما :

يا سيدى وسندى ويا عريق المحتد
يا راحتى ، وراحتى وساعدى ، وعضدى
أدعوك تأتى مسرعاً ويا لذاك من يد
نؤم قصراً جامعاً كل المعانى الشرّد
نصغى إلى مزهر مَن أضحى فريد البلد

وكان هو يدعوهما أيضاً إلى منزله حيث يقطعان الليل فى الحديث والسمر والمنادمة، فيجولان فى كل فن من الفنون ، « تارة يتشاكيان تغير الزمان ، وتكدر الإخوان، وأخرى يترنمان بمحاسن الغزلان ، وما وقع لهما من صد وهجران ، ووصل وإحسان » ويلاحظ هنا أن الجبرتى يقول : « تارة يتشاكيان » ، « ويترنمان » ولا يقول : نتشاكى ، ونترنم ، وكان هذان الصديقان كثيراً ما يبيتان عنده .

وعرف الخشاب فتى فرنسياً جميل الطلعة اسمه ريج ، روى الجبرتى شيئاً من غزله فيه .

ويذكر الجبرتى أنه لقى فى طنطا شيخاً اسمه أحمد السماليجى الشافعى ، كانت له امرأة بارعة الجمال ، وله منها ولد اسمه أحمد « كأنما أفرغ فى قالب الجمال ، وأودع

بعينيه السحر الحلال » ثم يذكره بإعجاب فيقول إنه « حضر إلى ، وسلم على ، وآنسنى بحسن ألفاظه ، وجذبنى بسحر ألحاظه » . ويقول الجبرتى فى ترجمة بعض أصدقائه إنه « كان يحب الجمال » ثم يتبع ذلك — وكأنه خشى التهمة — بأنه كان لا يترك الصلاة ، أينما كان .

ومما يدل على رقة العاطفة أن الجبرتى يمدح صديقه هذا بأنه كان يمر فى الطريق يفرق الطعام على الفقراء ، والأطفال و « الكلاب » .

وكانت فيه صفات العالم ، كان يسهر الليل يراعى مطالع النجوم . ولما قامت ثورة القاهرة على الفرنسيين ، أتلف العامة فيما أتلفوا أجهزة علمية وفلكية ، فأبدى شديد أسفه على ذلك ، وندد بجهل العامة وسفههم ، وحزن على فقد هذه الأدوات التى لا تقدر بقيمة « عند من يعرف صنعتها » . وعرض عليه رجل جزائرى أن يشترى كتاب زيج الراصد السمرقندى ، فأبى أن يبيعه بأى ثمن . ولما علم أن الفرنسيين لديهم كتب ذات قيمة ، زار الدار التى خصصوها لذلك ، وأبدى إعجابه بها ، وذكر النظام الذى وضعوه للمطالعة فيها ، وبعض الكتب التى رآها . وأثنى على نشاطهم العلمى ورغبتهم فى البحث والمعرفة وإخلاصهم .

وكانت فيه شجاعة العالم أيضاً ، فكبار المماليك أصدقاؤه وأصدقاء أبيه ، وكذلك كثير من الولاة والسادة الحاكمين ، وكبار الشيوخ إما أساتذته أو أصدقاؤه ، ومع ذلك لم يعف أحداً منهم من النقد والمؤاخذة ، إذا وجد فى صفاته أو سلوكه ما يوجب النقد . وقد ذكر فى مقدمة كتابه أنه لم « يقصد بجمعه خدمة ذى جاه كبير ، أو طاعة وزير أو أمير ، ولم يداهن فيه دولة بنفاق ، أو مدح أو ذم مباين للأخلاق ، لميل نفسانى ، أو غرض جسمانى » . وقد لازمته هذه الشجاعة فعلا فى جميع ما دون من حوادث التاريخ الذى سمعها أو شاهدها . كما التزم أيضاً أدق شروط الأمانة العلمية . شأن العلماء ، فهو يدون وثائق الحملة الفرنسية ، والشروط التى وضعت بين رجالها ورجال الدولة العلية للانسحاب من مصر ، ثم يقول إنه نقل ذلك بحروفه « وما فيه من خطأ أو تحريف فهو طبق الأصل المطبوع بالمطبعة الفرنساوية باللغة العربية » .

وكذلك حديثه عن جماعة من علماء الآثار الإنجليز زاروا الهرم الأكبر وأبا الهول، وآثار الفراعنة فى الصعيد. ويسّر لهم محمد على أن يأخذوا من آثار مصر أشياء ذات قيمة شروها بثمن بخس، وأخرجوها من مصر.

وسيجىء هذا وذاك فى موضعه من الكتاب.

وللجبرتى ملاحظات تدل على سلامة الفطرة. من ذلك إعجابه بنابليون لأنه سافر من القاهرة إلى السويس «فلم يكن معه طباخ، ولا فراش، ولا فرش، ولاخيمة» وكان كل ما أخذه معه «ثلاثة طيور دجاج محمرة، ملفوفة فى ورقة».

وهى ملاحظة تدل على حبه للبساطة، وهو غنى مقتدر، وبعده عن المظاهر ومعرفته لأقدار الرجال من تصرفاتهم العادية التى قد يمر بها غيره فلا يستنبط منها شيئاً، ولا تدله على فضيلة أو خصيصة أو محمدة.

وكذلك ثناؤه على الفرنسيين، لأنهم لم يكونوا يتجاوزون الرسوم التى فرضوها على الأقضية، أو رسوم التسجيل. ولأنهم لم يبادروا بقتل سليمان الحلبى، عند ما اغتال الجنرال كليبر، بل حاكموه وسألوه وناقشوه وناقشوا الشهود. وأثنى عليهم لأشياء أخرى كثيرة سنجدها فى مكانها. وهذا كله دليل على رجحان عقله، وسداد تفكيره، وبعده عن التعصب الضيق. كذلك أثنى على الإنجليز، عند ما وصف صديقه الألفى بأنه عند ما سافر إلى بلادهم «تهذبت أخلاقه، بما اطلع عليه من عمارة بلادهم، وحسن سياسة حكامهم، وكثرة أموالهم ورفاهيتهم وصنائعهم، وعدلهم فى رعيتهم — مع كفرهم — بحيث لا يوجد فيهم فقير، ولا مستجد، ولا ذو فاقة ولا محتاج».

ومن سلامة الفطرة إدراكه الفرق بين العقيدة والعمل. فقد ذكر فى سياق حديثه عن دقة رجال الحملة الفرنسية فى صرف العملة، ومقارنة ذلك بما كان يحدث فى غير عهدهم هذه الجملة «... لأن جميع معاملة الكفار سالمة من الغش والنقص، بخلاف معاملات المسلمين».

وهو رقيق العاطفة. ذكر أن محمداً علياً زوج بعض أولاده، فقدمت لأمهم

الهدايا من نساء المماليك والسادة ، وكان بعضهن فى ضيق من العيش ، فاستدن ليقدمن الهدية ، ولـكن السيدة زوج محمد على لم يرق فى عينها بعض الهدايا ، وعابت على صاحباتها ذلك فى المجلس ، وردتها ليقدمن خيراً منها . وقد أفاض الجبرتى فى ذكر أمله لما أصاب هؤلاء النسوة من الـكرب والخجل ، وكسر الخاطر ، وانـكساف البال ، بعد ما أصابهن وأصاب أزواجهن من قسوة محمد على وظلمه .

ويبدو مما كتبه الجبرتى فى مواضع كثيرة متفرقة من كتابه ، أنه كان حر الفـكر ، سلفى العقيدة . فهو كثير النقد للبدع ، وما يصاحب موالد الأولياء ، ومدعى الولاية من الفسق والفجور ، والمغالاة فى مدحهم والتوسل بهم ، ويقول إن فى ذلك خروجاً على الدين ، واتباعاً للشهوات ، وأن الفرنسيين لم يبيحوا إقامتها ويحرصوا عليها ، إلا لهذا السبب . ويسجل منشوراً أرسله الوهابيون إلى مصر ، بعد دخولهم مكة ، وفيه خلاصة دعوتهم ، ثم يعقب على ذلك بقوله « إن كان كذلك فهذا ما ندين الله به نحن أيضاً ، وهو خلاصة لباب التوحيد » ثم يذكر بعض أمهات الـكتب فى مذهب السلف . وفى موضع آخر يقول إن الوهابيين شرطوا على الركب الشامى ألا يجىء إلى الحج بالمحمل والطبول ، فعاد الشاميون ولم يحجوا « ولم يتركوا منا كبيرهم » . فالمحمل وطبوله ، فى نظره ، منـكر . وهو يلقى زعماء الوهابيين الذين حلوا بمصر أسرى أو مهاجرين ، ويتعرف إليهم ، ويصادقهم ، ويثنى على كبيرهم عبدالعزيز ، ثناء خاصاً . وتبدو فيما كتبه عن ذلك سلامة العقيدة والإخلاص . وقد يـكون لموقفه العنيد من محمد على ، دخل فى هذا الثناء .

وللجبرتى ، فى إحدى صفحات الـكتاب نفحة صادقة من الفهم السديد لروح الدين ومن الاشتراكية العاقلة معاً . فهو يذكر ما أخذه الوهابيون من الحجرة النبوية الـكريمة عند فرارهم ، من التحف الـكريمة ، والجواهر النادرة القيمة الغالية الثمن ، وأن بعض الناس عد ذلك من الـكبائر . ثم يقول إن هذه التحف والجواهر « وضعها خساف العقول من الأغنياء ، والملوك والسلاطين الأعاجم وغيرهم ؛ إما حرصاً على الدنيا وكراهة أن يأخذها من يأتى بعدهم ، أو لنوائب الزمان ، فتـكون مدخرة ومحفوظة لوقت الاحتياج إليها فيستعان بها على

الجهاد ودفع الأعداء » ثم يقول إن أخذ هذه الذخائر ليس خروجاً على الدين ، بل الخروج عليه هو كنز الأموال بحجرته — أى حجرة النبى — وحرمان الفقراء والمساكين وأهل العلم وأبناء السبيل الذين يموتون جوعاً .

وفى هذه الصفحة ينتقد الجبرتى ، انتقاداً مراً ، بعض الحكام الذين يسرفون فى أموال المسلمين التى ائتمنوا عليها ، وينفقون النفقات الباهظة فى التفاخر والرفاهية ، ثم يتحايلون على تحصيل المال من رعاياهم بزيادة المكوس والمصادرات والاستيلاء على الأموال بغير حق ، حتى افتقر الرعايا .

وهذه النفحة الاشتراكية ، الإنسانية ، هى التى جعلت الجبرتى ، فى موضع آخر ، يثنى على الفرنسيين لأنهم لم يسخروا العمال الذين كانوا يستخدمونهم لتمهيد الطرق فى القاهرة ، وإقامة المنشئات العامة ، بل كانوا يزيدونهم عن أجرهم المعتاد ويريحونهم بعد الظهر ، ويستعينون بالآلات القريبة المأخذ ، السهلة التناول ، التى تريح العامل وتعينه ، وتقلل من مجهوده ، كعربات نقل الأتربة . وكانت السخرة فى أشق الأعمال ، شيئاً مألوفاً فى ذلك الوقت . وكان موت الفلاحين والعمال من الجهد والإرهاق شيئاً مألوفاً أيضاً وسنجد فى موضع من هذا الكتاب أنهم كانوا يدفنون وفيهم رمق الحياة ، لأنهم عجزوا عن مواصلة العمل وسقطوا من الإعياء .

(ويبدو الجبرتى ، فى مواضع أخرى متفرقة من كتابه ، رجلا ساذجاً ، مؤمناً بالكرامات والخرافات فهو يذكر رجلا كانت الجن تخدمه وتطيعه فيما يأمر ، ثم يقول إن ذلك «لا يستبعد» . ويترجم لرجل أبله كان يزعم أنه يكشف ما فى ضمائر الناس ، ولا يستبعد ذلك أيضاً) . وعندما أمر محمد على ، ووافقه فى ذلك القاضى التركى ، بإجراء الحجر الصحى ، وإقامة « الكرنتيلة » احتياطاً من الطاعون ، لامهما الجبرتى على ذلك ، وقال إن ذلك « من حبهم للدنيا ! » . ويذكر من كرامات سيدى على البيومى أن الجالس إليه كان « يرى وجهه تارة كالوحش ، وتارة كالعجل ، وتارة كالغزال » . ولا غرابة فى ذلك التناقض الظاهرى . فإن

الجبرتى ألف كتابه على فترات متباعدة من الزمن . وكان فى بعض ما سجل من هذه الروايات ، متأثراً بالبيئة ، والصحبة ، واعتقاد الجماهير .

والجبرتى فى كتابه تعبيرات تدل على لباقة وحسن أدب وتلطف ، من ذلك تعبيره الطريف عن قاض جديد قدم مصر من إسلامبول سنة ١٢١٦ بأنه « كان له مسيس من العلم » .

أما ذوقه الأدبى فنستطيع أن نعرفه من اختياره للشعر ، وثنائه على ما يختار . فهو يختار مثلا لشاعر معاصر ، هو ابن الصلاحى [١] هذه الأبيات ، ويثنى عليها : —

جزى الله أنفاس النسيم فإنها
لتعلم سرا فى النفوس لطيفا

أسرت إلى الأغصان ، عند قدومنا ،
حديثاً ، فمدت للسلام كفوفا

وهزت ، سروراً بالتدانى ، معاطفا
وأهدت لنا منها شذا وقطوفا

وهو يختار لهذا الشاعر نفسه قصيدة جيدة طويلة ، أولها : —

بثا على النائى الغريب — جملا من الخبر العجيب
واستوقف الركبان ما — بين الأراكة والكثيب
واستنشد القلب الذى — قد ضاع من بين القلوب
سلبته ، يوم الدوحتين ، طليعة الرشأ الربيب

والأبيات والقصيدة كلتاهما شعر جيد . إذا قارناهما بشعر ذلك العصر خاصة . وليس كل ما اختاره الجبرتى ، وخاصة من النثر ، جيداً ، يدل على تذوق للشعر والنثر ، بل فيه شىء غير قليل من التافه والثقيل ، الذى كان ذوق العصر يسيغه ويألفه ويقبل عليه .

---

(١) توفى سنة ١١٨٠ فى سن الأربعين ، وترجم له الجبرتى وأورد طائفة كبيرة من شعره فى الصفحات ٢٧٠ — ٢٨٦ من الجزء الأول .

ومع إحاطة الجبرتى بكثير من علوم عصره ، واشتغاله بغير ما كانوا يشتغلون به، من علوم الحكمة والرياضة ، وسعة مداركه . فإنه يسمى البحر الأبيض المتوسط « البحر المحيط » .

واشتغل الجبرتى ، مثل أبيه ، بالأمور العامة ، فأفاد الناس من علمه . فالموازين التى حررها أبوه ، عند ما فشا فسادها ، وألف فيها كتابا . اشتغل ابنه بإصلاحها مرة أخرى وتحريرها . ومعرفته بعلم الفلك ، جعلته يستخرج الطالع وحساب النجوم .

وقد ذكر فى بدء حديثه عن سنة ١٢٢١ — وهى السنة الأولى من حكم محمد على — حسابا للنجوم ، وانتقالات الشمس ، وأبراجها ، ومقارناتها ، وحساب الأهلة . ثم قال « وفى ذلك دليل على ثبات دولة القائم ، وتعب الرعية » وقد ثبتت فعلا دولة محمد على ، وصدق حساب الجبرتى وطالعه فى كليهما .

ونستطيع ، بعد ذلك ، أن نعرف شيئاً عن صفات الجبرتى وأخلاقه ، من معرفتنا لخاصة أصدقائه ، وهم الشيخ إسماعيل الخشاب ، والشيخ حسن العطار ، والشيخ أحمد الطحطاوى . أما الأولان فقد ذكرنا طرفا من أخبارهم ، وظرفهم ، ومجالسهم فى بيت الجبرتى ، تلك المجالس التى تمثل فيها بقول الشاعر :

فىَّ انقباض ، وحشمة ، فإذا   رأيت أهل الوفاء والكرم
أرسلت نفسى على سجيتها   وقلت ما قلت ، غير محتشم

وقد توفى الخشاب فى سنة ١٢٣٠ ، أى قبل وفات الجبرتى بأكثر من عشر سنين ، وعاش العطار بعده ، ولكنه لم يشاركه فى خصومة محمد على ، بل صادقه ، وتقرب إليه ، وألف من أجله كتابا فى الرسائل أهداه إليه[١] . وتولى مشيخة الأزهر ، وكان شاعراً ، رحالة ، خبيراً بالحياة . وسنترجم له فى موضعه .

أما ثالثهم : الطحطاوى ، فقد كان تركى الأصل ، شجاعا فى الحق ، عند ما تألب الأشياخ على السيد عمر مكرم ، وكتبوا فيه ما كتبوا ، امتنع عن مسايرتهم والشهادة

(١) رسائل العطار المطبوع فى المطبعة العثمانية بالقاهرة سنة ١٣٠٤ هـ (ص ٣) .

معهم ، وانفرد بذلك دونهم . فغضبوا منه ، وأكثروا من ذمه والكيد له حتى فصل من مشيخة الحنفية ولكنه لم يتراجع ، وأعاده محمد على مرة أخرى لمشيختها . وقد قبلها فى المرة الأولى على كره . وكان الطحطاوى هذا من أحب صحبة الجبرتى له وأقربهم لقلبه .

عجائب الآثار

يقول الجبرتى فى مقدمة كتابه : — « إنى قد سودت أوراقا فى حوادث آخر القرن الثانى عشر وما يليه ، وأوائل الثالث عشر الذى نحن فيه ، جمعت فيها بعض الوقائع إجمالية ، وأخرى محققة تفصيلية ، وغالبها محن أدركناها ، وأمور شاهدناها ، وأستطردت فى ضمن ذلك سوابق سمعتها ، ومن أفواه الشيخة تلقيتها ، وبعض تراجم الأعيان المشهورين ، من العلماء والأمراء المعتبرين ، وذكر لمع من أخبارهم وأحوالهم ، وبعض تواريخ مواليدهم ووفياتهم ، فأحببت جمع شملها وتقييد شواردها فى أوراق منسقة النظام ، مرتبة على السنين والأعوام » .

ويقول فى موضع آخر إنه كان يدون الحوادث فى « طيارات » ثم يعود إليها بالتفصيل والشرح والإفاضة . فهو يسجل فى مذكراته ، الحوادث اليومية . ثم يتوسع فيها . وقد سجل حوادث السنين الأولى رواية عن أبيه وعن شيوخه وأصدقائه الذين شهدوها ، أو سمعوها ، ورجع فى ذلك أيضاً إلى سجلات الدولة من دفاتر الكتبة وغيرها ، وما نقش على حجارة القبور ، وذلك من أول القرن إلى سبعين سنة منه . ثم يقول إن « ما بعد السبعين إلى التسعين أمور شاهدناها ثم نسيناها وتذكرناها ، ومنها إلى وقتنا أمور تعقلناها وقيدناها وسطرناها » .

وظاهر هذا الكلام أنه شاهد بنفسه ، وسجل ما شاهد ، ابتداء مما بعد السبعين من حوادث القرن الثانى عشر ، وذلك ما اعتقده وأقره أكثر مؤرخيه . مع أن سنه إذ ذاك كانت أربع سنين . وأعتقد من الاضطراب الظاهر فى العبارة أنه لا يقصد ذلك ، وربما أراد ما بعد التسعين ، لا السبعين .

وقد ذكر أن الذى دعاه لوضع هذا التاريخ هـو السيد مرتضى الزبيدى ، صاحب تاج العروس ، حيث طلب مفتى دمشق ، السيد محمد خليل الراوى ، من الزبيدى وضع هذا التاريخ . فـكلف به الجبرتى ، وكان يكتب ما يكتب ويقدمه للزبيدى. فلما مات هذا بالطاعون فى سنة ١٢٠٥ استولت زوجه على جميع ماخلفه بما فى ذلك كتبه ، وفيها ما قدمه له الجبرتى من تاريخه ، ثم تزوجت أرملته واستطاع الجبرتى أن يشترى منها ما خلفه السيد فوجد ضمنه أوراقه . وأرسل له مفتى دمشق بعد ذلك يستحثه على أن يتم كتابه ، فكان ذلك مشجعاً جديداً له .

أما الطريقـة التى اتبعها فى تدوين الـكتاب ، فإنها مع استيعابها ووفائها ، أبعدت بينه وبين أن يكون تاريخاً منسقاً متتابعاً ، بل جملته أشبه شيء بجريدة يومية أو أسبوعية ، تسجل الحوادث الواقعة ، بلا ترابط ولا توحيد أو تأليف ، فترى الرجل ، أو الحادث ، يذكر فى مواضع متفرقة متباعدة من الـكتاب حسبما تجيء به ، أو بها ، المناسبة ، لأمر وقع ، أو حادث جرى . وذلك نتيجة طبيعية لسرد الجزئيات على الأيام . وهو يخلط بين الجليل والحقير من الحوادث خلطا ، قد يكون عجيباً ، ولـكنه إحدى نتائج الأمانة والحرص على الاستيعاب .

فهو ، مثلا ، فى حوادث شهر جمادى الثانية من سنة ١٢٢٢ يذكر حادثة شيخ من بنها يدعو الناس لمقاومة سلطة القاهرة ، ويفصل ما جرى له حتى قتل ، ثم يذكر خبر واقعة بين محمد على وشيخ دسوق ، ثم يجمع إلى ذلك حادثة رجل من الدلاتية[١] كان يرمى دجاجة بحجر لتقع من سطح دار إلى أخرى ، ليستحوذ عليها . . . !

أما ترتيب الـكتاب فقد أشار فى مقدمته إلى صفات الحاكم العـادل . وذكر الحديث الذى رواه أبو هريرة « عدل ساعة خير من عبادة سبعين سنة ، قيام ليلها وصيام نهارها » وقال إن سبب هلاك الحاكم هو « إطراح ذوى الفضائل ، واصطناع ذوى الرذائل ، والاستخفاف بعظة الناصح ، والاغترار بتزكية المادح » . ثم ذكر تاريخاً مختصراً للملوك والدول التى حكمت مصر ، بعد ضعف الخلافة العباسية ، حتى

---

(١) إحدي طوائف الجند من أكراد الشام .

الفتح العثمانى . ولخص فى صفحتين حوادث السنين الخمس الأولى من القرن الثانى عشر . ثم أفرد حوادث كل سنة بعد ذلك ، مرتبة بترتيب وقوعها ، على الشهور والأيام . وفى الكتاب إشارة إلى أنه كان يكتبه فى سنة ١٢٢١[1] .

وقد جعل الجبرتى من كتابه ، عجائب الآثار ، سجلا حافلا ، جامعاً ، دقيقاً ، لحوادث السنين التى أرخ لها . لم يترك أمراً جليلا أو صغيراً رآه أو سمع به ، إلا ذكره . يترجم للمماليك ، أمراء مصر ، ولشيوخ الأزهر ، والولاة والأشراف ، والعلماء ، والتجار ، وخفيرباب زويلة ، والخطاطين ، والصناجق ، والأولياء ، وخادم النعال بالمشهد الحسينى ، والشعراء ، والمجذوب الصاحى ، وكان حمالا فى دمياط ، ومدعى النبوة ، والمجانين . ويذكر أسعار الغلال واللحم والسمن واللبن والذهب والتمر والبن والحطب والفحم ووقوع الطواعين والأوبئة ، وعمارات المساجد والبيوت والقنوات والترع والسدود . ويسجل ، فى حوادث سنة ١١٩٠ ، دخول فيل صغير القاهرة ، من الهند ، ويفصل حادث الشيخ صادومة . ولا يترك صغيرة ولا كبيرة . وقال فى كل ذلك « إنى لم أخترع شيئاً من تلقاء نفسى ، والله المطلع على أمرى وحدسى » و : « لا أكتب حادثة حتى أتحقق صحتها بالتواتر والاشتهار » .

وتبدو فى الجزئين الأولين العناية بتراجم الرجال وسير المماليك والعلماء وغيرهم وفى الجزئين الآخرين تبدو العناية أكثر بتسجيل الأحداث والوقائع .

وقد ذكر أنه سيعيد مراجعة كتابه . والظاهر أنه لم يتيسر له أن يفعل . لذلك جاء فيه ذكر بعض الحوادث مكرراً ، وجاء فيه ما يدل على عدم التحرى فهو يقول ، مثلا ، فى ترجمة الشيخ سليمان البجيرمى أنه ولد فى سنة ١١٣١ ، ثم يقول إنه تجاوز المائة ، وهو فى الوقت نفسه ، يحدد تاريخ وفاته بليلة الاثنين ١٣ رمضان من سنة ١٢٢١ فهو بذلك لم يتجاوز المائة ، وإنما عمر إلى التسعين . وفى الكتاب أشياء غير قليلة من ذلك . ولو أنه راجع ما كتب ، ومحصه ، لما وقع فى ذلك ومثله . وليس

---

(١) ص ٣٧٩ من الجزء الثالث .

ذلك تنقيصاً لقيمة الكتاب ، فقد أجمع المؤرخون على أنه مصدر من أوثق وأوفى وأهم المصادر التاريخية عن تلك الفترة . وخاصة فيما سجله عن حوادث عصره التى شاهدها بنفسه .

ومن أجود ما كتبه الجبرتى ، وأكثره أهمية ، ما سجل فيه حوادث الطبقة الأخيرة من المماليك ، وفترة احتلال الفرنسيين لمصر ، وطبيعى أن يكون ذلك ، فكبار المماليك أصدقاء والده ، وكبار الشيوخ الذين كانوا أعضاء فى ديوان نابليون وكذلك كاتم سر الديوان إسماعيل الخشاب ، أصدقاء له ، وهو نفسه كان من أعيان العلماء إذ ذاك ، وكان عضواً فى الديوان الثالث .

ولكن أجود ما كتبه الجبرتى، وأعظمه قيمة ، تلك الصفحات التى صور فيها حياة المجتمع المصرى أصدق صورة وأبرعها وأقواها . وتراجم العلماء والأمراء وكبار الرجال فى عصره ، وفى هذا وذاك لا نجد للجبرتى نظيراً ولا ضريباً بين المؤرخين فى جميع العصور .

أما الفترة التى سجلها من عهد محمد على ، فتتسم بالاختصار ، وعدم الاستيعاب لأنه لم يكن من رجال محمد على ، ولا من المتصلين به أو برجاله . وهو نفسه يعتذر عن تقصيره فى تسجيل حوادث القسم الأخير من كتابه « إذ لا يمكن استيفاؤها ، للتباعد عن مباشرة الأمور » وهو فى تسجيل عهد محمد على يترك بعض الشهور دون أن يذكر حادثاً ما ، وبعضها يدون فيه سطوراً قليلة ، أو حادثاً فرداً . ويحتاط فى الرواية بأن يقول : — على ما بلغنا ، أو على ما قيل ، وأشباه ذلك .

أسلوب الكتاب

أما أسلوب الجبرتى فى كتابه فليس على نسق واحد ، وهذا طبيعى ، ولكنه فى عمومه يكاد أن يكون مصريا عاميا ، كثير الأغلاط . والتعبيرات المصرية الشعبية التى لا يزال كثير منها متداولا إلى الآن ، يجدها القارىء فى كثير منه . فهو يصف حريقاً فى « خطتنا بالصنادقية » فيقول : إن النار « رعت ووجّت » ، ويقول : « إن

النيل « انهبط » ، يعنى انخفض ماؤه ، وأن سعر القمح « شطح » ، أى ارتفع ، و « وثارت كرشة » أى زحام وتدافع ، و « وتحنجل فى مشيه » ، ويذكر كلمة « قشل » و « قشلان » بمعنى مفلس . « وكثر العيـاط » و « زاد تنطيطهم » و « زرع له فوق السطوح » ، إذا مناه الأمانى الكاذبة ، و « رقرق » لذلك فلان أى مال إليه وتأثر به ، و « النفخة » بمعنى الغرور . ونجد من التعابير المصرية ما نزال نسمعه إلى اليوم مثل « كل الوقايع زلابية » ومثل « قارب شيحة » ، فقد ذكر أنه نزل فى سنة ١١٧١ — مطر كثير ، سالت منه السيول ، وأعقبه الطاعون المسمى « بقارب شيحه الذى يأخذ المليح والمليحة » . ونجده يذكر « الـكبّة » وهو يريد الطاعون كما يفعل العامة إلى الآن . وأمثال ذلك . وهو لا يلتزم السجع ، ولـكنه أحياناً يتفصح به فى غير موضعه فيبدو ظريفاً مضحكا ، كذلك السجع الذى التزمه فى وصف قوم فجأهم المطر وهم يسيرون مكرهين فى زفة عروس « فاختل نظامهم ، وابتلت ثيابهم ، وتـكدرت طباعهم ، وانتقضت أوضاعهم ، وزادت وساوسهم ، وتلفت ملابسهم ، وهطل الغيث على الأبريسم والحرير والشالات الـكرخانة والسليمى والـكشمير ، وكثير من النـاس من وقع بعد ما تزحلق ، وصار ثوبه من الوحل أبلق ، ومنهم من ترك الزفة ، وولى هارباً فى عطفة ، يمسح يديه فى الحيط ، مما تلطخ بها من الرطريط » .

وهى صورة ، كما ترى ، مع طرافتها ، صادقة ، حية .

وقد اعتذر هو عن ضعف أسلوبه ، وتقصيره ، وأخطائه بقوله : — « هذا مع اعترافى بقصور الباع ، وفتور الطباع ، فى قوانين المعانى العربية ، ودواوين المثانى الأدبية » . وغير بعيد أن يتعمد الجبرتى شيئاً من الالتواء والغموض ، مراعاة لبعض الاعتبارات والظروف .

وهذا لا يمنع أن يجد القارىء صفحات جيدة الأسلوب بين ثنايا الـكتاب .

التاريخ بلا عاطفة

والجبرتى يكتب تاريخه ، ويسجل فيه أحداث مصر العظيمة التى شهدها ،

أو سمعها ، ولكنه لا يظهر أية عاطفة فيما يكتب ، فهو يلم الشوارد ، ويدون ويقيد ، ولكنه لا يلوّن بشعور ، ولا يضفى بأحساس .

يسجل ، بأمانة وإفاضة ، حوادث الحملة الفرنسية ، ومقاومة المصريين لجنود نابليون فى صفحات طويلة ، ولكن القارىء لا يستبين فيها أى لون من ألوان العاطفة فهو لا يكتب تاريخ هذه الفترة العصيبة الحافلة من تاريخ مصر بروح الوطنى المصرى وإحساسه ، ولا بروح الرجل المسلم ، حيث كانت العاطفة الغالبة المسيطرة . بل هو فى مواضع كثيرة لا يخفى اللوم والضجر من عنف القاهريين وشططهم فى مقاومة الفرنسيين ، ويجعل ذلك من سخف العقل . وهو كذلك ، فى ترجمة الألفى ، يطنب فى مدحه ، ويشيد بفضائله ، ويذكر أنه سافر إلى بلاد الإنجليز مع خمسة عشر من رجاله ، وبقى ضيفا عليهم زمنا ، يطلب حمايتهم ويمكّن لهم من احتلال مصر ، وغاب فى هذه الرحلة سنة وشهراً وبعض أيام ، وعاد من بلادهم يحمل الهدايا الكثيرة ، الغالية ، ثم يقول إن الألفى أيضاً أرسل إلى الإنجليز يستنجدهم أن يعينوه على حرب محمد على وإخراجه من مصر . ومع هذا وذاك لا يجد الجبرتى ، فيما أقدم عليه الألفى أى مبرر للومه ، ولا يشعر القارىء أنه أحس أى عاطفة من العواطف فيما أقدم عليه

ويستطيع القارىء ، وهو يعجب ، أن يجد شيئاً غير قليل من شذوذ العاطفة فى تدوين الجبرتى لحوادث سنة ١٢٢٢ ودخول الانجليز الاسكندرية فيها[١] فهو يكاد يتمنى لو أنهم استطاعوا أن يملكوا القطر كله ، ليساعدوا صديقهم وحليفهم ، الألفى ، ضد محمد على وهو يذكر أميراً من المماليك اسمه عثمان بك حسن ، سعى إليه الإنجليز ليعينهم على بسط سلطانهم على مصر ليمكنوا له وإخوانه ، فى زعمهم ، من حكمها دون محمد على ، ولكن عثمان بك هذا أجاب الإنجليز بأنه هاجر وجاهد الفرنسيين ، وأنه لا يقبل أن يختم حياته بمساعدة الإفرنج على إخوانه المسلمين .

ولعل القارىء يعتقد أن الجبرتى أعجب بإخلاص عثمان بك لدينه ، أو لوطنه ،

---

(١) فى ليلة ٢١ مارس من سنة ١٨٠٧ م

وشكر موقفه هذا ، أو على الأقل، سجل الحوادث بلا عاطفة ، كما هو غالب شأنه. ولكن العجيب أن الجبرتى يصف عثمان بك فى موقفه المشرف هذا بأنه « يدعى الورع » ثم يقول بعد ذلك بقليل أنه « كان ما أراده المولى جل جلاله ، من تعسة الإنجليز ، والقطر وأهله » .

فهو بذلك يشى بسريرته ، ويظهر حزنه المكظوم لحبوط الحملة الانجليزية على مصر .

ولا نستطيع ، على وجه القطع واليقين ، أن نتهم الجبرتى ، لهذا أو لغيره ، فى عاطفته الوطنية أو الدينية وهى العاطفة الغالبة . التى كان يحسها الناس إذ ذاك ويعرفونها .

ولكنا نلاحظ ، إلى جانب حديثه عن عثمان بك حسن ، أن الجنرال منو اختاره عضواً فى الديوان الأخير الذى ألفه . وكان منو أشد القادة الفرنسيين قسوة ، وأبعدهم فى العنف والجبروت على أهل مصر . ونلاحظ أيضاً أن الفرنسيين قبضوا على أربعة من أعضاء هذا الديوان ، عندما قدمت الحملة الإنجليزية التركية ، ولم يقبضوا على الباقين من هؤلاء الأعضاء ، بل تركوهم ليحكموا بهم أهل مصر. وكان الجبرتى من هؤلاء الذين تركوهم ، وخصصوا لكل واحد منهم خادماً يقوم على خدمته ، كما نلاحظ أيضاً أن الجبرتى ، وهو يتحدث عن الثورات التى قام بها أهل القاهرة ضد الفرنسيين ، كان كأنه يلوم زعماءها على عنادهم وصلابتهم، ويتهم بعضهم بأنه من الأغرار الأفاقين . أما سواد الناس من القائمين بالثورة ، فكان يسميهم أحياناً « بالزعر » وأحياناً « بالحرافيش » . ويصفهم بأنهم « حشرات الحسينية ، وزعر الحارات البرانية » أى الذين يسكنون خارج أسوار القاهرة وأبوابها .

وقد يكون لطبيعته من الاعتدال ، والبعد عن العنف ، مدخل فى شعوره هذا وفى حديثه عن الثورة والثائرين . كما كان لها أثر فى رأيه وسلوكه مع الفرنسيين . وقد يكون حبه للعلم ، وتقديره لما شاهد عند علماء الحملة الفرنسية من الكتب والآلات الهندسية والفلكية ، وما رآه المصريون ، لأول مرة ، من مظاهر الحضارة

العلمية ، قد يكون ذلك مما أوجد فى نفسه آصرة من التقدير والقربى — ولا أقول المحبة — بينه وبين الفرنسيين .

وقد ذكر الجبرتى أنه كان يكتب تاريخه فى سنة ١٢٢٠ ، ذكر ذلك مرة فى تدوينه لحوادث سنة ١١٨٦ ومرة أخرى فى حوادث سنة ١١٩٠ . وهو لم يكتبه كله فى ذلك الوقت طبعاً ، بل كتبه على فترات طويلة متباعدة .

تداول الكتاب وطبعه وترجمته

كان تاريخ الجبرتى، أو جزء منه على الأقل ، متداولا ، أو معروفا لبعض الخاصة ، فإنه يذكر فى ترجمة الشيخ عبد الله الشرقاوى أنه ألف كتاباً فى تراجم فقهاء الشافعية ، فنقل تراجم المتأخرين منهم « من تاريخنا هذا بالحرف الواحد » .

وقد بقى الكتاب محجوباً ، أو ممنوعاً ، حتى أذن الخديوى توفيق بطبعه ، فطبع لأول مرة ، فى سنة ١٢٩٧ هـ ، بالمطبعة الأميرية ، وطبع الجزءان الثالث والرابع ، وفيه بعض من تاريخ محمد على ، أولا ، ثم الأول والثانى .

وقد ذكر الجبرتى، فى ختام كتابه أنه سيفصل بعض المسائل فيما «سيتلى عليك إن شاء الله تعالى بكماله فى الجزء الآتى بعد ذلك » ولعل هذه الإشارة هى التى جعلت بعض المؤرخين يعتقد أنه كتب جزءاً خامساً ، أُحرق أو أُعدم ، لاشتماله على أشياء ضد محمد على وحكمه [1] . ولكن الأرجح أن الجبرتى لم يكتب بعد ذلك

---

(١) ذكر جورجى زيدان فى تاريخ آداب اللغة العربية — الجزء الرابع — أنه « يقال إن عجائب الآثار ، بعد طبعه ، صادرته حكومة الخديوى وحذفت منه ما كتبه ضد محمد على » . ولكنى لم أجد مايؤيد هذه الرواية ، أو يساعد عليها .

وسنجد فى الفصل الذى عقدناه عن محمد على، أن الجبرتى كتب عنه بحرية واسعة ، وتناول شخصه ، وأخلاقه، وتصرفاته بأشياء كثيرة . وأن هذا الذى كتبه موجود فى الطبعات المتداولة لذلك ، ولأسباب أخرى ، أستبعد هذا الذى رواه جورجى زيدان بصيغة التضعيف .

وتقول دائرة المعارف الإسلامية أيضاً أن نسخة سابقة على طبعة المطبعة الأميرية « سنة ١٢٩٧ هـ » ، صودرت وأعدمت.

شيئاً . ووجدت بعض النسخ بخطه وفيها « أن هذا هو آخر الجزء الرابع » . وبعده توفى الشيخ . ولم يكتب شيئاً ، كما نرى بعد قليل .

وتكرر طبع الكتاب بعد ذلك ، منفرداً ، وعلى هامش التاريخ الكامل، لابن الأثير . ونشر القسم الذى كتبه الجبرتى عن الحملة الفرنسية مستقلا بعنوان « تاريخ الفرنسيين فى مصر » نشرته جريدة « مصر » بالإسكندرية فى سنة ١٨٧٨ . وقام بنشره الأديب اللبنانى أديب اسحق .

وترجم هذا القسم إلى اللغة الفرنسية ، ترجمه مترجم القنصلية الفرنسية بمصر . المسيوكار دان وطبع فى سنة وفاته ١٨٣٨م أى بعد موت الجبرتى بثلاث عشرة سنة . وقد رأينا من قبل أن هذا الجزء نفسه ترجم إلى اللغة التركية ، بأمر السلطان سليم الثالث ، وجعل عنوانه « إنقاذ مصر من الفرنساوية » .

ومما لا شك فيه أن محمداً علياً عرف ما سجله الجبرتى عن سيئاته ، ومساوئ حكمه، وأنه جزع لذلك واستاء منه أكبر استياء، وقد أراد أن يرد على الجبرتى ، من طريق غير مباشر ، فطلب إلى شيخ الأزهر ، الشيخ محمد العروسى[1] ، أن يكلف أحد العلماء بتأليف كتاب عن تاريخه يعارض فيه الجبرتى . فكلف الشيخ خليل بن أحمد الرجبى الشافعى الذى وضع كتاباً ملأه بمدح محمد على والإشادة بذكره . وتوجد من هذا الكتاب نسخة خطية فى دار الكتب المصرى تحت رقم ٥٨٥ تاريخ .

وترجم « عجائب الآثار » إلى اللغة الفرنسية ، ونشر فى تسعة أجزاء ، تضمنتها ثلاثة مجلدات ، وطبع بالمطبعة الأميرية بين سنتى ١٨٨٨ و ١٨٩٦ م وفهم بعض المؤرخين أن هذا التراخى كان سببه ما كتبه الجبرتى عن محمد على . وقام بهذه الترجمة أربعة ، هم شفيق بك منصور يكن ، وعبد العزيز كحيل بك ، وجبرائيل نقولا كحيل بك ، واسكندر عمون أفندى .

---

(١) تولى المشيخة سنة ١٢٣٣ بعد الشيخ الشنوانى .

وذكر هؤلاء فى مقدمتهم لهذه الترجمة الفرنسية، أن نوبار باشا هو الذى أوحى إليهم بفكرتها ، وأن يعقوب أرتين باشا كان معينا لهم فى القيام بالمشروع .

وللجبرتى كتب أخرى ، هى ، « مختصر تذكرة داود الأنطاكى[1] » فى الطب، وكتاب عن ألف ليلة وليلة، يرجح أنه فقد ، وذكر بعض المؤرخين أنه ، عندما قتل ابنه خليل ،كان يشتغل بوضع كتاب عن الثورة اليونانية ، ولم يتمه .

وقد ذكر بروكلمان أن الجبرتى ترجم كتاب « سلك الدرر ، فى أعيان القرن الثانى عشر » للسيد محمد خليل المرادى . وأعتقد أن هذا خطأ ، منشؤه أن مصحح المطبعة الأميرية التى طبع فيها سلك الدرر[2] قال فى ختام الجزء الثانى أنه قد تم بحمد الله تعالى طبع كتاب سلك الدرر لمحمد خليل المرادى ، « الذى ترجمه الجبرتى » . والواقع أنه قصد أن الجبرتى ترجم للسيد خليل المرادى ، لا أنه ترجم كتابه . وقد سبقنى إلى تحقيق ذلك الأستاذ خليل شيبوب[3] .

وسنجد فى مواضع أخرى من هذا الكتاب ، ما يزيدنا معرفة بالجبرتى وأبيه. ويجعلنا أكثر إحاطة بما كان عندهما من فضائل وأخلاق وصفات . وما كان لهما من مكانة ومنزلة وأثر .

مخطوطات التاريخ ومظهر التقديس :

يوجد فى دار الكتب المصرية من عجائب الآثار ثلاث عشرة نسخة مخطوطة . منها أربع كاملة ، وباقيها أجزاء وكراسات ناقصة .

وأحدث هذه المخطوطات الكاملة كتب فى سنة ١٢٨٩ بخط أحمد بن محمد بن أحمد بن موسى الشاهد. وفى الصفحة الأخيرة من الجزء الرابع أنه نقل من خط المؤلف . وأنه لم يكتب بعد ذلك شيئاً . وينتهى بنهاية سنة ١٢٣٦ كما تنتهى النسخ المطبوعة .

---

(١) توجد منه نسخة خطية فى دار الكتب المصرية ، تحت رقم ٤٤٠٤ طب .

(٢) طبع سلك الدرر فى مطبعة بولاق الأميرية سنة ١٢٩١ هـ .

(٣) هامش ص ٦٠ من كتابه « عبد الرحمن الجبرتى » .

وتلى هذه النسخة فى القدم نسخة أخرى ، كتب الجزءان الأولان منها بخط محمد أحمد الشافعى ، والثالث بخط أحمد يونس ، أبو التيسير فى سنة ١٢٨٧ ، والجزء الرابع كتب فى نهايته أنه تم فى ربيع الثانى سنة ١٢٨٩ ولم يذكر اسم الكاتب .

ثم تلى هذه نسخة أخرى كتبت فى سنة ١٢٧٢ بخط الحاج محمد حسين أحمد مصباح الشافعى الأزهرى . وفى آخر الجزء الرابع منها فهرس بأسماء المتوفين من الأعلام . ولكنه لا ينتهى بنهاية ما سجله الجبرتى فى تاريخه (سنة ١٢٣٦) بل يمتد بهذه الأسماء وتواريخ وفاة أصحابها إلى سنة ١٢٧٢ ، تاريخ كتابة المخطوط ، ويبدو أن الذى أكمل هذه التواريخ هو الشيخ مصباح ناسخ المخطوط .

وأقدم هذه النسخ المخطوطة تمت كتابتها فى سنة ١٢٦٢[1] — أى بعد وفاة الجبرتى بإحدى وعشرين سنة . ولم يذكر اسم كاتبها . وكان هذا المخطوط ملكا للمرحوم محمود باشا سامى البارودى . مكتوب فى الصفحة الأولى لكل جزء منه ما يلى : — « من كتب الفقير إليه تعالى محمود سامى الشهير بالبارودى » وتاريخ سنة ١٢٨٥ ثم ختم باسم « محمود سامى » .

والسطور الأخيرة من هذا المخطوط تتفق تمام الاتفاق مع النسخ المطبوعة . ثم تنتهى بهذه الكلمات : — « تم لسنة ست وثلاثين . ونقل هذا من نسخة بخط الجبرتى فى ٢٥ ذى الحجة سنة ١٢٦٢ » .

وهناك جزء ثان فقط ، لم يذكر اسم كاتبه ، وفى نهايته أنه تمت كتابته فى ٢٥ ربيع الأول سنة ١٢٦٢ أيضاً . وعلى صفحته الأولى أن المرحوم على فهمى نجل رفاعة بك رافع الطهطاوى طالعه كله سنة ١٢٧٨ .

وقد راجعت صفحات هذه المخطوطات الأربعة الكاملة ، وهذا الجزء الثانى الأخير ، وقابلت كثيراً من صفحاتها مع صفحات المطبعة الأميرية ، فلم أجد سوى قليل جداً من الخلافات اللفظية ، أو من تقديم أو تأخير لبعض كلمات مما لا يزيد معنى أو ينقصه أو يبدله . وعنيت ، بصفة خاصة ، بالجزء الأخير من كلّ من

---

(١) مخطوط رقم ٢٢٨٧ تاريخ .

المخطوطات الكاملة ، والصفحات الأخيرة منها بصفة أخص ، لعلى أجد ما يفيد وجود زيادة ليست فى النسخ المطبوعة ، فلم أجد .

وفى المكتبة الأزهرية من عجائب الآثار ، مخطوطان: الأول بخط خليل إبراهيم العجوز ، انتهى من نسخه سنة ١٢٨٩ . وهو فى ثلاثة مجلدات . والثانى بخط محمد بن أحمد بن موسى الشاهد الحنفى الأزهرى ، ولم يذكر تاريخ الانتهاء من نسخه . وهو فى أربعة مجلدات . وكلا المخطوطين منقول عن نسخة بخط الجبرتى . وكلاهما أيضا ينتهى بنهاية واحدة هذا نصها : — « وهذا آخر الجزء الثالث ، أو الرابع ، وبعده توفى الشيخ . ولم يكتب شيئاً » وهو ما ختمت به طبعة المطبعة الأميرية ، وطبعة المطبعة الشرفية التى اعتمدت عليها .

وتنتهى الحوادث التى أرخها الجبرتى فى هذين المخطوطين بنهاية سنة ١٢٣٦ كما فى النسخ المطبوعة . وكما هو الحال فى جميع النسخ الخطية التى ذكرتها .

وقد راجعت ، وقابلت هذين المخطوطين ، كما فعلت بالمخطوطات الخمسة فى دار الكتب ، فكانت النتيجة هنا مثلها هناك .

وهذا كله يؤيد ما ذهبت إليه من عدم وجود قسم ، أو جزء ، لم ينشر ، أو نشر ثم صودر ، كما روى جورجى زيدان ، بصيغة التضعيف .

وفى دار الكتب المصرية فهرس مخطوط لعجائب الآثار من عمل المرحوم أحمد تيمور باشا . يشمل الحوادث ، وأسماء الأعلام ، والنقود . وفهرس آخر من عمل المرحوم توفيق اسكاروس يشمل أسماء العلماء المذكورين فى الكتاب ، مرتبة على الحروف .

وفى المكتبة التيمورية مخطوط لعجائب الآثار كتب فى سنة ١٢٨١ . ويوجد مخطوط آخر من هذا الكتاب فى مكتبة السيد الكتانى بفاس ، لم أستطع أن أعرف عنه شيئاً . ولعل بعض الباحثين ، ممن يعنون بمثل هذا ، يعرّفنا به .

أما مظهر التقديس . ففى دار الكتب المصرية منه مخطوطان — وهو لم يطبع ،

كما أسلفنا . المخطوط الأول منهما كتب فى سنة ١٢٢٤[1] قبل وفاة الجبرتى بسبع عشرة سنة ، وبعد أن أتم تأليفه بسبع سنين وخمسة أشهر . حيث ذكر أنه أتم تأليفه فى شعبان سنة ١٢١٦ .

وفى الصفحة الأولى من هذا المخطوط أسماء خليل رفعت باشا ، وخسرو باشا ، وكان أحد ولاة مصر فى فترة من هذا التاريخ [من ١٣ جمادى الأولى سنة ١٢١٦ إلى ١٤ المحرم سنة ١٢١٨] والمخطوط فى ١٤٥ ورقة ، أى ٢٩٠ صفحة كبيرة .

والمخطوط الثانى من مظهر التقديس كتب فى سنة ١٢٩٣ .

وقد طالعت ، بإمعان ، المخطوط الأول ، الأقدم ، من مظهر التقديس ، وقابلته بما كتب الجبرتى فى تاريخه عن دخول الفرنسيين مصر ، وإقامتهم فيها ، وخروجهم منها ، وتاريخه للسنوات الثلاث التى أقاموها بها ، فخرجت من هذه المقابلة بالملاحظات التى ألخصها فيما يلى : —

يذكر الجبرتى اسم الشيخ حسن العطار على أنه شريك فى تأليف الكتاب ، فهو يقول فى أوله ، إنه ألف كتابه وضم إليه ما كتبه الشيخ حسن العطار من النثر والشعر . ثم يقول عند اختياره اسم الكتاب « وسميناه » مظهر التقديس وهو عند ما ذكر ذلك عن تاريخه قال «سميته» عجائب الآثار . وعند ما يورد بعض الشعر يقول أنه « لصاحبنا الآتى ذكره » . أو لصاحبنا السابق ذكره ، بعد أن ذكر اسم الشيخ العطار .

ونحن نعرف أن الجبرتى لم يقل الشعر .

بدأ الكتاب ، بعد حمد الله ، بمدح الدولة العثمانية الخاقانية . ثم ربط بين الظواهر السماوية ، نكسوف الشمس وحركات النجوم ، وبين الحوادث الأرضية ، وذكر بعد ذلك قدوم الفرنسيين مصر ودخولهم فيها . مع أن مصر لم يغلبها غالب ، حتى التتار الذين هزموا جند الأرض كله ، كثيراً ما قهرهم جند مصر القاهرة . حتى لم تقم لهم بعد ذلك قائمة .

---

(١) مخطوط رقم ١٠١ م تاريخ

ثم يلوم المماليك على تهاونهم فى تحسين الثغور ، والعناية بعدة الحرب ورجالها .
ويورد شعرا ، أعتقد أنه للشيخ العطار ، هو : —

إنما هذه البلاد لأقوا ... م حموها بالصارم المسلول
وأرى دولة المماليك ما ... لت لضروب اللذات ، بالتحصيل
واغتنوا عن تجريد سيف ورمح ... بقوام لدن ، وطرف كحيل

ويلومهم كذلك على سلوكهم مع أهل مصر ، ومصادرة أموالهم ، والقسوة عليهم . ثم يذكر السلطان سليما الثالث وتداركه مصر بتخليصها من الفرنسيين . ويذكر صدره الأعظم يوسف باشا بأوصاف لا تكاد تنتهى من المدح والتفخيم والإشادة والتعظيم .

وتجىء بعد ذلك مقدمة موجزة فى التاريخ ، منذ بدء الخليقة ، ونزول أبى الأنبياء آدم ، وتوارد الرسل لهداية الناس . والرسالة المحمدية الخالدة . وملخص فى غاية الإيجاز للخلفاء الراشدين ، والدول الإسلامية المختلفة التى أعقبتهم ، وفتوحاتها ، وما جرى بعد ذلك من وقائع حتى دخل العثمانيون مصر .

ثم يبدأ بسرد حوادث الحملة الفرنسية من اليوم العاشر من المحرم سنة ١٢١٣ ومن هنا يبدأ فى الاتفاق مع ما كتبه فى عجائب الآثار ، ماعدا خلافات يسيرة ، وتكرار لبعض الفقرات والجمل .

وبعد أن أورد الكتاب منشور نابليون الذى وجهه إلى المصريين بعد دخوله الإسكندرية ، أخذ يناقش هذا المنشور ويعلق عليه ، ويفسره . وهذه أشياء لا توجد فى عجائب الآثار .

وفى هذه المناقشة ، وهذا التفسير يحمل مظهر التقديس حملات قاسية على نابليون ، والفرنسيين .

ولا تقتصر خصومة الجبرتى للفرنسيين فى مظهر التقديس ، وعنفه عليهم على هذه المناقشة ، بل نجد الروح التى تسيطر عليه هنا ؛ مختلفة عن تلك التى كتب بها فى عجائب الآثار . ونجد الطابع الذى يتميز به مظهر التقديس ، من هذه الناحية ،

مغايراً إلى حد بعيد، لذلك الطابع الذى نجده فى العجائب . فهو، فى مظهر التقديس ، ينعتهم بأوصاف الجهل، والنفاق، والخداع ، والظلم ، والخروج على جميع الأديان . ويتمنى زوال دولتهم ، ويظهر التشفى والسرور عند ذكر هزيمتهم أمام مراد بك ، فى بعض المواقع ، ويسميهم الملاعين .

ثم هو لا يذكر فى مظهر التقديس ، ما ذكره فى عجائب الآثار ، من أنهم كانوا يأجرون العمال على ما يقومون به من إصلاح أو إنشاء فى طرقات القاهرة ومرافقها ، وأنهم كانوا يعطونهم أكثر من الأجر المعتاد .

وكذلك يطوى زيارته مقر علماء الحملة الفرنسية ، واطلاعه على ما كان فيه من الكتب والصور والرسوم . ومشاهدته عندهم التجارب الطبيعية والكيمائية . وإباحتهم لأهل مصر أن يزوروا مقر هؤلاء العلماء ، وأن يفيدوا منه . وهى قطعة كبيرة نجدها فى عجائب الآثار ونفتقدها فى مظهر التقديس .

ويسقط أيضاً ، من مظهر التقديس ، فى ختام شهر شوال من سنة ١٢١٣ قطعة ضمنها ، فى العجائب ، بعض الأعمال والإنشاءات التى قام بها الفرنسيون فى القاهرة .

وحذف منه كذلك قطعة من رسالة نابليون ، التى وجهها إلى أهل مصر يعلل فيها عدم استيلائه على عكا . وأثبت قطعة كبيرة من قصيدة السيد على الصيرفى ، نزيل عكا فى ذلك الوقت ، لم تذكر فى العجائب .

وقد تضمنت هذه القطعة من القصيدة مطاعن كثيرة فى الفرنسيين ، وفى نابليون .

ونجد فى مظهر التقديس تعليقاً على هذه القصيدة ، ونقداً لها ، لعله من وضع الشيخ العطار ، تحدث فيه عن العروض ، والترصيع ، و الوتد ، والزحاف . إلى غير ذلك من مصطلحات هذا الفن . ونجد ، بعد ذلك ، استدراكا على الشاعر لأنه مدح أحمد باشا الجزار ، حاكم عكا ، على بلائه فى صد نابليون عنها ، ولم يمدح الوزير يوسف باشا على جهاده .

ثم يدافع عن العثمانيين عند ما يذكر نابليون فى منشوره ، أن دولتهم فى مصر قد دالت . ويقسو عليه فى ذلك أشد القسوة .

وتحارب العثمانيون والفرنسيون فى الإسكندرية ، فهزم الأولون ، وأسر قائدهم مصطفى باشا ، وكبير منهم هو عثمان خوجا . فيذكر ذلك فى العجائب ، ولكنه ، فى مظهر التقديس ، يزيد عليه عزاءه للعثمانيين ، وتهوين الأمر عليهم .

ثم يسقط من مظهر التقديس ، ما يدل على ضعف العثمانيين ، أو فساد تدبيرهم ، بعد عقد الصلح مع الفرنسيين .

ومن الملاحظات الخاصة بالصياغة ، ولكنها ذات دلالة ، أنه عند ما يذكر نابليون ، فى عجائب الآثار ، يصفه بأنه « سارى عسكر » الفرنسيين ، أى قائدهم العام . وعند ما يذكره فى مظهر التقديس ، يقول « كبير الفرنسيس » وكذلك يقول فى عجائب الآثار ، عن معسكر العثمانيين « عرضى الوزير » وفى مظهر التقديس « عرضى هميون » أى المعسكر السلطانى .

وفى نص واحد نجده يذكر نابليون فى عجائب الآثار باسم « بونابرته » وفى مظهر التقديس بقوله « اللعين » .

ومن لطائف هذه الفروق ، بين عجائب الآثار ، ومظهر التقديس ، أنه يذكر خروج الجيش العثمانى إلى الصالحية ، بعد فشل الصلح ، وابتداء الحرب بينهم وبين الفرنسيين ، يذكر ذلك فى العجائب ، فيقول إن سببه ضعف هذا الجيش واشتغال جنده بجمع المال من البلاد ، وظلم الناس ومصادرتهم .

ويذكر ذلك ، فى مظهر التقديس ، فيقول إن سببه الحرص على شروط الصلح وأنه كان حكمة حربية وبراعة ، وعملا بقول من قال : الحرب خدعة !

ومن الزيادات التى تلفت النظر ، ما ذكر فى مظهر التقديس (١) من أن نابليون عند ما دخل عليه الشيخ السادات باستدعاء منه ، « صار — أى نابليون — يقبل يده تارة ، وركبته أخرى » .

---

(١) ورقة ٢٣ .

وقد أسقط الجبرتى من مظهر التقديس ، ما سجله فى العجائب ، من عدوان الجند العثمانى على أهل القاهرة ، بعد عودتهم إليها . مع أنه يقول فى العجائب وهو يصف عدوانهم على الناس ، وهم فى ثورتهم على الفرنسيين ، إن أهل البلاد « تمنوا زوالهم ورجوع الفرنسيين على حالتهم التى كانوا عليها » .

كما يسقط رسالة عنيفة وجهها الشيخ السادات إلى كتخدا الدولة ، يزجره فيها على عدوان جنده . ونجدها فيما كتبناه عن الأزهر والعلماء من كتابنا هذا[١] .

كذلك نجد فى العجائب كثيراً من الآيات القرآنية الكريمة التى تخوف من عاقبة الظلم ، ثم لا نجدها فى مظهر التقديس . كأنما خشى أن يفهم ذكرها على أنه تعريض بالعثمانيين . وكذلك لم يذكر الضرائب والمغارم التى فرضها الفرنسيون على علماء القاهرة وأعيانها ، جزاء اشتراكهم أو تحريضهم على الثورة . ومناقشة كليبر لهم فى ذلك .

وعند ذكره لمقتل الجنرال كليبر ، أسقط السجل الذى أثبته فى العجائب عن مناقشة قاتله ، سليماناً الحلبى ، ومحاكمته ، وأقوال الشهود ، والأحكام التى صدرت بإعدامه ، وإعدام شركائه الثلاثة ، وأمر القائد العام الجديد ، الجنرال منو ، بتنفيذ هذه الأحكام . ووصف هذا التنفيذ .

ومن الملاحظات الجديرة بالعناية ، أنه عند ما ذكر إنشاء الديوان الثالث ، الذى أمر منو بتشكيله من العلماء وحدهم . أسقط أسماء أعضائه التسعة . وقد ذكرهم فى العجائب ، وأشار إلى نفسه فيهم بقوله «وكاتبه» .

وكذلك أسقط من مظهر التقديس ، الوصف الذى أثبته فى العجائب لجلسة هذا الديوان الأولى .

وكان ديجنت ، كبير الأطباء الفرنسيين ، ألف رسالة فى علاج الجدرى ، لعله أهداها إلى الجبرتى . فوصفها فى العجائب بأنها « لا بأس بها فى بابها » . ولكنه فى مظهر التقديس يسقط وصفه لها . وهو لا يذكر أيضا تخفيف الفرنسيين لبعض

---

(١) فى الجزء الثانى من الكتاب .

الأتاوات التى كان الوالى والمحتسب يفرضانها على أهل القاهرة . ولا يذكر خبر قدوم الإنجليز إلى أبى قير ، وحربهم الفرنسيين .

ونجد عند ذكره أنباء عودة العثمانيين للقاهرة شيئاً غير قليل من الاختلاف والتغيير . وإسقاطا لحوادث اعتدى فيها جندهم على بعض البائعين من أهل القاهرة. غصبوهم بضاعتهم ؛ فلما طولبوا بثمنها ، قتلوهم وقتلوا غيرهم ، حتى رجال الأمن والشرطة .

ثم نجد ، بعد وصفه موكب الصدر الأعظم حين دخل القاهرة ، قطعة ، أعتقد أنها من إنشاء الشيخ العطار ، فيها ذكر لكبار العثمانيين الذين قدموا معه ، وفيها قصيدة للشيخ أيضا أولها :

إنما العز فى متون الجياد   مع بيض الظبا ، وسمر الصعاد

وهى ثلاثة وثلاثون بيتا . وفى هذه القطعة من النثر ، نجد كل اسم من أسماء هؤلاء القادمين ، مسبوقا بطوفان من ألقاب التعظيم والمدح والتفخيم .

وعندما استقر الأمر للعثمانيين ، فرضوا على تجار القاهرة مغارم ، ذكرها فى العجائب ، وطواها فى مظهر التقديس . كما طوى أخباراً أخرى عن بعض المماليك، وعزل القاضى التركى ، وقتل بنت السيد خليل البكرى [١]، ومشاجرات وقعت من الجند العثمانى على أهل القاهرة . كما أسقط اشتغال هؤلاء الجند بالبيع والشراء ، وتستر قادتهم عليهم . بل دفاعهم عنهم . لأنهم أنقذوا مصر من الفرنسيين ... !

وفى الشهور الثلاثة الأخيرة من الكتاب ، نجد كثيراً من الأخبار قد حذفت ، ونجد بدلا منها أنباء قدوم السادة من كبار العثمانيين ، مثل محمد أفندى شريف ، دفتردار الدولة ، ويذكر فى قدومه شعرا ، وقدوم كتخداه — نائبه — عثمان أفندى ، وشمس الدين بك ، أمير أخور [٢] ، ومرجان أغا ، والقاضى مصطفى أفندى دباغ زاده . ولا يذكر ، بعد ذلك ، فى حوادث شهر ربيع الثانى سنة ١٢١٦ ، سوى عودة المحمل . ويسقط القرارات والأوامر التى أصدرتها الدولة بشأن الأموال والضرائب

---

(١) نجد قصتها فى آخر الحياة الاجتماعية من هذا الكتاب .

(٢) أمير المذاود ، الموكل بعلف الدواب

ونجد بعض حوادث هذه الشهور الثلاثة فى غير موضعها، ويذكر فى هذه الشهور بعض اعتداءات الجند العثمانى . وكف الصدر الأعظم لهم عندما علم ذلك .

ثم يسجل كتاباً ، نجده فى العجائب ، موجهاً من السلطان إلى عرب البحيرة ، بأن يكفوا عن قطع الطريق ، والعدوان على الناس . وجواباً كتبه الشيخ إسماعيل الخشاب ، على لسان هؤلاء العرب ، بأنهم سيلزمون الطاعة . وهو موجه إلى « الصدر الأعظم يوسف باشا ، بلغه الله ، من المرادات ما شا » . وتاريخ هذا الجواب اليوم الثانى والعشرين من شعبان سنة ١٢١٦ ، وبه تنتهى حوادث مظهر التقديس .

ونجد فى مظهر التقديس شيئاً قليلا من التغيير ، والاختلاف ، عن عجائب الآثار ، ولـكنه تغيير واختلاف قليل القدر والأهمية . كما نجد بعض الزيادات القليلة أيضا ، غير ما سجلنا من قبـل ، كزيادته مدح قائد الجيش التركى ، مصطفى باشا ، الذى أسره الفرنسيون ، لمناسبة إخراجه من الأسر ، ثم سفره بعد ذلك إلى دمياط وموته فيها . وزيادته تقبيح الفرنسيين وسبهم فى بعض المناسبات ، ووصفه بعض كبارهم بأنه « كلب » . وزيادته قطعة من النثر والشعر للشيخ حسن العطار ، وصف فيها بركة الفيل ، وذكر ما أصابها من التخريب على يد الفرنسيين ، عند الثورة عليهم .

ومع أنه أسقط من سنتى ١٢١٣ و ١٢١٤ التراجم التى سجلها فى ختام كل سنة من العجائب ، لمن ماتوا فيهـا ؛ فقد ذكر ، فى حوادث الشهور ، بعض الوفيات ، كوفاة ولدى الشيخ أحمد الجوهرى ، محمد ، وعبد الفتاح . والأمير مراد بك ، والشيخ عبد القادر المغربى . وفى ختام سنة ١٢١٥ يترجم لمن ماتوا فيها . ولـكنه يسقط تراجم العلماء ، ويسجل تراجم المماليك والأمراء .

ونجد كذلك قصيدة للشيخ حسن العطار فى مدح الشيخ عبد القادر المغربى .

وما عدا هذه الفروق ، نجد مظهر التقديس متفقاً مع عجائب الآثار ، فى الحوادث ، والصياغة ، والترتيب .

وفى نهاية مظهر التقديس خاتمة تتلخص فى أنه من الأوفق أن يجعل ختامه شهر رمضان ، تيمنا به ، وإشارة إلى أن وجود الصدر الأعظم ، الذى ألف برسمه الكتاب ، فى الأيام ، كوجود شهر الصيام فى الأعوام ، يزيل الفساد ، ويكثر العبادة ، وتنجبر به القلوب ، وتخلص النيات فى كل مرغوب . ولأن فيه ليلة القدر ، والصدر الأعظم شبيه بها فى أن الأمة المحمدية تترقب ظهوره من مدد متطاولة . ولأن قدومه مصر كقدوم العيد فى نهاية شهر رمضان .

وبعد ذلك شعر فى مدحه ، لا بأس به ، وفى تهنئته بشهر الصوم لا بأس به أيضاً . ويجيء ، بعد الدعاء الكثير ، بيتا التاريخ :

سعد تاريخنا بإقبال صدر　　بمعالى ثنـــائه مسطور

فلهذا يقول بشرى ، أرّخ　　باجتناء السرور جاء الوزير

وقد تم تأليفه فى نهاية شهر شعبان من سنة ١٢١٦ .

وكان الفراغ من تحرير هذه النسخة فى غرة المحرم من سنة ١٢٢٤ .

ونستطيع بعد ذلك أن نسجل أن الفروق التى نجدها فى مظهر التقديس ، عن العجائب ، مردها إلى المناسبة التى ألف فيها الكتاب .

فهو عند ما دوّن ما كتب عن الفرنسيين فى عجائب الآثار ، كانوا ما يزالون يقيمون فى مصر ، وهم أصحاب الحول فيها والسلطان . فهو ، فى هذه الحالة ، يتخذ سبيل السلامة ، ويأخذ بالمداراة والتقيّة ، فلا يتعرض لهم بذم أو ملامة .

وهو ، فى الوقت نفسه ، يترجم عما فى نفسه من تقدير لهم ، وعطف عليهم ، نلمسه فى غير موضع من العجائب . وندركه من صلاته بهم ، ولو أنه حرص على سترها شيئاً ما .

وهو عند ما كتب ، مع صديقه العطار ، مظهر التقديس ، كان الفرنسيون قد تركوا مصر ، ولم يبق لهم فيها حول ولا سلطان ، بل عاد السلطان فيها لخصومهم

العثمانيين . ومظهر التقديس يؤلف لصدر من صدور الدولة . عند ذلك كتب الجبرتى والعطار ما كتبا فى مذمة الفرنسيين ونابليون ، ووصفاهم بما وصفا .

وما أسقطه من الكتاب أمور لاتهم الصدر الأعظم ولاتهم الدولة [١] .

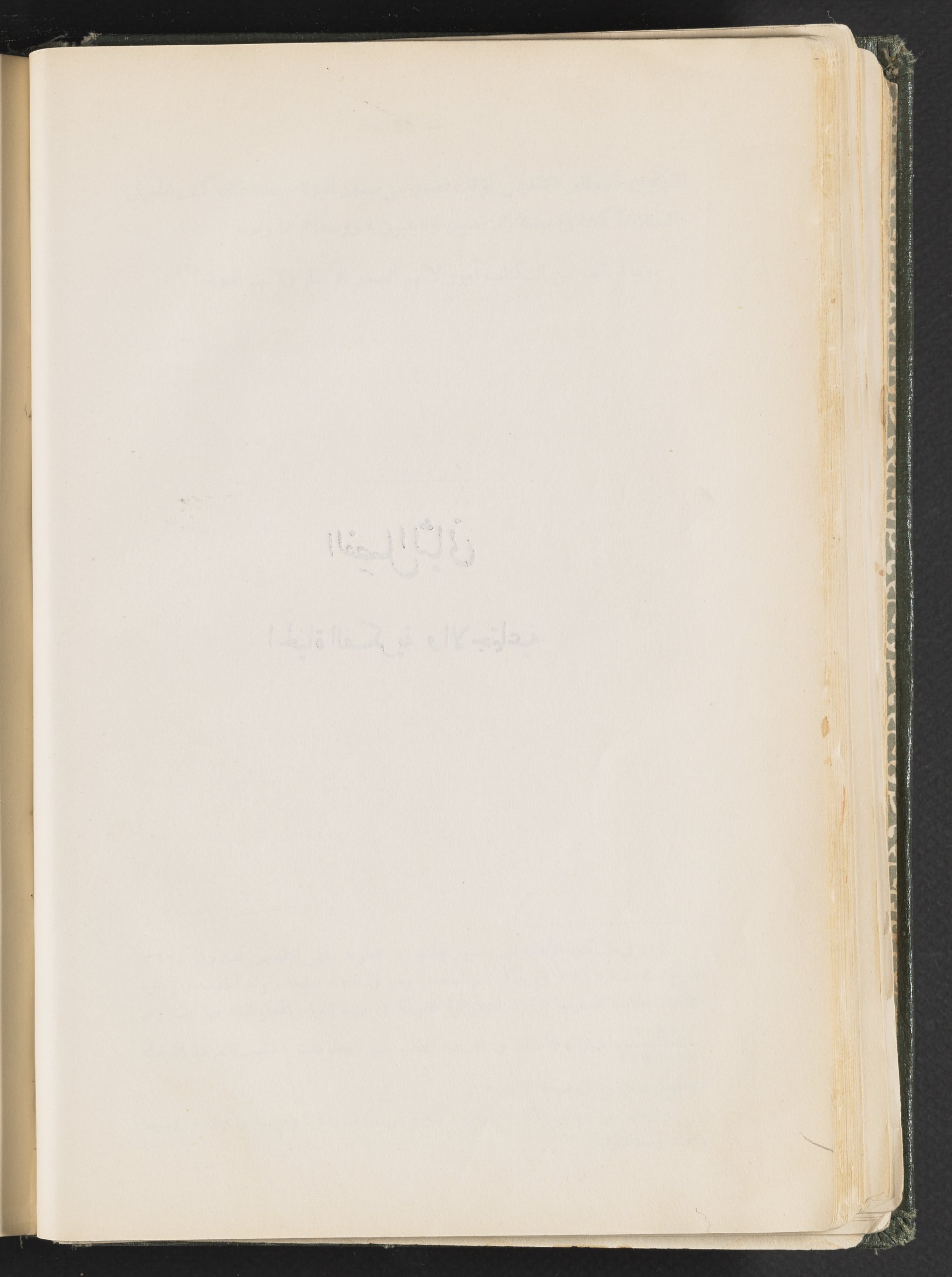
---

(١) فى المكتبة الأهلية فى رامبور بالهند ، مخطوط لمظهر التقديس تحت رقم ٣٦٣٤ تاريخ نسخه سنة ١٢١٦ ولم يذكر اسم ناسخه . وهو فى ١٧٥ صفحة . وقد أخذت له الإدارة الثقافية بالجامعة العربية صورة فتوغرافية محفوظة فى معهد إحياء المخطوطات بها تحت رقم $\frac{٣٠٣٣}{٩٨ — ٢٧٥}$ ويقول الأستاذ رشاد عبد المطلب خبير المخطوطات بالجامعة العربية إن هذا المخطوط « قد يكون نسخة المؤلف » .

وتوجد من عجائب الآثار مخطوطات كثيرة فى مكاتب ألمانيا وفرنسا وانجلترا وروسيا والهند واستامبول .

الفصل الثانى

الحياة الفكرية والاجتماعية



هذه الحياة الفكرية والاجتماعية ، التى سجلها الجبرتى ، عن غير قصد ، ومن غير ترتيب ولا تبويب ، من أجمل ما دونه . ومن أهم ما حفظه لنا من صور هذه الأيام ، التى لم يسجلها سواه . وفى هذه الحياة الاجتماعية خاصة ، نرى من العادات ، والتقاليد ، والأفكار ، والمعتقدات ، ما لا نزال نجد شيئاً منه ، أو هو منه قريب ، فى حياة المجتمع المصرى الذى نعيش فيه . أو ما كنا نراه إلى وقت قريب ، ثم جاءت الحياة الغربية الجديدة تمحو من صفحاته سطراً فسطرا ، وتخط فيها سطورا جديدة ، تصور مجتمعاً جديداً ، أو خليطاً من قديم وجديد .

وقد سجل الجبرتى هذه الصفحات من حياة مصر الاجتماعية والأدبية ، فى ثنايا هذه الحوادث التى دونها يوما فيوما ، أو بين تراجم الذين ترجم لهم فى وفياته التى كان يخصص لها غالباً ، الفصول الأخيرة من ختام السنة التى يؤرخ أيامها ، وما كان فيها من حوادث ووقائع . وما جد فيها من أمور . وقد تكون هذه الحوادث والوقائع والأمور ، التى قصد الجبرتى إلى تسجيلها ، أولا وبالذات ، أقل شأنا ، أو هى كذلك الآن على الأقل ، من هذه الصور الحية ، الخلابة ، الصادقة ، التى جاءت تبعاً لهذه الحوادث من صور الحياة الاجتماعية .

وليس من الطبيعى أن نطالب الجبرتى بتسجيل مظاهر الحياة الاجتماعية التى كان يحياها الناس إذ ذاك ، فى القاهرة ، أو فى الريف . فذلك فن من القول والكتابة جديد ، لم يعرفه الناس فى عصره ، ولم يتنبه له كاتب أو مؤلف . والذى يعيش بين الناس ويرى عاداتهم ، ويشارك فيها كل يوم وساعة . لا يتنبه إلى ما يجد على حياتهم وحياته من تطور أو تحول بطىء ، وما يدخل فى هذه الحياة أو ينمحى فيها ، أو يمتزج بها بفعل الزمن ، وتأثير الخلطة والاتصال بين الناس ، بالتجارة ، أو الحرب ، أو السفر . إلى غير ذلك من شؤون الحياة التى لا تنى عن التطور والتحول والمزج .

وهو لذلك يعتقد ، أو يشعر ، بأن هذه العادات التى اعتادها معاصروه ، والحياة التى يلابسها معهم فى كل شأن وأمر ، ستبقى ، كما هى ، لا يمسها تغيير

ولا تبديل . فليس مما يفيد أن يسجلها ، أو يكتب فيها ، على فرض أنه تنبه لأن يكتب أو يسجل من ذلك شيئاً .

ولكن الجبرتى خرج عن هذه القاعدة ، فى فترة من هذه السنين التى سجل تاريخها فى كتابه . وهى فترة الحملة الفرنسية . فقد سجل ، أولا وبالذات ، طائفة من الآثار الاجتماعية ، التى خلفتها جنود هذه الحملة فى القاهرة . وقد وفينا ذلك حقه فيما كتبناه عن أثر هذه الحملة فى ختام هذا الجزء .

وخروج الجبرتى عن القاعدة فى هذه الفترة ، أمر طبيعى ، فإن الأثر الذى أو جدته ، وخلفته ، هذه الحملة ، كان من الوضوح والقوة ، بحيث تنبه له الجبرتى ، وأحس بنفسه وقعه فى حياة المجتمع القاهرى ، الذى كان هو أحد أركانه ، وعمده ، وخاصة فى حياة المرأة . ونحن نعرف ، وما نزال نلمس فى مجتمعنا الحاضر ، ما يحسه المجتمع المصرى نحو المرأة ، وما يلابس شؤونها ، ويمس سلوكها ، وأخلاقها ، وملبسها ، وآدابها . والناس ، فى مصر والشرق ، لهم حساسية شديدة ، نحو ما يتصل بالمرأة ، وشأنها كله .

والحياة الفكرية ، فى العصر الذى أرخه الجبرتى ، تكاد تكون مقصورة على الأزهر ، فهو محور هذه الحياة ومنبعها ، وبيئتها . حتى الذين ليسوا من علمائه أو رجاله ، كالسيد مرتضى الزبيدى ، أو كالجبرتى نفسه ، لم يكونوا بعيدين عنه ، ولا عن علمائه ورجاله .

ولم تكن هذه الحياة الفكرية خصبة ولا عميقة ولا قوية . ولكنها كانت حياة مصر الفكرية فى ذلك التاريخ . وهى ، بلا شك ، لا بد أن تدوّن وتدرس بكل ما تستحق من أمانة ودقة وتفصيل . على أنها ، كما ترى بعد قليل ، لم تخل من شىء ، أو أشياء ، ذات قيمة .

النثر والشعر

كان النثر سجعاً ، غثًّا ثقيلا ، مرذولا . يمثله ما كتبه الشيخ حسن العطار احسن ، أو أصدق تمثيل . فما أحب أن يذكر الحسن فى هذا المعرض .

والشيخ حسن العطار رجل من رجال هذا العصر الذى سجله الجبرتى ، وهو حقيق أن نتوسع بعض الشىء فى الحديث عنه . لأنه كان منفرداً عن أهل عصره بأشياء تستحق أن تسجل .

ولد الشيخ حسن بن محمد العطار سنة ١١٨٠ وكان من علماء الأزهر ، ثم شيخاً له . ولكنه تميز عنهم بتلك الرحلات التى قام بها فى كثير من البلاد . كما تميز بروح تجديدية جعلته يدعو دعوة خافتة لأن تتأثر مصر بالحضارة الأوربية . وهذه الدعوة الخافتة ؛ هى بمثابة ثورة إذا رعينا ظروف البيئة والزمن .

كان أبوه ، الشيخ محمد كتن ، رجلا فقيراً عطاراً ، ولكنه يشتغل بالعلم . وكان ابنه هذا يعينه فى دكانه ، ويستمع إلى شىء من علمه . ولكنه كان يرغب فى العلم أكثر مما يرغب فى ممارسة البيع والشراء فى شؤون العطارة . فكان ينفلت من دكان أبيه إلى الأزهر فيحضر دروس العلماء فيه . يفعل ذلك خفية من أبيه . فلما عرف أبوه ذلك وعرف أنه حفظ القرآن ، سرّ به كثيراً وساعده على التقدم فى طلب العلم والانقطاع له .

ثم جاء الفرنسيون مصروهو شاب عالم صغير . فخاف على نفسه منهم، وهرب ، كما هرب كثيرون غيره من العلماء ، فنزح إلى الصعيد . ثم عاد إلى القاهرة فاتصل بطائفة من رجال الحملة الفرنسية يتعلم منهم أشياء من معارفهم، ويعلمهم اللغة العربية . « ويقول إن بلادنا لا بد أن تتغير أحوالها ، ويتجدد بها من المعارف ما ليس فيها . ويتعجب مما وصلت إليه تلك الأمة — الفرنسية — من المعارف والعلوم ، وكثرة كتبهم وتحريرها ، وتقريبها لطرق الاستفادة[١] » .

ثم سافر الشيخ بعد ذلك إلى الشام فأقام فيها زمناً . يتطارح الشعر مع شعرائها ويراسل علماءها ويصف غوطتها ومنازهها .

ورحل بعد ذلك إلى تركيا فأقام فيها زمناً طويلا . وخاصة فى بلدة سكودرة ، حيث تزوج من أهلها وأعقب . ولكن عقبه مات ، ثم عاد بعد ذلك إلى مصر وقد زاد علما وخبرة ومعرفة . وجلس يدرس التفسير ، فكان العلماء يتركون

---

(١) س ٣٨ خطط على باشا مبارك جزء ٤ .

حلقات غيره ويتكاثرون على حلقته يستمعون . وقدم فى أيام محمد على رجل من الدروز اسمه بطرس ، وكان ذا علم بالتواريخ والأنساب والأيام وعلوم العربية ، فتعرف إليه الشيخ وكانت بينهما صداقة ومحبة ، ومدح بطرس الشيخ بشىء من الشعر .

وللعطار مؤلفات عدة ، فى علوم الفقه والنحو والمنطق ، ورسائل فى الهندسة والطب ، والتشريح ، والرمل والزايرجة . وكانت أسرته فى الأصل من بلاد المغرب . وكان يرسم بيده المزاول لمعرفة الوقت بالليل والنهار .

كما كان من أصدقاء الجبرتى الحميمين . ولكن العطار تقرب إلى محمد على عند ما استقر له الأمر ، وخدمه . وأنشأ فيه المدائح وفى ابنه إبراهيم ، وأهدى إليه كتابه فى الرسائل . واختاره محمد على محرراً للوقائع المصرية ، أول صدورها . ثم ولاه مشيخة الأزهر ، فى الرابع من شوال سنة ١٢٤٦ بعد وفاة الشيخ الدمهوجى . وبقى فى المشيخة إلى أن مات فى سنة ١٢٥٠ بعد وفاة صديقه الجبرتى بتسع سنوات . وقد انحاز العطار إلى محمد على ، كما رأينا ، وخاصمه الجبرتى خصومة عنيفة متصلة . ولكن هذا الخلاف فى الاتجاه والمنهج لم يبعد ما بين الصديقين ، ولم يوهن ما كان بينهما من محبة وود . حتى أن الجبرتى بعد موته ، تكفل العطار بأسرته وعقبه ، وأعانهم على الحياة عونا مخلصاً .

وكان العطار شاعراً ناثرا . ولا أريد أن أقتبس شيئاً من نثره ، فقد طبعت قطعة كبيرة منه يمكن أن يرجع إليها من يشاء[1] ولكننى أنقل فهرس هذا الكتاب الذى جمعت فيه هذه القطعة من النثر . ففيها دلالة على ما تناوله الشيخ من مواضيع . ودلالة أيضاً على ما كان يفكر فيه الناس ، ويتناوله الكاتبون من شؤون الفكر . وفيها كذلك إشارات إلى شيء من الحياة الاجتماعية فى ذلك العصر . وكان الناس يتخذون من هذه الرسائل وأمثالها نماذج ، أو يقتبسون منها فى كتبهم .

تبدأ رسائل الشيخ ، بعد المقدمة ، بالنوع الأول من الرسائل ، وهى فى

---

(١) طبعت رسائل الشيخ العطار فى المطبعة العثمانيه بالقاهرة سنة ١٣٠٤ هـ وذكر فيها أنها بعض ما أنشأه ، لا كله .

مخاطبات الملوك والأمراء ، فى الدولة العثمانية . ثم مخاطبات القضاة ، والعلماء والمشايخ . ثم فى رسائل الإخوان . وتقريظ ترجمة ألفية ابن مالك للغة التركية ، ثم قطعة من كتاب ألفه فى رحلته إلى الشام . وصف بها دمشق ، ومنازهها . وقطعة أخرى فى وصف القسطنطينية وخليج البسفور . ثم أورد بعد ذلك أبياتاً من الشعر يفتتح بها الكاتب رسائله ، أو يضمنها إياها ، أو يستشهد بها . ومجموعة من « الطرائف والظرائف » . وهى أمثال « تحاضر بها الكتّاب ، ويحلون الكتاب » . ثم تختم الرسائل بمجموعة من النماذج لكتابة العقود ، والشروط ، والصكوك . مما يتعلق بحياة الناس ، ومعاشهم ، وتجارتهم . ومنها صيغة لكتابة عقد العتق للرقيق ، والتدبير[١] وفى هذه الرسائل صفحات من النثر المرسل . ليس فيها ذلك السجع الثقيل .

وما كتبه العطار فى وصف منازه القسطنطينية ، ومياه البسفور ، وهى قطعة من كتاب ألفه فى رحلة إليها ، خير مثل — فى تقديرى — لأسلوب الشيخ فى نثره[٢] .

وللشيخ حسن العطار شعر ، لعله خير من نثره . فمن ذلك هذا الشعر الذى يصف فيه بركة الأزبكية ، وما كان له فيها من مسرات ، وما كان حولها من قصور : —

بالأزبكية طابت لى مسرات	ولذ لى ، فى بديع الأنس ، أوقات
حيث المياه بها ، والفلك ، سابحة	كأنها الزهر تحويها السموات
وقد أدير بها دور مشيدة	كأنها ، لبدور الحسن ، هالات
والماء ، حين سرى رطب النسيم به	وحل فيه من الأدواح زهرات
كسابغات دروع ، فوقها نقط	من فضة ، واحمرار الورد طعنات

وللشيخ حسن العطار قصيدة فى مدح صديقه الشيخ أبى القاسم المغربى ، شيخ رواق المغاربة . أورد بعضها الجبرتى فى مظهر التقديس[٣] وقال إنها طويلة ، وهذا مطلعها : —

(١) التدبير هو منح الحرية للرقيق ، بعد وفاة سيده ، بتعليق الحرية على الوفاة .

(٢) ص ٧٤ — ٧٦ من الرسائل .

(٣) ظهر الورقة ١١٤ من المخطوط .

انهض، فقد ولت جيوش الظلام   وأقبـــل الصبح ، سفير اللثام
وغنـــت الورق ، على أيكها   تنبه الشّرب لشرب المـــدام
والزهر أضحى ، فى الربا ، باسما   لما بكت ، بالطل ، عين الغمام
والغصن قـــد ماس بأزهاره   لما غدت كالدر فى الانتظام
وعطـــر الروضَ مرور الصبا   على الرياحـــين ، فأبرى السقام
كأنمـــا الورد على غصنه   تيجان إبريز على حسن هام
كأنما الغدران خلجان أغ   صان النقا ، والنهر مثل الحسام
كأن منظوم الزرا جين[1] ياق   وت غدا ، من نظمه ، فى انسجام
كأنمـــا الآس عـــذار على   وجنة خشف[2] قد علاها ضرام
كأنما الورقاء ، لما شـــدت ،   تتلو علينا فضل هـــذا الأمام

وفى رسائله رسالة من عاشق إلى معشوق .

وله شعر لم يدونه الجبرتى منه هذه القصيدة التى قالها فى تهنئة صديق له كان نقيباً لأشراف القدس ، وأبعد عن النقابة ثم عاد إليها مرة أخرى ، وأولها :

الحمـــد لله على فضله   قد رجع الحق إلى أهله
وآض روض الفضل ذا بهجة   من بعد ما أشفق من محله
قد يطلب الحسناء من لم يكن   كفؤاً لها ، للحمق فى عقله

ومنها :

قد يتساوى اثنان فى منصب   وإنما التفريق فى سبله
ومفخر المرء بأفعـــاله   لا بالذى قد مات من أهله
وقد يسود الشخص آباءه   ويشرف الفرع على أصله
وقد نرى فرعين من دوحة   تخالفا فى الحـكم ، مع شكله
فالخل والخمر عصير ، وقد   باين هـــذا ذاك فى فعله

(١) الزرجون شجر العنب ، بلغة أهل الطائف وقيل قضبانه .
(٢) الخشف ، بتثليث الخاء ولد الظبى ، أول مايولد .

وله هذان البيتان فى وصف مدينة أسيوط . وكان قد أقام فيها زمناً هرباً من الطاعون :

سقياً لأسيوط ، ذات الظل والشجر ومرتع اللهو ، واللذات ، والزهر
منــازل بصنوف العيش عامرة يلهو النديم بها فى مشتهى العطر

وللشيخ ، وقد عرفنا أنه تولى مشيخة الأزهر ، هـذا الغزل الذى أورده الجبرتى :

أعن المحب ثناك عنه وجيبه . . . ؟ أم قد دعاك إلى البعاد رقيبه . . . ؟
هجر الـكرى ، لما هجرت ، وواصلتـ ـه شجونه ، وازداد فيك نحيبه
لم يجن ذنباً ، فى هواك ، وإنما قد كان ، بالهجران ، منك نصيبه
أفقرته من حسن وصلك ، بعد ما جادت عليــك دموعه ، ونسيبه
وتركته ، والفـكر منك مع النهـا ر ، سميره ، والسهد منــك منيبه
لو لِلّقا عطفتك منـه شكاية رقّت ، ودمع طافح شؤبوبه
لرأيت جسما كالخلال ، من الضنا ولهيب قلب ، مقلتاه تذيبـــه

. . . .

أفلا رثيت لعاشق لعبت به أيدى المنون ، ونازعتـــه خطوبه
أنت النعيم له ، ومن عجب تعذ به ، وتمرضه ، وأنت طبيبه . . . !

وهذه أيضاً ، وقد قالها فى مدح إبراهيم بن محمد على عند عودته منصوراً من الشام :

سمهرى ينثنى ، أم غصن بان . . ؟ أم قوام ، دونه ، صبرى بان . . ؟
صان بالعسال[1] معسول اللمى وتهـادى ، هادماً ما أنا بان
يا مليك الحسن ، رفقاً بشجٍ كلما حاول كتم الشجو ، بان
مرج البحرين فيضا ، دمعـــه إذ رأى جفنيـــه لا يلتقيان

(١) العسال الرمح .

جاء ، لما جار سلطان الهوى ‏ طالباً ، من عادل القد ، الأمان

رب ساق ، وهو قاس قلبه ‏ عطفه ، منذ أدار الكأس ، لان

أهيف إن ماس تيهاً ، ورنا ‏ رحت منه بين سيف وسنان

كسر القلب ، وما كان التقى ‏ فيه ، من حين هواه ، ساكنان

... ...

يا نديمي قم ، وباكرها ، وطب ‏ هذه الجنة والحور الحسان

وأدر لى بنت كرم عتقت ‏ نورها الباهر يحكى البهرمان[1]

ولا نجد هذا الحديث كله عن العطار عند صديقه الجبرتى . وقد أكملناه من سيرة كتبها ابن له . وحفظها على مبارك فى الجزء الرابع من خططه .

الشيخ عبد الله الشرقاوى

وهناك شيخ للأزهر آخر ، هو الشيخ عبد الله الشرقاوى . وكان ، من كبار الرجال فى ذلك العصر ، ورئيساً ثلاث مرات للديوان الخصوصى الذى أنشأه نابليون وخلفاؤه . وقد كتب الشيخ رسالة فى تاريخ مصر سماها « تحفة الناظرين، فيمن ولى مصر من الولاة والسلاطين[2] » وجعل هذه مقدمتها : « إنه لما حل ركاب الصدر الأعظم ،والوزير الأفخم ، والدستور الأكرم ، حضرة مولانا الوزير يوسف باشا ، بلغه الله من المرادات ماشا ، بمدينة بلبيس فى شهر رمضان سنة ١٢١٤ بعد حصول الصلح بينه وبين طائفة الفرنساوية ، فى قلعة العريش ، وذهبت مع بعض علماء مصر لملاقاته ، طلب منى بعض الإخوان ، من أتباع ذلك الصدر الأعظم ، أن أجمع كتاباً متضمناً لواقعة الحال المذكور » .

ومن رسالة الشيخ الشرقاوى هذه ، تحفة الناظرين ، نستطيع أن نعرف مستواه الذهنى ، ومدى فهمه للتاريخ . كما نعرف ، فى ثنايا صفحاته ، قيمة إدراكه الوطنى ، وإحساسه ، أو رأيه ، فى أهل مصر .

---

(١) البهرمان نوع من الياقوت الأحمر ، وهو فارسى

(٢) طبعت هذه الرسالة فى المطبعة الوهبية بالقاهرة سنة ١٢٨١ هـ فى ٧٢ صفحة من القطع الصغير .

أما إدراكه الوطنى فقد يبدو فى هذه الصفحات ، التى ذكر فيها خصائص أهل مصر ، وصفاتهم الغالبة ، والتى ننقل منها هذه السطور : « . . . وإن أهل مصر ، الغالب عليهم الأفراح ، واتباع الشهوات ، والانهماك فى اللذات ، وتصديق المحالات . وفى أخلاقهم رقة ، وعندهم بشاشة ، وملقة ، ومكر ، وخداع . ولا ينظرون فى عواقب الأمور . وعندهم قلة الصبر فى الشدائد . والقنوط من الفرج . وشدة الخوف من السلطان . ويخبرون بالأمور المستقبلة ، قبل أن تقع »[1] .

وقد يكون هذا الذى سجله الشيخ ، بعضه أو كله ، من صفات أهل مصر الغالبة . ولكنه ليس كل صفاتهم ، على التحقيق . وليس صفة ملازمة لهم على الدوام فى كل الأزمان . فهو لم يذكر لهم صفة حسنة طيبة ، فى مقابل هذه الصفحات ، المعيبة .

وأما مستوى ذهنه ، ومدى فهمه للتاريخ . فنحن مدركوه عندما نراه يقول — وهو يكتب التاريخ — إن أقصر الفراعنة أعماراً ، كانت أسنانهم مائتى سنة . وكان أطولهم عمراً ، سنه ستمائة سنة . وأن فرعون موسى كان قصيراً . طوله ستة أشبار . وطول لحيته سبعة . . ! وقيل كان طوله ذراعا واحداً . وأن هذا الفرعون بقى على عرش مصر خمسمائة سنة .

وأن بعض الفراعنة ، كان من الكهان . وكانت لهم أعمال عجيبة . فمن ذلك ، كما يقول الشيخ ، أن الملك الكاهن ، صيلم ، اتخذ مقياساً على النيل ، وأنشأ بركة من النحاس عليها عقابان ، ذكر وأنثى ، وفيها قليل من الماء . فإذا كان أول شهر يزيد فيه النيل ، اجتمعت الكهنة وتكلموا بكلام . فيصفر أحد العقابين . فإن كان هذا الذى صدر منه الصفير ، هو الذكر . جاء النيل عاليا . وإن كانت الأنثى جاء ناقصا .

---

(١) ص ٨ من الرسالة .

ومنها أن الملك الكاهن ، أعشامش ، عمل ميزاناً فى هيكل الشمس . وكتب على إحدى كفتيه كلمة « الحق » وعلى الأخرى كلمة « الباطل » ووضع تحت كل منهما فصوصاً . فإذا جاء إليه متخاصمان ، أخذ فصين ، وقرأ عليهما كلاما. وجعل كل فص منهما فى كفة . فتثقل كفة المظلوم . وترتفع كفة الظالم .

ومنها أن فرعونا من هؤلاء الكهان كانت له مرآة يرى فيها الأقاليم السبعة ، المخصب منها والمجدب . وينظر فيها فيرى ما حدث من الحوادث . وأنه أقام فى وسط المدينة تمثال امرأة جالسة ، وفى حجرها صبى ، كأنها ترضعه . فإن أصاب امرأة مرض فى جسمها ، مسحت ما يقابل هـذا الموضع من التمثال . فتبرأ من ساعتها .

ووضع فرعون آخر من هؤلاء ، شجرة أغصانها من حديد ، ولها خطاطيف . فإذا قرب منها الظالم خطفته ، وتعلقت به . فلا تتركه حتى يعترف بظلمه .

وعمل فرعون آخر شجرة من نحاس . كلما قرب منها وحش لم يستطع الحركة ، حتى يؤخذ . فشبعت الناس لحما ، فى أيامه . ووضع على باب المدينة صنمين ، عن يمين ، وعن شمال . فإذا دخل المدينة رجل من أهل الخير ، ضحك الصنم الذى عن يمين الباب . وإذا دخل رجل من أهل الشر ، بكى الذى على اليسار .

أما الملك السادس ، فقد كان يجلس فى السحاب ، فى صورة إنسان عظيم .

وقد غاب عن ملكه زمناً ، حتى ظل أهل مصر بلا فرعون . ثم رأوه ، فى صورة الشمس فى برج الحمل . فكلمهم ، من الشمس ، وأعلمهم أنه لا يعود إليهم . وأن يولوا فلاناً بعده .

وضرب فرعون آخر درهما ، إذا وضع فى كفة الميزان ، ووضع فى كفته الأخرى ما يريد أن يشتريه المشترى . فإن كفة هذا الميزان لا تشيل أبداً ، مهما وضع فيها من هذا الشىء المباع . ثم قال الشيخ ، إن درهما من هذه الدراهم ، وجد فى كنوز مصر ، فى أيام بنى أمية .

هكذا يكتب الشيخ عبد الله الشرقاوى ، التاريخ . وقد كان شيخا للأزهر ،

ومقدما بين علماء عصره . ورئيساً مختاراً للدواوين الذى حكم الفرنسيون مصر ، عن طريقها .

وهذه النماذج التى ذكرتها ، وقصدت أن أطيل ، بعض الإطالة ، فى سردها ، لا تدل على مستوى الفهم ، والتفكير ، عند الشيخ وحده . بل هى ذات دلالة ، إلى حد كبير ، على المستوى الفكرى . لعلماء ذلك العصر .

ومن المفيد أن نعرف أن للشيخ عبد الله الشرقاوى مؤلفات ، وكتب فى فقه الشافعية ، وشروح ، وحواش . تعتبر من أكبر المراجع المتداولة عند أهل الأزهر . والمقررة للتدريس فيه .

وفى كتاب تحفة الناظرين هذا ، أخطاء نحوية ، ولغوية يدركها من يقرؤه . كما حفظت وثائق الحملة الفرنسية نماذج من توقيعات الشيخ عبدالله الشرقاوى وتقريرات بخطه ، ومن إنشائه . كان يكتبها على ما يقدم للديوان من شكاوى ، وهى ركيكة الأسلوب . سوقية العبارة . فيها من الأخطاء اللغوية ما يخجل منه طلبة المدارس الآن (١) .

وقد رأينا فى فصل « الأزهر والعلماء » أمثلة أخرى من شعر الشعراء منهم ، فى ذلك العصر (٢) .

حسن البدرى الحجازى

ومن الشعراء الكبار ، الذين ترجم لهم الجبرتى ، الشيخ حسن البدرى الحجازى . كان عالماً ، شاعراً ، ملازماً للقراءة والدرس ، قليل الخلطة بالناس كثير النقد لأهل عصره . نظم أرجوزة فى التصوف نحو ألف وخمسمائة بيت ضمنها أمثالاً ، ونوادر ، وقصصاً . وألف ديواناً على حروف المعجم ، سماه « تنبيه الأفكار ، للنافع والضار » تعرض فيه لأخلاق الأشرار من الناس ، وانحراف طبائعهم . وله رسالة فى الأشكال المنطقية . ورسائل أخرى فى الوضع ، والنحو . والمنطق . وقد استشهد الجبرتى بكثير من شعره فى مواضع كثيرة من كتابه . وتوفى سنة ١١٣١ هـ

---

(١) نشر الأستاذ أحمد حافظ عوض صورة فتوغرافية لهذه التوقيعات فى كتابه « فتح مصر الحديث » ص ٣٠٤ — ٣٠٨ نقلها عن وثائق الحملة الفرنسية .

(٢) فى الجزء الثاني من الكتاب .

وللشيخ حسن البدرى الحجازى شعر يدل على أنه كان غير خاضع لما كان يخضع له الناس فى عصره من أفهام وأوهام . ولو أن أسلوبه ردىء .

فمن ذلك هذه القصيدة ، التى يتعرض فيها للجاهلين من مدعى الولاية والصلاح . ولصنف من « العلماء » :— وقد قالها فى الشيخ على البكرى .

ليتنا لم نعش الى أن رأينا　　كل ذى رجنّة ، لدى الناس قطبا
علما ، هم به يلوذون ، بل قد　　تخذوه ، من دون ذى العرش ، ربا
إذ نسوا الله ، قائلين : فلان　　، عن جميع الأنام ، يفرج كربا
وإذا مات يجعلوه مزارا　　وله يهرعون ، عجما وعربا
بعضهم قبّل الضريح ، وبعض　　عتبَ الباب قبلوه ، وتربا
هكذا المشركون تفعل مع اصـ　　ـنامهم ، تبتغى بذلك قربا
وألو العلم والقرآن ، عليهم　　صُبَّ سوط العذاب ، والمقت ، صبا
إذ رموهم بالفسق ، والزور والجو　　ر ، وظلم العباد ، سلبا ونهبا
كل ذا من عمى البصيرة ، والويـ　　ـل لشخصى أعمى له الله قلبا
والحجازىّ ، من سمى حسنا ، ينـ　　ـظر ما خالف الشريعة ، صعبا
فالحذار ، الحذار من فعل أهل الـ　　ـجهل ، لو عالما يدرس كتبا
جعل العلم فخّ صيد لدنيا　　ه ، فساوى ، فى صنعة السوء ، كلبا
لا ، بل الكلب منه خير ، إذ الكلـ　　ـب عديم العقاب ، فى يوم عقبى

وله هذان البيتان فى بعض العلماء :—

رب قصير فى الورى ، لحيته　　طوّلها الله ، بلا فائدة
كأنها بعض ليالى الشتا　　طويلة ، مظلمة ، باردة

وكان الشيخ الحجازى كثير التعرض لهذا الصنف من الناس ، يذكرهم بهذه الأوصاف فى كثير من شعره . كهذه القصيدة القاسية ، فى مدعى الولاية والتصوف :—

إحذر أولى التسبيح والسبحة　　والصوف ، والعكاز ، والشملة
والدّلق ، والأبريق . لا سيما　　شيوخ إبليس ، أولى الشعرة

حوت أباليس بتعـداد ما حوت شـعورا ، بل بلا عدّة
والمكرُ ، فات الحصر كالبحر ، بل يعدّ فيـه البحر كالقطرة
فصار إبليس لهـم تابعـا يقـول : يا للعون والنجدة
ممـا حويتم علمونى ، فما لى عنكم ، فى المكر ، من غنية
لـكم قيادى ، وانقيادى ، وما مثلكم فى النـاد والنـدوة
بملء لافواه ينـادون : يا أهل الوفا ، يا صاحب النوبة
ياشـافعى ، ياقطب ، يارافعى يا للرفاعى ، يابنى الرفعـة
ياسـيدى أحمد ، يا أوليا ء الـكون ، عينونا على الجملة
ذو كرّة ، والمـال يبغون ما لهم ، بغير المـال ، من بغية
لـكنهم ، فى الفسق ، أرقى الورى كما ترى ، من غـير ما مرية
اتخـذوا المرد مراد لهـم تهالـكوا فيهم على الهلكة

وهى قصيدة طويلة ، قسا فيها على هؤلاء المدعين قسوة بالغة ، ولـكنها صادقة مخلصة . ووصفهم وصفاً يثير النفس . وهذه القصيدة نفسها ترسم صورة تستحق التأمل ، لناحية من نواحى الحياة الاجتماعية ، والدينية فى هذا العصر .

ونوع آخر من أنواع الشعر ، أكثر منه البدرى الحجازى . وهو شعر النصيحة ، كهذه القصيدة التى مطلعها : —

أخى فطنا كن ، واحذر الناس جملة ولا تك مغرور الظنون الـكواذب

وقوله : —

كن جار كلبٍ ، وجار الشّرة اجتنب ولو أخاً لك ، من أم ، يرى ، وأب

و : —

حذار حـذار من قرب الأقارب فهم صـلّ الأفاعى ، والعقارب

و : —

إذا امرأة ، يوما خطبتَ ، فلم تجب فدعها ، ولا ترجع لخطبتها ، العمرا

وغيرها كثير .

وله كذلك شعر يبتسم القارئ حين يقرؤه . لما فيه من دلالة على ذوقه ..

الذى هو سمة من سمات أهل القاهرة . فهو ، مثلا ، يقول هذه الأبيات يشكو بها ما يرى من قذارة بعض الأحياء التى يعيش فيها الفقراء من « أولاد العرب » . وهى أبيات تصلح للاستشهاد ، فى بعض هذه الأحياء ، إلى الآن : —

حارات أولا العــرب سبعاً حوت ، من الـكرب
بولاً ، وغائطا ، كذا ترْب ، غبارٌ ، سو أدب
وضجة . وأهلهــا ، مثل عفــاريت الترب

وله كذلك ، شعر يسجل فيه كبير الأحداث التى وقعت فى عصره . كهذه القصيدة[1] التى أولها :

أيها الإنسان ، دع عنك الدَّغَش لا تكن ممن عباد الله غش

وهى قصيدة طريفة ، أرخ فيها وقائع خليل باشا وإيواظ بك الـكبير ، ويوسف بك الجزار . وجعل ختامها هذا البيت ، مؤرخاً به : —

والحجازىّ حسن قـد أرَّخا يوسف الجزار ، كأسٌ قد قَرَش

يريد أنه شرب كأس الموت .

الأدكاوى

ومن الشعراء الذين ترجم لهم الجبرتى ، الشيخ الأدكاوى . وقد عرفه بالعمدة الفاضل الـكامل ، والأديب الماهر ، الناظم الناثر الشيخ عبد الله بن عبد الله بن سلامة الأدكاوى المصرى ، الشهير بالمؤذن . ولد بأدكو ، بالقرب من رشيد سنة ١١٠٤ ، ثم قدم القاهرة لحفظ القرآن وحضر دروس العلماء ، وأدرك الطبقة الأولى . كالسيد على برهان زادة ، نقيب الأشراف ، وكبير أدباء عصره والشيخ الشبراوى ، والشيخ الحفنى . وكان ، إلى تبريزه فى الشعر والنثر ، جيد الخط ، له فيه قاعدة اشتهرت باسمه ، وتدارسها الناس فى مصر .

وقد صار ، فى الشعر ، والنثر ، والخط ، أوحد زمانه ، حتى توفى شيخه الحفنى ، فتغير حاله ، واعترته الأمراض ، ومرض أياما ثم مات ، فى يوم الخميس ، الخامس من جمادى الأولى سنة ١١٨٤ ، ودفن قريباً من قبر شيخه الحفنى .

---

(١) ص ١١٣ — ١١٤ ، الجزء الأول من الجبرتى .

وشعر الأدكاوى هذا ، أرق ، وأجود ، وأصح من شعر البدرى الحجازى .

وهذه نماذج من شعره ، وهو ، كأدب ذلك العصر كله . حافل بالجناس والتورية والاقتباس . وما يشبه ذلك من المحسنات : —

سل الله ، ذا المن العظيم ، ولا تسل　　سواه ، فإن الله يعطيك ما تبغى

ومهما تنل مارمته ، يا أخا الحجى　　من الأمل المطلوب ، فاقنع ، ولا تبغى

وله هذه القطعة اللطيفة من الشعر . وفيها تعبير كان يظن أنه من مبتكرات عصرنا . وهو التعبير عن الكتاب والأدباء ، بأنهم أرباب الأقلام أو حملة الأقلام :

وعصبة سوء تجافيتهم　　ونزهت نفسى عن دائهم

لحانىَ قوم ، على تركهم　　وقالوا : ألست من أكفائهم ؟

فقلت لهم : عذرنا واضح　　على ترك ساحة أحيائهم

فنحن نعيش بأقلامنا　　وهم عائشون بأقفائهم ... !

وللأدكاوى مبتكرات فى الشعر ، منها هذا الذى سماه « وسع الاطلاع » وقد قسمه أربعة أقسام ، أولها أن يكون أول كل كلمة ، أولا لأختها . ومنه يقول :

بهىّ بدا بالواصل ، برّاً بصبه　　يزوْرته بانت بلابل باله

وثانيها أن تكون كل كلمة مكونة من حرف منقوط ، وحرف عاطل ، سوى القافية . ومنه يقول :

جميل ، بديع ، جل ذاتا بهيَّةً　　به زدت حباً ، فاتك بجماله

وثالثها أن يكون البيت مركباً من كلمات ، إحداها منقوطة والأخرى عاطلة ويسميه الأخيف ومنه يقول :

جننت ولوعاً ، فى هواه شغفت كم　　فتنت ، عساه يجتنى لكماله

ورابعها أن تكون جميع الكلمات منقوطة ، ومنه قوله :

شفيق ، شقيق ، شيّق ، شنب ، شنى　　بغنج . بجفنٍ شفّنى بنبـــاله

وله شعر مما لا يستحيل بالانعكاس . أى أنه يقرؤ من آخره لأوله كما يقرؤ من أوله لآخره ، فلا يتغير . كالشطر الثانى من هذا البيت :

بانعكاس قولنا لم ينعكس　　　ألغ من نمَّ ، فمن نم غلا

وله شعر التزم فيه أن تبدأ الكلمة بالحرف الذى ختمت به سابقتها ، كهذه الشطرة : تأمل لما أبداه هذا المهفهف .

وهذا ، كما ترى ، لعب سخيف ، وعبث ثقيل . استحال به الشعر إلى كلام معجم مرذول .

ومن الغريب أن الأدكاوى ، الذى يشتغل بهذا اللون من السخف المرذول ، يدعو معاصريه إلى أن يكونوا غير متعصبين لنوع من الشعر ، ولا لأحد من الشعراء ، أو عصر من العصور . كأنه رجل حر الفكر ، غيرمقلد ، فهو يقول :

كن للمعاصر خير ناصر　　　كم للأواخر من مفاخر
لا تحقرن جديدهم　　　كم فى جديدهم جواهر
ودع التعصب ، للأوا　　　ئل ، يافتى ، أو للأواخر
من كان منهم مبدعاً　　　فاعقد عليه من الخناصر

ولعله كان يرى هذا اللعب السخيف ، الذى كان يخترعه ، نوعاً من الإبداع .

ولكننا نجد للأدكاوى ، شيئاً غير قليل من شعر لا بأس به كهذين البيتين ، وقد قالهما بعد أن شفى من مرض أشرف فيه على الموت :

قد حصل اللطف فى القضاء وقد　　　أزال ربى ما كنت أخشاه
ولست أشكو لغيره أبدا　　　فالحمد لله ، ليس إلا هو

وهذه الأبيات ، التى قالها فى الراح والساقى الجميل ، المدلل ، وهى تخميس أبيات أخرى لابن منجك .

طاف بالراح مشتهانا المدلل　　　ينثنى ، مثل بانة تتميَّل
قلت ، مذ زمزم الكؤوس ، وأقبل

نتفــداك ساقياً ، قد كساك الـ حسن، من فرقك المضىء ، لساقك
فى معانيك حار فـكرى ، ووصفى فلأى الصفات أبدى ، وأخفى
وعجيب ، من حيث تبدو لطرفى .
تشرق الشمس من يديك ، ومن فيـ ـك الثريا ، والبدر من أطواقك

وهذين البيتين :

قالوا : تغربت يا هذا ، فقلت لهم : دعوا ملامى ، فإنى غير مستمع
إذا تغربت ، والدينار يصحبنى ، لم أدر ما غربة الأوطان ، وهو معى

وهذه الأبيات ، فى الغزل :

بقبــلة جاد حبى وكان منى يفـــرّ
فقلت : يا قلب أبشر فأول الغيث قطر

و :

نحن قوم إذا رأينا مليحاً جامعاً فى جماله كل بهجة
وأردنا بالاحتيـــال ، نراه ، نجعل الشرب ، للتفرج ، حجة !

وللأدكاوى بعض من الشعر الماجن . منه ما أفحش فيه ، حتى خرج عن الحد ولا أستطيع أن أنقله فى هذا الـكتاب . فهو مما لا تجيز آداب الناس ، ولا يبيح القانون ، أن يكتب ويذاع . هو مما نسميه الآن بالأدب المـكشوف .

ولـكن بعضاً من هذا الشعر ، فيه هزل وليس فيه فحش ، أستطيع أن أنقل شيئاً منه ، كهذه الأبيات التى قالها فى الصداقة الزائفة :

إذا المرء لم ينفعك ، والدهر مقبل عليه ، ولم تخطر عليـــه ببال
فصوّره،فى وسْط الـكنيف، بفحمة وشرشر عليه ، عند كل مبال

وقد وضع لها بعد ذلك تخميساً فقال :

إذا المرء لم ينفعك ، والدهر مقبل عليه ، بما قد كان يرجو ويأمل
وأضحى ، بثوب التيه والـكبر ، يرفل وصـار يرى منك المودة تثقل
عليه ، ولم تخطر عليه ببـال

فصوره ، فى وسط الكنيف بفحمة   وكن ، حالة التصوير ، فى وقت ظلمة

ومر كلٌّ مبطونٍ وصاحب تخمة   على رأسه يخ . . . ، بعزم ، وهمة

وشرشر عليه ، عند كل مبال

وهذين البيتين : —

هيأ البلانُ موسى خلوةً تحيى النفوسا

قيل : — ما تفعل فيها . . ؟   قلت : — أستعمل موسى . . !

وقد وددت لو أنى أستطيع أن أنقل هذا الشعر الماجن كله . فهو يصور هذه الروح القاهرية المصرية الخالصة ، فى ذلك العصر . وهو صورة حية من الشعر ، ومن حياة الناس ، أو الأدباء ، وأهل الترف ، إذ ذاك . ولكن يستطيع القارئ أن يجده فى صفحات كثيرة من الجبرتى ، وخاصة فى تلك التى ترجم له فيها ، عند وفاته[1] .

وقد ذكر الجبرتى أن له مقامة فى المجون ، إسمها المقامة « القمذية » . ولكنه لم يدونها ، وليته فعل ، ولم يقل لنا معنى هذه التسمية .

وللأدكاوى مقامات أخرى ، أورد الجبرتى واحدة منها ، اسمها المقامة السكندرية . وقد التزم فيها أثقل القيود ، حتى صعب فهمها ، وأصبحت ثقيلة باردة . كما ألف كثيراً من الكتب . منها ، غير ديوان شعره ، بضاعة الأريب ، فى شعر الغريب . وقد تناول فيه تراجم بعض معاصريه من أهل الأدب والعلم ، ومنها الفوائح الجنانية ، فى المدائح الرضوانية ، كتبه فى مدح الأمير رضوان الجلفى ، وسجل فيه ما قاله غيره من المدائح فى هذا الأمير . والدر الثمين ، فى المحاسن والتضمين وتخميس بانت سعاد ، وهداية المتهومين ، فى كذب المنجمين وغيرها .

وروى له الجبرتى بعضاً من الشعر ، جعل بعض أشطره جملا فارسية . وقد يدل ذلك على معرفته هذه اللغة . وقد لا يدل على ذلك — بل هى كلمات عرفها ،

(١) ص ٣٥٤ — ٣٦٥ من الجزء الأول .

وفهم مدلولها من أصدقائه . أو مجالسه . ثم استخدمها فى هذا الشعر إظهاراً للصنعة والمقدرة .

ولكن ذلك، على أى حال ، يدل، إلى جانب ما أسلفنا من قبل، على أن اللغة الفارسية كانت ، إلى جنب اللغة التركية ، لغة غير مجهولة فى المجتمع المصرى ، أو فى الحياة الأدبية لهذا العصر .

وهذه أبيات مما ضمنه الأدكاوى اللغة الفارسية : —

وخود من بنات الفرس ألقت محبتها لهيبا فى حشائى

وقد ملَّكتها رقى وحلَّت محل السر ، منى ، والوفاء

تعاملنى بما يسبى فؤادى وتمنحنى سرورا باللقاء

سطا فينا النوى ، فأتيتها كى أمتع ناظرى ، قبل التنائى

وقالت لى ، وقد أذرت دموعا ، على الخد المكلل بالبهاء

بألفاظ تحاكى عقد در «جه بودى كرنبودى آشنائى»[1]

وكانت بين الأدكاوى والشيخ عبد الرحمن العيدروسى مراسلات شعرية ، نجدها فى ديوان هذا الأخير .

الشاعر الظريف الحجازى

وقد امتاز النصف الثانى من هذا القرن ، الثانى عشر الهجرى ، بهذا النوع من الشعر الظريف الماجن ، الذى رأينا بعضا منه فى شعر الشيخ عبد الله الأدكاوى، فى الصفحات السابقة .

فقبل سنتين من وفاة الأدكاوى ، مات شاعر آخر ، يشاركه فى هذا الظرف،

---

(١) يمكن أن يترجم الشطر الفارسى إلى اللغة العربية بهذه الكلمات « ماذا تكون إن لم تكن عارفاً أو خبيرا ؟ . . . وهو معنى يتلائم وسياق الشعر ، ويكمل مدلوله .

وهذا المجون . كما يشاركه فى صفات أخرى . وكان هذا الشاعر شريفا علويا . حاكما على المدينة .

ترجم له الجبرتى بأنه « وحيد دهره فى المفاخر ، وفريد عصره فى المآثر ، نخبة السلالة الهاشمية ، وطراز العصابة المصطفوية . السيد جعفر بن محمد البيتى السقاف باعلوى الحسينى . أديب جزيرة الحجاز »

وقد ولد جعفر هذا بمكة ، ودرس على علمائها ، حتى أجازوه فى أن يلقى دروسا، فألقى فى مكة دروسا . ثم تنقلت به الأحوال حتى تولى وظيفة الكتابة عند حاكم مدينة ينبع ثم صار حاكما على المدينة . وتوفى بها ، فى سنة ١١٨٢

أنشأ هذا الشاعر العلوى كثيرا من الشعر ، فى المدح،والغزل ، والمراسلات . ولكن الجبرتى لم يحفظ لنا غير طائفة يسيرة من شعره . وقليل من المقامات التى أنشأها .

أما مقاماته ، فليس فيها سوى السجع المتكلف ، الثقيل ، المصنوع ، وإن كان بعضها يحتوى قصة ظريفة هازلة . كما يحتوى شعرا ظريفا أيضاً . وأما شعره ، فهو سمح ، سهل، يسير . نستطيع أن نضعه حيث يوضع الشعر الجيد، أو الحسن، بالقياس إلى ما نجد من شعر ذلك العصر .

فشعر جعفر السقاف العلوى ، حاكم المدينة ، وأديب جزيرة الحجاز ، من أجود ما نجده من ذلك الشعر الذى سجله الجبرتى ، لمن ترجم لهم ، أو روى لهم شعرا . ويقول الجبرتى إن الناس كانوا يتهافتون على شعره،ويبادرون إلى حفظه ، وترديده .

ومن شعره هذه القصيدة : —

حيى بكأسك لى ، مع نسمة السحر ، وسلسلى : الراح ، من نحرى إلى سحرى

حيى براحك ، يا روحى، على جسدى ، أفديك بالنفس ، يا سمعى ، ويا بصرى

هبى بشمسك ، فى ظل الشباب ، وفى ظل الغصون ، وفى ظل من الشعر

هبى وشقى « قميص الغىّ » من قبل فالراح شقت قميص الليل من دبر

ووسطى بيننا ، فى الشرب ، واسطة   من كأس ثغرك ، هذا الطيّب ، العطر
خداك ، والروض ، أزهـار مضاعفة   وذى الدرارى ، وذى الكاسات ، كالدرر
ناهيك من جـودة التجنيس بينهما   ما أطيب الشرب ، بين الزهر والزَهر
صُفى قنانيك ، حول الـكأس ، راكعة   وحيـّعلى ، وأقيمى الوتِر ، بالوتر
دنياك معشوقة ، والخمـــر ريقتها .   يا ضيعة العمر ، بين السكر والسكر
ردى عهودك لى ، كى أشتكى حزنى   إلى ربيعىَ ، ما كابدت ، فى صـغرى

وهذا شعر ، كما ترى ، حسن ، إذا راعينا مستوى الشعر ، وطاقة الشعراء ، فى ذلك العصر . وهو شعر طلق ، رقيق . فيه كـثير من الحرية. وفيه روح الترف والنعيم ، وما هو جدير أن يصدر عن شريف كان أميرا على المدينة .

ومن شعر جعفر ، أيضا ، هذه القصيدة ، يمدح فيها صديقا : —

تلك رؤيا ، قصصتها لك ، فانظر   لىَ ، فيها ، التأويل ، والتعبيرا
وعرضنـا فلزّ حـظ عبيط[1]   وأفضنـا ، لرأيك ، التـدبيرا
ولك الأمر فيه ، حلا ، وعقدا   ربمـا عاد ثابتاً إكسـيرا
صحّ قلب العيان فيه ، وأضحى   جابرٌ ، قلبـه ، به ، مكسـورا
ثم قلنـا للكيميـاء سـلام   قد كفينا التصعيد ، والتقطيرا
وفرغنـا ننظّـم الدر من مد   ح مساعيك ، غدوة وبكورا
واشتغلنـا ، مع المحبـين نتلوا   لك فرقان مـدحةٍ ، وزبورا
فنساقى من تلك كاسا دهاقا   كان ، فينـا ، مزاجهـا كافورا
شيماً ، لو تجسمت ، منك كانت   هى ، للناس ، جنـة وحريرا

. . .   . . .

وإذا ما رأيت ثمَّ من المج   د ، مقاما ، رأيت ملكا كبيرا

---

(١) من معاني « عبط » ، فى القاموس ، الداهية تصيب الرجل ، من غير استحقاق وعبط الذبيحة نحرها من غير علة .

أبدا ، فى مواكد الفخر تستعـ بد كسرى الملوك ، أو سابورا

. . . . . .

يا لأنسان رفعة ، أنت ، فينا يرجع الطرف ، إن رآك ، حسيرا

بيت حبي ما زال فيك مدى الد هر ، دواما ، مشيدا ، معمورا

فتقبل ، إليك ، حور معان قد سكنّ الألفاظ ،منى ، قصورا

. . . . . .

وابق ، واسلم ، كما تشاء المعالى تبق ذكرى خير ، وتفنى الدهورا

أبدا ، كلما خصصْت بمدح وسعى ، نحوك ، القريض ،سفيرا

ونحن نرى فى هذه القصيدة شيئاً من الثقافة العلمية .فهو يذكر ،من مصطلحات الكيمياء ، الفلز ، والأكسير ، ومن تجاربها التصعيد ، والتقطير ، ويذكر اسم جابر بن حيان ، الكيميائى الكبير ، ليستخدمه فى المقابلة بالمكسور .

وللسيد الشريف العلوى شعر التزم فيه التشبيه ، والقلب والتبديل ،والكناية، والترادف ، والأدخال والألغاز . إلى آخر هذه المحسنات التى كانت تعجب الذوق ، وتروق لكثيرين من شعراء ذلك العصر ومتأدبيه . ولكن له ، إلى جنب ذلك شعرا مرحا ، لطيفا ، يكاد أن يكون باللغة العامية المصرية . أو هو منها قريب .فمن ذلك هذه القصيدة التى بعث بها إلى صديق له ، يدعوه إلى مجلس غناء وشراب :

يا ابن ودّى ؛ وصديقى حال ما تقرا البطاقة

إلبس العمة ، واحضر لا تكن عندك عاقة

واركب الأدهم ، واركض واعطه منك الطلاقة

واكتم الأمر ، وبادر غفلة ، دون الرفاقة

كمل الوفق الثلاثى ولنا ، نحوك ، شاقة

فلدينا كأس راح واصطباح ، واغتباقة

ومليح أخجل الأغصا ن ، لينا ، ورشاقة

ومليح يشتهى « للبو س »[1] ، إن شئت اعتناقه

---

(١) « البوس » التقبيل . فارسى معرب .

وقد ذكر الجبرتى أنها طويلة ، ونقل منها ، بعد هذه الأبيات ، أربعة أخرى ، من الأدب المكشوف .

وله أيضاً هذه القصيدة . وفيها من المرح ، واللطف ، وخفة الروح ، شيء غير قليل . وفيها من السخرية بأهل النحو والصرف والعلة شيء أيضاً :

قد خلينا أمس ، لكن بقيت عندى خبلة
فاسقنا ، واشرب إلى أن نبق ، فى المجلس ، مثلة
ما يلذ السكر حتى يمضغ السكران نعله . . !
ويرى البغلة ديكا ويظن الفيل نملة
أسمع القسيس قد د قّ ؛ لشرب الراح ، طبلة
غفلة الواشى اغتنمها لا تكن عندك غفلة
إن تأخرت ، قليلا ، كتبت سبعون زلة ... !
خل عنى : قام زيد قعدت هند وعبلة
ضربت ، تضرب ، ضربا كل ذاك الصرف ، علة
حرت ، فى يعقوب ، والرملى ، متى أعرف رمله ..؟

وله هذان البيتان ، فى تفضيل نعمة العقل :

فضلك رزق زائد ، فوق ما ترزقه ، مع سائر الخلق
لأنه لا بد من بلغةٍ ثم الحجا رزق على رزق

ومن شعره ، فى الأصدقاء والناس :

ومن تك قد جربتَه ، فحمدته فعض عليه ، بالنواجذ أجمعا
ولا تتحول عن أخ قد عرفته لآخر ، ما جربته ، تندما معا
وما الناس إلا كالدواء ، فبعضه شفى وكفى ، والبعض آذى ، وأوجعا

وقد رأينا أنه كان كاتبا لحاكم ينبع ، وله فى هذه المدينة قصيدة لطيفة . وصف فيها ما رأى فى المدينة من أنواع البعوض ، والبق ، والفيران ، والبرغوث ، والقمل وذكر ما لقيه من هذه الحشرات ، من الأذى . وما كان يشرب ، فى ينبع ، من « ماء الزلاع » الذى هو معجون العلل ، والوباء ، والسقم . وما كان يجده فى طعامه من نمل وذباب . حتى أعضاء الفأر . كان يجد منها ، فى الطعام ، أذنه وكراعه .

ويذكر أيضاً ما كان يجد من كريه الرائحة ، حتى ودّ لو جدع أنفه . وهذه هى القصيدة ، وقد عارض فيها قصيدة قديمة معروفة ، لفتح الله النحاس :

رأى البق ، فى كل الجهات ، فراعه ... فلا تنكروا إعراضه ، وامتناعه
ولا تسألونى كيف بتّ ، فإننى ... لقيت عـــذاباً ، لا أطيق دفاعه
نزلنا بمرسى ينبع البحر ، مرة ... على غير رأى ، ما علمنا طباعه
نقارع ، من جند البعوض ، كتائبا ... وفرسان ناموس ، عدمنا قراعه
فلو عاينت عيناك ميدان ركضه ... رأيت جرئ القلب ، فيه ، شجاعه
وجنداً ، من الفيران ، فى البيت كامناً ... متى وجدوا خرقاً ، أحبوا اتساعه
ومن حط شيئاً فى جراب وبطة ... فما رام ، عند الفأر ، إلا ضياعه
وسُرْبَة[1] قمل تنبرى ، إثر سربة ... خفافاً ، إلى مص الدماء ، سراعه
ينازعها البرغوث لحمى ، فليته ... رضى بتلافى ، واكتفينا نزاعه
فلو يجد الملسوع ، من عظْم ما به ... من الصرخ درعا ، لاستخار ادراعه
فرب قميص كان شراً من العرى ... إذا ضمه الملتاع ، زاد التياعه
كأنى وصىٌّ للبراغيث ، قائم ... أقيت له أيتامه ، وجياعـــه
إذا شبع الملعـــون ، مجّ دماً على ... ثيابى ، فلا أحيا الإله شباعه
فما رشنا بالدمّ ، إلا لسانه ... ولم تر عينى مكره وخـــداعه
سلوا عن دمى سارى البعوض فإننى ... علمت ، يقيناً ، أنه قد أضاعه
فلله جلد صار ، بالحك ، أجربا ... أخاف عليه ، يا فلان انقشاعه
ونتن « كنيف » كلما هان عرفه ... أحاط به واشى الهوى ، فأذاعه
بخار كنيف ربما جلب العمى ... وسبب ، للآتى إليه ، انصراعه
فلو كان يجدى المرء تجديع أنفه ... لود ، الذى يأتى الكنيف ، اجتداعه
ولو كان قطع الأكل والشرب نافعاً ... لآثر ، بين العالمين ، انقطاعه
وكم قد أكلنا نملة ، وذبابة ... وفأراً ، بلعْنـــا أُذنه ، وكراعه

(١) جماعة : وفى القاموس : من معانى السربة ، أنها جمـاعة الخيل ، مابين العشرين إلى الثلاثين .

وماء زلاع ، صار معجون علة   شربناه كرهاً ، وادخرنا زلاعه
وباء ، وسقم ، لا محالة ، كله   ونرجو ، من الله العظيم ، ارتفاعه
. . .   .
إذا رنّم الناموس ، حولى ، أعلّنى   وصدع قلبى ، بالسجوع ، وراءه
وإن مص من دمّى وطار ، تبعته   إلى فائت منه ، أرجّى ارتجاعه
عدمت غناء ، مثل أنغام سجعه   فما كان أشنى سجعه وابتداعه
وقد نفدت فى دفعه كل حيلة   ولو كنت بالحسنى ، طلبت اندفاعه
فيا لأصيحابى ، اقتلونى ومالكا   فقد مد نحوى ، مفسد البق ، باعه
وأصبحت ، فى دار المشقة والعنا ،   أخالط أوغاد الورى ورعاعه

ثم يقول ، من هذه القصيدة ، فى وصف بعض هؤلاء الذين كان يخالطهم من الأعراب ، هذه الأبيات : —

وكلباً ، من الأعراب ، يعوى كأنه   يريد ، إذا لاقى الأمين ، ابتلاعه
فلو صاح ، فوق الصخر ، خرّ لوقته   وأبصرت، من ذاك الصياح، انصداعه
براه إله الخلق ، للناس، نقمةً   وقدّ ، من الصخر الأصم ، طباعه
فلا رحم الرحمن أرضاً يحلها   وباعد عنا ، بالسنين ، انتجاعه
ومن كل جبار عنيد ، يرى الورى   عبيداً لديه ، والبقاع بقاعه
شقىّ ، عصى الرحمنَ فى كل أمره   ومال إلى شيطانه ، وأطاعه

ثم يقول فى ختام قصيدته هذه : —

سلَونا عن الدنيا ، فكل نعيمها   متاع غرور ، لا يديم متاعه
وما اعتضت من كونى أديباً ، وفاضلا   لدى الناس ، إلا قوله ، وسماعه
ومن كان يرجو ، فى الأمانة ، مغنماً   نخلوا له أوضاعه ، وخراعه . . !
وقولوا له : — هذاك ينبع حاضر   لمن رام يبلو ضيره ، وانتفاعه
فكم كاتب أفنى اليراع كتابة   وملّ ، وألقى ، فى التراب ، يراعه
وكم بدوى داسه ، فوق بطنه ،   ومزق ، ما بين الأنام ، رقاعه

فمن جاء كم منا ، مع الليـــل ، شاردا　　فـــذاك لهول واقع ٍ فيه ، راعه
ومن يمتنع عن خدمة ، مثل هذه ،　　فـــلا تنكروا إعراضه وامتناعه
فما يكسب الـــكيال ، إلا غباره　　ولا الـكاتب المسكين ، إلا صداعه ..!

وفى مقامة من مقاماته ، يتخيل أنه صار تاجراً عظيما ، جزل ربحه ، وكثر ماله . فأراد أن يبذل ، من فضل هذا المال ، لأهله ، وأصحابه ، وجيرانه . فطفق يدور بين بيوتهم ، ينشد هذا الشعر اللطيف : —

ألا بشرى لجـــيرانى　　مع الأصحاب والأهل
فقد جاد لنا المـــولى　　محلٌّ الجود ، والفضل
ولا بد لأصحـــابى　　من الإنعام ، والبذل
لهم منى ، مـدى الأيا　　م ، فضل الزاد ، والأكل
وكل يكتسى مـــنى　　على الهيئة والشكل
من الفرو ، إلى الجو　　خة ، للعمة ، والنعل
وأيضاً خلعة ، أعطى　　من الرأس إلى الرجل
فسجِّل ، يا غلام الخ　　ير ، خيراتى ، على الـكل
وناد الأهل ، والجيرا　　ن ، وابعث نحوهم رسلى
وخاطبهم ، إذا اجتمعوا　　بدق الزمر ، والطبل
وقل : هذى مضايفنا　　وهذى ، قِدرنا ، تغلى
من اللحم إلى الرز　　إلى السمن ، إلى البقل
وأنواع من المشو　　ى ، والمغلى ، والمقلى
وأجناس ، من الزربا　　ج ، بالمشمش ، والخل
ولا تخرج بأضيافى　　إلى الشمس ، من الظل
وأما النقد ، فالحا　　ضر ، عامود ، وفندقلى
ومن يطلب ، زبجرنا　　ه ، إن شاء ، بزبجرلى
فدعنى ألبس التاج ،　　بهـذا المجلس الحفل
وإن كنت تنحنحْتَ　　أنا ، يا عبد ، نعَمْ لى

ترانی مقصــــد الحــاجا ت ، لا بعدی ، ولا قبلی
ترانی أقتل الأقـــرا ن يوم الحرب . من مثلی ؟
فإن كنت تريد الحـــر ب ، هذی الخيل ، ياخلی
فقل ما شئت فی قـــولی وقـل ما شئت فی فعلی
وإن كنت توضـــأت علی قصد الثنا ، صلی
وصف جودی ، وصف عودی وصف سيفی ، وصف نصلی
فهــذا الحبس ملآن من الأعـداء ، كالنمل
وهـــذا الخير مطروح علی الطرقات والسبل
بصيتی ، سارت الركبا ن ، من وعر إلی سهل
هنيئی اليوم بالأمـــوا ل ، قد أصبحت درهم لی ..!

ثم تخيل ، بعد هذا الثراء والعطاء ، أنه قد ولی أمر البلاد والممالك ، من خراسان إلی عمان ، ومن السودان إلی عبادان ، ومن جزيرة العرب إلی غوطة دمشق ، وحلب . فقام يهب ، لا المال والطعام ، ولا الفرو ، والجوخة والنعل . بل يهب الملك والحكم والسلطنة . ويقسم البلاد بين خلانه :

ثم رتّبت دفتراً للعطـــايا وقسّمت البلاد ، بين الأخلا
قلت ، ذاك الصديق أعطيه صنعا فی بنی حمير ، الكرام ، الأجلا
وعلی فارس صديق ، وأرض الرو م ثانٍ ، والهنـــد أو ليه خلا
حاصــــل الأمر أن كل محب لی ، علی قدر حظه ، يتولی
وأنا ، فی السحاب ، بيتی ، وتحتی كل يوم ، إلی السما ، يتعـــلی

ثم ينزل ، ملك الملوك ، من بيته فی السحاب ، يسعی إلی شیء من مال ينجز به عمله فيقول : —

واقترضنا ، فی الحال ، الفين دينا را نقضی بها ، هنالك ، شغلا
واشترينا خمسين عبدا خصيًّا منهم نصف ذاك ، إلا أقلا
واســـتعرنا لهم ثلاثين قاوو قاً ، علی رأسهم ، وللرجل نعلا

ثم ناديتهم وقلت ، هلمـــوا فادخلوا هذه الطوالة ، قبلا
كل شخص منكم حمارا ، ينقّى ثم شيخ العبيـــد يركب بغلا
وخذوا ذا السلاح ، سيفا ورمحا ودروعاً تسمو ، وقوسا ، ونبلا
واعرضـــوا نفسكم عليّ فإنى أشتهى العبد فى السلاح المحلى
واقعدوا ، عنـد بابنا ، ثم قولوا يوم تأتى الحمول ، أهلا وسهلا
ثم أنى فـكرت ، إن أصبح الخير علينا ، ماذا نقدم فعلا . . ؟
قلت : حط القماش والبن فى المجلس ، واجعل باقى التفاريق سفلا

ثم طفق يختار للتفاريق ، أى الهدايا ، أماكنها ، ويضع أحمال المسك فى خزائنها . حتى هجس فى نفسه هاجس الشك . هل تصل هذه الحمول فى غبش الليل ، أم فى طلوع الشمس ، أم لا تصل ..؟

يا ترى يغبشون أم تطلع الشمس عليهم ، أم لا يجيئون أصلا ؟..

وتنتهى به هذه الحيرة إلى أن يطلب إلى ثقاته أن يضربوا له « مندلا » فى رمل العراق . عساه أن يهتدى من حيرته المقلقة : —

إضربوا مندلا ، لنا يا ثقاتى ربما يحصـل المنى ، ولعـلا
دخنوا دخنة التهاطيل ، قولوا ياطهاطيل ،طهطهيلات ، طهلا
ألـْوحا ، ألوحا، ططاطيل، طيطا طوطبا ، طوطبا ، طلاطل ، طلا
هات لى يا غلام ، زايرجة الرمل ، عسانى ، منه ، أخرّج شكلا
إن ترى ، فى الطريق ، عيرالمطايا تتهـادى ، فحبذا الرمل رملا

ثم ينتهى الأمر إلى أن هذه الأموال ، التى يهب منها لمن شاء، ما يشاء ، وهذه الممالك الواسعه التى يولى عليها من يشاء . لم تكن سوى حلم حالم ، ووهم واهم . فينهى أحلامه الرضية ، بهذه القصيدة :

قل للخليل الذى أنهى لحضرته خلاصة الود ، من سرى ومن علنى
ومن مدى الدهر أدعو فى سلامته من الردى،وهى من قصدى ومن شجنى
يا ذا الذى وعدَ المعروف ، ثم مضى لذاك عمر الأمانى ، والزمان ، فنى

ومن على مذهب الحسبان ملكنا ‏ ‏ ‏ ‏ كنوز قارون ، من مصر إلى عدن
إن كان عندك ، محض الوعد تحسبه ‏ ‏ ‏ ‏ أصلا من الجود ، أو فرعا من المنن
فعِد بحنطة بولاق ، وقل : ـ معها ‏ ‏ ‏ ‏ مع ساحل البن ، غابات من التّتن
وافرض بأنك قد قلدتنى عملا ‏ ‏ ‏ ‏ بالهند ، أجبى صنوف الخز والقطن
وولّنى ساحل البحرين أجلبه ‏ ‏ ‏ ‏ بسوق سعدك « بازارا » بلا ثمن
وجدْ بإيوان كسرى،والخورنق،والقص ‏ ‏ ‏ ‏ ر المشيد ، وملك الشام واليمن
واعقد لى التاج رغما منك ، واجعلنى ‏ ‏ ‏ ‏ على طوائف ذى القرنين ، فى المدن
وقل : وهبتك ما فى الأرض من نَعَم ‏ ‏ ‏ ‏ باللحم ، والجلد ، والأصواف ، واللبن
ولا تكن خشية الإنفاق ، مقتصدا ‏ ‏ ‏ ‏ ما دام كنزك من وعد ، فأنت غنى

ثم يقول ، فى هذه القصيدة ، مخاطبا صديقه الذى أسرف فى وعده بالبذل ، حتى أخذ يدعو جيرانه ، وإخوانه ليشاركوه فى هذا الخير العميم ، الجزيل ، الذى سيأتيه . كما رأينا فى شعر هذه المقامة : —

لله وعدك،مذ عامين ، أنشدنى : — ‏ ‏ ‏ ‏ أنا المعيدى ، فاسمع بى ولا ترنى
خذ من علومى ، ولا تركن إلى عملى ‏ ‏ ‏ ‏ ولا يغرنك ، منى ، خضرة الدمن
فقلت أجـــرىَ ، عند الله ، أطلبه ‏ ‏ ‏ ‏ حولين،ياوعد،تسقينى وتطعمنى...؟
من العجائب ، أبديت الشجاعة فى ‏ ‏ ‏ ‏ وعدى،وعدت أكلت الخبز بالجبَن
مبالغات من الأقـــوال تسمعها ‏ ‏ ‏ ‏ لو كنّ فى البحر ريحاً طرن بالسفن
ياذا الذى جاد،فى الأحلام ، لى كرما ‏ ‏ ‏ ‏ :يهنيك إنى قد استغنيت،من أذنى..!
فلا تكن تقطع التشريف عنىَ فى ‏ ‏ ‏ ‏ كتاب ودك لى ، فى لفظك الحسن
حتى أفوز بملك الأرض،منك،ولا ‏ ‏ ‏ ‏ أرضى بأنى ، فى غمدان ، ذى يزن
وخذ ثوابك ، وعدا،مثل وعدك لى ‏ ‏ ‏ ‏ هذا بذاك . ولا عتب على الزمن

وأعتقد أن هذا الشعر، بما فيه من فكاهة ، وتهكم ، وتخيل ، وسهولة لفظ . وبعد التجاوز عن بعض الهنات التى شابته . يمكن أن يعد من الشعر الحسن .

وقد رأينا فى هذا الشعر ، أسماء بعض الأزياء، والثياب،التى كان لبسها معروفا

فى هذا العصر ، كالقاووق ، والفرو ، والجوخ . وبعض ما كان يطعمه الناس فى مآكلهم . وأسماء أنواع من العملة المتداولة إذ ذاك . مثل الزنجرلى ، والفندقلى. وقد نجد تفسيرا لها فى مكان آخر .

كما نجد أيضا كلمة « بازار » الفرنسية ، بمعناها الصحيح ، وهو السوق . ولم تكن الحملة الفرنسية قد دخلت مصر ولا الشام ، طبعا ، حتى تنتقل من جنودها إلى ألسنة الناس . وربما عرفها السيد جعفر ؛ من ميناء ينبع . حيث تسير اللغات وتنتقل . حيثما تسير السفن والمتاجر .

ولهذا الشاعر الحجازى الشريف ، الظريف ، شعر من الأراجيز، ضمنه بعض النصائح الطبية . وكيف تصنع بعض الأقراص ، والعقاقير ، والمساحيق .

وله قصيدة لطيفة ، مرحة ، يشكو فيها بعض إخوانه ، لأنهم تواعدوا على مجلس أنيس بهيج، وتركوه فهو يصف كيف كان يسألهم ، واحدا ، بعد واحد ، عن وجهتهم ، حين لقيهم يوم هـــذا المجلس ، وكيف كـذبوا عليه ، وانتحلوا المعاذير ، واختلقوا أسباب الافتراق . حتى لا يصحب واحدا منهم . وكيف سار كل منهم فى طريق وسلك ، إلى هذا المجلس الأنيس البهيج درباً ضيقا ، أو زقاقاً ، وهو يخفى نفسه ، حتى لا يعرفه . ثم يقول لإخوانه هؤلاء : ماذا تظنون بى . . ؟ أترونى عفيفاً ؟ ثم ينتهى إلى أنهم قوم لا وفاء لهم ، ولا حياء عندهم .

وهذه هى القصيدة :

قل لأشياعى « الذى » صحبونى ثم راحوا ، من بعـــد معتزليّة
ولأنصارى « الذى » خذلونى واستعاضوا ، سواى ، أنصارية
لا تظنوا فى عفتى . هى ما هى أنا قلدت مذهب الباحيـة
أى ذنب جنيت ؟ .. حتى استرقتم نفسكم ، للمقيل ، وقت العشية
واحدٌ راح من زقاق القشاشى يتمشى ، فى هيئة مخفية
ورجال ، من البرابيخ جاؤوا ، ورجال من تحت جدر التكية
واحـــد حامل كتابا ، يورّى أنه ســـائر إلى الـكتبية

وأخ قال : قد شربت دواء … وأريد الإسهال ، فى العنبرية

وصديق سألته : أين تبغى . ؟ … فلوى رأسه ، وقال : قضية

قد نذرت الصيام شهرا ، ولاء … وشرطت الإفطار بالعدسية

لاتخبّثْ نفسى بذكر الكوازى … واللوازى ، والوزّة المحشية

أنا لا أشتهى الكباب ، ولاالرز … ولا زرباجة ، ولا اللبنية

قد زهدنا فى كل ما تشتهيه النف … س ، حتى الدجاجة المقلية

عفت كل الطعام . قلت : فما المو … جب . . ؟ قال : اللحوق بالصوفية

وأتى آخر ، فقلت سلام … فسعى مسرعاً ، ورد التحية

ووراه شخص يجر خروفاً … حاملا ، تحت كمه ، مطبقية

قلت : ما الحال ..؟ قال قد شرد العبـ … د ، بشالى ، والفرو ، والفرجية

قلت : قد مرّ عبدكم بطعام … وشراب ، من قبلكم ، من هنيّة

قال : عبدى ياقوت . . ؟ قلت نعم ، قا … ل : لقد بعته ، نهار الضحية

إسم هذا ألماس ، قبحه الا … ه .... أمّه الزنجية

ثم ولى عجلان ، قلت انتظرنى … أطلب العبد معْك ، للتربية

أنا أولى بالجرى منك ، لأنى … ما طعمت الغدا ، وبطنى خلية

قال : أقعد بالله ربك ، أقعد … بالنبى ، باليهود ، بالعيسوية . . . !

ما يفوت العُبيد ، وهو قريب … حول نخل الإمام والكركية

ثم أنى سألت عن واقع الحا … ل ، وتلك القضية المخفية

فإذا أنتمُ كما قد ذكرنا … لا وفا ، لا حيا ، ولا عصبية ... !

وهذه القصيدة ، كما ترى ، هى قصة من الشعر طريفة عذبة ، فيها خصائص القصة من وقائع ، وحوار ، وحسن حيلة .

وقد ترجم الجبرتى لسيد آخر شريف . قدم مصر ، ونال فيها مكاناً ممتازاً . ولكنه لم يكن ، كالسيد جعفر الحجازى ، شاعراً ظريفاً ، بل كان ، مع قوله الشعر ، صوفياً . وهو السيد عبد الرحمن العيدروسى الحسينى التريمى .

نشأ عبد الرحمن فى تريم ، باليمن ، وطوّف بالبلاد ، وأقام فى الهند عشر سنين

وقدم مصر ثم تركها مراراً . وزار جزيرة قبرص ، وإسلامبول ، والشام . ثم استقر فى مصر وطاف فى بلادها كلها . وحج سبع عشرة مرة . وكان أمراء مصر — على ما بينهم من فرقة واختلاف — يخضعون له . ولا يردون له شفاعة .

وشعر السيد العيدروسى لا يخرج عن مستوى الشعراء الذين روينا بعضاً من شعرهم ، فى هذا الفصل . وقد جمعه فى ديوان سماه «ترويح البال وتهييج البلبال»[1] وذكر الجبرتى له مؤلفات أخرى كثيرة معظمها فى التصوف .

ولد فى سنة ١١٣٥ واستقر فى مصر سنة ١١٨٥ ومات بها فى المحرم سنة ١١٩٢ .

اسماعيل الظهورى

ومن شعراء هذا العصر ، شاعر اشتغل بالموشحات الأندلسية ، فجاء منها بشىء ما . وهو الشاعر الناثر ، إسماعيل أفندى ابن خليل الظهورى . كان رجلا قانعا يتكسب بالكتابة ، جيد الخط ، حسن الذوق فيه . وكان له متجر يبيع فيه البن بوكالة البقل ، بالقرب من خان الخليلى . وهو إلى ذلك له معرفة جيدة بعلم الألحان ، والموسيقى ، وضرب العود . ومات سنة ١٢١١ .

ومن شعر الظهورى ، موشحة نظمها على وزن موشحة ابن الخطيب الأندلسى أولها :—

ليت شعرى ، يا أخلاء الهوى — هل أرى بدرى ، بجانى ، مؤنسى . ؟
أم أقاسى عن زمان قد قسا — ورمى أحشاى ، سهما ، عن قسى ؟
يا سقى الله زمانا قد مضى — فى مغانى مصر ، فى عيش خصيب
حيث بدرى قد قضى لى ما قضى — بالتدانى ، إذ غفت عين الرقيب

ومنها : —

يا رياضا حسنها زاه يشيق — جاد ، فى مثواك ، منهلّ السحاب
كم مضى لى ، فيك ، من معنى أنيق — حين كان اللهو مزهىّ الجناب
هل ترى عينى محياك الرشيق . . ؟ — لابساً برد التهانى ، والشباب

---

(١) طبع هذا الديوان فى المطبعة الأميرية ببولاق سنة ١٢٨٣ ه .

وأرى بدرى يناجينى على ذلك البسْط الشهى السندسى
وأحلىّ صبر دهرى بالمنى من معان زاهيات الملبس

وقد ترك الظهورى القاهرة فترة ، إلى بلدة أطواب ، فى الصعيد . ولعله ألف موشحته تلك فى هذه القرية . فحنينه فيها إلى مصر ، ليس خيال شاعر .

ولعل أجود ما أورده الجبرتى من شعر الظهورى ، هذا الذى قاله فى الحنين إلى مصر ، وخاصة هذه القصيدة ، التى مطلعها : —

سلام على مصرٍ ، سلام شجٍ حنا تبلغها أيدى النسيم ، لها ، عنا

والتى يقول فيها ، بعد أن ذكر نيل مصر ، وظلالها ، وخلجانها ، والمقياس :—

ميادين لذّات ، وأقصى مآرب وغابات آمالٍ ، لمن هام ، أو أنّا
فكم نلت فيها من سرور ، وبغية إذ العيش طلق ، والهوى ضاحك سنا
وليلاتنا فيها ، وطيب حديثنا وجَيب الدجى ينشق، عن بدرها، دجنا
تنكرتِ ، ياأيّام ، من ذا الذى وشى إليك بسوء ..؟ ما الذى قد جرى منا
لئن كان ذنبى ، عندك ، الفهم والحجا فجهلى أحرى . فارجعى، لست أستغنى
إرادة حظى أتعبتنى ، ومن يكن يحاول حظا ، حال من دونه الأدنى
قلتْنى مصر ، وهى أهلى ، وشيعتى ودارى، وشوقى ، والمآلف ، والمغنى
وأنزلنى طول النوى ، دار غربة بغربىّ مصر ، أشتكى الهم والحزنا
أقمت بأطواب ثلاثين ليلة أقاسى بها الأوصاب ، واخترتها سجنا
أردد عينى ، فى خلال ديارها فأنظر أهليها ، وقد ملؤا جبنا ... !

وللظهورى هذه القطعة من الشعر ، وسواء أكان ما فيها حقا، أم هو من غى الشعر وشيطانه ، فإنها تدلنا على أن الشعراء ، وأهل الفن ، كان لهم ، من حرية القول حظ غير قليل : —

هل العيش إلا فى اكتساب مآثم..؟ أو العمر ، إلا فى اقتناء محارم .. ؟
أو الغنم ، إلا فى ارتكاب كبيرة ... ؟ أو السكر، إلا فى ارتشاف مباسم ؟
سقى الله أيام البطالة أدمعاً من العين ، تجرى كالغيوث السواجم

زمان به كان السرور بخنصرى ختاما ، وكان الظبى فيه منادمى
إذ العيش طلق ، والرياض بواسم عن النّوْر ، لكن من شفاه الكمائم
وسيَرى إلى تلك الدساكر ، سحرة وغنمى بها ، من طيبات مواسم
وجرى ذيول التيه ، فى عرصاتها جهارا ، وضمى للقدود النواعم
... ...
لقد طالما نازعت فيها زجاجة تضمنت الأفراح ، من عهد آدم
معتّقة ، صاغ المزاج لرأسها أكاليل ، من در ، كدور دراهم
إذا ما جلاها مخطف الخصر ، فى الدجا وغنى عليها ، مثل شدو الحمائم
—أبحت طريفى ، فى هواه ، وتالدى وصيرته مولى علىّ ، وحاكمى :

وله هذان البيتان : —

خبرانى عن قهقهات القنانى أنا ، منها ، فى غاية الأبهام
أرى ضحكها ، لبسط الندامى . ؟ أم بكاء على فراق المدام . ؟

وللظهورى بعض من الشعر يدل على أنه كان على شىء من الثقافة العلمية ، استخدم فيه علم الفلك ، على وجه لا بأس به .

عامر الأنبوطى

وهناك شاعر ماجن ظريف، اسمه الشيخ عامر الأنبوطى . كان هجاءاً ، كما يقول الجبرتى « لهيب شراره محرق. » وكان يجىء من بلده إلى القاهرة فيزور العلماء والأعيان . ويتلقى ما يتداولونه من شعر فيصنع ، على وزنه وقافيته ، شعراً آخر هازلا ، يتناول فيه الطعام ، وأصناف المأكولات . وكان الشعراء يكرهون ذلك منه ، ويتحامونه ، حتى لا يحيل شعرهم إلى سخرية . وكان الشيخ عبد الله الشبراوى يكسوه ، ويكرمه ، ثم يقول له : بالله يا شيخ عامر لا « تزفرَ » قصيدتى ، وهذه جائزتك ، ثم يعطيه . وكان الشيخ الحفنى يكرمه أيضا ، ويغدق عليه . ويستطيب الاستماع له . وكان الشاعر الأنبوطى شيخا كبيرا ، صالحا ، يكحل عينيه ، ويعنى بهيئته ، وهندامه .

صنع الشيخ الأنبوطى ألفية فى الطعام ، على وزن ألفية ابن مالك فى النحو ، أولها :

يقول عامر ، هو الأنبوطى   أحمد ربى ، لست بالقنوط
وأستعين الله ، فى ألفية   مقاصد الأكل بها محوية
فيها صنوف الأكل ، والمطاعم   لذّت لكل جائع ، وهائم

وفيها يقول : —

طعامنا الضانى لذيذ للنهم   لحماً ، وسمناً ، ثم خبزاً ، فالتقم
فإنها نفيسة ، والأكل عم   مطاعماً ، إلى سناها القلب أم
والأصل فى الأخباز أن تقمرا   وجوزوا التقديد ، إذ لا ضرراً

وألف ، فى الطعام أيضاً ، قصيدة على وزن لامية ابن الوردى ، وهى :

اجتنب مطعوم عدس ، وبصل   فى عشاء ، فهو للعقل خبل
وعن البيصار ، لا تعن به   تمس ِ فى صحة جسم من علل
واحتفل بالضأن ، إن كنت فتى   زكىّ العقل ، ودع عنك الكسل
من كباب وضلوع قد زكت   أكلها ينفى عن القلب الوجل

وأخرى على وزن لامية العجم لصلاح الدين الصفدى :

آناجر الضأن ، ترياق من العلل   وأصحن الرز ، فيها منتهى أملى
أكلى غداء ، وأكلى فى العشاء ، على   حد سوىٍّ ، إذا اللحم السمين قلى
فيم الإقامة بالأرياف ، لا شبعى   فيها ، ولا نزهتى فيها ، ولا جذلى
ناء عن الأهل ، خالى الجوف ، منقبض   كمعدم مات من جوع ، ومن قشل
فلا خليل ، بدفع الجوع يرحمنى   ولا كريم ، بلحم الضأن يسمح لى
طال التلهف للمطعوم ، واشتعلت   حشاشتى بحمام البيت ، حين قلى
أريد أكلا نفيساً ، أستعين به   على العبادات ، والمطلوب من عملى
والدهر يفجع قلبى من مطاعمه   بالعدس والكشك والبيصار والبصل
ناديت ، هيا ولا تبطىء بغرفك لى   فإنه خلق الإنسان من عجل

وللأنبوطى ، فى الأطعمة والمآكل أزجال شعبية ، ألفها باللغة العامية منها :

أكلك من الضان رطلين   يزيد قلبك نفاسة
وابعد عن الكشك يازين   دا الأكل منه تعاسة

ومنها :

أكل المطبّق ، مع الفجر   بالشهد ، والسمن سايح
اللى يجيبه له أجر   فى جنة الخلد رايح

ومنها :

يا طابخ الضانى اشتد   واغرف أوانى وسيعة
عامر أتالك ، وله يد   فى الأكل دايماً سريعة

و : خشاف،ومشمش،وعناب   الشرب منهم دوايه
من بعد ما كل كباب   يارب حقق رجايه

و : والعدس، والكشك ، والفول   الأكل منهم شماته
يصبّحوا الشاب مخبول   قطموا الجميع ، التلاته

مصطفى اللقيمى الدمياطى

وكان مصطفى أسعد اللقيمى الدمياطى ، شاعرا من الذين احتفل الجبرتى بهم ، وأطنب فى ذكرهم ومدحهم . كان أسعد أفندى هذا ، واحدا من إخوة أربعة ، كلهم شعراء . وقد أورد الجبرتى له مقامة طويلة ، سماها « المدامة الأرجوانية ، فى المقامة الرضوانية » ألفها فى مدح الأمير رضوان الجلفى، وضمنها كثيرا من شعره . ووصف فيها قصور هذا الأمير ، وصفا شائقاً ، بارعا . ربما نعود إليه عند الكلام عن الحياة الاجتماعية ، وما كان فى بيوت الأمراء من ثروة ومن نعيم .

وشعر السيد مصطفى اللقيمى قريب من ذلك الشعر الذى أوردنا منه قدرا كافيا لشعراء آخرين ، فى هذا الفصل . ويبدو أن هذا الشاعر كان شديد اللصوق بالأمير رضوان ، فإن شعره كله يكاد أن يكون قاصرا على ذكره ومدحه ، وتهنئته . ووصف ما شيد ، على بركة الأزبكية ، من قصور ، وغرس من بساتين .

وللشاعر الدمياطى مزدوجة ، فى مدح هذا الأمير أيضا ، لعلها خير ما أورده الجبرتى من شعره . ولعلها ،أيضا ، أجود قليلا من تلك المزدوجات ، والموشحات ، التى أوردها من شعر إسماعيل افندى الظهورى ، ونقلنا بعضها ، منذ قليل ، وقد استهل هذه المزدوجة بقوله : —

يا سعد عرِّج بالحمى ، والرند   وطف بأكناف الربى ، من نجد
فهم منى عينى ، وجلّ قصدى   وجبهم أثار نار وجدى
واشرح لهم حالى ، وما ألاقى   من لاعج الغرام ، والأشواق
وما جرى من دمعى المهراق   واذكر عليلا بات فى احتراق
يشكو تباريح الجوى والسهد

حليف شوق ، جسمه نحيل   أليف توق ، شفه الغليل
سلوانه ، والصبر ، مستحيل   يقول : هل لى فى اللقا سبيل
لأستريح من عناً ووجد

ومنها : —

لله ما أحلى ظبا ذاك الحمى   وما ألذ الوصل ، من تلك الدمى
هيَّجت شوقى ، والنسيم ، عندما   ذكرت، فاسعف بالحديث ، مغرما
يشوقه تذكار ذاك العهد

وهات لى حديث لازبكية   وما حوت أدواحها الزكية
حسناً زهت أرجاؤها السنية   إذ لاح فى غرتها البهية
قصور رضوان العلا والمجد

يا حبذا معاهد حسان   يغنيك ، عن وصفى لها ، العيان
قد حل فيها الحور ، والولدان   حصباءها الياقوت والمرجان
فانظر تراها ، جنة كالخلد

فكم بها من دوحة أنيقة   وروضة أغصانها وريقة
وربوة ، أنهارها غديقة   ومرجة ، أزهارها عبيقة
من نرجس ، وسوسن ، وورد

ولا شك أن القارىء مدرك ما فى هذا الشعر الذى أوردناه كله من خطأ فى اللغة . ولكن الخطأ فى اللغة لم يكن شيئاً غريباً على شعراء هذا العصر وبلغائه . وقد رأينا كيف أخطأ الشيخ عبد الله الشرقاوى ، شيخ الأزهر ، ورئيس الديوان . وكتاب الجبرتى

نفسه ، وهو واحد من كبار الكتاب فى ذلك العصر ، فيه من الخطأ ، والخطأ الفاحش ، شىء كثير .

وقد ترجم الجبرتى لرجل ، ليس من الشعراء ، ولا من الأدباء . ولكنه كان ذا لون من المعرفة غريب ، وكان يعلن هذا اللون من المعرفة ويناقش الناس فيه ، حتى اتهموه فى عقيدته ، وفى دينه . ولكنهم ، مع ذلك ، لم ينالوه بسوء ، لأنه كان صاحب سطوة ونفوذ ، وكان قريباً من محمد على ، وصاحب حظوة عنده .

يصف الجبرتى هذا الرجل بأنه « النجيب الأريب، والنادرة العجيب ، أعجوبة الزمان ، وبهجة الخلان ، حسن أفندى ، المعروف بالدرويش الموصلى ، الذكى الألمعى ، والسميذع اللوذعى. كان إنساناً عجيباً فى نفسه ، مميزاً شهيراً فى مصره »

وقد طوف هذا الدرويش بالبلاد ، وعرف كثيراً من اللغات . كما درس فنوناً كثيرة من الرياضيات ، والفلسفة . واشتغل بذلك حتى «أهمل الواجبات الشرعية ، والفرائض القطعية . وربما قلد كلام الملحدين ، وشكوك المارقين » وكان لا يخشى أن يظهر ذلك على الناس . ولا أن يتحدث به إليهم . حتى طعنوا فيه ، وأخرجوه من زمرة المسلمين .

وكان الدرويش ، لذكائه ، ولباقته ، ومعرفته لكثير من اللغات ، وكثرة معارفه ، مقرباً إلى أصحاب السلطان . فلما أراد محمد على أن ينشىء مدرسة للهندسة والرياضيات ، اختاره معلماً فيها ، ورئيساً لها . وكان يعلم طلابها على آلات فى الهندسة ، والمساحة ، والفلك ، مجلوبة من انجلترا . ونجح فى عمله هذا نجاحاً كبيراً .

ومات هذا الرجل فى يوم الخميس السابع عشر من جمادى الآخرة سنة ١٢٣١ فتحرك الناس ، بعد موته ، للطعن فيه ، وتجريحه ، حتى قالوا : مات رئيس الملحدين ، وانهدم ركن الزندقة . وأبلغوا نائب محمد على أن فى خزانته كتب الملحدين والكتاب الذى ألفه ابن الروندى فى معارضة القرآن . وفتحت خزائن الدرويش الموصلى ، فلم يكن فيها شىء من ذلك .

ولم يذكر لنا الجبرتى منشأ هذا الرجل ، ولا وطنه . ولعله لم يكن يعرف ذلك لأن الدرويش نفسه لم يكن يريد أن يعرف الناس وطنه ، ولا نشأته . فإن الجبرتى يذكر عنه ، أنه كان ينتسب إلى كل قبيل ، فمرة ينتسب إلى فارس ، وتارة إلى بنى مكانس » .

ويبدو أنه كانت هناك صلات من المودة ، بين الدرويش الموصلى وبين الجبرتى ، فإن حديثه عنه ليس خالياً من العطف والتقدير ، وقد دفع عنه ، إلى حدما ، وبكثير من اللباقة ، تهمة الزندقة .

ونجد من رجال هذا العصر شاعراً من شعراء العبث والدعابة والهجاء ، اسمه الشيخ محمد شبانة . لم يذكر الجبرتى سنة مولده . وذكر أنه مات فى سنة ١٢٠٠ . ويقول إن شبانة هذا كان من نوادر وقته . اشتغل بالعلم فأجاد . واشتغل بالشعر فأجاد . وداعب أهل عصره من الشعراء وغيرهم فاشتهر بينهم وأذعنوا لفضله . ولـكن سليقته فى الهجاء والدعابة كانت أجود .

وكانت بين الشيخ شبانة وبين الشيخ قاسم الأديب مساجلات شعرية عابثة . منها هذه القصيدة التى أرسلها شبانة له على وزن قصيدة :

سبحان من قسم الحظـو … ظ ، فلا عتاب ولا ملامه

منها : —

سبحان من قسم النحو … س لقاسم ، وأذلّ هامه
وكساه ثوب جنـاية … يخزى بهـا يوم القيـامه
هو ردء من هجم البيو … ت ، وردء من خطف العمامه
يحتـال فى نشل الحرير … ، ولو تحصن فى دعامه
ويسل كحل العين مَن … من خوفه ينفى منامه
لو حل فى حرم الوزير … ، مصاحبا ، ورأى غلامه
لمضى به لأخى الهوى … فى غفلة يقضى مرامه —
بالشـــال عمم رأسه … ولحيّة تأتى أمامه
خوف الجوالى أن ترا … ه وفى تستره السلامة

والجوالى هم الذين يأخذون الجزية من النصارى ، يريد أنه يلبس العمامة على رأسه ، ويطلق لحيته أمامه ، يتستر بهما . ولولا ذلك لأخذت منه الجزية . وقد أجابه الشيخ قاسم بقصيدة عابثة أيضا من الوزن والقافية .

السيد مرتضى الزبيدى

ومن العلماء الذين أرخ لهم الجبرتى . المحدث ، اللغوى ، السيد مرتضى الزبيدى صاحب تاج العروس ، من شرح جواهر القاموس[1]

وصفه الجبرتى بأنه « علم الأعلام ، والساحر اللاعب بالأفهام ، الذى جاب فى اللغة والحديث كل فج ، وخاض ، من العلم كل لج . المذلل له سبل الكلام . الشاهد له الورق والأقلام . ذو المعرفة والمعروف ، وهو العلم الموصوف . العمدة الفهامة ، والرحالة النسابة ، الفقيه ، المحدث ، اللغوى ، النحوى ، الأصولى ، الناظم ، الناثر ، الشيخ أبو الفيض السيد محمد بن محمد بن محمد بن عبد الرزاق الشهير بمرتضى الحسينى الزبيدى الحنفى »

هكذا حدث السيد مرتضى ، عن نسبه وعن نفسه . وقال إنه ولد فى سنة ١١٤٥ . ولكنه لم يذكر فى أى البلاد ولد ، ولا فى أيها نشأ وتعلم . فإن الجبرتى يقول إنه نشأ « فى بلاده » وارتحل فى طلب العلم ، وحج مراراً ، واجتمع بطائفة من كبار العلماء ، فى مكة ، والطائف ، واليمن . ثم قدم مصر فى التاسع من صفر سنة ١١٦٧ ، أى فى سن الثانية والعشرين ، فحضر على كبار الشيوخ ، وتلقى عليهم ، فأعجبوا به ، وشهدوا له بالعلم ، وجودة الحفظ . وأعانه على الطلب والاشتغال بالعلوم ، أمير من أمراء ذلك العصر ، هو إسماعيل كتخدا عزبان . حتى أصبح ميسور الحال ، يركب الخيول ، ويلبس فاخر الثياب ، واشتهر أمره بين الناس . ثم سافر إلى الصعيد فأقام فيه زمناً ، مكرماً من كبار أهله . وكذلك تنقل فى بلاد كثيرة من دلتا مصر . وكتب عن رحلاته هذه رسائل . ثم عاد إلى القاهرة فتزوج بها وبنى بزوجه فى عطفة الغسال . وأبقى سكنه الذى كان يقيم فيه ، فى وكالة الصاغة . ثم انتقل ، فى سنة ١١٨٩ ، إلى بيت

---

(١) طبع تاج العروس بالمطبعة الوهبية بالقاهرة فى سنة ١٢٨٧

بسويقة اللالا ، بالقرب من مسجد الحنفى ، وكانت هذه المنطقة مساكن الأعيان وكبار الناس ، فى ذلك الوقت ، فأحبوه ، وقربوه . بل توددوا إليه . وزادوا فى إكرامه . وهو يظهر لهم التعفف والغنى ، ويعظهم ويفيدهم . ويكتب لهم التمائم والرقى ، ويجيزهم بقراءة الأوراد والأحزاب ، فأقبل عليه الناس إقبالا شديداً وتعلقت قلوبهم به .

ثم شرع ، بعد ذلك ، فى إملاء الحديث على طريقة السلف . يذكر الأسانيد والرواة ، والمخرجين ، من حفظه ، على طرق مختلفة ، ويكتب هذه الأسانيد ويجيز سامعيه بها . وقصده علماء الأزهر يستمعون إليه ، فى جامع شيخون ، بالصليبة ، فشرع يقرأ لهم صحيح البخارى . وشاركهم فى الاستماع إليه ، كثير من الناس . فلما تناقل الناس أن كبار العلماء يسعون إليه ، زاد قدره عندهم . ولكن العلماء انقطعوا عن سماعه فاستغنى عنهم بغيرهم ، وافتتح درساً آخر ، فى مسجد الحنفى فارتفع قدره بين الناس ، وتكاثر عليه الراغبون فى درسه ، والمعجبون بعلمه ، وطريقته فى التدريس ، التى لم تكن مألوفة عند علماء مصر ، كما كان زيه على غير زيهم ، ودعاه الأمراء والأعيان إلى بيوتهم ، يقيمون له الولائم الفاخرة . ثم يجلس فى بيوتهم ، مفتتحاً درسه ، يجلس إليه الخاصة من تلاميذه ، وصاحب البيت ، وأسرته ، وأصدقاءه ، وأولاده ، وبناته ، ونسائه من خلف الستور ، وبين أيديهم مجامر البخور ، بالعنبر والعود ، يملأ عبيره الزكى مجلس الشيخ ، مادام يلقى درسه . حتى إذا فرغ منه ، كتب الكاتب أسماء الحاضرين ، حتى النساء ، والبنات والصبيان وكتب اليوم والساعة التى كان فيها المجلس . ثم أمضى عليها الشيخ بتوقيعه ، وهذه كانت طريقة الأقدمين من العلماء .

وقد حضر الجبرتى كثيراً من هذه المجالس ، واستمع إلى كثير من هذه الدروس ، ودعا السيد المرتضى إلى إلقاء بعضها فى بيته بالصنادقية وبولاق ، وغيرها ، كما سعى كبار الأمراء ، مثل مصطفى بك الأسكندرانى ، وأيوب بك الدفتردار ، إلى بيت المرتضى الزبيدى ، وجلسوا إليه مستمعين ، وكلما زاد إعجابهم به ، زادت صلاتهم له ، وتضاعف برهم به ، حتى امتلأت بيوته بالجوارى ، والخيرات .

ولما تولى محمد باشا عزت أمر مصر ، زاد فى رفعة شأنه ، وخلع عليه الخلع الثمينة ، ورتب له ، من مطابخه ، ما يكفيه من اللحم ، والأرز ، والسمن ، والخبز والحطب ، والغلال . وكتب إلى الدولة ، فى إسلامبول ، بشأنه ، فأمرت له بمرتب يومى ، قدره مائة وخمسون نصف فضة . وهو مرتب جزيل فى ذلك العصر ، وبهذا التكريم من عزت باشا ، ومن رجال الدولة ، بلغ المرتضى الزبيدى أوج مجده فترادفت عليه الرسائل ، من جميع الأقطار ، من الحجاز ، واليمن ، والهند ، والعراق والشام ، والمغرب ، والسودان ، وأرسل إليه ملوكها وأمراءها الهدايا العظيمة ، جاءت له من فزان بالمغرب ، أغنام نادرة ، فأهداها إلى السلطان ، وأهديت إليه الجوارى المليحة ، والعبيد ، وطيور الببغاء ، وطرائف الصناعات ، من الهند ، واليمن ، فكان يرسل مما يرد إليه من هذه الهدايا النادرة ، إلى أمراء البلاد ، وملوكها .

ولما قدم مصر حسن باشا الوالى ، لم يذهب السيد لزيارته ، بل زاره الباشا وخلع عليه خلعة سنيه ، وأهداه فرساً مسرجاً ، قيمته ألف دينار ، وكانت شفاعة الشيخ عنده لا ترد ، إذا جاءته منه ورقة ، قبلها ، قبل أن يقرأها ، ثم وضعها فوق رأسه ، ونفذ ما فيها ، فور قراءتها .

وكانت للسيد الزبيدى عناية كبيرة باقتناء الكتب النوادر ، كان صديقه الشيخ الزاهد أحمد بن سعيد السوسى التونسى يرسل إليه فى كل سنة ، قائمة بما يقع عليه منها ، فيطلب إليه الزبيدى أن يشتريه له .

وبلغ من سمو المكانة ، التى وصل إليها المرتضى الزبيدى ، عند أهل المغرب خاصة ، أن بعضهم كان يرى أن حجه بيت الله الحرام ، لا يتم إلا إذا زار هذا الشيخ ، ووصله بهدية . فمن حج البيت ، ولم يزر المرتضى الزبيدى ، ويقدم إليه شيئاً ، كان حجه ناقصاً .

ومن فاز من الشيخ بقطعة من الورق ، بقدر أنملة الأصبع ، قبّل الأرض بين يديه . وجعل هذه الورقة تميمة .

وأرسلت الدولة فى طلبه ، ليزور دار الخلافة ، فى سنة ١١٩٤ فأجاب ثم امتنع .

وبعد أن بلغ الزبيدى هذا المبلغ ، من المجد ، والشهرة ، والثروة . أصيب بنكبة فادحة ، بوفاة زوجه ، التى كان يحبها حباً عظيما . فحزن عليها أعظم الحزن ، وبنى لها ، عند مشهد السيدة رقية ، قبراً أقام عليه مقصورة ، وعلق عليه الستور ، والقناديل . ولازم قبرها هذا أياماً كثيرة . والناس تجتمع إليه فيه ، فيطعمهم ، ويسقيهم القهوة ، والشربات . وكثير من القراء والمنشدين ، يتلون القرآن ، ويرتلون الأناشيد ، عند القبر . ثم بنى ، إلى جوار قبرها ، بيتاً أسكن فيه أمها ، وكان يبيت فيه أحياناً . وقصد إليه كثير من الشعراء برثائهم ، فأجازهم عليه . ورثاها هو بكثير من الشعر الحزين الذى يدل على صدق عاطفته نحوها . وعظيم رزئه فيها ، ولكن ذلك لم يمنعه أن يتزوج أخرى ، غيرها .

تزوج الشيخ ، بعد زوجه هذه ، فبدأ حاله فى التغير .

ترك الدرس والقراءه . واعتكف عن الناس ، ولزم حريمه . وغلق بابه . ولم يعد يقبل ما كان يرسله إليه الأمراء والأعيان من هدية وصلة . ذهب إليه مصطفى بك الأسكندرانى ، صديقه القديم ، ومن أكبر المعجبين به ، ومعه آخرون من الأمراء ، فاحتجب عنهم ، ولم يلقهم . وأهدى إليه أيوب بك الدفتردار ، صديقه القديم أيضاً ، خمسين أردباً من القمح ، وأحمالا من الأرز ، والسمن ، والعسل ، والزيت . وخمسمائة ريال . وأقمشة هندية ثمينة ، وجوخاً . فرد ذلك كله ، ولم يقبله .

وكان السلطان محمد ، سلطان المغرب ، يصله فى مواسم كثيرة . فأرسل إليه ، بعد زواجه من هذه المرأة ، إحدى صلاته ، فى سنة ١٢٠١ فلم يقبلها ولم تعد إلى السلطان فلما علم ذلك أرسل إليه معاتباً ، مؤنباً وقال له . ليتك رددت الصلة التى أرسلناها إليك من بيت مال المسلمين . أوليتك أعطيتها للفقراء والمحتاجين . فيكون لنا ولك أجر ذلك

وفى شهر شعبان ، من سنة ١٢٠٥ أصيب السيد بالطاعون ، وكان وبائياً فى هذه السنة . أصيب يوم الجمعة ، بعد الصلاة ، واعتقل لسانه ليلا ، ثم مات يوم الأحد . فأخفت هذه الزوجة ، وأهلها ، موته حتى نقلوا من بيته كل شىء ثمين

وكل مال ، ومتاع . حتى الكتب . وأظهروا ، بعد ذلك موته ، يوم الإثنين . ثم دفن فى قبره الذى كان أعده إلى جوار زوجه الأولى . ولم يعلم بموته أهل الأزهر ، لانشغال الناس بأمر الطاعون ولم يترك ولداً ولا بنتاً ، ولم يرثه أحد من الشعراء.

وكان السيد المرتضى نحيف البدن ، ذهبى اللون . أنيق الثياب يلبس عمامة أهل مكة ، لها عذبة تنزل على قفاه .

وبعد موته بزمن قليل ، تزوجت امرأته بمملوك من الأجناد، وأظهرت ما تركه السيد . فكان شيئاً كثيراً جداً . كان منه أكوام من المقصبات ، والأقمشة الهندية ، والفراء ، والساعات الثمينة ويسميها الجبرتى « ساعات العب » .

وقد بيعت أوراقه وكتبه، وبعض أمتعته ، بأكثر من مائة ألف نصف فضة. وقد اشترى الجبرتى قسماً كبيراً من هذه الكتب والأوراق ، ووجد فيها كثيراً من شعره . كما وجد فيها أصول كتابه ، عجائب الآثار ، التى كان أعطاها للسيد .

أما ما خلفه السيد المرتضى ، من الثروة الأدبية والعلمية ، فإن أبرز ما فيه كتابه « تاج العروس » ، وقد أمضى فى تأليفه نيفاً وأربع عشرة سنة ، وأتمه فى أربعة عشر مجلداً ، وأقام ، عند الفراغ منه ، وليمة حافلة ، سنة ١١٨١ ، جمع فيها كبار العلماء وشيوخهم ، وأطلعهم على طريقته فى وضع الكتاب ، فأعجبوا بها . وتبارى الشعراء فى تقريظه ، ومدح صاحبه .

وكان محمد بك أبو الذهب ، قد انتهى ، عند ذلك الوقت ، من بناء مسجده المواجه للجامع الأزهر ، وأنشأ فيه خزانة للكتب . فتحدث إليه بعض العلماء فى شأن تاج العروس فطلبه من السيد الزبيدى وأعطاه ، فى نظيره ، مائة ألف درهم فضة ووضعه فى خزانة الكتب التى أنشأها بالمسجد .

ولعل كتاب المرتضى الزبيدى هذا ، هو خير ما ألف العلماء ، واللغويون فى فى هذا العصر الذى أرخه الجبرتى كله . فهو ، وكتاب الجبرتى نفسه ، هما العمل ، الذى يستحق أن يذكر ، ويشاد به ، من إنتاج هذا العصر اللغوى ، أو الأدبى ، أو العلمى

وللسيد ، غير هذا الكتاب ، رسائل فى علم الأنساب ، والأسانيد ، وتخريج الأحاديث . وشرح لبعض أجزاء من إحياء علوم الدين ، للغزالى . وكتاب أصول الفقه ، سماه «الجواهر المنيفة ، فى أصول أدلة مذهب أبى حنيفة » وهدية الإخوان، فى شجرة الدخان وكتب أخرى فى تفسير بعض السور ، أو الآيات ، وفى شرح بعض الأحاديث ، وفى التصوف ، وفى مصطلح الحديث ، وبعض المقامات وأرجوزة فى الفقه ، ورسالة فى تاريخ بنى أيوب

وكان المرتضى الزبيدى يعرف اللغتين ، التركية ، والفارسية ، وبعضاً من لغة الكرج ، وزبيد ، التى ينسب إليها ، من بلاد اليمن .

وقد ذكر الجبرتى شعراً مما قاله الزبيدى فى رثاء زوجه « زبيدة » التى ماتت قبله فحزن عليها حزناً كثيراً ، وشعره فيها ، كما سترى ، فيه من صدق العاطفة ، ومن حرارة هذا الحزن المضطرم الصادق ، شىء كثير .

فمما قاله ، فى رثائها ، هذه القصيدة : —

خليلىّ ، ما للأنس أضحى مقطعاً — وما لفؤادى لا يزال مروعا

أمن غِيَر الدهر المشتّ ، وحادثٍ — ألمّ برحلى .. ؟ أم تذكرت مصرعا .. ؟

وإلا فراق ، من أليفة مهجتى — زبيدة . ؟ ذات الحسن والفضل أجمعا

مضت ، فمضت عنى بها كل لذة — تقرّ بها عيناى . فانقطعا معا

لقد شربتْ كأساً ، سنشرب كلنا — كما شربت . لم يجد عن ذاك مدفعا

فمن مبلغن صحبى ، بمكة ، أننى — بكيت ، فلم أترك لعينىّ مدمعا

ومن شعره فيها أيضاً : —

خليلىّ ، هل ذكرى الأحبة نافع .. ؟ — فقد خاننى الصبر الجميل العواقب

وهل لى عود ، فى الحمى ، أم تراجع — لوصل ، بتلك الآنسات الكواعب

لقد رحلت عنى الحبيبة ، غدوة — وسارت إلى بيت ، بأعلى السباسب

أقول ، وما يدرى أناس غدوا بها — إلى اللحد ، ماذا أدرجوا فى السباسب

تأخرت عنها ، فى المسير ، وليتنى — تقدمت ، لا ألوى على حزن نادب

وفى رثائها ، أيضاً ، يقول :

زبيدة شـــدت للرحيل مطيها	غداة الثلاثا ، فى غلائلها الخضر
وطافت بها الأملاك من كل وجهة	ودقّ لها طبل السماء ، بلا نكر
تميس ، كما ماست عروس بدلها	وتخطر ، فيها ، فى البرانس ، والأزْر
سأبكى عليها ما حييت ، وإن أمت	ستبكى عظامى ، والأضالع ، فى القبر
ولست بها مســتبقياً فيض عبرة	ولا طالباً ، بالصبر ، عاقبة الصبر

وفى قصيدة أخرى من هذا الشعر الحزين يعدد صفات زوجه تلك . فيذكر من ذلك كرم أخلاقها ، وصلتها لرحمها ، وطاعتها لزوجها ، وعنايتها بطعامه ، ولين كلامها ، حين تكلمه . ثم يقول إنها من عنصر كريم ، « عميدة قوم من كرام أطايب » .

وقد ذكر الجبرتى أن السيد الزبيدى قال ، فى رثاء زوجه ، كثيراً من الشعر . وأنه تركه خوف الإطالة . وليته حفظ لنا كل ما جمع من هذا الشعر الصادق ، الرقيق . الذى ينفرد بهذا الصدق ، وهذه الحرارة . إلى جوار ما حفظ من شعر كاذب ، أو غليظ . لا يصور عاطفة ، ولا يصدر عن وجدان . كما رأينا فى كثير من شعر المديح والرثاء ، والمناسبات . التى عنى الجبرتى بتسجيله والذى نقلنا بعضا منه ، فى كتابنا ، وفى هذا الفصل خاصة .

قاسم بن عطاء الله

وكذلك ترجم الجبرتى لقاسم بن عطاء الله المصرى . وقال إنه كان ، مع ارتجاله الشعر ، مشتهراً بالتوشيح والزجل ، حتى عرف أول أمره بالزجال . ولكنه روى لنا بعضا من شعره ، لا خير فيه ، ولم يحفظ لنا غير شيء يسير من زجله وتواشيحه . وكانت ، كما يقول ، كثيرة جدا ، مشهورة بين أرباب الفن وأهل الغناء ، وليته عنى بتسجيلها وحفظها كلها .

حفظ لنا موشحة من شعره ، يقول إنها كانت مشهورة أيضا بين « أهل المغانى والآلاتية » .

أولها :

فيـك كل ما أرى حسنْ　　مذ رأيت شكلك الحسن

جلّ من به عليـك من　　أيها الذى الصدودَ سن

من لسيف أدعجيـك سن　　مذْ حرمتَ مقلتى الوسن

مدمعى دماً ، نما　　عنـــد ما هما

روى باللمـــا ،　　ظما من تألمـــا

إن صـبك النحيل إن　　جن ، كلما الظلام جن

بالشجا ينوح　　والشـــــجن

وهذا الشعر قد نراه الآن غريبا شاذا . ولـكنه كان ، هو وغناءه ، مما يروق لأهل ذلك العصر ويعجبون به إعجابا شديداً . وهذه الموشحة قيلت فى مدح الأمير حسن بك رضوان .

وقبل أن أترك الشعر والنثر إلى غيره من نواحى الحياة الفـكرية والاجتماعية ، لا أجد بداً من تسجيل شعر لم يدونه الجبرتى . ولـكنى سأذكره . لأننا ندرك منه ، ذلك المدى الذى وصل إليه الشعر ، فى ذلك العصر ، من الضعف والانحطاط والغثاثة والبرود .

فهذه أبيات من الشعر ، نقشت على رخام وعلقت على مسجد السيدة زينب :—

نور بنت النبى ، زينب يعـلو　　مسجدا ، فيـه قبرها ، والمزار

قد بناه الوزير ، صـــدر المعالى　　يوسف ، وهو للعلا مختـار

من مليك الملوك ، سلطان كلّ　　فى بنى عثمان ، إليـه يشار

صاحب النصر ، والفتوح ، سليم　　نصر الله جيشه حين ساروا

وكذا خسرو ، محمد باشا　　من به عز مصر والأقطار

دام إجـلالا ، كما قلت أرخ　　مسجد مشرق ، به أسرار[1]

ومن بيت التاريخ الأخير ، نعرف أن هذه العمارة فى مسجد السيدة زينب ، كانت فى سنة ١٢١٦ . وأن الشعر قيل فى هذا التاريخ . ولم ينسب لقائله .

وهذا شعر آخر ، من شعر هذا العصر الذى نؤرخه . ولم يذكر قائله .

(١) الخطط التوفيقية ، لعلى باشا مبارك . ص ٨ ج ٥ .

وقد كتب هذا الشعر على باب المسجد الذى أنشأه الأمير ذو الفقار بك ، ويعرف بجامع الفسطاس ، وهو : —

جامعاً جاء لطيفاً ، وبديع الأنشا ... عالى السمك ، منيعاً ، ووسيع الأحشا

فى بيوت أذن الله لها أن ترفع ... والعبادات بها ، كل زمان ، تفشى

دام فيه صلوات ، وأقيمت دعوات ... بنهار متجلّ ، ونهار يغشى

ذو الفقار فاز بخير ، فقلا تاريخها ... عمر الجامع بالسعد ، بديع الأنشا[1]

وبيت التاريخ يعطى سنة ١٠٩١

ومن الشعر ، الذى لم يعرف قائله ، ويدل على مستوى الحياة الأدبية أيضاً ، هذه الأبيات ، التى سجل فيها منشئها عمارة الأمير عبد الرحمن كتخدا للأزهر.

تبارك الله ، باب الأزهر انفتحا ... وعاد أحسن مما كان ، وانصلحا

تقر عيناً ، إذا شاهدت بهجته ... بأخلاص بانيه للعلماء ، والصلحا

وادخل ، على أدب ، تلقى الهداة به ... قد قرروا حكماً ، ميزانها رجحا

بالباب قد بدأ الأكوان ، أرخه ... بعبد رحمن باب الأزهر انفتحا

ولعل هذ الشعر السخيف الركيك ، كان ينشئه شعراء مغمورون يتكسبون به . يقصد إليهم الأمراء والأغنياء ليسجلوا لهم نبأ ما أقاموا من عمائر ، أو بنوا من مساجد . لأن شعراء العصر لم يكونوا ، لأمرٍ ما ، ينشئون لهم مايريدون من شعر . فكان الأمراء وغيرهم يشترون هذا الشعر ، لينقشوه على الرخام ، والحجر. يلبون به داعى غرورهم ، بوضعه على مساجدهم أو عمائرهم . ثم لا يكتبون أسماء هؤلاء الشعراء وقد كان فى القاهرة ، إلى عهد غير بعيد ، شعراء يقرضون الشعر ليبيعوه كل مشتر وراغب .

وفى هذا الفصل من الكتاب ، وفى بعض فصوله الأخرى أيضاً ، نجد بعضاً من الشعر ، يزيد بتلاوته وفهمه ، إدراكنا لهذه الحياة الأدبية فى العصر الذى نؤرخه .

---

(١) خطط على باشا مبارك . ص ١١٣ ج ٤

الحيـــاة العقلية

شعاع من النور

وهناك ناحية من نواحى الحياة الفكرية ، قد يظن الناس ، كما ظننت أول الأمر ، أنها كانت جامدة كل الجمود . لم تتسم بحياة ، ولا نشاط ، ولا تجديد . والنشاط والحياة والتجديد فيها أشق ، وأعسر ، وأمعن فى المجازفة والمخاطرة من التجديد والنشاط فى هذه الناحية من الأدب والشعر . هذه الناحية العسيرة الشاقة ، هى حياة العقل والدين ، أو التقاليد الدينية ، على الأصح ، يحسبها الناس من الدين ، وهى ليست منه فى شىء .

وقد سجل الجبرتى قصة سأحرص الحرص كله على استيعابها ، وتلخيصها تلخيصا وافيا ، أمينا . لأنها تدل على أن هذه الحياة التى يعسر النشاط فيها ، ويشق التجديد ، لم تمكن بعيدة عن محاولات قام بها بعض المفكرين الأحرار ، لإصلاح بعض نواحى العقيدة . والبعد بها عما لابسها من الانحراف ، والميل ، بل الخضوع للبدعة الضارة ، المفسدة . وسأجعل لهذه المحاولة فصلا خاصا جعلت عنوانه « واعظ من الروم » وقبـل أن أبدأ هذا الفصل ، أريد أن أنبه إلى أشياء مما يحيط بهذه المحاولة .

فأول هذه الأشياء ، أن هذه المحاولة لمحاربة البدعة ، نبتت ونمت ، واستوت على ساقها ، ثم زكت ، بعيدة عن الأزهر . فصاحب هذه الدعوة ، لم يلق دروسه فى الأزهر ، ولم يكن يستطيع ، بداهة ، أن يفعل ذلك . بل إن الأزهر هو الذى أحبط هذه المحاولة لإصلاح ناحية من نواحى العقيدة عند أهل مصر فرجال الأزهر ، ورجال العقيدة التقليدية ، كالقاضى التركى ، هم الذين قضوا على هذه المحاولة البارّة ، ولم يقر لهم قرار ، إلا بعد أن أيقنوا أنها وئدت ، ولن تولد مرة أخرى .

والثانى من هذه الأشياء ، أن صاحب هذه الدعوة ، لم يكن مصرياً ، بل كان

تركياً ، وليت الجبرتى أفصح لنا عن منشئه وهويته .

وثالث هذه الأشياء ، أن هذا الواعظ الرومى ، لم يكن مقلداً لصاحب الدعوة الوهابية ، ولا متأثراً بهذه الدعوة ، فقد ولد محمد بن عبد الوهاب ، منشئ المذهب الوهابى ، سنة ١١١٥هـ ، ومات فى سنة ١٢٠٦ ، بينما ظهر هذا الواعظ فى القاهرة وألقى دروسه فى مسجد المؤيد سنة ١١٢٣ . ففى هذا الوقت ، الذى كان يدعو فيه أهل مصر إلى ترك البدعة ، كان محمد بن عبد الوهاب ، فى الثامنة من عمره .

وقد نرى، الآن ، مادعا إليه هذا الواعظ الرومى ، أمراً مألوفاً ، لاشيء فى الجهر به ، أو الدعوة إليه . ولكنه ، من غير شك ، كان شيئاً خارجاً ، كل الخروج ، عن مألوف الناس وعقيدتهم . وكان القائل به ، بله الداعى إليه . يحتاج إلى أعظم قسط من الشجاعة والإيمان .

وإذا رجعنا إلى ما كتبه الجبرتى عن اعتقاد الناس ، فى عصره ، فى الأولياء ، وما وصف به أعمالهم فى الموالد[1] فلا بد أن نعجب بشجاعة هذا الواعظ . وهذه هى قصته : —

(١) نجد ذلك فيما يلى من هذا الفصل .

واعظ من الروم

يروى الجبرتى فى حوادث شهر رمضان من سنة ١١٢٣ أن واعظاً رومياً ، أى تركيا ، جلس يعظ فى جامع المؤيد ، وكثر عليه الناس وازدحم المسجد بهم وكان أكثرهم من الأتراك . ثم « انتقل من الوعظ وذكر مايفعله أهل مصر بضرائح الأولياء ، وإيقاد الشموع والقناديل على قبور الأولياء ، وتقبيل أعتابهم وفعل ذلك كفر يجب على الناس تركه ، وعلى ولاة الأمور السعى فى إبطال ذلك . وذكر أيضاً قول الشعرانى فى طبقاته إن بعض الأوليـاء أطلع على اللوح المحفوظ أنه لا يجوز ذلك ، ولا تطلع الأنبياء ، فضلا عن الأوليـاء ، على اللوح المحفوظ ، وأنه لا يجوز بناء القبـاب على ضرائح الأولياء ، والتـكايا ، ويجب هدم ذلك . وذكر أيضاً وقوف الفقراء بباب زويلة فى ليالى رمضان »

هذه كانت دعوة هذا الواعظ الرومى ، وهى كما ترى دعوة جريئة كل الجرءة ، خصوصاً فى هذه البيئة وهذا العصر . وقد دعا إليها مفـكرون أحرار ، بعد هذا الرومى بقرنين من الزمان ، فجـبههم « العلماء » ورموهم بالـكفر والمنـكر .

وقد انتقـل الواعظ الرومى من الوعظ ودعوة « ولاة الأمور » لترك هذه العقائد والعادات التى يراها مكفرة لفاعليها ومعتقديها . انتقل الواعظ ورجاله من القول إلى العمل ، وأرادوا تقـويم الناس بالعصى بعد أن لم يقوّمهم الوعظ « فخرجوا بعد صلاة التراويح ووقفوا بالنبابيت والأسلحة على باب زويلة فهرب الذين يقفون به . فقطعوا الجوخ والأكر المعلقة[1] وهم يقولون : ــ أين الأولياء ... »

عند ذلك أسرع بعض الناس إلى علماء الأزهر ليفتوهم فى قول ذلك الواعظ . فـكتب شيخان من شيوخ الأزهر ، هما الشيخ أحمد النفراوى ، والشيخ أحمد الخليفى

---

(١) كان الناس يعتقدون أن تعليق هذه الأشياء على باب زويلة يقضي حوائجهم ، ولايزال بعض العوام يعتقد ذلك .

ينقضان قول الواعظ ، ويطلبان من الحاكم زجره على ماقال . وأخذ بعض هؤلاء الناس هذه الفتوى فدفعوها إلى الواعظ فى مجلس وعظه . فلما قرأها غضب ، وقال إن العلماء أفتوا بغير ما قلت ، وأنا أريد أن أجادلهم فى مجلس القاضى ، فهل منكم من يساعدنى على ذلك وينصر الحق ...؟ فقال له أنصاره : نحن معك لانفارقك ، فنزل عن كرسىّ وعظه . واجتمع عليه من الناس قريب من ألف ، فسار بهم من وسط القاهرة إلى أن دخل بيت القاضى . فلما رآهم القاضى بهذه الكثرة انزعج منهم ، ثم سألهم عما يريدون ، فقالوا نريد أن تحضر الذين أصدرا هذه الفتوى لنباحثهما أمامك ، فقال القاضى : — إصرفوا هؤلاء الجموع ثم نحضرهما ونستمع إلى مجادلتكم معهم . ولكن أحداً من الجموع لم ينصرف ، بل تكاثروا على القاضى وقالوا له : — ماذا تقول أنت فى هذه الفتوى ...؟ قال هى باطلة . ! فطلبوا منه أن يكتب حجة بذلك . فلما رأى القاضى أن الأمر جد ، وأنهم لا يريدون أن يتركوه ، أراد أن يعمل فيهم الحيلة ، فقال للواعظ ومن معه ، إن الوقت قد ضاق والشهود قد خرجوا ، فلنترك ذلك إلى غد . فلما سمع الناس من ترجمان القاضى هذا الكلام ضربوه ، واختفى القاضى ومعه حريمه ، ولكن الناس لم يتركوا نائب القاضى حتى كتب لهم الحجة بصواب رأى الواعظ الرومى ، وخطأ رأى الشيخين ، النفراوى ، والخليفى .

وقصد الناس بعد ذلك يوما إلى مسجد المؤيد لسماع واعظهم فلم يجدوه ، ثم قال قائل منهم إن القاضى منعه من الوعظ « فقام رجل منهم وقال : أيها الناس من أراد أن ينصر الحق فليقم معى ، فتبعه الجمع الغفير ، فمضى بهم إلى مجلس القاضى . فلما رآهم القاضى ومن فى المحكمة ، طارت عقولهم من الخوف ، وفر من بها من الشهود ، ولم يبق إلا القاضى ، فدخلوا عليه وقالوا له : — أين شيخنا ...؟ فقال : لا أدرى ، فقالوا له : قم واركب معنا إلى الديوان ونكلم الباشا فى هذا الأمر ، ونسأله أن يحضر لنا أخصامنا الذين أفتوا بقتل شيخنا ونتباحث معهم ، فإن أثبتوا دعواهم نجوا من أيدينا ، وإلا قتلناهم . فركب القاضى معهم ، مكرها ، وتبعوه من خلفه وأمامه ، إلى أن طلعوا إلى الديوان ، فسأله الباشا عن سبب

حضوره فى غير وقته ، فقال : — إنظر إلى هؤلاء الذين ملؤا الديوان والحوش ، فهم الذين أتوا بى ، وعرفه عن قصتهم »

فلما عرف الباشا قصة القوم والواعظ ، أعطاهم أمراً بأن يحضر الشيخان النفراوى والخليفى لمجادلة الواعظ ، فذهب القوم إلى جامع المؤيد وأتوا بواعظهم وأصعدوه على كرسيه ، واتفق معهم على أن يجتمعوا بالمؤيد فى اليوم التالى ثم يذهبوا إلى القاضى لينجز ما أمر به الباشا من إحضار الشيخين .

ولكن أمر الباشا هذا كان كفتوى نائب القاضى ، كتب كما كتبت ، لتسكين الفتنة ، وصرف الناس . فإنه ، بعد أن أخذت جماعة الواعظ من الباشا ماريدون من أمر ، أصدر الباشا أمراً آخر « إلى إبراهيم بك ، وقيطاس بك يعرفهم ما حصل ، وما فعله العامه من سوء الأدب ، وقصدهم تحريك الفتن وتحقيرنا نحن والقاضى . وقد عزمت ، أنا والقاضى على السفر من البلد » .

فلما قرأ ابراهيم بك وقيطاس بك وبقية المماليك ذلك ، لم يقر لهم قرار حتى نفى الواعظ من البلد وتفرق الناس من حوله . « وأمروا الأغا أن يركب ، ومن رآه منهم قبض عليه ، وأن يدخل جامع المؤيد ويطرد من يسكنه من السقط[1] » ، أى من العوام .

وهكذا أخرج من القاهرة[2] هذا الواعظ الرومى ، الذى أراد أن يخرج بالناس عن مألوفهم ، وأن يخالف ما يفتى به العلماء فى الأزهر ، وما يعتقده العامة ويحرصون على فعله .

وقد أرخ الشيخ حسن الحجازى ظهور هذا الواعظ ونفيه فى قصيدة أولها :

مصر قد حل بها واعظ عن منهج صدق قد أعرض
أبدى ، جهلا ، فيها قولا منه الحبلى ، حالا ، تجهض .!

---

(١) ص ٤٩ — ٥١ من الجزء الأول .

(٢) يروى أمين باشا سامى ، نقلا عن همّر ، أن هذا الواعظ نفى سرا إلى الشام . ونقل عنه أيضاً أنه دعا لهدم التكايا . وقال إن الدراويش أولى بهم أن ينصرفوا لطلب العلم بدل عكوفهم على الرقص : وذكر أن الناس تأثروا كثيرا بدعوته فلما نفى عاد الناس شيئاً فشيئاً لما كانوا فيه .

فأســاء الظن بســادات أحكام الدين ، بهم ، تنهض

وهى قصيدة ، كما ترى ، على وزن القصيدة التى كان يتغنى بها الشحاذون على أبواب المساجد ، والتى أولها : الحمد لربٍ مقتدر .

ومن هذه القصة ، نرى أنه ، على رغم الظلم والظلام الذى كانت تعيش مصر تحت سطوته ، فى ذلك الوقت ، نرى أن حركة تحريرية مثل هذه وجدت لها مكانا فى عقول الناس ، حتى تبع هذا الواعظ ألف من رواد المساجد ، يقتحمون بيت القاضى وديوان الحاكم . وكان من الممكن أن تثمر هذه الحركة التحريرية ثمرتها ، لو لم يقض عليها العلماء ، والقاضى ، والباشا .

ومن هذه القصة أيضاً . ومن تصرفات القاضى ، ونائبه ، والباشا ، نستطيع أن نحكم على مستوى الأخلاق عند أصحاب السلطة ، الدينية والزمنية ، إذ ذاك .

وقد رأينا ، فى ترجمة الشيخ حسن المطار ، أنه كانت عنده نزعة لطيفة للتحرر ، ودعوة هادئة لاخراج مصر من قيود التقليد ، يمكن أن نذكرها عند ذكر هذا الواعظ الرومى ودعوته .

أما الحياة العلمية ، فكانت سمتها الغالبة ، الأتجاه إلى الحفظ . ولذلك كان يكثر نظم العلوم المتداولة شعراً ، ليسهل حفظه . وهذه السمة إستمرار لطريقة سادت الحياة العلمية عند تأخر العقلية الاسلامية ، وجفاف مواردها . ونجد كثيراً من الأمثلة على ذلك فى صفحات مختلفة من الجبرتى .

بيت الشرايبى

ولا يكون الحديث عن الشعر والنثر ، والحياة الفكرية والعقلية لهذا العصر كاملا ولا وافياً ، إلا بذكر قوم ، ليسوا من الشعراء ، ولا من الناثرين ، ولا من أهل الفكر . بل كانوا تجاراً . ولكن لهم ، فى هذه الحياة الفكرية ، أثر كبير . وهم بيت الشرايبى .

كان آل الشرايبى من كبار التجار ، وكان بيتهم من بيوت المجد والعز والفخر . مماليكهم ، وأبناء مماليكهم ، من أعيان مصر وأمرائها . وكانوا ذوى ثراء فاحش . ورفاهية . وكانت بيوتهم ، فى الأزبكية ، تشتمل على إثنى عشر مسكناً ، وكل مسكن بيب مستقل ، فسيح . يتردد عليهم فيها الأمراء ، من غير موعد ، ولا دعوة . ويقصدهم فيها الشعراء ، والمادحون .

وكانت فى بيوتهم مكتبة عامرة . فيها أندر الكتب ، وأغلاها ثمناً ، يرغبون فى شرائها ، ويدفعون فيها نفيس المال . ثم يضعونها فى هذه المكتبة ، ويبيحون لمن شاء من العلماء ، وأهل الأدب ، أن يطالع فيها ، وقتما يشاء ، وكيفما يريد ، فهى موضوعة على الرفوف ، والخزائن . لا يكتبون عليها وقفية . ولا يدخلونها فيما يتوارثونه من مال ، وهى مال جسيم .

وكان من رغب ، من زوار بيتهم من العلماء وأهل الأدب ، فى أن يطالع كتابا فى أى علم ، أو فن . وجد ما يبتغى ميسوراً مباحاً . فإذا أراد أن يأخذ ما يشاء من كتب إلى بيته ، أو مسجده ، أو بلده ، أخذه . ولو لم يعرفه أحد من أصحاب البيت . فهم لا يمنعون راغباً عن كتاب ، مهما يكن الحال . وكان بعض من يأخذ الكتب من بيت الشرايبى ، لا يردها . بل يبقيها ، فلا يسأل عنها . وقد يبيعها ثم تعود إليهم مرة أخرى ، فيعودون إلى شرائها ، معتذرين عمن أخذها فباعها بأنه قد يكون محتاجاً ، وقد يخرج الكتاب من خزائنهم ، فيباع عليهم مرة بعد مرة ، وهم يشترونه راضين . ويضعونه ، فى كل مرة ، حيثما كان ، ميسورا مباحا ، لمن يقرأ ، مبذولا لمن يأخذ .

وكان بيتهم يفتح دائماً لكل طارق . ولا ينقطع منه الضيف . ولا يرد عن طعامه سائل ، ولا جائع ، ولا محتاج .

وقد مات كبير بيت الشرايبى هذا ، الخواجا الحاج أحمد بن محمد الشرايبى ، حوالى سنة ١١٧٠ .

وكان آخر هذه الطبقة من بيت الشرايبى ، شقيقه إبراهيم ، المشهور بابن الدادة ، صديقاً حميا للجبرتى . ومات فى سنة ١٢٠٥ .

وكان لهذه الأسرة نظام عائلى فريد . يختارون منهم كبيراً ، يكلون إليه أمر أموالهم ، ينميها ويستثمرها ، ويقوم على حسابها العام كله . فاذا تجمع لديه ، آخر العام ، ربح هذه الأموال ، قام بدفع ما عليهم جميعاً من الضرائب . ثم أعطى كل فرد من أفراد الأسرة ، رجلا أو امرأة ، ما يلزمه لكسوة الصيف ، ثم لكسوة الشتاء . وخصص لكل منهم ، فى كل شهر ، قدراً من المال ينفق منه على حاجته . وهو يعطى هذه النفقات الشهرية لكلٍّ منهم حسبما يرى أنه يكفيه ويستحقه . وهم لا يعترضون . وعند ما تبقى فضلة من المال فى نهاية العام ، يفرقها عليهم ، حسب حاجتهم ، واستحقاقهم .

ويقول الجبرتى إن هذا النظام ، الاشتراكى ، بقى سائداً فى بيت الشرايبى زمناً طويلا .

وكان من تقاليد هذه الأسرة ، أن يتزوج أفرادها فيما بينهم . فشبابهم يتزوج من فتيات الأسرة . ولا يتزوج من غيرها . وكذلك فتياتها .

وفى خطط على باشا مبارك أن بيت أسرة الشرايبى كان فى ميدان العتبة الخضراء . وكان يعرف ببيت « الثلاثة ولية » . وأن السيد محمد الشرايبى بنى فيه مسجداً عرف باسمه ، ثم عرف فيما بعد باسم جامع البكرى . وبيت الشرايبى هذا ، اشتراه الأمير رضوان كتخدا فيما بعد . وجعل منه قصوراً باذخة . تحدثنا عنها فى مواضع أخرى من الكتاب . وبقى جزء من هذا البيت كانت فيه ، إلى سنين غير بعيدة ، المحكمة المختلطة القديمة .

حياة النـاس

فى القاهرة

نرى فى هذا السجل الحافل ، الذى سجل به الجبرتى كل صغيرة وكبيرة من تاريخ عصره ، هذه الحياة المصرية الصميمة حية تفيض بالحياة والقوة .

فهو يسجل هذه الحياة الاجتماعية التى كان الناس يحيونها فى القاهرة والريف . وكيف كانت هذه الحياة تسير بهم ، أو يسيرون فيها ، يوما بعد يوم . وعاما بعد عام . ويذكر ما كان فى القاهرة من قصور مشيدة ، وحدائق . وما كان يفيض بين أيدى أهلها من الأمراء والتجار والعلماء أيضا ، من الثروة . وما كانوا ينعمون به من رغد العيش وطيب الحياة . ويذكر ما كان ينال الناس من شقاء ومن مرض وفقر . حتى لا يجدوا ما يطعمون ، فيأكلون الجيفة ، والحمير ، والقطط . ويجدون أنفسهم سعداء ، إذا وجدوها ، بعد سعى ، وجهد ، وطول معاناة .

وهو يصف ، أيضا ، ما كان بين الناس من مودة ، وتعاطف ، وبر . وما كان عند أغنيائهم من أريحيّـة . وعند فقرائهم من أمانة . ويذكر أيام القاهرة ، ومواسمها . التى يحفل بها الناس ، ويبتهجون فيها . ويذكر شيئاً قليلا يشير به إلى حياة الفن والغناء ، وإلى ملاعبهم وأفراح السادة منهم .

الثروة والنعيم

أما ثروة الأمراء ، المماليك ، وما كان فى قصورهم من النعيم والترف ، فقد كان يسيراً على الجبرتى أن يصفه ، حيث كان صديقا لكبارهم ، يزورهم فى هذه القصور ،

ويشاركهم فى بعض هذه الحياة المترفة التى كانوا يحيونها ، ويحرصون على أن يبلغوا بها غاية ما يستطاع من رفاهة ومن رغد[١] .

كان للسيدة زليخا ، زوجة إبراهيم بك ، تاج من الجوهر . ولم يكن كل ما تملك من الجواهر والذهب .

« وعندما زار فولنى مصر ، فى أواخر القرن الثامن عشر ، قدر عدد المماليك بنحو ٨٥٠٠ مملوك ، من الرؤساء ، الذين ينفق الواحد منهم ، على سلاحه وملبسه ، وزوجته ، وسراريه ، نحو ألفين وخمسمائة جنيه فى العام . وهذا تقدير شاهد عيان[٢] » .

وكان من عادة هؤلاء المماليك ، إذا أعتقوا واحدا من مماليكهم الصغار ، أن يخلعوا عليه الخلع الثمينة ، والثياب الغالية ، من صناعة الهند ، وحرير الشام . ويقدموا له البيوت ، بل القصور ، المؤثثة بالرياش الفاخر ، والجوارى والخدم . ويهدون له أصائل الخيل ، وقد يزوجوه .

وكذلك كانوا يصلونهم ، فى الأعياد والمواسم ، بالهدايا الكثيرة ، الكبيرة القيمة .

وحين هرب على بك ، بعد أن خذ له أنصاره ، إلى الشام . التجأ إلى صديقه الشيخ ظاهر فى عكا ، وأخذ معه ، من الأموال ، ثمانمائة ألف محبوب ذهبا ، على خمسة وعشرين جملا . ونقل معه أيضاً ، من المصوغ والحلى ، ما قدرت قيمته بمبلغ ثلاثة ملايين محبوب ذهب . أى ما قيمته الآن حوالى ستة وتسعين ألف جنيه .

وقد وصف فولنى ، فى رحلته إلى الشام[٣] ملابس جنود على بك وصفا دقيقا ، فقال إن ملابسهم تتكون من أربعة ، أو خمسة ، أردية وطيلسانات ، تتدلى على

---

(١) انظر ماوجد فى قصر مراد بك ، بعد فراره . فى الجزء الثالث من الكتاب

(٢) ص ١٥٠ من كتاب « المماليك فى مصر » للأستاذ أنور زقلمة .

(٣) قام فولنى برحته إلى مصر وسوريا سنوات ١٧٨٣ و ١٧٨٤ و١٧٨٥ . وهو كاتب فرنسى .

أرجلهم . وكان قميص الفارس منهم من القطن الناعم الأبيض ، والثوب المتدلى فوق القميص ، من القماش الهندى الخفيف . وفوق ذلك القفطان من حرير مزركش ، تمتد أكمامه حتى أطراف الأصابع . ثم « الكرك » بأكمام قصيرة . ويطوف ، حول الرقبة ، فراء من السمور . ولكل واحد منهم طيلسان يلبسه فى الحفلات ، يلف به جسمه جميعه . وكان عدد هذا الجيش أربعين ألف مقاتل [١] .

وكان مقبض الخنجر الذى يحمله على بك ، يقدر ثمنه بمائتى ألف جنيه [٢] .

وبنى حسن كاشف لنفسه قصراً من أجمل القصور . أنفق عليه ، كما يقول الجبرتى ، أموالا عظيمة . وقبل أن يتم بياضه دخل الفرنسيون القاهرة ، فخصصه نابليون لإقامة أعضاء المجمع العلمى ، الذى كان يرافقه ، وقد كتب أحد أعضاء هذا المجمع يصف هذا القصر ، وقصر قاسم بك ، الذى كان يجاوره ، وخصص لأعضاء المجمع الفرنسى أيضا ، كتب يقول : — « إن فى هذه القصور ، من أسباب الفخامة ، ما لا يقل عن اللوفر . وإنا لنجد فيها ، من أسباب الراحة ، أكثر مما فى اللوفر . وبجوارها حديقة فسيحة ، تبلغ مساحتها نحو خمسة وثلاثين فدانا . جيدة الغراس . أما قاعة جلسات المجمع فإنها مزدانة بأجمل ما فى قصور المماليك من الأثاث [٣] » .

وكان قصر حسن كاشف هذا فى الناصرية . ومكانه الآن المدرسة السنية .

وكانت للأمير عبد الرحمن كتخدا ، صاحب العمائر الكثيرة ، الضخمة ، دار بحارة عابدين ، نقشت مجالسها بالذهب المموه ، واللازورد . وصبغت جدرانها بالأصباغ البهيجه ، البديعة الصنع . وزخرفت بالرخام والقيشانى وغرس إلى جوارها بستانا عظيما ، أقام فى داخله مجلسا تتوسطه أحواض المياه المفروشة بالرخام ، وأقيمت قاعة المجلس نفسها على أعمدة من الرخام الأبيض .

---

(١) ص ١٥٠ — ١٥١ من كتاب « المماليك فى مصر » لأنور زقلمة .

(٢) ص ٢٧ من كتاب « تاريخ مصر من عهد المماليك إلى نهاية حكم إسماعيل » تأليف جورج يانج . الترجمة العربية .

(٣) ١٢٢ ج — ١ — من كتاب « تاريخ الحركة القومية » لعبد الرحمن الرافعى .

وبنى الأمير يوسف بك داراً على بركة الفيل ، تجاه جامع ألماس ، ظلت عمارتها مستمرة خمس سنين . وجاءه يوما ، من أراضيه فى الصعيد ، ثمانون ألف أردب من القمح ، فصرفها كلها أجورا على البنائين ، وثمنا للأحجار ، والحديد ، والخشب ، والجبس ، والجير . الذى كان يحتاجه لبناء هذه الدار .

وكان لمحمد بك الألفى بيت متنقل ، بل قصر مصنوع من الخشب . مجزؤ إلى قطع متفرقة . تحمل على الجمال عند ما يريد السفر . ثم تركب ويضم بعضها إلى بعض ، وتربط بأربطة من الحديد . فيتكون منها بيت لطيف مرتفع عن الأرض بثلاث درجات . ويفرش بالطنافس الغالية ، والوسائد الحريرية والأسرة . وله سقف مرفوع . ونوافذ تفتح وتغلق ، حسبما يشاء .

وقد بنى الألفى ، فى سنة ١٢١١ قصرا من قصوره ، على بركة الأزبكية ، وبعد أن تم منه الطابق الأول ، لم يعجبه ، فأمر به فهدم ثم أمر ببنائه من جديد ، على وضع آخر . واختار أربعة من أمرائه يقفون للاشراف على البناء .

وطلب له الصناع ، والأخشاب ، والمؤن . حتى أوشك الناس ألا يجدوها . وأنشأ طواحين خاصة لطحن الجبس لقصره هذا . ولما أتمه جعل على نوافذه شرائح الزجاج الملون . والبلور الصافى النقى . حتى قدرت الشريحة الواحدة من البلور بخمسمائة درهم . ثم فرش القصر بالطنافس الغالية ، وعلقت فيه الستائر ، والوسائد المزركشة المقصبة . وبنى فيه حمامين ، فى كل طابق حمام . وعلق فى حجراته النجف ووضع فيها أشياء ثمينة أهديت إليه عند ما سافر إلى إنجلترا . وأنشأ فى طابقه الأول قاعة كبيرة لجلوسه فيها حوض كبير الماء ، فيه سلسبيل من الرخام مركب من قطعة واحدة . وله نافورة كبيرة يندفع فيها الماء . ومن حولها نافورات أخرى صغيرة على هيئة أسماك تمج الماء من أفواهها . وغرس إلى جوار هذا القصر بستانا عظيما .

وقد أقام الألفى فى قصره هذا نحو عشرين يوماً من شهر شعبان سنة ١٢١٢ ثم دخل الفرنسيون مصر . فاتخذه نابليون سكناً له . ثم سكنه من بعده الجنرال

كليبر ، بعد سفر نابليون من مصر . ثم الجنرال عبد الله منو بعـد قتل كليبر ـ
ثم سكنه محمد على بعد ذلك .

وكان للأمـير رضوان كتخدا الجلفى بيت عظيم « ليس له نظير فى عمـارته
وزخرفته ، وكلفته . وسقوفه من أغرب ماصنعته أيدى بنى آدم ، فى الدقة والصنعة
وكله منقوش بالذهب ، واللازورد ، والأصباغ . وعلى مجالسه العليا قباب مصنعة ،
وأرضه كلها بالرخام الملون » .

وقد أنشئت ، فى وصف هذا القصر ، ومدح صاحبه ، قصائد كثيرة . منهـا
قصيدة الشيخ مصطفى أسعد اللقيمى الدمياطى . رأينا طرفاً منها من قبل ، وقد نجد
أيضاً فى موضع آخر من هذا الفصل ، شيئاً من مظاهر الثروة والنعيم عند المماليك .

وقد ذكر الجبرتى خبر هدية أرسلها الأمير اسماعيل بك كبير المماليك ، إلى
السلطان مصطفى الثالث[1] فـكان منها ستة سروج للسلطان وأولاده . وكانت مع
السروج عبـائات ، هى وقصاعها وقربوسها ، مرصعة جميعاً بالجواهر والذهب .
والركابات واللجامات والشماريخ والسلاسل كلها أيضاً من الذهب الخالص . والرأس
والرشمة من الحرير المنسوج بسـلوك الذهب وشماريخ المرجان والزمرد ، وجميع
« الشراريب » من القصب والمرجان .

وقد صنعت هذه السروج أدق صناعة وأجملهـا فى بيت محمد أغا البارودى .
وأرسل مع هذه الهدية كثيراً من القدور والأوانى الصينية الجميلة . مملوءة بأنواع
مختلفة من الشربات ، كالورد والبنفسج ، ومن العطور كالصندل الممزوج بالمسك ،
والعنبر ، وماء الود المـكرر ، ومن المربات الهندية مثـل القرنفل والزنجبيل .
وأرسل معها عددا من أجمل الجياد ، وأقمشة هندية رقيقة ، وعودا وعنبرا ، وطرائف
كثيرة . وقدر ثمن القدر الواحدة التى وضعت فيها هذه الأشربه أو العطور ـ وهى
فارغة ـ بمائة دينار أو أكثر .

ووصف هذه الهدية لايدل فقط على الثروة التى كانت تسيل بين يدى المماليك.

---

(١) تولى من ١٦ صفر ١١٧١ إلى ٨ ربيع الأول ١١٨٧ [١٧٥٧ — ١٧٧٣ م]

بل يدل أيضاً على أن القاهرة لم تخل من الصناعة الدقيقة الجميلة ، ولا من الذوق الرفيع الأنيق . رغم مافعل بها السلطان سليم بعد فتحها ، مما سجلناه فى موضعه .

وقد أقام اسماعيل بك الدالى حفلا لزواج ابنه ، دعا إليه عثمان باشا الحلبى . فلما انتهى الحفل وضع بين يدى عثمان باشا منديلا فيه ألف دينار . ورجا منه أن يفرقها « بقشيشاً على الخدم وأرباب الملاعيب » .

أما ثروة التجار، وأموالهم ، فيكفيك ، لتقديرها ، أن تذكر ماوراه الجبرتى . عند حديثه عن إحدى الفتن التى وقعت بين الحكام فى القاهرة . من أن بعض الجند لحق بالسيد أحمد المحروق ، كبير تجار مصر ، وكان طرفا فى هذه الفتنة . فسلبه عشرين ألف دينار اسلامبولى ، كانت فى ثيابه .

وفى سنة ١٢٠٢ أغار الأعراب على قافلة للحجاج والتجار، قادمة من السويس فنهبوا منها ، للتجار وحدهم ، ستة آلاف جمل تحمل البضائع ، من الأقمشة ، والبن ، والبهار .

وقد ذكر الجبرتى ، فى حوادث سنة ١١٣٥ ، أن جماعة من الجند سطوا ، وهم سكارى ، على نسوة من « نساء الأكابر » كن يتنزهن فى غيط الأعاجم ، عند قنطرة الدكة بالأزبكية ، فسلبوهن ثيابهن وحليهن ، ثم جاء آخرون ومعهم كبير منهم ، فأكملوا سلبهن ، وعروهن من ثيابهن جميعاً .

ويذكر الجبرتى شيئاً كثيراً من الذهب والجوهر ، كن يتحلين به ويضعنه فى ثيابهن التى نهبت . وكان مع إحداهن غلام سلبت من على رأسه طاقية فيها جواهر وذهب . وسلب منها سروال شبيكة من الحرير الأصفر والقصب . وفى كل عين من الشبيكة لؤلؤة ، وفى تكة السروال أيضاً .

وقد منعت النساء من النزهة وركوب الحمير فى غيط الأعاجم بعد هذه الحادثه .

ولما مات الخواجا محمد الدادة ، وكان تاجراً ، ترك ألفاً وأربعمائة وثمانين كيساً . وكان يملك خان الحمزاوى ، وغيره من الوكائل ، والحمامات ، والجامكية ، أى المخصصات ، والأراضى وثلاث سفن تسير فى البحر الأحمر .

وقد رأينا فيما كتبناه عن « الأزهر والعلماء » ما كان يشغل بعضهم من أمر الدنيا ، وكيف كانت لهم القصور ، والضياع الواسعة ، ورأينا ، فيما كتبنا عن الحملة الفرنسية ، أن غرامة فرضت على أهل القاهره . فكان ما طلب ، من الشيخ محمد السادات ، خمسون ألف فرنك . ومن الشيخ مصطفى الصاوى خمسون ألف أيضاً . كما فرضت خمسون ألفا اخرى على الشيخ محمد الجوهرى وأخيه .

وعندما مات الشيخ محمد شنن ، شيخ الأزهر ، سنة ١١٣٣ ترك لابنه موسى أربعين ألفا من الذهب البندقى . إلى جانب ثروة أخرى من النقود والفضة . والأملاك والضياع ، والوظائف والجماكى . ويذكر الجبرتى فى ذلك ما يدل على ما كان يسود الناس ، فى ذلك الوقت ، من الإخلاص ، والثقة ، والأمانة ، فيقول إن هذه الثروة العظيمة ، تركها الشيخ شنن أمانة عند الشيخ محمد الجداوى ، حتى يكبر ابنه موسى . فلما مات ، أداها الشيخ الجداوى كاملة إلى موسى هذا . بعد أن حفظها سنين ، . وبدد موسى هذه الثرة كلها .

وكذلك كانت لمن يتصلون بالحكم والحاكمين ثروات طائلة . يذكر الجبرتى أن محمداً علياً غضب ، أو تصنع الغضب ، على المعلم غالى ، كبير المباشرين ، وأمر بتفتيش بيته . فوجدت عنده نيف وستون جارية بيضاء ، وسوداء ، وحبشية ، وخلعه محمد على من وظيفته . فصالح المعلم غالى على نفسه . ودفع له أربعة وعشرين ألف كيس ، فأعاده إليها .

ومن مظاهر الثروة والنعيم ما ذكر عن حفلة المولد النبوى ، التى أقامها السيد خليل البكرى فى بيته . وحضرها نابليون . فقد بسط خمسين مائدة ، على كل واحدة منها خمسة أو ستة يجلسون على الوسائد . وكانت الأطباق على المائدة التى جلس عليها نابليون والبكرى ، من الفضة .

حياة الفن

هذا الثراء ، وهذه الحياة الرغدة . كان لا بد لأصحابها من حياة اجتماعية بهيجة ومن ثقافة فنية . ولكن الجبرتى لم يوفّ هذه الناحية حقها من التسجيل ، إما لأنه

شيخ أزهرى . وإن كان من أهل الثراء ، وسادة المجتمع . وإما لأنه لم يكن يعتقد أن هـذه الناحية مما يستحق أن يحفل بتسجيله . وقد يكون كلا الأمرين سبباً لهذا القصور .

وقد ذكرنا فى تراجم بعض أهل الفـكر أنهم كانوا يجيدون العزف على العود وبعض الآلات الموسيقية . كما ذكرنا أن بعض شيوخ الأزهر كان ينظم الأغانى والغزليـات والتواشيح . بل رأينـا قسوته على العلماء خاصة ، لأسرافهم فى السماع واللهو .

وذكر الجبرتى أسماء بعض المغنين . والعازفين على العود ، والقانون ، والناى والـكمنجة . وهم ، ابراهيم الوراق ، والجبابى ، وقشوه ، وقال إنه كان لهم مرافقون يصحبونهم . ولـكنه لم يترجم لأحد منهم . وكان ورود أسمائهم فى سياق ترجمة أحمد باشا طوسون ، ابن محمد على ، حيث قال إنه أخذ أهل الفن هؤلاء مرافقين له فى معسكره الذى كان يتنقل به بين القاهرة والإسكندرية ورشيد .

كما ذكر ، فى تراجم كثير من المماليك ، والأعيان ، والعلماء ، أنهم كانوا يقيمون مجالس الغناء .

ولـكن مباهج الحيـاة ، والاستمتاع بالغناء ، والموسيقى . لم يكن قاصراً على هذه الطبقة المترفة من أهل الثراء والجاه . بل كان للقاهريين عامة نصيب كبير من هذه المباهج وهذا المتاع .

وفى وصف الجبرتى لحفلات كسر الخليج ، أى وفاء النيـل ، ما يدل على أن أهل القاهرة كانوا ينالون فيها من المرح ، والبهجة ، شيئـاً كثيراً . حتى أنهم كانوا ، فى بعض السنين يسرفون فى هذا المرح . ويخرجون به عن الحد . وكثيراً ما سلط عليهم الباشا ، أو الحاكم ، جنداً شداداً ، ليحول دونهم ودون الخروج بهذه البهجة ، وهذا المرح ، إلى الاستهتار . وسنرى شيئاً من ذلك بعد قليل .

وكانت بركة الأزبكية ، مثابة أهل السرور ، ومكان التنزه ، وترويح النفس لمن يشاء . كانت ، فى أيام الفيضان ، يملأها ماء النيل . وتغـطّى صفحة هذا الماء بالزوارق تعد للنزهة نهاراً وليلا . وفى المساء توقد القناديل على دائرة البركة ،

فى تلك القصور الزاهرة التى تحيط بها . كما توقد الزوارق التى تسبح على سطحها . فيأتلف من هذه وتلك منظر بهيج يسر النفس ، ويشرح الصدر . وخاصة فى تلك الليالى القمرية من صيف القاهرة الساحر . فيختلط ، كما يقول الجبرتى ، « ضحك الماء ، فى وجه البدور والقناديل ،وانعكاس خيالها كأنها أسفل الماء أيضاً ، وصدى أصوات القيان والأغانى ، فى ليال لا تعد من الأعمار » .

وقد أطنب الشيخ حسن العطار ، وغيره ،من أدباء ذلك العصر وشعرائه ،فى بركة الأزبكية ، وجمالها ، وما كان يحيط بها من القصور . وما كان لأهل القاهرة فيها ، وحولها ، من مباهج ونعيم . وقد رأينا بعضاً من ذلك أول هذا الفصل .

وكذلك كانت من أماكن النزهة والراحة ، بركة الفيل . وكانت تبنى على جوانبها القصور الواسعة ، وتنشأ الحدائق الجميلة فى داخلها وخارجها ومن الشعر الذى قيل فيها : —

أنظر إلى بركة الفيل التى اكتنفت بها المناظر ، كالأهداب للبصر
كأنما هى ، والأبصار ترمقها ، كواكب ، قد أداروها على القمر

وكانت منازه الخليج أيضا ، والماء ينساب فيه رفيقا يسيرا ، فى ليالى الصيف ، بهجة لأهل القاهرة ومراحا ، ومكانا للهوهم وعبثهم ومتاعهم . حتى قيل فيه :

لا تركبن فى خليج مصر إلا إذا يسدل الظلام
يا سيدى ، لا تسر إليه إلا إذا هوّم النيام
والليل ستر على التصابى عليه ، من فضله ، لثام

وهذا الشعر لم يذكره الجبرتى . بل هو سابق على عصره الذى أرخه . ولكنه كان صادقا فى وصف هذه المنازه ومباهجها فى العصر الذى يؤرخه .

وقد أنشأ الأمير قاسم بك أبو سيف ، وكان يعرف بقاسم كاشف ، فى أحد قصوره على بركة الناصرية ، حديقة واسعة ، وكان هذا الأمير عارفا بالهندسة ، فأجرى فى هذه الحديقة مياه النيل بطريقة ابتكرها . وشق فيها طرقا ممهدة مستطيلة ومجارى للماء ، وغرس فيها الأشجار الباسقة ، والنخيل . وجعل هذه الحديقة طبقات ، يعلو بعضها بعضا ، والمياه تصعد إلى أعلاها عن طريق أنابيب خاصة .

وعند كل مصب لهذه المياه أقام مكانا للجلوس ، وعليه أشجار مظلة . وأباح الأمير دخول هذه الحديقة لمن يشاء . وسماها «حديقة الصفصاف والآس ، لمن يريد الحظ والإئتناس » ونقش ذلك الاسم على لوحة من الرخام ، رفعها على جذع شجرة ، على مدخل الحديقة .

وقد تكاثر الناس ، على حديقة الحظ هذه ، للنزهة والجلوس ، وأقيمت فيها المجالس ، والقهاوى . يجلس إليها المغنون والمطربون ، والناس من حولهم ، يرى بعضهم بعضا ، ويقصدون إليها من جميع الأطراف . وبعضهم كان يقضى فيها الليل كله ساهرا ، لاهيا .

كما كان يقصد إلى حديقة هذا الأمير كثير من الأعيان والكبراء ، يبيتون ليالى ، فى داخل القصر . بعد أن ينعموا نهارهم فيها . وكان يبيح لهم ذلك ، ويجىء لهم طعامهم من بيوتهم . ويقول الجبرتى إن هذه الحديقة « زاد بها الحال ، حتى امتنع من الدخول إليها أهل الحياء والحشمة » .

وقد سمع الجبرتى من الأمير قاسم ، الذى أنشأ هذه الحديقة ، أنه أنشأ ، فى الصعيد ، أعجب منها وأغرب .

وكذلك أنشأ فقيه من فقهاء الحنفية هو السيد سعودى اسكندر بيتا عظيما ، على بركة الأزبكية ، وغرس فيه حديقة عظيمة ، فيها قناطر وبوائك . وأباح دخولها للناس . فكان يجتمع فيها « عالم من أجناس الناس ، وأولاد البلد ، شىء كثير . وبها قهاوى ، وبياعون ، وفكهانية ، ومغانى ، وغير ذلك . وتقف عندها مراكب وقوارب ، بها من تلك الأجناس . فكان يقع بها ، وبالجسر المقابل لها ، من عصر النهار إلى آخر الليل ، من الحظ والنزاهة ما لا يوصف[1] » .

---

(١) قصر هذا الفقيه ، هو الذى اشتراه ، فيما بعد ، محمد بك الألفى وأضاف إليه غيره فكان من هذه القصور . بيته الذى سكنه نابليون كما ذكرنا من قبل .

أيام أهل القاهرة

مصر السعيدة ما لها من مثيل فيهـا ثلاثة فى الهنا والسرور
مواكب السلطان ، وبحر الوفا ومحمل الهـادى ، نهاراً ، يدور

فى هذين البيتين ، جمع الشاعر أهم أيام أهل القاهرة ، التى يبتهجون بمقدمها ، ويحتفلون بها ، ويظهرون فيها زينتهم : ويعلنون سرورهم .

أما مواكب السلطان ، فهى التقاليد التى كانت مصر تقوم بها لاستقبال « الباشا » الذى يختاره السلطان ، فى اسطنبول ، لحـكم البلاد . ويسمى الوالى . وكانت العادة تجرى بأن يبلغ الوالى الجديد نبأ قدومه إلى الديوان فى القاهرة ، عندما يصل إلى الإسكندرية ، أو رشيد ، أو السويس . فيختار شيخ البلد ، وهو كبير المماليك ، وفداً منهم لاستقباله . وقد يحملون له معهم الهدايا ، فإذا كان طريقه إلى القاهرة على النيل ، ركب سفينة فخمة ، مزينة ، تحيط بها السفن الأخرى محلاة بالأعلام والبيارق . وفيهـا الطبول تدق ، والزمور تعزف . وكلما صادفتهم سفينة فى النيل ، انحدرت معهم إلى القاهرة . فيـكون من هذا الأسطول النهرى مهرجان بحرى رائع . وعندما تصل سفينة الوالى إلى ساحل بولاق ، يذهب لاستقباله كبار المماليـك ، والصناجق ، وتطلق المدافع . وقد يذهب شيخ البـلد بنفسه لاستقباله فى بولاق . وبعد أن يرحب به مستقبلوه ، يسلمون إليه مفتاح القلعة ، مقر الحـكم والسلطان .

وقد وصف الرحالة الفرنسى سافارى أحد هـذه المواكب ، كما شاهدها فى المدة التى قضاها فى مصر من سنة ١٧٧٧ إلى نهاية سـنة ١٧٧٩ ، وهى من العصر الذى نؤرخه ، فقال : « شاهدت ، بعينى ، وصول الباشا ، ودخوله المدينة ، فى موكبه وزينته ، رأيت الموكب تتقدمه فصائل من الجنود المشاة ، يسيرون صفين ، وموسيقاهم أمامهم . وأعلامهم تخفق فوق رؤوسهم . يليهم الفرسان ، وعددهم نحو خمسة آلاف إلى ستة آلاف فارس . يسيرون بنظام حسن . ويحملون الرماح الطويلة

تزينهم ملابسهم الفضفاضة اللامعة ، وشواربهم الكبيرة . فكان لهم منظر حربى يبعث الروعة فى النفوس . ويلى هؤلاء « البكوات » مرتدين الملابس البديعة ، وحولهم حاشيتهم من المماليك ، يمتطون صهوات الجياد العربية الأصيلة ، وعليها غواش موشاة بالذهب والفضة . رأيت أعنة خيول الأمراء مرصعة باللؤلؤ والأحجار الكريمة . وعلى خيولهم السروج ، تتلألأ بالذهب . وكل بيك يسير فى موكب ، على هذه الصفة . فكانت مواكبهم ، مجتمعة ، غاية فى الرونق والفخامة ، يزينها جمال الفرسان ، وشكل ملابسهم ، وحسن استوائهم على متون جيادهم . ويليهم الباشا ، يسير الهوينا . وتتقدمه كوكبة من مائتى فارس ، وفرقة من الموسيقى . وأمامه أربعة من الجياد ، يقودها أربعة من السواس ، وعليها غواشيها ، موشاة بالذهب ، مرصعة بالأحجار الكريمة . وكان الباشا ممتطياً جواداً كريماً ، وقد وضع على عمامته ريشة من قطع الماس الكبيرة ، يتوهج سناها فى أشعة الشمس[1] » .

ويذكر الجبرتى استقبال الوالى هذا بقوله إنه جرى على العادة ، أو خرج الأمراء لملاقاته . وأشباه ذلك .

وأما بحر الوفا ، فهو احتفال أهل القاهرة بوفاء النيل . وكانوا يسمونه ، أول الأمر ، كسر البحر ، لأن السد يكسر لتجرى مياه النيل فى الخليج . ثم نفر المصريون ، بذوقهم المرهف ، من كلمة « كسر » فى هذه المناسبة ، فسموه « جبر البحر » .

وكان بلوغ النيل ، فى المقياس ، ستة عشر ذراعا ، إيذاناً بأفراح القاهرة بوفاء النيل . فيبلغ قاضى المقياس ولىَّ الأمر أن النيل بلغ وفاءه . وينطلق المنادون فى شوارع القاهرة يزفون لأهلها البشرى . وفى اليوم الذى يحدد ، بعد ذلك ، يقام الاحتفال ، فتزين السفينة « العقبة » . كما تزين غيرها من السفن . وقد ترسل الدعوات لحضور هذا الحفل . حيث يجتمع الوالى ونائبه . وشيخ البلد ،

---

(١) تاريخ الحركة القومية لعبد الرحمن الرافعى . ص ٢٥ — ٢٦ ، جزء ١ .

كبير المماليك ، وقاضى القضاة . وكبار العلماء والأعيان . ويكسر الوالى أو نائبه سد الجسر . فإذا جرى الماء فى الخليج ، يشق القاهرة ، وتفيض منه بركة الأزبكية وغيرها من منازه القاهرة ورياضها . خرج أهلها فى مباهجهم إلى المقياس والروضة وغيرها يتنزهون . وتطلق المدافع ، وتقام الزينات على البيوت ، وتضاء القناديل فيها . وعلى جنبات البركة . وتسير فى الخليج الزوارق المزينة تضيئها القناديل أيضاً وتصدح الموسيقى . ويغنى المغنون .

ويمضى أهل القاهرة نهارهم هذا وليلهم فى سرور ، وبهجة ومرح شامل . فإذا كانت القاهرة فى حرب ، أو مجاعة ، أو وباء . لم يكن يقام هذا المهرجان ، وقد يكسر الجسر ليلا ، فيرى الناس ماء النيل فى الخليج صبحاً ، ولم يقيموا له زينته ولا مهرجانه .

وأما خروج المحمل ، فكان يجرى الاحتفال به ، عادة فى النصف الأخير من شهر شوال ، فى كل سنة . يجتمع لذلك ، فى ميدان القلعة ، الوالى ، أو نائبه ، وكبار المماليك ، وأمير الحج ، والعلماء ، والأعيان . ثم يمر الجمل ، الذى يحمل المحمل ، فى شوارع القاهرة الكبرى . وتسير الجمال تحمل روايا الماء والقرب ، ثم طوائف الجند ، على رؤوسهم الطراطير السود ، والقلابق . وخلفهم أمير الحج ، ثم أرباب الأشاير ، من رجال الطرق الصوفية ، يحملون البيارق ، والخرق ، والطبول ، والزمور ، ومن خلفهم المحمل . والناس على جوانب الطريق ، أوسائرون خلفه ، يتبركون به .

وكان يحتفل بعودة المحمل أيضاً ، عندما يتيسر للحجاج ، وأميرهم ، أن يعود .

ومن الأيام التى كان يبتهج فيها أهل القاهرة ، ويحتفلون بها ، ويشاركهم فى ذلك أهل المدن الأخرى ، يوم الرؤية . أى رؤية هلال رمضان . حيث كانوا يزينون بيوتهم بالأعلام ، ويضيئونها ، ليلا ، بالقناديل .

وكانت تقام ، فى القاهرة ، وفى غيرها من بلاد مصر ، فى بعض المناسبات ، مواكب تشبه المهرجانات ، التى تقام فى مدن أوربا المختلفة . مثل مهرجان الزهور ، والربيع ، والورد ، والقمح ، والتفاح ، وغيرها .

وكانت تقام فى أيام عامة ، معروفة ، وفى مناسبات يختارها الشعب ، ليظهر فيها ابتهاجه بما يحرك عاطفته . ويبرز شعوره ، نحو حادثة ، أو إنسان .

كان السيد عمر مكرم ، زعيم مصر . وكانت له مكانة تجعل أهل مصر كلها يرون فى أفراحه وأيامه ، ومواسمه الخاصة ، أفراحاً ومواسم للشعب كله . وفى يوم الإثنين السادس عشر من ربيع الأول سنة ١٢٢٤ (أغسطس ١٧٩٩) احتفل السيد عمر بختان ابن بنته . فأقام أهل القاهرة مهرجانهم الشعبى هذا . وسار فيه أرباب الحرف المختلفة ، يقودون عرباتهم وهى تمثل الحرفة ، أو العمل ، الذى تقوم به كل طائفة منهم . فيجىء أصحاب كل حرفة بعربة ، على هيئة مخصوصة يختارونها ويتسابقون فى زخرفتها وتزيينها بأنواع القصب ، والحرير الملون ، ويضعون على ظهرها أدوات صنعتهم ، أو تجارتهم . ومع هذه الأدوات ، الصانع . أو البائع ، كأنها حانوت متنقل . فتسير عربة ، مثلا ، عليها صانع حلوى ، بأوانيه ، وأكوابه ، وأدواته ، من الدقيق والسكر ، وغيره ، وهو يقوم بصناعته فوق العربة ، وهى تسير . ثم أخرى على ظهرها خياط يقص أثواباً ، ويخيطها . وأخرى عليها خباز ، بفرنه ، وعجينه . يصنع الخبز . وأخرى عليها بناء ، أو حداد ، بكوره ، ومطرقته ، وحديده ، الذى يطرقه ، ويطويه ، ويلينه . أو زيات ، أو عقاد يعقد الحرير . وكان الصيادون يصنعون عرباتهم على شكل قارب له شراع أو أكثر ، يسير على عجل ، وهكذا . وأمام كل عربة يسير أهل الحرفة التى تمثلها . ويخرج أهل القاهرة ليشاهدوا هذه المواكب الشعبية الجميلة ، ويروا فيها صورة مشرقة ، منسقة ، حسنة العرض ، من حياتهم العامة والخاصة . وكانوا يتسابقون ، من الصباح الباكر ، للجلوس فى الأماكن التى تمر بها هذه المواكب ، كما يفعلون الآن . ويدفعون ، فى الجلوس بها ، أجوراً غالية . ويلبس الناس ، من المتفرجين ، والسائرين فى المواكب ، أحسن ثيابهم ، ويظهرون فى أبهج زينتهم ، فقد كانوا يسمونه « يوم الزينة[1] » .

---

(١) بقيت هذه المواكب إلى وقت قريب . وقد رأيناها ، فى طفولتنا . فى مدينة قريبة من الإسكندرية ، تسير على هذه الصورة ، فى شوارعها .

وكانت هذه المواكب تمـــر بشوارع القاهرة ، وميادينها ، بين فرح الناس وابتهاجهم .

وفى يوم الخميس السابع من المحرم سنة ١٢٢٩ (٣٠ ديسمبر ١٨١٣) احتفل محمد على بقران ابنه اسماعيل ، بابنة عارف بك ، ابن خليل باشا ، وزفاف ابنته إلى محمد بك الدفتردار ، فأمر أرباب الحرف بإقامة هذا المهرجان . وقضوا أياما عدة فى تنظيمه وتزيينه ، وترتيب سيره . وكانت العربات التى اشتركت فيه ، ممثلة للحرف المختلفة ، إحدى وتسعون عربة . وقد اختار هذا اليوم ، ليشترك الأوربيون فى هذه الأفراح باشتراكهم فى عيد رأس السنة .

وبقيت هذه المواكب الشعبية ، من شروق الشمس إلى غروبها ، تشق القاهرة ، من الموسكى إلى باب الحديد ، إلى بولاق . وشاء الله ، أن ينزل مطر غزير فى ذلك اليوم ، والمواكب تسير فى وسط المدينة . وناهيك بمطر غزير ،فى شوارع القاهرة الضيقة ، المتربة ، فاختل النظام ، وابتلت العربات ، وما زينت به ، وأطفىء ما كان موقدا فوقها من أفران ، وأكوار . وسكت المغنون والعازفون ، ونزلت الراقصات ، والمغنيات ، من فوق العربات ، ولقى الناس من ذلك عناءاً شديداً ، تـكدر به صفوهم فى المهرجان وتلفت ثيابهم ، ووقع كثير منهم فى الماء والطين .

وهذه المهرجانات ، ليست لهواً ولعباً ، بل هى « معرض » متنقل ، يمثل الحياة الصناعية ، والإنتاجية فى البلاد . وهى منافسة فى العمل على تقدم هذه الحياة ، وازدهارها . وتذكير للناس بما فى وطنهم من صناعة ، حتى يعرفوها ، ويقبلوا عليها ، ويفـكروا فيها وهى منافسة ، أيضاً ، فى الإخراج ، والتنسيق وإبراز الزينة ، وتذوق الجمال ، وعرضه على جماهير الناس ، وتعويدهم إدراكه ، وحبه ، لتهذيب حسهم . وهى مواسم للتجارة ، والانتقال ، والسفر ، وكلها مظاهر للنشاط المفيد ، المنتج .

وهى ، بعد ذلك ، مباهج عامة للشعب ، تمـكن مابين أفراده من وشائج ، وتنمى مابين نفوسهم من روابط المحبة ، والتعاون ، والعمل . وتعودهم النظام .

وتدخل فى حياتهم الكادحة ، كثيراً من السرور ، والسعادة والبهجة .

ولكن أهل القاهرة ، لم يكونوا ، فى هذه الأيام التى ذكرها الشاعر ، ولا فى غيرها من هذه الأيام التى ذكرناها ، يكتفون بإظهار السرور ، والبهجة ، والفرح البرىء ، المقتصد .

بل كانوا يتجاوزن ذلك إلى نوع من الحرية والتطرف والشطط . لا يرعون فيه تقاليدهم الطيبة . ولا يلتزمون أوامر دينهم ، وما مكارم أخلاقهم . ولا حدود آدابهم ، فى التحفظ ، والتجمل ، والبعد عما يسقط المروءة ، ويستحى منه كرام الناس .

وكان أكثر ما يكون ذلك ، فى أيام جبر الخليج ، أو وفاء النيل ، كما أشرنا إلى ذلك ، منذ قريب . وكما نرى فى صفحات غير قليلة من الجبرتى . ملأها سخطا ، ومرارة ، وألما . لما كان يفعل الناس بأنفسهم ، وأخلاقهم ، وآدابهم . وما كان فى حياة معاصريه ، من أهل القاهرة خاصة ، وغيرهم على العموم ، من الانحراف والتطرف ، الذين خرجا بهم عن الحد .

أخلاق الناس وآدابهم

فى صفحات غير قليلة ، وفى سنين متقاربة أو متباعدة . نرى مثل هذه الكلمات التى يصور فيها الجبرتى مظاهر الحياة الأخلاقية فى عصره : — « كانت أيام هذا الشهر ، من أسوإ ، ما رأى الناس . بحيث لا يخلو يوم من زعجات ورجفات وكرشات . فى غالب الجهات . لأجل امرأة ، أو أمرد[1] » .

أما تفصيل هذا الذى يجمله الجبرتى فى مثل هذه الكلمات ، فهو شىء كثير ، وعجيب حقا .

وكان أعجب ما يجترأ عليه من ذلك أهل عصره ، يقترفه جند الدولة . وقوادها ، وأمراؤها أيضا . بل وبعض ولاتها كذلك .

يقول الجبرتى ، عند حديثه عن حروب محمد على فى الحجاز ، إن زوجة أحد المحاربين ، أسرت فى إحدى المواقع . فلما طلبها زوجها ممن وقعت فى يده . قال له : — سأردها إليك غدا ، بعد أن تبيت عندى هذه الليلة .

ويقول إن هذا الجند كانت معه ، عند سفره للحجاز ، صناديق المسكرات . وكان لا يسمع فى معسكراتهم أذان . ولا تقام فيه صلاة . وأن كثيرين من قتلى جند مصر فى هذه الحرب ، وجدوا غلفا ، غير مختتنين . ثم يروى عن بعض كبار هؤلاء الجند قوله « إن أكثر عساكرنا على غير الملة ، وفيهم من لا يتدين بدين . ولا ينتحل مذهبا » .

وفى رمضان ، من سنة ١٢٣٠ ، كان أكثر أتباع الدولة ، وكبار الجند ، مفطرين . يجهرون بذلك من غير احتشام ، ولا مبالاة . ويجلسون على الحوانيت ، والمصاطب ، يأكلون ، ويدخنون . ويأتى أحدهم ، وبيده « الشبك » فيدنى مجمرته من أنف مسلم صائم . وينفخ فيه دخانه ، على حين غفلة . ساخرا منه ،

---

(١) حديثه عن شهر صفر سنة ١٢١٩ . « ص ٣١٦ جزء ٣ »

هازئاً به . وحدث أن أدخل رجل من الجند امرأة فى مسجد الأشرفية ، وفعل بها الفاحشة فيه ، بعد صلاة الظهر ، فى رمضان ، من هذه السنة .

ويذكر الجبرتى قصة أخرى عن هؤلاء الناس من جند الدولة ، تتلخص فى أن واحدا منهم تعلق بغلام من أهل القاهرة . وصار يتبعه فى الطرقات ، حتى لقيه ليلة فى مكان قريب من جامع الماس . فأمسك به ، يريد أن يغتصبه ، فى الطريق ، فتودد إليه الغلام حتى دخل به درب حلب المعروف بدرب الحمام ، وكانت فيه بيوت خربة . ثم فجأه الغلام بموسى ، كان يخفيها ، فقطع بها عضوه . وتركه بين الحياة والموت . حتى جاء بعض رفقائه من الجند فحملوه . وكان ذلك فى رمضان .

وكانوا يمرون بشوارع القاهرة فى نهار رمضان . والقهاوى مقفلة . فيطلبون أصحابها ليفتحوها ، وليصنعوا لهم القهوة ليشربوها . فإذا أبى صاحبها ، أو اختفى منهم كسروها ، وعبثوا بما فيها من الآنية والأدوات . حتى يجىء لهم قهرا .

وكان يجتمع فى معسكراتهم الكثير من النساء المحترفات للبغاء . فينصبوا لهن الخيام . ويجىء بعد ذلك البائعون ، وفيهم بائعوا الحشيش . والغوازى والراقصون . وكثير من أهل الأهواء ، والفساق ، و «العيّاق» من أولاد البلد . فينصرفون جميعاً إلى شرب المسكر ، وأكل الحشيش ، والاجتماع بالنساء ، والغلمان ، ولعب القمار ، جهاراً . فى نهار رمضان ولياليه .

ويختلط أهل البلد ، الفاسقون منهم ، بهؤلاء الجند ، يشاركونهم ذلك كله . وكان كبار الجند يفعلون ذلك ، أمام جندهم ، وأمام الناس . ويجهرون بذلك الإثم كله

يقول الجبرتى ، فى حوادث شهر رمضان سنة ١٢٢٤ ، إنه وصلت إلى القاهرة طائفة من جند الدلاتية[١] من ناحية الشام . وكانوا يصحبون معهم جماعة « من المخنثين المعروفين «بالخولات» . الذين يتكلمون بالكلام المؤنث . ومعهم «دفوف

(١) الدلاه ، أو الدلاتية ، جند من أكراد سوريا . ونجد وصفهم وأصلهم فى صفحة ٢٤١ من الجبرتى ، الجزء الرابع .

وطنابير » . ويقول عنهم ، فى موضع آخر ، من حوادث سنة ١٢٢٠ إنهم كانوا « يخطفون النساء والأولاد . بل يلوطون فى الرجال الاختيارية » أى كبار السن .

وفى شهر ذى الحجة من سنة ١٢١٧ اغتصب أربعة من الجند غلاما لحلاق ، فى خط بين السورين . فتصدى لهم هذا الحلاق ، فقتلوه . وذهبوا بالغلام إلى بيت لهم . وتكاثر الناس عليهم يريدون إخراج الغلام . وحضر كبير من الجند ليخرجه أيضا فضربوا رجاله بالرصاص حتى قتلوا منهم ثمانية . ولم يستطيعوا إخراج الغلام . أو أخذهم إلى الباشا . وفى اليوم التالى جاء الباشا بجنده إلى هذا البيت . فأخرجهم ، بعد معركة أخرى ، وقتلهم شنقاً . ولكنهم وجدوا فى بيتهم أكثر من ستين امرأة مقتولة . وفيهن من وجدوها وطفلها مذبوح معها ، فى حضنها .

ويقول الجبرتى إن شر هؤلاء الجند ، كان لا يقف عند حد ، وقد وقع بالناس ، من ذلك ، بلاء عظيم . حتى حضروا من أطراف القاهرة ، ومن مصر القديمة ، إلى الأزهر يشكون ويستغيثون . ويذكر الجبرتى أن جند الدلاة ذهبوا ، فى عهد ولاية أحمد باشا خورشيد سنة ١٢٢٠ ، إلى قليوب . فنهبوها ، وأخذوا نساءها وبناتها وصبيانها وباعوهم فيما بينهم . وحاربهم الفلاحون من أهلها حتى قتل منهم — من الفلاحين — أكثر من مئة .

ونستطيع أن ندرك الآن . ما كان يلقاه أهل القاهره ، خاصة ، من بلاء ، على يد هؤلاء الجند ،وما كانوا يشيعون فيها من فساد ، وإثم ، وشر . إذا عرفنا أن عددهم كان ، قبيل قدوم الحملة الفرنسية ، إثنى عشر ألفاً . وكان سكان القاهرة إذ ذاك ثلاثمائة ألف .

وكان بعض الحكام ، من المماليك ، يدفع الناس دفعاً إلى مقارفة هذه الرذائل . فهو يقول عند حديثه عن الأمير رضوان كتخدا الجلفى ، الذى مات سنة ١١٦٨ ، إن النساء تبرجن فى عهده ، وتظاهر الناس بالمعاصى حتى خرجوا عن الحد وكان عنع أصحاب الشرطة من التعرض لهم فيما يفعلون « فكانت مصر ، فى تلك الأيام .

مراتع غزلان ، ومواطن حور وولدان ، كأنما أهلها خلصوا من الحساب ورفع عنهم التكليف والخطاب » .

أما أن بعض الولاة كان على هذا الحال ، فإنا نجد خبر ذلك فى حديثه عن مقتل على باشا الجزائرلى ، أو الطرابلسى . فقد تولى هذا الرجل ولاية طرابلس ثم خرج منها ، أو أخرج ، بالحرب . فلما ترك طرابلس أخذ معه غلامين جميلين من أبناء الأعيان، رهينة وقدم إلى مصر فتعرف إلى مراد بك وكسب صداقته . وأنزله مراد فى أحد قصوره بالجيزة . ثم ذهب على باشا إلى الحج ، فى سنة ١٢٠٧ وهناك التقى ببعض الحجاج من أهل طرابلس ، وهم يكرهونه ، وكان قد أخذ الغلامين معه إلى الحج ، فعرفهما الطرابلسيون ، وأنكروا ذلك إنكاراً شديداً ، وكبرعليهم. فذهبوا إلى أمير الحج ، وأبلغوه ذلك . وطلبوا إليه أن يخلص الغلامين من هذا الفاسق . فأرسل معهم أمير الحج بعض رجاله ، إلى على باشا، على حين غفلة . فوجدوه نائماً، ومعه أحد الغلامين . فسبوه ولعنوه . وقصوا لحيته ، وكانت ضخمة. وضربوه بالسلاح حتى جرح جرحاً بالغاً . وأخذوا منه الغلامين . ثم عاد إلى مصر فأقام فيها .

وقد اختارت الدولة هذا الرجل ، وهو مغربى ، من الجزائر ، والياً على مصر ، بعد ذلك بعشر سنين . فقتل فى بلدة القرين ، بالشرقية ، ودفن بها ، بعد أن تولى حكم مصر فترة قصيرة . وكان هذا الرجل ، إذا دخل عليه العلماء مد رجليه فى وجوههم وتعمد تحقيرهم .

وكانت للجند ، وللدلاة والأتراك منهم خاصة، شناعات أخرى، وقبائح كثيرة، شقى منهم بسببها أهل القاهرة وغيرهم شقوة عظيمة . فمن قبائحهم أنهم كانوا يقتسمون مع أصحاب المتاجر والدكاكين أرباحهم ، يزعمون أنهم يدخلونهم فى حمايتهم فلا يعتدى عليهم أحد. فيضع الجندى منهم شارة على طائفة من المتاجر والدكاكين ثم يقاسم أصحابها أرباحهم ، لأن هذه الشارة حمايةلهم ، وكانوا يفعلون ذلك حتى على القهاوى ، وصالونات الحلاقة . كما كانوا يقفون على مداخل القاهرة ، فيشترون الفاكهة ، واللبن والجبن والحطب، وغيرها، من الفلاحين القادمين لبيعها.

فيشترونها منهم بأبخس الأثمان ، أو يأخذونها غصباً. ثم يبيعونها للناس فى داخل القاهرة بأغلى ثمن . وقد يأخذون منهم أموالا قبل أن يدخلوهم .

وكثيراً ما كانت تتأخر مرتبات الجند ومخصصاتهم . فكانوا يأخذون بأيديهم ما يشاءون من أموال الناس وأقواتهم . يذكر الجبرتى من حوادث جمادى الأولى سنة ١٢١٦ ، أى بعد خروج الفرنسيين ، ودخول الجند العثمانى ، يذكر أن طوائف العسكر عربدت بأسواق القاهرة ، وخطفوا أمتعة الناس . وما يبيعه البائعون من الشواء ، والفطير ، والبطيخ ، والبلح . وسببوا ذلك بأن « علائفهم » تأخرت . وكان هذا الأمر كثير الحدوث فى أوقات مختلفة .

وكان بعض الجنود يجلس فى بعض الحوانيت ، ثم يقوم ويعود بعد ذلك فيدعى ضياع نقوده أو شيء منه . ولا يترك الحانوت حتى يأخذ من صاحبه شيئاً .

وقد يدخل الحانوت فيختلس ما يستطيع اختلاسه . وبعضهم كان يشتغل باستبدال النقود الزائفة ، بالغش ، أو بالقهر والقوة وكانوا يعترضون النساء فى الأسواق والشوارع من غير حياء

وقد فشى فى وقت من الأوقات ، أمر حماية الجند لأصحاب المتاجر والحوانيت ، كما أشرنا منذ قليل ، واستطاعوا ، بفضل هذه الحماية ، أن يمتنعوا عن دفع الضرائب. وتأثرت بذلك أموال الدولة ، حتى عجز الوالى عن صرف مرتبات الحرمين والأوقاف والعلماء والأشراف والأرامل والأيتام ولم يجد الوالى على باشا بداً من التدخل فى سنة ١١٠٢ ، لأبطال هذه الحماية . ولكنها كانت تعود أشنع وأفحش مما كانت .

وكان بعض الجند يبيع أصناف المأكولات ، والخضار . أو يفرض نفسه رئيساً على حرفة ، فيأخذ من طائفتها ما يشاء من الضرائب ، وعليهم أن يزيدوها فى ثمن البيع

وكان بعضهم يشترى الخراف ويذبحها ويبيع لحومها بالثمن الذى يفرضه ويزيد

فيه مايشاء . وينقص فى الوزن ، ولايستطيع أحد أن يعترض عليه أو يراجعه .

وفى سنة من حكم محمد على، قل وجود الحطب الرومى فى القاهرة حتى ندر، وغلا ثمنه . فكان الجند القادمون من الصعيد يحملونه معهم إليها فيبيعونه لأهلها بأغلى ثمن .

وكانت لهذه الطوائف من الجند ، ويسميها الجبرتى دائماً « العسكر » ، عوائد يتفننون فيها لابتزال أموال الناس ، وخاصة فى الريف ، منها « الوجبة » .

والوجبة هى خروف ، أو فطيرة ، وقد تكون مالا ، يفرضه الملتزم على الفلاحين ويتقاضاه منهم عند حضوره لجمع المال ، أو استيفاء الضرائب .

ومنها «حق الطريق» وهو مال يفرضونه على الفلاحين ، أجراً لهم على الانتقال إلى بلادهم وقراهم لأى أمر من الأمور ولوكان انتقالهم لجمع المال ، أو لأخذ الضريبة . وهم يقدرون حق الطريق هذا كما يحلولهم ، وقد يأخذونه أكثر من مرة .

ومن عوائدهم « كراء الأسنان » . وكانوا يسمونه « ديش كراسى[1] » وكراء الأسنان معناه أن أتباع الأمير ، أو الحاكم ، إذا كانوا معه فى مكان ، وجيء لهم بالطعام ، بعد أن يطعم أميرهم ، لايتقدمون إلى طعامهم حتى يعطيهم صاحب المكان مالا قبل أن يأكلوا .

يقول الجبرتى إن الشيخ عبد الرحمن السلمونى مباشر وقف السلطان الغورى ، أقام حفلا لزواج بنته ودعا بعض الأمراء وكبار الجند ، فلما أكلو ، ومد السماط لأتباعهم . أبوا أن يأكلوا حتى يأخذ كل منهم عوائده من كراء الأسنان .

فلم يسع الشيخ السلمونى إلا أن أعطا كل واحد منهم ريالا ، وكانوا خمسة وأربعين

وكانت لهم عادة أخرى اسمها « الجمعية » .

فقد كان من عادة المختصين بخدمة الوالى ، ونائبه أن يخرجوا فى كل يوم من

---

(١) ديش بالتركية أسنان . وكراسى . أى كراء ، أو أجر .

أيام الجمع ، وقد لبسوا أحسن ثيابهم ، فينتشرون فى أنحاء القاهرة يطوفون على بيوت الأعيان والسراة ، وكبار القوم . ليطلبوا منهم « البقشيش » . ويسمون ذلك « الجمعية » .

وكان من عادة الناس أن يجلسوا فى مكان ظاهر من بيوتهم فى ذلك اليوم . وعند ذلك يمرون بهم ثم يقفون ، وفى أيديهم العصى المفضضة ، فيعطيهم صاحب البيت مايرجون . وقد يمر غيرهم ، وغيرهم ، فيعطيهم . لأنهم كانوا يرون ذلك فرضا واجبا . ويقول الجبرتى إن هذه « الجمعية » ثقلت على الناس حتى كان بعضهم يظل داخل منزله فى ذلك اليوم ، أو يتركه . بسببها . فأبطل محمد على هذه العادة . وكف خاصته ورجاله عنها .

وكانوا يفعلون بأهل الريف الأفاعيل . يذهبون إليهم بأوراق مكتوبة باللغة التركية ، فيوهموهم أنها تتضمن تخفيفاً عنهم فى الضرائب ، أو المال . ويطلبون لذلك « حق الطريق » مالا عظيما ويأخذونه . ثم لا يكفيهم ذلك . بل يسلبونهم مواشيهم . وقد يحبسون كبارهم وشيوخهم حتى يدفعوا فوق ذلك مايطلبون . ثم يظهر آخر الامر أن هذه الأوراق من مخترعاتهم وصنع أيديهم . وكانت القاهرة كثيراً ما تمتلىء بهؤلاء الفلاحين الذين هاجروا من قراهم وبلادهم فرارا من ظلم هؤلاء الجند .

وكانوا يسلبون من ينفردون به من الناس ، فى أطراف القاهرة ، ويقتلونه . ويستأجرون الحمير من أصحابها ليركبوها إلى خارج المدينة ، ثم يقتلون المكارى ويذهبون بحماره إلى السوق فيبيعوه .

ويقول الجبرتى إن هذه القبائح والشناعات زادت من « العسكر » العثمانى بعد دخولهم القاهرة وخروج الفرنسيين « حتى تمنى أكثر الناس ، وخصوصا الفلاحين ، أحكام الفرنساوية » .

وكانت فرق العسكر المختلفة يقاتل بعضها بعضاً ، فى داخل القاهرة . ويقع منهم القتيل والجريح . ويجد الناس وأصحاب المتاجر من ذلك بلاء شديدا وشقاء بالغا . وكثيرا ما كانوا يقتلون غريمهم ، ويلقون جثته فى طرقات القاهرة زمنا

قد يصل إلى ثلاثة أيام ، تظل فيها تطؤها أقدام الناس ولا تدفن .

وفى وصف الجبرتى لجبر الخليج من سنة ١٢١٩ دلائل محزنة على ما بلغه ظلم الجند وعسفهم واستهتارهم بجميع القيم الدينية والأخلاقية والإنسانية . وتلخيص هذا الوصف أن الوالى — أحمد باشا خورشيد — نزل لكسر البحر ، ومعه القاضى ومحمد على وكبار العسكر . ولم يحضره أحد من المصريين فلما جرى الماء فى الخليج ركبوا فيه زوارقهم تسير بهم على الماء ، وهم يطلقون الرصاص من بنادقهم ، فقتل من رصاصهم عدد من الناس ، رجالا ونساء ، ثم نزل كبار العسكر من زوارقهم فدخلوا بيوتهم على الخليج ، ومعهم نساء ، من سيئات السيرة .

وجاء جماعة من المصريين ليأخذوا قتيلا لهم ليدفنوه . فمنعهم كبار الجند ، الذين قتلوه ، من أخذه ، حتى يدفعوا لهم ثلاثة آلاف درهم فضة . ولم يستطع أهل القتيل أخذ جثته حتى دفعوا لقاتليه ألفاً وخمسمائة درهم . وكذلك فعلوا بمن جاء بعدهم ليوارى جثث قتلاه . وكانت امرأة تطل من نافذة لترى ذلك ، فصوّب كبير من العسكر رصاصة إلى رأسها فصرعتها .

وفى شعبان من نفس السنة تهدم حمام على من فيه ، ومات تحت أنقاضه ثلاث عشرة من النساء والأطفال والبنات . وخرجت الباقيات عرايا ينفض التراب عن جسومهن . فجاء كبار العسكر ليمنعوا أصحاب القتلى من نقل قتلاهم ، حتى يدفعوا دراهم ، وليأخذا ثياب النساء من تحت الأنقاض

وقد بلغت أخلاق السادة من الناس ، حتى القضاة ، حدا جعل شاعرا يقول ، فى قاضى القضاة ، هذا الشعر : —

فى مصر ، من القضاة ، قاضٍ ، وله   فى أكل مواريث اليتامى ، وله
إن رمت عدالة فقل ، مجتهداً   من عدَّله درهمـــا ، عَـــدَله

ومن الطبيعى أن يكون لذلك كله أثره فى حياة الناس . ورخائهم وأمنهم وخاصة إذا لم يف ماء النيل ، أو حل بالناس وباء . فنحن عند ذلك نجد هـ ه الصورة التى رسمها الجبرتى عن حياة أهل القاهرة ، فى شعبان سنة ١٢٢٥

«ففى هذا الشهر خرج المشايخ والناس إلى جامع عمرو ، وأرسلوا فجاءوا بالأطفال من مصر وبولاق، وخطبوا وصلوا ليرفع الله البلاء عن الناس، وليزيد ماء النيل. ولم يجد المجتمعون ماياً كلونه ، وأضر بهم الجوع » .

وهذه الصورة عن حياة المصريين كلهم فى سنة ١١٩٨ [١٧٨٣ ، ١٧٨٤] م

فهو يقول فى ختامها إنها « انقضت ، كالتى قبلها ، فى الشدة والغلاء ، وقصور النيل ، والفتن المستمرة ، وتواتر المظالم والمصادرات ، وانتشار الجباة فى كل النواحى لجمع المال حتى هلك الفلاحون وضاق ذرعهم واشتد كربهم ورحلوا عن بلادهم أما مساتير الناس ، فقد باعوا دورهم ومتاعهم ومواشيهم . ومن ظن عنده شىء من المال أخذ وحبس وطولب بأضعاف مايقدر عليه . وتوالى طلب السلفة من التجار عن الضرائب المقبلة . فزادوها على أثمان بضائعهم ، ثم مدوا أيديهم إلى المواريث ، فإذا مات أحد أخذوا ماله وكل ماعنده سواء ترك وارثاً أم لم يترك ، وصار بيت المال من جملة المناصب التى يتولاها شرار الناس فى نظير مال يدفعونه فى كل شهر فلا يعارضهم معارض فيما يفعلون .

وحل بالناس مالا يوصف من أنواع البلاء . وفسدت النيات ، وتغيرت القلوب . ونفرت الطباع . وكثر الحسد والحقد فى الناس بعضهم لبعض . فيتتبع الشخص عورات أخيه ويدلى بها إلى الظالم . حتى خربت الأقاليم، وانقطعت الطرق، وعربدت أولاد الحرام ، وفقد الأمن ، ومنعت السبل ، إلا بالحراسة والمجازفة . وترك الفلاحون بلادهم من الفقر والظلم ، وانتشروا فى القاهرة ، بنسائهم وأولادهم ، يصيحون من الجوع ، ويأكلون ما يتساقط فى الطرقات من قشور البطيخ وغيره فلا يجد الكناس شيئاً يكنسه . واشتد الحال حتى أكل الناس الميت من الخيل والجمال والحمير . فإذا خرج حمار ميت تزاحموا عليه وقطعوه وأخذوه ، ومنهم من يأكله نياً من شدة الجوع . ومات كثير من الفقراء من الجوع » .

وكذلك نجد هذه الصورة عن حياتهم فى سنة ١٢٠٣ .

وجهوا إلى الناس فى الأرياف قساة المحصلين لأخذ الأموال قبل أوانها .

فكان المحصلون يدهمون الفلاحين فى بيوتهم ، ومعهم العدد الكثير من العسكر ببنادقهم وأسلحتهم . فيشاغلونهم ، ويلاطفونهم بالإكرام ، فلايزيدهم ذلك إلا قوة وغلظة . ويطلب منهم الفلاحون تأخير المال فيسمعونهم فحش القول . والشطط فى فرض « حق الطريق » . وقد يدخلون الدار وليس فيها سوى النساء . فيقع منهم الشر الكثير . حتى تفر النساء من الحيطان والنوافذ .

وكانوا يوقفون كل سفينة تسير فى النيل . فيخرجون ما فيها . وقد ينهبونه كله ، أو يفرضون على أصحابها ما يشاؤون من المال . وكان زعيمهم فى ذلك ، مصطفى كاشف ، يجلس فى قلعة طرا فيجيئه أصحاب هذه السفن ، وأصحاب البضائع التى تحملها فيدفعون له ما يشاء من مال . حتى لا ينهب رجاله سفنهم وأموالهم .

ويقول الجبرتى إن أنباء هذه الاستباحة للبلاد ، ذاعت فى الأقطار التى يفد منها الجند والمماليك . فكثر فى ذلك الوقت قدومهم إلى مصر . ونشط تجار الرقيق لتسهيل رغبتهم فى الحضور للقاهرة . والالتحاق بخدمة رجال الدولة فيها ، ليشاركوهم فى نهب هذا المال المستباح .

ويقول أيضاً أن القرى كانت ، فى بعض السنين ، تكاد تقفر من أهلها . وأن بعض القرى كان أهلها يدفعون عن الفدان الواحد ، من المصاريف ، والأموال والمغارم ، أربعة آلاف نصف . مع أن الخراج المفروض عليها لا يزيد عن مئة وعشرين . ونجد فى فصول أخرى من الكتاب ، وفيما سجلناه من عصر محمد على خاصة ، مظاهر أخرى ، مما كان يقع بالناس من ظلم وعسف وقسوة .

ومن طريف ما سجله الجبرتى ، فى حوادث شعبان ١٢١٦ ، أنه بينما كان جند الدولة ، وكبارها يفعلون ذلك بأهل مصر ، أرسل السلطان « فرمانا » شريفا إلى عرب البحيرة ، يثبتهم فيه على بلادهم ، ويقرر لهم فيها مزايا ، ثم يشترط عليهم فى مقابل ذلك هذه الشروط : « أن يوفوا بعدم التعدى وإيصال الرزية والمضرة ولو بمقدار ذرة ، إلى الرعايا . وديعة خالق البرايا . فإن وقع منهم أقل ظلم للعباد ، أخرجوا من ديارهم . بعد أن تسلب أموالهم . ويتلاشى حالهم حتى يصيروا لا عين

ولا أثر • ولا مخبر ولا خبر . ولا معالم ولا معاهد . ولا مشارع ولا موارد .
تأخذهم صاعقة العذاب الهون . ويحل بهم من البلاء ما لا يطيقون ..! »

وقد سجل الجبرتى هذا الفرمان الشريف بنصه ، رغم طوله . ونقلنا منه هذه السطور بنصها أيضاً .

وليس من الأمانة ، ولا مما يتفق مع واقع التاريخ ، أن نقول إن مقارفة هذه الرذائل ، أو بعضها ، كانت مقصورة على الجند والقواد والأمراء ، أو الولاة .

فالقول بذلك مما يجافى الحق . ويجانب ما سجله الجبرتى عن أخلاق الناس وآدابهم فى ذلك الزمن .

وكذلك لم يكن هذا المستوى من الأخلاق والفضائل ، قاصرا على أهل القاهرة وحدهم . بل نجد أشياء من ذلك فى غيرها من المدن .

فقد انتقلت عدوى هذا الظلم والاستهتار من العثمانيين ، والعسكر ، إلى العرب .
ففى رمضان من سنة ١٢٠٢ ، وكان مراد وإبراهيم ينازعان إسماعيل بك الحكم ، خرج العرب على قافلة التجار والحجاج القادمة من السويس . فنهبوا ما فيها من المال ، وكان شيئاً كثيراً ، منه ستة آلاف جمل محملة بالبضائع . وسلبوا متاع الحجاج وملابسهم . وأخذوا نساءهم فعرّوهن عن ثيابهن ، ثم باعوهن لأصحابهم عرايا .

أما ما نجده عند غير الجند ، والقواد ، والأمراء ، والولاة ، والأعراب ، من مثل ذلك ، أو ما هو منه قريب ، فنكتفى فيه ، إلى جانب ما ذكرنا ، بذكر حادث رواه الجبرتى فى حوادث سنة ١١٩١ وسماه « حادثة الشيخ صادومة » .

الشيخ صادومة

كان الشيخ أحمد صادومة رجلا شيخا . له شيبة وهيبة ، وأصله من مدينة سمنود . وكانت له شهرة عظيمة فى الروحانيات ، وتحريك الجمادات ، ومخاطبة الجن ، وإظهارهم لمن يريد أن يراهم ، وللناس فى شأنه اختلاف . وكان الشيخ حسن الكفراوى . العالم الكبير صاحب المؤلفات ، ومفتى الشافعية ، وشيخ مسجد أبو الذهب ، صديقاً حميما للشيخ صادومة ، كبير الاعتقاد فيه . دائم الذكر له والثناء

عليه ، عند الأمراء ، وخاصة عند صديقه محمد بك أبو الذهب . حتى قربه هذا الأمير وأحبه . واتفق أن اختلى أبو الذهب بمحظية له ، فرأى على سوأتها كتابة . فسألها عن ذلك ، وأخافها بالقتل ، فأخبرته أن امرأة ذهبت بها إلى الشيخ صادومة ، حيث كتب لها ذلك ، ليحبها سيدها . فأرسل أبو الذهب جنده إلى الشيخ حيث جاءوا به ، فقتله ، وألقاه فى النيل .

وأخرج ما فى بيته من أشياء ، فكانت منها تماثيل . وفيها تمثال من قطيفة ، على هيئة عضو الرجل . فكان أبو الذهب يضع هذه التماثيل إلى جانبه إذا جلس إلى الناس ويأخذ منها هذا التمثال من القطيفة ، فيرفعه إلى أعين الجالسين ، وهم يتعجبون ، ويضحكون . وهو يقول لهم : انظروا أفاعيل المشايخ ..! ثم عزل الشيخ الكفراوى عن إفتاء الشافعية وعن مشيخة مسجده ، بسبب صداقته الحميمة للشيخ صادومة وثنائه عليه .

شيخ مدينة بنها

وأما فى غير القاهرة ، فنذكر قصة هذا الرجل ، الذى ظهر فى مدينة بنها سنة ١٢٢٢ .

كان اسمه الشيخ سليمان ، بدأ أمره بأن أقام زمنا فى عشة بناها فى المزارع . فاعتقد فيه الناس الصلاح والولاية ، والجذب . واجتمع إليه كثير من أهل القرى ، وكان أكثرهم من الأحداث . ونصبوا له سرادقا كبيراً ، كانوا يملأونه بالنذور ، والهدايا ، يرسلون بها إليه ، وصار هو يكتب إلى الناس فى البلاد المجاورة ، يطلب منهم القمح والدقيق . فيبادرون بإرسال ما يطلب . ثم انتقل الشيخ بعد ذلك بدعوته إلى ناحية أخرى . وصبغها بصبغة عامة . فأطلق رجاله يقولون للناس إن المماليك ، والحكام . قوم ظالمون . فلا تعطوهم شيئاً ، ولا تطيعوا لهم أمراً . ولا تدفعوا لهم ضرائب . ومن جاءكم من رجالهم فاقتلوه . فإنه لاظلم اليوم . وسمع الناس دعوة الشيخ وأطاعوها . فكلما جاءهم الجند ، أو رجال الدولة لمال ، أولشىء ، زجروهم ، وطردوهم . وإن عاندوا قتلوهم . حتى ثقل أمره على حكام ذلك الإقليم .

ولـكن الشيخ ، انحرف واشتط . عنـدما رأى نجاح دعوته . وقوة أمره . فظهر منه ما كان خافياً . فقد بدأ يتطلع إلى الأحداث من الغلمان ، ويستجلبهم ، ويطلب قدومهم إليه . حتى اجتمع لديه منهم مئة وستون . أسكنهم سرادقاته . وكان كثير منهم أبناء مشايخ البلاد وأعيانها . وكان إذا علم أن فى بلدٍ غلاماً وسيما ، أرسل يطلبه ، فيحضروه إليه فى الحال . ولو كان أبوه عظيم البلدة . حتى صاروا يجيئون إليه من غير طلب . واجتمع إليه ، عدا هؤلاء المئة والستون من الغلمان ، كثيرون من ذوى اللحا . ووضع هذا الشيخ عقوداً من الخرز الملون ، فى أعناق الغلمان ، وأقراطاً فى آذانهم . كما يفعل الناس بالفتيات والبنات .

وقامت فى ذلك الوقت مشكلة بين شيخ من شيوخ الأزهر ، اسمه الشيخ عبد الله زقزوق البنهاوى ، وبين حكام القليوبية بسبب نزاع على أرض يدعيها الشيخ . وظن الشيخ ، كما يقول الجبرتى ، أنه سينال ما يريد « بقال المصنف ، إكراما لعلمه . » ولـكنه لم ينل ما يدعيه . وشكا أمره إلى محمد على ، وإلى نائبه ، ولـكن العلماء الذين طلب إليهم محمد على أن يبحثوا شكواه ، لم يجدوه على حق . فقدم هذا الشيخ إلى بنها ، واتصل بالشيخ أحمد . وزين اليه أن يهبط القاهرة ، وأن يلتقى بعلمائها وأهلها . فهم لا بد أن ينصروه . وقد بلغتهم دعوته ، وسمعوا بكراماته ، وله فى نفوسهم منزلة عظيمة . ورأى الشيخ أن يفعل ما أشار به صاحبه . فجمع رجاله ، وغلمانه ، ومعهم طبول ، وكاسات . وسار حيث دخل القاهرة على حين غفلة . وكان رجاله يحملون فى أيديهم « الفرقلات » يفرقعون بها وهم يسيرون فى شوارع القاهرة ، ولهم صياح وضجيج . ومن خلفهم الغلمان . وشيخهم فى وسطهم . وسار هذا الجمع حتى دخل المسجد الحسينى . ودخل بعض منهم منزل السـيد عمر مكرم . وهو يفرقع « بالفرقلة » . وبقى حالهم على ذلك إلى العصر . وكان رجل من كبار الجند ، اسمه إسماعيل كاشف أبومناخير ، يعرف الشيخ ، ويعتقد فى ولايته . فذهب به وبمن معه إلى بيته ، حيث أطعمهم واستضافهم . وفى الصباح ركب الشيخ بغلة الـكاشف وذهب بطائفته إلى ضريح الإمام الشافعى حيث جلسوا يذكرون .

وعند ذلك وصل خبره إلى نائب محمد على ، فأرسل إلى السيد عمر مكرم يرجوه أن يرسل إليه الشيخ ، ليتبرك به . وعرف السيد عمر أن الكتخدا يضمر للشيخ السوء . فأرسل إليه من يحذره . وقدم الكتخدا وكبير من رجاله إلى بيت السيد عمر ، فقال لهما إنه أرسل إلى الشيخ من يحضره فلم يلحق به . وأراد كبير من الجند أن يمسك بالشيخ ورجاله وغلمانه ، فى مسجد الامام الشافعى ، قبل أن يخرج منه . ولكنه خشى مغبّة اقتحامة .

وانتهى الأمر بالشيخ إلى الهرب . وتفرق عنه الملتحون من رجاله . أما الغلمان فيقول الجبرتى إن الجند قبضوا عليهم ، وأخذوهم إلى دورهم . ولم ينج منهم إلا من كان هرب . ولما وصل خبر هذا الذى جرى على الشيخ وجماعته ، إلى الشيخ زقزوق ، تبرأ منه . وذهب إلى نائب محمد على تائباً .

وكانت نهاية الشيخ أحمد البنهاوى أن جاء به نائب محمدعلى ، وأمر طائفة من الجند فأخذوه ، وأربعة بقوا معه من أتباعه ، وذهبوا بهم إلى بولاق ، فقتلوا الشيخ ، وألقوه فى النيل : وألقوا رفقاءه الأربعة فيه أيضاً . ولكن واحداً منهم ، استطاع أن يسبح إلى البر وينجو .

وقد حفظ لنا الجبرتى كثيراً من هذه الصور ، ومثلها ، وسجل بها حياة الناس ، كما هى ، وأخلاقهم ، وآدابهم . وكان ، وهو يدون ذلك ، يسجل ، إلى جانبه سخطه وغضبه ،وكان يبلغ به السخط ، مما يرى ويسمع ، حدا كبيراً . حتى قال مرة إن الإسلام نفسه ، منتفٍ عن كثير من أهل ذلك العصر . والإسلام ، عنده ، حين يقول ذلك ، قرين الفضائل والآداب والخلق الكريم . ولا سبب غيره لوجودها فى نفوس الناس .

الموالد

ويسوقنا الحديث عن الشيخ أحمد البنهاوى ، وقد كان يدعى التصوف والولاية ، إلى ذكر ما سجله الجبرتى ، مما كان يفعله أمثال هذا الشيخ ، فى الموالد .

كان القاهريون، وغيرهم ، يحتفلون ، كما يحتفلون الآن ، بمولد الحسين ، والسيدة زينب ، والإمام الشافعى ، والسيدة نفيسه . وكثير غيرهم من الأولياء والصالحين . كما يحتفلون جميعاً بمولد السيد البدوى فى طنطا ، والسيد إبراهيم الدسوقى فى دسوق .

ولنتخذ مولد الحسين مثلا لما كان يجرى فى غيره من الموالد .

فالجبرتى يتحدث فى الجزء الرابع من كتابه عن نشأة الاحتفال بهذا المولد . فيقول إن هذا المولد ابتدعه مباشر لوقف المسجد الحسينى كان يسمى السيد بدوى ابن فتيح . أصابه مرض . فنذر ؛ إن شفاه الله ، أن يقيم هذا المولد . وكان المولد ، أول الأمر ، هو إضاءة المسجد ، وقبته ، بالقناديل ، والشموع . وترتيب فقهاء يقرءون القرآن نهاراً ، ويتدارسونه . وآخرون يقرأون ، ليلا ، دلائل الخيرات . ثم تغير الحال ، وانضم إلى الفقهاء كثير من الجهلة ، وأهل البدعة . فمنهم من يقيم حلقات الذكر ، ويردد اسم الله ، محرفاً . وينشد له المنشدون القصائد والموّالات . ومنهم من يقول أبياتاً من بردة البوصيرى ، فى مدح النبى عليه السلام ، ويجاوبهم آخرون مقابلون لهم بصيغة الصلاة على النبى . ومنهم جماعة ، من المغاربة ، يجلسون صفين متقابلين ، وينطقون ، بلغتهم ، كلاما معوجاً بنغم خاص ، وطريقة جروا عليها . وبين أيديهم طبول ودفوف يضربون عليها ، على قدر النغم ، ضرباً شديداً . مع ارتفاع أصواتهم .

وتقف جماعة أخرى مقابلة لضاربى الدفوف واضعين أكتافهم فى أكتاف بعض ، لا يخرج واحد عن الآخر ، يتلوّون وينتصبون . ويرتفعون وينخفضون . ويضربون الأرض بأرجلهم . كل ذلك مع الحركة العنيفة ، والشدة الزائدة ، بحيث لا يستطيع ذلك إلا كل من عرف بالأيد والقوة . وهذه الإيقاعات ، والحركات ، تجرى على نمط الضرب بالدفوف . فيقع بالمسجد من هذا كله ، ضجيج كبير ، ودوى عظيم . وإلى جانب هؤلاء كثير من الفقراء ، والمنشدين ، كل له طريقته ، ونشيده . ثم يقول : — « هذا مع من ينضم إلى ذلك من جمع العوام ؛ وتحلّقهم بالمسجد ، للحديث والهذيان . وكثرة اللغط والحكايات ، والأضاحيك . والتلفت إلى حسان الغلمان ، الذين يحضرون للتفرج . والسعى خلفهم ، والافتتان بهم .

ورمى قشور اللب ، والمكسرات ، والمأكولات فى المسجد . وطواف الباعة بالمأكولات على الناس فيه ، وسقاة الماء . فيصير المسجد ، بما اجتمع فيه من هذه القاذورات ، والعفوش ، ملتحقاً بالأسواق المتهنة ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم » .

وكان يجتمع إلى هذه الموالد ، العامة ، والسوقة ، وأهل الحرف السافلة ، ومن لا يجد ما يأكله . يحملون القناديل ، والشموع ، والطبول ، والزمور . وينطقون بكلام محرف يظنون أنه ذكر ، وتوسلات يثابون عليها . فإذا اعترضهم معترض . أو تصدى لهم لائم ، رموه بالاعتزال والخروج والزندقة . ثم يمضون ليلتهم ساهرين فإذا أصبح الصبح ، عجز كل عن أداء عمله .

ويقول الجبرتى إن هذا المولد ، استمر الاحتفال به عشر سنين ، وناذره ، السيد بدوى فتيح ، لم يزدد إلا مرضا ومقتا ثم بطلت إقامته عندما دخل الفرنسيون القاهرة . ولكنهم ، بعد ذلك ، أمروا بإقامته . « لأن ذلك يوافق هوى العامة . لأن أكثرهم مطبوع على المجون والخلاعة . وتلك هى طبيعة الفرنساوية » .

ومن الذين ترجم لهم الجبرتى من أصحاب الأضرحة والموالد ، الشيخ على البكرى . ويعرفه سكان القاهرة ، كما يعرفون مولده ومسجده بالقرب من جامع الرويعى . وكان السيد على البكرى ، كما يصفه الجبرتى ، رجلا أبله ، يمشى عريانا فى الطريق ، مكشوف الرأس والسوءتين ، غالبا ، وكان له أخ صاحب دهاء وحيلة . وكان دائم المنازعة والخصومة لأخيه الشيخ . ثم بدا له فيه أمر . فقد وجد الناس ، على عادة أهل مصر ، يعتقدون فى أخيه الولاية والكرامة ، ويلتمسون منه البركة . فحجر عليه ، ومنعه من مغادرة البيت ، وألبسه ثيابا . وأظهر للناس أنه قد أُذن للشيخ بلبس الثياب لأنه تولى قطبا . وتكاثر الناس ، وخاصة النساء ، يسعون إلى بيت الشيخ والتبرك به ، والإصغاء إلى ألفاظه وتخليطاته ، وتأويلها بما يلائم رغبة نفوسهم . وتكاثرت مع هؤلاء المريدين والزائرين ، الهدايا والنذور والأموال وكان أخوه ، صاحب الدهاء والحيلة ، يذيع فى الناس من كرامات الشيخ ومعرفته أسرار النفوس ما يشاء .

وامتلأ بيت الشيخ وأخيه بالأموال والخيرات. وزاد جسم الشيخ ، كما يقول الجبرتى ، ضخامة ، من كثرة الأكل والفراغ والراحة ، حتى صار «مثل البو ّ العظيم» ! وظل هذا حال الأخوين حتى مات الشيخ سنة ١٢٠٧ فأقام له أخوه ضريحا ومقاما ، وزاد فى ذكر كراماته وفيوضاته ، وخصص له المقرئين والمنشدين والمداحين ، يشيدون بولايته وقطبانيته ، ويذكرون أوصافه فى قصائدهم ، وهم « يتواجدون ويتصارخون ، ويمر ّغون وجوههم على شبا كه وأعتابه ؛ ويغرفون بأيديهم من الهواء المحيط به ، ويضعونه فى جيوبهم وعبهم » وهذا الشيخ البكرى هو الذى قال فيه البدرى الحجازى قصيدته التى ذكرناها من قبل ، والتى يقول فيها : —

ليتنا لم نعش إلى أن رأينا كل ّ ذى جنة ، لدى الناس ، قطبا

ولم يكن الشيخ من أسرة البكرى . بل جاءته هذه النسبة لأنه كان يسكن فى سويقة البكرى .

الشيخة أمونة

وعندما كان الشيخ على البكرى يمشى فى الطرقات عريانا ، قبل أن يحجبه أخوه ، تعلقت به امرأة تسمى الشيخة أمونة . وصارت تسير خلفه أينما سار ، وهى تلبس إزارا . وأخذت هى الأخرى تخلط فى ألفاظها عندما تدخل معه إلى بيوت الناس . واعتقد الناس أيضا فى ولاية الشيخة أمونه ، وأسرعوا إلى مهاداتها بالمال والملابس ، وقالوا إن الشيخ لحظها وجذبها فصارت من الأولياء ، وزاد ذلك من تطرفها ، فنزعت ثياب النساء ولبست ملابس الرجال . وصارت ظلا للشيخ . لا تفارقه أبدا وكلما سارا تبعهما الأطفال والعوام ، ومنهم من اقتدى بهما فنزع ثيابه «وتحنجل» فى مشيته . وكل من فعل ذلك قال الناس إن بركة الشيخ مس ّته فجذبته . وزاد الحال ، وفشى أمر الشيخ والشيخة حتى كان يسير خلفهما جمع كبير من أوباش الناس والصغار . وصاروا ، عندما يمرون بالأسواق ، يخطفون ما يحلوا لهم من شىء . ولهم فى سيرهم ضجة عظيمة . فإذا جلس الشيخ فى مكان ، إجتمع حوله خلق عظيم ، ووقفت أمونة على درج دكان ، أو مرتفع من الأرض ، تتكلم بفاحش القول ، بالعربى ، والتركى . والناس يصغون ، يقبلون يدها ويتبركون بها .

ومر هذا الموكب أمام بيت رجل من المماليك ، يسمى جعفر كاشف . فغاظه وهاله ، فقبض على الشيخ والشيخة ومن حولهما من المجاذيب . أما الشيخ فقد أدخله بيته فأطعمه ، ونحّى الناس عنه ثم أطلق سراحه . وأما المجاذيب فقد حبسهم وضربهم ضربا شديدا ، حتى تابوا ، واستغاثوا ؛ ولبسوا ثيابهم ، وعادت لهم عقولهم . وأخرج الشيخة من محبسها إلى المارستان ، فبقيت فيه زمنا مع المجانين . ويقول الجبرتى إنها خرجت بعد ذلك بسنين « فصارت شيخة على انفرادها . ويعتقدها الناس والنساء . وجمعت عليها الجمعيات والموالد » .

وهذا الذى كتبه الجبرتى ؛ عن إقامة الموالد ، وما كان يقع فيها من المنكرات . هو من المواطن القليلة التى خرج فيها عن مجرد السرد ، والتدوين ، وتسجيل الحوادث ، إلى إبداء الرأى والتعليق بالنقد أو الأستحسان . وهو ، فى نقده هذا ، يدل على أنه عالم لا يخضع لهوى العامة ؛ ولا يسكت على بدعة .

ثم يسوقنا الحديث عن مدعى التصوف والولاية ، مرة أخرى ؛ إلى ذكر هذه القصة الطريفة عن عنز الشيخ عبداللطيف . وفيها نجد صورة من مستوى أفهام الناس فى ذلك العصر ، وأخلاق بعض المنتسبين إلى الدين . كما نجد صورة من صور الحاكم الجرىء ، الحازم . وهذه هى القصة :

الشيخ والعنز

يذكر الجبرتى من حوادث سنة ١١٧٣ أن خدم مسجد السيدة نفيسة بالقاهرة ، اختلفوا فيما بينهم فى أمر العنز .

ذلك أن هؤلاء الخدم ، وكبيرهم الشيخ عبد اللطيف ، أظهروا للناس عنزاً صغيرة ، وألفوا حولها قصة ، خلاصتها أن جماعة من المسلمين الذين يحاربون فى بلاد الكفار ، وقعوا أسرى فى أيديهم ، فنذروا لله إن أخرجهم من الأسر ، أن يذبحوا عنزا يوزعون لحمها صدقة . بعد أن يجتمعوا حولها ليلة يذكرون الله ويدعون ويتوسلون . وجاؤوا بهذه العنز الصغيرة ليبيتوا ليلتهم حولها يذكرون ، وتوسلوا بالسيدة نفيسة لينجوا من أسرهم ، فعلم « الكافر » الذى أسرهم بما عزموا عليه ، فزجرهم

وسبهم ، ومنعهم من ذبح العنز ، فلما بات ليلته تلك ، رأى فى نومه رؤيا مزعجة هالته ، فلما أصبح الصباح أعتق أسراه وأعطاهم دراهم ، وصرفهم مكرمين ، فركبوا مركباً وقدموا مصر ، ومعهم العنز ، وقصدوا مسجد السيدة نفيسة . ونسج الشيخ عبداللطيف، ومن معه من خدم المسجد، هالة عظيمة من المجد حول تلك العنز ، ونسبوا إليها الكرامات ، فقالوا إنها تصعد وحدها إلى منارة المسجد ، وتدخل مقام السيدة، تفعل ذلك وهم يدخلونها حجرة مقفلة ليلا ، فإذا أصبحوا وجدوها حيث تشاء ، فوق المنارة ، أو داخل المقام ، وقالوا إنها ، العنز ، تتكلم ، وأنهم سمعوها بآذانهم ، وأن السيدة نفيسة تكلمت وأوصت بها ، بالعنز ، خيراً . وأن الشيخ عبد اللطيف سمع كلامها من داخل القبر .

وأخذ الشيخ عبد اللطيف هذا ، شيخ المسجد النفيسى ، يبرز العنز للناس ، ويجلسها بجانبه ، ويقول للناس فيها ما يقول ، حتى صارت حديث القاهرة كلها ، وأقبل النساء والرجال من كل فج لزيارة تلك العنز ، يأتون إليها بالنذور والهدايا . فقال لهم الشيخ إن هذه العنز المباركة ، لا تأكل إلا قلب اللوز والفستق ، وتشرب ماء الورد ، والسكر المكرر ، فأتوه من ذلك بالقناطير ، وعمل النساء للعنز قلائد الذهب ، والأطواق والحلى . يسارعن بها إلى الشيخ . وافتتن الناس بها فتوناً شديداً ، وشاع أمرها فى بيوت الأمراء وأكابر النساء ، فأرسلن ، على قدر مقامهن ، النذور والهدايا ، وذهبن لزيارتها ومشاهدتها ، وازدحمن عليها . ومن لا يسمح لها مقامها بالذهاب لها ، أرسلت للشيخ الهدايا العظيمة ملتمسة زيارة العنز لها .

فلما وصل ذلك كله إلى سمع عبد الرحمن كتخدا ، كبير الأمراء المصريين فى ذلك العهد ، أرسل إلى الشيخ عبد اللطيف يلتمس منه أن يحضر ومعه عنزه المباركة ، ليتبرك بها هو وأهل بيته ، فركب الشيخ بغلته ، وعنزه فى حجره ، ومعه طبول وزمور وبيارق ومشايخ ، وحوله كثير من الناس ، ودخل بطبوله ومشايخه وعنزه بيت الأمير عبد الرحمن ، وصعد بالعنز إلى مجلسه ، وكان عنده كثير من الأمراء والوجوه . فلمس العنز متبركا بها ، ثم أمر فأدخلت إلى الحريم ليتبركن بها وكان الأمير عبد الرحمن قد أوصى كبير طباخيه ، قبل حضور الشيخ ، بأن يذبح العنز

ويطبخها . فلما أتمت العنز زيارة الحريم أدخلوها إلى المطبخ فذبحت وطبخت .

وقدم للأمير، وللشيخ وجلوسهما، الغداء ، ومنه العنز، وكان الشيخ يأكل منها ، وكلما تركها إلى غيرها من الطعام قال له الأمير عبدالرحمن : — كل ياشيخ عبد اللطيف من هذه العنز السمينة ، فيأكل منها ويقول : — والله إنها طعام طيب ، ومستو ، ونفيس ، والأمير وجلساؤه يتغامزون . فلما فرغوا من الأكل ، وشربوا القهوة ، طلب الشيخ العنز ، فعرفه الأمير أنها هى التى كانت بين يديه فى الصحن ، وأكلها ، فبهت ! « فبكّته الأمير ووبّخه ، وأمره بالانصراف ، وأن يوضع جلد العنز على عمامته ، ويُذهب به كما جاء بجمعيته ، وبين يديه الطبول والأشاير ، ووكل به من أوصله محله على تلك الصورة »

وفى قصة العنز هذه يقول الشيخ عبد الله الأدكاوى هذا الشعر : —

ببنت رسول الله ، طيّبةِ الثنا	نفيسة ، لذْ ، تظفر بما شئت من عز
ورُم ، من جداها ، كل خير ، فإنها	لطلابها ، يا صاح ، أنفع من كنز
ومن أعجب الأشياء ، تيس أراد أن	يُضل الورى ، فى حبها ، منه ، بالعنز
فعالجها مَن نوّر الله قلبه	بذبح ، وأضحى التيس ، من أجلها مخزى

وهكذا لقى هذا الشيخ جزاءه . جزاء من يفشى الجهالة ، ويدعو إلى الضلالة ، ويتاجر بالدين ، ويكذب على الله والناس ، يبتغى عرض الحياة الدنيا وهو الذى يسعى الناس إليه ليهديهم . وليجدوا عنده المثل والقدوة ، فى الصدق ، والعفة والأمانة ، والفضيلة ، وتقوى الله .

ويقول الجبرتى ، عند حديثه عن تعمير مراد بك مسجد الفسطاط ، جامع عمرو بن العاص ، إن هذا الجامع كان بعيداً عن الناس والعمران ، وبقى زمناً متخرباً . وأنه أدرك الناس وهم يصلون فيه الجمعة اليتيمة . ثم يقول ، فى وصف صلاة الناس لهذه الجمعة فيه ، إن الناس كانوا يجتمعون فى الجامع ، للتسلية ، من القاهرة ، وبولاق ، ويحضر بعض الأمراء والأعيان . ويجتمع فى صحنه أرباب الملاهى ، من الحواة ، وملاعبى القرود ، وأهل الملاعيب ، والنساء الراقصات ، المعروفات بالغوازى .

قامت القيامة

ومما سجله الجبرتى ، عن مستوى التفكير عند أهل هذا العصر ، أنه فى يوم الأربعاء ، الرابع والعشرين من ذى الحجة سنة ١١٤٠ ، أشيع فى الناس أن القيامة ستقوم يوم الجمعة السادس والعشرين منه . [٢ أغسطس سنة ١٧٢٨ م] ، وفشا هذا الكلام بين أهل مصر ، فى القاهرة ، والقرى . فودع الناس بعضهم بعضاً وهم يقولون : — بقى من عمرنا يومان . وخرج الكثير من الناس إلى المتنزهات وهم يقولون : فلنمتع نفوسنا بالدنيا ، قبل أن تقوم القيامة . وخرج أهل الجيزة نساءاً ورجالاً يغتسلون فى النيل . وبعض النـاس علاه الحزن ، واستولى عليه الخوف والوهم . ومنهم من أخذ يتوب ، ويصلى ، ويدعو ، ويتوسل . ومن بدا عليه الشك فى صدق هـذا الذى شاع فى الناس ، لا يلتفتون إليه . ويقولون : القيامة قائمة يوم الجمعة ، ما فى ذلك شك . فقد قال ذلك فلان وفلان ، من اليهود والنصارى العارفين . وقالوا إن بعض هؤلاء العارفين ، عرض على بعض الأمراء أن يسجنه حتى يجيء يوم الجمعة هذا . فإذا لم تقم القيامة ، فله أن يقتله . وكثر فى الناس الهرج والمرج ، حتى جاء اليوم الموعود ، وأصبح الناس يوم السبت. فانتقلوا يقولون : إن فلاناً العالم ، أخبر بأن سيدى أحمد البدوى ، والدسوقى والشافعى ، تشفعوا فى ذلك فلم تقم القيامة . اللهم انفعنا بهم ، فإننا لم نشبع من الدنيا .

مجتمع أهل السيادة

هذه صورة أعتقد أنها كافية ، لتمثيل أخلاق الناس وآدابهم ، ومستوى تفكيرهم وإيمانهم . وتأثرهم بالخرافات والبدع . وهذا حكم على المجموع طبعاً . لا على الجميع .

وقد رأينا فى هذه الصورة نماذج من أخلاق الجند ، والأمراء ، والولاة . وعامة الناس وأوساطهم . أما أهل السيادة ، فى مجتمع القاهرة . فكانت آدابهم وأخلاقهم ، بعيدة إلى حد كبير عن هذه الرذائل ، والخرافات . وما يشبهها . وكان لأهل هذه السيادة ، من ثروتهم ، وبيئتهم ، ومعارفهم ، وسعة آفاقهم الذهنية والاجتماعية ، ما يجعلهم أقرب إلى التصوّن . وما يجعل حياتهم مزيجاً من هـذا التصون ، الذى تفرضه عليهم فضائلهم وآدابهم ومعارفهم ، أو تدينهم ، ومن هذه السماحة التى تقتضيها ثروتهم ، وسيادتهم ، وأذواقهم ، وسعة فراغهم .

ونحن نذكر مثلا لهـذه السماحة ، فى مجتمع أهل السيادة فى القـاهرة ، أورده الجبرتى .

فهو يقول عن صديقه الحميم ، الشيخ اسماعيل الخشاب ، إنه تعلق بشاب فرنسي من شباب الحملة ، كان جميل الصورة ، لطيف الطبع ، وكانت بينهما مودة وتصافٍ ، حتى لا يجد أحدهما صبراً على فراق صاحبه .

وقد أورد الجبرتى ، كما أورد على باشا مبارك فى خططه أيضاً ، قصيدة من الشعر ، قالها الشيخ اسماعيل الخشاب فى هذا الشاب الفرنسى ، وصفها الجبرتى أنها « من الشعر الرائق ، ونظم الغزل الفائق » [١] وهى : —

عـلّقته ، لؤلؤى الثغر ، باسمه — فيه خلعت عذارى ، بل حلانسكى

ملكتُه الروح ، طوعاً ، ثم قلت له : — متى ازديارك لى ؟ أفديك من ملك

فقال لى ، وحميّا الراح قد عقلت — لسانه ، وهويثنى الجيد ، من ضحك

إذا غزا الفجرُ جيش الليل ، وانهزمت — منه عساكر ذاك الأسود الحلك

فجاءنى ، وجبين الصبح مشرقة — عليه ، من شغف ، آثار معترك

فى حلة من أديم الليل رصعها — بمثل أنجمه ، فى قبة الفلك

فخلت بدرا به حفّت نجوم دجاً — فى أسود ، من ظلام الليل ، محتبك

وافى ، وولى بعقل غير مختبل ، — من الشراب ، وستر غير منتهك

وقد كان الشيخ إسماعيل الخشاب سكرتيراً للديوان الذى أنشأه الفرنسيون فى القـاهرة ، يكتب له الأوامر والقرارات . ويسجل ما يدور فيه من قول ورأى . واختاره الجنرال منو رئيساً لتحرير جريدة أراد أن يصدرها فى القاهرة باسم « التنبيه »

ولست أدرى ، أهو من السماحة ، أم من شىء آخر ، هذا الذى روى عن السيد خليل البكرى .

---

(١) للخشاب ديوان طبعته مطبعة الجوائب فى القسطنطينية سنة ١٣٠٠ هـ

كان هذا الشيخ نقيباً على السادة البكرية ، وكبير هذا البيت العريق . وكانت له مع الفرنسيين صلات ومواقف ، تجدها فيما كتبناه عنهم . ولما نزح الفرنسيون وزالت عنه حمايتهم ، أقيمت عليه دعوى من تاجر للرقيق ، ملخصها أنه أخذ غلاما مملوكا من هذا التاجر ، بثمن بخس ، واستعان عليه فى ذلك بالفرنسيين ورفع الأمر فى هذه القضية إلى القاضى . وانتهى النزاع بأن نزع الغلام من السيد البكرى ، وأعيد للتاجر . وكأن هذا الغلام كان ذا منزلة عظيمة فى نفس الشيخ . فإن الجبرتى يقول : إنه عند ما نزع منه « تجرع فراقه » .

ويقول نقولا الترك ، عن السيد خليل البكرى ، إن نابليون خلع عليه نقابة الأشراف ، بدلا من الزعيم السيد عمر مكرم ، لأن السيد خليل « كان محباً لجمهور الفرنساوية . فلأجل ذلك بغضته الإسلام المصرية » .

ويقول عنه نقولا أيضاً « كان فى أكثر الأوقات ، شرب ، فى منزله ، مع الفرنساوية ، المنكرات » .

ونقولا ، كما نعرف ، كان شديد اللصوق بالفرنسيين . ودائم الاتصال بهم ، يستطيع أن يعرف وأن يرى من شؤونهم ، وشؤون من يتصل بهم ، الشيء الكثير وسنجد فى موضع آت من هذا الفصل حديثاً آخر عن الشيخ البكرى وعن بنت له .

وقد رأينا فى تراجم العلماء ، وشيوخ الأزهر ، وكانوا سادة فى مجتمع أهل القاهرة ، أمثلة أخرى لهذه السماحة ، التى يرعاها التصون ، والعفة .

ومما حفظه لنا الجبرتى عن حياة الناس ، فى ذلك العصر ، ويتصل بأخلاقهم وآدابهم . أنه كانت فى القاهرة ، وفى غيرها من المدن أيضاً ، مواقف . تقف فيها النساء المحترفات للبغاء . وكانوا يسموهن « الخواطى » . وذكر مدينة جرجا ، عرضا ، ضمن البلاد التى كانت فيها هذه المواقف . ويفهم مما ذكره أن الحكام كانوا يفرضون عليهن ضريبة . وكذلك كانت ، فى القاهرة وغيرها ، أماكن لشرب الخمر والبوظة . كانت تفرض عليها الضرائب أيضاً .

وكان بعض الولاة يمنع ذلك كله . كعبد الله باشا الكبورلى ، فى القاهرة .
وسليمان بك القاسمى ، فى جرجا .

وكان نظام الطبقات ، هو النظام السائد فى ذلك الوقت . وكانت سيادته صارمة . حيث يعلو الحكام من الأتراك خاصة ، على المصريين علوا كبيراً . وكان الناس يقبلون ذلك راضين ، أو ساخطين ، أو غير مدركين .

عند ما سئل سليمان الحلبى ، قاتل الجنرال كليبر ، هل يعرف الوزير الأعظم..؟ أى الوالى التركى ، قال إن مثله لا يعرف الوزير « لأنه ابن عرب » .

وهناك ما هو أكثر من ذلك ، وأشد إثارة للعجب . لما فيه من الدلالة على فوارق المجتمع وحدوده . حتى بين العلماء ورجال الدين أنفسهم . فعند ما سئل سليمان هذا هل زار الشيخ الشرقاوى ، وهل يعرفه ..؟ قال إنه لم يره ولم يعرفه « لأنه ليس من ملّته — يقصد مذهبه — فالشيخ الشرقاوى شافعى . وسليمان حنفى » .

فضائل الناس

وكانت فضائل الناس ، من الأمانة ، والمروءة ، والكرم ، والتعاطف . تبرز واضحة قوية ، عند ما تكون حياتهم هادئة مستقيمة سهلة . لا يكدّرها عليهم وباء ، أو حرب أهلية ، أوقحط ، أوغلاء . ولم يكن الناس ، فى ذلك الوقت يعرفون اشتراكية الدولة . ولاالضمان الاجتماعى ، ولاتنسيق الثروة وتوزيعها . بل كان فيهم ، حتى فى هذه الأيام الهادئة ، المستقيمة ، السهلة . الفقر المدقع ، والكدح الكادح فى سبيل كسرة الخبز . ولكنهم ، مع ذلك ، كانوا أهل أمانة ، ومروءة ، وكرم ، وتعاطف . وكان الأغنياء يعرفون حق الفقير عليهم ، ويؤدونه . دون أن يلزمهم به قانون .

كانت بولاق مقراً لجمرك القاهرة . وكانت تكدس فيها الغلال الوافرة ، على الساحل ، دون أن توضع فى مخازن . ودون أن يحرسها أحد . وقد وصفها مسيو جومار ، أحد مهندسى الحملة الفرنسية . ولم يفته مغزى ذلك . بل قال « إن الثقة

بين الناس فى مصر ، كانت على أتم ما يكون . بحيث لم يكن ثمة خوف من أن تمتد يد إلى تلك الغلال[(١)] » .

وكان فى كل بيت من بيوت الأعيان مطبخان ، أحدهما للرجال ، فى أسفل البيت، والثانى فى مكان الحريم . فيمد صاحب البيت السماط ، فى وقت الغداء ، والعشاء ، مستطيلا فى مكان بارز من البيت ، يراه الناس جميعا . ثم يجلس إلى هذا السماط ، وحوله الضيف من كل قاصد . ودون سيّد البيت ، مماليكه ، وأتباعه . ويقف الخدم فى وسط السماط ، يفرقون الطعام على الآكلين ، ويقربون إليهم ما بعد عنهم من المقلى ، والمحمر . ولا يمنع أحد من الدخول ، وقت الطعام ، أبدا . ويرون ذلك من أكبر العيوب . حتى كان بعض ذوى الحاجات ، إذا حجب من الدخول على أمير ، أو كبير ، انتظر وقت الطعام . فلا يمنعه أحد ، فيدخل ، ويأكل ويصل إلى غرضه من ملاقاة الأمير ، ومخاطبته فيما يشاء . وكان من عادة الأمراء وأهل السيادة ، إذا رأوا على مائدتهم رجلا لم يروه من قبل ، ولم ينصرف بعد الطعام ، عرفوا أن له حاجة . فلا يخجلوه بأن يبدأ بها ، أو يتحدث إليهم فيها . بل يطلبه سيد البيت فيسأله عن حاجته فيقضيها له . وإن كان محتاجا ، بره ، وأعطاه وهذا من أسمى ما تصل إليه رقة العاطفة ، والتلطف فى قضاء حاجة المحتاج . مع ستر مروئته وحياءه .

وكانت للناس مواسم للخير . يبرون فيها الفقراء ، ويذكرونهم بالصدقات . منها أيام أول رجب ، وليلة الإسراء والمعراج ، ونصف شعبان ، وليالى رمضان ، والأعياد ، وعاشوراء ، ومولد النبى . وفى هذه الأيام يطبخون الرز باللبن ، والزردة ، ويملؤون منها قصاعا كثيرة ، يفرقونها على من يعرفونه من المحتاجين . ويجتمع فى كل بيت ، من بيوت الأغنياء ، الفقراء ، والمحتاجون ، فيفرق عليهم الخبز . ويأكلون حتى يشبعوا من ذلك الرز باللبن ، والزردة . ويعطونهم ، بعد ذلك ، مالا . ولهم ، غير ذلك ، صلات وصدقات ، على من يعرفون من الفقراء . فى غير هذه المواسم والأيام .

وكذلك كان حال السراة من أهل الريف . وسنذكر ذلك فى موضعه .

---

(١) ص ٥٩ جزء ١ من كتاب تاريخ الحركة القومية لعبد الرحمن الرافعى

المحتسب والتسعير الجبرى

وكان الناس ، فى القاهرة خاصة ، يعرفون نظام التسعير الجبرى ، والعقوبة على من يبيع بأزيد من الثمن الذى فرضته الدولة . أو يطفّف الكيل والميزان .

كانت من الوظائف الهامة ، فى ذلك الوقت ، وظيفة المحتسب ، أى أمين الاحتساب . وهى وظيفة قديمة فى الدول الإسلامية المختلفة ، أنشأها عمر بن الخطاب ، وكانت من الوظائف القضائية . لا يتولاها إلا كل من له قدم راسخة فى المعارف ، والعلوم ، والقوانين الشرعية . وكان لصاحبها سلطات واسعة . كان من سلطة المحتسب أن يختبر الأطباء والجراحين ، والبياطرة ، ومعلمى الأطفال ، فى الكتاتيب ، ومعلمى السباحة فى الماء ، قبل أن يزاول كل منهم عمله ، وله كذلك أن يستمع لمن يريد تدريس العلوم ، ويناقشه قبل أن يأذن له بالتصدر للتدريس . وكانت له مراقبة المراكب المسافرة ، والدواب المعدة للحمل ، وروايا الماء ، التى تحمل ليستقى الناس منها .

وكان من شأنه فرض التسعير الذى يراه محققاً ليسْر الفقير ، ومجزيا لربح التاجر والبائع . وإلزام الناس بالعمل به . وعقوبة الخارجين عليه . وكانت لبعض المحتسبين فى ذلك صرامة قاسية . وعقوبات شاذة ، عجيبة . ومنهم من كان على غير ذلك .

فمن أهل الصرامة القاسية ، والعقوبات الشاذة العجيبة . المحتسب محمد أغا أباظة . كان إذا أنقص الجزار فى وزنه شيئاً من اللحم ، قطع من جسده قطعة وفّى بها هذا النقص ، فى الوزن . ومصطفى كاشف كرد ، وعثمان أغا الوردانى . كانا كذلك أشد المحتسبين قسوة . كان بعضهم يأمر بأن يربط مخالف التسعيرة بالحبال عارى الرأس . ثم يصلب على مفترق الطرق . ويأخذ رجال المحتسب الأشداء فى ضربه بالنبوت ، أو جلده بالسوط ، حتى يأمرهم بتركه . وكان بعضهم يأمر بقطع شحمة الأذن بالسكين ، عقوبة على المخالفة . ويأمر بخرم الأنف ، وتعليق اللحم أو الخبز الذى باعه صاحبه بأكثر من سعره ، فى فتحة الأنف ، ويسير

به الجند ، على هذه الصورة ، فى شوارع القاهرة . وكانوا يسمون هذه العقوبة « التجريس » .

وباع رجل مرة « كنافة » بأزيد من سعرها . فأجلسه المحتسب فوق صنية الكنافة ، وهى على النار .

وجرّسوا رجلا بأن أركبوه حماراً ، ووجهه إلى خلف ، وهو قابض بيده على ذنب الحمار ، ووضعوا على رأسه عمامة هى مصارين حيوان مذبوح . وعلى كتفه أمعاء هذا الحيوان . وحلقوا نصف ذقنه ، ونصف شاربه . وساروا به فى مسالك القاهرة ، على هذا الحال . وكان الآمر بهذه العقوبة هو ، لاظ محمد ، كتخدا محمد على ، سنة ١٢٢٩ هـ .

وكانوا فى بعض الأوقات ، يعاقبون على شرب الدخان . وكثيراً ما كانوا يشربونه فى « الجوزة » . فأمر المحتسب — فى ولاية محمد باشا اليدكشى سنة ١١٥٦ — من يشرب الدخان . بأن يأكل حجر « الجوزة » بما فيه من الدخان ، والنار .

وعاقب محتسب محمد على ، مصطفى أغا كرد ، من يطيل السهر ، بقطع أذنه ، أو أنفه .

وكانوا يفرضون سعراً لكل ما يحتاجه الناس ، من الخبز ، واللحم ، والقماش ، والماء ، والجبن ، والزبد ، والسمن ، والعطور ، والخضار . وكان يوزن بالرطل ، — حتى الفجل ، والليمون — والقمح ، والفول ، والعدس ، والصابون ، والبن والسكر ، والشمع

وقد وصف الجبرتى موكب المحتسب ، الأمير على أغا مستحفظان ، وصفاً يبعث الرعب فى النفوس . فقد كان يضع على رأسه العمامة الديوانية ، المعروفة بالبيرشانة . وأمامه أصناف الجند ، من القابجية ، والملازمين ، وأمراء الأبواب ، مع طوائفهم . وخلفه الجوايشية ونائب القاضى ، وقوّاس يحمل كيساً مملوءاً بالعكاكيز ، أو النبابيت ، ثم يقف على رأس كل شارع ، وحارة ، فينادى مناديه

بالأسعار . ويقول الجبرتى إنه أمر فى يوم واحد ، هو ثالث أيام عيد الفطر ، بأن يضرب ، بالعكاكيز ، ستة من مخالفى التسعيرة . فماتوا جميعاً من الضرب .

وكان على أغا هذا يسير بموكبه يوما ، فالتقى به كبير من المماليك ، هو إسماعيل بك الدفتردار . فلما أحس إسماعيل بك بقدومه ، من بعيد ، أخلى له الطريق . حتى مر . فلما عوتب فى ذلك ، قال إنى فعلت ذلك لأننا كتبناه على أنفسنا ، وحتى نكون مثلا لغيرنا من الناس ، فى احترام المحتسب ، وطاعته .

وقد مات على أغا مستحفظان ، فى سنة ١١٢٣ ﻫ ، وهو ساجد فى صلاة الجمعة ، فى اليوم الثانى من أيام عيد الفطر . ورثاه الشيخ حسن البدرى الحجازى بقصيدة يقول فيها : —

أحلّ البـلايا ، والرزايا وما دهى ... وما كان قمّاعا ، بمن دأبه الظلم
من السوقة الأشرار ، الانجاس[1] من لهم ... من البخس والخسران ، عزم له عزم
فأرجح مـيزانا ، وأوفى مكايلا ، ... وأخمـد نيرانا ، وقام به سلم
وليس له من مبغض ، غير مغرض ... عن الحق ، أومن فى عقيدته سقم
وظن بليدُ الطبع سـوءَ فعاله ... فقلت له : ا كفف ، فاتك العلم والفهم

الحياة فى الريف

عندما يكتب الجبرتى عن ريف مصر ، وقراه . يذكر الفلاحين ، والعرب . وهؤلاء هم سكان الريف وأهله . وقد تناول الجبرتى حياة الفلاح ، وخلقه ، فى الجزء الرابع من الكتاب ، بما يمكن أن نجعله صورة كاملة له . ومنها نرى أنها صورة لم ينلها كثير من التغيير ، كما نعلم ، ولكننا نرجو أن ينالها ، تغيير شامل . فى وقت قريب أو بعيد .

فى شهر جمادى الأولى من سنة ١٢٢٩ أطلق محمد على رجاله من الكتبة ، والأقباط ، والرزنامجى ، إلى جزيرة شلقان لتحرير دفاتر الأطيان ، وقياسها على الطبيعة ، وفرض الضرائب .

---

(١) لصحة الوزن تحذف الألف الأولى من هذه الكلمة ، ولا تنطق الهمزة .

ويتخذ الجبرتى هذه المناسبة سبيلا للحديث عن الفلاحين ، وما يلقونه من ظلم ، وعنت ، ومذلة ، وهوان . وأنهم ، عندما رأوا رجال الدولة هؤلاء ، جفلوا ، وتركوا أوطانهم وزروعهم . وباعوا مواشيهم ، ودفعوا أثمانها فيما زاد عليهم من الضرائب . ثم يقول إنهم ، بعد فرارهم ، « سيعودون مثل الكلاب ، ويعتادون سلخ الأهاب » وأنهم كانوا أذل من العبد الذى يشترى بالمال ، فربما هرب العبد من سيده ، إذا كلفه فوق طاقته ، أو أهانه . أما الفلاح فلا يستطيع ، ولا يسهل عليه أن يترك وطنه وأهله . ولو أنه استطاع ، وفعل ، فسيجىء به الظالمون مرة أخرى ، قهراً ، ليزيدوه نكالا وإذلالاً . ثم يتحدث عن «العونة» و «السخرة» فيقول إنهم كانوا ينادون على الفلاحين ليلا للتبكير فى صباح اليوم التالى للعمل فى خدمة «الملتزم» . فمن تخلف ، حتى بعذر ، أحضره الخفير ، أو المشد، يجره من شنبه ،ويشبعه شتما وضرباً . وقد اعتاد الفلاحون ذلك حتى صاروايرونه واجباً ..! وكانوا يلاقون من المغالطة فى الضرائب والأموال المفروضة عليهم أشياء كثيرة . فقد يدفعون هذه الضرائب أكثر من مرة ، لأنهم لايستطيعون مراجعة المحصلين، ولا طلب « الورد » منهم ، حتى يكون حجة فى يدهم على السداد . ويستعمل الجبرتى كلمة « الورد » بمعناها الذى يعرفه مالكوا الأراضى الآن فى مصر . وقد يدفعون قدراً من المال يوازى الضريبة نفسها « هدية » للمحصلين . أو تفرض ضرائب أخرى من المحصلين يأخذونها لأنفسهم ، وهى « حق الطريق » الذى أشرنا إليه من قبل وإذا ادعى مدع على آخر مالا ، وكتب بذلك إلى الحاكم . أمر هذا رجاله بالذهاب إلى المدعى عليه ليدفع ما ادعاه عليه المدعى ، ولو لم تكن معه وثيقة ولا سند ، ثم يدفع بعد ذلك حق الطريق لرجال الحاكم . فإذا تأخر أرسل إليه آخرين . وفرض لهم حق طريق آخر للاستعجال . فإذا لم يدفع حبس وضرب حتى يدفع هذا كله .

وقد أفسد هذا الظلم نفوس الفلاحين ، وأخلاقهم . حتى أنهم ، كما يقول الجبرتى ، كانوا إذ ولى أمرهم رجل عادل رحيم ، ازدروه فى أعينهم ، واستهانوا به وبرجاله ، وماطلوه فى دفع ما عليهم . بل كانوا يسمونه بأسماء النساء ..! استهانة به

واستخفافا بأمره. وتمنوا زواله، حتى يولى عليهم جبار لا يرحمهم كما أفسد هذا الظلم نفوسهم بإيقاع بعضهم الشر ببعض، وأكلهم ما قد يكون تحت يدهم من مال الوقف. حتى تخربت مساجد كثيرة، وأسبلة، لأن المتنظرين عليها من الفلاحين، وأعيان الريف، كانوا يأكلون ريع ما وقف عليها، مهما كان كثيراً.

كما كان يقع بينهم كثيرين من الخصام، وكثير من القتل أيضاً.

وقد ألف الشيخ حسن البدرى الحجازى أبياتاً أربعة، فى وصف حال الفلاحين إذ ذاك، وما كان ينزل بهم من بلاء، فقال : —

وسبعة بالفلاح قد أنزلت ... لما حووه من قبيح الفعال
شيوخهم، أستاذهم[1]، والمشد، ... والقتل، فيما بينهم، والقتال
مع النصارى، كاشف الناحية ... وزد عليها كدهم فى اشتغال
وفقرهم ما بين عينيهم ... مع اسوداد الوجه. هذا النكال

وهذا الذى كتبه الجبرتى عن الفلاحين، كان هو الحال الغالب الأعم فى كل هذه السنين التى دون تاريخها. كما أن هذه الصفات التى أشار إلى بعضها، وهذه النوازل التى عد الشيخ الحجازى سبعا منها، كانت هى صفاتهم الغالبة ونوازلهم أيضاً فى هذه السنين، وفى تاريخهم الطويل وهى، كما أشرنا، نتيجة طبيعية للظروف الاجتماعية التى سادتهم، ونوع الحكم الذى كانوا يحكمون به. فهم ضحية للظلم والفساد، والإقطاع والإستبداد.

وكان أسوء ما يبتلى به الفلاحون، فوق ما يقع عليهم من ظلم وسخرة، القحط، بنقص فيضان النيل، والغرق، بزيادة الفيضان. والأوبئة[2]. فنقص النيل كان يلازمه، بطبيعة الحال بوار الأراضى، وتلف الزرع، وموت البهائم، والناس أيضاً فى أحيان كثيرة، من العطش والجوع. وكانت الزيادة توقع التلف بالزروع.

---

(١) الأستاذ هو الملتزم، الذى يأخذ الضرائب.

(٢) اجتاحت الأوبئة مصر فى هذه الفترة، فى سنوات ١٠٥٢ و ١١٠٨ و ١١٤٧ و ١٢٠٥ هـ. وهى تقابل سنوات ١٦٥٢، ١٦٩٦، ١٧٣٤، ١٧٩٠ — ١٧٩١ م

وتمنع الإفادة من الأراضى فى بعض الأحيان . وكثيراً ما كان يجىء الغرق ، والوباء معاً ، متعاقبين كما حدث فى سنة ١٢١٥ « ١٨٠٠ » م فقد جاء فيضان النيل فيها عالياً . ثم أعقبه الطاعون . فكان الناس لا عمل لهم إلا دفن الموتى. وقد أرسل الشيخ حسن العطار ، وكان قد ترك القاهرة إلى أسيوط فراراً من الوباء ، إلى صديقه الجبرتى ، كتاباً يقول فيه إن عدد الذين يموتون فيها بسبب الطاعون ، كان يقرب من ستمائة ، كل يوم . وكان هذا الوباء ومثله ، يستتبع ، بطبيعة الحال ، مجاعة ، بسبب هجرة كثير من الفلاحين من بلادهم . وموت الكثيرين منهم ، وانشغال الآخرين بموتاهم . وقد ذكر مسيوجومار ، أحد مهندسى الحملة الفرنسية ، أنه مات بهذا الطاعون ، فى شهر واحد ، عشرة آلاف ، من سكان القاهرة . وقدر الدكتور لارى ، كبير جراحى الحملة ، من ماتوا بهذا الوباء ، بمئة وخمسين ألفا . فى القاهرة ، والوجه القبلى .

حبيب وهمام :

أما حياة العرب ، فى ريف مصر ، فسنتخذ مثلا لها ، من ترجمة أسرة حبيب ، وسيرة شيخ العرب همام وكانت الأولى صاحبة السطوة فى إقليم الوجه البحرى ، وكان الثانى زعيما على الهوارة . وصاحب السطوة والجاه ، فى الصعيد . وكان سويلم وهمام متعاصرين . وماتا فى سنة واحدة .

يصف الجبرتى سويلم بن حبيب ، بأنه المقدام الشهير ، والضرغام النجيب ، من أكابر عظماء مشايخ العرب بالقليوبية . وكانت مساكنه ، ورجاله ، فى دجوة على شاطىء النيل . أما أبوه حبيب فأصله من قرية بجوار أسيوط إسمها شطب . فلما مات حبيب تولى الرياسة ابنه الأكبر سالم ، وكان فارساً شجاعا . حتى جعله الناس وفرسه ، مقوّمان ، فى الحرب ، بألف فارس . فطار صيته وكثرت جنوده وفرسانه وخيوله . ودخل فى طاعته العرب كلهم . لا يفعلون شيئاً إلا بأمره واتسع سلطانه ، وعظم أمره وبطشه . وجعلت له حراسة البرين على النيل ، من بولاق إلى رشيد ودمياط . وكانت بين سالم وأبيه وبين الأمير الكبير إسماعيل بن إيواظ

خصومة وحرب ، فتسلل سالم إلى خيل كانت لابن إيواظ فقطع معارفها وأذنابها وتركها . فغضب ابن إيواظ من ذلك ، غضباً شديداً ،وأسرّها له . ثم سلط عليهما رجلا شجاعا من أمرائه . اسمه حسن أبو دفّية . فحارب أولاد حبيب . وسلط عليهم المدافع . ولم تكن عندهم مثلها . فحاربوه بخيولهم ، وبنادقهم . واستطاع سالم أن يهزم أبا دفيه . وأن يلقى مدافعه فى النيل . فقام ابن إيواظ بنفسه لحربه . حتى هزمه ، وحرق بيوته كلها فى دجوة . وسلبه ما فيها من خيول ، وأبقار ، وأشياء كثيرة .

ولم ير حبيب بداً من الفرار إلى غزة ، حيث مات فيها . فعاد سالم إلى مصر . واحتال حتى دخل ، مع صديق لوالده ، على ابن إيواظ . فلما عرفه قال له : — أتيت بيتى ولم تخف . ؟ فقال له سالم نعم ، أتيت وكفنى معى . إما أن تنتقم فتقتلنى . وإما أن تعفو . فرحب به ابن إيواظ . وطلب إليه أن يحضر أهله وكتب له أماناً وأنعم عليه بكسوة وأذن له فى أن يقيم حيث كان أبوه . وأوصاه أن يتقى الله . ثم ذهب حيث أقام عند كبير آل الشواربى حتى أقام بيوته ، وبيوت أهله وأنصاره فأنشأ له ولهم دوراً عظيمة ، وحدائق ، وسواقى ، ومعاصر ، ومساجد . ثم تولى ، بعد ذلك ، حراسة البرين ، من بولاق إلى رشيد ودمياط . وأصبح صاحب الكلمة النافذة فى بلاد الوجه البحرى كله . وصارت كل السفن التى تشق النيل فى هذه البلاد ، تحت حكمه . يفرض عليها الضرائب ، الشهرية والسنوية . فزاد فى سعة حدائقه . وأنشأ على النيل بستاناً عظيما غرس فيه أنواع النخيل وأشجار الفاكهة المختلفة . حتى كانت فاكهته لا تنقطع صيفاً ولا شتاء . وأحضر له البستانيّين من رشيد والشام . ثم اشترك فى حروب قامت بين كبار المماليك نال فيها نصراً ومجداً وأموالا عظيمة . فاشترى الجوارى البيض . وبقى على حاله ، من السطوة والثروة حتى مات فى سنة ١١٥١ . وتولى أخوه سويلم حراسة البرين بعده ، فزادت سطوته وثروته . حتى كان رجاله يقفون فى طريق السفن التى تسير فى النيل وينادون رجالها . فإذا أطاعوهم فرضوا عليهم ما أحبوا من ضريبة . وأخذوا ما شاءوا من بضاعة وأن عصوا عليهم قطعوا طريقهم ، وجاءوا بهم صاغرين ، وأخذوا

منهم أضعاف ما يأخذون عادة . وأنشأ سويلم لنفسه حرساً من العبيد السود ، يركبون الفرسان . ويلازمونه حيث سار . وكان لا يبيت فى داره . بل يجىء فى الثلث الأخير من الليل ، فيدخل إلى بعض حريمه . ثم يخرج عند الفجر إلى ديوانه فيحضر اليه الكتبة ، يعرضون أوراقهم ، ويتلقون ما يأمرهم به ، ويكتبون ما يريد أن يرسل من كتب ورسائل إلى القاهرة ، أو البلاد التى تخضع لحكمه . ويحضر إلى ديوانه أيضاً أرباب الحاجات ومشايخ البلاد ، والجند ، والملتزمون ، والفلاحون ، والعرب . وكلهم واقف بين يديه . ولا يستطيع ملتزم ، ولا حاكم ، ولا شيخ ، فى القليوبية والشرقية خاصة ، أن يبرم أمراً إلا بموافقته . وزاد سويلم فى بناء مساكن أهله فى دجوة ، فأنشأوا دواراً عظيما ، له مقاعد شاهقة الارتفاع ، تحمل على عروشها أعمدة عليها بوائك مقصورة يراها الناس من مسافة بعيدة فى البر والبحر وفيها مجالس عدة ، ومخادع ، ولواوين ، وفسحات علوية وسفلية . وبنى بداخله مسجداً ومكاناً فسيحاً ، للضيوف من كل جنس وطارق . وجعل أمامه على شاطىء النيل طريقاً فسيحاً ، ومساطب لجلوسه . كما بدأ يتخيّر ، ويتأنق فى ركوبه ولباسه . حتى كان النــــاس ينسبون إليه ما يبتدع فى ذلك : فيقولون هذا سرج حبايبى — أى منسوب لابن حبيب — وشال حبايبى ، ومركوب حبايبى ، وكان ، إلى شدة مراسه ، وقوة بأسه — كريماً — يحب العلماء وأرباب الفضائل ويأنس بهم . ويستطيع أن يشاركهم حديثهم ويرسل إليهم الهدايا .

وبقى سويلم ، وأسرة حبيب حتى تولى على بك الـكبير حكم مصر فحاربهم حتى قتل سويلم ، وخمسة وأربعين من كبارهم . ثم قضى على من بقى منهم بعد ذلك ومحا ما كان لهم من سطوة وهيبة . وكان ذلك فى سنة ١١٨٣ هـ

وأما شيخ العرب همـام ، فيصفه الجبرتى بأنه الجناب الأجل ، والـكهف الأظل ، الجليل المعظم ، والملاذ الأفخم ، ملجأ الفقراء والأمراء ، ومحط رحال الفضلاء والـكبراء . الأمير شرف الدولة همـام بن يوسف بن أحمد ، الهوارى . عظيم بلاد الصعيد . ثم يطنب فى ذكر ما يتصف به من الـكرم . فمن ذلك أنه كان إذا نزلت بساحته الوفود من الضيفان ، تلقاهم خدمه ؛ وأنزلوهم فى أماكن معدة

وأحضروا لهم ما يحتاجونه من الحوائج . وتقدم لهم ، مهما طالت إقامتهم ، الأطعمة الفاخرة فى الغداء ، والعشاء ، والإفطار . ويجدون ، فى كل وقت ، السكر ، والحلوى ، والمربات ، وشمع العسل ، والآنية النظيفة ، الكثيرة ، لطعامهم وشرابهم . وكان بعض الناس يقيم فى ضيافته شهوراً ، وهو لا يعرفه . وطعامه لا ينقص ، وكذلك خدمته وإكرامه . فإذا انتهت ضيافة الضيفان . ورأى فيهم محتاجا ، أكرمه ، وأعطاه أكثر مما كان يرجو وينتظر . ومن الناس من كان يقصده ، فى كل سنة ، فينال من بره ما يكفيه السنة كلها . أما من يقْدم عليه من كبار الناس أو من أهل الفضائل ، فإنه كان يزيد فى إكرامهم . ويهدى إليهم الجوارى ، والعبيد ، وقناطير السكر ، والغلال ، والسمن ، والعسل . وكان هذا حاله على الدوام ، فى كل أيام السنة . فكان الخدم يهيئون الفطور للضيوف من طلوع الفجر ، فلا يفرغون من ذلك إلا فى الضحى . ثم يشرعون فى تهيئة الغداء ، فلا يفرغون منه إلا قريبا من العصر ، ثم يشرعون فى تهيئة العشاء إلى وقت من الليل .

وكان رجلا بشوشا ، قوى الذاكرة . إذا رأى إنسانا ، مرة واحدة ، ثم غاب عنه سنين ، ورآه بعد ذلك ، عرفه وأقبل عليه . وإذا جلس إلى كتّابه وحاسبى أمواله . أخذ يستمع إليهم ، ويأمرهم ، ويملى عليهم كتبا ، ومراسيم . لا يغرب عن فكره كبير أو صغير . وكان يفعل ذلك فى الليل ، ثم ينام ساعة قليلة ، يقوم بعدها إلى الصلاة . وعندما يجلس إلى الناس يضع إلى جانبه فنجانا فيه قطعة من القطن ، وماء الورد ، فإذا قرب منه بعضهم ، مسح بتلك القطنة — بعد انصرافهم — عينيه ، وشمها .

وكان همام كثير الأكرام للعلماء . زاره السيد مرتضى الزبيدى ، صاحب تاج العروس ، فأكرمه إكراما عظيما . وأهدى له الغلال ، والسكر ، والعبيد ، والجوارى . وكان هذا شأنه مع أهل العلم والفضل .

أما ثروته فكانت عظيمة جداً . من ذلك أن عدد الثيران ، التى كانت مخصصة لزراعة القصب وحدها ، كان إثنى عشر ألفاً . وعنده غيرها ، من الثيران المعدة للحرث ، ودرس الغلال ، والطواحين ، والسواقى . وغيرها من الجواميس والأبقار .

أما مخازن الغلال ، وحواصل السكر ، والتمر ، بأنواعه المختلفة ، والعجوة . فشيء لا يمكن حصره وكان من يرى مخازن الغلال ، من بعيد ، يظنها مزارع ، لطول مكث الغلال فيها وكثرتها . فينزل عليها المطر . وتختلط بالتراب . فتنبت وتصير خضراء ، كأنها مزروعة . وكان عنده من الجند ، والقواسة ، من المماليك ، عدد وافر . أقاموا عنده ، وتزوجوا . وتخلقوا بأخلاق الهوارة ، وتعلموا لغتهم وله دواوين وكتاب عديدون من الأقباط ، ومحاسبون ، ومحصلون . لا يقف عملهم ليلا أو نهارا . وعنده من الجوارى ، والسرارى ، والعبيد ، شيء كثير جدا . أفرد لهم سجلا خاصا . وفى ختام كل سنة يطلب من كاتب هذا السجل عدد من مات منهم . وقد يكون أربعمائة ، أو خمسمائة . فى سنة واحدة .

ووقعت حروب بين على بك الكبير ، وبين خصوم له من المماليك . كانوا من أصدقاء همام ، وكان يعينهم . فلما تغلب عليهم على بك ، عرف همام أنه لن يتركه . وغدر به ، بعد ذلك ، بعض أهله ، وانحازوا إلى على بك . فترك همام فرشوط ، حيث كانت منازله وبيوته . ورحل إلى إسنا ، فمات بها فى شعبان من سنة ١١٨٣ ، وهى نفس السنة التى مات فيها سويلم بن حبيب .

وترك أولاداً ثلاثة ؛ درويش ، وشاهين ، وعبد الكريم . واستطاع أولهم أن يترضى على بك ، فأعاده إلى فرشوط ، وإلى مكان أبيه ولكنه كان قاسيا سيء السيرة . أخذ يقبض على خدم أبيه ، ويسلب أموالهم . فأخذ من خادم يسمى زعيتر ، كان وكيل البصل المرتب لمطابخ همام ، أموالا عظيمة . منها أربعون ألفاً من الذهب البندقى ، دفعة واحدة . وكذلك أخذ من العامل المخصص لصناعة الأبراد لكسوة الجوارى السود والعبيد . ومن وكلاء الغلال ، والسكر ، والسمن ، والعسل ، والتمر ، والشمع ، والزيت ، والبن ، وشركاء المزارع . فلما علم على بك بما فعل بهؤلاء . وما جمع من أموالهم . أخذها منه . ثم صادره محمد بك أبو الذهب ، بعد ذلك ، فى كل ماله . حتى أخرج ما فى بيوته من المتاع ، والآنية ، والنحاس . فكانت قناطير مقنطرة . وجاء درويش هذا بعد ذلك إلى القاهرة ، فمات فيها ، كما يموت أى فرد من الناس .

وكان بعض أبناء همام ، كما كان بعض أفراد أسرة حبيب ، من أصدقاء الجبرتى

المسلمون والنصارى

كان وجدان الناس ، فى هذا العصر الذى نؤرخه ، وجداناً دينياً . ولم تكن العاطفة الوطنية قد وجدت عند المصريين . وهذه فترة من الزمن ، مرت بها كل أمة . فالعاطفة الوطنية عاطفة طارئة على شعور النـاس جميعاً ، وإحساس محْدث نبت ، ونمى ، عند أهل الأوطان كلهم ، بعد أطوار سابقة عليه . مرت بها مصر كغيرها من الأمم . وما كانت الحروب الصليبية إلا تنفيساً عن هـذا الوجدان الدينى . أخذ طريقه إلى الخصام والدم . بدلا من المحبة والرفق . وقد عاش العالم كله دهوراً طويلة لا يجد أهله لهم عاطفه عامة ، ولا وجدانا ؛ إلا هذا الوجدان الدينى .

ثم ظهر بعد ذلك الشعور بالوطن ، ووجدان الوطنية .

كان وجدان الناس فى مصر إذن ، دينياً . وكانت عاطفة الدين ، والمشاركة فى العقيدة ، هى الشعور الذى يجمع الناس بعضهم إلى بعض . ولذلك يقول الجبرتى : قام المسلمون ، وفعل المسلمون . وهو يقصد المصريين . ونجد فى الوثيقة التى سجل بها الفرنسيون مقتل الجنرال كليبر ، أنهم قبضوا على « المسـلم » سليمان الحلبى . ولـكن العلاقات والصلات ، بين المسلمين وأصحاب الأديان الأخرى ، وخاصة المسيحيين ، كانت — فى عمومها — علاقات مودة وأخوة . بقدر ما تسمح به ظروف الأحوال وملابستها . وقد كانت العلاقات والصلات بين المسلمين أنفسهم ، لا تخلو كذلك من شرور ، ومن خصام وعنف . وحرب أيضاً . فـكثيراً ما نرى الحرب قائمة ، فى هذا العصر ، بين الجند ، والمصريين . وكلهم مسلمون أو بين المماليك والدولة ، أو بين المماليك بعضهم وبعض . أو بين المصريين والوهابيين . وكل هؤلاء المتحاربين مسلمون .

كان المسلمون يعاملون غير المسلمين ، عادة ، بروح التسامح ، والرفق . التى أوصاهم بها القرآن الـكريم . وكان غير المسلمين ، عادة ، يقابلون هـذا التسامح

والرفق ، بما يوجبه عليهم من الولاء ، والمحبة ، والإخلاص . وكان المسلمون وغيرهم يقعون تحت نير واحد من الظلم ، والجبروت . فهو كفيل بتوحيد عواطفهم ، أو تقريبها . إلى جانب الأسباب الأخرى للتوحيد والتقريب . وهى المشاركة فى العمل ، والجوار . والخلطة . والتقارب العنصرى والثقافى .

هذا الولاء ، وهذه المحبة والاخلاص . وجده غير المسلمين ، فى الجملة ، فى مصر . وقد كان العالم كله ، إذ ذاك ، أقرب إلى التعصب الضيق ، منه إلى السماحة الكريمة الرحبة . وكان الناس قريبين إلى بقايا الحروب الصليبية . ما تزال باقية ، فى آفاق أوطانهم ، أصداء تلك النواقيس التى دعا إلى دقها بطرس الراهب . وما يزال آباؤهم وأجدادهم يتحدثون إليهم عن وقائع هذه الحروب ، فى دمياط ، وغيرها من الثغور . وما يزال « فرسان مالطة » يتربصون بالسفن فى البحر الأبيض ، ويغيرون عليها ، متأثرين بهذه الحمى ، التى ملأت رؤوسهم بها نواقيس بطرس الراهب .

فى هذه الأيام نفسها ، وتحت تأثير هذه المشاعر التى توحى بالانحراف والتطرف ، لم يجد غير المسلمين ، فى مصر ، إلا الأخوة ، والمعزة ، والكرامة ، ما داموا يعرفون حق وطنهم ، وحق إخوانهم ، عليهم .

وكان النظام الاجتماعى ، ونظام الحكم ، يفرضان على النصارى دفع الجزية . ويقول الجبرتى إن المعلم غالى ، كبير القبط فى عصره ، التزم بأن يدفعها إلى محمد على خمسة وثمانين كيساً[1] . ولم تكن قدراً ثابتاً ، معروفا . بل كان يفرضها الوالى ، أو شيخ البلد ، كبير المماليك ، كيفما شاء . وكان بعض الحكام أيضاً يظهر من ضيق الأفق شيئاً كثيراً فيوقع بغير المسلمين ظلمه ، كما فعل إسماعيل بك الصغير المعروف بالغزاوى . وقد مات فى سنة ١١٩١ .

ولكن هذا النظام الاجتماعى نفسه ، ونظام الحكم ، كانا يجعلان للنصارى واليهود سلطاناً عظيما فى الدولة ، وعلى الشعب . فقد كان هؤلاء ، إلى جانب اشتغالهم بالتجارة ، والصناعة ، والزراعة ، يختصون بالشؤون المالية فى الدولة . كان

---

(١) يقول أمين باشا سامى ، فى الجزء الثانى من تقويم النيل ، إن الكيس كان خمسمائة قرش . ويقدره الأستاذ محمد فريد أبو حديد ، فى كتابه عن السيد عمر مكرم ، بنحو أربعين جنيها . بالعملة الحالية .

منهم جباة الضرائب . وهم الذين يقدرونها على الأراضى ، والمحاصيل . وفى أيديهم سجلاتها ، وأورادها ، وحساباتها . وما يسجل فيها من الأراضى البور ، فتعفى من الضريبة . ومن المنزرع ،فيفرضون عليه القدر الذى يريدون . وسلطتهم فى ذلك مطلقة ، وكلمتهم نافذة . وما يكتبونه فى سجلاتهم ، لا معقب عليه بعدهم . وكان كبار المماليك يختارون لإدارة أموالهم الخاصة ، القبط ، واليهود . ويولونهم فى ذلك الثقة كلها . وكان الكتبة ، والمحصلون ، ورؤساؤهم من المباشرين ، كلهم من القبط غالباً ، ومن اليهود أحياناً . سواء فى أموال الدولة ، أم فى أموال الأمراء . والسراة .

ويقول الجبرتى إن محمداً علياً وضع لسجلات هذه الضرائب نظاما ، كان يقضى بأن تكتب باللغة العبرية (١) لأن فرقة من كتابها كانوا من اليهود .

وكان رئيس المشرفين على هؤلاء الجباة يسمى « كبير المباشرين » وقد بلغ بعض هؤلاء من الثروة والمجد مبلغاً عظيما . مثل المعلم رزق ، والمعلم إبراهيم الجوهرى ، وأخيه جرجس . والمعلم غالى . فالمعلم رزق كان بمثابة وزير مالية الدولة فى عهد على بك الكبير . وكان أيضاً أمين سره و كبير مستشاريه فى شؤون الدولة .

ويقول الجبرتى إن « المعلم رزق » ، « بلغ من العظمة ما لم يبلغه قبطى ، فيما رأينا » .

أما إبراهيم الجوهرى فقد تولى ، عند محمد بك أبو الذهب ، خليفة على بك الكبير ، ما كان يتولاه المعلم رزق عند على بك . من أمور المال والخراج والضرائب .

ويقول فى ترجمته إنه أدرك بمصر من العظمة ، ونفاذ الكلمة ، وعظم الصيت والشهرة ، مع طول المدة ، ما لم يسبق لمثله . وبعد وفاة محمد أبو الذهب ، نال عند خلفه ، إبراهيم بك مكاناً أعظم . حيث « قلده جميع الأمور ، فكان هو المشار إليه فى الكليات والجزئيات . حتى دفاتر الرزنامة ، والميرى وجميع الإيراد

---

(١) ص ١٨٢ من الجزء الرابع .

والمنصرف . وجميع الكتبة والصيارف من تحت يده وإشارته . وكان من دهاقين العالم ودهاتهم ، لا يغرب عن ذهنه شيء من دقائق الأمور ، ويدارى كل إنسان بما يليق به من المداراة ، ويحابى ويهادى ويواسى . ويفعل ما يوجب انجذاب القلوب والمحبة . ويهادى ويبعث الهدايا العظيمة والشموع إلى الأمراء . وعند دخول رمضان ، يرسل إلى غالب أرباب المظاهر ، ومن دونهم ، الشموع والهدايا والأرز ، والسكر ، والكساوى » .

ثم يقول إنه فى أيامه ، عمرت الكنائس والأديرة ، ووقفت عليها الأوقاف الجليلة والأراضى ، ورتبت لها المرتبات العظيمة والأرزاق ، والغلال . ولما مات حزن عليه إبراهيم بك كثيراً . وخرج إلى قصر العينى ليشاهد جنازته . وفى ذلك من روح التسامح ، والمحبة ما فيه .

وتوفى المعلم إبراهيم الجوهرى سنة ١٢٠٩ [١٧٩٥ م] .

وتولى جرجس الجوهرى مكان أخيه إبراهيم . ونال ، مثله ، مكانة عظيمة . وبقى ، مدة احتلال الفرنسيين مصر ، محتفظاً بهذه المكانة . ومتمتعاً بالجاه والسطوة والرعاية . وافر الحرمة ، وعند ما عاد العثمانيون ، بعد الفرنسيين ، نال عندهم الحظوة والسلطان .

يقول الجبرتى ، إنه رآه يجلس إلى جنب محمد باشا خسرو ، والدفتردار شريف افندى ، ويشرب فى حضرتهم الدخان ، وينادونه « جرجس افندى » ويرعون جانبه . ويشاورونه فى الأمور .

وكان جرجس الجوهرى عظيم النفس ، كريماً . يفرق على جميع الأعيان فى رمضان ، الهدايا الغالية . كما كان يفعل أخوه إبراهيم . وكانت له ثروة عظيمة ، وقصور تقف على بابها الخدم ، والحجاب .

كما كان خيّرا لا يوافق على إرهاق الناس بالضرائب والمظالم . يطلب منه محمد على أن يجمع له قدرا كبيراً من المال ، فيقول له : هذا لا يتيسر ، ويأبى .

فلما ظهر المعلم غالى تقرب إلى محمد على ، وزين له ما شاء من إرهاق للناس ،

وفرض ما يريد عليهم . وإذا أبى جرجس الجوهرى أمرا يطلبه محمد على ، تقدم إليه غالى وقال له أنا أجمع لك هذا المال . وأنفذ لك هذا الأمر . وانتهت سياسة المعلم غالى بتغير محمد على، على جرجس . حتى خاف على نفسه منه فهرب إلى الصعيد . ثم حضر بأمان من محمد على . ولكنه لم يباشر أمراً ، حتى مات فى شعبان من سنة ١٢١٥ .

وأصبح المعلم غالى ، بعد ذلك كبير المباشرين . ويسّر لمحمد على أن يجمع من الأموال ما يشاء . كما جمع لنفسه مالا عظيما . ولكن محمد على صادره بعد ذلك فى كثير منه . ففى حوادث شهر رمضان من سنة ١٢٢٥ — فى السابع عشر منه — طلب محمد على المعلم غالى ، وحبسه ، كما طلب المعلم فلتيوس ، والمعلم جرجس الطويل، والمعلم فرنسيس ، أخا المعلم غالى ، وباقى الأعيان من مباشرى القبط . فنفى بعضهم إلى دمياط . وحبس الآخرين فى القلعة . وختموا على دورهم . ثم انتهى الأمر بالعفو عن غالى ، على أن يدفع قدراً من المال يشك الإنسان فى تصوره . ولكن الجبرتى يذكره ويحدده ، بأربعة وعشرين ألف كيس .

ومن مظاهر المودة والإخلاص ، ما رواه الجبرتى من أن كاشف البحيرة ، من قبل محمد على ، قبض على السيد حسين نقيب الأشراف فى دمنهور ، وألزمه بأن يدفع ألفى ريال ، وإلا قتله بعد أربع وعشرين ساعة . فلما عجز عنها ، رجا من النصارى المباشرين أن يدفعوها عنه ، فدفعوها ، ونجا ، أو كما يقول الجبرتى بأسلوبه الظريف « تخلص بالحياة » .

ومن طريف ما ذكره الجبرتى ، وهو مظهر من أقوى المظاهر ، التى تدل على الشعور والعاطفة بين المسلمين والأقباط . أنه ، فى سنة ١٢٢٣ جاء النيل ناقصا . وانتظر الناس وفاءه ، فلم يف . فضجوا وانزعجوا ، ولم يجدوا غلالا . ثم رأى العلماء أن يقيموا صلاة الاستسقاء ، فى جامع عمرو ، فذهب كبارهم ، ومعهم السيد عمر مكرم . وأهل الأزهر ، وكثير من الأطفال ، يدعون الله فى صلاتهم أن يوفى لهم النيل .

وأقيمت صلاة الاستسقاء فى صبح يوم زاد فيه النيل زيادة قليلة . فلما أتموا صلاتهم ، ورجع كثير منهم إلى القاهرة ، عاد النيل فنقص مازاد من ماء قليل .

وبعد يومين عاد العلماء والناس إلى جامع عمرو ، يتوجهون إلى الله فى صلاة الاستسقاء ، مرة أخرى، أن يوفى لهم النيل . وأشار بعضهم بأن يشترك الأقباط فى الصلاة ، فاشتركوا . وجاء المعلم غالى ، كبيرهم ، ومعه كثير منهم ، فجلسوا فى ناحية من المسجد ، حتى أتم المصلون صلاتهم ودعاءهم . ولم تمض ليلة واحدة ، حتى أوفى النيل . وزاد ماؤه ، حتى غطى على المقياس . وبعد ذلك بيوم واحد . نودى فى القاهرة بوفاء النيل . وأطلقت المدافع ، وأقيم الاحتفال المعتاد . ثم يقول الجبرتى إن بعض الأقباط فرح فرحاً شديدا بذلك ، وكان يقول إن الزيادة لم تحصل إلا بخروجهم للصلاة .

ومن الذين ذكرهم الجبرتى من القبط ، ولم يوفه حقه ، المعلم يعقوب ، أو الجنرال يعقوب . ونحن نلخص حياته من الجبرتى ومن مصادر أخرى مختلفة ، فى هذه السطور .

ولد يعقوب فى ملوى حوالى سنة ١١٥٨ [١٧٤٥م] ثم دخل فى خدمة كبير الانكشارية سليمان أغا أيام حكم على بك الكبير . وكان يتولى إدارة الشؤون المالية لسليمان أغا هذا ، فجمع من عمله وسعيه ثروة كبيرة . فلما جاءت الحملة الفرنسية إلى مصر ، أعانها يعقوب وانحاز إليها وقدم لها مساعدات ذات قيمة .

فقد التحق بجيش الجنرال ديزيه قائد الفرنسيين فى الصعيد . وشارك هذا القائد فى مطاردة مراد بك ، وكان يدبر لهذه الحملة ما تحتاجه من مؤن ، ويحارب بسيفه أيضاً معها . فلما عادت الحملة إلى القاهرة ، وكل إليه الجنرال كليبر تنظيم مالية البلاد ، واستخلاص الضرائب والمغارم التى يفرضها الفرنسيون على مصر . وعلى الثائرين من أهلها خاصة . ويقول الجبرتى أن الفرنسيين أطلقوا له فى ذلك حرية واسعة ، وجعلوا له نفوذاً كبيراً بعد ثورة القاهرة الأولى عليهم ، فكان يفعل بأهلها ما يشاء . حتى جمع للفرنسيين ما فرضوا من مغارم ثقيلة .

وألف يعقوب من أبناء طائفته فرقة لمساعدة الفرنسيين، فجمع منهم فى الصعيد

نحو ألفين[١] ، واستقدمهم إلى القاهرة « وحلق لحاهم وزياهم بزى مشابه لعسكر الفرنساوية ، مميزين عنهم بقبّع يلبسونه على رؤوسهم ، مشابه لشكل البرنيطة ، عليها قطعة فروة سوداء » .

ثم هدم يعقوب الأماكن المجاورة لمسكنه فى حارة النصارى ، خلف الجامع الأحمر . وبنى له قلعة سورها بسور عظيم ، ووضع فيها الأبراج وأقام فيها المدافع . وكذلك فعل بما يحيط بحارة النصارى كلها . وأقام على ذلك كله حراساً مسلحين ، على النظام الفرنسى .

ولما جاءت الجيوش العثمانية والإنجليزية لإخراج الفرنسيين من مصر ، كان يعقوب يعمل قائداً مساعداً للجنرال بليار يدافع معه عن القاهرة حتى لا تدخلها هذه الجيوش .

وقد كافأه الفرنسيون على إخلاصه لهم ، فأنعموا عليه بسيف ، وجعلوه مستشاراً لهم ومديراً للشئون المالية والضرائب . ثم أنعموا عليه بلقب جنرال . وأظهر هو محبة صادقة لهم فى مدى السنوات التى أقاموها فى مصر ، وبعد خروجهم منها . فقد عرض تبرعه بثلث النفقات ، مهما بلغ مقدارها ، لإقامة تمثال لصديقه الجنرال ديزيه ، عند ما علم بموته . وعند ما حضره الموت كان إلى جواره الجنرال بليار ، فقال له يعقوب وهو يحتضر ، أرجو أن أدفن إلى جوار ديزيه . وكان فى أثناء حملة ديزيه على الصعيد ، يقيم له ولضباطه الولائم الفاخرة .

ولما خرجت الحملة الفرنسية من مصر ، كان من شروط تسليمها أن يسمح لمن يشاء من الذين عملوا معها ، ولو لم يكن فرنسيا ، أن يصحبها . فخرج يعقوب معها ، وركب البارجة الإنجليزية بللاس ، مع الجنرال بليار . وكانت آخر البوارج التى غادرت ميناء الإسكندرية . وبعد يومين من سفرها أصيب الجنرال يعقوب بمرض ، ثم مات فى صباح يوم ١٦ أغسطس ١٨٠١ ، ولم تلق جثته فى البحر ، بل حملت حيث دفن فى مرسيليا بمقبرة القديس بطرس . بعد أن شيع جثمانه فى احتفال عسكرى مهيب .

---

(١) فى رواية نقولا الترك ، أن عدد هذه الفرقة ، كان ثمانمائة .

وقد نشرت الجمعية الجغرافية الملكية فى القاهرة سنة ١٩٢٤ وثائق[١] محفوظة فى وزارة الخارجية البريطانية تتضمن مشروعاً كان المعلم يعقوب قد تحدث به إلى رجال البارجة ، وهى فى طريقها من الاسكندرية إلى مرسيليا . ويتضمن المشروع بنوداً وعروضاً لاستقلال مصر بضمانة الدول الأوربية عامة ، وانجلترا خاصة . ويبيح تكوين جيش أجنبي فى مصر ، وعلى نفقتها ، لرد العدوان عن هذا الاستقلال . حتى يتكون جيش مصرى ، وطنى .

وقد اختلف المؤرخون فى الحكم على المعلم الجنرال يعقوب حنا . بعضهم يرى أنه كان زعيما وطنيا آثر أن يعين الفرنسيين حتى يخلص وطنه من حكم الأتراك والمماليك . فلما فشل فى ذلك بالحرب . حاوله بالسياسة . وتحدث فى ذلك إلى رجال البارجة الإنجليزية ، تمهيداً للحديث فيه مع كبار الساسة منهم .

وبعضهم يقول : إنه كان رجلا طائفياً أراد أن يكسب لقومه مغانم وجاهاً ، فسلك ذلك السبيل الوعر ، وحارب أهل وطنه .

وقبل أن نترك الحديث عن المسلمين والنصارى ، وما كان بينهم من مودة ومحبة ، نلخص قصة رواها الجبرتى عن الشيخ عبد الله الشبراوى ، شيخ الأزهر ، وهى تدلنا على ما كان عنده من تسامح وفهم لروح الدين . كما نجد فيما كتبناه عن كفاح الشعب[٢] ، عند مقاومة المصريين لنابليون وحملته ، أمثلة رائعة لوحدة عنصرى الأمة ، وما قام بينهما من تضامن وتساند ، إزاء الخطر المشترك ، الذى ألم بوطنهما . ونجد فيما كتبناه عن الأزهر والعلماء ، فى الجزء الثانى ، شيئاً كثيراً من مظاهر الودّ بين أصحاب الديانات المختلفة ، فى مصر ، إذ ذاك .

وهذه هى قصة الشيخ الشبراوى : —

---

(١) نشرت نصوص هذه الوثائق أيضاً فى مجلة مصر الحديثة المصورة ، عدد منتصف مايو سنة ١٩٢٨ .

(٢) فى الجزء الثالث من الكتاب

الشيخ الشبراوى ونوروز

فى سنة ١١٦٦ كان الشيخ عبد الله الشبراوى شيخاً للأزهر ، وكان كبير الأقباط فى مصر رجل اسمه نوروز ، وكان نوروزهذا فى الوقت نفسه، كاتباً لرضوان كتخدا . كما كان صديقاً للشيخ الشبراوى . وأراد بعض كبار الأقباط أن يستفيد من هذه الصداقة ، فطلبوا أن يؤذن لحجاج بيت المقدس منهم ، فى أن يخرجوا من مصر إليه مجتمعين ، فتحدث نوروز فى ذلك إلى صديقه شيخ الأزهر ، فكتب الشيخ له فتوى خلاصتها : أن أهل الذمة لا يمنعون من أداء شعائرهم الدينية ، وزيارة أماكنهم المقدسة .

ويقول الجبرتى : إن كبير القبط هذا قدم للشيخ هدية وألف دينار ، حتى كتب فتواه ، ولعل سخط الجبرتى على هذه الفتوى ، أو على سوء استغلالها ، كما سيجيء بعد ، هو الذى حمله على رمى الشيخ الشبراوى بهذه التهمة ، فإن فتوى الشبراوى هى الرأى الشرعى المطابق لقواعد الإسلام .

فرح نوروز وأقباط مصر بهذه الفتوى فرحاً أخرجهم عن واجب الاتزان والحكمة ومراعاة الظروف وتجنب الزلل ، فعندما حصل كبيرهم على الفتوى أسرعوا فى التجمع ، وتهيئوا للخروج من القاهرة إلى بيت المقدس ، ولكنهم عند خروجهم جمعوا طبولا كثيرة « وخرجوا فى هيئة وأبهة ، وأحمال ومواهى، وتختروانات فيها نساؤهم وأولادهم ، ومعهم طبول وزمور ، وأحضروا العربان ليسيروا فى خفارتهم ، وأعطوهم أموالا ، وخلعاً ، وكساوى وإنعامات » .

ومن الطبيعى ، فى مثل ذلك الوقت على الأقل ، أن تثير كل هذه المظاهر شعور الناس وأن تُسخطهم ، وتحرك غضبهم ، وقد سخطوا فعلا وغضبوا ، واستنكروا هذا الذى رأوا .

وكان الشيخ الشبراوى بعد ذلك فى زيارة الشيخ البكرى يعوده فى مرض ،

فقال البكرى للشيخ : — ما هذا الذى أمرت به ياشيخ الإسلام . . ؟ وهل رأيت ما فعل القوم ، بسبب هذه الفتوى . . ؟ أما تخشى أن تصير لهم سنة وحقاً يطالبون به فى كل عام ، ويخرجون فى العام القادم بأكثر مما خرجوا هذا العام ، ويصنعون لهم محملا ، ويقال : حج النصارى وحج المسلمين . . ؟

وخرج الشيخ الشبراوى من بيت البكرى ، وكأنه قد ندم على فتواه ، وكأن الناس ألحوا عليه وأثقلوا ، كما فعل البكرى . فخضع لعواطف الجمهور ، وأذن للعامة ، كما يقول الجبرتى ، فى الخروج عليهم ، ونهب ما معهم « فاجتمعوا عليهم ، ورجموهم وضربوهم بالعصى والمساوق ، ونهبوا ما معهم » .

وقد كان الشيخ الشبراوى ، فى موقفه الأخير هذا ، خاضعاً لفورة العامة ، منساقاً مع رغبتهم ، مستسلماً لنزواتهم ، بل مهيجاً لها . وكان يستطيع أن يتصل بصديقه نوروز ، وهو كبير القبط ، ليمنعهم من إثارة شعور الناس . عند خروجهم لبيت المقدس ، بدلا من إذنه للعامة بنهب حجاج النصارى . ولكنه آثر السلامة ، وخشى على نفسه ثورة العامة ، ففعل ما فعل ، ليوجه به غضبهم وجهة أخرى .

الأيمان والثقة بالنفس :

ومن المظاهر التى تستحق التأمل ، فى حياة المجتمع المصرى الذى نؤرخ له ، ظاهرة ضعف الثقة بالنفس . فقد كان المصريون ، حتى كبارهم وقادتهم ، لا يثقون بأنفسهم ، ولا بكفاياتهم فى ولاية الأمور العامة .

فقد أظهر أهل هذا الجيل قدراً كبيراً من العناد والصلابة ، فى الحرص على حقوقهم العامة ، ورفع الظلم عن نفسهم ووطنهم ، ودفع العدوان الذى أراد به الإنجليز احتلال مصر . ومقاومة الحملة الفرنسية مقاومة باسلة حتى لم تجد بداً من الرحيل :

وقد فصّلنا ، فى الجزئين التاليين ، بعض مظاهر هذه الصلابة العجيبة النادرة فى حرب الفرنسيين عند غزوهم مصر ، وفى حرب الولاة العثمانيين الذين كانوا يعتدون على شرف الوطن قبل ذلك ، وفى رد الحملة الإنجليزية على رشيد .

وقد كانت هذه الحرب تبدو — للتباين البعيد بين قدرة الشعب ، وقوة الغزاة — أشبه بالانتحار ، ولكن ذلك لم يضعف من عزمه ، ولم يثنه عن الصمود ، ولم يقلل من عناده وصبره وجلده ، حتى كان له الغلب والنصر فى نهاية الأمر .

وكان الجبرتى ، المصرى الأمين المتزن ، يصف المجاهدين من أهل القاهرة الذين يقاتلون جند نابليون ، بالحجارة ، وقطع الأخشاب والحديد ، وقليل من البنادق ، كان يصفهم « بالحرافيش » و « الزعر » ، لأنه ما كان يصدق ، أو يتوهم ، أن هذه الحجارة والأخشاب فى أيديهم ستغنى أقل غناء ، فى مقاومة المدافع والقنابل فى يد الجند القوى المدرب ، ولكن الإيمان الذى كان يغمر القلوب ، جعل هؤلاء الزعر والحرافيش ، يحيلون حياة هذا الجند إلى جحيم ومحنة متصلة ، حتى أخرجوهم من وطننا . فالإيمان القوى ، لا يعرف المستحيل ، وقد يجعل من الجنون حكمة .

ومع ذلك ، كان شعبنا ، فى هذه الفترة ، على ما فيه من صلابة وجلد ، ضعيف الثقة بنفسه ، ولا أريد أن أسترسل فى ذكر الأسباب والعوامل . بل أذكر بعض الشواهد ، التى تبرز هذه الظاهرة وتوضحها .

أراد نابليون ، بعد دخوله القاهرة ، فى ٢٤ يوليو سنة ١٧٩٨ ، أن يختار بعض المصريين للوظائف الكبيرة ، وكان قد وعدهم فى منشوراته من قبل أن يفعل ذلك ، فلما تم اختيار « أعضاء الديوان » الذين يسند إليهم التصرف فى شئون الحكم المدنية ، طلب إليهم الفرنسيون ترشيح بعض المصريين للمناصب الكبرى ، كمحافظ القاهرة ، ورئيس الشرطة فيها — الحكمدار — وأمين الاحتساب — أى المسئول الأول عن التموين والأسعار ، وكانت هذه الوظائف وأمثالها فى يد المماليك والأتراك . ولكن أعضاء الديوان لم يقبلوا وكانوا تسعة من كبار المصريين ، هم المشايخ : عبد الله الشرقاوى ، وخليل البكرى ، ومصطفى الصاوى ، وسليمان الفيومى ، وموسى السرسى ، ومصطفى الدمنهورى ، وأحمد العريشى ، ويوسف الشبراخيتى ، ومحمد الدواخلى .

لم يرض هؤلاء الـكبار المصريون ، ترشيح مصرى لهذه الوظائف . وقالوا إنه لا يصلح لها سوى الأتراك والمماليك . واختار أعضاء الديوان هؤلاء بعض الأتراك والمماليك لهذه الوظائف . فأسندها إليهم الفرنسيون .

وخرج القاضى التركى ، إبراهيم أدهم افندى ، عن طاعة نابليون ، مع أمير الحج المصرى مصطفى بك . فاختار الجنرال دوجا ، فى غيبة نابليون إلى الشام ، ابنه ملازاده ليكون قاضياً بدله . فلما عاد نابليون إلى القاهرة ، لم يرض مافعله دوجا . فحبس ملا زاده فى القلعة . وطلب إلى العلماء وأعضاء الديوان أن يختاروا قاضياً « مصرياً » تـكون له السلطة العليا على قضاة مصر وأحكامها . بدلاً من ذلك القـاضى التركى الذى كانت ترسله لهم الدولة . وكان نابليون قد علم بخروج جيوشها مع الجيوش الانجليزية ، لحربه فى مصر . فأراد أن يحارب نفوذها الدينى فيها بحرمانها من اختيار القاضى وتعيينه . وهو بذلك يترضى عواطف المصريين أيضاً .

ولـكن هذا الإغراء لم يكن مرغباً للعلماء ليختاروا عالماً « مصرياً » للقضاء . بل تمسكوا بملا زاده ، ليبقى قاضياً ، وهو فتى صغير ، غير ذى خبرة ولا قدرة . وتشفعوا عند نابليون ليطلق سراحه . ويبقيه حيثما اختاره دوجا ، ولـكن نابليون رفض رجاء العلماء وحتم عليهم أن يختاروا ، بالاقتراع ، مصرياً ليكون قاضياً للقضاة . وكانت نتيجة الاقتراع ، بعد ذلك ، بعيدة عن أن تجىء بمصرى . فقد اختير الشيخ أحمد العريشى . وكان سـورياً من خان يونس ، قدم إلى القاهرة والتحق بالأزهر .

وأخرج المصريون جيش نابليون من وطنهم . ثم أخرجوا خورشيد باشا ، الوالى التركى الذى رفض أن يقبل عزلهم له ، وقال إنى وليت بأمر السلطان فلا أخرج بأمر « الفلاحين » . واختاروا « سرشسمة » محمداً علياً والياً على مصر . وأراد هذا ، فى أول حكمه ، أن يختار زعيم مصر عمر مكرم نائباً له . ولكن السيد عمر لم يقبل . وكان يستطيع فى ذلك الوقت أن يكون نائباً لمحمد على . وأن ينزعه من الولاية بعد ذلك عند ما يشاء . بقوة هذا الشعب الذى اختاره ، وولاه ، ونصره .

حياة المرأة

كانت الحياة السياسية · والاجتماعية ، والاقتصادية ، فى هذا العصر ، يعتورها —كما رأينا — كثير من القلق والاضطراب والبعد عن الاستقرار · وكانت الحياة الفكرية والأدبية — فى جملتها — على ما رأينا من التخلف والخضوع لطائفة من التقاليد الضارة والأوهام والجهالات · ويجب ألا ننسى أيضا عامل البيئة وما كان فيها من حجر على المرأة . ولكن هذا كله ، لم يمنع ظهور طائفة من النساء نالت من المكانة الاجتماعية حظا عظيما . وكان بعضهن له أثر ، قليل أو كثير ، فى مجرى الأمور العامة .

وقد عاشت فى مصر ، فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر ، سيدة من أعظم السيدات فى تاريخها هذا الذى نسجله . بل لعلها ، فى شجاعتها ، وقوة شخصيتها ، ونفسها الكبيرة ، أعظم من كثير من الرجال . ولكن الخاتمة المحزنة ، التى ختمت بها حياة قومها من المماليك ، الذين غدرهم محمد على وفتك بهم فى مذبحة القلعة ، وبعدها ، هذه الخاتمة وتلك النهاية ، أسدلتا على اسمها وتاريخها سحبا كثيفة من النسيان والحجب . كما أظلّت ختام حياتها سحب كثيفة من المحن والآلام تحملتها صابرة عزيزة كريمة ، حتى ماتت .

وهذه السيدة العظيمة هى نفيسة المرادية .

نفيسة المرادية

كانت السيدة نفيسة المرادية ، زوجة مراد بك[(١)] ، جركسية الأصل من بلاد الكرج . وبدأ ظهور أمرها عندما دخلت فى حريم على بك الكبير كإحدى سراريه ، فأحبها وأعجب بها وبنى لها داراً تطل على بركة الأزبكية ، فى درب عبد الحق .

فلما انتهت حياة سيدها على بك ، تلك النهاية التى نراها فى ترجمته ، زوجها مملوكه الخائن محمد أبو الذهب إلى مراد بك وفى حياة زوجها هذا ، نالت ، فى المجتمع

---

(١) يذكر الجبرتى فى العجائب وفى مظهر التقديس زوجا أخرى لمراد ، اسمها فاطمة .

المصرى ، مكانة عظيمة . وتعرضت بسبب إخلاصها له ، وبسبب قوة شخصيتها أيضاً ، لمحنٍ كثيرة . وكانت تعرف القراءة والكتابة . ولها من الخيرات ، الصهريج الذى بنته داخل باب زويله ، وخانا . وكان لهذه السيدة مكان الاحترام والتقدير والإجلال عند العلماء ، والأمراء ، وعند الشعب أيضاً . ولما دخل نابليون القاهرة كانت لها عنده منزلة عظيمة كما كان قواده ، ورجاله كلهم ، يرعون جانبها ويجعلون لها فى تقديرهم حسابا كبيراً ، وإن كانت الأحداث الحربية والسياسية جعلتهم ، فى أوقات كثيرة، يصادرونها ، ويفرضون عليها المغارم ، ويعتقلونها. لما كانت تبديه من نشاط لا يرضون عنه .

وكانت السيدة نفيسة تعارض زوجها مراد بك ، وهو مطلق السلطان على مصر ، فى مصادرة التجار الأوربيين وإرهاقهم بالضرائب والمغارم . وكانت تبلغ من الجمال حدّا فائقاً ، حتى يقول بعض المؤرخين أن مراد بك اشترط على محمد بك أبو الذهب أن يزوجها له نظير خيانته لسيده على بك . ويبدو أنها لم تكن بعيدة عن ممارسة الشئون العامة أيضاً .

فقد نقل لا كروا ، عن المذكرات التى أملاها نابليون فى سانت هيلين . أن مراد بك لما عاد من البحيرة إلى الجيزة منهزما ، صعد إلى قمة الهرم الأكبر ، وأخذ يتبادل الاشارات مع زوجته نفيسه ، وهى فوق سطح منزلها . وتناقل الناس ذلك فى القاهرة حتى سمعت به ، فخشيت على نفسها من الفرنسيين . فذهبت إلى منزل نابليون وطلبت مقابلته ، فتلقاها بكل احترام . وأكد لها أنه لا يحفل بهذه التهمة التى وجهت إليها . وأنها لو أرادت الاجتماع بزوجها لما تردد فى مهادنته يوما وليلة حتى يلتقيا .

ولعل نابليون أراد بهذه المجاملة ، أن يتخذ من السيدة نفيسة وسيلة للتأثير على زوجها ليقبل الصلح .

ومما يدل على مكانة هذه السيدة ، أن الحكومة الفرنسية أهدت إليها ، قبل حملة نابليون ، ساعة ذهبية مرصعة بالماس اعترافا بأعمالها الجليلة ، وتقديرا لها . وأن

ديجنت كبير أطباء الحملة الفرنسية ، عندما ألف كتابه باللغة العربية، عن مرض الجدرى فى مصر ، أهدى إليها خمسين نسخة منه .

ولما دخل الفرنسيون القاهرة وفر زوجها مراد بك إلى الصعيد . لم تهرب معه ، وبقيت فى قصرها ، وبسطت حمايتها على كثير من نساء المماليك المنكوبين ، وواست كثيرين من الفقراء ، ومن الذين نـكبوا فى حرب الفرنسيين من أهل القاهرة . ودفعت كثيراً من المغارم التى فرضها الفرنسيون على المصريين ، فلم يستطع كثيرون منهم دفعها . ونالت بذلك احترام المصريين والأجانب .

وفرض الفرنسيون على نساء البكوات ، ونساء أتباعهم ، نصف مليون فرنك ، فقدمت السيدة نفيسة الساعة التى أهدتها لها الحـكومة الفرنسية من حصتها فى الغرامة . فقدرت بأربعة وعشرين ألف فرنك ، وقدمها إلى نابليون أحد رجاله ، فأهداها إلى صديقته بولين فوريس .

وكانت للسيدة نفيسة ثروة عظيمة ، كما رأينا أول هذا الفصل . أقامت يوما لبعض رجال نابليون مأدبة فى دارها . وعند انصرافهم ، بعثت معهم بخاتم ثمين مرصع بالجواهر الغالية ، هدية إلى أوجين بوهارنيه « ابن جوزفين زوجة نابليون » . وكانت قيمة هذا الخاتم كبيرة إلى درجة أغرت الفرنسيين على أن يفرضوا عليها ضريبة فادحة . بدل أن يحمدوا لها مجاملتها وهديتها . فلما شكت إليهم ذلك ، قالوا إن من عنده مثل هذا الخاتم ، يستطيع أن يدفع أكثر مما فرض عليك .

وإقامة نفيسة المرادية لمثل هذه المأدبة ، تدل على أنها كانت سيدة مجتمع ، بالمعنى الذى يعرفه الناس فى عصرنا هذا .

وقد بقى نابليون ، بعد خروجه من مصر ، وبعد أن أصبح امبراطورا ، يذكر هذه السيدة . حتى إنه بعث ، وهو فى قمة مجده ، أمرا إلى قنصل فرنسا فى مصر ، بأن يبذل كل جهده لحمايتها ، ورعاية أمرها . وكان ذلك فى عهد محمد على .

وعندما قبل مراد أن يفرضه نابليون حاكما على الصعيد ، تحت الراية الفرنسية ، رتب للسيدة نفيسة ، فى كل شهر مائة ألف فضة . وبقيت تنال هذا المرتب من الفرنسيين ، حتى مات زوجها .

وقد لقيت السيدة نفيسة محناً كثيرة . وتعرضت لمخاطر جمة ، بعد هزيمة زوجها وفراره، فى سبيل حماية زوجات المماليك ، الذين كانوا يحاربون معه . ولعلها بذلك كانت تثير فيهم روح العناد والمقاومة . وتبقى على إخلاصهم لزوجها ، ومعونتهم له .

يقول الجبرتى : فى حوادث شهر ربيع الثانى من سنة ١٢١٣، إن الجنرال دبوى قائمقام نابليون ، أرسل يطلب إليها أن تحضر زوجة عثمان بك الطنبرجى — من كبار المماليك أنصار زوجها . وقد اختاره الفرنسيون كبيرا على الأمراء المرادية بعد وفاة مراد بك — وكان السبب الذى جعل دبوى يطلب إليها ذلك . أنهم ضبطوا تابعا لها يقوم بالسفارة بينها وبين زوجها ، وأنها طلبت إلى تابعها هذا أن يحمل إلى زوجها ثيابا ، وأموالا . فلما سمعت السيدة نفيسة ما طلبه دبوى . أرسلت إلى العلماء تستنجدهم فحضر إليها منهم الشيخان محمد المهدى ، وموسى السرسى . ولكنهما لم يستطيعا منعها من تلبية ما أمر به القائد . فذهبا معها إلى دبوى ، ليحضرا سؤالها . فلما انتهى النهار طلب إليه الشيخان أن يأذن لها بالذهاب إلى بيتها على أن تعود فى الغد ، فلم يأذن . فقالا له : — دعها تذهب ونحن نبيت بدلا منها ، فرفض . فلما عجزوا ، تركوها فباتت عند الفرنسيين . ومعها جماعة من النساء المسلمات ، والإفرنجيات . وفى اليوم التالى ، ذهب العلماء إلى القاضى ، وكتخدا الباشا ، وذهب الجميع إلى نابليون فحدثوه فى شأنها . فأمر بإحضارها ، وأطلق سراحها ، فخرجت مع القاضى وذهبت إلى منزلها . ولم يستطع دبوى أن يثبت عليها دعواه . ولكنهم فرضوا عليها ثلاثة آلاف ريال

وبعد ذلك نادى الفرنسيون على زوجات الأمراء ، بأن يظهرن مخبئات أزواجهن ، أو يصالحهن على أنفسهن . فصالحت السيدة نفيسة ، على نفسها ، وعلى نساء الأمراء من أتباعها ، بمائة وعشرين ألف ريال . وتشير بعض وثائق الحملة الفرنسية إلى أن ما فرض على السيدة نفيسة ، من الغرامات ، بلغ ستمائة ألف فرنك .

ومات مراد ، ثم خرج الفرنسيون من مصر . فبدأت الأيام تميل بهذه السيدة العظيمة . حيث عاد الأتراك إلى السيطرة على القاهرة ، ونفوسهم مملوءة بالحقد والموجدة على المماليك . فنالها من ذلك الحقد شر عظيم . وكلما رأى الأتراك منزلتها

باقية فى نفوس العلماء والناس ، ومحبتهم لها لم تتأثر بفقد زوجها وتغير الأيام عليها ، كلما أمعنوا فى الأساءة إليها وامتهانها .

وكان أحمد باشا خورشيد ، أشد هؤلاء الولاة من الأتراك قسوة عليها ، وغلظة معها . ولكنها عرفت كيف تقف أمامه شامخة مرفوعة الرأس . بل عرفت كيف تخزيه وهو صاحب الحكم والسلطة المطلقة ، وهى سيدة هزم زوجها ومات ، وتركها مهيضة الجناح . ليس لها قوة ، إلا قوة نفسها ، وعظمة شخصيتها .

يقول الجبرتى ، فى حوادث اليوم الحادى عشر من شهر رجب سنة ١٢١٩ ، إن خورشيد باشا أرسل الوالى والمحتسب إلى بيت السيدة نفيسة وطلبها إليه . فذهبت معهما ، ومعها امرأتان ، فأصعدهن إلى القلعة . فلما دخلت السيدة نفيسة على الباشا قام إجلالا لها ، وأجلسها . ثم تحدث إليها لائما ، ومتهما . فقال إن جارية لها ، اسمها منوّر ، كانت تتحدث إلى بعض أصحاب النفوذ ليسعى فى خلاص المماليك ، ومعونتهم ، وكانت تعِده وتمنيه بالأموال ليقبل رجاءها . فقالت له نفيسة ، إن ثبت أن جاريتى فعلت ذلك ، فأنا المأخوذة به ، دونها ، فأخرج الباشا من جيبه ورقة يشير بها اليها . كأنما يريد أن يفهمها أنها دليل التهمة . فقالت له أرنيها حتى أقرأها . فإنى أستطيع أن أقرأ ، فأدخلها فى جيبه .

فقالت له السيدة : لقد عشت فى مصر هذا الدهر الطويل ولى من المنزلة والمكانة ، ما يعرفه الكبير والصغير . « والسلطان ، وعظماء الدولة رجالا ونساءاً ، يعرفونى ، ويعرفون قدرى . حتى الفرنسيون ، أعدائى وأعدائك ، لم أر منهم إلا التكريم والاحترام . أما أنت فلم يوافق فعلك فعل أهل دولتك ولا غيرهم . ثم قالت له : — لأى سبب تخرجنى من بيتى وترسل إلىّ الوالى لأحضر إليك .. ؟ » فأخذ خورشيد باشا يتلطف معها فيقول : إن الوالى هو أكبر رجالى ، وقد أرسلته إليك من باب التكريم والتعظيم : ثم اعتذر إليها وطلب منها الذهاب إلى بيت الشيخ السحيمى بالقلعة ، فذهبت وبقيت عنده فى حراسة من الجند . فلما عرف الناس ذلك حزنوا ، وانزعجوا . وركب القاضى ، والسيد عمر مكرم ، والشيخ السادات ، والشيخ الأمير ، وغيرهم ، يقصدون خورشيد باشا . فلما تحدثوا إليه فى أمرها ، قال لهم إنى أنزلتها بيت

الشيخ السحيمى ، مكرمة ، حسما للفتنة . ثم ذكر لهم ما تحدث إليها فيه من أمر جاريتها ، منور . فحاجّوه فى ذلك ، ثم اختلا بها الشيخان الفيومى والمهدى يسألانها، فأنكرت ، وقالت إنه يريد أن يصادرنى فى مالى ، ولم يبق لى مال . ثم عادوا إلى خورشيد باشا ، وخاطبه الشيخ الأمير خطابا شديداً . ونفر من مجلسه مغضبا ، فاستبقاه خورشيد ، وانتهى الأمر على أن يأذن لها فى البقاء فى منزل الشيخ السادات .

ولم ينته الشهر نفسه ، حتى أرغمها خورشيد على دفع ما يريد من المال . كما أرغم نساء المماليك أيضا على مثل ذلك . حتى باع أكثرهن متاع بيوتهن .

ولقيت السيدة نفيسة ، بعد ذلك ، أشد المحن والكوارث ، على يد محمد على ، بعد أن توطد حكمه . فقد صادر ما بقى عندها من مال وعقار . وعاشت بقية أيامها فى فقر وجهد . ولكنها لقيت ذلك كله ، بصبر دونه صبر الرجال . ولم تفارقها مروءتها ، ولا شمم نفسها ، ولا إباؤها .

ومما يدل على أنها بقيت شامخة النفس ، حتى بعد هذه المحن والكوارث ، ما رواه الجبرتى عن موقفها من زوجة محمد على ، عند ما جاء بها زوجها إلى مصر ، أول مرة .

ففى صبح يوم الأربعاء السادس عشر من ربيع الثانى سنة ١٢٢٤ ، وصلت زوجة محمد على ، ومعها ابنها إسماعيل وكثير من أهلها وأهل زوجها . وكان ابنها إبراهيم قد ذهب لملاقاتها فى الإسكندرية . وعند وصولها إلى القاهرة ، خرج محمد على لملاقاتها فى ساحل بولاق . وأمر نساء المماليك بالنزول لملاقاتها أيضاً . فذهبت منهن نحو خمسمائة ، يركبن الحمير ، واعتذرت نفيسة المرادية من الذهاب لملاقاة زوجة محمد على ، متعللة بالمرض .

وقد يفهم من سياق ما ذكره الجبرتى بعد ذلك ، أن محمداً عليا لم يقبل عذرها ، وأرغمها على النزول لملاقاة زوجته .

وماتت نفيسة المرادية عجوزا ، فقيرة ، عزيزة ، بعد أن كانت ملكة على مصر ، يوم الخميس ، العشرين من شهر جمادى الأولى سنة ١٢٣١ [آخر أبريل ١٨١٦م]

فى بيتها الذى بناه لها على بك . وبعد موتها استولى محمد على على هذا البيت ، وأسكن فيه بعض أكابر دولته .

وقد ظلت هذه السيدة العظيمة ، حتى فى أيام محنتها ، ترعى بمعروفها وبرها ، أسراً كثيرة أعنتها الدهر بعد يسر .

ومن المواقف الكريمة ، التى يسجلها الجبرتى لنساء ذلك العصر ، ما فعلته زوج إبراهيم بك ، بعد موته . فقد أبى عليها وفاؤها أن تتركه ، بعد موته ، يدفن فى غير قبره الذى أعدته له . فاستأذنت محمدا علياً فى أن ترسل إحدى نسائها إلى دنقلة ، حيث مات ، فتحضر جثمانه ، فلما أذن محمد على لها فى ذلك ، سافرت المرأة فحضرت به فى تابوت ، بعد موته بستة أشهر . وأقامت له زوجه ، عند حضوره ، جنازة . وكفارة ، ودفنته إلى جوار ابنه وابنها مرزوق .

ويقول الجبرتى إنه سمع أن محمدا عليا أعان زوجة إبراهيم هذه ، على إحضار جثمانه . فأمر حكام الأقاليم بمعونة من اختارتها لإحضاره . وأعطاها ، عند سفرها قدرا من المال .

كما ذكر أن نساء العرب كن ، فى الوقائع والحروب ، يذهبن إلى ساحتها ، فيجمعن قتلاهن من الرجال ويعدن بهم إلى أهلهن .

ومن النساء اللواتى ذكر اسمهن فى تاريخ هذه الفترة ، السيدة زبيدة ، التى تزوجها الجنرال جاك منو ، بعد أن أسلم وسمى نفسه عبد الله . وزبيدة هذه كان أبوها السيد محمد البواب ، من أعيان رشيد وكان منو حاكما عليها .

ويقول الجبرتى إنها كانت قبل زواجها منه ، زوجا لرجل اسمه سليم أغا نعمة الله ، ثم طلقها . وقد تم زواجها من الجنرال منو يوم ٢٥ رمضان سنة ١٢١٣ « ٢ مارس ١٧٩٩ م » .

وبقية قصتها ، التى لم يذكرها الجبرتى ، أنها وقعت فى أسر الإنجليز عند دخولهم القاهرة مع جيش الدوله العثمانية . فطلبت من الجنرال هتشنسون ، قائد هذا الجيش ، أن يبعث بها وبولدها من منو — وكان اسمه سليمان — إلى زوجها فى الإسكندرية ،

فبعث بها إليه . وأرسلها زوجها منو من الأسكندية إلى فرنسا على إحدى السفن العائدة إليها . ثم التقى بها بعد ذلك . ولم تطب حياتها معه بعد ذلك أبداً . فقد هجرها وأساء عشرتها، وتركها فى مدينة تورينو ، بإيطاليا ، واتخذ بعض الراقصات خليلات له . وبقى ينا كدها ويسىء إليها حتى ماتت . وقد زاد الجبرتى ، فى مظهر التقديس ، أن زواج منو من السيدة زبيدة كان « غصبا من أهلها » .

أما حياة المرأة عامة . فقد كان من الطبيعى ، فى مثل هذه الحياة القلقة التى كانت تعيش فيها مصر معظم هذه الفترة التى أرخها الجبرتى ، كان من الطبيعى أن يقع ظل من القلق على حياة المرأة عامة .

فكان مألوفا ، فى كثير من الأوقات ، أن يستولى الغالب من المماليك ، أو الجند ، أو الرؤساء ، على زوجات المغلوبين وسراريهم . سواء رضين أم كرهن . ونرى ، فى بعض الأوقات أنهن — وهن حرائر — يبعن بيع الإماء ، أو يهدين إلى أصحاب النفوذ . وأحيانا كان الأفاقون من الجند يستولون على زوجات الأمراء ، بعد هزيمتهم . كما يستولون على بيوتهم ، بالقهر والغلبة .

وكان نساء القاهرة يرغبن رغبة قوية ، فى الزواج من المماليك . ويأبين ، إباءاً شديدا ، الزواج من الأتراك العثمانيين . مهما يكن لهم من ثروة ونفوذ .

يقول الجبرتى إنه لما بدا من محمد على ميل إلى صلح الألفى ، وبدأ مماليكه يظهرون أنفسهم ، بعد التخفى ، ظهرت كذلك كثيرات من نساء المماليك ، يتنافسن فى الزواج من الألفية . وكن يقدمن لهم الكساوى ، ويؤثثن لهم البيوت ، وينفقن النفقات الكثيرة لييسّرن لهم الزواج منهن . وكان ذلك يثير الغيظ فى نفوس الأتراك . « فإن العظيم منهم كان إذا خطب أدنى امرأة ، ليتزوج بها ، فلا ترضى به ، وتعافه ، وتأنف قربه . وإن ألح عليها استجارت بمن يحميها منه ، وإلا هربت من بيتها واختفت شهوراً . وذلك بخلاف ما إذا خطبها أسفل شخص من جنس المماليك أجابته فى الحال » .

وكانت لبعض نساء المماليك شخصية كبيرة ونفوذ غالب . من ذلك أن زوجة الأمير على بك قطامش ، تزوجت بعد موته مملوكا لها ، بعد أن أعتقته ، ثم ولته صنجقا . فكان يسمى « صنجق ستّه » . وكان لهذه السيدة من زوجها قطامش بك أمير اسمه عمر بك .

وكانت المرأة ، فى ذلك العصر ، تعرف التظاهر ، والتجمهر ، والتحريض على الاضراب . بل استعمال العنف مع الرجال ، فى سبيل الدفاع عن مصالحها .

ففى الخامس من شهر ربيع الأول سنة ١٢٢٩ ، قدم إلى الجامع الأزهر جمع كبير من النسوة اللاتى لهن أراض بالالتزام عند محمد على . فلما دخلن الجامع صرخن فى وجوه العلماء ، وأبطلن دروسهم . ومزقن أوراقهم ومحافظهم ، وبدّدن كتبهم « وملازمهم » . فتفرق العلماء وذهبوا إلى بيوتهم . وعند ذلك انصرفت النساء ، وهن يقلن : سنجىء كل يوم ونبطل الدروس ، ونمزق الكتب . حتى ننال حقوقنا . وكان من أثر مظاهرة النساء ، واعتدائهن على العلماء ، أن طلب نائب محمد على بعض المشايخ ليعرف منه ماذا أغضب النسوة حتى فعلن ذلك . ونجد ، فى حوادث ذى القعدة من سنة ١٢١٧ ، مظاهرة أخرى للنساء فى الأزهر ، أبطلن فيها دروس العلماء .

ونرى للنساء أيضاً ، غير هذه المظاهرة ، بعض أنواع من المشاكة فى الأمور العامة ، نجدها فى صفحات أخرى من الكتاب .

وفى المحرم سنة ١٢٠٠ ، صدر أمر بمنع النساء من الجلوس أمام حوانيت الصاغة والأسواق ، إلا بقدر الحاجة . ولم يقل الجبرتى هل كانت النسوة اللواتى يجلسن ، يمارسن التجارة ، أم كن مشتريات يطلن الجلوس .

ونجد لبعض النساء ذكرا فى فعل الخير . فالأميرة الحاجة صائمة ، زوج الأمير أحمد كتخدا عزبان ، أنشأت صهريجا فى حارة الشبراوى ببولاق . قريبا من مسجد أبى العلاء ، ووقفت عليه ، فى سنة ١١٢٨ . قدرا من المال ، والغلال فى كل عام

والأميرة آمنة خاتون ، بنت الأمير حسن جوربجى مستحفظان ، وقفت قسما من أملاكها ، فى سنة ١١٤٢ على جامع الكخيا ، الذى أنشأه زوجها الأمير عثمان كتخدا القازدغلى .

وكان إهداء خاتم للفتاة عند خطبتها ، من العادات المألوفة فى ذلك العصر .

وقد تأثرت المرأة القاهرية ، إلى حد غير قليل ، من الناحية الخلقية ، بوجود الفرنسيين فى مصر . وسنرى ذلك عند الكلام على أثر الحملة الفرنسية فى الحياة الاجتماعية .

وكذلك نرى ، عند الكلام عن هذه الحملة ، أن نساء الأسكندرية والقاهرة والريف . حاربن ضد نابليون حربا عنيفة واشتركن ، بقسط غير قليل ، فى شرف الدفاع عن أرض الوطن .

وفى صفحات متناثرة مما كتبه الجبرتى نعرف ، عن غير قصد منه ، بعض مظاهر الحياة الاجتماعية ، والاقتصادية الأخرى . نعرف مثلا أن أطباء من الأوربيين كانت لهم عيادات يمارسون فيها العلاج فى القاهرة . وكانت لهم فيه شهرة كبيرة . فهو يقول فى حديثه عن يوسف باشا حاكم الشام المعزول ، الذى استجار بمحمد على ، إنه فى آخر عمره ، أصيب بداء الصدر . فقصد إلى الأطباء الأفرنج يطبُّون له ، ويطالع فى كتب الطب ، مع بعض الأزهرين الطلبة من المجاورين . ويقول أيضاً إنه فى يوم الأحد العشرين من جمادى الثانية سنة ١٢٣٢ ، طاف فى شوارع القاهرة منادٍ أعمى ، يقوده آخر ، يقول فى ندائه إن من كان مريضا ، أو به رمد ، أو جراحة ، فليذهب إلى خان بالموسكى ، فيه أربعة من حكماء الأفرنج يداوونه ، من غير مقابل . فتعجب الناس من ذلك وتناقلوه وسعوا إلى هؤلاء الحكماء . وقد ذكر الجبرتي كيفية الدخول إلى هذه العيادة الطبية ، والطريقة التى كان يسلكها الأطباء الأربعة فى الكشف على المرضى وصرف الدواء لهم . وقال إن الناس استراحوا لهم ولطريقتهم . ولم يكونوا يأخذون من المريض إلا ثمن الدواء . وهو قليل ، بين قرش ، وخمسة . ثم تعرض لغيرهم من الذين « يدعون التطبيب » من الإفرنج أيضا ، فقال إنه إذا دعى أحدهم

لعلاج مريض . فأول ما يبدؤه ، قبل نقل قدمه ، الدراهم ، بحسب ثروة المريض .

وبعد الزيارة يطلب قدراً من المال ، فى نظير العلاج ، وربما هوّل على المريض مرضه ، ليزيد فى أجره ، فاذا تم الاتفاق على أجر العلاج ، طلب الطبيب نصفه مقدماً . ثم يفرض لنفسه أجراً على كل زيارة لمريضه . ثم يعالجه بعد ذلك بما استحدث عند الأفرنج من الأدوية . يقدمها إليه بأسماء أفرنجية ، فى قوارير الزجاج اللطيفة المنظر . فإن شفى الله المريض ، أخذ الطبيب بقية أجره . وإن مات ، طالب الورثة به ، فإن جادلوه ، قال لهم إنى لا أضمن أجله ، وليس على الطبيب منع الموت ، ولا تطويل العمر . وكانت تعرف أيضاً التذكرة الطبية « الروشتة » .

ومن كبار الأطباء الذين كانوا فى القاهرة ، قبل الحملة الفرنسية ، طبيب سويدى ، هو مسيو لمار ، الذى اختاره نابليون عضواً فى الديوان الثانى . ضمن الأعضاء الأوربيين .

ويذكر الجبرتى الشهور الإفرنجية ، بأسمائها المعروفة عند أهل الشام ، ويسميها الشهور الرومية ، فيقول شهر آيار ، عن شهر مايو . ونجد أهل القاهرة ، مثل أهل الريف ، يؤرخون ، فى بعض الأحيان ، بالتاريخ القبطى .

وكان أهل القاهرة يأكلون ، فى عيد الفطر ، السمك المملح ، كما هى عادة كثيرين منهم إلى الآن . وكانت شوارعها تكنس ، وترش بالماء . حتى قبل قدوم نابليون وأمره الناس بذلك ، كما كانت تضاء فيها الفوانيس ليلا . ولكن ظروف الناس ، فى بعض الأحيان ، كانت تجعلهم لا يحرصون على ذلك ، ولا يلتزمونه .

وكانت بعض الصناعات التى تتصل بالحرب ، ما تزال باقية فى مصر . فهو يترجم ، فى الجزء الأول ، للأسطى إبراهيم السكاكينى ، ويقول إنه كان ذكياً ، متقناً متفنناً . يصنع السيوف والسكاكين ، ويجيد سقيها ، وجلاءها ، ويصنع قراباتها ،

ويسقطها بالذهب والفضة . ويصنع المقاشط الجيدة، والبركارات . وكان حانوته بجوار جامع المرداني في حي الدرب الأحمر . ومات في سنة ١١٧١ .

وكانت توجد مصانع للذخيرة ، تصنع في بعضها المدافع والقنابل . فهو يقول عن حروب محمد بك أبو الذهب في الشام ، إنه أخذلها مراكب الذخيرة والجبخانة والمدافع والقنابر — القنابل — والمدفع الكبير المسمى «أبو مايله» «الذي سبكه في العام الماضي» . ولعل سبب هذه التسمية أنه كانت له « ماسورة » مائلة .

ونعرف مما ذكره الجبرتي ، عرضا ، أن المحلة الكبرى كانت مدينة صناعية في ذلك الوقت . وكانت مشهورة بالمنسوجات القطنية ، كما هو شأنها الآن ، وكانت تنسج فيها أيضا مقاطع الحرير ، والأمتعة . وكانت المحلة هي عاصمة إقليم الغربية .

كما نجده يسمي الميدان الذي يعرف الآن «بالعتبة الخضراء» العتبة الزرقاء . وكانت توجد محكمة كبيرة في القاهرة، ومحاكم أخرى يسميها « المحاكم الخارجة » في باب الخلق ، وبابسعادة ، وبابالشعرية ، وباب زويلة ، وطيلون، وبابالفتوح، وقناطر السباع ، وبولاق ، ومصر القديمة .

الأثر الأجتماعى للحملة الفرنسية

وهناك فترة قصيرة من هذا الزمن الذى أرخ له الجبرتى . كانت ذات أثر كبير فى حياة مصر الاجتماعية . بل فى جميع نواحى الحياة فيها . ولكننا نقتصر على موضوعنا فى الأثر الاجتماعى والفكرى . وهذه الفترة القصيرة ذات الأثر الكبير ، هى فترة الأحتلال الفرنسى لمصر .

وكما أنى لن أذكر جميع نواحى الحياة التى تأثرت بدخول الفرنسيين مصر ، وإقامتهم فيها . كذلك لن أذكر جميع الآثار الفكرية والأجتماعية لذلك . بل أذكر تلك التى أدركها الجبرتى وسجلها . حتى لا أبعد عن موضوع الكتاب .

على أن الجبرتى سجل من آثار هذه الحملة الفرنسية، فى حياة مصر الاجتماعية، شيئاً غير قليل ، لا فى كمه ولا كيفه .

ذكر من هذه الآثار أشياء مدح بها الفرنسيين ، وشكرها لهم ، وأثنى عليهم فيها . وذكر لهم أشياء عابها عليهم ، أو عاب على أهل وطنه من المسلمين ، أو من المصريين ، أن يتأثروا بها ، وأن يقلدوهم فيها . وذكر أشياء لمجرد التسجيل والرواية . لم يمدح ولم يقدح ولم يبد رأياً .

المرأة المصرية

وكان أبرز هذه الآثار التى سجلها الجبرتى ، ما تأثرت به حياة المرأة المصرية أو القاهرية ، بوجود الفرنسيين فللفرنسيين فى هذه الناحية تقاليد اجتماعية فيها كثير من التسامح والتلطف لم تعرفه الحياة المصرية ، فلما عرفته كان لها على النساء ، والرجال أيضاً ، إغراء شديد .

عرفت القاهرة الخلطة العلنية بين الرجل والمرأة . فقد أنشأ الفرنسيون متنزها ، ، فى غيط النوبى ، بالأزبكية ، وصفه الجبرتى بأنه « أبنية على هيئة مخصوصة منتزهة ، يجتمع بها النساء والرجال للهو والخلاعة ، فى أوقات مخصوصة . وجعلوا على كل من يدخل إليه قدراً مخصوصاً يدفعه . أو يكون مأذوناً وبيده

ورقة » أى تصريح بالدخول . ومما لا شك فيه أن هذه الأماكن لم تكن قاصرة على الفرنسيين . بل كان يغشاها كذلك بعض المصريين .

وعرفت القاهرة ، لأول مرة ، المسرح والتمثيل . وقد ذكر أن حفلاته كانت تقام فى كل عشرة ليال مرة واحدة ، لمدة أربع ساعات . يتفرجون فيها « على ملاعيب يلعبها جماعة منهم ، بقصد التسلى والملاهى » . وكان ذلك باللغة الفرنسية .

وقد لقيت هذه الحياة الاجتماعية المرحة قبولا عند أهل القاهرة . حتى إن الحاكم العسكرى الفرنسى لحى المشهد الحسينى . أباح لتابع له ، ولترجمانه — وكان واحد منهما يهودياً ، والثانى من مدينة حلب ، كان أسيراً فى جزيرة مالطة ففك نابليون أسره ، مع من كان فيها من أسرى المسلمين ، واستخدمهم فى مصر والشام — أباح الحاكم الفرنسى لتابعيه هذين أن يؤسسا « قهوة » فى هذا الحى . كان الناس يجلسون فيها إلى وقت من الليل . وأباح لهم فيها « التسلى والخلاعات » حتى فتن بها أهل المشهد الحسينى « ووافق ذلك هوى العامة . لأن أكثرهم مطبوع على المجون والخلاعة ، وتلك هى طبيعة الفرنساوية » . فصاروا يجتمعون عنده للسمر والحديث ، واللعب والمهازحة . ويحضر معهم ذلك الحاكم ، ومعه زوجته ، وكانت مصرية من « أولاد البلد المخلوعين » وفى هذه القهوة عرف الحاكم الفرنسى أن المصريين يحتفلون فى كل عام بمولد الحسين . وأنهم يخشون إقامته عام ذاك ، لوجود الفرنسيين . فأذن لهم فى أن يقيموه ، بل ألح عليهم فى ذلك ، فأقيم .

وفى حى الخليفة ، أنشأ تابع الحاكم الفرنسى قهوة أيضاً . وكان هذا التابع مولعاً براقصة . فكان يجىء بها ومثيلاتها إلى القهوة . ثم يجتمع مع كثيرين من أضرابه من المصريين « وترقص لهم تلك المرأة فى القهوة ليلا ونهاراً ، وتبيت معهم فى البيت . ويصبحون على حالهم » . ولم يكن هذا الأثر قاصراً على عامة الناس والسوقة . فقد كان لبعض الأمراء زوج اسمها « هوى » فلما حضر الفرنسيون « خرجت عن طورها » كما يقول الجبرتى ، وتزوجت نقولا القبطان .

وكان صاحب حظوة كبيرة عندهم . فلما خرج الفرنسيون اختفت . ثم عاد زوجها فأظهر العفو عنها ، حتى ظهرت . ثم قتلها خنقاً .

وكذلك تزوج كثير من الفرنسيين « بنات الأعيان » . وكانوا يظهرون إسلامهم عند العقد . ثم لبس أزواجهن هؤلاء ملابس الفرنسيات ، وسلكن سلوكهن . ونهجن نهجهن فى الحياة والمعيشة .

وقد لخص الجبرتى هذا الأثر فى حياة المرأة المصرية ، تلخيصاً واضحاً قوياً ، فى هذه السطور : — « ومنها - أى من حوادث سنة ١٢١٥ — تبرج النساء ، وخروج غالبهن عن الحشمة والحياء . وهو أنه لما حضر الفرنسيس إلى مصر ، ومع البعض منهم نساؤهم . كانوا يمشون فى الشوارع ، مع نسائهم ، وهن حاسرات الوجوه ، لابسات الفستانات والمناديل الحرير الملونة ، ويسدلن على مناكبهن الطرح الكشميرى ، والمزركشات المصبوغة ، ويركبن الخيول والحمير ، ويسوقونها سوقاً عنيفاً ، مع الضحك والقهقهة ، ومداعبة المكارية معهم ، وحرافيش العامة ، فمالت إليهم نفوس أهل الأهواء ، من النساء الأسافل ، والفواحش . فتداخلن معهم ، لخضوعهم للنساء ، وبذل الأموال لهن . وكان ذلك التداخل ، أولاً ، مع بعض احتشام ، وخشية عار ، ومبالغة فى إخفائه فلما وقعت الفتنة الأخيرة بمصر [١] ، وحاربت الفرنسيس بولاق وفتكوا فى أهلها ، وغنموا أموالها ، وأخذوا ما استحسنوه من النساء والبنات ، صرن مأسورات عندهم ، فزيوهن بزى نسائهم ، وأجروهن على طريقتهن فى كامل الأحوال . فخلع أكثرهن نقاب الحياء بالكلية . وتداخل مع أولئك المأسورات ، غيرهن من النساء الفواجر . ولما حل بأهل البلاد ، من الذل والهوان ، وسلب الأموال ، واجتماع الخيرات فى حوزة الفرنسيس ، ومن والاهم ، وشدة رغبتهم فى النساء ، وخضوعهم لهن ، وموافقة مرادهن ، وعدم مخالفة هواهن — ولو شتمته أو ضربته بتاسومتها [٢] — فطرحن الحشمة والوقار ، والمبالاة والاعتبار ، واستملن

---

(١) تجد تفصيل ذلك فى الجزء الثالث من هذا الكتاب

(٢) حذائها

نظرائهن ، واختلسن عقولهن ، لميل النفوس إلى الشهوات ، وخصوصاً عقول القاصرات[١] » .

ويشير نقولا الترك إلى ذلك أيضاً . فيقول إنه — بمقتضى شروط الصلح التى خرج بها الفرنسيون — أبيح لكل راغب فى السفر معهم أن يسافر . وأُوجب على السلطات التى حلت محل الفرنسيين فى الحكم ، أن تمكنهم من ذلك . ويذكر كثيرين ممن خرجوا معهم . ثم يقول « وتهيأ معهم عدة أنفار من عامة الناس ، ونساء كثيرات من الاسلام — أى من المسلمين — كن متزوجات للفرنساوية ، واستعدوا للسفر معهم[٢] بل يقول نقولا ما هو أصرح من ذلك وأفصح ، وهو بنصه : « وخرجت النساء خروجا شنيعاً مع الفرنساوية : وبقيت مدينة مصر مثل باريس ، فى شرب الخمر ، والمسكرات . والأشياء التى لاترضى رب السماوات » .

ولا نستطيع أن نسجل أثر الحملة الفرنسية على حياة المرأة القاهرية ، من غير أن نذكر قصة البكرية .

زينب بنت البكرى

كان السيد خليل البكرى ، أبو هذه الفتاة ، واحداً من أفراد هذه الأسرة العريقة ، ذات المكانة العالية فى المجتمع المصرى . ونجد شيئاً من حديثه فى موضع آخر من هذا الجزء . (فلما قدم الفرنسيون ، كان صديقاً لهم ، قريباً إليهم ، ملتصقاً بهم لصوقاً شديداً . عندما دخل نابليون القاهرة عائداً من غزوة الشام ، أهدى إليه خليل هذا جواداً عربياً أصيلا ، له سرج مطرز بالذهب والياقوت واللؤلؤ . وأهداه معه رستم المملوك ، الذى سافر مع نابليون وعاش معه فى فرنسا . وكان له شأن عظيم بعد ذلك فى حياة نابليون . كما أهدى البكرى لنابليون عدداً من الهجن القوية السريعة ، وعدداً من الجوارى البيض والسود ، والشيلان الكشميرى ، والأسلحة المذهبة المحلاة بالجواهر الكريمة ، والأقمشة الحريرية ، من صناعة الهند والصين ، وكثيراً من العطور النادرة ، والصندل والعود)

(١) مانقتبسه من الجبرتى ، نورده بنصه ، وبأخطائه أيضاً . وكذلك نقولا الترك .

(٢) ص ٢٢٢ من كتاب « ذكر دخول الفرنساوية ، الديار المصرية والأقطار الشامية طبع باريس سنة ١٨٣٩

وقد وصف مسيو بوسليج[١] السيد خليلا البكرى فى رسالة منه إلى نابليون بأنه رجل هيَّاب ، وجل . وقد أعفاه الفرنسيون من الضرائب والمغارم التى فرضوها على أهـل القاهرة وذكره نقولا الترك على أنه من أخلص أصدقاء الفرنسيين . وقد خلع من نقابة السادة البكرية عندما عادت السلطة إلى العثمانيين .

وقال الوالى العثمانى فى تبرير ذلك : « إن الشيخ خليـل لا يصلح لسجادة الصديق » .

وكانت للشيخ بنت ، يقال إن اسمهـا زينب[٢] لا أجد فى وصفها كلمة أليق مما عبر به الجبرتى . فقد قال إنها « ممن تبرج مع الفرنسيس . وخرجت عن طورها معهم » ، وقال مؤرخون آخرون أفصح وأوضح من هذا التعبير اللبق المهذب، الذى وصفها به الجبرتى . قالوا إنها كانت عشيقة نابليون . وإنها كانت تسق الفرنسيين الخمر ، وكان أبوها يشرب معهم .

فلما خرج الفرنسيون من القاهرة . وعاد الحـكم فيهـا إلى العثمانيين ، طلبها الوالى من بيت أمها . وأحضروا أباها أيضاً . « فسألوها عما كانت تفعل . فقالت إنى تبت من ذلك . فقالوا لأبيها : ما تقول أنت . . . ؟ فقال : — أقول إنى برئ منها . فكسروا رقبتها » . أى قتلوها .

وقد خلت سجادة البكرية ، بوفاة أخيه أحمد ، ولـكنه لم يلِيَها « لما فيه من الرعونة ، وارتـكابه أموراً غير لائقة » . ولـكن الفرنسيين ولوه نقابة جميع الأشراف ، بدلا من السيد عمر مكرم .

وقد لقى خليل البكرى من قسوة الثائرين عليه ، فى القاهرة ، شيئاً كثيراً ، نجد تفصيله فى الجزء الثالث من كتابنا .

ويبدو أن أثر هذه الحياة الجديدة التى شهدها أهل القاهرة عند الفرنسيين ، كان قويا بالغ الشدة . فقد ذكر الجبرتى ، وغيره ، أن محترفات البغاء فيها كثر عددهن ،

---

(١) المدير المالى للحملة الفرنسية

(٢) يشكك على باشا مبارك فى خططه ، فى قصة زينب هذه . ولـكنه لا يذكر سبباً لهذا التشـكيك . ولعله الحرص على كرامة هذا البيت العريق .

حتى أصدر الديوان أمراً بمنع دخولهن القاهرة وضواحيها شهراً . وفرض عقوبة الإعـــدام على من تدخلها منهن ، أو من يُدخلها . وكان سبب ذلك انتشار الطـاعون .

وليس غريباً أن يكون ذلك . فقد غلبت مصر على أمرها أمام جيش نابليون . والحروب لها معـقّبات . وللجيوش غزوات ونزوات ، غير غزوات الحرب · وخاصة فى بلدٍ فيه من الفقر واضطراب الحياة ، مايجعل كل أمر هـيّناً ، وكل عسير عزيز ، من العفة والشرف ، ميسورا قريب المنال .

وليست العفة وحدها هى التى هان أمرها عند كثير من الناس ، إذ ذاك . فقد خرج بعضهم من الإسلام إلى النصرانية « لمـا رآه من تقدم من يخـدم الفرنسيس من النصارى واليهود » كما يقول الجبرتى .

وللشيخ حسن العطار بيت من الشعر ، يصف فيه حال الجنود الفرنسيين وبعض سلوكهم فى القاهرة هو : —

إن الفرنسيس قد ضاعت دراهمهم   فى مصرنا ، بين حمار وخمار

فقد كان لهم ولع شديد بركوب الحمير ، حتى ليقضى بعضهم يومه كله على ظهرها . كما كان فيهم إسراف شديد أيضاً فى شرب الخمر ، وكان بعض المصريين أو القاهريين يتأثر بذلك ، من غير شك .

فى التنظيم والإدارة

ويسجل الجبرتى شيئاً غير قليل ، من الأعمال ، أو التنظيمات ، التى كان لها أثر طيب فى حياة أهل مصر . فمن ذلك عنايتهم بالصحة والنظافة . فقد أمروا ألا يدفن أحد من الموتى داخل القاهرة ، وخصصوا لذلك أماكن فى خارجها . وأمروا بالتبليغ عن المرضى ، عند وجود وباء ، وعدم الإنتقال من مكان موبوء . ومن يخالف هذين الأمرين يقتل ، ومنعوا الناس من دخول القاهرة مدة الوباء ، ومن دخل يقتل ، ولو كان فرنسياً . وحـتّموا أن يكشف الطبيب على كل مريض ، وأقاموا حجراً صحياً فى بولاق · يتلقون فيه كل قادم للقاهرة حتى يكـشف عليه ،

فإن كان مريضاً حجز . وينقل إليه كل مريض حتى يشفى أو يموت ، وحتموا كذلك نشر الثياب ،وتطهير المنازل . حتى لا ينتقل منها وإليها الوباء . ولا شك فى أن من أكبر الدوافع لهم على إصدار هـذه القرارات ، المحافظة على سلامة جيوشهم ، ولـكن هذا لا ينفى أن المصريين رأوا ، لأول مرة ، هذه الحيطة والعناية بالصحة العامة .

وعرف المصريون ، شهادة الميلاد ، فقد أمروا بقيد كل مولود . وكذلك أمروا بتسجيل الممتلـكات ، وإضاءة الشوارع والأزقة . كل دار عليها قنديل . وكل ثلاثة دكاكين قنديل . وكان أهل القاهرة يعملون ذلك من قبل . ولـكنهم لم يكونوا حريصين عليه ولا مثابرين ، وقد كانت عناية الفرنسيين بالإضائة ، مما يعينهم على حفظ الأمن ، ويساعدهم فى مراقبة الناس ، وتحرى حركاتهم .

وكذلك أنشأ الفرنسيون إدارة خاصة لجوازات السفر ، وخصصوا ضريبة ثابتة على المواريث . أثنى عليهم فيها الجبرتى . لأن هذه الضريبة كانت ، قبلهم ، يقدرها القاضى كما يشاء . وكان فيها من الغبن والشطط والتعسف ، بل من السرقة أحياناً ، شيء غير قليل . حتى ذكر أن بعض القضاة كان يأخذ ضريبته الثقيلة . فإذا أخذها — ولا بد أن يأخذها أولا — لم يبق للورثة شيء . وكذلك فرضوا رسماً ثابتاً على الأقضية ، وخصصوا وثائق لتسجيل عقود الزواج خاصة .

ومن طيب أعمالهم التى سجلها الجبرتى ، محاربتهم التسول والشعوذة . فقد خصصوا داراً جمعوا فيه المتسولين ، وفرضوا لهم مالاً ينفق عليهم من أموال الأوقاف . وكان بعض البلهاء ، ومدعى الولاية ، يسيرون فى شوارع القاهرة ، عرايا ، يصيحون ويصرخون . مع أنهم ، كما يقول الجبرتى ، لا يصومون ولا يصلون .فسأل الجنرال منو العلماء عن ذلك، وهل هو من الدين ، فأنكروه . فأمر بالقبض عليهم جميعاً . حيث أدخل المريض منهم المستشفى ، وأخرج السليم من القاهرة .

وأنشأوا فى الديوان ماعرف بعد ذلك ، فى الحـكومات المنظمة ، «بالأرشيف». تحفظ فيه صور الشكاوى والظلامات ، وما يصدر عنه من الأحـكام . وأدخلوا

كذلك شيئاً من التنظيم الحكومى لأمن الدولة . فقد أمروا كل صاحب فندق ، أو خمارة ، أو بيت ، بأن يكتب اسم من ينزل فى محله ، أو يدخله . ويبلغ ذلك لحاكم البلد ، قبل مرور يومين ، مع بيان الجهة التى قدم منها النازل ، أو الزائر ، وسبب قدومه ، ومدة سفره ، والعمل الذى يزاوله[١] .

وتبدو واضحة ، مصلحة الفرنسيين فى ذلك .

وحارب الفرنسيون الرشوة أيضاً . فقد كثرت شكوى الناس من الضرائب وسوء تحصيلها ، وجعلها فى أيد غير مصرية . فترك الفرنسيون أمر تحصيلها « لعقلاء المسلمين » مع ضمانهم لها . على شرط أن يعفى منها النساء ، والصبيان ، والفقهاء ، والخدم ، والفقراء . وكانت الضرائب فى أيدى السابقين ، سبباً من أكبر أسباب الرشوة والظلم .

ويقول الجبرتى إنهم عندما انشأوا الديوان للفصل فى المظالم ، فرضوا لأعضائه ، ومترجميه وكتبته ، مرتبات « تكفيهم ، وتغنيهم عن الرشوة » .

وكان من أثر الحملة الفرنسية ، فى نظم الدولة العامة ، إدخال النظم العسكرية الحديثة فى الجيش . فقد بدأ الجند ، بعد خروج الفرنسيين ، يتبعون نظمهم فى التدريب ، ويلبسون ثيابهم التى يصفها الجبرتى « بالضيقة المقمّطة » . وسمى العثمانيون ذلك بالنظام الجديد . ثم سلك محمد على هذا السبيل أيضا ، بعد ذلك .

وزاد على ذلك الإفادة من علوم الفرنسيين واستخدامها . حيث يقول الجبرتى إن محمدا عليا ، وهو يشتغل بسد ترعة الفرعونية « كان يشق الجبل بألغام البارود ، مثل عمل الإفرنج »

وكذلك كان لهم أثر فى العمارة وطُرزها ، حيث يقول : إن أحد رجال محمد على أنشأ له داراً عظيمة بخطة باب اللوق ، على نسق الأبنية الإفرنجية والرومية .

وأقاموا مصانع للأدوية ، وطواحين الهواء ، وفرضوا الحجر الصحى فى خارج القاهرة ، وفى الإسكندرية ، ثم فى رشيد ودمياط .

---

(١) عن مخطوط مظهر التقديس ، بذهاب دولة الفرنسيس .

التكافل الاجتماعى والعاطفة الوطنية

وهناك أثر اجتماعى للحملة ، لم يقصد إليه نابليون ورجاله ، وإنما أوجدته الأحداث والظروف ، وهو ظهور التكافل الاجتماعى ، والشعور العام ، الذى يقرّب بين الناس ، ويجمع نفوسهم فى إحساس واحد . ونرى من مظاهر هذا التكافل شيئاً غير قليل ، فيما كتبناه عن مقاومة الفرنسيين فى الجزء الثالث من الكتاب .

ولكننا نذكر هنا أمثلة أخرى لهذا التكافل ، فمن ذلك ماسجله الجبرتى ،عند ذكره شروط الصلح التى خرج بها الفرنسيون من مصر . فقد كان منها أن يدفع المصريون نفقات سفرهم ، وهى ثلاثة آلاف كيس . وتعهد السيد احمد المحروقى، بجمعها . فكان الناس يبادرون ،مسرورين ،لدفع مافرض عليهم. لعلمهم أنه سينفق فى خروج الفرنسيين من وطنهم . أو كما يقول الجبرتى ،« كل من توجه عليه مقدار من ذلك ، اجتهد فى تحصيله ، وأخرجه عن طيب قلب ، وانشراح خاطر ، وبادر بالدفع من غير تأخير . ويقول سنة مباركة ، ويوم سعيد » . وكذلك اشترك فى دفع الضرائب التى فرضها نابليون ، المسلمون ، والنصارى ، واليهود ، والشوام ، والقبط ، والتجار الأجانب .

وكان نابليون ،عند عودته من الشام ، أحضر معه بعض الأسرى من المصريين ، وجدهم يحاربون مع أحمد باشا الجزار فى غزة ، ويافا . فأمر بإطلاق سراحهم ، بشرط أن يدفعوا قدراً من المال ، عجز الأسرى عن دفعه ، فوفّاه عنهم الناس ، وجمعوه من أموالهم .

وكذلك ظهرت عند أهل مصر العاطفة الوطنية ، وأخذت تزاحم ، أو تدافع العاطفةَ الدينية . بل نجد أنها ، وقتاً ما ، تغلبت عليها وقهرتْها . وما نجده من خروج أهل القاهرة على العلماء ، واعتدائهم عليهم ،عندما توسطوا فى الصلح بينهم وبين الفرنسيين ، ما نجده من ذلك فى الجزء الثالث من الكتاب ، فيه كفاية وغنية لإبراز ما نريد . وكذلك ما فعلوه بالسيد خليل البكرى .

وإلى جانب هذا التكافل الذى لم يقصده الفرنسيون ، وجد أثر مضادٌّ له ، قصدوه هم ، وأوجدوه . وهو التفريق العنصرى ، أو الطائفى .

فقد ألف نابليون فرقة من المغاربة، حيث جمع له واحد منهم، اسمه عمر القلقجى، كثيراً من شبابهم • اختار منهم طائفة، دربها على أصول الحرب. وجعل عمرا هذا قائدا لها. وضمها إلى جيشه. وقد حاربت فرقة المغاربة هذه، المماليك، وحاربت الثائرين من أهل مصر، مع الفرنسيين.

وكما فعل الفرنسيون بالمغاربة المسلمين، فعلوا بقبط مصر. جمعوا منهم فرقة، وأقاموا المعلم يعقوب قائداً عليها.

وكذلك ألفوا فرقة من أبناء الأروام. كان عددها — على رواية نقولا الترك — ثلاثمائة. وحاربت، بقيادة الجنرال نقولا، مع الفرنسيين، فى موقعة الرحمانية، ضد الأنجليز. ولبس هؤلاء الأروام، والأقباط، والمغاربة، ثياب الجند الفرنسى. وقد تحدثنا عن المعلم يعقوب وفرقته فيما مضى من هذا الفصل.

وكان مما فعله الفرنسيون، مما يثير التفريق العنصرى، أن جعلوا بعض النصارى، من القبط، والشوام، نظاراً على أوقاف طلبة الكتاتيب، والمقرئين للقرآن. وكذلك جعلوا منهم، محصلين للضرائب والغرامات، أوقعو بالناس، فى القاهرة والريف، كثيرا من العنت والظلم.

وقد اجتاحت القاهرة، والأقاليم، موجة من العدوان على النصارى، واليهود، ومصادرتهم. كأثر من آثار استخدام الفرنسيين لهم. وكان ذلك العدوان بعد خروجهم من مصر.

الأجانب

وأعتقد أن من أهم الآثار الاجتماعية، والسياسية والاقتصادية أيضاً، التى خلفتها الحملة الفرنسية. زيادة الأجانب فى مصر، زيادة كبيرة. وقد نقل على باشا مبارك، عن مصادر فرنسية، أن عدد سكان القاهرة، سنة دخولهم [١٢١٣ — ١٧٩٨ م]. كان مائتين وستين ألفا. وكان عدد الأجانب فيها أربعمائة « أكثرهم دخلها مع الفرنسيين » أما الأروام، والشوام، والمارون، والأرمن، فكانوا نحو اثنين وعشرين ألفا.

وليس هؤلاء الأربعمائة من الأجانب وحدهم، هم الذين دخل معظمهم

مع الفرنسيين . بل بقى كثير من جنودهم ، ورجالهم ، فى مصر ، بعد صلحهم وخروجهم منها . وبعض هؤلاء الجنود ، الذين بقوا فى مصر من الفرنسيين ، انضم إلى جيوش المماليك ، وحارب معهم فى الصعيد .

وقد ظهر أثر ذلك بعد زمن غير بعيد من خروج الفرنسيين . فإن اعتماد محمد على على الأجانب ، وعلى الأرمن والفرنسيين خاصة ، أمر معروف . ونجد فى حديث الجبرتى عن محمد على كثيرا من السخط ، لأنه جعل الدولة ، ومناصبها الكبرى ، واختار خاصته ورجاله ، من الأجانب .

الديمقراطية

ومما سجله الجبرتى أيضاً من آثار الحملة الفرنسية فى حياة الناس ، تعريفهم ، لأول مرة ، بالديمقراطية . فقد أنشأ نابليون ، وقواده من بعده ، ديواناً من المصريين والأجانب ، أو من العلماء وحدهم ، لحكم مصر عن طريقه . وكان مقر هذا الديوان بيت قائد أغا ، قرب الرويعى فى الأزبكية . وأنشأ دواوين أخرى فى كل مديرية أعضاء كل ديوان منها سبعة . وجعل اختيار أعضاء الديوان الكبير فى القاهرة ، والدواوين الأخرى ، فى الأقاليم ، بالانتخاب . وحُددت لها اختصاصات ، تتصل بالأمن ، ورعاية العدل بين الناس ، وبحث شكوى الشاكين ، ومظالمهم .

وقد أمر نابليون باستدعاء المشايخ . والوجاقلية ، أى رؤساء الجند ، فانتخبوا أعضاء الديوان الكبير . وعقد بعد ذلك جمعية منه ومن أعضاء الدواوين الإقليمية ، ليستشيرهم جميعا فى النظم التى يرون أن يسير عليها حكم البلاد ، وفى قوانينها القضائية ، والإدارية ، والمالية . وكان انتخاب الشيخ الشرقاوى رئيساً للديوان الكبير ، بالاقتراع السرى .

وقد قال الشيخ الشرقاوى إن هذا الديوان « كان فيه رحمة لأهل مصر » .

فهذه أسس الحياة الديمقراطية ، والبرلمانية . عرفتها مصر من الحملة الفرنسية . ولأمرٍ ما لم تُفد مصر منها . ولم تبق فيها . بل لم يبق منها أثر فى الحكم ، ولا فى نفوس الناس وطبائعهم .

وقد سلب الفرنسيون ، عند خروجهم من مصر ، كثيراً من ذخائرها ، وتراثها الفكرى والثقافى . كما سلبوا أموال أهلها ، أو ما بقى من أموالهم مما كان له أثر ، أى أثر ، فى حياتهم الاجتماعية .

ومن ملاحظات الجبرتى على الفرنسيين ، فى مظهر التقديس ، أنهم لا يتحرّزون من كشف عوراتهم ، ومن قضاء حاجتهم الطبيعية أمام الناس ، وعدم التطهر ، بعدها ، بالماء . وعدم التصوّن فى العلاقات بين الرجل والمرأة . وحلق لحاهم ، وشواربهم ، وإطالة شعر رؤوسهم وأجسامهم . وعدم خلعهم الأحذية فى أماكن الجلوس .

عوام أهل القاهرة

ومما سجله الجبرتى على أهل القاهرة ، أيام الفرنسيين ، ولو أنه ليس أثراً من آثارهم . أنهم ، بعد أن رجع نابليون من حملته على الشام ، « تجمع أمام داره بالأزبكية ، أرباب الملاهى ، والنساء « البطالات » وطوائف العامة ، ورعاع العالم من الحرافيش ، وأكلة الحشيش ، وملاعبى القرود ، والحواة ، والراقصات ، والخلابيص ، والمراجيح ، وغيرهم . كتجمعهم فى أيام العيد والمواسم » وبقى جمعهم هذا ثلاثة أيام . والفرنسيون فى هذه الأيام أيضاً يطلقون المدافع ، ويوقدون السواريخ والحرّاقات . ثم انصرفت جموع القاهريين بعد أن أعطاهم نابليون دراهم ، وبقاشيش .

فإذا ذكرنا ما كان بين القاهريين والفرنسيين من خصومات ، وما قام به الأوّلون من ثورات جارفة ضد نابليون وجيشه ، مما فصلناه فى الجزء الثالث من الكتاب . إذا ذكرنا ذلك ، كان هذا الذى سجله الجبرتى ، فى العجائب ومظهر التقديس ، أمراً عجيبا حقا ، لا يخلو من دلالة .

ثناء على الفرنسيين

وقد أثنى الجبرتى على الفرنسيين ، لإبطالهم السخرة ، حيث كانوا يفرضون للعمال الأجور ، ويوفونها لهم . بل كانوا يزيدونها عن الأجر المعتاد . وكانوا

يمدّونهم بالآلات التى تريحهم فى العمل ، كآلات جر الأثقال ، ونقل الأتربة .
ويريحونهم بعد الظهر . وكانت السخرة شيئاً مألوفاً جداً فى ذلك الزمن . حتى كان
العامل الذى يقع من الإعياء والجهد ، يهال عليه التراب ، ويدفن حياً . كما نرى
من حديثنا عن محمد على ، فى الجزء الثالث .

ومدح الجبرتى الفرنسيين لقتلهم الكلاب الضالة . ودقتهم فى صرف العملة
واستبدالها . حتى قال فى ذلك هذه الجملة الصارخة : — « . . لأن جميع معاملة
الكفار سالمة من الغش والنقص ، بخلاف معاملات المسلمين » .

وأثنى عليهم لحبهم العلم . وأمانتهم فى الإشتغال به . وقد ذكر أنه كان يزورهم ،
مع الشيخ السادات ، فى مساكنهم ، ويرى نقوشهم ، وصنائعهم ، وتصاويرهم ،
وغرائبهم ، فيعجب بهذا كله إعجاباً شديداً .

وتلك الصفحات التى سجل فيها وصفه لدار الكتب التى أقامها الفرنسيون ،
فى القاهرة ، وما كان فيها من المصنفات ، والكتب ، والآلات الدقيقة ، والصور ،
والرسوم . والنظام الذى وضعوه لزيارتها ، والإفادة منها لمن شاء . ووصفه لتلك
التجارب العلمية والكيمائية التى أجروها أمامه . وكيف وقف أمامها خائفاً ،
متعجباً ، مبهوتاً ، كالطفل هذه الصفحات وتلك ، من أجمل ما تضمنه كتابه ،
وأكثره طرافة وصدقاً . وقد ذكر فيها أن دار الكتب تلك ، كانت فيها صور
مرسومة للنبى محمد ، عليه السلام ، وحوله كبار الصحابة ، وللخلفاء الراشدين .
وللمعراج .

وكذلك وصفه للطائرة « البالون » التى أطلقها الفرنسيون فى سماء القاهرة .

فى الثقافة والفكر

وأعتقد أن الأثر الثقافى للحملة الفرنسية ، فى مصر . لم يكن أثراً ضعيفاً
ولولا الملابسات التى كانت سائدة إذ ذاك ، والخصومات العنيفة ، المتلاحقة بينهم
وبين المصريين . وقصر الفترة التى أقاموها فى مصر ، واضطرابها ، ولولا الفارق
الدينى أيضاً ، لولا هذا وذاك ، لأفادت مصر ، من الفرنسيين ، فوائد كثيرة ،
من الناحية الثقافية والعلمية .

ومع هذه الحوائل ، والمعوّقات كلها نستطيع أن نقول ، إن طائفة غير قليلة من سادات أهل مصر ، وكبار علمائها ورجالها ، قد تركت إقامة الفرنسيين بينهم ، وخلاطتهم بهم ، أثراً غير يسير ، فى ثقافتهم ، وفى نفوسهم . ولو أنهم كانوا يتحاشون أن يعرف ذلك عنهم . لأسباب من السهل إدراكها .

فقد عرفت مصر منهم ، لأول مرة ، المطبعة . حيث أحضر نابليون معه مطبعة تطبع باللغات الفرنسية ، واللاتينية ، واليونانية ، والسريانية ، والعربية[1] . وقرأ المصريون رسائل نابليون إليهم ، ومنشوراته ، وبياناته ، مطبوعة فيها .

وقد تأثرت ثقافة فريق من كبار القوم ، بهذه المعارف والعلوم الجديدة ، التى رأوها عند العلماء من رجال الحملة الفرنسية . والجبرتى نفسه كان ممن تأثروا بهذه المعارف والعلوم ، ولم يخف إعجابه بطائفة منها ، رغم حيطته فى ذلك وحذره . ونجد فى كتابه بعض ألفاظ فرنسية ، مثل « نو » و « مارش » ، وغيرها . وكذلك صديقه الشيخ حسن العطار ، الذى تولى مشيخة الأزهر فيما بعد . وقد كان أكثر صراحة من صديقه الجبرتى ، وأبين إفصاحاً عن تأثره بمعارف الفرنسيين وعلومهم . كما رأينا من ترجمته فى هذا الفصل .

ونجد هذا الأثر ، أو تحسّسه ، فيما كتبه شيخ الأزهر عبد الله الشرقاوى ، فهو يكتب ، لأول مرة . ويقرأ المصريون ، لأول مرة أيضاً ، كلمات الطبيعة ، والإباحية ، والكثلكة . ويعرف كلمات إنكار البعث ، والدار الآخرة ، ونبوة الأنبياء وتحكيم العقل ، والشرائع والأحكام الوضعية . يكتب الشيخ الشرقاوى ذلك فيما كتب عن « حقيقة حال الفرنساوية »[2] ثم لا نجد عنده من ذلك شيئاً من الثورة أو الغضب . بل نكاد نحس ، فيما كتبه عنهم ، شيئاً قليلا من الرضى والتقدير ، والتأثر بالخلطة والصداقة والمعرفة .

---

(١) عن نقولا الترك

(٢) ص ٧٦ من كتابه تحفة الناظرين

تصويب

وقعت فى هذا الجزء ، بعض أخطاء مطبعية . نورد تصويبها فيما يلى : —

الخطأ	صفحة	سطر	الصواب	الخطأ	صفحة	سطر	الصواب
كتخدا	٧	١٩	كتخدا	فها	١١٧	٢٠	فيها
«	«	٢٠	«	بمنع	١٢١	٢٤	يمنع
الأشـبة	١٠	٦	الأشربة	ينفض	١٢٦	١٥	ينفضن
وبلاغ	«	٧	وبلوغ	فيحضروه	١٣١	٥	فيحضرونه
إلى فى أبيه	١٢	٨	إلىٰ أبيه فى	والستون	«	٦	والستين
علىَّ	١٣	١	علىّ	واستغاثوا	١٣٦	٤	واستغاثوا
رعينا	٤٩	٦	راعينا	إذ	١٤٧	٢٤	إذا
أفقرته	٥٣	١٠	أقفرته	البر	١٥٠	١٥	البرين
غينه	٥٩	٤	غنية	الفحر	١٥١	٣	الفجر
مراد	«	١١	مرادا	الثائرين	١٥٩	٢٢	الثائرين
أكفائهم	٦١	٨	اكفائِهم	أحنبى	١٦١	٥	أجنبى
بيته	٧٣	٢٠	بيته	أن	١٦٢	٦	إن
إحوانه	٧٦	١٠	إخوانه	الهمة	«	١٠	التهمة
المطار	١٠٠	١٢	العطار	شرشسمة	١٦٥	٢٢	سرششمة
بيب	١٠١	٤	بيت	أن	١٦٧	١١	إن
يل	١٠١	١٥	بل	و الت	١٦٨	٧	ونالت
محارى	١١١	٢٤	مجارى	واحتفت	١٧٣	٢٢	واختفت
نؤرحه	١١٣	١٩	نؤرخه	حند	١٧٥	٩	جند

الفهرس

نال هذا الكتاب جائزة مجمع اللغة العربية للبحوث الأدبية عن سنة ١٩٥٥

دراسات في تاريخ الجبرتي

مصر في القرن الثامن عشر

الجزء الثاني

١ — الأزهر والعلماء
٢ — أيام المماليك

تأليف
محمود الشرقاوي

١٩٥٦

ملتزم الطبع والنشر
مكتبة الأنجلو المصرية
١٦٥ شارع محمد بك فريد (عماد الدين سابقاً)

مطبعة الرسالة
شارع حموده المعاول ٣ عابدين

مقدمة

عند ما كنت أكتب فصول هذا الكتاب ، فى أواخر سنة ١٩٥٤ ، أعلن مجمع اللغة العربية عن مسابقاته وجوائزه للسنة التالية . وكانت منها جائزة لأفضل ما يكتب عن الجبرتى ومؤلفاته . فلم أر بأساً من التقدم بهذه الدراسات التى كنت أوشكت على إتمامها .

وفى الساعة التاسعة من مساء الأربعاء ١٨ مايو سنة ١٩٥٥ [٢٥ رمضان ١٣٧٤] أقيمت فى دار المجمع جلسة علنية لإذاعة نتيجة المسابقات وتقديم الكتب المجازة . وألقى الأستاذ إبراهيم مصطفى عضو المجمع كلمة التعريف بهذه الدراسات فذكر المدارس التاريخية فى مصر منذ القرن الثامن ، ثم تحدث عن الجبرتى ، فكان مما قاله فيه : إنه « دون تاريخه فى أمانة وصدق وإنصاف . وصار فيما بعد حجة المؤرخين ومستقر ثقتهم » وإن تاريخه هذا « قدره الباحثون ، وعدوه أوثق مرجع تاريخى، وأوفاه فى تاريخ مصر ، فى الحقبة التى كتب عنها . وترجم إلى اللغات الأوربية . وعد من المراجع الهامة . وإن سر خلود كتابه أنه تحرى الحق، وآثر الصدق» ولخص الأستاذ الخصومة العنيفة التى كانت واقعة بين الجبرتى، ومحمد على. ثم قال: —

« وها نحن أولاء نرى مثلا ناطقاً بقوة الحق وسلطان الصدق . فمحمد على ، الذى أزال دولة المماليك ، وزحزح ملك آل عثمان فى مصر ، وهدده خارجها . وأسس ملكا دام مائة وخمسين سنة ، واصطنع ما اصطنع من حيلة وكيد . لم يستطع أن يسكت صرير القلم ، ولا أن يطمس نور الحق . وصدقت كلمة الله : « فأما الزبد فيذهب جفاء ، وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض . كذلك يضرب الله الأمثال » .

ثم انتقل بالحديث إلى « دراسات فى تاريخ الجبرتى » فقال : « أما المجمع فقد سن لنفسه سنة منذ سنوات . أن يوجه شباب الباحثين إلى درس تاريخنا

القريب والعصر المتصل بعصرنا . وفيه أصول نهضتنا ومنبت تكويننا . وقد أهمل ، بل جحدت آثاره ورجاله . ونسيت أعمالهم .

أعلن ، فى سنين متتابعة ، عن مسابقات فى تراجم الطهطاوى ، والمرصفى ، والنديم ، والمرتضى ، وقاسم أمين ، والشدياق . وهذه السنة كانت المسابقة فى ترجمة الجبرتى . وقد ظفرنا بترجمة له وبحث فى تاريخه قدمه الأستاذ محمود الشرقاوى واستحق التقدير والمكافأة . والأستاذ الشرقاوى كان قد صحب الجبرتى أربع سنين ، يدرس كتابه ، ويستشف منه أحوال مصر وحياتها فى عصره . ولخص ما كتب الجبرتى تلخيصاً نراه أميناً ، شاملا ، دقيقاً » . ثم شرح الأستاذ منهج الكتاب فى البحث ، ومسلكه فى الترتيب ثم قال : — « إن هذا جهد كبير ، وعمل واسع ، استحق تقدير المجمع . وزاد فى اغتباطنا به أنا أعلنا فى السنة السابقة عن مسابقة فى ترجمة السيد المرتضى الزبيدى ، أستاذ الجبرتى ومعاصره ، فلم يتقدم إلينا أحد ببحث .

وإذا كان الأستاذ الشرقاوى قد صاحب الجبرتى سنين ، وأحبه ، ورضى عمله . فإنا نرجو أن يكون من الشرقاوى المؤرخ المحقق المنصف ، كما كان السيد الجبرتى . ونبادر فنبشره أنه لن يجد إلا عكس ما لقى الجبرتى . فإنا — والحمد لله — فى طليعة عهد نرجو فيه إنصاف العاملين وحسن جزائهم » .

ثم وقف متحدث باسم المجمع فأعلن قراره وهو : « فاز الأستاذ محمود الشرقاوى بجائزة البحث الأدبى عن بحثه « دراسات فى تاريخ الجبرتى » .

* * *

ويجد القارىء فى الجزء الأول من هذا الكتاب بحثا وافياً عن المخطوطات المعروفة لكتابى الجبرتى « عجائب الآثار » « ومظهر التقديس » .

والذى جدّ بعد طبع هذا الجزء ، أن كُشف عن نسخة من عجائب الآثار مكتوبة بخط الجبرتى ، وجدت فى مكتبة المتحف العراقى ببغداد . ومخطوطة أخرى

منه ، عليها تعليقات بخط الجبرتى . موجودة فى مكتبة جامعة كمبردج .

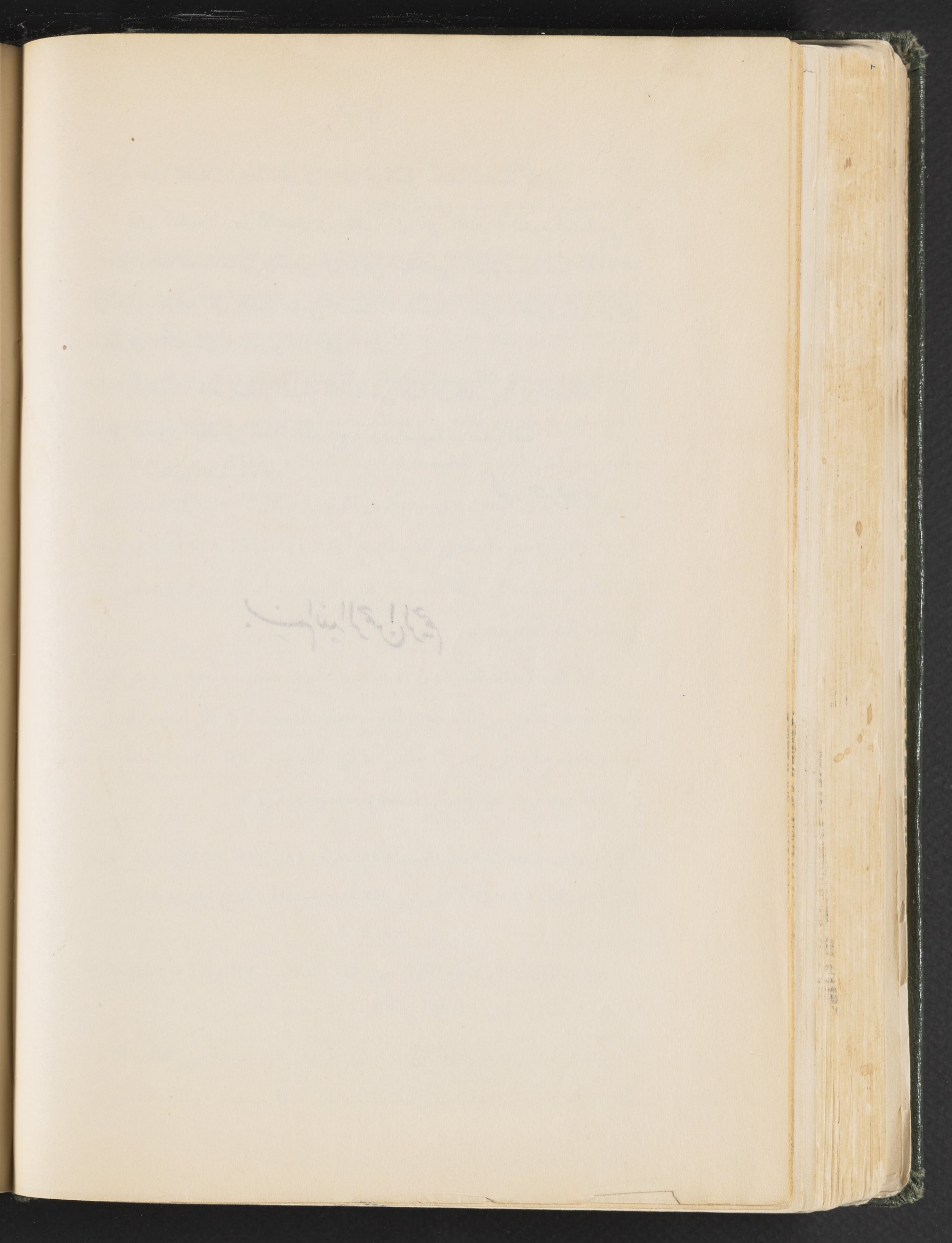
وفى كتاب « نور الأبصار فى مناقب آل النبى المختار » للشيخ الشبلنجى ، — فى ترجمته للسيد مؤمن بن حسن بن مؤمن الشبلنجى ، المولود بعد سنة ١٢٥٠ — فى هذه الترجمة أن السيد مؤمن هـذا « اختصر تاريخ الجبرتى فى جزئين صغيرين . أخذ منهما اللب وترك القشر » .

وأرجو ، عند إصدار الطبعة الثانية من هذا الكتاب ، إن شاء الله ، أن أوفق لتصوير مخطوطى بغداد وكمبردج ، ودراستهما دراسة وافية .

جمادى الثانية ١٣٧٥
يناير ١٩٥٦

محمود الشرقاوى

بسم الله الرحمن الرحيم



الفصل الأوّل

أيام المماليك

أيام المماليك

إذا ذكر المماليك تبادرت إلى أذهان الناس صفات القسوة ، والغدر والجبروت والجهل . وإذا ذكرت أيامهم ، وحكمهم ، اقترن بها ذكر الظلم ، والاستبداد ، والفوضى ، والشرّ ، وسنرى فى هذا الفصل ، هل كان المماليك ، من الناحية التاريخية الصرفة ، كلهم قساة غادرين ، جهلة ؟ وهل كانت عهودهم كلها ، وأيامهم عهود ظلم ، واستبداد ، وفوضى ؟

لا نجد ، أو لا نكاد نجد، أحداً من الناس ، ولا من المؤرخين ، يذكر المماليك بشىء من جميل الصفات ، ولا يذكر أيامهم بشىء من الخير . ولكنا سنجد ، بعد الانتهاء من هذا الفصل ، أن هذا الذى يذكره الناس والمؤرخون ليس حقا كله . وسنجد من المماليك من لم يكن قاسياً ، ولا غادراً ، ولا جاهلا . كما نجد من عهودهم وأيامهم ، عهودا كانت بعيدة ، إلى مدى غير قليل ، من أوصاف الظلم والاستبداد ، والفوضى .

ويجب أن ندرك أن هذه الصفات فى الأفراد والعهود ، أمر نسبى . فليس من العدل ، ولا من الصدق التاريخى أن ننظر إلى أفراد المماليك وأيامهم نظرة مطلقة مجردة . أو أن نخضعهم لآراء ومقاييس لم تكن معتبرة ولا قائمة فى زمنهم. ولم تكن مقررة مألوفة عندمن يحيط بهم من الناس والبلاد والحكام. بل الحق والصدق أن ننظر إليهم مقترنين بغيرهم من الناس والحكام فى عصرهم ، أو فى العهود القريبة منه . وأن نوازن بين حكمهم وأيامهم ، وحكم غيرهم من هؤلاء المعاصرين أو المقاربين . وأن نخضع الرأى فيهم لما كان معتبرا قائما من المقاييس عند الناس فى زمنهم . وإلى الروح التى كانت تسود ، إذ ذاك ، فى الحكم والسلوك

إذا نظرنا هذه النظرة المنصفة الصادقة ، ووضعنا صفات المماليك ، وسمات حكمهم إلى جنب الصفات والسمات ، التى نجدها عند غيرهم من معاصريهم . إذا فعلنا ذلك . هل نظل نعتقد أنهم كانوا مثلا للقسوة والغدر والجهل . . . ؟ وأن

حكمهم كان عنوانا على الظلم ، والاستبداد ، والفوضى ، والشر ؟

هل كان الحاكمون من الأتراك ، أو غيرهم ، أقل قسوة وغدرا وجهلا من المماليك ... ؟ هل كانت عهودهم أخف ظلماً وشراً من عهود هؤلاء ؟

لا أريد أن أسترسل ، أو أفصل فى ذكر المقارنات بين الأسماء والعهود ، فذلك يخرجنا عن حدود ما نكتب . ولكننا ، عند التأمل والتجرد من أثر ما قرأنا وسمعنا ، نجد أن المماليك لم يكونوا أكثر قسوة ولا غدرا ، ولا كانوا أمعن فى الجهل والجبروت من غيرهم . ولم تكن عهودهم وأيامهم ، أشد ظلما أو استبداداً . وما كان شرها ، ولا فوضاها ، أعم وأشمل فى عهدهم ، منها فى عهود غيرهم . بل قد نجد عند الأتراك ، وغيرهم من الحكام ، من هو أكثر جهلا ، وأشد غدراً وقسوة وجبروتا . ونجد من العهود ما هو أفحش ظلما وأعظم شرا . وأعم فوضى . ووقائع التاريخ وأحداثه ، تمدنا بأدلة كثيرة جدا على صدق ما نقول . على أننا سنجد ، فيما نكتب من هذا الفصل ، أدلة كافية أيضاً .

أمور كثيرة هى التى وضعت المماليك فى هذا الوضع . وأظهرت أشخاصهم وأيامهم كأنها ، كما قلنا ، مثل مضروب للظلم والجهل والقسوة والشر . منها أنهم تعرضوا لحملات طويلة قوية من الأتراك ، والفرنسيين . كانت قائمة على وصفهم ووصف أيامهم بهذه الصفات ، والمغالاة فيها ، والإلحاح بها . فلصق بهم ذلك من طول ما ذكروا به . ومنها أنهم كانوا على شىء غير قليل من البساطة الفكرية . أو السذاجة العقلية أو شىء من ذلك ندركه من سيرتهم وتصرفاتهم ، ولا أستطيع أن أحدده . وكان عندهم أيضاً ، قدر كبير من الاعتداد بالنفس . هذه السذاجة العقلية ، وهذا الاعتداد ، لم يدركوا معهما خطر هذه الحملات القوية التى ثار الأتراك ، والفرنسيون من بعدهم ، على توجيهها إليهم . وإلصاق هذه الصفات بهم وبحكمهم . فلم يحاول المماليك ، أقل محاولة ، لمقاومة هذه الحملات ، أو إضعاف أثرها . بل نجد فيهم من يقول ، إذا وصف بالظلم : — لسنا أكثر ظلماً من غيرنا . . . أو : إننا نريد أن نعيش . نحن وأتباعنا . ونجد فيهم من يقول إذا ذكر له أنك تأخذ بلاد الناس غصبا : البلاد بلاد الله ، ونحن خلق الله . نأخذ

من رزقه ما يكفينـا . . . ! إلى مثل ذلك من القول الذى يدل على السذاجة ، بل البلاهة ، ويدل على هذا الاعتداد الذى يقرب من الغرور .

ومن هذه الأسباب التى ألصقت بالمماليك هـذه الأوصاف الظالمة ، الهزائم التى حلت بهم أمام الأتراك ، وأمام الفرنسيين ، فقد هزموا أمام السلطان سليم ، ثم لقوا على يديه من الظلم والغدر والقسوة ما نذكر طرفا منه بعد قليل . وما سجل التاريخ منه شيئاً كثيرا . وهزموا أمام نابليون ، ثم لقوا على يديه مثل ما لقى المصريون من الظلم والقسوة . وكانت حربهم له فاشلة مخزية أساءت إلى مكانتهم وسمعتهم أعظم إساءة . ثم جاء محمد على فصنع معهم وبهم ما صنع ، حتى قضى على من بقى منهم ، بالموت ، أو بالهجرة .

وصدق الشاعر :

والنـــاس ، من يلق خيرا قائلون له ما يشتهى ، ولأم المخطىء الهبــل

وقد هزم المماليك مرة بعد مرة . وتعرضوا لحملات قوية متلاحقة ، كما ذكرنا. ثم جاء محمد على فأفناهم وقضى على نفوذهم . ولاحقهم أيضاً بتهمة الظلم والقسوة . ثم استقر الحكم فى مصر له ولأسرته ، دهراً طويلا . قرّ فيه فى أذهان الناس هذا الوصف للمماليك . وشاء كثير من المؤرخين ، مسايرة لأسرة محمد على وترضياً لها ، أن يجعلوا ذلك حقيقة لا تجادل . وكانت صفاتهم التى أشرنا إليها داعية لذمهم أيضاً . ولصوق هذه الصفات بهم كأنها حقائق لاتقبل الشك . وقديما قيل : —

ومن دعا الناس إلى ذمه ذموه ، بالحق وبالباطل

ولا أجدنى ، بعد هذا الذى ذكرت ، فى حاجة إلى القول بأنى أتحدث عن الطبقة الأخيرة من المماليك ، وهم الذين تناول الجبرتى حكمهم وأيامهم وسير كثير منهم فى « العجـائب والآثار » . أما دول المماليك الذين حكموا مصر قبل الفتح العثمانى ، والذين اصطلح المؤرخون على تسميتهم بالبحرية والبرجية . فليسوا من موضوع حديثنـا فى هذا الـكتاب . ولو أن ما قدمته فى هذه الصفحات السابقة يصدق عليهم أيضاً ، فى جملته . بل هو فيهم أكثر صدقاً .

وما أريد أن أبرىء أشخاص المماليك من صفات القسوة والغدر والجبروت والجهل جميعاً. ولا أن أبرىء عهودهم من سمات الظلم والاستبداد والشر والفوضى. بل الذى أريده والذى يؤيده الجبرتى فيما فصل من سيرهم وتاريخ حكمهم، أنه كان فيهم، كغيرهم من الناس والحكام، البر والفاجر. وكان فى أيامهم، كأيام غيرهم من الناس والحكام أيضاً، الشر والخير. وأن اختصاصهم بهذه الأوصاف والسمات. فيه ظلم كبير. وفيه بعد عن حقائق التاريخ.

وأعتقد أن الفترة التى حكم فيها مراد وابراهيم، مصر. وما اتسمت به من الفوضى والشذوذ. وما كان يتصف به مراد خاصة من الجهل، والقسوة، وقصر النظر والظلم. أعتقد أن هذا وذاك، كان من أهم الأسباب فى لصوق هذه الأوصاف بالمماليك وعهود حكمهم عامة.

وسنبدأ حديثنا عن «أيام المماليك» بذكر موجز عن هزيمتهم أمام الأتراك، ومصرع سلطانهم الشهيد طومان باى، فذلك أمر له شأن فى الحديث عنهم. وإن كان الجبرتى أوجزه غاية الإيجاز.

سليم وطومان باى

لم تفقد مصر استقلالها، وعظمتها، أمام الغزاة الأتراك، إلا بعد أن رويت سهول الشام وأرض مصر من دم أعدائها وأبنائها على السواء. فى خمس من المعارك الكبرى الدامية. وبعد أن استشهد سلطانها الطيب، الغورى، فى موقعة «مرج دابق[1]» بجوار حلب. وبعد أن أثخنت جيوشها فى حرب الغزاة، وكادت أن تقهرهم. حتى هم السلطان سليم نفسه أن ينكبّ على وجهه فراراً من سيوفهم ومدافعهم. ونجاة بحياته. وقد قتل فى معركة واحدة من هذه المعارك الخمس، عشرة آلاف محارب.

لم تفقد مصر استقلالها، وعظمتها، ومكانتها الممتازة بين دول العالم،

(١) يوم الأحد ٢٥ من رجب سنة ٩٢٢ (أغسطس ١٥١٦) م

إلا بالخيانة . ولم ينهزم سلطانها الشجاع ، طومان باى ، إلا بالغدر ، والخديعة ، والتواطؤ بين بعض قواده الخونة ، وبين الغزاة الأتراك (١) .

وعرف طوماى باى ، آخر الأمر ، أنه لا أمل فى النصر . فترك معسكره بالقرب من وردان فى الجيزة وقصد اقليم البحيرة . وكان فى ذلك الإقليم شيخ من شيوخ العرب ، اسمه حسن مرعى ، كان للسلطان عليه فضل كبير . حيث أخرجه من سجن سلفه الغورى ، وأنعم عليه ، وأكرمه . فلما انتهى السلطان إلى منازل هذا الشيخ العربى ، فى بلدة « البوطة » القريبة من حوش عيسى . أراد أن يختفى عنده ، حتى يجد له حيلة ، أو يدبر أمرا . واستحلف الشيخ ، على كتاب الله ، ألا يخونه ، ولا يكشف سره . ولكن الشيخ العربى أرسل إلى السلطان سليم من يخبره خبر طوماى باى ، ونزوله عنده . فأرسل إليه سليم الشرطة حتى جاءوا به إليه (٢) .

وقد سجل المؤرخون كيف لقى طومان باى السلطان سليما ، وكيف كان شجاع القلب فى محنته ، كما كان شجاع النفس فى حربه . وكيف رد عليه قوله حتى أفحمه ، ونال من نفسه منالا كبيرا ، ومنزلة جعلت السلطان الظافر يعجب به ، ويكبره ، ويبقى على حياته .

---

(١) نجد فيما رواه ابن إياس عن هذه الأحداث أن المصريين لم يتوانوا عن بذل أرواحهم فى الدفاع عن استقلال بلادهم ، حتى بعد أن ظهرت على جيوشهم جيوش السلطان سليم ولم يبق أمل فى النصر . فهو يقول إن حرب اليأس هذه دامت بين الفريقين أربعة أيام ، أولها الثامن من المحرم سنة ٩٢٣ [فبراير ١٥١٧] ويقدر قتلى هذه الأيام من المصريين بأكثر من عشرة آلاف ، منهم ثمانمائة من المماليك ، أو ممن بقى من المماليك . ثم يقول : — « إن الجثث كانت مرمية فى الطرقات من باب زويلة إلى الرميلة « الرفاعى » ومن الرميلة إلى الصليبة إلى قناطر السباع ، إلى الناصرية ، إلى مصر العتيقة » ومعنى هذا أن الحرب كانت دائرة مستمرة فى شوارع القاهرة نفسها وميادينها وأزقتها .

(٢) يقول ابن إياس — وهو فى ذلك حجة معاصر — إن حسن مرعى وأخاه شكر هما اللذان دعيا طومان باى إلى ضيافتهما فى ضيعة لهما تسمى « البوطة » فقبل . ثم جاء بمصحف أقسم عليه الأخوان ، ألايخوناه أو يشيا به ، لحلفا على المصحف سبع مرات . فلما استقر السلطان عند مرعى جعل رجاله من الأعراب حرسا عليه لا ليحفظوه بل ليحتجزوه . ثم بادر فأبلغ أمره إلى سليم .

قالوا إنه عندما دخل طومان باى على سليم ، استقبله واقفاً ، ثم سأله : « لماذا لم تعترف بسلطتى ، وتدخل فى طاعتى ، عندما دعوتك إلى ذلك . . ؟ فقال له : إنى ملزم بالدفاع عن بلدى الذى أحكمه . ويجب على أن أصونه وأحميه . كما يجب على أن أحمى المدينتين المكرمتين ، مكة والمدينة . أما أنت فما أدرى كيف تبرىء نفسك ، أمام الله ، من عدوانك الظالم على بلادنا .

وأخذت الدهشة السلطان سليما . ولكن طومان باى تابع حديثه يقول : إنك ، يا سلطان الروم ، غير ملوم على سقوط مملكتنا . بل الذنب كله على الخونة ، وأشار إلى خير بك وجان بردى الغزالى ، الخائنين ، اللذين كانا ، بتواطئهما مع سليم ، سببا فى هزيمة جيش مصر .

عند ذلك قال السلطان سليم ، ليس من العدل أن نقتل رجلا شهما ، صادق العزيمة ، كهذا الرجل . وانتهى مجلس السلطان .

ولكن الخائنين لم يجدا أمنا على حياتهما إلا بقتل طومان باى ، فاحتالا لذلك . إذ حرضا بعض أتباعهما ليقف فى طريق ركب السلطان سليم . حتى إذا مر دعوا لطومان باى . ومر السلطان سليم فى ركبه ، فسمع ناسا يدعون: « الله ينصر السلطان طومان باى ». فثارت فى نفسه الهواجس والوساوس ، وأكمل الخائنان تدبيرهما ، فحرضا سليما على قتله . لأن الناس يحبونه . وقد يحدث فى مصر حدثا إذا تركها السلطان إلى بلاده . وكانت نفس السلطان ، بعدما سمع من النداء والدعاء ، مهيأة لذلك . فأرسل رسله فجاءوا بطومان باى وهو فى زى الاعراب ، كيلا يعرفه الناس . حتى دخلوا به القاهرة . وعندما وصل إلى باب زويلة ، باب الخلق ، وهو لا يدرى ماهم فاعلون به . نظر إلى حلقة الباب ، فرأى الحبال مدلاة منها . فأدرك مصيره . وعندما أنزلوه عن فرسه تشهد ، وسأل من حوله من الناس أن يقرءوا له الفاتحة . ثم شنق[1] والناس لها ، بالبكاء ، ضجيج . وبقى مصلوبا ثلاثة

(١) يقول ابن إياس إنه بعد ماقرأ مع الناس الفاتحة ، أمر المكلف بشنقه أن يتقدم ليضع رأسه فى الحبل (فلما شنق وطلعت روحه صرخت عليه الناس صرخة عظيمة وكثر عليه الحزن والأسف) .

أيام . ثم أنزل فدفن فى مسجد الغورى . ولم يشنق من ملوك مصر وسلاطينها ، أحد سواه ، فى تاريخها كله . وكان له من العمر حين شنق ، فى يوم الاثنين ٢١ من ربيع الأول سنة ٩٢٣ — ١٥ من أبريل ١٥١٧ — أربعون سنة . وبكاه الناس بكاء مرا . وشمل الحزن عليه مصر كلها . ونجد فى حديث ابن اياس عن هذا السلطان وقتله ، كثيرا من المرارة والحزن الصادق والمحبـــة . وقد ترك قتل طومان باى ، على هذه الصورة ، أثرا عميقا من الحزن فى قلوب المصريين[1] وشعورا عميقا أيضا بالكراهية والحقد فى نفوس المماليك . حتى أن كبيرا منهم دبر مع أتباعه مؤامرة لذبح السلطان سليم ليلا ، وهو نائم . وأوشك أن يتم له ذلك لولا أن المؤامرة كشف سرها قبل تنفيذها بقليل .

أما العربى الخائن حسن مرعى ، فقد أنعم عليه السلطان سليم ، وكافأه . ولـكن المماليك الجراكسة ذبحوه ، وشربوا من دمه . وقتلوا أخاه أيضا . وأقاموا فى القاهرة معالم الزينة ، بعد قتله .

وأقام السلطان سليم فى مصر ثمانية أشهر . أتم فيها تنظيم شئونها على الوضع الذى ارتضاه . مما كان له أثر كبير فى نواحى حياتها كلها بعد ذلك ، وفى الأحداث التى يتناولها هذا الفصل من كتابنا .

وعندما رحل سليم عن مصر ، نقل إلى القسطنطينية ، أكثر مافى القلعة وما فى

---

(١) يصف ابن إياس — وهو كما نعرف المؤرخ الذى عاصر هذه الفترة وشهد أحداثها — أثر إعدام طومان باى فى نفوس المصريين ويصف شجاعته ، بقوله « صرخت الناس عليه صرخة عظيمة ، وكثر عليه الحزن والأسف ، وكان شجاعا بطلا تصدى لقتال ابن عثمان وثبت وقت الحرب بنفسه . وفتك فى عسكر ابن عثمان وقتل منهم مالا يحصى . ووقع منه فى الحرب أمور لم تقع من الأبطال العناترة وقاسى شدائد ومحنا وحروبا وشرورا وهجاجا . ولم يسمع بمثل هذه الوقعة فيما تقدم من الزمان أن سلطان مصر شنق على باب زويلة قط . ولم يعهد مثل هذا . ثم روى ابن إياس لنفسه هذا الشعر :

لهفى على سلطان مصر كيف قد ولى وزال ، كأنه لن يذكرا
شنقوه ، ظلما ، فوق باب زويلة ولقد أذاقوه العـذاب الأكبرا

وما نقلناه أو اقتبسناه من ابن إياس يوجد فى الصفحات ١٧٢ — ١٧٤ — الجزء الخامس من تاريخه . طبع جمعية المستشرقين الألمانية فى استانبول سنة ١٩٣٢ بإشراف كاله ومحمد مصطفى وموريس سوبرنهايم »

منازل السلاطين والأمراء ، من الذخائر والنفائس والكتب . كما أخذ ما كان من ذلك فى المساجد والأربطة والزوايا ، حتى أعمدة الرخام . واستصحب معه الخليفة العباسى ، الذى كان يقيم فى مصر . ويضفى عليها ، فى ذلك الوقت ، ظلا من الكرامة بين الأمم الإسلامية . وسجن سليم هذا الخليفة ثم أرغمه سليمان بعد ذلك على أن يتنازل له عن الخلافة . كما نفى سليم من مصر جميع أبناء السلاطين والأمراء . وأكثر العلماء ، والقضاة . وكل من له نفوذ وكلمة مسموعة فيها . وبلغ ما أخذه من النفائس ، حمولة ألف بعير . غير ما سلبه رجاله وجنوده . ثم أمر بجمع رؤساء الصناعات التى اشتهرت بها مصر . والمبرزين فيها ، من كل طائفة . فكانوا نحو ألف صانع ورئيس . نقلهم إلى الأستانة ليعلموا صانعيها ما يتقنون . وكان لذلك أثر كبير فى حياة مصر الاجتماعية والأدبية والعلمية . كما كان له أسوأ الأثر على صناعة مصر وفنونها . يقول الجبرتى إنه « فقد من مصر ، نيف وخمسون صنعة » .

وكافأ الخائنين ، خير بك والغزالى ، بأن جعل أولهما واليا على مصر ، وسماه « ملك الأمراء » وجعل الثانى واليا على الشام .

أما النظام الذى ارتضاه السلطان سليم لحكم مصر . فكان من أكبر الأسباب فيما انتهى إليه حالها من الضعف ، والفقر ، والتنازع ، واختلال الأمن . فرض خراجا ، يرسل فى كل سنة من مال مصر إلى الأستانة . وقسم السلطة فيها بين ثلاث جهات . الوالى الذى يرسله السلطان . وأهم أعماله إبلاغ الأوامر التى ترد من السلطان إلى الحكومة ، ومراقبة تنفيذها . والسلطة الثانية ، الجيش . وكان مؤلفا من ست « وجاقات » أى فرق . لكل فرقة ستة من الضباط . ولهم جميعا قائد يقيم فى القلعة . وشكل من ضباط هذه الفرق ديوانا يعين الوالى فى إدارة شئون البلاد . وجعل لهذا الديوان حق رفض المشروعات التى يضعها الوالى .

والسلطة الثالثة المماليك . جعل كل واحد منهم حاكما « سنجق » على مديرية من مديريات البلاد ، وكانت مقسمة إلى أربع وعشرين مديرية . وكانوا يسمون « بالبكوات » وجعل مدة الولاية للولاة الذين ترسلهم الدولة لحكم مصر ، سنة واحدة . يستبدل بعدها الوالى ، أو يجدد له فرمان بإبقائه .

فكان هذا النظام سبباً لما نرى بعد ذلك من التنازع والخصومة بين أصحاب هذه السلطات . وكان توقيت الولاية ، وسوء اختيار الولاة أيضا ، سببا فى انصرافهم إلى جمع المال والثروة من كل طريق . وكان لهذا كله ، أثره الواضح فى أحوال مصر ومكانتها وحياة أهلها . ولعل هذا نفسه كان مقصودا للسلطان سليم . لتبقى مصر حيث أراد لها من الضعف والفقر والتمزق واختلال الحال .

ويقص علينا الجبرتى فى ذلك قصة طريفة ، يعلل بها تنازع المماليك وتفرقهم وانقسامهم إلى قاسمية وفقارية. كأن السلطان خشى من تجدد قوتهم بعد خروجه ، فأراد أن يبذر بينهم بذور الشقاق والفتنة . وكأنه لم يكفه أن جعل فى مصر ثلاثا من القوى يصارع بعضها بعضا ، فأراد أن يفتن طائفة منها بعضها ببعض . والجبرتى يسوق قصته هذه مساق من يعتقد أنها كانت سببا فى ظهور « سنة جاهلية ، وبدعة شيطانية . زرعت فيهم — أى المماليك — النفاق ، وأسست فيما بينهم الشقاق » .

وهذه هى القصة :

قاسم وذو الفقار [1]

يقول الجبرتى ، إن السلطان ، عندما فتح مصر واستقر له الأمر فيها بعد قتله طومان باى وبعد أن نفى إلى القسطنطينية من نفى من الأمراء المصريين والقواد ، جلس يوما إلى خاصته فقال لهم : ألم يبق أحد من الجراكسة فى مصر لنراه ونتحدث إليه . . . ؟ فقال له « خير بك » نعم ، يوجد منهم رجل اسمه سودون الأمير [2] ، وقد كبرت سنه ، وله ولدان من أشجع الفرسان ، ولكنه يخشى عليهما التلف ، ويباعد بينهما وبين الفتنة منذ رأى فساد الأمر فى مصر وتنازع الأمراء وكيد بعضهم لبعض . فهو وولداه لا يبرحون بيتهم ، وقد سد الطريق إليه بالحجارة .

---

(١) يقول الأستاذ أحمد حافظ عوض فى كتابه « فتح مصر الحديث » إن هذه القصة خرافة من الجبرتى . ولكن المرحوم أمين باشا سامى ، ذكرها فى « تقويم النيل » وقال إنها « مما اتفق فيه الجبرتى ، وجودت ، المؤرخ التركى الكبير .

(٢) فى أقدم مخطوطات العجائب التى راجعتها يوصف « بالأسير » وقد كان أسير بيته هو وولداه .

فقال السلطان : « هذا والله رجل عاقل خبير كامل ينبغى لنا أن نذهب لزيارته ، ونقتبس من بركته وإشارته ، قوموا بنا جملة نذهب إليه على غفلة لكى نحقق المقال، وأشاهده على أى حالة من الأحوال » .

ثم قصد السلطان سليم من فوره لزيارة سودون الأمير ومعه خاصته ، فوجده جالسا يقرأ القرآن . وبين يديه خدم وأتباع كثيرون . فلما علم سودون الأمير بقدم السلطان أسرع إليه ، فأمره السلطان بالجلوس ، ثم آنسه وتلطف به ، وتحدث إليه فى سبب عزلته واحتجازه أولاده عن الناس . ثم طلب السلطان أن يرى ولديه ، فلما رآهما أعجب بمنظرها وسمتهما وسر من حديثهما سروراً كثيراً . وزاد السلطان فى إكرام سودون الأمير فقبل أن يتغدى على مائدته ، وتقبل ما قدمه إليه من الهدايا ، ثم أنعم عليه بالعطايا السلطانية ، وأمر بأن ترفع درجته ودرجة ولديه . قاسم وذى الفقار وزاد رواتبهم . وخرج السلطان سليم فى اليوم الثانى لهذه الزيارة إلى الصحراء ، وأمر بأن يخرج إليها الجند بجميع أنواعهم ، ثم طلب أن يخرج إليه الأمير سودون وولداه . فلما قدموا عليه قال لهم : — أتدرون لماذا طلبتكم ... ؟ قالوا لا يعلم الغيب إلا الله . فقال : أريد أن يركب قاسم وأخوه ذو الفقار . ويترامحا ويتسابقا بالخيل . فنزل الفارسان وركبا ورمحا ولعبا وأظهرا من أنواع الفروسية ما أعجب السلطان . فلما انتهيا أمر السلطان بمثولهما بين يديه وخلع عليهما الخلع . وأطنب فى مدحهما وأمر بأن يكونا من فرسان حرسه الخاص .

ثم خرج السلطان سليم فى اليوم التالى مرة أخرى وحضر الأمراء والجند فأمرهم بأن ينقسموا إلى قسمين ، قسم جعل على رأسه ذا الفقار ، والثانى على رأسه قاسما أخاه . وأضاف إلى ذى الفقار أكثر فرسان العثمانيين ، وإلى قاسم أكثر فرسان المصريين ، وميز الفقارية بلبس الثياب البيض . والقاسمية بلبس الثياب الحمر « وأمرهم بأن يركبوا فى الميدان على هيئة المتحاربين وصورة المتنابذين المتخاصمين ، فأذعنوا بالإنقياد ، وعلوا على ظهور الجياد ، وساروا بالخيل ، وانحدروا كالسيل ، وانعطفوا متسابقين ، ورمحوا متلاحقين ، وتناوبوا فى النزال ، واندفعوا كالجبال .

وساقوا فى الفجاج وأثاروا العجاج ، ولعبوا بالرماح وتقابلوا بالصفاح ، وارتفعت الأصوات وكثرت الصيحات ، وزادت الهيازع وكثرت الزعازع ، وكاد الخرق يتسع على الراقع ، وقرب أن يقع القتل والقتال ، فنودى فيهم عند ذلك بالانفصال . فمن ذلك اليوم افترق أمراء مصر وعساكرها فرقتين ، وانقسموا بهذه اللعبة حزبين . واستمر كل منهم على محبة اللون الذى ظهر فيه ، وكره اللون الآخر فى كل ما يتقلبون فيه ، حتى أوانى المتناولات والمأكولات والمشروبات .

وصار فيهم قاعدة لا يتطرقها اختلال ، ولا يمكن الانحراف عنها بحال من الأحوال ، ولم يزل الأمر يفشو ويزيد ، ويتوارثه السادة والعبيد ، حتى تجسم ونما وأهريقت فيه الدما ، فكم خربت بلاد وقتلت أمجاد ، وهدمت دور ، وأحرقت قصور ، وسبيت أحرار ، وقهرت أخيار » .

ثم يقول الجبرتى بعد سرد هذه القصة الشيقة : إن الفقارية موصوفة بالكثرة والكرم ، والقاسمية موصوفة بكثرة المال والبخل . وكان الذى يتميز به كل فريق من الآخر إذا ركبوا فى المواكب ، أن يكون بيرق الفقارى أبيض ومزاريقه[١] رمانة ، وبيرق القاسمى أحمر ومزاريقه بجلبة . أما الثياب فكانت ، كما أشار إليه الجبرتى ، من اللون الأبيض للفقارية والأحمر للقاسمية .

وظل الحال على ذلك حتى استهل القرن الثانى عشر ، وأمراء مصر من الفقارية هم : ذو الفقار بك ، وابراهيم بك ، ودرويش بك ، واسماعيل بك ، ومصطفى قزلار ، وأحمد بك قزلار[٢] ، ويوسف بك القرد ، وسليمان بك بارم ذيله ، ومرجان جوزبك ، وكان أصله قهوجيا للسلطان محمد . والأمراء من القاسمية لهذا العهد هم : مراد بك الدفتردار ، ومملوكه أبو ظبيك ، وابراهيم بك أبو شنب ، وقانصوه بك ، وأحمد بك منوفية ، وعبد الله بك .

---

(١) المزاريق الرماح .

(٢) طائفة القزلار هى الخصيان السود التى كانت تتولى رعاية الجوارى فى قصور السلطان

ومن هذه الفترة — مستهل القرن الثانى عشر الهجرى — وبسير هؤلاء المماليك يبدأ الجبرتى تاريخه .

وهكذا كانت هذه الملهاة التى سرّى بها السلطان سليم عن نفسه ، يوما أو بعض يوم ، بتسابق الشقيقين ، قاسم وذى الفقار ، سببا فى نزاع طويل عميق الأثر فى حياة مصر وتاريخها فترة طويلة من الزمن .

وفى ضوء هذه الخصومة الفجة العميقة القوية أيضا ، التى جاءت وليدة اللهو والعبث ومحض الصدفة ، نستطيع أن نفسر كثيراً من الأحداث الجسام ، التى كونت تاريخ مصر فى هذه الفترة الطويلة من الزمن . من الفتح العثمانى إلى أن انتهى النزاع بين الطائفتين بتغلب الفقارية ، وانقراض خصومهم فى سنة ١١٤٢ .

وصدق الجبرتى حين استشهد ، بعد ذكره قصة قاسم وذى الفقار وأبيهما سودون الأمير ، بهذا البيت :

ولرب لذة ساعة قد أورثت حزناً طويلا

المماليك

هذه الخلاصة عن هزيمة مصر أمام العثمانيين ، وما ذكرناه عن سليم وما وضعه من النظم لحكم مصر فى ظل هذه السيادة الجديدة . لم يذكر عنها الجبرتى شيئاً . بل ذكر دخول مصر فى نطاق السيادة العثمانية فى تسعة سطور . ولكن الخلاصة التى أوردناها لا بد من معرفتها لفهم هذا الذى سنكتبه عن أيام المماليك .

لا نستطيع ، على وجه الدقة ، أن نعرف كم كان يبلغ عدد المماليك فى هذه الفترة من الزمن ، ومن العسير الشاق أن نعرف ذلك على وجه التقريب . لأن عددهم كان يزيد وينقص متأثراً بعوامل كثيرة مختلفة . وكانت سياسة الدولة العثمانيه نحوهم متباينة متناقضة . فهى تارة تخاصمهم ، وتكيد لهم ، وتعمل على

إفنائهم ومحوهم . وترسل الحملات العسكرية لهذا الغرض . أو تعمل ، عن طريق ولاتها ، على إيقاع الفتنة والحرب بين بعضهم وبعض ، كما صنع الوالى حسين باشا كتخدا فى الوقيعة بين القاسمية والفقارية حتى استمرت بينهما الحرب ثمانين يوماً وتارة كانت الدولة تواليهم وتصالحهم ، وتُقطعهم ، أو تقطع بعضهم ، ما يشاءون من البلاد . وكان لهذا وذاك أثره فى نقص عددهم وكثرته .

وكانت الدولة فى بعض الأوقات ، تتدخل تدخلا مباشرا لإنقاص عددهم بمنع جلبهم إلى مصر صغارا . فقد حدث فى أول عهد محمد على ، أن أمرت الدولة بمنع جلبهم وبيعهم فى مصر ، ثم أذنت له فى أن يجلب ما لا يزيد عن عشرين منهم . ثم عادت بعد ثلاث سنوات فأطلقت بيعهم ، ليكونوا أندادا لخصومة محمد على .

وعند ما كان يحكم مصر واحد من كبار المماليك ، كعلى الكبير ، أو مراد بك وشريكه ابراهيم ، كان يكثر من جلبهم والتمكين لنفسه عن هذا الطريق . وسنرى عند الحديث عن مراد وإبراهيم أن مماليك أولهما وحده كانوا أربعمائة . ومماليك ثانيهما ستمائة . وقد أكثر على بك من شرائهم حتى بلغ عددهم عنده ستة آلاف .

وهناك إحصاء لعددهم فى فترة من الفترات ، جاء على لسان مراد بك عندما كان يفاوض مندوبى محمد على للصلح . فقدذكر أن عددهم كان قبل قدوم الحملة الفرنسية ، نحو عشرة آلاف ، بين قواد ، وكشاف ، وأكابر وجاقات ، ومماليك . كما ذكر أن جنس المماليك ، من الرجال والنساء والعتقاء والأرقاء والأطفال كان نحو خمسين ألفاً .

على أننا ننظر لهذا الإحصاء بعين الشك . لأن مراداً ذكره فى معرض

المساومة والتفاخر وإظهار المجد القديم . وذكر يعقوب أرتين باشا أن عددهم في أول عهد محمد علي [1] كان عشرين ألفاً .

وكانت مصر تتلقى أجناسا كثيرة مختلفة من هؤلاء المماليك . منهم اليوناني والجركسي والتركي والأرنؤودي . ومن أديان مختلفة أيضا . فمنهم المسيحي ، واليهودي ، كان منهم الأمير يوسف بك المسلماني . أصله يهودي ثم أسلم وارتفع شأنه حتى تقلد الصنجقية اثنتي عشرة سنة ، ثم عين كاشفا على مديرية المنوفية ، ثم أميرا على جدة وشيخا للحرمين الشريفين . وجاور بالديار المقدسة عامين . ورحل إلى الآستانة بفريق من الجيش ثم عاد فعين مديرا لجمرك دمياط . ومات فيها . وكان من الأمراء من ليس من الجنس الأبيض إطلاقا كإبراهيم كتخدا السناري ، أصله من برابرة دنقله . وكان بوابا في مدينة المنصورة ثم تعرف إلى من فيها من المماليك وتقرب إليهم بكتابة الأحجبة والرُّقى وضرب الرمل ، حتى عظم أمره ، وتعلم اللغة التركية . ثم اتصل بمراد بك فصار من كبار خاصته واشترى المماليك الحسان ، والسراري البيض . وبنى العمائر وملك الأراضي الواسعة . وعظم شأنه حتى صار صاحب الحظوة والمنزلة الأولى عند مراد . لا يدخل عليه في مرضه سواه . ويقول الجبرتي عن إبراهيم السناري هذا إنه كان من أعظم الأعيان بمصر : وكان يباشر بنفسه الأمور ، من غير مشورة الأمراء . بل كان يحل مايعقده كبارهم . له أتباع وخدم يقضون القضايا ، ويسعون في المهمات . ويصانعهم الناس ، حتى الأكابر ، ويسعون إلى دورهم ، وصار من أرباب الوجاهات والثروات .

استيلاد المماليك :

ومن أساتذة الأمراء — أي رؤسائهم — رجل كان اسمه الحاج صالح الفلاح وله قصة طريفة عجيبة إذ كان « يستولد » المماليك كما يستولد الناس الخيول والفحول والفراريج ... !

كان هذا الرجل فلاحا من قرية الراهب ، في المنوفية ، مات أبوه وهو طفل

---

(١) ذكر الأستاذ أنور زقلمة أن عددهم في أول عهد محمد علي كان اثني عشر ألفا

وكان هذا الأب خادما عند أولاد شيخ البلد . فتأخر على هذا الشيخ شىء من الضرائب فبعث بولده رهينة إلى الملتزم ، ومعه هذا الفلاح الصغير ، صالح ، وبقى الصغيران — ابن شيخ البلد ، وصالح الفلاح فى بيت الملتزم على كتخدا الجلفى حتى استطاع الشيخ أن يدفع ما كان باقيا عليه من الضرائب . وفك ابنه من رهنه . ولكن رفيقه صالحا ، رفض أن يعود إلى قريته ، أو أن يخرج من بيت على كتخدا . فبقى مع خدمه ، وكان ذكيا خفيف الروح والحركة . فلم يزل يتقدم ، ويصل ، حتى صار من أرباب الأموال. واشترى المماليك والعبيد والجوارى . وأخذ يزوج بعضهم لبعض ويستولدهم . وابتاع لهم الدور الواسعة . والإقطاعات . وزاد عددهم حتى صاروا ، هم وأولادهم ، يتولون عددا من الوجاقات ، والاختيارية ، والكتخدائية والجاويشية ، والطبلخانات . وغير ذلك من مناصب الدولة الكبيرة . وصارت لهم بيوت ، وأتباع ، ومماليك وشهرة عظيمة ، وكلمة نافذة . وجمع صالح الفلاح هذا ثروة عظيمة ، حتى أنه كان يقرض أمراء المماليك الأموال الكثيرة بالربا الفاحش . وكان ، على ثروته ، شحيحا . ومات فى سن السبعين حوالى سنة ١١٧٠ (١٧٥٦ — ١٧٥٧)

ونجد فى هذه الفترة اسم طائفة من المماليك ، هم « جماعة الفلاح » . فهؤلاء هم الذين اشتراهم ، وزوجهم ، واستولدهم صالح هذا . ويقول الجبرتى ، أنهم على كثرتهم وكثرة أموالهم ، لم يبارك الله فى شىء لهم ، ولا لصاحبهم صالح ، وقال إن ذلك سببه الأموال التى كان يخرجها بالربا الفاحش .

الفروسية والشجاعة

وكان من أبرز صفات المماليك الشجاعة ، والفروسية خاصة . كانت لهم فى ركوب الخيل والحرب عليها . براعة فائقة ومقدرة لا يدانيهم فيها أحد .

نجد فى ترجمة الأمير عثمان ذو الفقار ، أنه عمّر حتى ضعف جسمه ، فكان لا يقدر على الوقوف ، ومع ذلك لا يترك ركوب الخيل . يأمر خدمه فيحملوه حتى يضعوه على ظهر فرسه . فإذا استوى راكبا صار أقوى من الشباب ورمح بفرسه ، وسابق غيره عليها .

ويقول فى ترجمة الأمير حسين بك كشكش . إنه خرج أميرا للحج سنة ١١٧٤ فلما كان فى الطريق إلى مصر خرج عليه الاعراب ، ووقفوا له فى مضيق . يطلبون عوائدهم . فأمر كتّابه وصيارفه أن يعطوهم . ثم جاء وقت الرحيل، فأمر بتأخير ذلك إلى المنزل الآخر الذى ينزل فيه ركبه . ولم يرض الأعراب ذلك ، وتحايل كشكش بك حتى خرج من هذا المكان الضيق ، ثم رتب جنوده وكانوا ثلاثمائة فقط من المماليك ، والباقون من المغاربة ، وطوائف الجند الأخرى . وحارب بجنوده القليلين هؤلاء العرب فقتلهم جميعاً ، وكان فيهم أكثر من عشرين من كبارهم . ثم سار فى طريقه . وتنادى جميع العرب بما كان من قتل رؤوسهم ، وخرجت نساؤهم تصرخ وتحرض بطلب الثأر . واجتمعت جموع كثيرة من العرب لحربه . وأحاطوا به من أمام ومن خلف فحاربهم . وكان يتنقل من خلف جنوده إلى أمامهم وإلى جناحيهم ، حتى عاد بالمحمل وجنوده إلى القاهرة . ولما عرف على بك الكبير مافعله خشى الانتقام . فقال لكشكش بك ، من ذا يستطيع أن يخرج بالمحمل فى السنة القادمة ، بعد هذا الذى فعلته بالعرب . ؟ فقال : أنا الذى أخرج . والعرب أنا كفيل بهم . وخرج كشكش أميراً للحج فى السنة التالية ، فوقف له العرب فى كل سبيل وعلى رؤوس الجبال ، وفى كل مضيق . وكانت جيوشهم وافرة ، وحقدهم عليه عظيما . فحاربهم — وجنوده لا يزيدون عما كانوا فى السنة السابقة — وكان يخرج لحربهم حاسر الرأس ، رافعا سيفه أمام جنده وظل يحاربهم حتى شتت شملهم ، وحمل رءوس القتلى من كبارهم على الجمال إلى القاهرة . وخرج بعد ذلك سنتين أخريين أميراً للحج . وفى كل سنة يتربص به العرب ويحاربونه . فينتصر عليهم ، حتى كسر شوكتهم ، وأخافهم ، فتركوا التعرض للحجاج وأمن طريقهم إلى الحجاز .

ونجد فى سيرة مملوك أسمه أحمد بك ، قصة من قصص الشجاعة هذه . وفيها أيضا من سعة الحيلة شىء كثير . وقد كاد هذا المملوك أن يفتك بمحمد على بهذه الحيلة وهذه الشجاعة .

كان أحمد بك هذا حاكما على دمياط . واشترك مع طائفة كبيرة من المماليك

فى فتنة قاموا بها ضد محمد على . وأوشكوا فيها على النجاح . حتى ظن محمد على أنها نهاية أمره . فأعد عدته للفرار ، ونزل يريد الهرب من القلعة . ولكنه رأى جنوده يدخلون ومعهم الأسرى ، ورءوس القتلى . فعلم إنهم غلبوا . فعاد يملأ الفرح قلبه . فلما جاء أمامه أحمد بك أمير دمياط قال له : وقعت فى الشرك يا أحمد بك .. ؟ فلم يجب ، ثم طلب أن يشرب . ففكوا وثاقه ليشرب . ولكنه نظر لمن حوله نظرة سريعة وبادر فخطف « يقطانا[1] » من أحدهم . وفى لحظة قصيرة ، قتل من رجال محمد على عددا ، وكاد أن يقتله . لولا أنه أسرع بالخروج من المكان واختفى . وظل أحمد بك يقتل فيمن حوله حتى تكاثروا عليه وقتلوه . وأمر محمد على بأن يقتل الباقون وهم مكبلون من أيديهم وأرجلهم .

هذه أمثلة قليلة ، فى شجاعتهم الفردية ، تغنى عن كثير . فشهرتهم بالشجاعة والفروسية لا تحتاج إلى كثير من الأمثلة والشواهد . وقد بلغت شهرتهم فى ذلك حدا بعيدا . فنحن نجد أن سلوكهم فى مصر ، وكثرة خروجهم على الدولة وحربهم لولاتها . كان سبباً لسخط السلاطين عليهم . ونجد فيما ذكره الجبرتى من حوادث شهر المحرم سنة ١٢٠٤ ان مرسوما ورد من السلطان سليم بن مصطفى يأمر فيه بحرب المماليك ، وكانوا فى ذلك الوقت يستولون على الوجه القبلى . ولم يستطع الوالى فى القاهرة أن يخضعهم . وفى هـذا المرسوم ما يدل على سخط السلطان وضيقه بهؤلاء المماليك . ولكنه فى حوادث رجب من السنة نفسها ، يقول إن السلطان أحضر بعض المبعدين من المماليك ، فأكرمهم ، وخصص لهم رواتب . وكان ينزل إليهم فيشاهد ركوبهم على الخيل ، ويعجبه ذلك وينعم عليهم

وكان بعض المماليك ، يجمع إلى الفروسية والشجاعة ، قوة جسدية فائقة يطير بها ذكره فى الآفاق . فقد كانت لهم بتثقيف أجسامهم ورياضتها وقوتها ، عناية شديدة .

كان عند ابراهيم بك الدفتردار خازن اسمه خليل . اشتهر بالقوة الجسدية

---

(١) أعتقد انها « يتاغان » أو « يتغان » وهى بالتركية السكين الطويلة أو الكبيرة .

الفائقة ، جاءه دلال يوما بقوس . فصار يشدها ، ويجذبها ، وهى طيّعة بين يديه .
وكان إلى جانبه رجل من العثمانيين ، فأخذ القوس من يده وأراد جذبها فلم
يستطع . فتعجب من قوته . وأخذ القوس فسافر بها إلى تركيا . وعرضها على
جميع من عرف فيها بالقوة والشدة ، فلم يستطع أحد منهم أن يجذبها . وأبلغ السلطان
خبر هذه القوس فطلبها لجذبها فلم يستطع . فقيل له إن فى مصر مملوكا أوترها
وصار يجذبها حتى تجتمع طرفاها ، وإن هذا المملوك أيضا عنده مكحلة وزنها
ثلاثون درهما ، يصيب بها الهدف وهو رامح على ظهر فرسه . فأمر السلطان
بإحضار هذا المملوك . وكتب إلى سيده إبراهيم بك فبعث به إلى السلطان ، فى
شهر ذى الحجة سنة ١١١٨ .

وهذه الشجاعة نفسها ، كانت سببا فيما نجد من قصر أعمار المماليك ،
بدرجة ملحوظة . فمن القليل النادر أن نجد منهم من عاش إلى سن الأربعين .
ومن القليل النادر أن نجد منهم من لم يمت محاربا أو مقتولا . ومن نجا منهم من
القتل عاش عمرا طويلا . وليس غريبا أن نجد فيهم مثل الأمير اسماعيل بن إيواظ ،
ذلك الذى تولى الصنجقية فى سن السادسة عشرة ، ومات ، مقتولا ، فى الثامنة
والعشرين . بعد حياة مليئة بالأحداث الجسام .

وكانت هذه الشجاعة أيضا ، وما يتبعها ، أو يلازمها ، من الاعتداد والثقة
بالنفس ، سببا فى هذه الخصومات العنيفة الكثيرة المتلاحقة ، التى كانت من
أبرز سمات هذا العصر . والتى شقى بها المماليك وشقى بها شعب مصر شقوة
كبيرة . وقد استطاعت الدولة ، تركيا ، أن تزيد من هذه الخصومات وتؤجج من
نارها ، بإثارة طوائفهم بعضهم على بعض . وبسبب حبهم للمغامرة ، ومبادرتهم
لأول داع من دواعى الخصومة والحرب . حتى كأن هذه الحرب حرفة يحترفونها
أو تسلية لتزجية الفراغ والخروج من السآمة . ومن غريب أمرهم فى ذلك . أن طوائف
منهم كانت تبرز للحرب فى خارج القاهرة ، كل نهار ، فإذا جاء الليل عادت كل طائفة
إلى بيوتها ، وأولادها ، ويتزاور الفريقان المتحاربان ليلا ، ثم يصبحان إلى حرب

بعضهما . حتى إذا جن الليل عادا ، وسكنا ، وتزاورا . كأن لم يكن بينهما حرب ، ولا قتال ، ولم يجر بينهما دم . وقد ظل هذا الحال بينهم زمنا طويلا .

مماليك أخيار

ونجد فى فصول أخرى من هذا الكتاب ، وفيما كتبناه عن الحياة الاجتماعية خاصة[1] مظاهر كثيرة لما كان فى صفات المماليك ، وأخلاقهم من القسوة ، والغلظة والميل إلى البطش والظلم . ولكننا نجد كذلك عند كثير منهم مظاهر أخرى ، غير قليلة ، من الرأفة ، والبر ، والرعاية ، والرفق بالفقراء . والأمانة ، وحب العلم والاشتغال به .

كان الأمير الكبير ابراهيم بك أبو شنب محبا للفقراء ، بارا بهم ، عطوفا على كل محتاج . وكان يعرف الشحاذين واحدا واحدا . فاذا لقى بعضهم فى طريق أعطاه . ويتفق أن يلقاه مرة أخرى فى نفس اليوم ، فيقول له أخذت نصيبك فى مكان كذا . وكان فقراء القاهرة يحبون ابراهيم بك هذا حبا شديدا . يقول الجبرتى إنه خرج مرة إلى بعض أسفاره وحروبه فى جزيرة كريت — حيث ندبته الدولة لذلك — فلما تحرك موكبه ، خرج أمامه شيخ الشحاذين ، وجملة من طوائفهم . ولما عاد من حربه منصورا ، جمع الشحاذون من بعضهم مالا فاشتروا به فرساً أصيلا ، وعملوا له سرجا غالياً ، وركابا مطليا ورشمة ، وكلفهم ذلك اثنين وعشرين ألف فضة . ثم قدموا إليه الفرس فقبله منهم وركبه إلى داره . ثم ذهب الشحاذون كما ذهب الأمراء والسادة ، لتهنئته . فخلع على شيخ الشحاذين ، ونقيبهم ، لكل واحد منهم جوخة ، وأعطى لكل فقير جبة ، وطاقية ، وشملة ، ولكل امرأة فقيرة قميصا وملاية . وأغدق عليهم إغداقا كبيرا . ومد لهم سماطا فأكلوا . ومات هذا الأمير سنة ١١٣٠ بعد أن عاش اثنتين وتسعين سنة .

وكذلك يقول عن الأمير حسن كتخدا عزبان الجلفى — نسبة إلى سنجلف من قرى المنوفية — إنه كان إنسانا خيرا ، له بر ومعروف ، وصدقات ، وإحسان للفقراء . وإنه وسع مسجد المشهد الحسينى ، واشترى عدة أماكن من

(١) فى الجزء الأول من الكتاب .

ماله وأضافها إليه ، وصنع له تابوتا من الأبنوس المطعم بالصدف والفضة ، وسترا من الحرير المزركش ، وعلى جوانبه أربعة عساكر من الفضة المطلية بالذهب . ولما مات ، فى شوال سنة ١١٢٤ — سار فى جنازته أكثر من عشرة آلاف شخص .

وكان الأمير الكبير صالح بك القاسمى لين العريكة ، يميل بطبعه إلى الخير ويكره الظلم . سليم الصدر ، ليس فيه حقد ، ولا يتطلع إلى ما فى أيدى الناس والفلاحين . محتشما كثير الحياء .

كما نجد أوصافا كهذه فى تراجم كثير من المماليك وفى شعر الشعراء الذين تحدثوا عنهم . وخاصة شعر الشيخ حسن البدرى الحجازى [١] .

وكان الأمير عثمان بك ذو الفقار ، رجلا عادلا كريما ، طاهر اليد . أنشأ فى بيته دواوين لإقامة العدل بين الناس ، وإنصاف المظلوم . وجعل للنساء وخصوماتهم ديوانا خاصا . وكان لا يقبل الرشوة ، ولا يغفر لمن يقبلها . بل كان يعاقب عليها أشد عقاب — وكان أمرها فى كثير من الأوقات قد فشا إلى درجة كبيرة جداً — وبلغ من حرصه على راحة الفقراء إلى حد أنه تولى الحسبة بنفسه . فكان يزن الرغيف وغيره مما يشتريه الناس حتى يطمئن إلى إنهم لا يبخسون فى شرائه . فلم يستطع القائمون على الحسبة أن يرتشوا . ولم يفعل هذا الأمير ما كان يفعله غيره من الاستيلاء على التركات ، أو أخذ الرشوة الكبيرة قبل تمكين الوارثين منها . وستجد فى ترجمة محمد بك الألفى أنه كان يحب الفلاحين ويعطف عليهم .

ويروى الجبرتى ، فى حوادث سنة ١١٤٠ أنه ورد مرسوم من السلطان بإبطال مرتبات كانت تنفق فى بعض أوجه الخير . فلما قرأ الوالى بكير باشا هذه المراسيم اعترض عليها العلماء والأمراء . أما الأولون ، فلأن بعضها كان ينفق على المساجد والأسبلة . وأما الآخرون فلأن كثيرين منهم كانوا متصرفين فى بعض هذه الأوقاف والمرتبات ، أو يتنظرون عليها .

---

(١) تجد ترجمته فى الجزء الأول من الكتاب .

ثم انتهى الأمر على أن يصالح الأمراء والناس على هذه المراسيم . أى يدفعوا للوالى قدراً من المال ، حتى يعطل تنفيذها ، ويراجع فيها السلطان . واتفق الأمراء على أن يقدموا للأميرين عثمان بك ورضوان بك — وكانا شريكين فى حكم مصر — ألف جنزرلى(١) . حتى يقرا ما اتفق عليه . ولكن هذين الأميرين أبيا أن يأخذا هذا المال . وقالا « إنه من دموع الفقراء والمساكين » .

وفى العشرة الثانية من القرن الثانى عشر تولى أمر الحسبة فى مصر مملوك صارم اسمه على أغا . وكان قد فشا بين التجار والباعة فى القاهرة الغش ، والتطفيف فى الكيل ، فلم يجد على أغا وسيلة للقضاء على ذلك ، إلا فى أن يزيد من شدته وصرامته على الغشاشين والمطففين . وأراد هؤلاء أن يخفف عنهم بعض هذه القسوة على أن يرشوه بمال كثير ، فأبى . وكان يخرج بموكبه ومعه نائب القاضى وفى مقدمة الموكب رجل يحمل كيساً مملوءاً « بالعكاكيز » . ثم يقف على رأس كل شارع وحارة والمنادى ينادى بما يأمر . ومن لم يأتمر ضربه رجال الأغا بالعكاكيز ، حتى مات بعضهم من الضرب ، وصار للأغا مهابة عظيمة . إذا مرّ موكبه لم يستطع أحد أن يقف أو يتلفت . حتى النساء فى البيوت ، لا يستطعن أن ينظرن من نافذة .

وكان موكبه يسير على هذه الصورة يوما ، فلقبه أمير كبير ، هو اسماعيل بك الدفتردار . فلما قارب الأمير أن يلتقى بموكب الأغا ، انحاز إلى عطفة ضيقة ليفسح له الطريق . وتحدث تابع من أتباع الأمير فقال له : كيف تترك طريقك للأغا وأنت صنجق ودفتردار ؟ فقال : له فعلنا ذلك لنكون قدوة لغيرنا من الناس .

ويترجم الجبرتى لعلى أغا المعمار ، وكان نائبا لمحمد بك أبو الذهب . فيذكر من صفاته أنه كان ، مع شجاعته الفائقة ، يسير فى الناس سيرة حسنة ، ويقضى حوائجهم من غير أن يتطلع إلى شىء ، ويقول الحق ، ولو على سيده ، وكان سيده محمد بك ، لا يكره منه ذلك . بل يحبه ، ويستشيره ويعمل على رأيه . لما يعرفه

(١) البندقى الجنزرلى كانت قيمته أكثر قليلا من مائة بارة . والبارة ثلاثة مليمات

عنده من البعد عن الهوى . والزهد فى عرض الدنيا . وكان على أغا أيضاً يحب العلماء وأهل القرآن . متواضعا لين الجانب . يحضر مع الجبرتى وغيره دروس الحديث فى المسجد الذى أنشأه سيده أمام الأزهر . ويواظب على الاستماع لتفسير صحيح البخارى الذى كان يلقيه العالم الورع الشيخ على العدوى . وكان له فى هذا المسجد خلوة يستريح فيها ويستقبل أصحاب الحاجات من الناس . فيقضى حوائجهم . وسنجد فى ترجمة عبد الرحمن كتخدا أنه كان يكسو الفقراء العميان والمؤذنين كسوة من الصوف فى كل شتاء .

وكان من المماليك من يقتنى نفائس الكتب . نجد فى حديثه عن على بك الكبير أنه غضب على مملوك اسمه عثمان أغا ، فأخرجه من مصر . وباع ممتلكاته ، فكان منها جواهر ، وتحف ، وأسلحة ، وكتب ، وأشياء نفيسة . فهو يذكر الكتب فى ضمن ماصودر من الأشياء القيمة . وهذا يشعر بقيمتها وكثرتها .

وكان أحمد جاويش ، كبير وجاق الارنؤود ، « من أهل الخير والدين والصلاح مندفعا فى نصرة الحق ، والأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر . مبجلا عند أعاظم الدولة يسمعون لقوله . وينصتون لكلامه . ويتقونه ويحترمونه ، لجلالته ونزاهته عن الأغراض . وكان يحب أهل الفضائل ويحضر دروس العلماء . واقتنى كتبا نفيسة ووقفها جميعها ، فى حال حياته . ووضعها فى خزانة الكتب بجامع شيخون » . وكان يستمع إلى تفسير السيد مرتضى الزبيدى لصحيح البخارى . ونجد فى ترجمة بشير أغا دار السعادة ، أنه اقتنى كتبا نفيسة ، وكان سمحا فى إعارتها . وكان منها البرهان القاطع للتبريزى ، وهو قاموس فارسى .

ويذكر ترجمة قصيرة لرجل اسمه أحمد أفندى فيقول : إنه « الواعظ الشريف . كان من أكابر العلماء ، آمارا بالمعروف ، ولا يخاف فى الله لومة لائم . يقرأ الكتب الكبار ، ويباحث العلماء ، ويعظ العامة بجامع المردانى . فكانت الناس تزدحم عليه ، لعذوبة لفظه ، وحسن بيانه . وربما حضره بعض الأعيان من أمراء مصر فيسبهم جهراً . ويشير إلى مثالبهم » .

ومن هذه الترجمة القصيرة ، نعرف أن الأعيان من أمراء المماليك ، كان بعضهم يستمع إلى الوعظ فى المساجد . وكان يتقبل النقد ولو وصل صاحبه إلى السباب وذكر المثالب .

ومما رواه الجبرتى عن على بك الكبير إنه كان مرة يصلى الجمعة بجامع الداودية . وخطب إمام المسجد فدعى للسلطان ، ثم لعلى بك . فلما انقضت الصلاة أحضر على بك الإمام وكان رجلا « من أهل العلم يغلب عليه البله والصلاح » كما يقول الجبرتى فى تعبيره الطريف اللبق . وتحدث على بك إلى الشيخ فقال له : « من أمرك بالدعاء باسمى على المنبر .. ؟ أقيل لك إنى سلطان ؟ . فقال نعم ، أنت سلطان ، وأنا أدعو لك . فاغتاظ على بك وأمر أن يضرب الشيخ . فبطح وضرب بالعصى . ثم قام متوجعا من الضرب . فركب حماره وعاد إلى بيته وهو يقول : « بدأ الأسلام غريباً وسيعود كما بدأ » .

ولكن على بك أرسل ، فى اليوم التالى ، إلى هذا الشيخ قدراً من الدراهم ، وكسوة وطلب إليه أن يسامحه .

ومن هذه القصة نعرف طرفا من أخلاق على بك . فهو حذر ، لا يريد أن يعرف سره فى الخروج على الدولة قبل أوانه . وهو شجاع ، يدرك خطأه فى أن أمر بضرب هذا الشيخ الصالح الساذج ، وهو عطوف على أهل العلم والصلاح يستسمحهم فيما أخطأ ويترضاهم بالعطاء والبذل. وكان الأمير أيوب بك الدفتردار ، وقد استشهد فى حرب الفرنسيين ، يحب العلماء ويكثر من شراء المصاحف والكتب ويحب القراءة والمناقشة فيها . ويواظب على صلاة الجماعة . ويقضى حوائج السائلين والقاصدين . وكان اسماعيل أفندى — وهو أمير كبير — فيه قناعة ورضى ، يرغب عن السلطان والإمارة . ويحب معاشرة العلماء والصالحين . ويتباعد عن بقية المماليك . ويحضر إلى الأزهر لسماع دروس العلم . وكان زميله فى الدرس الشيخ عبد الرحمن العريشى . فأفاض عليه من بره ، وزوجه من ماله . ولازمه حتى مات .

فى مجالس العلم والأدب

وكان على بك الدفتردار يجمع فى بيته العلماء للمناظرة فى العلم . وحدث يوما أن جادل الشيخ الحسن بن على البدرى الشيخ أحمد الخليفى فى تفسير آية من القرآن الكريم . وكان ذلك فى مجلس من هذه المجالس فى بيت على بك . وظهر الشيخ البدرى على مجادله فى تفسير الآية . فأجازه على بك ، ورتب له قدراً من المال يتقاضاه فى كل شهر . وبقى الشيخ ينال هذا المال حتى مات . وألف رسالة فى تفسير هذه الآية . وهى قوله تعالى : « أستكبرت أم كنت من العالين » .

ومن المماليك من كان يعرف علوم اللغة العربية . ويدرس الكتب العسيرة الشاقة فيها . ويشتغل بالأدب الخالص منها . مع اشتغاله بالفقه . فقد ذكر الجبرتى فى ترجمته لعثمان بك ذو الفقار أنه كان يقرأ على والده مقامات الحريرى . وأنه كتبها لهذا الأمير بخطه الجميل ، فى خمسين جزءا ، كل جزء على حدة . كما كان يقرأ عليه أيضاً كتبا فى فقه أبى حنيفة . وأن الشيخ الجبرتى ، الوالد ، ألف له كتابا فى مناسك الحج . واستصحبه ثلاث مرات إلى الحج . وكان عثمان بك لا يجالس إلا أرباب الفضائل من أمثال الشيخ ، والشيخ الادكاوى ، والنخال ، والدلجى ، وغيرهم .

وكان منهم الأمناء الذين يتقون الله فيما وكل إليهم . أرسل الأمير لاجين بك مملوكه خليل أغا لجباية الخراج . وكانت له منه متأخرات كثيرة . فذهب إلى الريف ، وأخذ من الفلاحين مال سيده ، ولم يظلمهم . وباع ما أخذه بمال عظيم ، ورجع إلى لاجين بك ومعه صناديق المال . فدهش هذا من أمانته فقال له خليل ، هذا مالك الذى أرسلتنى لأحضره . فقال له سيده أنا لا آخذ إلا القدر الذى أعتقد أنه حقى . أما ما ربحته فى البيع فهو لك . وأخذ قدر خراجه ، وأعطاه ما بقى . واشترى خليل أغا جارية أهداها لسيده جزاء بره به . فلم يقبلها لاجين بك ، وردها إليه . وأهداه بيتا ونزل له عن بعض إقطاعياته جزاء هذه الأمانة .

مروءة ابن إيواظ

ومن مظاهر المروءة النادرة ما رواه عن الأمير إسماعيل بك بن إيواظ . فقد كان الأمير محمد بك جركس يحارب إسماعيل بك . وهزم جركس ثم فر إلى الصحراء . وكان الناس يحبون إسماعيل بك حباً كثيرا ، فلما علم العرب أن جركس بك هارب من بطش خصمه ، أسروه . وأعادوه فى أسوإ حال من الجوع ، والعرى إلى إسماعيل بك . فتلقاه هذا بالإكرام والصفح . وألبسه خلعة ثمينة . ونصحه خلصاؤه بأن يقتله فأبى . وقال إنه دخل بيتى وحل فى ذمامى ، فلا يصح أن أقتله . ورأى إسماعيل بك أن خصمه جريح ، فجاء له بطبيب يداوى جراحه . ولما شفى أعطاه ألف دينار ، وأخرجه إلى قبرص حسما للفتنة والشر . وقد جنت مروءة إسماعيل بك عليه شر جناية . كما نرى فى سيرته بعد قليل .

وكانت لهم فى معاملة بعضهم لبعض ، آداب وتقاليد . إذا أنستهم أياها الحرب والمنازعات . وجعلتهم يخرجون عليها . فإنهم سرعان ما يعـــودون إلى رعايتها والتزامها ، إذا انتهت حروبهم ومنازعاتهم ، ولقى بعضهم بعضا .

حدثت بين على بك الـكبير ومملوكه محمد بك أبو الذهب حروب دامية ، نراها فى مكانها من هذا الفصل ، وهزم على بك أمام مملوكه . وكانت آخر وقائع هذه الحرب فى الصالحية . فلما التقيا ، وتحاربا ، كانت الهزيمة على على بك ، وسقط من فوق جواده ، وجرح وجهه . فأحاط به جنود محمد أبو الذهب وحملوه إلى خيمة سيدهم . فلما عرف محمد بك ذلك خرج من خيمته يستقبل عدوه وسيده . ثم أقبل عليه فقبل يده . وساعده على السير . وحمله من تحت إبطه ، حتى أجلسه فى مكانه من خيمته . ثم حمله على تخت وعاد به إلى القاهرة فأنزله فى بيته — بيت على بك — بدرب عبد الحق على بركة الأزبكية . وجاء له بالأطباء فعالجوا جراحه . ولـكنه مات بعد سبعة أيام متأثراً بهذه الجراح .

ذكاء وحيلة

أما الذكاء وسعة الحيلة ، فمنه ما فعله الأمير إسماعيل بك إيواظ أيضاً . فقد سرقت بقرة من امرأة فى الشرقية . فقالت لا بد من الشكوى لابن إيواظ . فكيف تسرق بقرتى فى أيامه . فلما حضرت إليه — وكان لا يحجب أحداً — قصت عليه خبرها . فأمر بأن يرسل كتاب إلى نائبه فى الشرقية . وأعطاه إلى رسول . ثم قال له : اذهب بكتابى إلى الحاكم . فإذا وصلت إلى قرية هذه المرأة ولقيك أحد من رجالها فسأل عن شأنك فاقبض عليه ، فإنه هو السارق . وسافر الرسول ، ومعه المرأة . فلما وصلا إلى القرية لقيهما رجل يهبط من فوق تل . فسأل المرأة : ماذا فعل معك ابن إيواظ ؟ فقبض عليه الرسول ، وأخذه إلى الحاكم . وظهر أن البقرة عنده . فسلمت لصاحبتها .

ومن حيلته أنه أحضر إليه جماعة متهمون . ولما سألهم أنكروا . فأمر بإخراجهم . ثم أحضرهم مرة أخرى وسألهم . فأنكروا . فعل بهم ذلك مرة بعد مرة . ثم احتجز منهم واحدا وسأله على انفراد ، فأقر لأول وهلة . فلما تعجب القوم من ذلك وأرادوا أن يعرفوا سره . قال لهم إنى راقبتهم جميعاً حين يدخلون علىّ وحين يخرجون ، فرأيت هذا الرجل هو آخرهم فى الدخول ، وأولهم فى الخروج . فعرفت أنه هو المذنب .

وكان من أصحاب الذكاء والحيلة البارعة ، كجك محمد . و كجك معناها باللغة التركية ، الصغير ، وفى هذه اللغة يقدم الوصف على الموصوف ، فكجك محمد ، معناها محمدالصغير . وسأقص حيلة كجك محمد هذا بشىء من التفصيل . لأن فيها دلائل على روح هذا العصر وسماته . وهى ، مع ذلك ، قصة طريفة .

حيلة كجك محمد

هى قصة طريفة لها دلالة .

نرى فيها رجلا يؤتمن فيخون ، يأتمنه صديقه على ماله ، وما جمعه فى حياته كلها من ذهب وفضة وجوهر ، ثم يذهب إلى الحج ، فإذا عاد أنكره صديقه ، واستحل لنفسه ماله ، ونرى فيها هذا الغر الساذج ، الذى يترك صندوقاً من الذهب واللؤلؤ عند « صديق » ثم لا يأخذ على هذا الصديق وثيقة بما أودع ، ولا يستشهد عليه شهوداً ، ونرى هذا الحاكم « كجك محمد » يستخلص حق هذا الغر الساذج من صديقه الخائن بحيلة بارعة ، ويرده إليه ، لا يطلب فى ذلك أتاوة ولا يسعى إلى منفعة . وذلك أمر غريب لا يكاد يستقيم مع روح ذلك العصر ، ولكنه أحد الأدلة على ما نقصد إليه من أن هذه الفترة من تاريخ مصر ، لم تخل من الفضائل ، ولم يتجرد كل رجالها من كريم الخصال . وتدل ترجمة الجبرتى لكجك محمد هذا على أنه كان رجلا كريم الخصال حقاً .

أما القصة ، فخلاصتها أن صائغاً من تجار الجوهر بالصاغة أراد أن يؤدى فريضة الحج ، فجمع ما عنده من الذهب والفضة واللؤلؤ والجوهر ، ومصاغ حريمه ، ووضع ذلك كله فى صندوق ، ثم تركه وديعة عند صاحب له بسوق مرجوش ، يسمى الخواجا على الفيومى . وكتب صاحب الصندوق ، لنفسه ، قائمة بمحتوياته وأخذ مفتاح الصندوق ثم سافر إلى الحجاز فبقى هناك سنة . وعاد إلى بيته ، فحضر إليه أصحابه وأصدقاؤه وأحبابه للسلام والتبريك ، ولكن الخواجا على الفيومى لم يحضر ، ومضى وقت من الزمن لم يحضر فيه الخواجا حتى ظن صاحب الصندوق أن قد أصابه سوء . فلما سأل عنه عرف أنه طيب بخير لم يصبه سوء ، فأخذ شيئاً من التمر واللبان والليف وقصد زيارته ، فلما استقبل الخواجا على زائره ووضع الضيف منديله بين يديه ، قال له : من أنت ، فإنى لا أعرفك قبل اليوم حتى أقبل منك هدية . فقال له : أنا فلان صاحب الصندوق ، فأنكر الرجل

معرفته ، وأنكر أن لأحد صندوقاً عنده ، ولم يعترف له بشيء . وخرج الرجل متعجباً حائراً يكاد يطير عقله من الغيظ ، ولكنه لا يستطيع أن يفعل شيئاً ، فلما أخبر بعض خاصته بالأمر . قال له اذهب إلى كجك محمد .

وذهب صاحب الصندوق إلى كجك محمد وقص عليه أمره ، فقال له : ادخل داخل البيت ولا تظهر لى حتى أطلبك ، ثم أرسل يستدعى الخواجا على الفيومى ، فلما حضر جعل يتودد إليه ويلاطفه ويؤنسه ، وكانت فى يد الفيومى مسبحة من من المرجان ، فأخذها كجك من يده يقلبها ويلعب بها ، ثم قام وفى يده المسبحة فدخل بيته كأنه يريد أمراً ، وفى داخل البيت نادى خادمه وقال له : اخرج من هذا الباب ، وخذ خادم الخواجا على معك ، واترك دابته هنا ، ثم اذهب إلى بيت الفيومى ، مع خادمه ، وقف عند باب الحريم وأعطهم المسبحة أمارة ، وقل لهم : إنه يريد أن يرسل له الصندوق الذى يحفظه أمانة . فلما رأى حريم الفيومى المسبحة والخادم ، لم يشكوا فى أن هذه إرادة رب البيت وأخرجن لهما الصندوق ، فذهبا به إلى كجك محمد . وعاد هـــذا إلى ضيفه فقال له : بلغنى أن رجلا جوهرياً أودع عندك صندوقاً أمانة ، ثم طلبه فأنكرته ، فقال : لا وحياة رأسك . . . ! ليس له أصل ، وكأنى اشتبهت عليه ، أو أنه مريض معتوه . ولا أعرفه قبل ذلك ولا يعرفنى ، ثم سكتوا ، وبعد لحظة دخل الخادمان يحملان الصندوق ، على حمار ، فوضعوه بين أيديهما ، فامتقع وجه الخواجا وألجم لسانه ، فنادى كجك محمد صاحب الصندوق من داخل البيت فحضر ، فقال له : هذا صندوقك .؟ قال : نعم ، فطلب إليه أن يخرج القائمة التى كتب فيها محتويات الصندوق ، وفتح الصندوق وتلا ما فى القائمة من الجوهر والذهب وغيره فوجده مطابقاً لما فيه . فقال له : خـــذ متاعك واذهب . « فأخذه وذهب إلى داره وهو يدعو له ، ثم التفت إلى الخوجا على الفيومى وهو « ميت فى جلده » ينتظر ما يفعل به ، فقال له : صاحب الأمانة أخذها ، وإيش جلوسك . . . ؟ فقام وهو ينفض غبار الموت . . وذهب » .

ويظهر من ترجمة الجبرتى لكجك محمد هذا ، إنه كان رجلا واسع الحيلة ، مرهوباً . فقد جاء النيل فى سنة ١١٠٦ قليل الماء ، وشرقت البلاد . فنزل كجك

كجك محمد إلى بولاق حيث تباع الغلال لسكان القاهرة ، وأحضر الأمناء ومنعهم من زيادة سعر القمح ، وخوّفهم وحذّرهم ؛ وأجلس اثنين من رجاله لمراقبتهم. وكان يرسل فى كل يوم أو يومين حماره مع حمّاره يمشى به جهة الساحل ويرجع ، فيظن الناس أن كجك محمد ببولاق يراقب البيع فلا يستطيعون أن يزيدوا فى ثمن القمح. فلما قتل بيع بمائة نصف ، ولم يزل يزيد حتى بلغ ستمائة نصف فضّة . وكان أمرَ ألا يزيد عن الستين . ولم يزد .

وكان كجك محمد هذا رجلا صاحب خلق ، فوق دهائه ، فقد روى الجبرتى أن رجلا من خصومه ظل يتربص به ويترصده ليقتله ، حتى مر يوما وخصمه مختف وراء جدار ، فضربه برصاصة أخطأته فأخبره بعض الناس بمن فعل ذلك ، فلم يغضب ولم يجنح إلى الانتقام ، وهو عليه قادر، بل قال : « الحى ماله قاتل » .

ولكن كجك محمد لم تنفعه سماحة نفسه ، ولا حلمه ، وعفوه . فقد قتل غيلة ، فى سابع المحرم من سنة ١١٠٦

عثمان بك

وكان الأمير الكبير عثمان بك ذو الفقار من أصحاب الحيلة والذكاء . حضر إليه رجل يخبره بأن زوجه خرجت منذ أيام إلى الحمام ، ولم تعد . وفتش عنها فى كل مكان فلم يجد لها أثرا . فقال له الأمير ، بعد تفكير · اذهب إلى منزلك ، وتفقد ثياب زوجك . فإن وجدت فيها شيئا لم تحضره لها ، اخبرنى . وعاد الرجل مرة أخرى ومعه « بَلَك »[1] فقال لعثمان بك هذا لا أعرفه ولم أحضره لها ، فأمر بإحضار شيخ الخياطين وأراه له . وأمره بأن يعرف من خاطه منهم ، ويأتيه به . وأحضر شيخ الخياطين حائكا تعرف على هذا « البلك » وقال أنه خاطه لفلان . وكان فلان هذا من أتباع عثمان بك . فأحضره وسأله عن المرأة فجحد أنه يعرفها .

(١) صديرية .

وأمر عثمان بك بتفتيش بيته ، فوجـــدت المرأة مقتولة ومدفونة فى مكان منه . فأخرجوها ودفنوها ، وقطع رأس تابعه .

وقد بنى كثير من المماليك وأتباعهم وأصلحوا كثيرا من المساجد ، والزوايا والسبل والمستشفيات والحمامات ، ومساقى الدواب ، والكتاتيب التى يحفظ فيها الصبية القرآن . ووقفوا عليها كثيراً من الأموال والحبوس .

ولـكننى أذكر ذلك للأمانة التاريخية فقط . ولا أريد أن اتخذه دليلا على حب الخير أو تمكن العقيدة . أو العمل على طاعة الله . فإن الكثرة الغالبة من هؤلاء الذين أقاموا هذه المستشفيات . لم تكن هذه الدوافع الخيّرة هى التى حملتهم على إقامتها بل كانت دوافع الأنانية ، والمباهاة . والتكفير عما أجرموا من شرور وآثام ، هى التى دفعتهم إلى ذلك ، لعل الله يغفر لهم بعض ما صنعوا .

هذه صفحات قليلة تخيرتها لإبراز السمات التى كان يشترك فيها عدد غير قليل من المماليك . أعتقد أن كثيرين من الناس سيعجبون لها . لأنهم ، كما قلت ، لا يعتقدون أن أحدا من المماليك كانت فى نفسه صفة من صفات الخير . أو فى قلبه أثارة من كريم العواطف . أو فى عقله شىء من الدراية أو المعرفة أو رغبة فى شىء منها .

أما أثر هذه الصفات والسمات فى نوع الحكم الذى كانوا يسيطرون به على مصر فنجده فى حديثنا عن الحياة الفكرية والاجتماعية[1] . على أننا نستطيع هنا أن نقول إن شجاعة المماليك ، وتعلقهم بالحرب والفروسية ، واعتدادهم بأنفسهم وأجناسهم وماضيهم ، وإختلاف طوائفهم ، والأوضاع السياسيه والاجتماعية التى كانت سائدة إذ ذاك ، وما تركه العثمانيون عند فتحهم مصر ، وما مكنوا له من الفرقة والتنازع فيها — كما أشرنا من قبل — ذلك كله كان ذا أثر كبير فى هذا اللون من الحكم الذى حكمت به مصر فى ظل هذه الطبقة من المماليك .

أمن ورخاء وسلام

أما إذا ترك المماليك حربهم وهدأت بينهم الخصومات والمنازعات . فإنا نجد فى مصر أمنا وسلاما ورخاء قل أن نجد له مثيلا فى عهد آخر . اذا انفرد أمير من

---

(١) فى الجزء الأول من الكتاب

المماليك بالحكم ، بالغلبة والتسلط وقهر منافسيه، وجدنا هذا الأمن والرخاء والسلام تبسط ألويتها على الناس فى مصر ، كما كان الحال فى عهد على بك الكبير ومحمد أبو الذهب . ووجدناهم يعمرون البلاد ويشتغلون بمصالح الرعية ويحرصون على خيرها . وإذا اشترك أميران منهم فى الحكم ، وأسكتا من عداهما بالمال أو بالقهر أو بالرضى . وجدنا أيضا هذا الأمن والرخاء والسلام ووجدنا منهم كذلك هذه الرعاية لمصالح الناس . كما كان الحال فى عهد رضوان بك وشريكه عثمان بك ذى الفقار . ولم يشذ عن قاعدة الشريكين هذه سوى مراد وإبراهيم . لما كان عند أولهما من القسوة والشر . وعند ثانيهما من اللين والمسالمة ، كما نجد عند الحديث عنهما . لذلك نجد الجبرتى يصف عهد على بك بأنه كان عهد أمن وقرار . وأن السبل كانت خالية من الأشقياء . ويقول : إن الأسعار فى عهد محمد أبى الذهب كانت رخيصة والمكاسب كثيرة. والحياة هنية رخية . وكان النصف فضة — وهو العملة الصغيرة — يصرف بعشرة جدد ، أو اثنى عشر جديدا . وكان الجديد الواحد يكفى الفقير نفقات يومه ويشترى به أوساط الناس ما يكفيهم طعام يومهم . ويقول عن إسماعيل بن إيواظ إن أيامه كانت سعيدة ، وأفعاله حميدة ، والأقاليم فى أمن وأمان .

ويقول عن عهد عثمان ذى الفقار ، وشريكه رضوان كتخدا الجلفى : إن المحتسب منع من أخذ الرشوة . وجرت الأحكام على مقتضى الشريعة . وسهل على الفقراء أمر معاشهم وحياتهم ، ومنعت الشهود المأجورون من أداء الشهادة ، وأنصف المظلوم من الظالم ، وأقيم العدل فى الرعية .

بل نجد شيئا من ذلك فى أسوإ عهود المماليك ، وأشدها قسوة ، وأكثرها ظلما وجورا . عهد مراد وإبراهيم . فقد اختصم كلاهما صاحبه . وترك إبراهيم القاهرة إلى الصعيد ، مغاضبا ، ثم تصافيا وعاد هذا إلى القاهرة . وطلب كبير من أنصاره المقربين إليه ، هو عثمان بك الشرقاوى ولاية جرجا . لقاء إخلاصه له . ولكن إبراهيم رفض ذلك . وقال له : « نحن نعطيك كذا من المال ، واترك ذلك . فإن البلاد خربت ، ومات أهلها من الجوع » .

المماليك مصريون

هؤلاء المماليك ، بما فيهم من فضائل ورذائل ، وما كان عليه حكمهم من جور وعدل ، كان المصريون يرونهم مصريين مثلهم . يعطفون عليهم ، ويحسون بشعورهم وعواطفهم . يحبون المحسن منهم حباجما ، ويبتئسون إلى أبعد غاية إذا أصابه شر أو مكروه . ويسخطون أعظم السخط على المسىء منهم ، ولكنهم مع ذلك يرجون لو أنه يفىء إلى العدل، والإحسان ، والسداد . فهو سخط تدفعهم إليه المحبة والإشفاق . كما يسخط الوالد على ولد له مسيء . ولكنه لا ينسى ما بينه وبينه من وشائج الدم والمحبة والشفقة .

وكان المماليك أيضا يرون أنفسهم من أبناء مصر . وأن هذا البلد هو وطنهم ، مهما باعدت بينه وبينهم الأوطان وباعدت بين بعضهم وبعض أيضا . وكان كثير منهم يعلن سخطه وأسفه وألم نفسه ، على ما تضطرهم إليه المنازعات والأوضاع والضرورات من ظلم الرعية والقسوة عليها . ويود فى صميم نفسه لو تزول هذه المنازعات والأوضاع والضرورات حتى يحكم بما يشاء ، أو يستطيع ، من الرفق والعدل .

لا شك فى أن الجبرتى ظاهر العطف والمحبة للمماليك . وأنه كان صديقا لكبارهم ورؤسائهم . كما كان أبوه صديقا حميما لأمرائهم وعظمائهم . ولكن ذلك لا ينقص شيئا من اعتقادنا بهذا الذى ذكرنا من شعور المصريين نحو المماليك . بل إن محبة الجبرتى للمماليك وعطفه عليهم .هما دليل على صحة هذا الاعتقاد وصدقه . لأن الجبرتى كان مصريا من أصدق المصريين عاطفة وولاء ولصوقا بأهل مصر ، ومن أدقهم إحاطة وإدراكا لإحساسهم ومشاعرهم :

كان المصريون يرون المماليك مصريين لا وطن لهم سوى مصر . من ذلك أن السلطان عندما أرسل حملة لحرب مراد وإبراهيم . اختار حسن باشا قبطان ، قائد هذه الحملة ، الأمير اسماعيل بك شيخا للبلد . وأراد هذا أن يستعين بالعلماء .

فطلب — بعد سفر حسن باشا قبطان — أن يكتب كبار الشيوخ إلى السلطان كتابا يرجون فيه أن ترسل تركيا جنودا لتأييده ومعاونته فى حرب مراد وإبراهيم . فأبى الشيوخ أن يكتبوا . وكان المتحدث عنهم هو الشيخ العروسى . وكان رده على إسماعيل بك : إن جند الاتراك ليس كفؤا لحرب المماليك وإن الاستعانة بالدولة ليس من الحكمة . وما تنفقه على الجنود التى تطلبها من السلطان ، أولى أن تترضى به الغاضبين من « أهل البلد » لأنهم أحق به . « وأهل البلد » هؤلاء هم المماليك .

ولا ننسى مرة أخرى ، أن مرادا وإبراهيم ، كانا أفحش المماليك ظلما على أهل مصر . ومع ذلك لايرضى أهلها أن يحاربهم العثمانيون . لأنهم « أهل البلد » .

وكان المصريون يحبون المماليك أيضا وخاصة من سار فيهم بالعدل والرفق . نجد ذلك واضحا قويا فى حديث الجبرتى عن قصة الخلاف الذى وقع بين إيواظ بك وجماعته . والذى انتهى بقتله . فقد روى ذلك بكثير من العطف والمحبة والرثاء . وروى كثيرا من شعر الشعراء الذين مدحوه ، وحزنوا لقتله حزنا ظاهرا . ولم يذكر شعر الشعراء وحدهم . بل ذكر أن الناس حزنوا عليه أيضا أشد الحزن .

ولما خرج من مصر الأمير عثمان بك ذوالفقار . وكان المصريون يحبونه حبا كثيرا ، أرّخوا بسنة خروجه . وجعلوها ميقاتا لأخبارهم ووقائعهم وموالیدهم . فيقولون جرى كذا سنة خروج عثمان بك . وفلان ولد بعد خروجه بكذا من السنين والشهور والأيام .

وكان المماليك يحسون هذا الاحساس نفسه نحو مصر . كانوا يرون أنهم مصريون . وأن مصر هى وطنهم وبلادهم وأرضهم . نجد هذا الإحساس واضحا فيما يحدث به الجبرتى عنهم . فى صفحات كثيرة من تاريخه . ونجده فى أنه يسميهم « الأمراء المصرية » وكانوا هم يسمون أنفسهم هذه التسمية أيضا . فهو يذكر الأمراء المصرية ، أوالمصريين ، ويريد بهم المماليك . ويذكر وصفهم هذا فى مقابلة « العسكر العثمانى » أى جنود الدولة العثمانية . وفى مقابلة « عسكر الفرنساوية »

أى الجنـد الفرنسى . ونجد هذا الإحساس قويا ، مؤثراً فى هذه المناجاة التى ذكرها الجبرتى على لسان محمد بك الألفى . عند ما مر خارج القاهرة وهولا يستطيع دخولها ، لوقوعها تحت حكم محمد على خصمه الألد .

فقد روى الجبرتى أن الألفى وقف عنـد ذاك على أكمة وأخـذ فى مناجاتها بدعاء قوى مؤثر فيه حنين صادق ولهفة ومحبة ... أن تنظر إلى « أولادها » كيف صار أمرهم إلى الشتات والخذلان . وكيف استولى « أجلاف الأتراك » وأراذل الأرنؤود ، على بلاد مصر . يحاربون « أولادها » ، ويقاتلون « أبطالها » ، ويقاومون « فرسانها » . وأنه أصيب بعد هذه المناجاة بمرض قضى عليه .

وسواء أكان الألفى نطق بهذه المناجاة فعلا ، أم وضعها الجبرتى على لسانه . فهى تدلنا على ذلك الإحساس الذى كان يحسه المماليك نحو نسبتهم إلى مصر . وصلتهم بها ، واندماجهم فيها . وقد كان الجبرتى من أخلص أصدقاء الألفى ومحبيه ، والمدركين لطوية نفسة ودواخل إحساسه .

وكان بعض كبار المماليـك يخضع لهذه العاطفة . عاطفة أنه مصرى . فى تصرفاته وفى تفـكيره . ومواجهته للأحداث العامة . نجد منهم من لم يفـكر فى نفسه وأهله وماله وهو يحارب جيش نابليون ، كما فـكر مرادو إبراهيم ، فسجلا بذلك على نفسيهما خزيا وعاراً وإثما كبيراً . ومن هؤلاء الذين صمدوا فى حرب نابليون حتى الموت ، أيوب بك الدفتردار[١] . وكان مدير الشئون الماليـــة ، وعبد الله كاشف الجرف — وكان من كبار المماليك — وإبراهيم بك الصغير ، صهر إبراهيم بك الـكبير ، وقد مات غرقا .

ونجد كذلك من كبار المماليك الذين خضعوا ، مختارين ، لعاطفتهم المصرية ، عثمان بك حسن . فقد سعى إليه الإنجليز ليعينهم على بسط سلطانهم على مصر ،

---

(١) عندما وصل الفرنسيون إمبابة ، خرج أيوب بك ، قبل الموقعة بيومين ، وصار يقول : « أنا بعت نفسى فى سبيل الله » ، وقبل الموقعة توضأ وصلى ركعتين . ثم ركب فى مماليكه وحارب حتى قتل .

حتى يمكنوا له — فى زعمهم — ولإخوته المماليك، من حكمها. ولتكون لهم الغلبة على محمد على. ولكن عثمان بك أجاب الإنجليز بأنه هاجر، وجاهد الفرنسيين وأنه لا يقبل أن يختم حياته بمساعدة الإفرنج على إخوانه المسلمين.

وكانت العاطفة الدينية والوطنية إذ ذاك، متشابكتين. حتى لايكاد الناس أن يدركوا بينهما تمايزاً أو اختلافاً.

وذكر الجبرتى أسماء محمد بك الألفى، وحسن بك الجداوى، وإسماعيل كاشف — الذى كان يعرف بأبى قطية — فيمن أعان المصريين فى حروبهم للفرنسيين، أو فى دفع بلاء الفرنسيين عنهم، وقد أبلى أولهم فى ذلك أشد بلاء.

المماليك أصحاب النفوذ والسلطة

ويرى القارىء أننا نسوق الحوادث والآراء فى هذا الفصل مساقاً يشعر بأن حكم مصر فى هذه الفترة كان للمماليك. وأننا جعلنا عنوانه « أيام المماليك » مع أن مصر إذ ذاك كانت ولاية عثمانية.

والحق أن مصر كانت فى ذلك العهد ولاية عثمانية، بعد انتصار سليم الأول على طومان باى. ولكن ذلك كان قائماً من الناحية النظرية فقط، فقد كانت السلطة الفعلية فى يد المماليك. ولم يكن ذلك الوالى أو الباشا، الذى ترسله الدولة فى اسطنبول إلى القاهرة. إلا مظهراً لسطانها الرمزى فقط على مصر، وقليلا ما نجد من هؤلاء الولاة من عمل عملاً ما، سوى أن يجمع المال لنفسه من كل سبيل. وأن يرسل « الخزنة » أى المال الذى فرضته الدولة على مصر فى كل عام. وكثيراً ما نجد هذا الوالى سجيناً فى القلعة، حيث كان مقره، لا يبرحه إلا بإذن من المماليك. وكثيراً ما نجد المماليك يخرجون الباشا من مقر حكمه، فينفونه من مصر. ونجد أنهم كثيراً ما كانوا يطلبون والياً بذاته ليبقى، فتبقيه لهم الدولة. ويطلبون إخراج آخر فتخرجه. ونجد كذلك أنهم كانوا يقفون تنفيذ المراسيم التى ترد من السلطان نفسه.

فقد حدث أن قصد السيد عبد الفتاح الحسينى الحموى — وكان من الأشراف فى مصر — إلى اسطنبول وقابله السلطان . ثم أصدر مرسوماً بتعيينه نقيباً للأشراف . وعاد إلى مصر ، وتلى مرسوم السلطان . ولكن المماليك عارضوا فى ذلك لأنه سافر إلى الدولة من غير إذنهم ، ولم يستأذن كذلك فى ترشيحه لنقابة الأشراف . ولم ينفذ مرسوم السلطان لأن المماليك لم يرتضوه .

وتقديراً منهم لمكانة السيد عبد الفتاح وفضائله ، أذنوا له بمرتب خاص من النقابة .

وحدث فى سنة ١١٩٨ أن أرسل السلطان أمراً بتقرير المال الذى يسلم إلى الباشا . فطلب هذا من الأمراء المماليك أن يصعدوا إلى القلعة ليتلى عليهم أمر السلطان . ولكن الأمراء لم يصعدوا وأهملت دعوة الباشا ، كما أهمل أمر السلطان ، « ولم يلتفت إليه » على حد تعبير الجبرتى .

ونجد من مثل ذلك شيئاً كثيراً . واضح الدلالة على تحدى سلطة الوالى ، وسلطة السلطان نفسه . وعلى أن السلطة الواقعية لم تكن للدولة أو ممثلها فى مصر . بل كانت للمماليك .

وقد روى الجبرتى كثيراً من الحالات التى جرد فيها المماليك ، الوالى التركى من سلطته . وأنزلوه من مقره فى القلعة إلى حيث يسجن ويحاسب على ما جمع من مال . وينفى من البلاد . وفى السطور التى سجل بها عزل الوالى محمد باشا عزت ، ما يشعرنا بالمدى الذى كان لسلطان المماليك على هؤلاء الولاة .

كان محمد عزت باشا والياً على مصر فى سنة ١١٩٢ ولم يرض المماليك عن ولايته . فأرسلوا إليه بعض رجالهم « يأمرونه بالنزول » إلى بيت واحد منهم هو حسن بك الجداوى ، فلما سمع منهم الوالى ذلك قال لهم : « وما ذنبى الذى أعزل به . . . ؟ » فعاد القوم إلى إخوانهم وأبلغوهم جوابه . فأمر المماليك جنودهم بالصعود إلى مقر عزت باشا فى القلعة . فلما رآهم فى فنائها وشهد كثرتهم

«ارتعب ، فركب من ساعته ونزل من القلعة» إلى حيث أمره المماليك . ثم أحضر هؤلاء الجمال فحملت متاعه من القلعة .

وروى عن طريقة عزل الوالى رجب باشا ، قصة تثير كثيراً من التأمل والابتسام معاً . فقد تقلد هذا الوالى منصب الولاية ، فى سنة ١١٣١ وكان سابقه — مسلم على باشا — صديقاً للماليك . وخاصة لزعيمهم فى ذلك الوقت إسماعيل بك بن إيواظ . فلما ذهب الأمير محمد بك ابن إبراهيم بك أبو شنب يحمل الخزنة إلى اسطنبول ، اتفق معه رجال الدولة على الغدر بإسماعيل بك خشية أن يستقل بأمر مصر . واتفق الجميع على تولية رجب باشا ، على أن يقتل الوالى المعزول مسلم على باشا . ثم يدبر الأمر لقتل إسماعيل بك بعد الفراغ من صديقه على باشا .

وجاء رجب باشا إلى مصر فقتل مسلم على باشا ، وسلخ رأسه ، وأرسلها إلى الباب العالى فى اسطنبول . ولكنه لم يستطع أن يتم بقية المؤامرة . ولم يستطع قتل إسماعيل بك لحذره وحيطته . بل اتفق هذا مع بقية الأمراء على نزوله وعزله ثم ذهبوا إليه — فى آخر سنة ١١٣٢ — وأنزلوه من القلعة إلى بيت واحد منهم . فلما استقر فى هذا البيت . اجتمع حوله صبية القاهرة وهم ينشدون : —

باشا يا باشا ، يا عين القملة

مين قال لك تعمل دى العملة

باشا يا باشا ، يا عين الصيرة

مين قال لك دبّر تدبيرة . !

وضاق رجب باشا بنشيد الصبية هذا ضيقاً شديدا . ورجا من الأمراء أن ينقل إلى مكان آخر ، فنقل . وأرغم بعد ذلك على أن يدفع قدراً عظيما من المال . كان أنفقه فى إيقاع الفتنة بين المماليك . ثم رحل إلى الآستانة .

ومن هذه القصة ندرك شعور المصريين نحو المماليك ، ونحو العثمانيين .

على أن الدولة نفسها كانت تعترف بسلطان المماليك المطلق على مصر . وتبنى بعض تصرفاتها على هذا الأساس .

فقد كان كبير المماليك فى سنة ١١٨٣ هو على بك الذى استقل بعد ذلك بحكم مصر ، ووقعت بين الشريف عبد الله ، شريف مكة ، وبين ابن عمه الشريف أحمد منازعة على الإمارة ، فلجأ أولهما إلى السلطان يطلب عونه على ابن عمه . فكتب السلطان إلى على بك يوصيه به ، وأن يعينه على نوال حقه .

كتب السلطان بذلك إلى على بك ، ولم يكتب إلى نائبه فى مصر . لأنه يعرف من منهما الذى يستطيع بسلطانه وسلطته ، أن ينفذ ما يريد .

وقد أفاد على بك من هذه الفرصة . واتخذ أمر السلطان هذا ذريعة لفتح الحجاز . وبسط سلطانه عليه ، وضمه لمصر .

وكثيراً ما كان المماليك ينقصون مقدار « الخزنة » التى تفرضها الدولة على مصر . أو يمنعون إرسالها إطلاقا . ولا تستطيع الدولة معهم شيئاً .

عزل الوالى

وكان للمماليك تقاليد فى عزل الولاة الأتراك ، وإنزالهم من القلعة . فإذا اتفق رأيهم على عزل واحد منهم ، أصدروا قراراً بذلك حمله إليه رسول اسمه « أوده باشى » يلبس عباءة سوداء ، ويضع على رأسه قبعة سوداء أيضا لها حافة تشبه الطبق . وكانت العامة — لهذا السبب — تسميه « أبو طبق » ويركب هذا الرسول حماراً إلى القلعة فى موكب من المشاهدين والمتفرجين وخلفه طائفة من الجند . ثم يدخل على مجلس الوالى فيقدم له التحية ، باحترام كبير ، ثم يطوى طرف السجادة التى يجلس عليها . ويعلنه بقرار العزل ويقول له « انزل يا باشا » فيمتثل الوالى ويطيع . وينزل من القلعة مجرداً من كل سلطان . وقد عزل إسماعيل باشا التونسى فى سنة ١٢٠٥ وحوسب على ما جمع من مال ، وأذن له بالرحيل . ثم أمر به مرة أخرى فسجن . وأنزلت حوائجه ففتحت وفتشت . وبقى فى الحجز حتى دفع مالا آخر .

الولاة الأتراك

ولم يكن الولاة العثمانيون كلهم مثل ذلك الوالى رجب باشا الذى قتل سلفه وسلخ رأسه ، كما ذكرنا منذ قليل، بل كان بعضهم فيه شىء من خصال البر ، ومن الفضائل ، والمعرفة ، وحب العلم .

إسماعيل باشا البار بالفقراء

كان الوالى إسماعيل باشا — الذى تولى فى المحرم سنة ١١٠٧ وعزل فى ربيع الأول ١١٠٩ — رجلا بارا بالناس عطوفا على الفقراء . وعندما صعد إلى القلعة واليا عرف أن الناس فى كرب شديد . بسبب المجاعة والغلاء ، فأمر بجمع الشحاذين والفقراء وأن يوزعوا على الأمراء والأعيان والقادرين . وأخذ لنفسه ولكبار رجاله جانبا منهم [١] وعين لهؤلاء الفقراء مايكفيهم من الطعام فى الصباح والمساء . وبقى على هذا الحال حتى انقضت المجاعة والغلاء .

وأراد وهو فى الولاية أن يختن أولاده فجمع معهم مائتين [٢] من أولاد الفقراء وختنهم مع أولاده وأعطى كل غلام منهم كسوة ودراهم ، وأقام لهذا الختان مهرجانا استمر عدة أيام ، ورفعت له الزينات فى أحياء القاهرة كلها وأضيئت القناديل ليالى عديدة ، ونصبت الخيام فى قبة الغورى وقايتباى وفرشت بالفرش الفاخر والطنافس ، والوسائد الحريرية ، وسارت فرق الملاعب والمهرجين ، وشمل الناس كلهم فرح عظيم وبهجة . وأقيمت المآدب ثلاثة أيام يختلف إليها العلماء والأمراء وكبار الناس، ثم يختلف إليها الفقراء وأرباب الحرف والصناعات والعميان، وطلبة الأزهر ، وفى ختام هذه المهرجانات ، خلع على الأمراء الخلع الفاخرة وأنعم بكساوى وأموال على أرباب الملاهى ، والبهلوانيين والطباخين والحلاقين ، وغيرهم من الفقراء والمحتاجين .

---

(١) يحدد على مبارك ما اختص به نفسه بألف فقير يوميا . نقله عن تحفة المناظرين .

(٢) ذكر على باشا مبارك ، أنهم كانوا ٢٣٣٦ غلاما وأنه أمر فنودى على كل من كان عنده ولد ، ان يأتى به ليختن فكان هذا العدد . وأنه كسا كلا منهم كسوة كاملة . وأقسم ألا يقبل فى هذه المناسبة هدية من أحد .

وقد أنشأ هذا الوالى مدرسة ، ورتب لها من يدرسون الفقه ، على المذاهب الأربعة وآخرين يقرؤون صحيح البخارى شهور رجب إلى نهاية رمضان ، وخصص لهم رواتب ، كما خصص رواتب لآخرين يقرؤون القرآن صبيحة كل يوم . ووقف على مدرسته هذه وطلبتها وقفا كبيرا ، وكان يرسل خمسين بعيرا إلى الحجاز تحمل الماء لتسقى الفقراء من الحجاج . وحدث وباء أيام ولايته مات فيه كثير من الناس ، فأمر أمين بيت المال بأن ينفق على دفن كل فقير وغريب .

وكان يجلس يوما فى قصره بقره ميدان ، فمرت به عروس فقيرة . فى طريقها إلى الحمام . فتأثر من مظاهر فقرها وأرسل لها عشرة دنانير من الذهب . وصارت عنده عادة أن يرسل إلى كل عروس تمر به قدرا من الدنانير الذهب [1] .

الفقر ليس عيبا

وعندما جاء الوالى محمد خسرو باشا [2] بعد خروج الفرنسيين من مصر . عزل الشيخ خليلا البكرى من مشيخة البكرية ، كما عُزل من قبل من نقابة الأشراف ، لأمور شائنة نسبت إليه وإلى بنته أيام الفرنسيين [3] فلما أراد خسرو باشا أن يختار خلفا له فى المشيخة ، قيل له : إن هناك رجلا من سلالة البكرية يصلح لها ، لسنه ، واستقامته ، وفضائله . ولكنه فقير . فقال خسرو باشا : « الفقر ليس عيباً ، وأنا أواسيه وأعطيه » ثم جاء به فألبسه الخلعة ، وأهداه فرسا مطهماً بكسوته الكاملة . وخصص له راتبا كفاه ، وأغناه ، حتى صار بعد ذلك من الأثرياء . وكان هذا الشيخ من أتباع خليل البكرى ، واسمه السيد محمد سعد وكان ، قبل أن يوليه عزت باشا ، لا يملك شيئا ، ولا دابة يركبها .

حكيم أوغلى

وكان على باشا حكيم أوغلى ، ويسمى على باشا زاده ، واليا عادلا ، بارا ، تولى

---

(١) عن الخطط التوفيقية لعلى باشا مبارك .

(٢) تولى من ١٣ من جمادى الأولى سنة ١٢١٦ إلى ١٤ من المحرم سنة ١٢١٨

(٣) تجد تفصيل ذلك فى الجزء الأول من هذا الكتاب ص ١٨١ — ١٨٢

حكم مصر مرتين . أولاها سنة ١١٥٣ . فلما جمع الديوان ، وقرىء فيه مرسوم تعيينه ، تحدث إلى أعضائه فقال : « إنى لم أجىء مصر لإثارة الفتن بين الأمراء . وإغراء الناس ببعضهم . بل جئت لأعطى كل ذى حق حقه » ثم سلم على الشيخ البكرى وقال : إنه سيزوره بعد غد · وأرسل إليه قبل زيارته هدايا كثيرة كبيرة القيمة · وبقى على وده وتقديره له حتى خرج من الولاية . وقد سار فى حكمه على ذلك الدستور من العدل ، الذى تحدث به إلى أعضاء الديوان فى اليوم الأول من ولايته .

وعاد على باشا للولاية مرة أخرى ، فى سنة ١١٦٧ فكان فيها أيضا على دستوره ذاك « سار فى مصر سيرته المعهودة ، وسلك طريقته المشكورة المحمودة فأحيا مكارم الأخلاق وأدرّ على رعيته الأرزاق بحلم ، وبُشر ربّى عليهما ، فكانا له طبعا ، وصدر رحب لا يضيق بنازلة ذرعا » هكذا يصفه الجبرتى ويصف ولايته .

سفينة الراغب :

وكان من الولاة محمد باشا راغب · يصفه الجبرتى بأنه كان إنسانا عظيما عالما محققا ، معدودا من أفاضل العلماء ، وأكابر الحكماء ، جامعاً للرياستين ، أى الصدارة العظمى ، وولاية مصر ، حاوياً للفضيلتين · له تآليف وأبحاث فى علوم كثيرة ، وكان له خاتم نقش عليه هذا البيت :

بمحمد يرجو الأمان محمد ممّا يخاف . وفى نوالك راغب

وله ثلاثة دواوين من الشعر ، أحدها فارسى ، والآخر تركى . والثالث عربى. وكان له فى العلم فهم رجيح ، وفى الأدب ذوق صحيح . يباحث العلماء ، ويكرمهم . وله أبيات فى بعض عادات أهل مصر — وكانوا يسمونها « مواجب » — هى :

مواجب نزلت ، من بعد تطويل ، كضرطة ربطت فى طرف منديل
أو صوت ضفدعة ، فى بركة الفيل

ومن شعره فى مملوك كان لأحد الأمراء ، وقد استجاده الجبرتى :

حكى ذا الرشا المملوك ، فى الحسن ، يوسفا

وفيما ادعيه يشهد العين والقلب

خلا أن ذاك اغتاله الذئب ، فرية ،

وهذا ، حقيقا ، قد تملكه كلب

وقد ألف راغب باشا كتابا سماه « سفينة الراغب » جمع فيه مباحث فى اللغة والمنطق والتوحيد وغير ذلك من العلوم والمعارف التى كان يشتغل بها علماء ذلك العصر .

وتولى راغب باشا حكم مصر سنة ١١٥٩ وبقى فى ولايتها سنتين ونصف

وال صالح

ومن خير هؤلاء الولاة عبد الله باشا الكبورلى ، أو كبورلى زادة . تولى سنة ١١٤٢ وبقى فى الولاية أكثر من أربع سنين . وكان من أرباب الفضائل له ديوان يصفه الجبرتى بأنه جيد . وكان أهل مصر يحبونه حتى أرخوا له بهذا البيت :

ولما جاء مصرا أرخوه : لقد سعدت ، بعبد الله ، مصر

وكان عبد الله الكبورلى باشا من أهل الاستقامة والصلاح . أبطل فى عهده المنكرات والخمامير ، وبيوت البغاء ، التى كان يعرفها أهل مصر إذ ذاك باسم « مواقف الخواطى » كما أبطل شرب البوظة التى كانت منتشرة فى بولاق وباب اللوق ، وطولون ومصر القديمة . وجعل لمن كانوا يتكسبون من ذلك كله مرتبات شهرية يأخذونها من أموال كبار الدولة . وكتب بإبطال هذه المنكرات حجة أمن فيها من يكون سببا فى رجوع شيء منها .

وكان إلى عدله واستقامته وصلاحه من أهل الأدب والعلم ، له معرفة بالفنون والقراءات . تلا القرآن على الشهاب الإسقاطى ، ونال منه إجازة ، وكذلك على شيخ القرا بدار السلطنة الشيخ محمد بن يوسف . وله ديوان شعر ، وتحقيقات ، ودرس

كتب الحديث وعلومه على الشيخ أحمد العماوى — وكان عالما كبيرا — وكتب له إجازة أكثر فيها من الثناء عليه . وقد وضع الشيخ عبد الله الشبراوى — شيخ الأزهر — قصائد كثيرة طويلة فى مدحه . وروى له الجبرتى قليلا من الشعر نذكر منه :

أرى أيدياً نالت غنى ، بعد فترة ... لألأم قوم ، فى أخس زمان
فضنّت بما نالته ، شل بنانها ، ... وأن رمتُ جدواها ، فشل بنانى

وقوله : دموعك أخجلت نوء الثريا ... فحى ، بوبلها ، ربعا وحيّا
يشوقك أن يهب نسيم نجد ... فيروى عن أهيل الحى ريا

ومنها : ولى رشأ أريت الناس رشدا ... ، على كلفى به ، والرشد غيا
إذا نشرت محاسنه لعينى ... طويت ، على هواه ، القلب طيا
فقل لمعنفى ، جهرا ، عليه : ... لقد أسمعت لو ناديت حيا .

سيدى يا محمد باشا

وكان محمد باشا خسرو ، وقد تحدثنا عنه منذ قليل ، واليا صارماشديد القسوة . ولكن صرامته وقسوته كانت حربا على أرباب المهن والمتاجر الذين أسرفوا فى زيادة الأسعار ، وأفحشوا فى نهب الناس والاستبداد بهم فى البيع والشراء . فقتل منهم راغب باشا عددا غير قليل . وقطع رأس كبيرين من المتصرفين فى أمور البيع والشراء والرقابة عليهما . وثقب آذان بعض الجزارين وعلق فيها اللحم . وكانت الجند فى عهده توقع الأذى بالضعفاء من الناس . وتعترض النسوة فى سيرهن . فأخذهم على ذلك بالشدة البالغة . وأطلق عليهم الرقباء والجواسيس يتعرفون سيرهم وعدوانهم . وقتل بعض المعتدين منهم . وكذلك من اللصوص . فأمن الناس وسارت النسوة فى الطرقات لايخشين شيئا . وعاد الفلاحون والتجار للبيع والتجارة فى القاهرة . وظهر ما كان مختفيا من اللحم والخبز والبضائع والأطعمة . ووجد الناس من ذلك أمنا ورخاء وصاروا يترنمون بذكر الوالى فى القاهرة والريف .

ووضعوا فى ذلك أنشودة يغنونها فى الأسواق ويرددها صبيانهم وهى .

سيـــدى ، يامحمد باشـــا ، ياصاحب الدهب الأصـــفر

وقد تحدثت عن الولاة الأتراك فى هذا الفصل ، وعنوانه «أيام المماليك» . لأنى أكتب عن عهود لا عن طوائف . وكان هذا العهد كله فعلا من عهود المماليك وأيامهم . ولأن الحديث عن هؤلاء الولاة لايستحق أن يفرد له فصل مستقل .

مثل من حياة المماليك

وقبل أن أنتقل من هذا الحديث إلى تراجم المماليك ، أجد من الخير أن أذكر بداية ملخصة لحياة واحد منهم ، هو يوسف باشا ، حاكم الشام . وهو وإن لم يحكم مصر . فقد كان مملوكا ، تصور نشأته ، وبصور صباه ، حياة أشباهه من هؤلاء المماليك.

هرب يوسف هذا من أهله — ولا يعرف له أهل ولا وطن — وهو فى سن الخامسة عشرة . فلما وصل مدينة حماة اشتغل ببيع السرجين وروث البهائم ، والحشيش . ثم التحق بخدمة رجل اسمه ملاّ حسين . فأعجب به وقدمه ، وألبسه قلبقا[1] ، وانتقل بعد ذلك لخدمة آخر ، تعلم عنده الفروسية وفنون الحرب والرماحة. وكان يلعب القمار يوما فخسر ، ورأى من الخير له أن يهرب ، فسار إلى غزة على جواد أصيل . ورأى حاكم غزة هذا الجواد فطلبه من يوسف ، فقال له إن قلدتنى وظيفة كبيرة أعطيته لك . فعزل حاكم غزة بعض عماله ، وجعل يوسف مكانه ، ونال فرسه الأصيل .

وبدأ يوسف بعد ذلك يتدرج فى المناصب الكبيرة ، ويتصل مرة بأحمد باشا الجزار — الذى رد نابليون عن أسوار عكا — ويتصل أخرى باعدائه . ثم يعود فيخدمه ثانية . وهو فى كل حروبه ووقائعه يظهر من الفروسية والشجاعة مايحيّر ويعجب . حتى بلغ خبره السلطان فأعطاه ولاية الشام . ثم غضب عليه لانحيازه لكبير الوهابية فى الحجاز . فأمر بعزله وقتله ، وحزّ رأسه وإرساله اليه فى اسطنبول . ولكن يوسف باشا استطاع أن يفر إلى مصر ليحتمى بمحمد على ، فأكرمه هذا وأنزله فى بيت فسيح . وخصص له طعاما وافرا ومالا وخدما . وشفع له عند

---

(١) غطاء للرأس كان يلبسه أهل القوقاز

السلطان حتى عفا عنه . وبقى فى مصر ست سنوات أصيب فيها بالرئة . ثم مات فى ذى الحجة من سنة ١٢٣١ . وعندما كان هذا المملوك حاكما على الشام ، أراد أن يقوم بكثير من الإصلاحات ، ولـكنه لم يستطع .

يقول الجبرتى إنه ، بعدأن استتب له الأمر ، سلك طريق العدل فى الأحكام ، وأقام الشريعة والسنة ، وأبطل البدع والمنكرات واستتاب «الخواطى» — أى بنات الهوى المحترفات — وزوجهن . وطفق يغدق الصدقات على الفقراء وأهل العلم ، والغرباء وابن السبيل . وأمر بترك الإسراف فى المآكل ، والمشارب ، والملابس . وشاع خبرعدله فى النواحى . ثم يقول إن هذه الإصلاحات التى قام بها يوسف باشا لم تفلح ، ولم يرض عنها الناس ، لأنهم لم يستطيعوا ترك مألوفهم .

أرض الأحلام

ومن الخير أيضا أن أذكر قصة لم يذكرها الجبرتى . بل رويت قبله بسنين طويلة . ولـكنها تدل على ما كان عند هؤلاء الصبية من المماليك ، من الطموح . وما كان يراودهم من الأحلام والأمانى عندما يولون وجوههم شطر مصر من بلادهم المختلفة المتباينة . تلك القصة التى رواها المؤرخون عن الأشرف قايتباى ، وخلاصتها أنه كان له رفيق عندما قدم به تاجر الرقيق إلى مصر . وفى ليلة ما — وهما يركبان بعيرا يسير بهما إلى أرض الأحلام ، وكان القمر فى هذه الليلة بدرا ، والليل ساكن ساحر ، قال أحدهما لصاحبه : ليدع كل منا دعاء ، لعل الله أن يقبله فى هذه الليلة الصافية . فقال أولهما : أنا أطلب من الله أن أكون أميرا كبيرا . وقال ثانيهما — وكان هو قايتباى — أنا أطلب من الله سلطنة مصر . وقد حقق الله لـكليهما ما تمناه .

وسواء أكانت هذه القصة صحيحة أم مختلقة ، فهى تصور ما كان لهؤلاء المماليك من صفات الإقدام والجرأة والطموح . التى حققوا بها ، وبشجاعتهم بعد ذلك ، كثيرا من مطامعهم وأحلامهم .

محاولات للقضاء على المماليك

ومع أن محمداً علياً هو الذى قضى على المماليك ودبر لهم مذبحة القلعة . لأنه وجد أن تمكنه من حكم مصر لن يكون مادام هؤلاء فيها ، فإنه كان يرى أنه فى حاجة إليهم . فقد صدر فرمان من السلطان فى سنة ١٢٢٤ يأمر محمداً علياً بمنع بيع المماليك ، منعاً باتاً ، وعقاب من يفعل ذلك بأشد عقوبة . ولكن محمداً علياً التمس أن يسمح له بشراء بعضهم . فأذن له السلطان فى شراء عشرين منهم فقط ، مرة واحدة[1] . وقدهم كثير من السلاطين ، فى إسطنبول ، بالقضاء على المماليك . وجردوا عليهم الجيوش ، ولكنها لم تستطع ذلك ، حتى إذا هزمتهم ، لأنهم كانوا يفرون إلى الشام أو إلى الصحراء ، أو الصعيد . ثم يعودون مرة أخرى إلى القاهرة وتعود لهم السيادة والسلطة . وأراد السلاطين أكثر من مرة القضاء عليهم بالغدر والمخادعة ، فلم يمكنوهم .

أراد حسن باشا القبطان ، بعد خروج الفرنسيين من مصر ، ورجوعها إلى حكم الدولة ، أن يغدر بالمماليك . فدعا أمراءهم إلى سفينته . فلما سارت بهم — وكان أحضر جنداً لقتلهم — أمر المماليك بنزع سلاحهم ، فأبوا ، ورفعوها فى وجوه القوم . وجرت معركة قتل فيها سبعة منهم ، وأسر عدد آخر . واستغاث المماليك بالإنجليز فأغاثوهم . وأوشكت الحرب أن تقع بينهم وبين العثمانيين ، بسبب هذا الغدر للمماليك ، وكانوا إذ ذاك أصدقاء الانجليز وحلفاءهم ، واستطاع الإنجليز أن يطلقوا سراح الاسرى من المماليك وأن يأخذوا جثث قتلاهم حيث دفنوها فى مراسم عسكرية فخمة .

وفى الوقت الذى كان حسن باشا القبطان يحاول فيه الفتك بهم فى الاسكندرية كانت تدبر لهم المكايد فى القاهرة ، ولكنها لم تفلح وأعانهم الإنجليز أيضاً على الخلاص منها .

---

(١) ص ٢١٦ ج ٢ من كتاب تقويم النيل لأمين باشا سامى .

وقد كانت بين المماليك والإنجليز صلات ومعاهدات ، فى هذه الفترة ، للتغلب على محمد على . وسنجد ذلك فى ترجمة محمد بك الألفى . لأنه كان موجه هذه السياسة ، وصاحبها .

حياة المماليك

ومن الظواهر الاجتماعية العجيبة فى حياة المماليك ، عدم ولائهم للأسرة . أو شعورهم بالعاطفة الطبيعية نحو الآباء . فلم يكن ولاء الابن منهم موجها نحو أبيه . بل ولاؤه لسيده ، فهو يخلفه من بعده . فيصبح ولى أسرته القائم على رعاية شئونها . وكثيرا مايستولى على ثروته ، ويضم زوجات سيده إلى حريمه . وإذا قتل مملوك أومات . تؤول بيوته ، وأمواله ، وأمتعته ، وجواريه ، ومماليكه وأطفالهم ، وأطفاله أيضا ، وكل مايملك ، إلى سيده . أو إلى من قتله ، إذا كان قويا قادرا ، أو إلى الحكومة ، عند ما توجد حكومة ذات سلطة ، تضم ذلك كله إلى «بيت المال» . وكانوا كذلك لا يرغبون فى الزواج ، وتكوين أسرة . وهذا طبيعى فى مثل الظروف والأحوال التى أجملنا ذكرها من قبل . فإذا تزوجوا فمن أبناء جنسهم ، لا من المصريين ، ومن شذ عن هذه القاعدة — وهو نادر الوجود — وتزوج مصرية ، فإن أبناءه منها أصبحوا — فى عرفهم — لا يليقون لحياة الجندية ، ولا للإدارة ، وكان عبد الرحمن الكخيا ، من مماليك على بك الكبير ، من هؤلاء المولدين .

وكانت حياة المماليك هذه ، وفرص الثراء والسيادة والسطوة التى تتاح لهم ، مغرية لكثير من المغامرين على أن ينتسبوا اليهم ، ادعاء ،

ففى ترجمة الأمير عبد الرحمن أغا — مات فى سنة ١١٩٢ — أن الخدم الأتراك الذين كانوا يعرفون «بالسراجين» شكوا من قسوته عليهم . فحدثه فى ذلك أمير كبير . فقال له عبدالرحمن : إن السراجين أقبح خلق الله ، وأشدهم إضرارا بالناس ، وأكثرهم نصارى يدعون الإسلام ، ويدخلون فى خدمة المماليك ليتوصلوا بذلك إلى إيذاء المسلمين . وإن شككت فيما أقول ، أعطنى إذنا بالكشف عليهم

لأ ميز المختتن منهم من غيره ، فأذن له · فلما عرفوا ذلك ، لم يبق منهم ، فى اليوم التالى ، سوى عدد قليل ، وهرب أ كثرهم قبل افتضاح أمره ·

وقد ذكر الجبرتى عن عبد الرحمن أغا هذا قصة طريفة . خلاصتها : أنه كان يناصر «محمد بك أبو الذهب» · وكان يناصره أيضا أيوب بك. فتعاهدا على الإخلاص وأقسما على القرآن والسيف . ولـكن أيوب بك خان عهده · فأمر أبو الذهب بأن تقطع يد أيوب بك ولسانه ، جزاء خيانته وغدره · واختار صديقه عبد الرحمن لتنفيذ أمره هذا. فلماجيء له بأيوب بك ومعه الجلاد ، أدى له تحية «التمنى» المعروفة فى الآداب التركية ، وهى تشبه الركوع ، ثم قال له ، بكل تعظيم وتفخيم : ياسلطانم أخوك أمرفيك بقطع اليد، واللسان · فلا تؤاخذنى فإنى عبدكم ومأموركم. ولما أخذ الجلاد فى قطع لسانه ويده ، كان عبدالرحمن أغا يقول له ، أرفق بسيدى ولا تؤلمه ..!

آخر أيام المماليك

هؤلاء المماليك ، أصحاب الشجاعة والفروسية ، والإقدام والبطش ، وأصحاب الحيلة ، والذكاء ، والطموح ، والجرأة ، وما ذكرنا من صفات وخصائص . استطاع محمد على أن يخدعهم ، ويوقع بكثير منهم فى مذبحة القلعة [1] . وأن يطارد من نجا منهم إلى الصعيد ، أوالسودان. وقدطال عليهم الأمد فى الغربة والحرمان · حتى نجد فى حوادث شهر ربيع الثانى من سنة ١٢٣١ حديثا يذكر فيه الجبرتى نهاية أيامهم ، وتوسلهم إلى غريمهم ، محمد على ، وإباءهم ماعرضه عليهم ليعودوا إلى مصر . فيقول ما خلاصته : —

وفى أواخر هذا الشهر حضر مملوك يسمى سليم كاشف ، قادما من عند بقايا الأمراء وأتباعهم ، الذين رماهم الزمان ، وأقصاهم وأبعدهم عن أوطانهم . فأقاموا فى دنقلة بالسودان يأكلون مايزرعونه بأيديهم من الدُّخن [2] والذرة . وبينهم وبين الصعيد نحو أربعين يوما · وقد مات أكثرهم ومعظم رؤسائهم ، وانقطعت أخبارهم

---

(١) فصلنا ذلك فى الجزء الثالث من الـكتاب .

(٢) فى دائرة المعارف للبستانى أنه نبات يصنع من حبوبه خبز يؤكل كالأرز .

حتى عن أهل منازلهم . فلما طالت عليهم الغربة أرسلوا هذا الرسول بكتاب إلى الباشا ، محمد على ، يستعطفونه ، ويسألون فضله ، ويرجون مرحمته ، بأن ينعم عليهم بالأمان على نفوسهم . ويأذن لهم بالحضور من دنقلة إلى مصر ، يقيمون بها ويتعيشون فيها بأقل العيش ، تحت أمانه ، ويدفعون مايجب عليهم من الضرائب التي يقررها . ولا يتعدون مراسمه وأوامره . فلما حضر سليم كاشف قابل الباشا فسأله عن حالهم وشأنهم ، ومن مات منهم ومن لم يمت . وأقام الرسول بعد ذلك أياما ، ثم سلم إليه محمد على جواب الرسالة التي قدم بها من الأمراء . وكان جوابه عليهم أنه يقبل حضورهم على شروط . منها أن يرسلوا أمامهم طليعة تخبره بحركاتهم وانتقالاتهم قبل أن يتحركوا ، حتى يبعث اليهم من يتلقاهم ويرافقهم . وأنهم إذا دخلوا أرض مصر ، لايأخذون من أحد شيئا ، حتى «ولا دجاجة أو رغيفا» بل الذى يرسله محمد على لمرافقتهم ، هو الذى يتولى إطعامهم ، ومصروفهم ، وعليق دوابهم . وألا يقطعهم أرضا ، وألا يقيموا فى أى مكان خارج القاهرة . بل يقيمون عنده ، وينزلون على حكمه . ولكل واحد منهم مايليق به من المسكن ، والمأكل ، والتعيين ، والمصروف . ومن كان ذا قوة قلده منصبا ، أو خدمة ، أو ضمه إلى بعض خاصته . ومن كان ضعيفا أو هرما أجرى عليه نفقة لنفسه وأهله . وعاد الرسول بهذا الجواب ثم لم يرجع ، ولم يعد أحد من الأمراء على هذه الشروط التى شرطها محمد على ، ولم يرضوها .

ويقول الجبرتى بعد ذكره لهذه الرسالة وجوابها : إن من العبر أن الأمراء عند ماعادت لهم السيادة والحكم ، بعد خروج الفرنسيين ، وقتل طاهر باشا «كانت عساكر الأتراك فى خدمتهم ، ومن أرذل طوائفهم . وكانت علائفهم تصرف عليهم من أيدى كتابهم وأتباعهم ، وإبراهيم بك هو الأمير الكبير ، وراتب محمد على هذا ، من الخبز واللحم والأرز والسمن ، الذى عينه له إبراهيم بك ، يصرف من مطابخه» .

ونرى فى ترجمة إبراهيم بك أنه قد طال به العمر واشتدت عليه المحنة فى دنقلة ، حتى كان يزرع الدخن ويقتات به ، ويلبس قمصان الجلابة .

وكان هؤلاء المماليك ضعفاء الإدراك للأمور العامة . لا تتجاوز نظرتهم حدود مصر أو حدود الدولة العثمانية ، على أكثر تقدير . لا يحيطون بسياسة الدول ولا بما جد فى العالم من آراء ومخترعات . لذلك عندما وقف أمامهم نابليون ، هاله مظهرهم ، ومنظر جيشهم وخيلهم ، فلما حاربهم لم يصمدوا أمام مدافعه إلا أقل من ساعة ، فى موقعة إمبابة . ولم يوجد بينهم من كان على إدراك حسن للأمور العامة سوى على بك الكبير ، ومحمد بك الألفى . أما أولهما فقد أفاد من العداوة التقليدية بين روسيا وتركيا ، واستعان بالأولى على استقلال مصر ، والانفراد بحكمها . وأراد الثانى أن يفيد من الصداقة التى كانت قائمة بين انجلترا وتركيا ليصل إلى مثل ذلك أو قريب منه ، وسنجد هذا وذاك فى ترجمتهما . وكان ضعف إدراكهم هذا من أسباب القضاء عليهم .

مع أثر القضاء على المماليك

وقبل أن ننتقل من ذكر خصائص المماليك ومميزاتهم ، إلى تراجم عظمائهم . نقف وقفة لابد منها لنتدبر بعض الآثار التى ترتبت على إفناء المماليك وخلو الحياة المصرية العامة من وجودهم ونفوذهم . وقفة نلخص فيها مانعتقد أنه كان أثرا من آثار مذبحة القلعة ، فى حياة مصر السياسية والقومية .

ولست هنا بسبيل الحديث عن المماليك ، وأثرهم فى حياة مصر العامة . ولا بسبيل الحكم على سلوكهم فى حكم البلاد ، وإدراكهم لمسئولية الحكم عندما كانت مصر تحت سلطانهم ، فذلك كله حديث لا شأن لنا به الآن . ولكن الحديث خاص بأثر هذه المذبحة فى حياة مصر السياسية والقومية .

وقد يتعجب البعض من ذكر «القومية» فى هذا المجال . ولكن هناك عاملان تاريخيان يجب ألا نغفلهما . نذكرهما بغاية الإيجاز ، لنزيل هذا التعجب الذى قد يتبادر إلى ذهن البعض . العامل الأول : أن المماليك — على رغم مالقى منهم المصريون من شر ، وعلى رغم أنهم لم يولدوا فى مصر — كانوا يرون أنفسهم مصريين لا وطن لهم غير مصر ، وكان المصريون يرونهم كذلك . كما رأينا فى هذا الفصل

منذ قليل ، والعامل الثانى : أن الدولة كانت ، فى أول عهد محمد على ، منعت استجلاب المماليك إلى مصر ، وحرمت بيعهم فيها ، وقد رأينا هذا وذاك من قبل ، فكانت النتيجة المحتومة لذلك — ولو بعد فترة طويلة — لو لم يقض على المماليك ، أن ينصهر من بقى منهم فى الحياة المصرية ، وأن يكون مجال نشاطهم العام والخاص فى حدود القومية المصرية . ومن هنا كان استئصالهم فى مذبحة القلعة ذا أثر كبير فى تكوين هذه القومية ونشاطها وحدودها . كما كان له أثر فى الحياة السياسية لمصر ، وأستطيع أن أقول : إنه أثر كبير . ولعل محمدا عليا قصد هذا وذاك ، عندما أقدم على جريمته معهم .

ولئن أراحت هذه المذابح المنكرة محمدا عليا من خصوم كان يخشى خطرهم ، وسنناقش هذه الحجة أيضا ، فقد خسرت مصر بفقد هذه الطبقة من الرجال خسارة كبيرة . فقد كانت الأوضاع العامة ، ومزايا المماليك التى لا تنكر ، وتوزيع الثروة . كان ذلك كله ، إلى جنب اعتراف المصريين بانفراد المماليك بالتصرف فى الشئون العامة وتدبيرها ، مع العثمانيين . كان هذا وذاك كفيلا بأن يجعل من المماليك قوة موازنة تحد من سطوة محمد على وبطشه إذا انفرد بالحكم .

كان بقاء هذه الطائفة من المماليك — على رغم ما كان فيهم من سوء — كفيلا بإيجاد طبقة لها من المواهب ، ومن الثراء ، ومن القوة ، ومن ماضيها فى الحكم والسيطرة ، ما يجعلها شبيهة بطبقة النبلاء فى إنجلترا . وكانوا ، كما قلنا ، سيجدون أنفسهم بحكم انقطاع الصلة بينهم وبين بلادهم ، وانقطاع بيع أجناسهم فى مصر ، أنه لا معدى لهم عن الاشتغال بشئون الحياة المصرية العامة . أى بسياسة الأمة . بل كان محمد على يستطيع — لو أنه كان يريد لمصر حياة كريمة ، لا أن ينفرد فيها بالسلطان المطلق — أن يجعل منهم برلمانا ، أو مجلسا للمشورة وتدبير الرأى فى المسائل العامة . وكان اندماج هذه الطائفة من المماليك فى الحياة المصرية على مدى الزمن ، كفيلا أيضا بإيجاد « الطبقة المتوسطة » التى نعتقد أنها لم تكن موجودة فى حياة مصر إذ ذاك ، والتى هى عماد الحياة العامة لكل أمة ، وكانت

هذه الطبقة المتوسطة ستجمع بين خصائص الشعب المصرى من النشاط ، والصبر ، والجلد على العمل ، والذكاء . وبين خصائص المماليك من الشجاعة ، وقوة البأس ، والصلابة . إلى جنب مواهب أخرى نفسية ، وجسمية ، ومظهرية .

هذه الآثار فى حياة مصر السياسية والقومية . كان لابد من وقوعها — على ما أعتقد — لو أن محمدا عليا أبقى على المماليك .

بقى القول بأن القضاء على المماليك ، كان أمرا لابد منه ليتمكن محمد على من حكم مصر . ولنترك ما فى هذا التعليل من دواعى الأنانية ، وأنه لا يبرر هذا الغدر ولا هذه الجريمة . لنترك ذلك لنقول إن محمدا عليا لم تكن به حاجة للإقدام على هذه الجريمة . فقد كان كبار المماليك الذين يخشى محمد على منافستهم له فى حكم مصر أربعة : مرادا ، وإبراهيم ، والألفى ، والبرديسى . أما مراد ، فقد مات بالطاعون قبل خروج الفرنسيين من مصر ، أى قبل أن يسعى محمد على لتملكها . وأما إبراهيم فقد كان طريدا خارج القاهرة ، قليل الحول ، ضعيف الحيلة . ومات الألفى ، ألد خصوم محمد على وأقواهم ، فى يناير سنة ١٨٠٧ . ومات البرديسى قبله بنحو شهرين . أى أنهما ماتا قبل مذبحة القلعة بأربع سنوات وشهرين ، أو أربعة .

أما من بقى من المماليك ، غير هؤلاء ، فقد أرضى محمد على بعضهم بالمال والمصاهرة ، واستخدمهم فى القاهرة ، تحت رقابته ، أو فى بلاد لا يُخشى فيها لهم خطر . ومن بقى بعد ذلك ، لم يكن من الخطر ، ولا من القوة ، وكثرة الأتباع والأموال ، بحيث يخشى منه محمد على ، على سلطانه . وكان بيعهم قد منع ، كما ذكرنا ، فلن يتقوّوا بغيرهم .

على أنا نسجل رأيا نعتقد أنه حق : وهو أن مذبحة القلعة ، والقضاء على المماليك ، كان لهما أثر سيىء ، بل كبير السوء ، فى حياة مصر السياسية والقومية . ولا تعنينا بعد ذلك الدوافع التى أقدم بسببها محمد على على هذه المذبحة . ولا المبررات

التى بررّ بها مؤرخوه ذلك · ونحن نعرف كيف كتب هؤلاء المؤرخون تاريخ محمد على ·

فعندما أتم محمد على القضاء على المماليك ، واستأصلهم . قضى ، فى الوقت نفسه ، على الطائفة التى كانت ظروف مصر إذ ذاك ، كما كان وضع هذه الطائفة الخاص ، تجعل منها الأداة الوحيدة لإيجاد توازن فى الحياة السياسية ، وإيجاد شىء من الرقابة والهيمنة — أو المشاركة — فى تبعات الحكم . لذلك سهل على محمد على بعد ذلك التخلص من السيد عمر مكرم ، زعيم القومية المصرية إذ ذاك ، عندما بدأ عمر يعارض محمدا عليا ، باسم الشعب ، وباسم المواثيق التى أخذت عليه عندما تولى الحكم .

عظماء المماليك

الأمير إيواظ بك

إسمه «عوض» بك ، ولكن الأتراك، والمماليك لا يستطيعون أن ينطقوا حرفى العين والضاد ، فحرف اسمه إلى «إيواظ» . كان من أمراء الجراكسة القاسمية . بل كان أشهرهم وأعظمهم شأنا . تولى الإمارة فى سنة ١١٠٧ . وفى سنة ١١١٠ أرسل السلطان فرمانا إلى الوالى فى القاهرة بتأديب رجل من العرب اسمه عبدالله وافى المغربى كان قد تغلب على حكم الصعيد . فجمع الوالى الأمراء ، واتفق الجميع على تجريد حملة على هذا المتغلب ، يكون قائدها إيواظ بك . وخرج هذا ، ومعه ألف جندى ، بعد أن أنعم عليه الوالى بخلعة ، ولكنه عرف بعد أيام أن خصمه جمع جيوشا كثيرة . فأرسل إلى القاهرة يطلب مددا . فجمع الوالى الأمراء واتفقوا على أن يمدوه بجند آخر ، يقوده خمسة من الأمراء . وخرج هؤلاء الأمراء بمددهم إلى الجيزة فبقوا فيها أياما . ثم جاءهم الخبر بأن إيواظ بك حارب المغربى وافى وجنده الكثيف ، فهزمه ، وتفرقت جموعه . ثم تتبعهم حتى أضعف شوكتهم . وعاد بعد ذلك فدخل القاهرة فى موكب حافل يحمل رؤوس القتلى . ثم صعد إلى القلعة فأنعم عليه الوالى وعلى كبار جنده . ونزلوا إلى بيوتهم فى أبهة عظيمة . وأرادت الدولة بعد ذلك تجريد حملة على الحجاز لعزل شريفها سعد ، وتنصيب الشريف عبدالله مكانه . واختير إيواظ بك ، أميرا للحملة وحارب الشريف سعدا فغلبه . وأجلس عبدالله مكانه ، كما أرادت الدولة . ثم بقى فى مكة إلى أن أدى فريضة الحج . فأنعم عليه السلطان بإمارة جدة . كما اختاره أميرا للحج .

وجرت بين الأمير إيوظ بك وبين خصومه حروب قاسية . أصيب فيها برصاصة طائشة قاتلة ، وهو على ظهر جواده . بعد أن هزمهم ، وفروا أمامه .

كان إيواظ بك شجاعا مقداما ، فيه شهامة ، وتصميم . عندما خرج من بيته

لهذه الحرب التى قتل فيها ، اشتبك المزراق الذى يحمله تابعه فى سقف الباب فكسر . وقال له أنصاره إن كسر المزراق فأل سيء . وأرادوا منعه من الخروج فقال لهم : لعلى إذا مت فى الحرب ينصلح الحال ، وأخذ مزراقا آخر . ثم خرج للحرب . ولما قتل ، فى سنة ١١٢٣ ، حزن عليه الناس . وقال شاعر العصر الشيخ حسن البدرى الحجازى شعرا يرثيه .

ولكن الناس وجدوا بعد موته عزاء فى ابنه الأمير إسماعيل بك .

إسماعيل بن إيواظ

كانوا يسمونه الأمير السعيد ، الشهيد . وقد ذكرنا من قبل طرفا من أخبار مروءته ونبل نفسه . وكانوا يصفونه بالأمير المعظم ، والملاذ الأفخم . نشأ فى بيت أبيه إيواظ بك ، فى رفاهية وسيادة . وكانت النساء تسميه — لفرط جماله — قشطة بك . فلما قتل أبوه ، اختير للإمارة بدلا منه . وكانت سنه يوم نصب أميرا ، ست عشرة سنة . ولكنه كان لهذه الإمارة أهلا وكفؤا .

جلس أمراء أبيه وأتباعه ، فى حيرة من أمرهم ، وحزن ، بعد قتل كبيرهم وسيدهم . ثم نظر بعض الجالسين إلى كبير من الأمراء ، هو قيطاس بك ، فرآه يبكى . فقال له : لاتبك على سيدنا ياقيطاس بك . بل نختار ابنه هذا — وكان إسماعيل جالسا معهم — أميرا علينا بدل أبيه . واتركوا لى أنا إمارة الحج ورياسة الجند ثم نحارب أعداءنا . والله يعطى نصره من يشاء .

وانتهى الرأى إلى ذلك . وكان الفريقان المتحاربان قد جعلا بينهما — بعد قتل إيواظ بك — هدنة ثلاثة أيام ، ثم يستأنفان الحرب . وفى هذه الأيام الثلاثة استطاع إسماعيل بك وأنصار أبيه أن يجمعوا شملهم . فلما عادت الحرب تغلبوا على خصومهم . حتى قتل منهم من قتل . وهرب من هرب خارج القاهرة ، وشتتوا فى البلاد . واستقر إسماعيل بك أميراً لمصر ، بالإشتراك مع نصيره قيطاس بك ، وإبراهيم بك أبو شنب . ولكن أولهما لم يكن مخلصا لإسماعيل بك ، بل

كان يمنا كده ، ويكيد له . حتى جاء الوالى عابدى باشا فأحب إسماعيل وأعجب به إعجابا شديدا . وأراد أن يريحه من خصمه وشريكه قيطاس بك ، فقتله . ثم جاء أمر السلطان بتولية إسماعيل بك إمارة الحج . فلما سار بالحجيج ، حفر كثيرا من الآبار والعيون فى طريقه ، ومهد كثيرا من الطرق إلى البلاد المقدسة . وكان ذلك سببا فى اختياره ، أكثر من مرة ، لهذه الإمارة . ثم مات شريكه الآخر إبراهيم بك أبو شنب فتحرك عليه حقد كبار المماليك وحسدهم . وجاهره محمد بك جركس بالخصومة حتى نصب له كمينا أطلق عليه النار وهو فى طريقه إلى الديوان ، ولكنه لم يصبه ، ثم هزم جركس بك ، وانتاده أنصار إسماعيل بك إليه ، فكان من عفوه عنه ما روينا من قبل فى هذا الفصل . وأبى أن يسمع نصيحة الناصحين بقتله .

ولما لم يستطع خصومه قهره علانية فى القاهرة . سعوا سعيهم ، وبذلوا أموالهم فى اسطنبول ، حتى أمرت الدولة باختيار رجب باشا واليا على مصر ، على أن يقتل إسماعيل بك ، وعابدى باشا نصيره . ويقول الجبرتى : إنهم رشوا رجال الدولة العثمانية باربعة آلاف كيس [1] حتى نالوا هذا الأمر . وأتموا سعيهم بإخراج جركس بك من منفاه فى قبرص ، وإدخاله القاهرة سرا . وخرج إسماعيل بك فى هذه السنة — ١١٣١ — أميرا للحج أيضا . وفى غيبته قدم الوالى الجديد . وقتل عابدى باشا — كما أشرنا من قبل — وأظهر جركس بك نفسه من مخبئه فأرسل طائفة من أمرائه ، وجنده ، لقتل إسماعيل بك ، وهو فى طريقه إلى القاهرة . ولكن رجلا أمينا تطوع بسبقهم ، وأسرع فأخبره بما كان ، ونصحه بالهرب ، فدخل القاهره مختفيا . ثم أظهر نفسه فجأة فى مجلس كان فيه خصمه وعدوه جركس بك . فذكر هذا ما كان من عفوه عنه وصفحه وإكرامه . ثم اتفق الجميع على أن يعزلوا ذلك الوالى الذى قدم للفتك بإسماعيل بك ، والذى قتل سلفه وسلخ رأسه . وقد عزلوه فعلا ، وأنزلوه من القلعة وحاسبوه على الأموال . ثم سافر إلى إسطنبول .

---

(١) الكيس ٢٥ر١٢ ألف فضة : وهو يساوى نحو أربعين جنيها بالعملة الحالية .

ولـكن هذا كله لم يرض جركس بك ، ولم يشف مافى قلبه من الحقد على ابن سيده ، إسماعيل بك ، فظل يعاكسه ويناكده ويكيد له ، وهو يقابل ذلك بالصفح والتسامح . وانتهى الأمر بأن دبر جركس ورجاله قتل إسماعيل بك غدرا . فأدخلوا عليه رجلا يقدم إليه ورقة يشكو فيها من أمر . فلما أخذ يقرؤها طعنه واحد منهم بخنجر . ووثب آخرون على رجاله فقتلوا طائفة منهم . وكان ذلك فى سنة ١١٣٦ وسنه إذ ذاك ثمانية وعشرون عاما . ويقول الجبرتى : إن الأمير إسماعيل بك « كانت أيامه سعيدة وأفعاله حميدة ، والإقليم فى أمن وأمان ، من قطاع الطريق وأولاد الحرام » وأنه كان صاحب عقل ، وتدبير ، وسياسة ، وفطانة ، وفراسة . وقد ذكرنا من قبل طرفا من حيلته ومروءته . وهو الذى جدد سقف الجامع الأزهر ، وكان آيلا للسقوط ، وأنشأ مسجدى السيد إبراهيم الدسوقى ، والسيد على المليجى ، وعمائر أخرى . ولما تم بناء مسجد المليجى ، ذهب ليراه ، ثم سافر إلى طنطا . ولم يخش تدبيرات خصومه فى القاهرة ودسائسهم . مع أن عدوه جركس بك ، رغم شجاعته ، لم يخرج من القاهرة ، منذ أظهر نفسه فيها . وقليلا ما كان يترك بيته .

وكأن إسماعيل بك أراد أن ينفرد بحكم مصر ، من دون غيره من المماليك . بل لعله أراد أن يستقل بها ، كما فعل على بك الـكبير بعد ذلك بوقت غير طويل . فقد استكثر إسماعيل من شراء المماليك ، واستخدامهـــم . وشجع على استجلابهم حتى غلا ثمنهم ، ونشط تجارهم نشاطا كبيرا لجلبهم من البلاد وبيعهم له . واختار للمناصب الهامة ، وكبريات الوظائف ، جماعة من أنصاره ومماليكه ومماليك أبيه . ومكّـن لنفسه عند رجال الدولة فى إسطنبول ، واستطاع أن ينال رضاهم . أو يشتريه بالرشى والهدايا .

وقد أوشك إسماعيل بك أن ينجح سعيه . واستطاع أن يكون صاحب الشوكة والـكلمة الأولى فى مصر . حتى دس له خصومه عند رجال الدولة فى إسطنبول قائلين لهم : إنه لو ترك ، وبقيت له السلطة ، فسيخرج مصر كلها عن سلطان الدولة ،

ويخرج واليها من القاهرة مطرودا ، ويمتنع عن دفع ماللدولة من مال . وشفعوا نصيحتهم هذه بأربعة الآلاف كيس ، التى قدموها رشوة لرجال السلطان : ثم دبر له جركس بك ومن معه ، هذه القتلة الغادرة ، التى قضت على أحلامه ، وأمانيه ، كما قضت على شبابه وحياته كلها .

ولما مات هذا الأمير ، حزن عليه أهل مصر حزنا شديدا ، كما حزنوا على أبيه من قبل . وقيلت فيه المراثى الكثيرة ، ولما بلغ خبر موته الحرمين الشريفين ، حزن عليه أهلهما أيضا . وصلّوا عليه ، فى الكعبة ، صلاة الغائب .

جركس بك

امتاز محمد جركس هذا ، منذ صباه ، بالشجاعة الفائقة ، والجرأة النادرة . كان سيده ، يوسف بك القرد ، يراه أقوى مماليكه جميعا ، وأشدهم بأسا ، وأعظمهم شجاعة . فلما مات يوسف بك أخذه إبراهيم بك أبو شنب ، وولاه منصبا كبيرا . ثم اختير بعد ذلك حاكما على جرجا ، وإقليم البحيرة . وكان حكم هذا الإقليم ، ومن فيه من العرب ، أمرا شاقا عسيرا . فتغلب جركس بك على جميع المشقات . وأخضع العرب وغيرهم لحكمه وأرغمهم على الطاعة .

وطلبت الدولة العثمانية إلى مصر ، أن تمدها بطائفة من الجند ، والمماليك ، ليعينوها فى حروبها مع دول أوربا . فأجمع الوالى والأمراء على اختيار جركس أميرا على هؤلاء الجند ، وسافر معهم للحرب فى سنة ١١٢٨هـ (١٧١٦)م ثم عاد بعد سنتين .

لم يرد جركس بك بعد عودته أن يظهر الطاعة للأمير إسماعيل بن إيواظ ، شيخ الأمراء فى ذلك الوقت . فجمع حوله كثيرين من المماليك . وحارب ابن إيواظ ولكنه هزم ، وجيء به أسيرا ، فعفى عنه إسماعيل بك ، كما رأينا فى ترجمته ، ونفاه إلى قبرص . ولكنه تسلل إلى القاهرة . ودخلها متخفيا فى زى أحد الدراويش . وائتمر مع مماليكه بإسماعيل بك حتى قتلوه غيلة . وصار جركس أميرا وحاكما مطلقا .

عند ذلك ظهرت سجية جركس على حقيقتها . ووجدت نفسه سبيلها للظلم والقسوة والبغى :

اختار أنصاره من المخلصين له . الذين يتفقون معه فى صفات الظلم والقسوة . وجعل الوظائف الكبرى كلها فى أيديهم . وكان منهم اثنان : واحد اسمه الصيفى ، والثانى اسمه أحمد أغا ، المعروف بلهلوبة . أمعنا فى القسوة بالناس وإيذائهم حتى بلغا فى ذلك مبلغاً لم يُسبقا إليه . وكان سيدهم جركس يؤيدهم فى ذلك ، ويفعل مثلهم . وكان حوله ثلاثة عشر أميراً ، كلهم على شاكلته . كان رجاله وجنده يأخذون الأشياء من الباعة والفقراء ، ولا يدفعون ثمنها . ومن امتنع ، ضربوه ، أو قتلوه . وكانوا يخطفون النساء والأولاد . ويدخلون بيوت التجار ، فى ليالى رمضان ، فلا يتركونهم حتى يأخذوا ثياباً غالية ، ومالا . فكان التجار وأعيان القاهرة ، يدخلون بيوتهم ويغلقونها قبل الإفطار ثم لا تفتح إلا فى الصباح . ودخل اثنان من رجاله ، والناس فى صلاة التراويح ، على رجل من كبار التجار ، اسمه الخواجا لطفى النطرونى ، وكان كفيف البصر عظيم الثراء فقتلوه بالخناجر ، وهو جالس فى بيته . ثم سلبوه ماله . وجاء بعدهم الصيفى ، فأخذ ما بقى فى البيت من مال ومتاع .

وذهب رجاله إلى النحاسين ، والصاغة ، وخان الخليلى ، والغورية ، والسكرية . فنهبوا ما عند تجارها من النحاس والذهب والفضة ، والأقمشة ، والسكر . وهجموا على النساء فى الحمامات العامة ، فسلبوا ثيابهن ، ونزعوا ثياب كثير من الناس فى الأسواق ، ونهبوا ما معهم من المال . وقتلوا طائفة من أعيان القاهرة فى طريق بولاق ، وفى وسط المدينة ، فى وضح النهار ، وذهب الناس إلى العلماء يلتمسون منهم الوساطة عند الوالى حتى يدفع عنهم هذا البلاء . ولكن العلماء لم يذهبوا ولم يتوسطوا .

وزاد طغيان جركس بك وجبروته . حتى امتنع من الصعود إلى الوالى فى القلعة ، وعن حضور الديوان مع بقية الأمراء ، وعن صلاة الجمعة . فلما كانت

سنة ١١٣٧ أبرز الوالى محمد باشا النيشانجى — وقد ضاق صدره من جركس — أبرز فرمانا من السلطان بعزل جركس وبادر بإبلاغه إلى الأمراء ، والعلماء ، ونقيب الأشراف . فلما علم جركس خبر ذلك ، طلب أن يحضر إليه الأمراء ، والعلماء ورؤساء الجند . وكان الوالى عند ما أبلغهم فرمان العزل ، أمرهم بعدم الذهاب إلى جركس . ولكنهم رأوا أن يذهبوا . وكان منهم الشيوخ : البكرى ، والسادات ، ونقيب الأشراف . فلما تكامل جمعهم ، أمر مماليكه أن يحيطوا بهم ، يحملون أسلحتهم . ثم قال لهم إما أن تكونوا معى ضد الباشا الوالى ، وإما أن أقتلكم جميعاً . فقالوا له : « نحن معك على ما تريد » ثم أمر فكتبت فتوى بعزل محمد باشا ، وقعها العلماء . وتركهم جركس فى محبسهم ، وجنده يحيطون بهم ، بالسلاح . ولم يطعمهم طعاماً ، ولم يأمر لهم بأغطيـــة تقيهم البرد ، وكان بعضهم فى فناء البيت . ترك جركس الأمراء ، والعلماء ، ونقيب الأشراف ، على هذا الحال ؛ فباتوا ليلتهم . وأرسل بعض خاصته إلى الوالى فقال له : إما أن تعتزل أو تحارب ، فآثر الوالى أن يعتزل . ثم أمر جركس أن يكتب العلماء والأمراء كتاباً يقولون فيه : إن الوالى باع غلال الحرمين ، وغيرها من أموال الوقف ، فكتبوا ، ثم وقع على ذلك القاضى . وأرسل جركس هذه الوثائق كلها إلى إسطنبول . فأرسل سلطانها والياً جديداً إلى مصر . لم يؤد له جركس عند حضوره مراسم الاحترام التى اعتاد الولاة أن يلقَوْها .

واستطاع ذو الفقار بك الفقارى ، بعد قتل إسماعيل بك ، أن يجمع شمل رجاله ومماليكه . وأن ينهض لحرب جركس بك . وكانت بينهما وقائع انتهت بفرار جركس إلى الصعيد ثم إلى إسطنبول . وبعد فراره أمعن خصومه فى قتل مماليكه ورجاله . وأسرفوا فى التنـــكيل بهم حتى أفنوهم . وتسلطوا على بيته بالنهب والسلب ، فوجدوا فيه ثروة طائلة . وجدوا ألف رأس من الغنم . وألف قنطار من الحديد . وأشياء أخرى كثيرة ، أخذوها ، وهدموا البيت ونزعوا أبوابه ، ونوافذه ، قبل أن يمضى النهار .

وفى إسطنبول لقى جركس بك تكريماً ، وحفاوة ، تقديراً لما بذل فى الحرب إلى جانب جيش الدولة من قبل . وعرض عليه رجال السلطان رتبة الباشوية ،

وولاية من ولايات الدولة . فلم يرض إلا أن يعود أميراً على مصر . فأعطاه السلطان مرسوماً بالإمارة عليها . وقيل له إن استطعت أن تنتزع الإمارة من ذى الفقار ، فهذا مرسوم السلطان قد أعطيناه لك .

وعاد جركس إلى مصر . فنزل إلى جزيرة مالطة . وأنشأ فيها سفينة حملها بالذخيرة والمدافع وأدوات الحرب . واتصل بأنصاره فى القاهرة وغيرها ، ثم نزل فى الإسكندرية ، وتسلل ، عن طريق الصحراء ، إلى الصعيد . وحارب جيش ذى الفقار حتى غلبه . ثم أظهر مرسوم السلطان بإمارته على مصر . وانتقل بعد ذلك إلى الوجه البحرى . وكان ذو الفقار أعد له جيشاً عظيما . فلما كانت الحرب ، وجد جركس أنه مغلوب ، وأنه قد أحاط به أعداؤه من كل جانب . فنزل بفرسه إلى النيل ، ثم أراد أن يتركها ليصعد إلى الناحية الأخرى سباحة . ولكنه لم يستطع أن يتخلص من فرسه ، التى كانت تغرق . فغرق إلى جانبها . ثم أخذ خصومه رأسه ، فسلخوها ، وأرسلوها مع المبشرين إلى القاهرة . حيث كان أنصاره ينتظرون قدومه إليها منصوراً .

ولكن أنصار جركس بك كانوا قد تمكنوا من قتل ذى الفقار بك أيضاً . وكان بين قتل الخصمين العنيدين خمسة أيام . ولم يعلم أحدهما بمصرع عدوه .

وكان قتل جركس بك فى رمضان سنة ١١٤٢ (١٧٣٠)

عثمان بك ذو الفقار

أشرنا من قبل إلى عثمان بك هذا ، عند ذكر فضائل المماليك . وذكرنا طرفا من حيله ، وعدله ، وعفته عن أموال الناس ، وامتناعه عن الرشوة وقسوته على المرتشين ، ومن فروسيته ، حتى وهو شيخ كبير ، وحب الناس له ، حتى كانوا يؤرخون بسنة خروجه .

تولى عثمان بك ، صنجقاً وأميراً فى سنة ١١٣٨ ، كما تقلد مناصب كثيرة ، وكشوفيات[1] فى الأقاليم ، فى حياة سيده الأمير ذى الفقار . واستطاع عثمان

---

(١) الكاشف حاكم المديرية .

بعد قتل سيده أن يتغلب على خصومه من القاسمية . وأن يقتل منهم طائفة كبيرة ، بالاتفاق مع الوالى التركى محمد باشا النيشانجى ، وكان كلما أخذ الجنود أميراً من القاسمية أحضروه إلى الوالى فيرسله إلى عثمان بك ، فيأمر هذا برمى عنقه ،أمامه . وعظم نفوذه بعد ذلك . وجاء فرمان من السلطان باختياره أميراً للحج فى سنة ١١٥١ ثم سنة ١١٥٥ . فسافر وعاد فى أمن وأمان مع المحمل المصرى . وأحس بعد ذلك بقوته وسطوته ، فشمخ على الأمراء الآخرين . ونفذ أحكامه عليهم . وكان يسير فى الناس سيرة حسنة ، ويعدل بينهم ، وأمر بمنع الشهود الذين كانوا يقفون على أبواب المحاكم لشهادة الزور . وإذا اقتضى الأمر أن تفتش بيوت الأمراء والمماليك ، كان لا يتحرج من ذلك ، لإقامة العدل . ولم يكن يصادر أحداً فى ماله ، كما كان يفعل كثير من الأمراء . ولم يأخذ شيئاً من تركات الموتى ، مقابل تسليمها لوارثيها ، وكان ذلك فاشياً فى تلك الأيام . مات كثير من الأغنياء ، وأرباب الأموال العظيمة فى أيام إمارته ، فلم تطمع نفسه فى شىء من أموالهم . وكان لعدله وبطشه أثر كبير فى إقامة الأمن ، حيث خافته الناس فى مصر والأقاليم . وامتنع العرب عن قطع الطرق وسلب أموال الناس ، وقتلهم . وكان عالى الهمة ، حسن السياسة ، ذكياً طاهر الذيل شديد الغيرة على مصالح الناس . ولكنه كان صلباً عنيداً . وصفه الشيخ حسن ، والد الجبرتى — وكان صديقاً حميما له — بأنه كان حاد الطبع . إذا قال كلاماً أو عاند فى شىء ، لا يرجع عنه أبدا . وقد اشتغل مع الشيخ حسن بمذاكرة الفقه والأدب . وكان لا يجالس إلا أهل الفضل والعلم . وعثمان ذو الفقار هو أول الأمراء المصريين ، الذين قبل الولاة العثمانيون ضيافتهم فى بيوتهم الخاصة . فقد كان الأمراء السابقون يقيمون الولائم للولاة فى قصور الدولة . مثل قصر المقياس ، أو قصر العينى . ولكن الوالى يحيى باشا قبل ضيافة عثمان بك فى بيته . كما كانت له على هؤلاء الولاة كلمة نافذة . حتى إنه منع صدور بعض الفرمانات التى عرضت عليهم لتوقيعها .

وبقى عثمان بك أميراً وحاكما ، نحو عشرين سنة . حتى ضاق به خصومه

واجتمعوا على حربه . واستطاعوا أن يفجؤوه بالقتال . حتى خرج من القاهرة مسرعا . ونزل بمسجد أبي العلا ، فى بولاق . وتسلط خصومه على بيوته بالنهب والحريق فأخذوا أموالا عظيمة . حتى اغتنى بعض فقرأهم مما نهبه منها . وظلت النار تأكل بيوته يومين . ولم يلاحقه خصومه عند ما ترك القاهرة لانشغالهم بالسلب . وفر هو إلى جرجا ، حيث كان حاكمها من أتباعه . ثم انتقل إلى السويس . ولم يشأ أن يعود لحرب أعدائه ، فسافر إلى إسطنبول حيث أكرمه رجال الدولة ، وأنزلوه فى قصر فسيح ، وخصصوا لخدمته عدداً كبيراً من الخدم . وقابله السلطان وأكرمه . ثم سأله عن أحوال مصر وعن سبب خصومة الأمراء له . فقال عثمان بك للسلطان : خاصمونى لأنى أقول الحق وأقيم الشرع . ثم أرسل السلطان أمرا إلى الوالى فى القاهرة بأن ترد أموال عثمان بك إليه .

ويبدو أن خصومه لم يتركوه متمتعا بعطف السلطان وتقديره . بل لاحقوه بالشكوى والخصومة . فقد أبعد عثمان بك من اسطنبول إلى بروصا ، فأقام بها سنتين . ثم أعيد مرة أخرى إلى إسطنبول . وبقى فيها إلى أن مات فى سن التسعين ، نحو سنة ١١٩٠ . وكان خروجه من القاهرة سنة ١١٥٧ ، فكأنه بقى منفياً نيفا وثلاثين سنة .

وكان عثمان بك عنيدا ، شديد الخصومة ، فى طبعه حدة بالغة . حتى أن صهره الذى تزوج بنته الوحيدة ، وكان أميرا ، سافر إلى إسطنبول فى مهمة ، عند ما كان عثمان بك مقيما فيها ، ولكنه لم يستطع زيارته ، ولم يقدر على مواجهته . بل لم يستطع أحد أن يذكر اسمه أمامه ، أو يخبره بوجوده بالقرب منه فى اسطنبول ، لأنه كان لا يحبه .

الأمير رضوان بك

كان هذا الأمير نسيج وحده ، كما يقولون . امتاز عن أنداده المماليك بحبه للشعر ، والأدب ، ومجالسته للشعراء ، والأدباء من أهل عصره ، وبره بهم ، وتقديره

إياهم بما يعطيهم من نوال ، ويقدم لهم من تكريم . وامتاز بالإسراف البالغ في حياة المتعة ، والترف ، والنعيم .

كان اسمه رضوان كتخدا الجلفى ، نسبة إلى « سنجلف » من قرى المنوفية . وكان الأمير الكبير عثمان بك ذو الفقار يحبه ، ويقربه ، ويقدمه . حتى وصل به إلى منصب كتخدا الوالى . ثم انتهى حكم مصر إليهما بالاشتراك ، فعرف رضوان حق عثمان بك عليه ، ويده عنده . فلم يشاركه فى أمر . بل ترك له شئون الحكم والسلطة . وكان هذا أيضا يلائم طبعه فى الانصراف إلى حياة النعيم ، والترف والمتاع « فعكف على لذاته ، وفسوقه وخلاعاته ونزهاته » ، وأقام عدة قصور بالغ فى الإنفاق عليها وزخرفتها . ومنها قصر بالغ الفخامة والروعة بناه على بركة الأزبكية . ونصب عليه قبابا عجيبة الصنعة منقوشة بالذهب المحلول ، واللازورد ، والزجاج الملون . وفيها من دقيق الصناعة وجميل الفن شىء كثير . وأنشأ فى أحد قصوره على قنطرة الدكة ، بركة عظيمة فيها قناطر جميلة تنتهى إلى بستان كبير يطل على الخليج .

وكان الأمير رضوان ينتقل بين قصوره هذه وبساتينه ، ويجلس إليه فيها الشعراء والندماء ، يتحدث إليهم ، ويسمع شعرهم فى مدحه ، كما يستمع إلى نوادرهم وبشاركهم فكاهاتهم ، ويباسطهم فى الحديث . ويوقع بين بعضهم وبعض . ليزيد مجلسه أنساً وبهجة . وكان يعاصره عدد غير قليل من شعراء مصر فى هذه الفترة . فأكثروا من مدحه ، بالقصائد والتواشيح ، والمقامات . وهو يجيزهم بالجوائز السنية ، ويعطيهم الأموال الكثيرة . ونجد طائفة من أحسن وأكثر ما قيل من الشعر فى هذا العصر كله . قيلت فى عهد هذا الأمير ، وفى مجلسه ، وبتشجيعه . كان يجتمع فى مجلسه الشيخ مصطفى اللقيمى الدمياطى ، وكان من أكبر شعراء العصر ، وله فيه مدائح كثيرة . والشيخ قاسم التونسى . وله مزدوجة طويلة فى مدح هذا الأمير . أوردها الجبرتى كاملة ، وفيها رقة وشاعرية وترف . ويصف الشيخ

قاسم فى مزدوجته تلك ، الأمير رضوان بأنه خليفة الزمان ، وعزيز مصر ، ويلقبه بلقب الملك .

ومن جلسائه أيضا الشيخ عبد الله الإدكاوى الذى ألف كتابا فى مدحه سماه « الفوائح الجنانية فى المدائح الرضوانيـة » . والشيخ على جبريل ، والسيد حمودة السديدى ، والشيخ يوسف الحفنى ، والشيخ قاسم بن عطاء الله المصرى . وبعض هؤلاء الشعراء ، نجد حديثا عنهم وعن مكانتهم الأدبية ، فى الفصل الذى أفردناه للحياة الفكرية والاجتماعية لذلك العصر ، فى الجزء الأول من هذا الكتاب .

ونظمت فى مدح الأمير رضوان أيضا الأغانى ، والأدوار والدواليب .

وكما كان لهذا الأمير ، ولعنايته بالشعر والأدب ، أثر فى تنشيط الحياة الفكرية والفنية . كان لهذه الحياة التى يحياها ، ويجاهر بها ، أثر فى الحياة الاجتماعيـة ، وفى أخلاق معاصريه . كان رضوان « يتجاهر بالمعاصى والراح ، والوجوه الملاح » فأخذ الناس فى تقليده فى ذلك . حتى تبرجت النساء « ومخاليع أولاد البلد » ، وخرجوا عن الحد . وكان الأمير يمنع الشرطة من التعرض للناس فى ذلك . حتى يقول الجبرتى : إن مصر فى عهده كانت « مراتع غزلان ، ومواطن حور وولدان . كأنما أهلها خلصوا من الحساب ، ورفع عنهم التكليف والخطاب » .

وقد حكم رضوان مع شريكه عثمان بك نحو سبع سنوات . كانت مصر فيها هادئة من الفتن والشرور ، والإقليمان ، البحرى والقبلى ، فى أمن ، وأمان . والأسعار رخيصة ، والأحوال مرضية . ثم جرت فتنة بينه وبين طائفة من خصومه المماليك أوشك فيها أن يخرجهم من القاهرة . فعمدوا إلى الحيلة والمداهنة . وتوددوا إليه يرجون عفوه وصفحه . وكان رضوان طيب السريرة ، فصالحهم . ولكنهم بعد قليل دبروا أمرهم وكادوا له ، وأغروا واحدا من مماليكه الصغار ليخونه ، عندما تطلق المدافع على داره . ثم قاموا لحربه على غرة . وكان يجلس إلى حلاقه . فأطلق عليه مملوكه الخائن رصاصة من خلف الباب . أصابت ساقه فكسرت عظمها ، وأسرع رضوان إلى

فرسه فانطلق بها إلى الصعيد . ومات بشرق أولاد يحيي ، ودفن فيها . وتفرق مماليكه وأتباعه . ونهبت قصوره وأمواله . وكان على بك الكبير من الذين تآمروا عليه . فلما جاءوه بالمملوك الخائن صالح ، الذى أطلق على سيده الرصاص من وراء الباب . وطلبوا إليه أن يكافئه على خيانته . أمر على بك بقتله . وقال أنه خائن لا خير فيه . وأكثر الشفعاء عند على بك فى أن يعفو عنه ، فلم يقتله ، وأمر بنفيه من مصر .

ويقول الجبرتى فى ترجمة الشيخ على بن جبريل المتطبب ، شيخ دار الشفاء بالمارستان المنصورى — وقد ذكرنا أنه كان من خاصته — يقول : إنه نال من جوائز الأمير رضوان ما يعد بالألوف ، حتى أصبح فى نعمة شاملة ، وثراء عظيم . وإن مما وهبه له بيتا على بركة الأزبكية « رؤيته تسر النفوس الزكية . وصفه عجيب ، ورونقه بديع غريب » .

وكانت وفاة الأمير رضوان سنة ١١٦٨ (١٧٥٤ — ١٧٥٥ م) .

على بك الكبير وأبو الذهب

على بك بلو قبطان ، أو على بك القازدُغلى ، ثم على بك الكبير ، بعد فتوحاته وغزواته . ثلاثة أسماء لفرد واحد ، كان من كبار هؤلاء المماليك . بل لعله أكبرهم شأنا ، وأعظمهم شخصية ، وأبعدهم همة وجاها ، وأوسعهم سلطانا ، وأعزهم ملكا .

كان من مماليك إبراهيم كتخدا القازدُغلى ، وكلاهما ينسب إلى كبير من المماليك هو مصطفى كتخدا القازدُغلى . ولما بلغ علىّ طور الشباب ، بدت عليه مظاهر الشجاعة ، والقوة ، والطموح . وبدت له شخصية غالبة قوية . فلما مات سيده ، تولى الإمارة بعده فى سنة ١١٦٨ ثم أميرا للحج وكبيرا للمماليك وشيخا للبلد فى سنة ١١٧٧ (١٧٦٣) . ونحن نعلم أن شيخ البلد عندهم كان صاحب الحول والقوة فى مصر ، والحاكم الفعلى لها . وخاصة إذا كان صاحب سطوة وجبروت ،

كما كان على بك . ولم يصل على بك إلى مشيخة البلد ، إلا بعد منازعات طويلة ، وحروب قاسية بينه وبين خصومه ومنافسيه من المماليك . وبعد أن قضى ثمانى سنوات يكثر من شراء المماليك ، وتدريبهم . وقصة على بك مع عبدالرحمن كتخدا، تدلنا على عنفه ، وبطشه ، حتى بمن أعانوه وأحسنوا إليه فى أول حياته. فقد كان عبد الرحمن كتخدا فى مقام سيده ، وكان مولى لسيده أيضا . وهو الذى رشحه للصنجقية ، ومهّد له سبل الرياسة والتسلط. وبذل كثيرا من جهده، وماله ، وحيلته. ليمكن لعلى بك ، ويبسط سلطانه على غيره من المماليك . ولكن على بك بعدذلك أمر بنفى عبد الرحمن كتخدا ، عندما وجده عائقا فى سبيل أطماعه ، وغاياته البعيدة . وكذلك فعل مع كثيرين غيره .

ولما استتب له الأمر اختار ثمانية عشر من خاصة مماليكه ، ورقاهم إلى رتبة البكوية ، وجعلهم أنصارا له ، وعدة . والتفت إلى من بقى من خصومه . فأخذ يصادرهم فى أموالهم وينفيهم ، ثم يقتلهم ، أو يوعز بقتلهم ، وبعد ذلك يستولى على ما كان لهم من إقطاعات ، ويهبها للمخلصين من مماليكه وخاصته .

أصبح على بك حاكما مطلقا على مصر ، فتاقت نفسه لأن يستقل بها عن تركيا. وأخذ يعمل على ذلك سرا . ويضع الخطط التى تمكنه من غايته ، وفى سنة ١١٨٢ (١٧٦٨ م) كانت الحرب قائمة بين تركيا وروسيا ، فطلبت الدولة من مصر أن تعينها بجيش مكون من اثنى عشر ألف جندى ، فلما شرع على بك يجمع هذا الجيش توجست الدولة منه ومن جيشه ، وظن رجال السلطان فى إسطنبول أنه عندما يتم له تأليف هذا الجيش سيضعه فى خدمة روسيا لتحارب به تركيا . على أن تعينه على الاستقلال بمصر . وأرسلت الدولة ، بناء على هذه الشكوك والهواجس ، أمرا إلى واليها فى القاهرة ، ليقتل على بك . ولكن هذا كان له رجال يقظون يتجسسون له على الدولة ، ويوافونه بأنباء الحاكمين فى إسطنبول، وأسرارهم . فأبلغوه نبأ الرسالة التى أرسلت إلى الوالى فى القاهرة بقتله .

فلما أوشك حامل الرسالة أن يصل القاهرة ، كان رجال على بك يتربصون به ، فلما رأوه قتلوه ، وجمع على بك المماليك ، فأعلن إليهم أن أمرا جاء من إسطنبول

يطلب إلى الوالى أن يقتل جميع المماليك . وأنه استطاع أن يقتنص هذا الأمر، وحامله، وكان على بك خطيبا خلابا مؤثرا . فتحدث إلى المماليك عن ماضيهم ، ومجدهم ، وانفرادهم بحكم مصر ، وما كان لأسلافهم من أمجاد ، وحروب ، وانتصارات ، وقال : إن الدولة تحقد عليهم وتريد أن تقضى على مجدهم ، وعليهم أيضا . فثارت حميتهم ، وأعلنوا خلع الوالى ، محمد باشا الأورفلى ، وإخراجه من مصر .

وبعد ذلك أعلن على بك استقلال مصر ، فى سنة ١١٨٣ (١٧٦٩ م) ثم منع قدوم الولاة الأتراك إلى القاهرة ، فلم ترسل الدولة أحداً منهم مدى أربع سنوات . وأوقف دفع الجزية التى كانت ترسل من مال مصر إلى الدولة، وضرب النقود باسمه ، ولايزال بعضها باقيا قد نقش عليه اسمه ، وتاريخ استقلال مصر بالتقويم الهجرى (١١٨٣) ، ثم نظر بعد ذلك إلى دواوين الحكومة وإلى المناصب الكبيرة ، فأخرج منها من يعرف ميلهم إلى تركيا . وأمر المماليك الذين يخشى ميلهم إليها ، أولا يطمئن إلى ولائهم له . أمر ألا يقتنى واحد منهم أكثر من مملوك ، أو مملوكين . بينما بلغ عدد مماليكه هو ستة آلاف .

وهنا يجب أن ننساق إلى شئ من الاستطراد . لنتحدث عن تصحيح لابد منه لتاريخ استقلال مصر فى العصر الحديث . فقد كنا ، إلى عهد قريب ، نقول فى كتبنا ، ونقرر فى مدارسنا ، ومعاهدنا ، وجامعاتنا : إن محمدا عليا هو أول من استقل بحكم مصر وأول من نزع عنها رداء التبعية للدولة العثمانية . وحقق لها بذلك ، كيانا دوليا مستقلا عن دولة الخلافة . وكان الملق لمحمد على وأسرته ، هو السبب فى هذا الخطأ ، بل التزييف ، فى تاريخ مصر وأحداثها ، فقد حققت مصر استقلالها عن دولة الخلافة ، وعن كل تبعية أخرى ، قبل أن يتولى محمد على حكمها بنحو أربعين سنة . وكان ذلك على يد على بك الكبير ، كما رأينا . ولولا خيانة مملوكه (أبو الذهب) ، كما نرى بعد قليل ، ودسائس الدولة ، لما فقدت مصر استقلالها هذا -

ورب قائل يقول : إن على بك لم يكن مصريا ، كغيره من المماليك ، ولكننا نجد الجواب على هذا أول هذا الفصل . حيث قلنا : إن المماليك كانوا يرون أنفسهم مصريين، وكان المصريون يرونهم كذلك أيضا . ونحن، عندذلك . نستطيع أن نقول: إن على بك الكبير كان أقرب إلى مصر ، وأهلها ، من محمد على ، الذى

نعرف وطنه ، وكيف قدم مصر ، واستقر فيها ؛ وتولى حكمها .

على أن على بك ، كما نرى من سيرته بعد ، كان إلى حد كبير ، خيرا من محمد على فى شئون الحكم ورعاية أمور الناس . والحرص على خيرهم .

ومن مظاهر الاستقلال التى حققها على بك لمصر : أنه عقد فى سنة ١٧٧٨ معاهدة تجارية بينها وبين انجلترا . وأنه عقد معاهدة سلمية مع البندقية بواسطة تاجر من أهلها اسمه كارلو روستى (١) . كما عقد معاهدة دفاعية هجومية مع روسيا .

ولم يكتف على بك بأن بسط سلطانه كله على مصر وحدها ، وحقق لها سيادتها واستقلالها . بل أخذ فى فرض سلطانه وسلطانها على بلاد العرب ، ثم على الشام . فأرسل جيشا قائده مملوكه محمد أبو الذهب إلى الحجاز ، واهتم اهتماما خاصا بالاستيلاء على جدة ، ليجعل منها مركزا للتجارة مع الهند ، ولمراقبة الملاحة فى البحر الأحمر . فلما فتحها عزل واليها الذى نصبته تركيا ، وجعل ولايتها لمملوك من أتباعه عرف فيما بعد بحسن بك الجداوى . واستطاعت الحملة أن تستولى على بلاد الحجاز كلها ، وعلى الحرمين الشريفين . وخلع أمير الحجاز ، الشريف أحمد ، الذى هزمه الجيش المصرى ، ونصب ابن عمه الشريف عبد الله بدلا منه . ونودى بعلى بك فى الحرمين الشريفين « سلطان مصر ، وخاقان البحرين » ، وذكر اسمه ولقبه هذا على منابر المساجد فى الحجاز كلها .

---

(١) استقدم على بك روستى هذا — وهو إيطالى من البدقية — إلى القاهرة ، وكلفه بتنظيم التجارة الخارجية والعلاقات الدولية ، وبقى روستى بعد ذلك قنصلا لألمانيا حتى قدوم الحملة الفرنسية . وكان صديقا لمراد بك ونجد له ذكرا فى ترجمته .

وقد أفادنى الأستاذ ستانفورد شو « من جامعة برنستون بأمريكا » بهذه المعلومات عن روستى ومؤلفاته :—

فى محفوظات الدولة بالنمسا أكبر مجموعة عرفت إلى الآن من خطابات كارلو روستى ، من بينها ما يتصل بمصر بعد الاحتلال الفرنسى ، وقد نشرها انجلو سامار كو فى الجمعية الجغرافية المصرية .

وفى المكتب الهندى بلندن ، بعض خطابات كارلو كتبت أثناء الثورة الفرنسية ، ويحتمل أن تكون معظم أوراق روستى الخاصة فى مصر فى ذاك الوقت ، عند أحد أقاربه وهى من المصادر القيمة لتاريخ مصر فى القرن الثامن عشر .

وبين الأوراق التى وصلت إلى فرنسا مع أعضاء الحملة الفرنسية ، تاريخ على بك الكبير كتبه صديقه كارلو روستى ، القنصل الإمبراطورى فى مصر ، باللغة الإيطالية .

وهذا التاريخ محفوظ الآن فى المكتبة الاهلية بباريس ، ويعده للنشر الأستاذ ستانفورد شو .

وكانت جيوش مصر التى سارت لفتح بلاد العرب ، فيها جنود من الأتراك ، والمغاربة ، والشوام ، والحضارمة ، والدروز ، واليمن ، والأحباش ، والسودانيين ، وغيرهم .

ثم أرسل إلى الشام جيشا قوامه ثلاثون ألفا ، جعل قيادته أيضا لمملوكه أبى الذهب ، ففتح أكثر بلاد الشام ، ودخل دمشق ، ولكنه عند ذلك خان سيده على بك ، واتصل بالدولة ، فتآمر معها على هذه الخيانة . وعلى أن ينزع السلطان من على بك ، ويستأثر به لنفسه ، برضى الدولة . وعند ذلك يعيد تبعية مصر لها كما كانت .

وعاد أبو الذهب بجيشه إلى مصر ، وقد كبر على كثيرين من قواده وأمرائه أن يبلغ على بك هذا المبلغ من المجد ، وهم ، كما قالوا ، يغتربون ويحاربون . وكان يسيرا على جيش أبى الذهب أن يستولى على مصر . وخرج منها على بك ، لاجئا إلى صديقه الشيخ ظاهر عمر ، حاكم عكا ، الذى كان قد لجأ إليه من قبل هربا من خصومه المماليك . وهناك وجد قطعا من البحرية الروسية ، فاتصل بقائدها وطلب عونه فأعانه بالرجال والذخيرة ، واستطاع بهذه المعونة أن يعيد إلى حكمه بلاد الشام التى كان أبو الذهب قد فتحها له من قبل .

وجاءت لعلى بك أنباء من القاهرة — وكانت من إيحاء أبى الذهب — بأن الناس ينتظرونه ليخلصهم من ظلم أبى الذهب وعسفه ، فسار إلى مصر بجيش صغير والتقى بجيش أبى الذهب فى الصالحية فهزمه أول الأمر ، ولكن أبا الذهب استطاع أن يدس على رجال سيده على بك من يغريهم به ، ويفتنهم عنه . ثم عادت الحرب ، فهزم على بك ووقع فى أسر مملوكه أبى الذهب ، بعد أن دافع وأبلى أكرم دفاع وبلاء ، وجرح وجهه . وتلقاه مملوكه وهو جريح ، فقبل يده وأعانه على السير ، وأجلسه مكانه فى صدر خيمته . ثم نقله إلى القاهرة حيث مات بعد وصوله إليها بسبعة أيام . وأحضر أبو الذهب عددا من الأطباء لعلاج سيده على بك ، ولكنه عندما مات تحدث الناس أنه مات مسموما ، ولم يهمل الجبرتى حديثهم هذا ، وهو غير بعيد على أبى الذهب ، فقد كانت أبرز صفاته الغدر والخيانة . وكانت وفاة على بك فى الخامس عشر من صفر سـنة ١١٨٧ (مايو سنة ١٧٧٣) ودفن إلى جانب أستاذه إبراهيم كتخدا فى قرافة الإمام الشافعى .

ومن مماليك على بك ، عدا محمد أبى الذهب : أحمد باشا الجزار ، الذى رد نابليون وجيوشه عن أسوار عكا ، ومراد ، وإبراهيم ، اللذان كان لهما شأن عظيم فى أحداث مصر ، كما نرى من ترجمتهما بعد قليل .

وكانت عند على بك جارية شركسية بارعة الجمال ، أحبها مملوكه مراد حبا شديدا ، فلما أراد أبو الذهب خيانة سيده ، وتحدث إلى مراد فى ذلك ، شرط عليه — نظير موافقته على خيانته — أن يزوجه هذه الجارية ، فلما قضى على بك ، أخذ مراد الجارية الشركسية ، وهى التى عرفت بعد ذلك باسم نفيسة المرادية . وكانت أعظم نساء عصرها ، ونجد ترجمة لها فى الجزء الذى خصصناه للحياة الاجتماعية فى الجزء الأول من هذا الكتاب . وذكر المؤرخون أن جمال نفيسة هذه كان من أكبر الأسباب لنكبة سيدها على بك .

ويقول مؤرخ أوربى ، هو استافرو لانسبان : إن على بك ابن قسيس رومى أرثوذكسى ، من قرية أماسيا فى الأناضول ، اسمه القسيس داود ، وإنه ، أى على بك ، ولد فى سنة ١٧٢٨ ثم خطف فى الثالثة عشرة من عمره وبيع فى القاهرة . وكان اسمه يوسف . وذكر عن أسرته أشياء أخرى ، كما يقول : إنه تزوج يونانية مسيحية أظهرت الاسلام وبقيت على دينها . اسمها مريم [١] وقد كان لانسبان معاصرا لعلى بك ، وعاشره وعمل له .

أما صفات على بك ، وسياسته فى حكم مصر . فقد كان شديد المراس ، عظيم الهمة ، قوى الشكيمة . لايرضى لنفسه غير المكانة الأولى والمنزلة العظمى . لايميل إلى الهزل ، ولايحب المزاح ، يجالس أهل الوقار والحشمة . مثل الشيخ حسن الجبرتى أبو عبد الرحمن ، والشيخ على العدوى ، والشيخ أحمد الدمنهورى ، وكان له كاتب عربى ، وآخر تركى ، ومنجم .

---

(١) ص ١١٥ — ١١٦ من كتاب المماليك فى مصر لأنور زقلمة . نقلا عن كتاب لانسبان « ثورة على بك »

ومما يذكر عن علو همته، واعتداده بنفسه، أن الأمراء تداولوا يوما، وهو غائب، فيمن يرشحونه للإمارة معهم . وذكره قوم فأثنوا عليه واختاروه ، ومانع آخرون فى اختياره، ونقل إليه هذا الذى كان من حديث . فقال : إنى لا أرقى بمساعدة فلان ، ولا تعوقنى ممانعة فلان . بل سأرقى بسيفى ، ولا أتقلد الإمارة إلا بنفسى.

وكان يطالع كتب التاريخ والأخبار ، وسير ملوك مصر من المماليك . ويقول لخاصته : إن هؤلاء الملوك كانوا من جنسنا ، مثل السلطان بيبرس ، والسلطان قلاوون ، وأولادهم ، وكذلك ملوك الجراكسة . ولم يستول العثمانيون على مصر ، ويقهروا هؤلاء المماليك ، إلا بالقوة ، ونفاق أهل البلد . وكان فى حديثه هذا يشى بسريرته ، ويرهص بما حققه بعد ذلك من الاستقلال لمصر . وتحريرها من التبعية العثمانية .

وكان أيضاً متحرزاً فى الحديث ، أو الخطاب ، له هيبـة عظيمة . حتى ذكر الجبرتى أن بعض الناس أماتهم الخوف عنـد دخولهم عليه . وكثير منهم كانت تأخذه الرعدة فى حضرته، فيلاطفهم ، ويؤنسهم، حتى يهدأ روعهم . ويستطيعوا أن يتحدثوا اليه ، وكان شديد الفراسة صحيح الفهم ، قوى الحذق . يفهم ملخص الدعوى الطويلة المعقدة بين المتخاصمين ، من غير حاجة الى ترجمان ، ويقرأ الوثائق ، والصكوك بنفسه ، ولو كان خطها سقيما ، ولا يعتمد فى ذلك على أحد ، ولا يضع خاتمه على ورقة إلا بعد أن يقرأها بنفسه ويراجعها .

وقد سلك على بك فى أول أمره ، سبيل العنف البالغ ، والقسوة التى لا تعرف الرحمة ، مع خصومه ومعارضيه . أو كما يقول الجبرتى: نفى الأعيان ، وفرق جمعهم فى القرى ، والبلدان ، وتتبعهم خنقا وقتلا ، وأبادهم فرعا وأصلا ، وأفنى باقيهم بالتشريد، واستأصل كبار خشداشينه[1]، وقبيلته، وأقصى صغارهم عن ساحته وسدّته وأخرب البيوت القديمة ، وأخرم القوانين الجسيمة ، وقتل الرجال ، واستصفى الأموال .

(١) جمع «خوشداش» وهو الزميل فى الرق . والكلمة الأولى ، إما أن تكون خوش أى السرور ، أو خوش أى الفناء . والكلمة الثانية معناها : زميل أو رفيق . والمعنى : رفيق السرور، أو رفيق الفناء .

ولكنه بعد أن استتب له الأمر ، جعل من مصر ، مدنها وريفها ، بلدا آمنا رخىّ العيش . حتى كان المسافر يسير ، بمفرده ليلا ، « راكبا أو ماشيا ، ومعه حمل الدراهم ، والدنانير ، إلى أى جهة ، ويبيت فى الغيط أو البرية » ، آمنا مطمئنا ، لا يرى مكروها أبدا .

كان شيخ العرب ، سويلم بن حبيب ، له الكلمة العليا فى كثير من بلاد الوجه البحرى ، يستولى هو ورجاله على ما يشاء ، ويفرض من الضرائب ، والغرامات ما يريد . فحاربه على بك حتى تغلب عليه وقتله . وكان شيخ العرب همام [1] ، زعيم الهوارة فى الصعيد ، يكاد أن يكون ملكا على هذه البلاد كلها ، ليس وراء رأيه رأى ، ولا فوق أمره أمر . فحاربه على بك حتى تغلب عليه ، ودخل عاصمته فرشوط ، وتركها همام هاربا الى قرية فى مركز إسنا ، حيث قتله الحزن .

وبذلك دانت مصر كلها ، من الإسكندرية إلى أسوان ، لسلطان على بك ، وشملها الأمن والهدوء .

ولم يكن على بك قاسيا بالغ القسوة على أعدائه أو خصومه وحدهم . بل كان قاسيا شديد القسوة أيضاً على المرتشين ، وأصحاب الحيلة ، ومن لا خلاق لهم من المفسدين . ولو كانوا من المعممين الذين يحفظون الفقه والقرآن . كان هناك ناس يتداخلون لدى القضاة ليحكموا لمن يدفع الرشاوى ولو لم يكن صاحب الحق . فعاقبهم ، وعاقب القضاة أيضاً ، بالضرب ، والنفى ، والقتل . وكذلك فعل مع المفسدين والسراق وقطاع الطرق .

علم أن شيخا اسمه الشيخ أحمد السكتبى ، المعروف بالسَّقَط ، يتداخل فى القضايا ويقتسم الرشا مع القضاة . وأن له فى ذلك جسارة عظيمة ، فقبض عليه ، وضربه ضربا شديدا ، ثم أمر بنفيه إلى جزيرة قبرص . ولم يعد إلى مصر . بل انتقل إلى إسطنبول فمات بها . ويقول الجبرتى : إن الشيخ أحمد السقط هذا كان من

(١) فى الجزء الأول من كتابنا ترجمة وافية لكل من سويلم وهمام .

دهاة العالم ، يسعى فى القضايا ، والدعاوى ، يحيى الباطل ، ويبطل الحق ، بحسن سبكه وتداخله .

وأقام على بك كثيراً من المنشآت ، والعمائر . أصلح قلاع الإسكندرية ودمياط وزاد فى تحصينها . وجدد مسجد السيد البدوى فى طنطا ، وأقام على ضريحه قبة عظيمة ، ومنارتين كبيرتين ، وسبيلا وقيسارية فيها كثير من الحوانيت . كانت تعرف بالغورية ، لأن تجار الغورية فى القاهرة كانوا ينزلون فيها أيام المولد السنوى . وجدد قبة الإمام الشافعى ، ونقشها من الداخل بالذهب ، واللازورد ، والأصباغ الجميلة المتقنة ، وأقام بعض إصلاحات فى مسجده ، وأنشأ عمارة عظيمة على شاطىء النيل فى بولاق . فيها خان كبير ، وقيسارية ، ودار واسعة ، ومساكن ، وحوانيت ، ومخازن للغلال ، ومسجد . وبنى لنفسه دارا عظيمة بدرب عبد الحق ، على بركة الأزبكية ، وكان فيها حوض ماء ، وطاحون وساقية . وهى الدار التى مات فيها .

وقد أورد الجبرتى ، فى الصفحات الأخيرة من حديثه عن محمد على ، أنواع العملة ومقاديرها وصرفها . وذكر العملة التى سكّها على بك باسمه . ويؤخذ مما أورده فى ذلك : أن معيشة الناس فى عهده ، وفى أول عهد أبى الذهب ، كانت رخية هنية ، والمكاسب وافرة ، والخير كثير . وقارن بين عهده وعهد محمد على ، وما كان يجده الناس فيه من جهد ، ومحنة ، وغلاء ، وضيق .

أبو الذهب

أما أبو الذهب فقد اشتراه على بك فى سنة ١١٧٥ . وتولى الخازندارية ، ثم خرج مع سيده إلى الحج فى سنة ١١٧٨ وتولى الإمارة فى السنة نفسها ، ولما لبس خلعتها فى القلعة أخذ يفرق « البقشيش » نقوداً ذهبية . وصار وهو عائد ينثر الذهب على الفقراء فى طريقه ، حتى دخل منزله ، لذلك سمى أبا الذهب . وكان بعد ذلك لا يضع فى جيبه إلا الذهب ، ولا يعطى غيره ، ويقول : أنا أبو الذهب .

وقد بلغ هذا المملوك مكاناً عظيما فى وقت قصير ، وكان موفقاً فى سعيه

كله ، مجدوداً فى كل عمل يتولاه . ندبه سيده للمهام الكبار ، وقيادة جيوشه التى هزم بها الشيخ هماما ، شيخ الهوارة ، وفتح بها بلاد الحجاز والشام ، كما رأينا من قبل .

وكان أبو الذهب شجاعاً قوى البأس . لما عاد من الشام خارجا على سيده ودخل القاهرة ، حاصره على بك فى بيته ليلا ، وأحاط جنده بالبيت من كل جانب ، وأوشكوا أن يقتلوه أو يأخذوه أسيراً . فلما رأى ذلك ، برز مع بعض أتباعه ، واخترق صفوف الجند الذى يحيط به ، وهرب إلى الصعيد . وأرسل على بك وراءه الحملات العسكرية ، ولكن كثيراً من رجالها كان ينحاز إليه . لأنه كان يبذل لهم من المال والرشا ، ما يغريهم بالخيانة . ثم كان بينهما ما أجملنا ذكره .

فلما انفرد أبو الذهب بأمر مصر ، أكثر من شراء المماليك ، كما فعل على بك من قبل ، وقلدهم كبار المناصب ، والأعمال . وبذل لهم الأموال ، وأظهر لهم لين الجانب ، حتى أحبوه ، وأعانوه ، وحاربوا معه . وتقدم إلى الدولة بالطاعة ، وإلى رجال الآستانة بالأموال والهدايا ، وكتب لهم أنه ملك البلاد وأراحها من على بك . فكافأته الدولة على خيانته ، وعلى إهداره استقلال مصر ، وإعادتها ولاية عثمانية ، بأن أنعم عليه السلطان برتبة الباشوية ، وإقراره على ولاية مصر فى سنة ١١٨٦ (١٧٧٢م) وبقى فى هذه الولاية سنتين . قدم فيهما قرة خليل أغا باشا واليا من قبل تركيا ، ولكنه كان معدوم السلطة ، إذ استأثر أبو الذهب بكل سلطان .

وتوجه أبو الذهب لحرب عدوه ، وحليف على بك فى الشام ، الشيخ ظاهر عمر ، فخرج إليه على رأس جيشه . فى أوائل المحرم من سنة ١١٨٩ واستولى على غزة ، ثم قصد يافا ، فوجد أهلها قد تحصنوا بها ، وأحكموا تحصينها . فحاصرها حصاراً شديداً ، وأكثر من رميها بالمدافع أياماً وليالى متوالية . ثم نقب جنوده سورها ، ودخلوها ، ولقى أهلها منه ومن جنوده قسوة منكرة : نهبوا أموالهم ، وأخذوهم فربطوهم بالحبال ، والجنازير ، وسبوا النساء والأطفال . وقتلوا منهم مقتلة

عظيمة ، ثم جمعوا الأسرى خارج المدينة ، وقتلوهم جميعاً ، بالسيف « لم يميزوا بين الشريف ، والنصرانى ، واليهودى ، والعالم ، والجاهل ، والعامى ، والسوقى ، ولا بين الظالم ، والمظلوم » وأقاموا من رءوس القتلى عدة إهرامات تنسف عليها الأتربة والرياح .

وكان الشيخ ظاهر يتحصن فى عكا . فلما بلغه ما فعل أبو الذهب بيافا خرج منها هارباً ، ودخلها أبو الذهب ، وأرسل رسله بالبشارات إلى مصر ، وأمر أن يوقدوا قناديلها ثلاثة أيام . وكان قد راسل الدولة مرة أخرى لتقره على ولاية الشام . فأقرته ، وردت إليه مبعوثه إسماعيل أغا يحمل التقرير ، والكساوى الفاخرة ، والخلع الثمينة ، ووصل إسماعيل أغا يوم دخل أبو الذهب عكا . ولكنه عند ما نزل سفينته ليعود بها ، جاءته الأنباء بموت أبى الذهب . فرجع واسترد ما حمله من الدولة إليه .

فقد امتلأ فؤاد أبى الذهب بالفرح العظيم ، عندما وجد بلاد الشام كلها تحت أمره ، ووجد عدوه الشيخ ظاهر ترك له عكا ليدخلها من غير حرب . فلما دخلها شعر بدبيب الحمى . فاستكان فى خيمته . وأخفى الأمراء من خاصته ذلك الأمر عن الجيش . ولكن الجنود ، بعد ثلاثة أيام من دخول عكا ، استيقظوا فى الصباح ليجدوا خيمته قد تهدم ركنها ، ثم وجدوا خاصة رجاله يرفع بعضهم السيوف فى وجه بعض ، يتقاتلون على ماله . فعرفوا أنه مات . وتقدم إبراهيم بك فكف بعضهم عن بعض ، واتفقوا على أن يعودوا إلى مصر . وأرادو أن يدفنوه فى الشام . ولكنهم عرفوا أنهم إذا دفنوه فيها فهما يخفون مقبرته ، فسينبش أهلها قبره ليحرقوه ، جزاء ما فعل بهم وبأهل يافا خاصة . فحملوه معهم إلى مصر حيث وصلوا القاهرة بعد ستة عشر يوما ، ليلة الرابع والعشرين من ربيع الثانى سنة ١١٨٩ ودفن فى مسجده المواجه للأزهر . وكانت تسير أمام نعشه مجامر العود والعنبر لستر الرائحة . وكانت القاهرة وضواحيها ، قبل ذلك بأيام ، تقيم زينتها ، وتضيء قناديلها ، وتطلق مدافع أفراحها ، وتسير سفنها المزينة المضيئة فى النيل ، سروراً وابتهاجاً بنصر أبى الذهب . كان أهل القاهرة يشاهدون ذلك فى ثالثة الليالى التى أمر

بإقامة الزينة فيها ، عند ما جاءهم الخبر بموته ، فذكروا قول الله تعالى : « حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون » .

وكان أبو الذهب شبيهاً بسيده فى الجد ، والصرامة ، والحزم ، سمحاً حليما ، محباً للخير ، يكرم العلماء ، ويعظمهم ، وينصت إليهم . ويجزل لهم العطاء . كان وهو أمير ، يحضر دروس الشيخ حسن الكفراوى فى شهر رمضان بالمسجد الحسينى . فلما استقل بالإمارة ، بقى على احترامه وحبه ، يقبل شفاعته ويبيح له أن يدخل عليه من غير إذن ، فى أى وقت . وكان معروفاً بين الأمراء بجمال الصورة ، واعتدال القامة ، وبياض الوجه ، وبهاء الطلعة ، والمهابة .

وكانت مصر فى مدة حكمه القصيرة تنعم بالأمن والرخاء ، وتصنع فيها المدافع الكبار ، وقد استخدم بعضها فى حروب الشام الأخيرة .

بنى مسجده ، ومدرسته فى مواجهة الجامع الأزهر فى أواخر سنة ١١٨٧ ، ورتب لهما وقفاً كبيراً ، واختار له الشيخ أحمد الدردير مفتياً للمالكية ، والشيخ عبد الرحمن العريشى للحنفية . والشيخ حسن الكفراوى للشافعية ، والشيخ أحمد الراشدى خطيباً . كما اختار للتدريس فيها طائفة من كبار العلماء خصص لهم الرواتب من المال والقمح . وجعل فيها خزانة كبيرة للكتب ، اختار لها أميناً ، ومدرساً للغة التركية ، واشترى لها مكتبة الشيخ أحمد الراشدى ، وبذل للسيد مرتضى الزبيدى مائة ألف درهم فضة ، ليضع فيها كتابه تاج العروس .

وكانت وفاة أبى الذهب فى اليوم الثامن من ربيع الثانى سنة ١١٨٩ (يونيو سنة ١٧٧٥) .

وهكذا لم يسترح أبو الذهب من الحروب حتى يومه الأخير ، ولم يفلح فى شىء ، سوى أن أهدر استقلال مصر ، وسيادتها ، وغدر بسيده .

ولئن رأينا أبا الذهب ، وكثيرين من مماليك على بك ورجاله ، قد خانوه معه ، وأغراهم ذهبه . فقد بقى عدد من رجاله ومماليكه المخلصين ، يدافعون عنه ، ويقفون إلى جانبه فى كل شدة ومحنة . ولما انكشف عنه جيشه فى موقعة الصالحية

التي جرح فيها وهزم . لم يتركوه أو يسلموه . وظل عشرة منهم يحمونه ، ويقفون من دونه سداً ، ويقاتلون من حوله ، حتى قتلوا جميعاً .

مراد وإبراهيم

بعد وفاة محمد بك أبو الذهب فى عكا سنة ١١٨٩ — ١٧٧٥ م خلص حكم مصر لمراد وإبراهيم ، بالاشتراك بينهما . وكان كلاهما من مماليك أبى الذهب .

أما إبراهيم فكان غلاما جركسيا . أعتقه سيده أبو الذهب وزوجه أخته . وكان شجاعا فارسا ، ساكن الجأش ، صبورا ، فيه حلم ، وتؤدة . قريب الانقياد للحق ، متجنبا للهزل ، إلا نادرا، يميل إلى الكمال والحشمة . وكان لطيف المعاشرة ، متساهلا مع مماليكه ، حتى طغوا ، وزاد جبروتهم ، وظلمهم .

وأما مراد فكان قاسيا ، متهورا ، مغرورا بنفسه ، متجبرا ، حاد الخلق ، عصبى المزاج ، ظالما ، غيورا . وكان يجمع إلى هذه الصفات ، جهلا فاضحا معيبا . وقصر نظر ، قل أن وصل إليه واحد من حكام مصر .

وقد حكم مراد وإبراهيم مصر فترة طويلة ، لعلها لم تر فى تاريخها كله ، حكما أسوأ منه ، ولا حاكمين فى قسوتهما وظلمهما ، وأنانيتهما ، وجهلهما .

وقد فرضت فى عهدهما الضرائب الفاحشة ، التى لم ير الناس لها مثيلا من قبل ، وتنوعت ، حتى شملت بائعى الفسيخ ، والمخلل ، كما يقول الجبرتى . وكان أبو الذهب ، عندما خرج لفتح الشام ، اختار إبراهيم نائبا عنه : فلما مات أقر الأمراء اختيار سيدهم ، وأبقوا إبراهيم فى الحكم ، على أن يشاركه فيه مراد . وورث إبراهيم وزوجه ، من أبى الذهب مالا عظيما .

وكانت صفات إبراهيم وشخصيته اللينة ، المتساهلة . كفيلة بإطلاق يد شريكه الطاغية مراد فى أغلب أوقات حكمهما ، ولم تكن مهمة الحكم فى أول الأمر ، ميسرة للحاكمين الجديدين . فقد نازعهما إسماعيل بك ، وتغلب عليهما فى البداية ، حتى هربا إلى الصعيد . ولكنه عندما توجه لحربهما هزم ، وفر إلى الشام ، وعاد

إبراهيم ومراد إلى القاهرة . وقد تخلصا من خصمهما القوى .

ولم يكن الحاكمان ، مراد وإبراهيم ، على وفاق دائم . بل كثيرا ما تحاربا ، وتداولا النصر والهزيمة مرارا . حتى أصلح بينهما العلماء ، بعد أن شقى الناس بحروبهما وتنازعهما شقاء شديدا . فلما تم الصلح بينهما ، نكبت البلاد بالطاعون فى سنة ١١٩٩ — (١٧٨٤ — ١٧٨٥ م) واصطلح عليها الوباء ، والغلاء ، والفتن ، وانخفاض النيل ، حتى ترك كثير من مالكى الأرض بلادهم ، وزروعهم . بعد أن باعوا بيوتهم ، وعبيدهم .

وكان إبراهيم ، والناس فى هذه المحن ، يصادر تركات الموتى ، ويغتصب حقوق وارثيهم ليأخذها لنفسه .

واضطرب ، بل انعدم ، الأمن فى البلاد . فكان المسافر يستأجر الأعراب لحراسته لينتقل من بلد إلى بلد ، وهاجر الفلاحون إلى القاهرة ، بنسائهم ، وأولادهم ، يضجون من الجوع ، ويأكلون قشر البطيخ ، وأوراق الشجر . حتى لايجد الكناسون شيئا من ذلك يكنسونه . وأكل الناس لحوم الأطفال ، والخيل والحمير ، والبغال ، حتى كان يتزاحم على ميتتها من يقوى على المزاحمة ، والمنازعة . ومن يقدر على الوقوف ، والسير .

وأكل بعض الناس لحم هذه الجيف ، نيئا . ومات كثيرون . كل ذلك ، ومراد ، وإبراهيم ، ينهبان مابقى عند الناس فى القاهرة ، ورجالهما يفعلون مثل ذلك فى الأقاليم .

ووصل علم ذلك إلى الدولة ، فى إسلامبول . فأرسلت حملة بقيادة حسن باشا قبطان ، لإنقاذ مصر من شر مراد وإبراهيم . وانتصرت جند الدولة عليهما فى «فوة» . ففر مراد راجعا إلى القاهرة . وأراد إبراهيم أن يصعد إلى القلعة ، مقر الحكم ، فكان حسن باشا أسبق منه اليها ، وفر الأمراء إلى الصعيد . واستصفى قبطان أموالهم . وأرسل عابدين باشا ليحاربهم فى الصعيد .

ثم أقام خصمهما اللدود إسماعيل بك ، حاكما . ولكن الحظ كان فى خدمة

مراد وإبراهيم . فقد مات ، فى ذلك الوقت ، إسماعيل بالطاعون . وتولى عثمان بك طبل ، فاستطاعا أن يخدعاه ، حتى تواطأ معهما ، وسهل لهما دخول القاهرة ليلا .

وكانت حروب روسيا مع الدولة تجعل يدها مغلولة ، وجهدها قليلا ، فآثرت أن تترك مصر لحاكميها الظالمين . وزاد طغيانهما وكبرياؤهما ، وخاصة مراد ، حيث ظن أنه هو الذى هزم حسن باشا قبطان . وأحبط سعى الدولة لإخراجهما من مصر .

وجاء فرمان من الدولة فى ذى الحجة من سنة ١٢٠١ بسفر قبطان باشا لحرب الروس . والعفو عن مراد، وإبراهيم ، على أن يقيم أولهما فى إسنا ، والثانى فى قنا ، ولكنهما كانا يقيمان فى القاهرة ، فعلا ، ويحكمان مصر ، على الرغم من فرمان الدولة .

وامتد حكم مراد وإبراهيم الثانى أكثر من عشرين سنه . كانت من أسوأ العهود التى مرت بمصر ، وكان إبراهيم فيها صاحب المقام الأول . حتى كان مراد يقبل يده فى الأعياد . ولكن مرادا كان فى أغلب الأوقات ، صاحب النفوذ الأول والسلطة الغالبة . وكان كبار المماليك يهابون مرادا ، ويحترمون إبراهيم . ويقولون : إنه أبوهم . حتى إن الألفى الكبير ، أعظم المماليك شأنا بعد مراد وإبراهيم ، كان لا يجلس إلا إذا أذنه إبراهيم . وكان الاتفاق الذى تم بينهما على طريقة الحكم ، أن يتناوبا ، فى كل سنة ، مشيخة البلد ، وإمارة الحج .

وكان إبراهيم يتصف بشىء من الصراحة . نصب نفسه قائمقام على مصر . وأقام لذلك ديوانا فى بيت ابنته بدرب الجماميز ، وحرص على أن يشترك القاضى والعلماء فى هذا الديوان ، عندما يلبس خلعة الحكم والولاية . ولكن هؤلاء العلماء عندما احتبس المطر عن البلاد سنة ما . وأوشكت زروع الناس على التلف . أرادوا أن يقيموا صلاة الاستسقاء . ومن شروط هذه الصلاة : رفع المظالم ، وترك الذنوب والرجوع إلى الله . لعله ينزل الغيث رحمة بالناس . فذهبوا إلى إبراهيم ليحدثوه عن صلاتهم . وليمنع المظالم . عسى الله أن يقبل منهم ، ويسقيهم . فقال لهم إبراهيم : « هذا أمر لا يمكن ، ولا يتصور . . . ! » .

وهذه القصة تدل على ما كان يفهمه إبراهيم من معنى الحكم ، والعدل فيه . وهو فهم لم يكن فيه منفردا ، ولكن صراحته فيما أجاب به العلماء ، لها دلالة على خلقه .

ومما يدل على عقلية إبراهيم ، وبساطته ، ما كان من صلحه مع محمد على . فقد أوشك هذا الصلح أن يتم . وقدم إبراهيم فعلا إلى الجيزة ، ليدخل القاهرة ، متصافيا مع محمد على . ولكنه ، وهو يهم بدخول القاهره ، لم يسمع مدافع القلعة تطلق طلقاتها تحية له ، فغضب ولم يدخل . بل عاد من حيث قدم من الصعيد . وقال : كيف يكون ذلك ... ؟ ألم أكن أمير مصر نيفا وأربعين سنة . وكان محمد على يأخذ مرتباته ومرتبات جنوده من عندى ... ؟ ولكن هذا التصرف نفسه يدل على أن إبراهيم كانت له نفس كبيرة . ولو أنه دخل القاهرة وسعى فيها سعيه وأعمل حيلته ، مع مماليكه ، وأتباعه الكثيرين . فربما كان له شأن آخر . وما انفرد محمد على بعد ذلك بحكم مصر ، وقضى على المماليك ، ولما بقى إبراهيم بقية عمره ، مشردا فقيرا ، جائعا . وهو الذى أهدى مرة إلى محمد على ، ثلاثين حصانا ومائة قنطار بن ، ومائة قنطار سكر ، وأربعة خصيان ، وعشرين جارية سوداء . وأرسل له محمد على مع أحد أولاده هدية . وقد بقى إبراهيم ، بعد عودته من الجيزة لعدم إطلاق المدافع تحية له ، يهبط إلى بلاد الصعيد ، ثم ينحدر إلى السودان ، حتى استقر مقامه فى دنقله . وبلغ من حاله أن أرسل إلى محمد على أحد مماليكه ، مستعطفا ، فى ربيع الثانى من سنة ١٢٣١ ومع مملوكه هذا رسالة يقول فيها : إنه قد كبرت سنه ، وعجزت قواه ، ووهن جسمه . وإنه يلتمس من محمد على الأمان والإذن له ، ولمن بقى معه من المماليك ، فى الإقامة بأى مكان يأذن لهم فى الإقامة به من أرض مصر . ليعيشوا فيها أقل عيش . فأبى عليهم محمد على ذلك . وأراد أن يجيء اليه إبراهيم ليقيم تحت حكمه ويجرى عليه من الرزق ما يكفيه ، كما فصلنا ذلك من قبل .

ومع ما لقى إبراهيم من محنة ، وفقر ، وغربة ، فيما بقى من عمره الطويل ، فقد رفض عرض محمد على . ومات فى هذه السنة نفسها ، فى دنقلة . ثم نقلت زوجه

جثته إلى القاهرة ، بإذن من محمد على ، فدفنت فى قرافة الإمام الشافعى ، فى رمضان سنة ١٢٣٢ .

وكان إبراهيم ومن معه ، مدة إقامتهم فى السودان ، يزرعون الدخن ، ويقتاتون به ، ويلبسون القمصان التى يلبسها الجلابة ، وبقى كذلك حتى مات . وأقام إبراهيم فى إمارة مصر ثمان وأربعين سنة .

أما مراد ، فلم تكن فيه سهولة إبراهيم ، ولا يسر أخلاقه ، وكان الاتفاق بينهما قائما على أن يتولى إبراهيم الشئون الإدارية . ومراد إدارة الحرب . ونستطيع أن نعرف ما كان يتمتع به هذان الحاكمان من سطوة ، ومكانة ، إذا عرفنا أن الكبار من مماليك إبرهيم وحده كان عددهم ستمائة ، ومراد أربعمائة .

وكان ما يملكه كبار الأمراء ، غيرهما ، يتراوح بين خمسين ومائتين . وكان إبراهيم ، ومراد يسكنان فى منازل كبيرة ، واسعة ، فى الحبانية . ويسكن قريبا منهما مرزوق بك ابن إبراهيم . ثم بنى مراد قصورا باذخة ، فى الجيزة ، أقام فيها . كما بنى قصورا أخرى فى الروضة ، وجزيرة الذهب ، والعادلية ، وترسا .

اشترى أبو الذهب ، مرادا ، فى سنة ١١٨٢ ثم أعتقه بعد أيام قليلة ، وجعله أميرا وقدمه على أقرانه ، وأنعم عليه بالاقطاعات الجيلة ، وزوجه أرملة صالح بك الكبير الذى قتل يوم بيع مراد لأبى الذهب . ولما مات على بك الكبير تزوج مراد بسريته نفيسة المرادية . ولما سافر أبو الذهب لحرب الشام ، أخذ مرادا معه ، وأبقى إبراهيم نائبا عنه فى مصر ، كما سبق .

وقضى مراد فترة من حياته الأولى ، وهو شريك لإبراهيم ، عاكفا على ملذاته ، وشهوات نفسه ، متنقلا بين قصوره ، وحدائقه . ثم اتجه لاستجلاب المماليك ، والإنفاق عليهم . ليقوى بهم نفوذه ، وليستطيع أن يحقق مطامعه فى الغلبة والتسلط .

واستوزر مراد رجلا عبدا ، اسمه إبراهيم كتخدا السنارى ، وجعله مشيره ،

وجعل لهذا العبد من السطوة ، والنفوذ ، مالم يكن لأعظم أمير فى مصر • وبنى له بيتا بالناصرية ، واقتنى له المماليك الحسان ، والسرارى البيض ، والسود ، والخدم ، وعلمه اللغة التركية • وكان إبراهيم السنارى هذا هو الوسيلة عند مراد • والسفير بينه وبين الأمراء ، والأعيان • يقضى حاجاتهم . وبلغ من علو كلمته أنه كان ينقض ما أبرمه مراد نفسه . ونجد له ذكرا فى أول هذا الفصل .

وكان مراد مُتَـعَـاظِماً ، متكبرا . أقام ست سنين فى الجيزة ، لايقدم إلى القاهرة ولا يلتقى بالأمراء فيها ، ولا يحضر مجالس الديوان . فإذا قدم وال جديد من عند الدولة . جاء للسلام عليه ، ثم لايراه بعد ذلك . كما كان مخادعا مخاتلا ، إذا التقى بمن يستحى منه ، أو يخافه ، تخلص منه حتى لايمده بشىء . ثم تحاشا أن يلقاه بعد ذلك . فإذا اضطر لأن يبذل له شيئا ، غصب مال الغير ، وأعطاه .

ولم يكن مراد شجاعا ، بل كان متهورا ، وشتان مابين الصفتين • وكان ، كما أحسن الجبرتى فى وصفه « يغلب على طبيعته الخوف ، والجبن ، مع التهور والطيش ، والتورط فى الإقدام ، مع عـدم الشجاعة » • تشاجر بعض نصارى الأروام مع بعض السوقة بمصر القديمة • وتعصب الأولون على الوطنيين واعتدوا عليهم ، وقتلوا منهم أكثر من عشرين رجلا . فشكوا إلى مراد ، وطلب مراد كبير المعتدين فامتنع عليه وكانت له مركب فى النيل تحمل المدافع . فأوقفها أمام قصر مراد ، بعد أن ملأ مدافعها بالقنابل . فخاف مراد ، وتغافل عن شكوى الشاكين ، ورضى بالمهانة .

وقدم رسول من قبل الدولة ، يطلب من الأمراء ما تأخر عليهم من المال • فلما صعد الأمراء إلى القلعة ، وتحدث معهم الباشا فى ذلك ، قال له مراد : ليس لكم عندنا إلا الحساب ، أمهلونا حتى نتحاسب • وأرسل إلى من قدم الإسكندرية من جنود الدولة ليعود من حيث قدم . فاذا لم تفعل ذلك فلن ندفع شيئا ، ولن نخرج محمل الحج ، وهذا آخر الكلام • وكان إبراهيم يلطف من خشونة مراد . ثم علم الأمراء بعد ذلك أن الجند القادم إلى الاسكندرية لن يعود ، وأنه جاء لحربهم .

وعرف مراد أن الأمر جـــد ، فصعد إلى الباشا ، مرة أخرى . وذل له ذلة كبيرة . وكان يقبل «أتـكـه[1]» . وركبتيه ، ويقـول له . ياسلطانم : نحن فى عرضك فى تسكين هذه الحرب ، ودفعها عنا . ولما وقعت الحرب بعد ذلك ، كان أول شىء فعله مراد وإبراهيم ، إخفاء ثروتهما الـكبيرة فى القاهرة . ولما أتما إخفاءها ، ذهب إبراهيم إلى العلماء يستنجد بهم ، ويستعطفهم « وتصاغر أمام المشايخ جدا » .

ومما يدل على جهل مراد ، وقصر نظره ، أنه أنشأ فى الجيزة مصانع كبيرة ، لصنع المدافع والقنابل والبارود ، فوق ما كان منها فى القاهرة ، وأخذ جميع الحدادين ، والسباكين ، والنجارين ، وأهل الصناعة للعمل فيها . واستولى على جميع ما فى مصر من الحديد ، والرصاص ، والفحم ، والحطب ، حتى الترمس ، والذرة ، يحرق بها الجير . وأوقف أعوانه على شاطىء النيل يحتجزون المراكب ، ويستولون على ما تحمله من الحطب ، لهذه المصانع . واختار للإشراف عليهـا رجلا من الأروام اسمه نقولا . كان يركب الخيل ، ويلبس الثياب الفاخرة ، ويمشى فى شوارع مصر تسعى أمامه وخلفه القواسة ، يفسحون له الطريق . كما يركب الأمراء ، ويمشون .

ومع وجود هذه المصانع ، والمدافع ، والبارود ، والمراكب الحربية . فإنه لما كتب السيد محمد كريم ، حاكم الإسكندرية ، إلى مراد يطلب منه إرسال كمية من البارود ليتهيأ للدفاع عنها أمام نابليون ، وأرسل كريم ثلاثة عشر رسولا إلى مراد ، فى ليلة واحدة . ومع أن مسيو روسيتى ، قنصل النمسا فى مصر فى ذلك الوقت ، نصحه ، وألح عليه فى إسعاف حامية الإسكندرية بحاجتها . مع هذا كله لم يرسل مراد سوى قنطارين من البارود ، بعد تردد طويل .

ومن غرور مراد ، أنه ، عندما أبلغه قنصل النمسا هذا بقدوم نابليون إلى مصر ، قال له مراد مستهزئا : « كيف نخاف من هؤلاء الرعاع ، الذين لا فرق

---

(١) ذيل ثوبه .

بينهم وبين الواقفين بأبوابنا . . ؟، وإن فرض وصولهم إلى أرض مصر ، فمماليك الخزنة وحدهم يكفوننا مؤونة قتالهم ، ويقطعون دابرهم » .

ثم كان من جهله ، أن طلب من القنصل أن يكتب إلى نابليون ، بعد دخوله الإسكندرية ، ليخرج منها . فقال له روسيتى : إنه لم يدخلها بإذنى حتى يتركها بإذنى . فإن كان لابد من إرسال كتاب إلى نابليون ، فأرسل معه خمسين ألف فرنك حتى يرحل (١) .

وكان مراد يقول عن الفرنسيين القادمين : إنهم « فستق » خلق للأكل ، لا للحرب . وسنرى بعد ، كيف كان حاله فى حربهم ؟ .

وبعد أن هرب مراد إلى الصعيد ، أرسل له القنصل كارلو ، وكان صديقا له ، يدعوه إلى التسليم بسيادة فرنسا على مصر ، وأن يدخل فى طاعة نابليون ، على أن يجعله حاكما على جرجا ، وعضوا فى ديوان الأحكام . فقال له مراد « إرجع إلى نابليون ، وقل له يجمع عساكره ، ويرجع إلى الاسكندرية ، ويأخذ منا مصروف عسكره ، عشرة آلاف كيس . ويكسب دما أجناده ، ويريحنا من كفاحه ، وجلاده (٢) .

ومن حماقة مراد ، أنه عندما جاءه كتاب بقدوم الفرنسيين الإسكندرية ، « طرح الكتاب من يده ، وصاح على عساكره وجنده ؛ واحمرت عيناه ، واضطرمت النار فى أحشاه ، وأمر بإحضار الخيل للركوب . وسار إلى منزل إبراهيم بك على ذلك الأسلوب ، وهناك التقى بالأمراء ، والعلماء ، والوالى التركى بكير باشا ، وخلق كثير . فنظر مراد إلى بكير باشا وقال له : إن هؤلاء الفرنساوية ما دخلوا هذه الديار ، إلا بإذن الدوله العثمانية . ولابد الوزير عنده علم بتلك النية . ولكن القدرة تساعدنا عليكم وعليهم . . . !

فأجابه الوزير : لا يجب عليك أيها الأمير أن تتكلم بهذا الكلام العظيم

---

(١) خطط على باشا مبارك ، ص ٥٧ جزء ٧ نقلا عن كلوت بك .

(٢) ذكر تملك جمهور الفرنساوية . ص ٤٠ طبع باريس سنة ١٨٣٩ لنقولا الترك .

ولا يمكن أن دولة بنى عثمان تسمح بدخول الفرنساوية على بلاد الإسلامية .
فدعوا عنكم ذلك المقال ، وانهضوا نهوض الأبطال ، واستعدوا للحرب والقتال [٢]

فمراد ، وهو مقبل على حرب نابليون ، لا يستبقى صداقة الدولة ، ولو ظاهرا ،
بل يبادئها بالخصومة ، والاتهام . وقد لقى من بكير باشا ما يستحق من رد .

ومما ذكره الجبرتى عن مراد : أن طائفة من عرب البحيرة شكوا إلى
إبراهيم عدوان آخرين عليهم ، فكلف إبراهيم مراداً أن ينظر شكواهم ، وينصفهم .
واستمع مراد إلى شكوى الشاكين ، ثم سافر معهم إلى البحيرة لينصرهم .
ولكن المعتدين اتصلوا به سرا ، وقدموا إليه رشوة ، فتركهم . وانقلب إلى
الشاكين فهاجم بيوتهم فى غفلة منهم ، ونهب مواشيهم ، وإبلهم ، وأغنامهم ،
وقتل جماعة كبيرة منهم ، ثم عاد إلى القاهرة .

وفى منتصف ربيع الأول من سنة ١٢٠٠ شرع مراد فى السفر إلى الوجه
البحرى للقبض على أعراب كانوا يقطعون الطرق . وسمع هؤلاء بقدمه فهربوا ، وطلب
من أعيان البلاد أن يحضروهم ، فاعتذروا ، فأخذ منهم أموالا وتركهم . ثم نزل
إلى بلدة « طملوها » فطالب أهلها بالهاربين ، فلما لم يجدهم نهب القرية ، وسبى
النساء ، والأولاد ، ثم أمر بهدمها وحرقها ، ومحو أثر بيوتها بالجراريف ، حتى
سواها بالأرض . وفرق جنوده وكشافه على البلاد الأخرى ، لجباية الأموال ،
وقرر على البلاد ، والقرى ، ماشاء منها . فإذا استوفى جنوده ما فرضه طلبوا
لأنفسهم « حق الطريق » [٢] ثم « المقرر » وكل بلد أو قرية تمتنع عن دفع
ما فرضه ، مهما كان معجزا لهم ، نهبها وحرقها .

ولم يزل مراد فى سيره على هذا النسق ، حتى وصل إلى رشيد ، ففرض على
أهلها ضريبة فادحة ، فهرب غالب أهلها . وعين على الإسكندرية جابيا ، اسمه
صالح أغا ، وقرر له خمسة آلاف ريال « حق طريق » وفرض لنفسه عليها مائة

---

(١) ذكر تملك جمهور الفرنساوية ص ٢٢ — ٢٤ .
(٢) نجد تفسير هذا الاصطلاح فى الجزء الأول من هذا الكتاب .

ألف ريال . وأمر بهدم كنائسها . فلما علم تجارها ذلك هربوا إلى المراكب ، وكذلك غالب النصارى . وعاد مراد فهدم فى طريق عودته بلادا منها جمجمون ، ودسوق . ثم عرج على الشرقية ، ففعل ببلادها وأهلها مثل ذلك ، وكان أمراؤه الذين تركهم فى القاهرة . يفعلون بأهلها مثل مايفعل كبيرهم بأهل البلاد والقرى..

وخرج مراد مرة إلى أبى زعبل ، فوجد طائفة من الأعراب فى خيامهم ، لم يفعلوا ذنبا ، فنهبهم ، وأخذ أغنامهم ومواشيهم . وقتل منهم أكثر من عشرين ، بينهم الشيخ والغلام . وقبض على مشايخ البلد فحبسهم ، وفرض عليهم أحد عشر ألف ريال . وهرب من حولها من الأعراب ، قبل أن يدركهم مراد.

ويبدأ الجبرتى حديثه عن سنة ١٢٠٧ بهذه البداية « استهل المحرم بيوم الخميس ، والأمر فى شدة من الغلاء ، وتتابع المظالم ، وخراب البلاد ، وشتات أهلها وانتشارهم بالمدينة — القاهرة — حتى ملأوا الأسواق ، والأزقة ، رجالا ، ونساء ، وأطفالا . يبكون ويصيحون ، ليلا ، ونهارا ، من الجوع . ويموت من الناس ، فى كل يوم ، جملة كثيرة من الجوع » .

وذكر الجبرتى أن مرادا اتهم بدس السم ، للسيد محمد البكرى .

هذه كانت حال مصر وأهلها . وهكذا كان يصنع بها ، وبهم ، مراد . أما هو ، فكان ينعم بترف من العيش الرغيد . يتوسع فى بناء قصره بالجيزة ، يزينه وينمقه ، ويبنى تحته رصيفا محكما ، وينقل إلى حدائقه الفسيحة الأشجار ، والنخيل ، والأعناب . ويضيف إليه ماشاء من أرض حتى استخلص إقليم الجيزة كله لنفسه . واقتنى فيه الأبقار ، والجواميس الحلابة ، والأغنام المختلفة الأجناس . وأنشأ بساتين واسعة ، فى قصوره الأخرى . وكان يخرج للصيد فى أغلب أوقاته . ويجالس الندماء ، والظرفاء ، ويلعب الشطرنج ، ويسمع الآلات ، والأغانى .

وقد وجد جنود نابليون عندما دخلوا قصره بالجيزة . فراشا فاخرا ، وحرائر موشاة الأطراف بالذهب ، والفضة ، وأشياء من مفاخر الصناعة الأوروبية[1] مع

(١) فتح مصر الحديث ص ٢٧ للمرحوم أحمد حافظ عوض .

أنه كان أخلى قصوره من كل شيء ثمين ، وأخفاه على أمل أن يعود مرة أخرى .

كما وجد الفرنسيون فى ثياب كل قتيل من المماليك ، فى موقعة إمبابة ، مالا يقل عن مائتين ، أو مائتين وخمسين ، قطعة من الذهب . عدا ماتقدر به هذه الثياب من مال كثير .

وقد كانت سياسة مراد الطائشة ، نحو الأجانب ، والمغارم التى كان يوقعها بهم ، والمصادرات التى كان يفرضها على أموالهم ، سببا ، أو ذريعة ، اتخذها نابليون للحملة على مصر .

فقد استنفد مراد ، بقسوته وطيشه وظلمه ، موارد مصر ، واستنزف كل ما فيها من ثورة . ثم التفت إلى الأجانب ، والفرنسيين خاصة ، حيث كانت لهم متاجر رابحة فى القاهرة ، والاسكندرية ، ورشيد . فأثقل عليهم بالضرائب الباهظة ، والمغارم الجائرة . والمصادرات المجحفة . وأنشأ ديوانا ، سمى « ديوان البدعة » أنشأه فى رشيد ، وفرض ، عن طريقه ، دينارا على كل أردب من القمح يحمل إلى الخارج . غير ما كان يتقاضاه ، هو ورجاله ، من الرشاوى .

وقد أكثر التجار الأجانب من الشكوى . وتدخل الباشـــا ، نائب الدولة فى مصر ، مرارا ، ولكن جهده كان يذهب عبثاً . ولم يزد مراد إلا ظلما ، وجورا . فأرسل التجار الفرنسيون بشكواهم إلى حكومة الجمهورية . وقد تكون هذه الشكوى متفقا عليها بين هذه الحكومة وهؤلاء التجار ، لتتخذها هذه الحكومة سببا للحملة على مصر . ولكن مما لا شك فيه ، أنه كان لهذه الشكوى أكثر من مبرر .

وقد أدرك المصريون أنفسهم هذه الحقيقة ، حيث ذكر الجبرتى ، أكثر من مرة ، أن عدوان مراد على التجار الأجانب ، ونهبه أموالهم ، كان من أكبر أسباب الحملة الفرنسية . بل قال ذلك شيخ كبير هو الشيخ السادات . فى مواجهة مراد . قال الشيخ ذلك عند ما اجتمع الأمراء والعلماء ليدبروا أمرهم عند قدوم نابليون ، فتكلم السادات ، وخاطب الأمراء « بالتوبيخ » ، وقال : كل هذا من سوء فعالكم ،

وظلمكم . وآخر أمونا معكم ملكتمونا للإفرنج . وشافه مرادا بقوله : خصوصاً بأفعالك وتعدّيك ، أنت وأمرائك ، على متاجرهم ، وأخذ بضائعهم ، وأهانتهم .

وقد صدق الجبرتى عندما قال : إن مرادا « كان من أعظم الأسباب فى خراب الإقليم المصرى » ولم يذكر له فضيلة واحدة سوى أنه كان « يحب العلماء ويتأدب معهم ، وينصت لكلامهم ، ويقبل شفاعتهم . ويميل طبعه إلى الإسلام والمسلمين » .

وقد مات مراد ، بالطاعون ، فى سوهاج ، فى اليوم الرابع من ذى الحجة سنة ١٢١٥ (ابريل ١٨٠٠ م) أى بعد دخول نابليون مصر بثلاث سنين . وكان فى طريقه إلى القاهرة ، باستدعاء الفرنسيين ، ودفن عند الشيخ العارف ، بسوهاج .

كان فى طريقه إلى القاهرة لمساعدة الفرنسيين فى حربهم مع الحملة الإنجليزية التركية ، التى قدمت لإخراجهم من مصر . وكان الفرنسيون قد عقدوا معاهدة مع مراد ، تفرض عليه مساعدتهم حربيا ، إذا احتاجوا لهذه المساعدة .

وقد حزن الفرنسيون لموته حزنا شديدا . ونعاه الجنرال مينو فى آخر منشور منه لأعضاء الديوان . وذكره بعبارات فيها كثير من الجزع ، والحزن ، والتفجع والتقدير لصداقته ، وإخلاصه لهم .

وقد كان مراد ، بعد استقرار الأمر للفرنسيين ، تابعا ذليلا لهم . فعندما ظهرت عليه جيوشهم ، وأحبطوا ثورة القاهرة مرتين ، وفرضوا على أهلها المغارم الثقيلة ، كان مراد يجول ومعه قليل من جنده فى الجيزة ، رافضا أن يشترك مع المصريين وجند الدولة ، فى مقاومة الفرنسيين . بل كان يترقب وينتظر . فلما ظهرت غلبة الفرنسيين . اتصل بالجنرال كليبر ، لعقد صلح معه . ودعاه إلى وليمة فى جزيرة الذهب ، بالقرب من الجيزة ، قدم فيها « الطعام وآنية المدام » كما يقول نقولا الترك ، واتفق معه على أن يكون حاكما على الصعيد . وأن يجعل قاعدته

مدينـــة جرجا ، وأن يدفع للفرنسيين الضرائب . وأن الفرنسيين إذا خرجوا من مصر ، لا يسلمونها إلا إليه ، وأهدى إليه مراد، سيفاً ثميناً ، وخنجراً ، وقدم إلى رجاله الهدايا . ثم طلب أن يستعرض معه بعض جنود فرنسا ، فاستعرضها معه كليبر . وعرض عليه مراد أيضاً بعض فرسان المماليك . ثم سافر إلى جرجا ، خادماً للفرنسيين .

وعندما ضاق الأمر بالمصريين ، وفتكت بهم مدافع الفرنسيين . أرادوا أن يستعينوا بمراد ، فأبى أن يجيء لعونهم ، أو يرسل إليهم جنده ، أو بعض جنده . بل طلب إليهم أن يصالحوا الفرنسيين ، ويكفوا عن المقاومة . بل فعل أكثر من ذلك . كان يحرض القاهريين على المقاومة ، وهو في الوقت نفسه ، يرسل هدية عظيمة للجنرال كليبر ، دليلاً على مودته ، وإخلاصه . ثم يعرض عليه الصلح ، ويصالحه . ولكنه يخفى ذلك عن أنصاره وأصدقائه ، ويرسل ، في الوقت نفسه أيضاً ، إلى قائد الجيش العثماني يقول : إنه يقيم في طره حارساً يمنع عن الفرنسيين خيرات الصعيد .

الألفي والبرديسي

محمد بك الألفي ، وعثمان بك البرديسي ، زعيمان من كبار المماليك ، عاشا في عصر واحد ، وماتا في عام واحد . والرأى فيهما ، عند الجبرتي ، مختلف جداً ، ومتباين إلى أبعد حدود التباين ، والتناقض .

أما أولهما ، فالجبرتي شديد الإعجاب به ، والتقدير له ، والثناء عليه ، بلا تحفظ ولا حيطة ، يذكر له بعد النظر وشدة الحذر ، والحرص البالغ على بقاء المماليك ، وإعادة مجدهم ، وسلطانهم الذي أوشك محمد على أن ينزعه منهم في ذلك الوقت . ويذكره بكثير جداً من الإشفاق ، والمرثية . لأنه لم يجد عند البرديسي ، وعند إبراهيم بك ، أيضاً ، غير الصلابة ، والعناد ، والمكابرة ، والحقد . وهو لا يقصد إلا خيرهم ، وخير المماليك ، ويقبل أى شيء ، ويقدم على كل شيء ، حتى يتغلب على

عدوه ، وعدوهم ، محمد على . وتعد ترجمة الألفى ، من أجود ما كتبه الجبرتى فى تاريخه كله .

وأما البرديسى ، فالجبرتى شديد الكراهة له ، والذم فيه ، والقسوة عليه ، يصب عليه اللعنة ، ويجعله شؤما ، أى شؤم ، وسببا لانتهاء دولة المماليك وسلطانهم ، وتمكين محمد على منهم ومن مصر ، بسبب هذه الصلابة ، وهذا العناد الذى وقفه من الألفى ، وانحيازه أول الأمر لمحمد على ومعونته له ، وخديعته فيه . وبسبب غروره ، وحقده ، وقصر نظره ، وجهله .

كان الألفى من مماليك مرادبك ، اشتراه فى سنة ١١٩٠ رجل من المماليك ثم باعه بعد أيام ، لأنه كان مزاحا ، سفيها . فطلب إلى سيده أن يبيعه ، وأهداه سيده الجديد إلى مرادبك زاهدا فيه أيضاً . فأهداه مراد فى نظيره ألف إردب من القمح . لذلك سمى بالألفى . وكان معتدل القامة ، جميلا ، أبيض اللون ، مترفا ، حسن اللباس ، معجبا بنفسه ، كما كان قوى الشكيمة ، صعب المراس ، فائق الشجاعة ، له بأس شديد ، وحرص بالغ . وقد جملت هذه الصفات سيده ، مراد بك ، يسرع بتحريره وتنصيبه أميرا بعد سنتين من شرائه . وعند ذلك استقل الألفى بشئونه ، وظهرت مزاياه ، وصفاته النفسية . وكان من أهمها الكتمان . فقد كان لا يظهر ما فى سريرته أبدا ، ولا يبدى طويته لأحد . بل يكثر من التفكير ، والتدبر ، فإذا انتهى تفكيره إلى رأى ، أقدم على تنفيذه حذراً ، متيقظاً . ولا يعرف أقرب الناس إليه ماذا دبر ، وماذا يريد أن يفعل . وكان سيده أعطاه أرضا بالالتزام فى ناحية فرشوط بالصعيد ، وأخرى فى المنوفية ، فكسب فيها محبة الناس ، وتقديرهم ، وثناءهم . وكان لعلو همته لا يساوم تاجرا فيما يشتريه ، بل يدفع لهم ما يطلبون من ثمن ، ولو اشتطوا ، ويأمر عماله وموظفيه ، أن يدفعوا لكل بائع ما يفرضه من الثمن لبضاعته .

وكان الألفى حازما ، رقيقا ، معاً . عين كاشفا للشرقية ، وأقام فى بلبيس عاصمتها إذ ذاك ، فخاف أعرابها من بطشه ، وصرامته ، وأحبه الفلاحون لرقته معهم وعطفه عليهم . وقد سجن الألفى كثيرا من زعماء العرب ، وساقهم فى

القيود والأغـــلال ، وصادر أموالهم ، وفرض عليهم الضرائب الـكثيرة ، وردّ ظلمهم عن الفلاحين . وكان هؤلاء العرب وزعماؤهم ، يحبونه ، ويظهرون له غاية الإمتثال والطاعة . ويسارعون لتلبية أمره وإشارته . ولعل من أسباب ذلك أنه كان خبيرا بطبائعهم ، محيطا بأحوالهم ، وشئونهم ، دارساً لنفسياتهم . وقد تزوج كثيرات من بنات قبائلهم ، ولـكنه لم يستبق إلا واحدة .

وكان فى أول شبابه ، جبارا ، معتديا ، اختلف مع جار له من كبار المماليك ، فأمر خدمه أن يضربوه ، ومات بعد يومين . وخشى مراد بك الفتنة ، فأمره بالخروج من القاهرة إلى البحيرة ، ثم أعاده بعد فترة من الزمن .

ثم تمرّس الألفى بالأيام ، وأفاد من دروسها ، وعبرها ، فاعتدل . وكان قد ترك القاهرة فرارا من بعض الفتن ، واغترب أكثر من أربع سنوات عنها . فلما عاد مالت نفسه إلى مطالعة الـكتب ، ودراسة علوم الهندسة ، والفلك ، والتقاويم والنجوم ، والتاريخ . فاقتنى فى ذلك كله كتبا كثيرة ، وطلب العلماء فى هذه العلوم ليجلس إليهم ، ويفيدمنهم . وآثر الوحدة والقراءة ، على المشاركة فى الفتن والأحداث العامة . وترك كثيرا من أملاكه لرجاله ومماليكه . ولـكنه وجد أن هذه الوحدة وهذا التباعد والترفع ، أضعفت هيبته ، وجرّأت عليه كثيرين من المماليك ، حتى غضب له رجاله ، وعيّروه ، وطمع الأدنياء فيه ، وترفع الضعفاء عليه . فرجعت نفسه إلى حب السيادة والتطلع للجاه والسلطان ، وأقبل على شراء المماليك . يبذل فى ذلك أموالا جسيمة حتي صار له ألف منهم ، غير أربعين من الأمراء الذين يحكمون الأقاليم الـكثيرة ، ويملـكون البلاد الواسعة . وكان يزوجهم وينفق فى جهازهم مالا كثيرا ، ويعطيهم القصور الباذخة . وبنى له بيتا فى صحراء بلبيس ، كان يقيم فيه ثلاثة شهور أو أربعة من كل عام . واقتنى بيتا من خشب ، وحديد ، كان ينقله حيث شاء . يتسع لثمانية من الناس ، نومهم وإقامتهم ، وبنى قصوراً كثيرة منها قصره الذى وضع رسومه بنفسه وأبدع فى بنائه وزخرفته إلى أبعد غاية . وركب فى سقوفه النجف الثمين ووضع فى حجراته وردهاته ، التحف الغالية التى أهدتها إليه الحـكومة الإنجليزية . وفرشه بأندر أنواع السجاد ، والوسائد الحريرية ، والستائر . وأنشأ خلفه

بستانا عظيما ، وبنى فيه قصورا أخرى لخاصة مماليكه . وأهدت إليه الحكومة الإنجليزية فسقية عظيمة من الرخام ، فيها تماثيل لأنواع من السمك تمج الماء من أفواهها ، فوضعها فى بستان القصر . ولما بُنى من هذا القصر قسم كبير ورآه الألفى، لم يعجبه . فأمر بهدمه وبنائه من جديد ، فلما تم تشييده على ما يرضيه ، وضع له الشيخ حسن العطـــار ، بيتين من الشعر نقشهما بماء الذهب على باب القاعة الكبرى التى خصصها لمجلسه ، وهما :—

شموس التهانى قد أضاءت بقاعـــة

محاسنهــا ، للعين ، تزداد بالألف

على بابها قال السرور مؤرّخـــا :

سماء سعاداتى تجــدد بالألفى

وكذلك هنأه شعراء آخرون ، وتزاحمت الأمراء على بابه . وقد أقيم هذا القصر بالأزبكية على بركة الرطلى . وبناه الألفى بلا رواشن ، ولا خرجات ، ولا بروز. فكانت نوافذه كلها من الجدان . وتم بناؤه فى آخر شعبان من سنة ١٢١٢ ، وأقام فيه ستة عشر يوما لاغير . فقد تركه فى منتصف رمضان إلى الشرقية . وفى غيبته جاء نابليون ، ثم دخل القاهرة فجعل من هذا القصر سكنا له ، ومقرا لقيادته . ثم استولى عليه محمد على بعد ذلك وأقام فيه . ولم يدخله الألفى بعد خروجه منه . وقد بقى جزء من هذا القصر هو الذى كان فيه فندق شبرد ، إلى أن احترق فى سنة ١٩٥٢ فى حريق القاهرة الذى وقع فى ٢٦ يناير من تلك السنة .

ومع هذه القصور الباذخة التى بناها الألفى ، وحبه للترف والنعيم ، فقد كان بسيطاً فى معيشته وحياته إذا شغلته الحروب والأزمات . كان إذ ذاك ، لايدخل إلى حريمه . بل يبيت فى إحدى الحجرات أسفل البيت ، وينام على سجادة . ولم تكن تلهيه رغائب الحياة ، أو صغار أمورها عن جلائل المطالب والغايات . وكان يغضبه من رجاله ، أن تلهيهم تلك عن هذه .

يقول الجبرتى : إنه زاره يوما ، بعد خروج الفرنسيين — والعثمانيون يتحفزون

للعودة إلى القاهرة — وكان متوجسا من عودتهم . فلما دخل عليه وجده جالسا على سجادة . ثم دخل بعدم واحد من أمرائه يستأذنه فى زواج سيدة مات عنها زوجها الأمير . فزجره الألفى وعنّفه ، وأخرجه من مجلسه ، ثم قال للجبرتى : انظر إلى هؤلاء المنفلين ، يظنون أنهم استقروا بمصر ، وأمنوا ، ولم يبق إلا أن يتزوجوا وينعموا . مع أننا ، بين محمد على ، وبين العثمانيين ، لا نعرف ماذا يكون من أمرنا غدا .

وقد صدقت فى ذلك فراسة الألفى ، إلى أبعد غايات الصدق . فقد دخل العثمانيون القاهرة . وتودّد الوالى إلى كبير المماليك إبراهيم ، وأعطاه شيئا من السلطة . فانخدع هذا ، وبقية الأمراء . ولكن الألفى لم ينخدع ، وتحدث إلى الأمراء بأن هؤلاء العثمانيين ، يخادعوننا ، وسوء الظن من حسن الفطن . ثم قال : كيف نحسن الظن بالعثمانيين : وقد حرمناهم ثمرة انتصارهم علينا فى عهد السلطان سليم ، ولم نترك لهم من حكم مصر سوى الظهر . وكثيرا ما منعنا عنهم الجزية ، وأخرجنا واليهم مطرودا من القاهرة . وقد ذاق العثمانيون خيرات مصر ، وعرفوا متاعها ، فلا يمكن أن يتركوها لنا وفيها جيوشهم .

وكان الرأى عنده ، أن يأخذ المماليك جانب الحذر ، من العثمانيين ، ولا يأمنوهم حتى تخرج جيوشهم من مصر ، ويعود الأمر فيها كما كان . للمماليك السلطة والحكم ، وللعثمانين الجزية ، ووالٍ يقيم فى القلعة ، ويبقى مادام حائزا لرضاهم ، ولا يعترض على أمرهم . ونصح لإخوانه من الأمراء ، أن يخرجوا إلى الجيزة ، فيقيموا فيها ، ويجعلوا من الإنجليز — وكان معسكرهم فى الجيزة أيضا — وسطاء بينهم وبين العثمانيين فى الخروج من القاهرة ، والعودة إلى الحال الذى كان قبل قدومهم لحرب نابليون . وقال قائل منهم : كيف نلجأ إلى الإنجليز وهم غير مسلمين ..؟ فيحكم علينا العلماء بالكفر . فأجابه الألفى بأنه لا بأس علينا فى ذلك ولا لوم . فقد استعان العثمانيون أنفسهم بالإنجليز . واستنجدوا بهم ليعينوهم على حرب الفرنسيين ، وإخراجهم من مصر ، ولولاهم لما خرجوا . وقد أراد العثمانيون أن يحاربوا الفرنسيين فى مصر ، وأن يخرجوهم ، فلم يستطيعوا ، كما نعلم جميعا . على أننا لن نشارك الإنجليز فى حرب ، ولن نأذن لهم

بالبقاء فى مصر . ولن نحارب معهم أهل ديننا من العثمانيين . بل سنجعلهم وسطاء عند أصدقائهم العثمانيين حتى لايخدعونا أو يغدروا بنا . وعندما يترك الجيش العثمانى القاهرة ويخرج الإنجليز من البلاد ، نعقد معهم اتفاقا سياسيا . ويكون الحكم لنا دون الجميع .

ولم تقنع حجج الألفى إبراهيم بك وبقية الأمراء . فطلب هو من الوالى يوسف باشا أن يقلده إمارة الصعيد ، يريد بذلك أن يترك القاهرة ، وفرح الوالى بذلك ليستريح منه ومن رجاله . ولام الوزيرَ بعض رجاله على أن يترك الألفى يفلت من يده . وأدرك خطأه فأرسل مسرعا بعض رسله إلى الألفى ليعود فيوصيه ببعض الأمر ثم يسافر . ولكن الألفى كان ، فى سرعة فائقة ، قد أبعد عن القاهرة أميالا كثيرة ، ثم استقر فى أسيوط . وكان بعد ذلك ماخشيه الألفى وحذر منه ، فقد عاد الوالى بعد قليل فكفّ إبراهيم بك عن قليل السلطة التى كان قد مكنه منها . وبعد شهور ثلاثة أخذ من فى القاهرة من المماليك فسجنهم ، وأقام قبطان باشا حفلا بحريا لمن كان يقيم منهم فى الإسكندرية ثم قتل منهم جماعة غدرا . ولم يخلّص من بقى من المماليك إلا وساطة الإنجليز .

ثم جرد الحملات واحدة إثر واحدة لحرب الألفى فى الصعيد ، فلم تفلح منها واحدة فى هزيمته . ويقول الجبرتى : إن الوالى محمد باشا خسرو أخرج حملة عظيمة جعل نائبه يوسف بك قائدا لها ، وجمع لها حمير السقائين ، والحمالين ، والكلاف ، وفرض على أهل بولاق ألف حمار . وكان جنوده يخطفون حمير الناس ، ويأخذونها غصبا فسمى أهل القاهرة هذه الحملة (تجريدة الحمير !) وكان بعض العثمانيين يضع فمه على ثقوب أبواب البيوت . ثم يقول بصوت عال « زَرّ » فإذا سمع نهيقا من داخل البيت اقتحمه ، وساق مافيه من الحمير . وكان الألفى إذ ذاك ترك الصعيد ، وسار من خلف القاهرة إلى البحيرة . وعند دمنهور حاربته (تجريدة الحمير) هذه . وكان مع الألفى جماعة من الإنجليز يشهدون المعركة ، وقدروا جيش العثمانيين بأربعة عشر ألف رجل . وكان جيش الألفى بضع مئات من الفرسان . فنصحه الإنجليز بألا

يحارب . ولكنه اقتحم بفرسانه جيش العثمانيين ، وأوقع فيه هزيمة منكرة ، وأسر منه سبعمائة بأسلحتهم . ولما عاد قائد الجيش ومن بقى من جنوده ، أبى الباشا فى القاهرة أن يعطيهم رواتبهم لأنهم — كما قال لهم — لم يفلحوا فى شىء .

وبعد ذلك سافر الألفى مع أصدقائه الإنجليز إلى بلادهم ، وقد أعجبوا به وبفرسانه يوم الموقعة أعظم إعجاب . وأخذ الألفى معه خمسة عشر من رجاله . وأقام مملوكه بشتك بك — ويعرف بالألفى الصغير — نائبا عنه فى مصر . وخرج من مصر فى منتصف شوال سنة ١٢١٧ فأقام فى إنجلترا سنة ونحو شهر . فلما عاد ، فى أول ذى العقدة من السنة التالية ، كانت قد جرت فى القاهرة أحداث هامة ، انتهت بعودة السلطة إلى أتباعه وإخوانه من المماليك . وكان هؤلاء ومعهم محمد على ، أخرجوا العثمانيين ، وقتلوا ، أو نفوا ، عددا من رؤسائهم .

عند ذلك لم يجد محمد على خصما يخشاه غير الألفى ، فتودد إلى البرديسى ، واستغل حقده على الألفى ، وغروره بنفسه . وكان يجالسه فى مجلس الشراب ويمنيه بأن يستقل بحكم مصر ، وسيجعل محمد على جنوده خدما له . فلما عاد الألفى ، وأراد أن يجمع شمل المماليك . ويوحد قوتهم ضد محمد على ، استمع إليه إبراهيم بك . ولكن البرديسى لم يرض إلا خصومة الألفى والإصرار على حربه . وكان بشتك بك قد انخدع أيضا بمحمد على والبرديسى ، بعض الشىء ، ولم يعتقد أن البرديسى يقدر على حرب الألفى ، فأعانه على تمكين سلطته فى غياب سيده .

عرف محمد على أن الألفى عائد إلى القاهرة . وكان يقول إنه لن يهنأ له فى مصر عيش مادام فيها الألفى . فجمع كل حيلته ، واستعان بكل دهائه ، وقد عرف نفسية البرديسى ، واستطاع بهذا وذاك أن تمكن الخصومة بينهما ، وأن يجعل البرديسى يمتلىء بالكراهة والحقد على الألفى ، والخوف على نفوذه ، وحياته ، إذا رجع إلى القاهرة . وكذلك استطاع محمد على وحليفه البرديسى أن يدخلا كثيرا من الحقد والكراهية إلى نفوس طائفة أخرى من المماليك ، ضد الألفى .

فى اليوم الثالث من ذى القعدة سنة ١٢١٨ نزل الألفى مدينة رشيد عائدا من انجلترا، وأرسل حاكمها يحيى بك البرديسى بهذا النبأ إلى القاهرة . فأطلق الأمراء المدافع ، وأوقدوا القناديل إظهارا لسرورهم بعودة كبيرهم ، وأخذوا يجمعون التحف والهدايا ليلقوه بها . ولكنهم أخفوا فى نفوسهم غير ما أظهروا . إذ كتب البرديسى إلى يحيى بك حاكم رشيد بأن يقتل الألفى . وكان هذا حذرا ، كعادته، إذ أمر حاكم رشيد ألا يرسل بنبإ قدومه إلى القاهرة ، حتى يكون دخوله إليها مفاجئا . ولكن يحيى بك بادر بإبلاغ النبأ . ولما سأله يحيى بك عن الأجل الذى يعتزم أن يقيمه فى رشيد ، قال له الألفى: سنبقى فيها ستة أيام لنستريح . ولكنه بعد ليلة واحدة تركها ونزل فى بيت القنصل الإنجليزى . وكانت هذه الحيطة سبباً فى أن يحيى بك لم يتمكن من قتله ، عندما جاءه أمر البرديسى بذلك .

أما فى القاهرة ، فقد أظهر البرديسى وجماعته أنهم خارجون للترحيب بزعيمهم الألفى . وطلبوا إلى حسين بك الوشّاش ، من كبار الأمراء الألفية ، أن يخرج لملاقاتهم ليلا ، فلما التقى بهم شجعوه على أن يسير معهم لملاقاة الألفى . وكانوا قد أوقفوا جماعة منهم يحملون المشاعل أمام بيت الألفى . فأوهموه أن بشتك بك — الألفى الصغير — خارج أيضا للقاء سيده . وهذه مشاعل رجاله . فانخدع حسين بك بذلك ، وأمر مرافقيه من المماليك أن يعودوا فيحضروا فرسه وأفراسهم لمرافقة القوم . فلما أبعد مماليكه عنه قتله جماعة البرديسى ، وأسرعوا فأخبروه بنجاح الخطة . وكان محمد على مشتركا فى هذه المؤامرة . يحيط برجاله قصر الألفى ليقتل بشتك بك عندما يصله نبأ مقتل حسين الوشاش . ولكن مملوكا من رجال الألفى تسلل إلى القصر مسرعا وأخبر بشتك بك بما كان ، فأسرع هذا بالهرب ، ولم يستطع محمد على أن يلحق به ، واتجه إلى الصعيد ، ودخل جنود البرديسى ومحمد على قصر الألفى ، فنهبوا ما فيه من الأشياء الثمينة .

وأما الألفى الكبير ، فقد أنزل أثقاله وأمتعته وما جاء به من إنجلترا فى أربع سفن ، وأهدى اليه القنصل الإنجليزى سفينة لينزل بها . وسارت به السفن

الخمس فى النيل، يقصد القاهرة مسرعا ليصلها فى وقت لا ينتظره من فيها من الأمراء .
ولكن الريح عاكست سفنه . وفى قرية من قرى المنوفية ، التقت سفن الألفى
بأربع سفن تحمل جندا من الأرنؤود — جند محمد على — وفهم بعض أتباعه من
حديثهم مع هؤلاء الجند أنهم يبحثون عن الألفى . فلما أبلغوه ذلك تعجب منه
كل العجب ، وأوشك ألا يصدقهم ، ولكنه أخذ حيطته وأسرع إلى مكان نزل
منه إلى البر . ولقيه رسول من قبل بعض المخلصين له فأبلغه تفصيل مافعله البرديسى
ومحمد على . وتأكد عنده ما كان لا يصدقه .

عند ذلك أمر الألفى بتغريق سفنه ، وأسرع بالسير ، وكانت هذه المنطقة
كلها تعج بطوائف المطاردين له ، كلّ يريد أن يسبق بأخذه إلى البرديسى لينال
مكافأته . وكان الألفى ومن معه من الأمراء يسيرون على أقدامهم ، فدخل نجع
عرب الحويطات فى ناحية قرنفيل ، ولجأ إلى سيدة من بنات العرب فأجارته .
وأحضرت له فرسا ، وأمرت رجلين من رجالها بأن يصحبوه ، كل واحد منهما
يركب هجينا ، ومماليكه راجلون يسيرون من خلفه ، والتقى به عند الخانكة جماعة
من مطارديه ، وأحاطوا به ، فحاربهم مماليكه . وتسلل هو فى أثناء المعركة فأفلت
منهم . وكان البرديسى قريبا من هذه المعركة يصل إلى سمعه صوت رصاص البنادق ،
ولكنه بعد انتهائها لم يجد له أثرا ، رغم مابذل من جهد عظيم . ولقيته بعد ذلك
جماعة أخرى من المطاردين ، فلما رأى أنهم سيأخذونه . ألقى بينهم مامعه من الذهب
والجوهر ، والثوب الثمين الذى يلبسه . فشغلوا بذلك عنه ، واستطاع أن يفرّ منهم
فلم يجدوه .

وبذل البرديسى كل حيلته وجهده ليقتل الألفى ، أو يأخذه أسيرا ، فلم يستطع .
فرّق جنوده ورجاله فى البر ، والبحر ، على بلاد القليوبية : والمنوفية ، والشرقية ،
والبحيرة . وفى طريق الجبل الذاهب إلى الصعيد ، وجعل خمسة من كبار مماليكه على رأس
هذه الفرق المطاردة ، وكان محمد على على رأس الفريق الذاهب إلى القليوبية . وأذن
البرديسى أىّ رجل من المطاردين يجد الألفى ، أن يقتله لفوره . وأوشكوا أن

يدركوه مرة أخرى عند منوف ، ولكنه ترك لهم خيوله وجماله وأثقاله ، ونجى بنفسه . ففرضوا على أهلها أربعة آلاف ريال عقوبة لهم . وقتلوا بعض رجال من العرب لأنه مر بديارهم . أخذوهم فشنقوهم فى عمائمهم . وقد ظلت هذه المطاردة على عنفها وشدتها ، نحو عشرة أيام . أدرك بعدها البرديسى ، ومحمد على ، أنهم عاجزون عن صيده . فاكتفوا بأن أوصوا حكام الأقاليم الموالين لهم بالبحث عنه ، وعن الألفى الصغير .

وأدرك رجال البرديسى السفن التى كانت تحمل متاع الألفى . فأخذوا مافيها من الأموال ، والطرائف ، التى أهديت إليه فى انجلترا ، والأسلحة، والجواهر . وكان اشترى بضائع بأربعة آلاف كيس (نحو عشرين ألف جنيه) وحمل هذه البضائع على أن يدفع ثمنها لقنصل إنجلترا بعد رجوعه إلى مصر . فنهب هذا كله. وكان ذلك سببا فى أن زار القنصل إبراهيم بك ، والبرديسى ، وتحدث إليهما فى ذلك ، وفى الاعتداء على الألفى حديثا شديدا ، ثم سافر من مصر إلى بلاده غاضبا . وأراد قنصل فرنسا أن يسافر أيضا فمنعه إبراهيم بك والبرديسى ، معتذرين إليه .

وفى هذه الأثناء تنكّر محمد على للبرديسى . وأظهر له حقيقة أمره ، وأقدم على حربه حتى أرغمه على الفرار من القاهرة ، كما نرى فى ترجمته بعد قليل . وكان الألفى يختفى عند كبير من العرب فى رأس الوادى بالشرقية ، اسمه عشيبة . فلما عرف ما جرى للبرديسى ، وأمن من مطارديه ، أرسل إلى كبير من مماليكه ليلقاه بما عنده من مال ومعونة . وانتقل الألفى ومن معه إلى إطفيح ، وهناك سعى سعيين ، أحدهما سياسى ، وثانيهما حربى . أما السياسى فهو اتصاله بالسيد عمر مكرم فى القاهرة ليضع نفوذه إلى جانب المماليك دون محمد على . وقد رضى عمر مكرم عن هذا السعى ، وقبل من الألفى أموالا ينفقها فى سبيل الدعوة له ولمماليكه . ولكن دهاء محمد على كان أثره أكبر من سعى الألفى ورسائله وماله . فقد خلب السيد عمر مكرم ، واستولى على قلبه بالمداهنة كما فعل بالبرديسى . وأما سعى الألفى الحربى فقد أفلح فيه إلى حد كبير ، حيث أعاد جمع مماليكه ، وجيوشه .

وكانت له بهما قوة لا بأس بهـا . ولـكنه عرف بعد قليل أن السيد عمر مكرم لا يصدّقه، وأنه ومعه نقيب الأشراف والعلماء ، قد اختاروا محمدا عليا لولاية مصر، وأعلنوا خلع الوالى أحمد باشا خورشيد . وقد أثار هـذا التصرف من السيد عمر مكرم حزن الألفى ، وكرَبه كربا عظيما ، فترك الجيزة حيث كان يقيم ، وذهب إلى دمنهور . ولـكن أهلها منعوه من دخولها وحاربوه ، بتحريض عمر مكرم ومساعدته . فعاد إلى الجيزة مرة أخرى . وكان أول شىء فعله محمد على بعد انفراده بالحكم ، أن ضيق الحصار على الألفى ، ومنع الناس من السفر إلى حيث يقيم . وملأ السبل ، فى البر والبحر ، بالعيون . ليعرف عنه كل حركة . فلما ضاق الحال بالألفى ، لجأ إلى الحيلة . فأرسل إلى الباشا أنه يريد أن يصالحه ، وفرح هذا فرحا شديدا ، وأباح لرسول الألفى أن يملأ سفنه بما يشاء إلى سيده ، وأعطاه كثيرا من الأموال والهدايا والسلاح ليقدمه للألفى ، مقدمة للصلح . ولـكن الألفى — وقد كان فى أشد الحاجة لهـــذه الأموال والهدايا — اشتط فى شروطه للصلح حتى رفضه الباشا . وذهب الألفى إلى الفيوم يجمع جيوشه ، وينفق فى ذلك مما أهداه الباشا ، وما أباح لرسوله أن يحمله إليه . وخرج جيش محمد على ليبادر الألفى بالحرب ، فهزم . ثم خرج محمد على بنفسه على رأس جيشه فهزم أيضاً . وألقى كثير من جنوده بأنفسهم فى النيل . وبلغ الألفى ، بشجاعته ، مبلغا عظيما من القوة . حتى كان ، وهو فى إقليم الجيزة . يصل جنده إلى ضواحى القاهرة ، ولا يجرؤ جنود محمد على أن يردّوهم ، أو يعترضوهم . وكان جيش محمد على يسمع طبول الألفى ، وخطوات فرسانه ليلا ، ولا يستطيع أن يهاجمه . وخرج الألفى بجيشه قاصدا إمبابة . وخرج محمد على ليستأنف معه الحرب . ومر أمامه الألفى بجند عظيم يسير فى صفوف منتظمة ، ومعهم كثير من عرب أولاد على ، والهنادى وغيرهم . فلما رأى محمد على ذلك قال لفرسانه : تقدموا وحاربوه ، ولـكم ما تشاءون من الأموال . ولـكنهم لم يجسروا ولم يتقدموا . وجاء إلى الألفى رسول من قبل الدولة ، يعرض عليه أن يُخرج محمدا عليا من ولاية مصر ، وتترك له ولإخوانه حكمها ، على شرط أن يدفعوا ثلاثة آلاف كيس ، واجتمع قبودان

باشا مع الألفى فى البحيرة ، فوضعا شروط هذا الاتفاق ، ومنها أن الدولة — كما طلب الألفى — تبيح بيع الرقيق ودخوله مصر — وكانت منعت ذلك نحو ثلاث سنوات — وفرح الألفى بهذا الاتفاق فرحاً شديداً ، وبعث برسله إلى بقية المماليك يطلب إليهم أن يشتركوا جميعاً فيدفعوا ثلثى هذا المال ، على أن يدفع وحده ثلثه ، فإذا عاد لهم حكم مصر ، وتخلصوا من محمد على ، استطاعوا أن يزيلوا خلافاتهم فيما بينهم ، وأرسل إلى عدوه البرديسى فيمن أرسل إليهم . وقبل ابراهيم بك عرض الألفى ، بل أظهر قبوله لأن يكون تحت إمرة من يتفق عليه بقية الأمراء ليكون كبيرهم . ولكن البرديسى كبر عليه أن يتصل الألفى بالدولة ، كما اتصل بالإنجليز من قبل ، وأن ترسل له الدولة بعوثها ، وهو ، أى البرديسى ، طريد ضعيف الشأن قليل الحول . فأفسد على الألفى ما اتفق عليه مع الدولة ، ورفض أن يدفع شيئاً من المال . وعاد قبودان باشا وموسى باشا ، مبعوثا الدولة من غير أن يقبضا الآلاف الثلاثة من الأكياس .

وكان محمد على فى ذلك الوقت يبذل المال الكثير فى سبيل تفريق كلمة المماليك ، وفى ألا يتم هذا الأمر الذى اتفق عليه الألفى مع الدولة . حتى إن إبراهيم بك قبل أن يدفع نصف المال على أن يدفع الألفى نصفه الآخر . ورضى الألفى . ولكن إبراهيم بك عاد فنكص ، وأبى أن يدفع هو أو غيره شيئاً . وكان ذلك بإغراء محمد على وسعيه ، ومعارضة البرديسى وعناده .

عند ذلك عاد الألفى للاتصال بالإنجليز . وطلب إليهم فى هذه المرة أن يرسلوا إليه جيشاً ليعينه فى حرب محمد على . وتعلل الإنجليز أول الأمر بأنهم لايستطيعون أن يعتدوا على أرض الدولة . ثم عادوا فأرسلوا جيشاً ، يقدره الجبرتى بستة آلاف . نزل إلى الإسكندرية فى اليوم التاسع من شهر المحرم سنة ١٢٢٢ (٢٠ مارس ١٨٠٧) وكان الاتفاق بينهم وبين الألفى أن ينتظرهم فى دمنهور ، ثم يسير معهم إلى الحرب . ولكن الحملة الإنجليزية تأخر وصولها عن الموعد الذى اتفقوا عليه . فارتحل الألفى بجيوشه عن دمنهور — التى تعذر عليه دخولها — متجها نحو القاهرة ، ثم تجاوزها . فلما وصلت الحملة الإنجليزية إلى الإسكندرية ، وأرسل قوادها رسلهم إلى دمنهور ليجتمعوا بالألفى ، عرفوا أنه قد مات .

مناجاة

ويقول الجبرتى : إن الألفى عندما مر بالقاهرة ، ومحمد على يرقبه ، ويرى جيوشه العظيمة بمنظاره ، ويتعجب من كثرتها وحسن نظامها ثم لا يستطيع فرسانه أن يهاجموها . يقول إن الألفى جلس إلى مرتفع عند قناطر شبرامنت ، موليا وجهه صوب القاهرة : ثم أخذ يناجيها بقوله : « انظرى يامصر إلى أولادك وهم حولك مشتتين ، متباعدين ، مشردين . واستطونك ، الأجلاف والأراذل — يقصد الأتراك ومحمدا عليا وجنده — يقبضون خراجك ، ويحاربون أولادك ، ويقاتلون أبطالك ، ويقاومون فرسانك ، ويهدمون دورك ، ويسكنون قصورك ، ويعبثون بولدانك وحورك ، ويطمسون بهجتك ونورك » .

ولم ينته من مناجاته الشاعرية هذه ، حتى أصابه خلط دموى كان فيه موته . وكان ، وهو يغالب سكرات الموت ، يذكر المماليك . ويقول : الآن نفذ فيهم حكم محمد على ، ولم يبق لهم أمل . ولكنه ، مع ذلك ، جمع مماليكه ، وأوصاهم ألا يتنازعوا ولا يتفرقوا ، وأن يحذروا عدوهم محمدا عليا ومكره . وأوصاهم أن يدفنوه فى وادى البهنسا ، عند قبور الشهداء .

وكان موته فى نحو الخامسة والخمسين بناحية المحرقة ، بالقرب من دهشور ، ليلة الأربعاء التاسع عشر من ذى القعدة سنة ١٢٢١ (٣٠ يناير سنة ١٨٠٧) « وبموته اضمحلت دولتهم « أى دولة المماليك » وتفرقت جمعيتهم ، وانكسرت شوكتهم ، وزادت نفرتهم ، ومازالوا فى نقص وإدبار ، وذلة وهوان وصغار ، ولم تقم لهم بعده راية . وانقرضوا وطردوا إلى أقصى البلاد فى النهاية . وأما مماليكه وصناجقه ، فإنهم تركوا نصيحته ، ونسوا وصيته ، وانضموا إلى عدوهم وصادقوه . ولم يزل بهم حتى قتلهم وأبادهم عن آخرهم » .

ونعرف من سيرة الألفى هذه ، أنه حورب وحارب العثمانيين وجند محمد على فى وقائع صغيرة ، ومعارك كبيرة ، لم يهزم فى واحدة منها . ولم يفشل إلا عندما امتنع عليه أهل دمنهور ، بتحريض عمر مكرم ، ومعاونته كما ذكرنا ، فلم يستطع أن

يدخلها لينتظر فيها الحملة الإنجليزية — وكان ذلك صيفا — فلقيت جيوشه ولقى معاونوه متاعب جمة ، ونقصا فى المطاعم وأعلاف الأفراس والحيوان . وكلما ضاق صبرهم طلب إليهم أن يتحملوا ويثبتوا . فلما طال عليهم الأمد . وتأخر وصول الحملة ، خشى عصيانهم فارتحل عن دمنهور كارها .

كان الألفى فارس حرب مع العثمانيين ومحمد على . وكذلك كان مع الفرنسيين من قبل . فقد أبلى ، فى موقعة إمبابة ، أحسن بلاء ، وقتل فيها من كشافته ومماليكه عدد كبير . وظل بعد ذلك مدة إقامتهم فى مصر كلها يتنقل فى الصعيد وفى الدلتا محاربا لهم منقضّا عليهم من حيث لا يحتسبون ، مطاردا لهم فى كثير من البلاد والجهات . وقد أرسل إلى وزير الدولة العثمانية عددا من القواد الفرنسيين وقعوا فى أسره ، وأهدى إليه أسدا عظيما صاده فى بعض رحلاته ، وخلع عليه الوزير خلعة ثمينة ، واستضافه أياما . وكان الفرنسيون يضعون فى طريقه الأربطة والأرصاد ليوقعوا به أو يأسروه . ولكنه كان يفلت منهم ثم يباغتهم بالحرب ، ويوقع بهم الخسائر الكثيرة . ولما خرج العثمانيون إلى الشام والفرنسيون فى مصر ، خرج معهم ثم رجع ليحارب الفرنسيين . والتقى منهم فى الشرقية جندا كثيرا فكان يناوشهم ويقتل منهم ، فإذا تجمعوا لحربه ، لم يجدوه . وحارب الفرنسيين فى الصعيد أيضا ، وحيثما لقيهم أولقى منهم فرصة . ولما تصالح مراد معهم لم يوافقه على ذلك ، واعتزله .

ولم يستطع عدوه الألد محمد على أن ينكر عليه هذه الشجاعة الفائقة . فقد كان يشهد جيوشه تسير ، على نظام جيش نابليون ، وفرسانه على خيولهم ، وهو على ظهر فرسه . فقال محمد على لمن حوله وهو يتعجب : « هذا ، ولا شك ، فارس الزمان »

وكان الألفى يقظا شديد الحذر . كان لا يذهب إلى الوالى إلا فى وسط جنده ومماليكه وسلاحه . وأراد العثمانيون أن يأخذوه بالحيلة والغدر بعد أن أعجزهم فى الحرب ، فأرسل إليه الوالى من يبلغه أن السلطان يريد أن يراه لينعم عليه ويكرمه . ولكنه أبى أن يذهب إلى إسلامبول ، وقال : « نحن عبيد السلطان ونقيم فى أرضه . فلينعم علينا بما يشاء منها ، ونحن فيها لا نبرحها » . كما كان شديد الحزم

والصلابة مع مماليكه . مع برّه بهم برا شديدا وإنفاقه عليهم الأموال العظيمة . فكانوا مع شدة مراسهم وقوة نفوسهم يهابونه ، ويخافونه خوفا شديدا . ويخشون بأسه أعظم الخشية . ويترددون فى خطابه والحديث معه .

وهو إلى ذلك كله حيىّ شديد الحياء . إذا خرج من القاهرة إلى بعض قصوره فى خارجها ، تحاشى أن يسير فى وسط المدينة ، وكذلك فى رجوعه . فلما قيل له فى ذلك قال « أستحى أن أمرّ وسط الأسواق ، والناس ينظرون إلى ، وأفرّجهم على نفسى » .

وقد أفاد الألفى من نواحى متعددة ، من أسفاره ، وخاصة تلك الرحلة التى زار فيها إنجلترا وأقام بها شهورا عدة ، كما رأينا . أفاد من مشاهدة تلك الصناعات التى زار دورها هناك . وأنواع الأسلحة المختلفة الكثيرة التى أطلعوه عليها . وأهدوا إليه كثيرا منها . كما أهدوه جواهر وآلات فلكية وهندسية ، ونظارات مكبرة ، بعضها يرى الانسان منها فى الظلام ، وأخرى لرصد الكواكب والنجوم . وأهدوه آلة موسيقية تشبه الصندوق وتصدر عنها أنغام موسيقية متعددة . وقد نهب ذلك كله جند البرديسى ، وطفقوا يبيعونه على الناس فى القاهرة . ولاشك أن الألفى أفاد من زيارته تلك فى تنظيم جيوشه وتدريبها — كما أفاد من مشاهدته جيش نابليون ونظامه — وأفادته أيضا نفحة من الإدراك لنظم الدولة ، ومهمة الحاكم ونظرته لمن يحكمهم . فقد رأى عند الإنجليز نظما للحكم وتقديرا للمحكومين ، لم يكن لمصر ولا للشرق عهد بها إذ ذاك . رأى عندهم ذلك ، وتأثرت به نفسه . حيث يقول الجبرتى : إنه « قد تأثر وتهذبت أخلاقه بما اطلع عليه من عمارة بلادهم ، وحسن سياسة أحكامهم ، وكثرة أموالهم ، ورفاهيتهم ، وصنائعهم ، وعدلهم فى رعيتهم — مع كفرهم — بحيث لا يوجد فيهم فقير ، ولا مستجد ، ولا ذو فاقة ولا محتاج » .

الفقير والفلاح

ونحن نجد عند الألفى شيئا غير قليل من الرعاية للفلاحين والفقراء . لعله

أثر من آثار هذه النظرة الجديدة للحكم والمحكومين ، ومن هذا الإدراك الذى أفاده من اختلاطه بالإنجليز وزيارته بلادهم . لعله أثر من هذه ومن تلك ، وهو فى الوقت نفسه مظهر من مظاهر صفاته الخلقية وخصائصه النفسية أيضا . وقد رأينا من قبل أنه كان شديد القسوة على العرب ، ليكف بأسهم عن الفلاحين .

ونجد له حديثا مع كبير من مماليكه ، حين عرف شططهم فى الجور على أهل القرى . وهو فى هذا الحديث يذكرهم بأن العدل بالرعية أساس عمران البلاد ، وازدهارها ، ونماء ثروتها . ويضرب لهم مثلا بمن عنده بقرة حلوب . يأكل من لبنها وسمنها وخيرها . أليس من الحكمة والمصلحة معا ، أن يكرمها ويرفق بها ليبقى له ماتدر من لبن وخير ، أو يزيد . أما إذا أجاعها وامتهنها فسيفقد خيرها وبرّها . حتى إذا ذبحها لم يجد فيها لحما ، ولادهنا ، ومضى يحدثهم ليلته تلك حديثا طويلا . ويأخذ على نفسه المواثيق ، لئن أعطاه الله سيادة مصر ، ليقيمنّ فيها العدل . ويمحق الظلم « ليكثر خيرها ، وتعمر بلادها ، ويرتاح أهلها . وتكون أحسن بلاد الله » .

ونجده فى حديث آخر ، مع واحد من خاصته ، يبدى غاية سخطه وأسفه على مارغمه عليه ظروفه وظروف مماليكه من أخذ أموال الناس لينفق على جيوشه . ثم يقول : « إن قدر الله لى الظفر ، عوّضت على الناس ماأخذت منهم ، ورفقت بحالهم ، وإن كانت الأخرى ، فالله يلطف بنا ، وبهم . ولا بد أن يترحموا علينا » .

وكان الألفى شديد الألم ، كثير التفكير فيما يلقاه من معاندة الدهر له ، ومعاكسة الأيام لحظه وتدبيره . ولكن الحزن الذى كانت توشك أن تنشقّ منه مرائره ، كان من خروج قومه عليه ، وعنادهم له ، وإفسادهم كل عمل يقوم به ، ومنا كدتهم لكل سعى يسعاه ، وردهم لكل رأى له أو قول أو نصيحة ، مع أنه فكر ودبر وسعى لخيرهم جميعا ، وسافر إلى إنجلترا برأيهم وموافقتهم ، واتصل بالدولة طالبا وساطتها ، بموافقتهم أيضا . فكان ذلك منهم — كما قال — سببا فى أن « أشقونى ، وأشقوا أنفسهم ، ومكّنوا البلاد لأعدائى وأعدائهم » . وكانت هذه هى المحنة العظمى التى أشقت قلبه وحياته .

ولما مات الألفى ، انبعثت بموته عاطفتان متناقضتان كل التناقض : أما إحداهما فكانت عند العرب الذين حاربهم وقسى عليهم ، وصاهرهم وقتل منهم . ومع ذلك أحبوه وحفظوا دمه ، وأجاروه عند المطاردة والمحنة. فقد حزنوا لموته حزنا بالغا ، عميقا . واجتمعت نساؤهم يبكينه ويندبنه بكلام عجيب. تناقلته عنهم أرباب المغانى يغنون به على آلاتهم ، وجعلوا منه أدوارا وقوافى ، ينشدونها غناء حزينا باكيا .

وأما العاطفة الأخرى ، فقد كانت عند محمد على وقومه . فإنه لم يصدق نبأموته أول الأمر . وقال: إن هذا من ضمن حيله وألاعيبه وخدعه . وأدخل البشير الذى نقل اليه النبأ إلى السجن أربعة أيام حتى يعرف أصدقه أم كذبه . فلما تحقق عنده النبأ ، امتلأ قلبه فرحا هو وقومه ، ورفعوا رؤوسهم . وأخرج البشير فألبسه خلعة ثمينة وأعطاه مالا ، وأمره أن يخرج بتلك الخلعة فيركب ويشق المدينة معلناً هذا النبأ للناس . ومع ذلك بقى أهل القاهرة لا يصدقون الخبر ، ويشكون فيه شهرين .

ولما تأكد عند محمد على موت الألفى ، من ذلك البدوى الذى اشترك فى حمل نعشه إلى البهنسا ؛ قال لقومه : الآن طابت لى مصر ، ولم يبق من أخشاه بعده .

البرديسى

أما البرديسى — نسبة إلى برديس التى تولى كاشفاً عليها — فكان أيضاً من مماليك مرادبك .زوجه ثم أعتقه، وولاه صنجقاً فى سنة ١٢١٠ . فلما سافر الألفى إلى إنجلترا كان البرديسى كبيرا على مماليك الألفى ، بالاشتراك مع الألفى الصغير ، بشتك بك . ولما رأى محمد على عند إبراهيم بك الكبير يقظة وحرصاً وبعداً عن التورط فى خصومة الألفى . التفت إلى البرديسى ، وأظهر له المحبة والود ، حتى عرف خافية نفسه وحبه للرياسة وحقده على الألفى . فأخذ يقوى عزمه على الانفراد بها ، ويشجعه على معاندة الألفى ويهوّن عليه أمره . وزيّن إليه أن يقيم حول بيته بالناصرية أبراجاً وأقام فيها محمد على حرساً من جنده للمحافظة عليه — فى ظاهر

الأمر — واستعان به محمد على فى محاربة العثمانيين وقتل بعض ولاتهم وأسرهم . فلما عاد الألفى حرَّضه على مطاردته ، وأشار عليه بأن يخرج كبار مماليكه وطوائف جنده للبحث عنه ، وأن يخرج آخرين من هؤلاء لجمع المال من البلاد للإنفاق على هذه المطاردة . فلما أصبح البرديسى وليس حوله جند ولا قادة ، زين له مرة أخرى أن يفرض على أهل القاهرة مالا أيضاً ، كما فرض على أهل القرى . فلما بدأ رجاله فى إحصاء من يفرض عليه المال ، وتقدير فئاته ، ضج الناس وسخطوا . فلما بلغ سخطهم محمدا عليا وعشيرته ، أظهروا للناس العطف والمودة ، وقالوا لهم : نحن معكم فى معارضة هذه الضريبة . فتجمع سخط الناس وغضبهم كله نحو البرديسى ، وخرجت نساء القاهرة بأيديهن الدفوف يضربن عليها ويقلن صائحات : « إيش تاخد من تفليسى يا برديسى » . وخرج هذا من القاهرة مغاضباً إلى مصر القديمة وهو يلعن أهل مصر ويقول : لابد أن يأتمر أهل البلد بأمرنا . وما دام لم يرضهم أن يدفعوا هذه الضريبة لعام واحد . فسيدفعونها ثلاثة أعوام . ثم عاد إلى القاهرة لينفذ أمره . وكان السخط عليه فيها قد بلغ كل غاية . واشترك العلماء مع الناس فى سخطهم ، وحضر كثير منهم إلى الأزهر ثم ذهب شفيعاً إلى الأمراء . عند ذلك ضرب محمد على ضربته ، فأمر جنوده الذين وضعهم على أبراج بيت البرديسى ، ليحرسوه ، أمرهم بأن يضربوا عليه بالرصاص . وكذلك أمر جنده بأن يحيطوا بقصر إبراهيم بك . وقصور بقية الأمراء . وتسلق جند محمد على بيت البرديسى يريدون قتله . وخرج هذا من قصره مسرعاً ، فهرب إلى مصر القديمة . وكذلك خرج إبراهيم . وكثير من مماليكهما . وكانوا يسرعون بالهرب ، ورصاص البنادق ، من رجال محمد على ، يلاحقهم ، ويحيط بهم من كل مكان . وعاد جند محمد على بعد ذلك إلى قصور الهاربين ، فنهبوا ما فيها من مال ورياش وشىء كثير ، وسبوا نساءهم ، وسراريهم . وسحبوهن ، من شعورهن . وساقوا من وجدوه من أمرائهم ومماليكهم عرايا ، حاسرى الرؤوس ، فسجنوهم . ثم هدموا قصورهم . وخرج البرديسى وإبراهيم ومن معهما لم يأخذوا شيئاً من المال الذى جمعوه وكنزوه ، غير ما فى جيوبهم . وفرّ البرديسى إلى الصعيد . ثم مات فى منفلوط ،

ودفن بها . فى أوائل رمضان سنة ١٢٢١ أى قبل موت الألفى بنحو ثمانين يوما .

ويصفه الجبرتى بأنه « كان طائش العقل ، شابا ، مغروراً ، ظالما غشوماً ، حقوداً ، سيء التدبير . لم ينتصر فى معركة واحدة . جعله الله سبباً لفشل المماليك ، وذلهم وهوان أمرهم ، وذهاب دولتهم إلى آخر الدهر » .

وقد رأينا أن الألفى لم يهادن الفرنسيين ولم يُرحهم من خصومته وحربه . بل كان شديد اللدد ، قوى الخصومة لهم فى جميع الأوقات . أما البرديسى فقد كان على نقيضه فى ذلك . ومما يدل على لصوق البرديسى بهم ، وتفانيه فى خدمتهم ، ماذكره الجبرتى فى مظهر التقديس. من أن الجنرال كليبر عندما سار على رأس جيشه فى شوارع القاهرة ، بعد هزيمة الثورة الثانية فيها . كان جنوده يأمرون الناس بالوقوف لهم ويسيئون لمن لم يبادر إلى ذلك . وكان البرديسى يسير يوم ذاك خلف كليبر . كما نجده ، فى هذه الفترة بالذات ، كثير الملازمة لقائدهم هذا ، والالصوق به .

من هذا الذى ذكرناه عن أيام المماليك ، وحياتهم ، وتراجم كبارهم ، نستطيع أن نحيط ، إلى حد كبير ، بما يكفى لفهم تاريخهم ، ونظم حياتهم ، وأثرهم فى حياة مصر — مع مانجده فى الجزء الأول عن الحياة الاجتماعيه — وفى الفصل التالى من هذا الجزء ، عن الأزهر والعلماء .

ولكنا نجد من الخير ، ومن إتمام الدراسة لما كتب الجبرتى ، أن نتحدث حديثا موجزاً عن ثلاثة من كبار المماليك ، هم : عبد الرحمن كتخدا ، وصالح بك القاسمى ، وأحمد باشا الجزار .

عبد الرحمن كتخدا

أما عبد الرحمن كتخدا فلم يجلب من خارج البلاد ، ولم يبع فيها ، كما هو شأن الأكثرين من المماليك ، صغاراً أو كباراً . بل ولد فى القاهرة . وكان أبوه ، حسن جاويش القازدُغلى ، أميراً كبيراً ، بل سيداً على جميع الأمراء فى عصره ، فلما مات حسن جاويش ، اعتدى معتوق من معاتيقه على ثروته كلها . ونازع عبد الرحمن فيها ،

حتى حازها . وكانت ثروة عظيمة جداً . ولم يجد عبد الرحمن من مماليك أبيه السابقين من ينصره . وكان سليمان بك ، الذى استولى على هذه الثروة ، مملوكا لوالد عبد الرحمن . وبقى هذا فى ضيق من العيش ، حتى مات مغتصب ماله ، فى سنة ١١٥٢ وكان أمير مصر إذ ذاك عثمان ذو الفقار . وهو ، كما رأينا فى ترجمته ، صاحب وفاء وعفة ومروءة . فمكن عبد الرحمن كتخدا من ثروة أبيه ؛ ولم يطمع فى شىء منها . وسافر مع عثمان بك إلى الحج فبقى فى الحجاز سنتين ؛ ثم عاد فتولى كتخدا ، أى نائب الوالى . وعند ذلك شرع فى بناء المساجد والعمائر الكثيرة التى مازال بعضها يعرف باسمه إلى اليوم . واتجه مع ذلك إلى الإصلاح . فأبطل المنكرات وقفل الخمارات التى كانت مفتوحة فى حارة اليهود .

وعبد الرحمن كتخدا هو أكثر المماليك والولاة إنشاء وإصلاحا للمساجد وغيرها . وكانت له معرفة بالهندسة ، استخدمها فى تصميم هذه العمائر . فمن أهم إنشاءاته وإصلاحاته : المسجد القائم بجوار ضريح الإمام الشافعى ، ومساجد السيدة زينب ، والسيدة نفيسة ، والسيدة سكينة ، والسيدة عائشة ، والسيدة فاطمة ، والسيدة رقية . وشرف الدين الكردى ، وأبى السعود الجارحى . وبنى للشيخ الحفنى بيتا بجوار مسجد أنشأه فى حى الموسكى . ويقول الجبرتى : إن المساجد التى أنشأها وجددها ، وأقيمت فيها الخطبة والجماعة ، بلغت ثمانية عشر مسجداً . وذلك خلاف الزوايا والأسبلة ، والسقايات ، والمكاتب ، والأحواض ، والقناطر . وما فرضه للفقيرات والمنقطعات . وله من هذه العمائر والإنشاءات شىء كثير فى ريف مصر ، وفى الحجاز . كما رتب للعميان الفقراء أكسية من الصوف يعطيها لهم قبل حلول الشتاء فى كل سنة . ورتب لمؤذنى المساجد أحزمة تقيهم برد الشتاء عندما يصعدون المآذن لأذان الفجر . وكان يفرق الثياب من الحبَر المحلاوى ، والحرير الصعيدى ، والملايات ، والأخفاف ، على الفقيرات والأرامل . ويخرج أمام بيته فى ليالى رمضان ، عند الإفطار ، القصاع الكبار مملوءة بالثريد واللحم ، مسقيّة بالمرق والسمن ، يفطر منها الفقير والمحتاج . وأوقف لخدمتهم نقيبا يعطيهم قطع

اللحم الكبيرة الجيدة . وعندما ينتهون من إفطارهم يعطى النقيب لكل واحد منهم رغيفين وشيئا من المال لسحوره .

وبنى لنفسه قصوراً . منها قصر بحارة عابدين ، كان فريدا فى بنائه وهندسته وما فيه من الزخارف والنقوش المموّهة بالذهب ، وما يحتويه من الرخام البديع واللازورد ، والقيشانى ، وأنواع الأصباغ المختلفة . وأنشأ فيه بستاناً عامرا فى داخله قاعة فسيحة ، بوسطها فسقية مفروشة بالرخام البديع الصنعة ، وأركانها مركبة على أعمدة من الرخام الأبيض .

وكان عبد الرحمن كتخدا ، يسمى فى مصر والشام ودولة الخلافة ، بصاحب الخيرات والعمائر . وقد وقف على هذه المساجد وغيرها بلادا كاملة مما كان يملك .

وكما كان مصلحاً فى منعه الخمر وإبطاله المنكرات ، كان واسع الأفق ، لايؤمن بالأباطيل والخرافات . كما رأينا من قصته مع الشيخ عبد اللطيف ، صاحب عنز السيدة نفيسة[1] .

ومن أكبر عمائره ، توسيعه الجامع الأزهر . فقد زاد فى مقصورته نحو نصفها ، أقام هذه الزيادة على خمسين عموداً من الرخام ، تحمل مثلها من البوائك المرتفعة ، من الحجر المنحوت ، وجعل لها سقفا من الخشب المنحوت . وبنى به محرابا جديدا ، ومنبرا . وبابا عظيما ومدرسة ومكتبا لتعليم الأطفال وتحفيظهم القرآن ، وسبيلا . وبنى لنفسه قبرا دفن فيه . كما أنشأ كثيرا من الأروقة لمجاورى الأزهر . وزاد فى مرتبات أهله وأخبازهم . وجعل لمطبخه ، فى كل يوم من رمضان ، خمسة أرادب من الأرز الأبيض ، وقنطارا من السمن ، ورأس جاموس ، وكثيرا من الزيوت . وأمر بأن تطبخ « الهريسة » لمجاورى الأزهر ، فى يومى الاثنين والخميس من كل أسبوع .

وأنشأ عبد الرحمن مصحة للنساء ، بالقرب من شارع تحت الربع ، زارها

---

(١) نجد قصة ذلك فى الجزء الأول من هذا الكتاب . ص ١٣٦ — ١٣٨ .

مسيو جومار ، أحد مهندسى الحملة الفرنسية ، وقال : إنه كان بها ٣٦ من المريضات .

وقد رأينا ، فى ترجمة على بك الكبير ، أن عبد الرحمن كتخدا كان أكبر نصير له على خصومه أول الأمر . فلما قويت شوكة على بك ، واستقل بالإمارة ، لم يستطع الصبر على معارضة عبد الرحمن . فنفاه إلى الحجاز ، فى أواخر سنة ١١٨٧ ، وقد بقى فى مكة منفيا أكثر من إحدى عشرة سنة . فلما عاد كان شيخا هرماً فانيا . ومات بعد أحد عشر يوما ، فى صفر سنة ١١٩٠ ، ولما خرجوا بمشهده الحافل ، سار خلفه العلماء والأمراء وكبار القوم ، ومؤذنو المساجد ، وأولاد الكتاتيب التى أنشأها ووقف عليها الحبوس .

ونجد بعد هذه الصفحة الناصعة من سيرة عبد الرحمن كتخدا ، أنه كان يقبل الرشا ، ويتحايل على مصادرة الناس فى أموالهم . ويصالح[١] على تركات الأغنياء . وكانت له فى ذلك جراة وحيلة ، جعلت غيره يقتدى به ، حتى صار ذلك « سنة مقررة ، وطريقة مسلوكة ليست منكرة » .

صالح بك القاسمى

وكان صالح بك القاسمى آخر المماليك الكبار من القاسمية بعد وفاة سيده مصطفى بك المعروف بالقرد ، تقلد الإمارة ، وأحبه إخوانه من الأمراء وأطاعوه لسيرته الحسنة فيهم . وكان له ولهم مكانة عظيمة . وخاصة عند زعماء الهوارة فى الصعيد . حيث اختلطوا بهم وعرفوا عاداتهم وطباعهم ، وتأثروا بها . وكان زعيم الهوارة همام يحب صالح بك ويكل إليه قضاء شؤونه كلها فى مصر .

وأنشأ صالح بك لنفسه قصرا عظيما عند قلعة الكبش مجاورا مسجد ابن طولون .

---

(١) المصالحة هى أن يفرض على الوارثين قدرا من المال ، لا يمكنهم من تركة مورثهم حتى يدفعوه .

ولما تفرد على بك الكبير بالسلطة ، أراد أن يتخلص من صالح القاسمى ، كما تخلص من عبد الرحمن كتخدا . فلما أمر بنفى عبد الرحمن . أمر صالحا بحراسته حتى منفاه فى السويس . فلما خرج كلاهما ، أرسل خلفهما أمرا بنفى صالح أيضا إلى غزة ، ثم نقله منها إلى رشيد . واستطاع صالح بك أن يفر من منفاه إلى الصعيد ، حيث استقر فى المنيا ، وتحصن فيها ، وتهيأ لحرب على بك بعد أن تجمع حوله مماليكه ورجاله . وذهبت جيوش على بك لحربه فى المنيا ولكنه هزمها . وخرج بعد ذلك على بك منفيا ثم عاد فتوجه رأسا إلى المنيا ، حيث التقى بخصمه صالح بك وأظهر له المحبة والندم على ما كان من نفيه له . ثم عاد كلاهما إلى القاهرة وصالح يعتقد أن على بك قد أخلص له الود . فوضع كل حيلته وقوته فى خدمته وحارب كبار المماليك من أجله . ولكن على بك ، بعد أن أصبح فى غنية عن صديقه ، احتال حتى قتله . وذلك بأن تآمر مع مماليكه على أن يقتلوه ، وهو خارج من قصر على بك . وخرج صالح بك يوما من هذا القصر ، ومعه كثير من أمراء على بك ، فلما ساروا فى طريقهم تجمعوا حول صالح بك وقتلوه بسيوفهم . فلما عرف ذلك مماليكه وعشيرته ، خرجوا من القاهرة ، وتفرقوا ، وذهب كثير منهم إلى الصعيد .

وكان صالح القاسمى أميراً جليلا ، مهيبا ، لين العريكة . ميالا للخير ، يكره الظلم ، سليم الصدر ، لا يحقد ، ولا يتطلع لما فى يد الناس والفلاحين . وكان كثير الحياء ، إحدى ثناياه ناقصة ، فإذا تكلم وضع سبابته على فمه ليسترها حياء من ظهورها . وكان من أمراء على بك الذين وكل إليهم مهمة الغدر بصالح وقتله . أمير اسمه أحمد بك . ولكنه أبى أن يشاركهم جرمهم . فلم يشترك فى القتل . وخشى فى الوقت نفسه من بطش على بك فخرج إلى الشام . وهذا الأمير هو الذى عرف بعد ذلك باسم أحمد باشا الجزار .

أصله من البوشناق ، حضر مع والى مصر على باشا الحكيم . عند ما تولى حكمها فى المرة الثانية ، سنة ١١٧١ ثم رغب إلى على باشا فى أن يحج فأخرجه مع أمير الحج صالح بك القاسمى ، فى السنة التالية . فلما عاد كان على باشا قدخرج

من مصر ، فبقى فيها أحمد هذا . ولبس كما يلبس المماليك ، وتعلم فروسيتهم وفنون حربهم . والتحق بخدمة على بك الكبير ، الذى جعله حاكما على البحيرة .

وكان أحمد الجزار قد خدم أول عهده بمصر عند تابع لعلى بك اسمه عبد الله بك . وأرسل على بك تابعه هذا إلى عرب البحيرة ليحاربهم فقتلوه . فلما ولاه على بك حاكما على البحيرة قال له : عليك بالثأر لسيدك . فخادع هؤلاء العرب ، واحتال حتى جمعهم فى مكان واحد ثم قتلهم ، وكانوا أكثر من سبعين . ومن أجل ذلك سمى بالجزار . ونال بعد ذلك مكانا عظيما عند على بك وجعله من جملة أمرائه . ولما خرج على بك هاربا من خصومه ، خرج معه أحمد بك ، ولازمه فى غربته ، وحروبه . ثم عاد على بك ، كما ذكرنا من قبل ، وأراد الغدر بصالح القاسمى ، وكان أحمد الجزار يعترف بفضله عليه ، فأخبره بتدبير على بك . ولكن هذا استطاع خداعه ، حتى قتله . وخرج أحمد إلى الإسكندرية هاربا . فى زى رجل مغربى ، ثم سافر منها إلى تركيا . وعاد مرة أخرى إلى مصر فأقام عند عرب البحيرة . وحارب جيوش على بك ، مع شيخ العرب ابن حبيب . فلما قتل هذا خرج أحمد الجزار إلى الشام ، وكانت له هناك حياة عاصفة لقى فيها كثيرا من المحن والشدائد . ثم استقر ، واشترى المماليك . حتى أصبح له شأن وقامت له صولة . وجاء إلى الشام واليها حسن باشا الجزائرلى ، وكان يريد أن يختار لقلعة عكا قائدا كفؤا . فلما سأل فى ذلك العارفين ، ذكروا له أحمد الجزار فطلبه وقلده الوزارة وقيادة القلعة . فعمر أسوارها ، وجدد قلاعها ، وأنشأ فيها بساتين ، وأقام مسجدا لها . وأكثر من شراء المماليك ، واستجلاب الجند . حتى صار له جيش كثيف . وحارب الخارجين فقهرهم . وأغار على الدروز فى جبلهم أكثر من مرة ، حتى كسر شوكتهم ، وأعلنوا طاعتهم له . وجمع منهم ومن غيرهم أموالا عظيمة ، حتى ملئت خزائنه . واستطاع بهذه الأموال أن يصانع رجال الدولة العثمانية حتى نال ولاية الشام . وأقام من قبله نوابا على بلادها وحكاما . وظهرت بعد ذلك شدته وصرامته وقسوته . حتى ملأ قلوب أهل الشام رعبا ، فكان يعاقب على الذنب الصغير بالحبس والقتل ، ويقطع الأنوف

والآذان والأطراف لأتفه الأسباب ، ولم يغفر زلة عالم لعلمه ، أو ذى جاه لوجاهته ، وسلب النعم عن كثير جدا من ذوى النعم ، واستأصل أموالهم . «ومات فى حبسه ما لا يحصى من الأعيان والعلماء وغيرهم » واستراب فى بعض مماليكه وسراريه فقتل منهم ، وحرق بعضهم . ونفى بعضاً آخر ، من المماليك والسرارى ، بعد أن مثّل بهم ، وقطع أنوفهم . وتقصّى بالعقاب الشديد من آواهم أوأعانهم ، ولو كان فى أقصى البلاد . ووصل بعضهم إلى مصر فآواهم على بك ، فقطع صلته به ، وكانت صلة قوية .

وكانت هذه الشدة البالغة سبباً فى أن خرج عليه مملوكاه سليم باشا الكبير، وسليمان باشا الصغير ، ومعهما كثير من مماليكه وغيرهم . وحاصروه فى قلعة عكا، ولم يكن معه غير قليل من الجند وعمال البناء ، الذين لا قدرة لهم على الحرب . فاستخدم ما معه من الجند القليل ، وألبس العمال ملابس الجند وأوقفهم على أسوار القلعة . فلما رأى محاربوه ذلك ، ظنوا أن معه جندا كثيرا ، فلم يقدموا . وبادرهم هو ليلا بالهجوم على غرة فظهر عليهم وقهرهم . ثم تتبع الهاربين منهم بالقصاص والعذاب الشديد ، حتى أبادهم وفرقهم .

وأرادت الدولة بعد ذلك أن تخرجه من ولاية الشام ، أو تتخلص منه . فنصبت له المكايد . ولكنها لم تنل منه شيئا . فعادت الدولة إلى مسالمته ومسايرته . وعادت له قوته ، مرة أخرى ، وارتفع شأنه فى الشام وفى غيرها من البلاد . حتى هادته الملوك وراسلته . واشترى مماليك وجوارى بدلا من الذين أبادهم وشتتهم . وظل فى سطوة ومنعة ، حتى مات على فراشه فى سنة ١٢١٩ .

وقد كان لشجاعته ، ومقدرته ، وصلابته ، أثر كبير فى حبوط حملة نابليون على سوريا . وفى عجزه عن اقتحام أسوار عكا . كما نجد ذلك فى الجزء الثالث من الكتاب .

الفصل الثانى

الأزهر والعلماء

والأديان والأعراف ، لأنه كالأسبانيين ، ولم يغفر زلة عالم أو ذي جاه لوجاهته ، وسلب النعم عن كثير جدا من ذوي النعم ، واستأصل أموالهم ، وهلك بسببه ما لا يحصى من الأعيان والعلماء وغيرهم ، واستراب في بعض مماليكه وسراريه فقتل منهم ، وحرق بعضهم ، ونفى بعضا آخر ، من المماليك والسراري ، بعد أن نكّل بهم ، وقطع أعضاءهم ، وتفنن بالعقاب الشديد من آذانهم أو أعضائهم ، ولو كان في أقصى البلاد . وأرسل بعضهم إلى مصر [illegible] عن بلاد ، فقطع [illegible] ، وكانت [illegible] .

وكانت هذه الشدة البالغة سببا في أن يخرج عليه مملوكه سليم باشا السكيرة ، وسليمان باشا الجسبي ، وصحبهما كثير من مماليكه وغيرهم ، وحاصروه في قلعة عكا ، ولم يكن معه غير قليل من الجند ، وعمال البناء ، الذين لا قدرة لهم على الحرب ، فاستخدم ما معه من الجند القليل ، ومن العمال [illegible] من الجسبية وأوقفهم على أسوار القلعة ، فلما رأى [illegible] جندا كثيرا ، لم يقدموا ، وباعوه عن البلاد [illegible] على قرية [illegible] عليهم [illegible] ، ثم تتبع الفارين منهم بالقصاص والعذاب الشديد .

وأرادت الدولة بعد ذلك أن تخرجه من ولاية الشام ، أو تتخلص منه ، فحشدت له العساكر ، ولكنها لم تنل منه شيئا ، فمالت الدولة إلى مسالمته ومسايرته ، وعادت له ثقتها مرة أخرى ، وارتفع شأنه في الشام وفي غيرها من البلاد ، حتى هادنه الملوك وراسلته ، واشترى مماليك وجواري بدلا من الذين أبادهم وقتلهم ، وظل في سطوة وصولة ، حتى مات على فراشه في سنة ١٢١٩ هـ .

وقد كان لشجاعته ، ومقدرته ، وصلابته ، أثر كبير في هبوط حملة نابليون إلى سوريا ، وفي عجزه عن اقتحام أسوار عكا ، كما [illegible] ذلك في الجزء الثالث من الكتاب .

حياة العلماء

هذا الفصل الذى نبدؤه خاص بالأزهر والعلماء . وأعتقد أنه من الخير أن نمهد له بكلمة قصيرة نظهر فيها شيئاً قليلا من هـذه « الملامح » التى ستطلع على القارىء فى هذا الفصل . شيئاً من ملامح هؤلاء العلماء الذين عاشرهم الجبرتى وخالطهم وعرف سيرهم أتم معرفة . ثم سجلها لنا هذا التسجيل الأمين ، الذى لم يكن متحيزاً فيه ولا متحيفاً . بل رسم صورة لم يكن له فيها خيار ولا حيلة . فإذا وجدنا بعض هذه السيرة التى سجلها لا يرضى شعورنا . ولا يوائم تلك الصورة المشرقة الرضية الكريمة التى يحتفظ بها خيالنا لهؤلاء العلماء . فليس الذنب فى ذلك على الجبرتى . وسنجد ، بعد أن ننتهى من فصل « الأزهر والعلماء » هذا ، أن خيالنا ، فيما رسم لهؤلاء العلماء من صورة مبرأة من العيب ، أو قريبة من الكمال ، كان مسرفا فى حسن الظن . ويجب أن نذكر عندئذ ، أن الناس هم الناس .

نجد فى هذا الفصل : أن الأزهر ورجاله كانت لهم مكانة ممتازة يوم ذاك . يقدمون على من سواهم من الناس ، حتى الأمراء . ويزورهم الولاة وكبار الأمراء فى بيوتهم . ويكرمهم بعض الولاة حتى يقبل بعضهم يد واحد منهم وقدمه . ونجد العلماء سفراء وقادة . يسفرون بين الناس والمماليك ليرفعوا عنهم الظلم ، ويسفرون بين المماليك بعضهم وبعض ليزيلوا خصومة أو يرفعوا حربا ، ويسفرون بين نابليون وأهل مصر ، أو الثائرين منهم ، لأمور كثيرة خطيرة نجد تفصيلها فى الجزء الثالث من هذا الكتاب . بل يسفرون إلى تركيا نفسها وإلى سلاطينها فى العظيم الجليل من الأمر .

ونجد أن بعض العلماء أظهر شجاعة فائقة فى كثير مما عرض لهم أو عرضوا له من أمر هذه الحياة المضطربة التى كان الناس يلقونها من المماليك أو الولاة : ومن أمر هـذه العلائق المضطربة الشديدة القلق ، التى كان المماليك والولاة يجدونها بين بعضهم وبعض .

نرى أمثلة بارزة مشرفة لهذه الشجاعة فيما روينا عن الشيخ الدردير ، والشيخ

الشرقاوى ، والشيخ السادات ، وما كان لهم من مواقف إيجابية حاسمة إذا تجاوز الظلم حدَّه ، وأثارهم سلوك المماليك أو عنف الفرنسيين وجبروتهم .

ونجد إلى جانب هذه الصورة ، صورة أخرى لزهد بعض العلماء وانصرافهم عن هـذا كله إلى العلم وحـده . والتحول عن الرغبة أو الشراهة فى جمع المـال والحرص على الثراء ، إلى التحلى بفضائل الأخلاق ، من الـكرم والشجاعة والبر والإيثار والتواضع ، إلى آخر هذه الفضائل التى دعا إليها الدين . كما نرى فى سيرة الشيخ العفيفى ، والصائم ، والراشدى ، والمدابغى ، والشنوانى ، ذلك الذى كان يكنس المسجد و يُسْرج قناديله بيده . والذى فرهاربا حتى لا يلى مشيخة الأزهر ، فلما أكره عليها ظل يسرج قناديل المسجد ويكنسه بيده حتى مات .

ونجد صورة رائعة كريمة لحياة العلماء وخلقهم وكرمهم وشجاعتهم ، فى تلك السيرة النادرة التى سجلناها للشيخ على الصعيدى . كما نجد صورة أعظم منها روعة وكرما فيما فصلنا من سيرة الشيخ محمد الحفنى . وهى وحدها جديرة بأن تشرف حياة العلماء فى ذلك العصر ، وفى كل عصر ، وأن يزهى بها تاريخهم ، ويسمو مكانهم ، ويعلو ذكرهم وقدرهم . ولـكنا ، إلى جانب هذه الصورة الطيبة الـكريمة ، نجد أخرى لا نستطيع أن نصفها ، أو نتحدث عنها ، فهى تتحدث عن نفسها وتصف أصحابها أبلغ وصف وأصدقه وأعجبه أيضاً ، كذلك الشيخ الذى ترك لابنه أربعين ألفا من الذهب والفضة ، غير ما ترك من الوظائف ، والرزَق[1] ، والضياع ، والدور . وذلك الذى نازع عجوزا فقيرة على قطعة صغيرة من الأرض ، ولقى فى ذلك من المهانة مالقى ، ولم يدع لها حقها حتى مات . وذانك الشيخان اللذان تشاحنا على وقف صغير ، ولم يترك أحدهما مرتب هذا الوقف لزميله ، بعد أن نال مشيخة الأزهر ، حتى إذا ناله الآخر بعد موت صاحبه ، نازع خدم الوقف حقهم وأوشك أن يسلبهم إياه . فلما جاء الفرنسيون ، شغل نفسه بالوساطة لديهم فى حاجات الناس ، وجمع من ذلك مالا جمّاً ، وحاز لنفسه تركات كثير من الموتى ، وحرم منها أصحابها ووارثيها . ثم أضاف إلى ملـكه الخاص أماكن موقوفة

(١) المخصصات .

وذانك الشيخان اللذان تنازعا مشيخة الأزهر فأيقظا فى ذلك فتنة رفعت بسببها الأسلحة والبنادق فى داخل الأزهر ، وقاتل فيها أهل العلم بعضهم بعضاً ، فمات منهم عشرة وجرح غيرهم وسجن آخرون ، ومنعت الصلاة فى الأزهر بسبب ذلك وغلّقت أبوابه . وذلك العالم الكبير الذى كان ، على الرغم من ماله وثرائه، يضم إلى ماله تركات من يشاء ممن ماتوا بالطاعون . فلما جاء الفرنسيون سايرهم ولاطفهم وتودد إليهم ونال فى أيامهم أموالا عظيمة ، وجاهاً عظيما . كان إذا مشى سار أمامه الحراس بأيديهم العصى يدفعون الناس عن طريقه . وجعله الفرنسيون جابيا يجمع لهم المال والمغارم من البلاد . فكان الناس والفلاحون يسارعون إليه بالهدايا والرشا وهو يأخذ . ثم نال هذه المنزلة عند العثمانيين بعد أن خرج الفرنسيون ، فزاد ماله وجاهه . ولكنه مع ذلك مَطل قوماً باعوه بيتا لهم . غاب عنهم خمس سنين حتى مات أكثرهم قبل أن يستوفى حقه من ثمن هذا البيت . ثم نال هذه المكانة أومثلها أيضاً عند محمد على ، وشهد له شهادة الزور فى عمر مكرم ، واستوفى ثمنها منه ألف جنيه . ثم لايكفيه ذلك فيطلب إلى محمد على أن تسند إليه نظارتا وقفٍ كانتا للسيد عمر ، فأسندهما إليه . ثم هو يضع يده على مال العجائز من النساء الأرامل ؛ لأنهن ذوات مال مستضعفات . ويضم إلى بيته زاوية كانت تقام فيها الصلاة ويذكر اسم الله ؛ وينبش القبور التى تجاورها فيخرج منها عظام الموتى ليوسّع من داره مايريد ؛ ويزيد فى رقعتها مايشاء . فلما ضم الزاوية ونبش القبور فأخلاها من عظامها ؛ بنى على هذه وتلك دارا كبيرة لزوجاته . وذلك الشيخ الذى سلب حق أخيه فى مشيخة من مشايخ المتصوفة . ثم كان همه وديدنه وشاغل حياته ونفسه ، جمع المال والتحيّل له من كل سبيل . وكلما كثر ماله زاد كبرياؤه وزاد طغيانه ، حتى ليضنّ على الناس أن يقبلوا يده ، فيترك لهم طرف ثوبه يقبلونه . فإذا خرجوا من حضرته غسل يده بالماء والصابون ، من أثر سلامهم وملامسة أيديهم وشفاههم . والذى استحوذ على كثير من الأضرحة يتنظّر على أوقافها . ثم نازع الفقراء من خدمها ونا كدهم فيما ينالون من مال قليل ، حتى كان يضربهم بالمقارع على أرجلهم . ذلك الشيخ الكبير الذى يقول عنه الجبرتى : إنه « كان يأخذ المال من

الفقير المعدم ، وكسرة الخبز الناشفة من المحتاج » ، والذى كان يرشى شهود القضاء ليشهدوا زورا فيما يريد أن يربح من القضايا ويستولى عليه من حجج الأوقاف والتركات . وكان ينفق كثيرا من وقته ، وجهده ، فى استخراج الدهون والعطور ؛ والمركبات المفرحة المنعشة للقوة ، المجددة للشباب . ذلك الشيخ الذى مات عن كثير من الجوارى ، والمماليك ، والعبيد ، والخصيان . والذى وهبت زوجه بعد موته محمدا عليا خمسين ألف جنيه حتى لا يصادرها فيما ترك من ثروة ، ومال .

نجد هذا وغيره من سيرة العلماء فى هذا الفصل الذى يطالعنا بعد قليل . فإذا وجد بعض القراء فى هذا وغيره ما يؤذى إحساسهم ، ويؤلم شعورهم ، ويصدمهم ويخيب ظنونهم فى هذه الصورة الزاهية الكريمة التى رسمت فى أذهانهم عن هؤلاء العلماء . إذا أحسّ بعض القراء ذلك . فإن موقفى منه واضح جدا : فقد التزمت الأمانة التامة فى كل ما أكتب من هذه الدراسات على أن ما سجله الجبرتى من ذلك عن العلماء ، خيرا كان أم نكرا ، لا سبيل إلى الشك فيه ، فيما أعتقد .

على أننا ننبه إلى أمر يجب ألا يفوتنا ، أو يفوت القارىء . هو أن الشيوخ الذين سجل عنهم الجبرتى ما سجل من شر ونكر . كانوا هم الذين يلون المناصب الكبيرة ، والوظائف الرسمية العالية . وهؤلاء الشيوخ الذين ذكر عنهم الجبرتى تلك السجايا الكريمة من أخلاق العلماء ، كانوا بعيدين من هذه المناصب ، والوظائف . وندر أن نجد لهذه القاعدة شذوذا . ولست أدرى ، هل كان وجود هذه الصفات المنكرة عند الأولين سببا لنوالهم هذه الوظائف والمناصب ، أو نتيجة له . على أنهما قد يكونان سببا ونتيجة معاً .

هذا تلخيص موجز جدا لما نجد من سيرة العلماء كما صوّرهم الجبرتى ، وقد كان صديقا لهم ، خبيرا بهم ، عارفا لأسرار حياتهم . وهذه الصورة التى أجملناها هنا ونفصلها بعد قليل ، قاصرة على الناحية الخلقية . أما النواحى الثقافية والعلمية فنجد تفصيلها فى فصل « الثقافة والبيئة » فى نهاية هذا الجزء ، وفى الفصل الخاص بالحياة الفكرية والثقافية فى الجزء الأول من كتابنا[1] .

---

(١) ص ٤٧ وما بعدها

الأزهر ومكانته

يشغل الأزهر وعلماؤه ، وطلبته أيضاً ، قسما كبيرا من عجائب الآثار . وأخبار العلماء وتراجمهم ، والحوادث التي كان محورها الأزهر ، تكوّن جزءا من أهم ما سجله الجبرتي وحرص على تدوينه .

وهذا طبيعي . فقد كان الأزهر هو المثابة التي يفزع إليها الناس حين يحزبهم أمر ، والمأمن الذي يقصده الشعب حين تضيق به السبل ، وكثيرا ما كانت تضيق بالشعب السبل ، وما أكثر ما كان يحزب الناس من أمر ، في تلك الحقبة من تاريخ مصر . وكان العلماء والمجاورون ، يستمعون إلى الشعب عندما يلجأ إليهم ، فيغضبون على من أوقع بالناس الظلم . وكان غضبهم ، في أحيان كثيرة ، كافيا لأن يرجع الظالم عن ظلمه ، بل نجد في بعض الأحيان ، أن الحاكم الظالم كان يعلن عن توبته أمام العلماء ، ويعاهد الله معهم على أن يعدل .

فالأزهر ، فوق مكانته العلمية ، ومهمته الدينية ، كان بمثابة « البرلمان » الذي يترجم عن رغبات الشعب ، سخطاً ورضا ، والترجمة عن السخط أكثر ، بطبيعة الحال ، لأن شئون الحكم ، في ذلك الوقت ، كان فيها كثير مما يُسخط . وقليل جدا مما يسرّ ويرضى . وقد وجدنا في الفصل الذي خصصناه عن الحملة الفرنسية على مصر [1] ، كيف كان الأزهر بؤرة الثورة عليها ، وكيف كان رجاله قادة لها ، وأبطالا فيها ، وكيف برزت قوة الأزهر وسيطرة رجاله على مقدرات الشعب ، وتوجيه الأمور .

وفي صفحات متفرقة ، كثيرة ، مما كتبه الجبرتي ، نستطيع أن نتعرف تلك المكانة السامية التي كان الأزهر ورجاله يجدونها لأنفسهم في ذلك الوقت ، والتي كان الناس ، حكاما ومحكومين ، يعترفون لهم بها ، ويحرصون عليها ، ويفيدون منها .

---

(١) في الجزء الثالث من الكتاب

وقد كان وجدان الناس ، فى ذلك الوقت ، وجدانا دينيا ، وعاطفتهم ، فى الأغلب ، قائمة على الدين والعقيدة ؛ فلم تكن لهم ، غالبا ، عاطفة وطنية ، ولا يستطيعون أن يدركوها . والعلماء رجال الدين ، والأزهر موطن العلم والعلماء . فكان العلماء يشعرون بما لهم من مكانة وعزة ، بقدر ما فى نفوس الناس من العاطفة الدينية ، وكان الناس ينظرون إليهم كحماة للشرع والعدل ، ورقباء على صلاح الحكم ، وتوجيه الحاكم ، وكبح جماح من يرون فيه الشطط أو الفساد ، وكان الحكام يخشونهم لهذه الأسباب ، وخاصة إذا اجتمعت كلمتهم مع الشعب على رأى واحد .

وكان العلماء يقدمون ، فى المناسبات العامة ، على جميع الناس ، وعلى الأمراء . أقام الأمير عبد الرحمن كتخدا حفلات شائقة لختان أولاده . دامت أياما ، فدعا فى أول يوم المشايخ والعلماء ، وفى اليوم الثانى مشايخ الطرق الصوفية ، وفى الثالث الأمراء والصناجق . ثم بقية الطوائف ، فيما تلا من الأيام .

وقد اختلف عبد الرحمن بك هذا مع إسماعيل باشا ، والى مصر من قبل الدولة ، وطلبه الوالى ليصعد عنده إلى القلعة ، فأبى عبد الرحمن وقال : لا أذهب إلا إلى بيت القاضى ، ولا أحاجج خصمى إلا فيه . فلما اشتد النزاع بينهما وضاق صدره « خرج من منزله ماشيا وأراد أن يذهب إلى الجامع الأزهر ، يقع على العلماء » .

ولما قدم على باشا حكيم أوغلى ، واليا على مصر ، زاره السيد أبو السرور البكرى شيخ السادة البكرية ، فتلقاه على باشا ، وقبل يديه وقدمه . وجرت بين طائفة من المماليك والعرب وقائع أسر فيها كبير من المماليك ، واقتيد مكبلا مهانا حتى دخل القاهرة ، وكان يحكمها مراد ، وإبراهيم . ففكا قيده ولا طفاه ، وسألاه أين يريد أن يقيم ، وتركا له أن يختار . فسار حتى دخل بيت الشيخ أحمد الدمنهورى فى بولاق ، وكان شيخا للأزهر ، وذهب كثير من خصومه ليأخذوه من بيت الشيخ فلم يجسروا .

وقد كان مراد صلفا مغرورا ، صاحب قسوة وجبروت : ومع ذلك فقد

ذهب بنفسه إلى منزل السيد محمد البكرى ، عقب وفاته ، وخلع على ابنه ما كان له من مشيخة السادة البكرية ونقابة الأشراف .

العلماء سفراء وقادة

وكان العلماء ، ولهم هذه المنزلة السامية عند الحاكم ، وعند الشعب ، يقومون فى أوقات كثيرة بالسفارة بين بعض المماليك وبعض ، وبينهم وبين الوالى . فقد اختلف على بك الكبير مع طائفة كبيرة من المماليك وتفاقم بينهم الشر ، وكان على بك خارج القاهرة وهم يريدون أن يخرجوا لحربه . وعقدت لذلك جمعية حضرها الشيخ محمد الحفنى ، فعارض فى إرسال الحملة واشتد فى ذلك شدة قاسية ، وقال لهم إنكم خربتم البلاد بخصامكم وعنادكم وحربكم . فقالوا إننا إذا لم نذهب لحرب على بك قدم هو إلينا ، فقال الشيخ إنى مرسل إليه كتابا فلا تتحركوا حتى يأتى جوابه ، فامتثلوا . ثم أرسل الشيخ إلى على بك كتابا شديدا فيه زجر ووعظ ، ونصيحة . وقد انفرد على بك بعد ذلك بحكم مصر وفتح الشام والحجاز ، وكان مع ذلك لا يستطيع مخالفة الشيخ الحفنى .

ولما أرسلت الدولة الغازى حسن باشا إلى مصر لتخليصها من استبداد المماليك ، وظلم مراد وإبراهيم . اتفق هؤلاء على إرسال وفد لملاقاته ، وكان الوفد من المشايخ : العروسى ، والأمير ، والحريرى ، ومعهم اثنان من أتباع المماليك . فذهب الوفد إلى رشيد ، ولقى الغازى ، وكان المتحدث فيهم الشيخ العروسى . وذكر الجبرتى أن حسن باشا لقى الوفد ملاقاة حسنة ، وأكرمه وقابله ثلاث مرات . ثم أرسل إلى أعضائه بعد أن عادوا إلى القاهرة رسائل وردت من الدولة .

وقد كان ذلك فى رمضان . ويقول الجبرتى : إنه لما جاء العيد ، ركب إبراهيم بك إلى منزل الشيخ البكرى ، ثم إلى الشيخ العروسى ، والدردير . وصار يحدثهم « وتصاغر فى نفسه جدا » وأوصاهم بالمحافظة على الرعية ، وكف الناس عن الفتنة .

وعندما اختلف مراد وإبراهيم ، وخرج أولهما مغاضبا إلى الصعيد ، أراد إبراهيم ومن معه أن يصالحوه ، فأسلوا إليه الشيخ السادات ، والشيخ العروسى ، شيخ الأزهر ، والسيد محمد البكرى .

ولما هزم المماليك أمام نابليون فى موقعة إمبابة ، تقدم العلماء ، باسم الشعب ، للتحدث إلى القائد المنتصر ، حيث كان المماليك يجدّون فى الهرب .

وكذلك كانوا سفراء بين الشعب وبين الفرنسيين ، عندما كانت تتحرج بينهما الأمور . وبعض هؤلاء العلماء صودرت أمواله ، وسجن ، وهو يتوسط بين رجال الثورة من المصريين ، وبين نابليون ورجاله .

الشيخ العريشى

ومن العلماء من قام بالسفارة عند السلطنة . فإن على بك الكبير أوفد الشيخ عبد الرحمن العريشى سنة ١١٨٣ ليحمل رسالة منه إلى دار السلطنة ، فى إسطنبول ، وليقوم ببعض الأعمال فيها . ومن قبل ذلك أرسل المماليك الشيخ عمر الطحلاوى مبعوثاً إلى دار السلطنة أيضاً — سنة ١١٤٧ — فقوبل بالإجابة ونجح سعيه . وألقى دروس الحديث فى مسجد أياصوفيا فاستمع إليه كبار العلماء فى الدولة . بل من العلماء من كان يرسل إلى السلطنة ، كالشيخ السادات ، فقد أرسل الشيخ إبراهيم السندوبى إليها بمكاتبات ، ومطالب استطاع أن يحققها .

وقد رأينا فى ترجمة والد الجبرتى [1] أن على بك الكبير طلب منه رسالة يبعث بها إلى السلطان ، مع هدية منه . لما عرف من جليل قدره عنده . وفى سنة ١١٦٠ لم يخرج الركب المغربى للحج لأن أمير الحج المصرى اعتدى عليه فى السنة السابقة ، وسلبه . فكتب مولاى عبد الله ، إلى علماء مصر يدعوهم للتدخل فى ذلك ، ومنع أميرهم من التعرض لركبه . كتب إلى العلماء ، ولم يكتب للأمراء ولا إلى الوالى .

---

(١) فى الجزء الأول من الكتاب ، الفصل الأول .

نداء من فوق المآذن

وكان العلماء قادة ، يتصدرون الناس إذا وقع عليهم ظلم ، أو اعتدى عليهم معتد ، أو كثرت عليهم المغارم والضرائب والمصادرات ، أو ألمّت بهم فتنة . كان الناس ، إذا وقع بهم شيء من ذلك ، توجهوا ، وحدانا وزرافات ، إلى الجامع الأزهر — وقد تذهب النساء أيضاً — ويذهب الصبيان ، ولهم فى الطريق إليه ثورة وعجيج . فإذا دخلوا الجامع صعدوا إلى مآذنه ينادون الناس ، ويصرخون بالظلم الذى يلقونه ، ثم يبطل فريق منهم دروس العلماء التى تحلّق حولهم فيها طلابهم فى الأزهر ، وقد يبطلون الصلاة فيه . ثم يقبلون على العلماء يستصرخونهم مستجيرين بهم . فيرسل العلماء بعضاً منهم إلى أولى الأمر ، أو يخرجون جميعا ، وقد يخرج بعضهم قائدا لهذا الجمع المستجير الغاضب حتى يصل به إلى مجلس ولى الأمر ، أو منزله ، طالبا منه رفع الظلم ، أو منع العدوان ، أو كفّ الجباة ، أو قطع الفتنة . ولهم فى ذلك شجاعة فائقة تستحق أن تدون . وهذا بعض منها .

لا طاعة للسلطان إذا خالف الشرع

كان بكير باشا والياً على مصر ، سنة ١١٤٨ ، ثم وردت إليه مراسيم من السلطان فيها إبطال لبعض ما كان يصرف للناس من مرتبات ، فلما قرئت المراسيم قال القاضى : إن أمر السلطان لا يخالف ، وتجب طاعته ، فقال له الشيخ سليمان المنصورى . ياشيخ الإسلام ، هـذه المرتبات تصرف على مساجد وأسبلة وخيرات ، وهى قررت منذ أزمان واعتادها الناس ، ورتبوا أمورهم عليها . وطاعة السلطان واجبة إذا لم تخالف الشرع . فسكت القاضى ، وقال الباشا : إنه سيراجع أصحاب السلطنة فيما قاله الشيخ . وانفض المجلس .

وشكا رجل إلى الأمير يوسف بك الكبير : أن شيخا طلق عنه زوجته وهو غائب . فلما عاد وجدها زوجا لغيره . فغضب الأمير ، وأرسل رجاله فجاءوا بالشيخ . مثقلا بالحديد فى رجليه ورقبته ، وحبسه مع المجرمين . فذهب إليه جماعة

من العلماء ومعهم الشيخ على الصعيدى ، والشيخ الجداوى ، وتحدثوا إليه حديثا شديدا . وكانت بينهم وبين الأمير مناقشة عاصفة كان ختامها أن لعن الشيخ الصعيدى الأمير ، ولعن من باعه ، ومن اشتراه ، ومن جعله أميرا . ثم أخذوا الشيخ من محبسه وخرجوا يسبّون الأمير ، وهو يسمعهم .

وكان الشيخ السادات عالما كبيرا مسموع الكلمة ، مرهوب الجانب ، تشفع عند طاهر باشا فى رجل يسمى مصطفى أغا الوكيل ، فقبل شفاعته . ثم طلبه إليه ، فذهب الشيخ معه . ولكن رجال طاهر باشا خطفوه من الشيخ وهما يسيران فى منزل طاهر باشا . فغضب السادات ودخل على الباشا فخاطبه خطابا شديدا . فأطلعه طاهر على خطاب أرسله عدوّ له إلى مصطفى أغا . فقال له الشيخ . هذا لا ذنب له فيه . ولا يؤاخذ به . وإنما يؤاخذ بخطاب منه إلى عدوك . فأعفاه طاهر باشا من القتل ، وأمره أن يقيم فى منزل السادات . ثم ذهب فى الليلة نفسها فزار الشيخ فى بيته ، معتذرا .

بيع الحرائر

وللشيخ السادات ، هو وشيخ آخر ، موقف آخر من مواقف الشجاعة الفائقة ، مع الوالى حسن باشا الجزائرلى :

فقد حضر هذا الوالى وأخرج الأمراء المماليك من القاهرة ، إلى الصعيد . ثم استباح أموالهم وأخذ أولادهم ونساءهم أسرى ، زاعما أنهم أرقاء لبيت المال . فاجتمع العلماء وقصدوا إليه يخاطبونه فيهم فتحدث السادات عنهم قائلا له : هل أتيت إلى مصر لإقامة العدل ، ورفع الظلم ، كما تقول . أم لبيع الأحرار ، وأمهات الأولاد ، وهتك الحريم . . . ؟ فقال له الباشا : هؤلاء أرقاء بيت المال . فقال الشيخ : هذا لا يجوز ، ولم يقل به أحد . فغضب الباشا غضبا شديدا ، وطلب كاتب الديوان فقال له : اكتب أسماء هؤلاء لأخبر السلطان أنهم يعارضون فى أوامره . فتقدم إليه الشيخ محمود البنوفرى قائلا : أكتب

ماتريد ، بل نحن نـكتب أسماءنا بخطنا . فأفحم الجزائرلى ، وترك بيع نساء المماليك وأطفالهم . وترضّى الشيخ السادات بعد ذلك ، بأن قبل دعوته للطعام عند قبور أجداده بالقرافة .

وعلم حسن باشا هذا بأن مراد بك ، كبير المماليك ، ترك عند الشيخ السادات وديعة ، فأسل إليه يطلبها فامتنع ، وكانت عند السيد محمد البكرى وديعة أخرى فسلمها . ولـكن السادات أبى أن يسلم الوديعة ، وقال إن صاحبها لم يمت ولا أسلمها لغيره مادام حيا .

وقد كان لشجاعة السادات فى هذين الموقفين أثر فى نفس حسن باشا ، لم ينسه أبداً ، فـكان كلما ذكر اسم الشيخ السادات يقول : لم أر فى جميع المماليك من اجترأ على مخالفتى مثل هذا الرجل ، فإنه أحرق قلبى . ولـكن الشيخ لم يصبه من ذلك سوء .

غضب العلماء

وروى الجبرتى من حوادث شهر جمادى الأولى لسنة ١١٩١ حادثة تدل على مكانة أهل الأزهر ، وماكانوا يثيرونه من الفزع فى قلوب الحـكام إذا غضبوا . وهى فى الوقت نفسه ترسم لنا صورة من الحياة الاجتماعية لذلك العهد .

تتلخص الحادثة فى أن المجاورين من المغاربة فى الأزهر آل إليهم مكان موقوف ونازعهم فى ذلك واحد من أصحاب النفوذ يسانده بعض أمراء المماليك ، فأقام المغاربة دعواهم فى المحـكمة فأثبتت حقهم فى الوقف . ولـكن هذا الحـكم لم يرض عنه يوسف بك ، وهو الذى يساند خصمهم ، ويحرضه على عدم تسليم الوقف . وأرسل يوسف هذا بعض رجاله إلى الأزهر ليقبض على رجل يسمى الشيخ عباس ، كان زعيم المتمردين من المغاربة . فلما ذهب هؤلاء الرجال إلى الأزهر قام عليهم المجاورون فطردوهم وسبّوهم . وأبلغوا الأمر للشيخ أحمد الدردير . فـكتب خطابا إلى يوسف بك يطلب منه عدم التعرض لأهل العلم ، والخضوع لأحكام الشرع ، وأرسل الرسالة مع الشيخ عبد الرحمن الفرنوى ، وعالم آخر . فلما تسلم منهما

كتاب الشيخ نهرهما، وأمر بسجنهما. فلما وصل خبر ذلك إلى الشيخ الدردير وأهل الأزهر، اجتمعوا فى الصباح، وأبطلوا الدروس بالجامع؛ وكذلك أبطلوا الأذان، والصلاة، وأقفلوا أبواب الأزهر، وجلس المشايخ بالقبلة القديمة. وطلع الأطفال فوق المآذن والمنارات يكثرون من الصياح والدعاء على الأمراء. وأغلق أهل الأسواق القريبة من الأزهر حوانيتهم. فلما بلغ الأمراء خبر هذا الهياج، أرسلوا إلى يوسف بك فأطلق المسجونين، وأرسل كبير الأمراء، إبراهيم بك، إبراهيم أغا بيت المال إلى المشايخ، فلم يستطع التفاهم معهم، ولا تخفيف غضبهم. ثم نزل الأغا إلى الغورية ينادى بالأمان، وفتح الحوانيت، فذهبت إليه طائفة من مجاورى المغاربة ومعهم فريق من العوام فضربوا أتباع الأغا، ورجموه بالحجارة. فلم ير بداً من شهر السيف فى وجوههم فشهره، وقتل منهم وجرح.

وفى اليوم الثانى حضر إسماعيل بك، والشيخ السادات، وعدد من كبار المماليك والحكام فنزلوا مسجداً قريبا من الأزهر، وأرسلوا إلى أهله خطاباً بأن ينفضوا، لأن مطالبهم أجيبت. ولكنهم لم يرضوا بمجرد الوعد. وطلبوا جراياتهم ومخصصاتهم، وأبوا أن ينفضوا من الأزهر. وبعد ذلك بيوم حضر إسماعيل بك مرة أخرى، ومعه السادات. وأرسلوا إلى المشايخ خطابا مع الشيخ إبراهيم السندوبى يتضمن: أن إسماعيل بك تعهد بقضاء جميع ما يطلبه أهل الأزهر، وتعهد بصرف جراياتهم ومخصصاتهم، وذلك بضمان الشيخ السادات. وأرسل لهم بالفعل جانبا منها. ففتح أهل الأزهر — بعد تردد وتشدد — أبواب الأزهر. واشترطوا فى صلحهم ألا يمر الأغا، والوالى، والمحتسب، من حارة الأزهر. وتولى إبراهيم بك نظارة الأزهر بنفسه، وأرسل جنديا من عنده لمطبخ الأزهر.

ذلك كان غضب أهل الأزهر لحرمان بعضهم من وقف. وذلك كان أثره فى الدولة الحاكمة إذ ذاك.

ولكن غضب العلماء، والمجاورين، لم يكن دائما لمثل هذا السبب. بل كان يقع، كثيرا أيضاً، بسبب ما يلقى الناس من ظلم. فقد كان حسين بك

المعروف بشِفت[1] ، رجلا كثير الظلم . يصادر الناس فى أموالهم ، ويتهجم على بيوتهم ، ينهب منها مايشاء . فذهب يوما بجنوده إلى بيت شيخ دراويش البيومى ، وكان يسمى أحمد سالم الجزار ، ودخل جنود حسين بك إلى منزل الجزار فنهبوا ما فيه ، حتى الفراش وحلى النساء ، ورجعوا والناس تنظر إليهم صامتين . ولكن أهل الحسينية ثاروا فى اليوم التالى ، وحضروا إلى الجامع الأزهر ومعهم طبول ، وحضر معهم كثير من العامة بأيديهم النبابيت والمساوق . وذهب الجمع إلى الشيخ الدردير فشجعهم وأيدهم . فتفرقوا فى أنحاء الأزهر وأقفلوا أبوابه ، وصعد بعض منهم على مآذنه يصيحون ويضربون الطبول . وانتشر فريق منهم فى الأسواق القريبة من الأزهر ، فى حالة منكرة . وقال لهم الشيخ الدردير: فى غد نجمع أهل الأطراف والحارات وبولاق ومصر القديمة ، وأركب معكم . وننهب بيوت المماليك ، كما ينهبون بيوتنا . ونموت شهداء ، أوينصرنا الله عليهم . فلما بلغ الأمر ذلك الحد ، وعرفه رجال الدولة . أوفدوا رسلهم إلى الشيخ الدردير يطلبون منه أن يرسل إليهم قائمة بما نهبه جنود حسين بك كى يردوه إليه . وبعد ذلك قصد الدردير إلى منزل إبراهيم بك الذى أحضر حسين شفت وأمره برد مانهبه من بيت شيخ الدراويش فى الحسينية .

وقد كان الشيخ الدردير رجلا شجاعا . وكان العلماء يقصدونه عندما يحتاجون لمن يعينهم على الظَّلمة من الحكام . وكثير ماهم ، ولكنهم كانوا — مع عسفهم وجبروتهم — يهابونه . كان الشيخ الدردير فى مولد السيد البدوى . وشكا إليه الناس من ظلم أحد الكشاف . ومن مصادرته لأموالهم . فطلب الشيخ إلى بعض أتباعه أن يذهبوا إلى هذا الكاشف ليحدثوه فى ذلك ، ولكنهم خشوا أن يذهبوا إليه . فركب الشيخ . بنفسه ، وتبعه كثير من العامة . فلما دخل خيمة نائب الكاشف ، ناداه إليه ، وكلمه وهو راكب على ظهر بغلته وأغلظ له القول . وأخذت الحماسة واحدا من العامة ، وشجعه كلام الشيخ وعنفه ، فضرب نائب

---

(١) شفت بالتركية معناها اليهودى.

الكاشف بالنبوت . فاعتدى جنود النائب على العامة وضربوهم . وقبضوا على تابع الشيخ الدردير وضربوه . ورجع الشيخ إلى محله غاضبا . ولكن كاشف المنوفية ذهب بعد ذلك إلى كاشف الغربية ، وأخذه لزيارة الشيخ يطلبون صفحه معتذرين . ولما رجع الدردير إلى القاهرة ، ذهب إليه فى بيته إبراهيم بك أمير المماليك ، طالبا رضاه وعفوه .

وفى أوائل سنة ١٢٠٢ كانت الحروب والمنازعات بين المماليك قد أرهقت الناس إرهاقا شديدا ، فضاقت معايشهم ، وفقد الأمن فى البلاد ، وانقطعت الطرق . فرأى الشيخ العروسى . أن يدعو المشايخ ليذهب معهم إلى الوالى يحدثونه فى هذا الأمر ، ويطلبون منه العمل للخروج من هذا الضيق . فلما علم إسماعيل بك ، كبير المماليك ، بسعى الشيخ ، خشى من ذلك ، واحتال لمنع اجتماع العلماء وزيارتهم للوالى . فادعى أن رسولا من الدولة قد جاء بمراسيم . وطلب من الباشا دعوة العلماء لتقرأ عليهم المراسيم ، فلما اجتمعوا وقرئت عليهم باللغة التركية ، قال الشيخ العروسى : إننا لا نعرف هذه اللغة ، فأخبرونا بمحصل هذا الكلام . فأخبروه بأن أوامر الدولة تقضى بحرب الخارجين من المماليك والقضاء عليهم ، وكان ذلك ما يريده إسماعيل ، فقال الشيخ : وماذا يمنعكم من الخروج لحربهم ؟ . لقد ضاق الحال بالناس ولا يستطيع أحد أن يصل إلى النيل . وقربة الماء أصبحت بخمسة عشر نصف فضة . وإسماعيل بك مشغول ببناء الحصون والمتاريس بدلا من الخروج إلى خصمه كما هى عادة المصريين فى الحروب ، حتى يستقر الأمر ويستريح الناس من هذه المنازعات والحروب . وأمّن الباشا على كلام الشيخ ، وأعانه على كبير المماليك .

ومن مواقف الكرامة والشرف للعلماء ، موقف الشيخ عبد الله الشرقاوى عندما خلع عليه نابليون شارة الجمهورية الفرنسية المثلثة الألوان .

فقد جمع نابليون كبار العلماء بعد دخوله القاهرة . ثم خرج من المجلس ، وعاد وهو يحمل بنفسه عددا من الطيلسانات بألوان العلم الفرنسى ، ووضع منها واحدا

على كتف الشيخ الشرقاوى . فغضب الشيخ غضبا شديداً . وتغير لونه . وألقى طيلسان نابليون إلى الأرض محتداً . وتحدث ترجمان نابليون إلى العلماء متلطفا متودداً ، ولكنهم لم يقبلوا . ولم يتمالك نابليون غضب نفسه على الشرقاوى فأظهره فى المجلس أمام العلماء . وهو الذى كان شديد الحرص على رضاهم .

وكذلك وقف العلماء موقفا كريما من الوالى أحمد باشا خورشيد ، فقد كان ظالما جبارا ، أراد أن يوقع ظلما بالسيدة نفيسة المرادية ، زوج مراد بك ، فوقفت منه موقف الشجاعة والشمم ، وأعانها العلماء عليه . فلما رأوا من خورشيد إصراراً على ظلمها . قال الشيخ محمد الأمير له : إن ظلم هذه السيدة أمر لا يليق ، وإن أصررت عليه فنحن لن نشاركك عواقبه . بل سنترك القاهرة لك تفعل بأهلها ما تشاء . وهم الشيخ بأن يترك المجلس مغاضبا ، ولكن نائب الوالى حال بينه وبين ذلك . ورضى خورشد بعد ذلك أن يترك المرادية على أن تقيم فى بيت الشيخ السادات .

وللشيخ السادات ، عدا مواقفه المشرفة ضد الفرنسيين مما ذكرناه فى موضعه[١] موقف فيه كرامة وشجاعة ، وقفه من نائب الوالى عثمان كتخدا . فقد أرسل إليه هذا وقت أن كانت القاهرة تثور على جند نابليون . وكان هؤلاء يصلون أهلها نارا حامية، بسبب نقض العثمانيين للصلح . أرسل عثمان إلى السادات كتابا، فأجابه عليه جوابا قاسياً غاية القسوة ، عنيفاً أشد العنف، بدأه بقوله : حسبنا الله ونعم الوكيل نعم المولى ونعم النصير . وماهى من الظالمين ببعيد . ثم أشار إلى أن جيش العثمانيين كان حربا على أهل دينه من المصريين بدل أن يكون نصيراً لهم وعونا وأمنا . وأن رئيسهم يعينهم على البغى والجور ولا ينهاهم عنه . وأن جهاد هذا الجيش ليس فى حرب أو كفاح . بل جهاده فى أماكن اللهو والموبقات . حتى أوقع بالناس الذل والضر ، ونزلت بهم أعظم الدواهى والمصائب. فلما وقع بالناس الضر من الفرنسيين، فر هذا الجند كما يفر الفأر من السنور . وهو كتاب قصير ، ولكنه قوى عنيف غاية العنف . لا نجد نظيرا له فى أسلوب ذلك العصر . وفى خطاب أهل السيادة والغلظة من العثمانيين خاصة .

---

(١) فى الجزء الثالث من الكتاب .

شيخ الأزهر يقود الشعب

ونجد فى هذه القصة التى رواها الجبرتى فى حوادث ذى الحجة من سنة ١٢٠٩ أن غضب العلماء قد يصل إلى حد الثورة . وقد نجحت هذه الثورة وحققت أهدافها ولكن تهاون الشعب فى الحرص على ما نال من حق ، وجبروت المماليك وخداعهم جعلا نجاح هذه الثورة موقوتا .

ويحسن أن نقرر ، أولا ، أن البادىء بهذه الثورة ، وزعيمها ، وقائدها ، كان شيخ الأزهر ، الشيخ عبد الله الشرقاوى .

حضر للشيخ جماعة من الفلاحين ، من بلبيس ، وكانت له ضيعة فيها . وشكوا له من ظلم محمد بك الألفى وأتباعه . فغضب الشيخ ، وتحدث إلى مراد وإبراهيم فلم يستجيبا له . ففى اليوم التالى جمع الشيخ العلماء وقفل أبواب الأزهر ، وأمر الناس بغلق حوانيتهم ومتاجرهم . ثم ركب مع المشايخ وتبعهم خلق كثير قاصدين بيت الشيخ السادات ، وكان مجاورا لبيت إبراهيم . فلما رأى إبراهيم تجمعهم عند السادات أرسل إليهم أيوب بك الدفتردار يسألهم ما يريدون ، فحضر إليهم « ووقف بين يديهم » فقالوا : « نريد العدل ورفع الظلم والجور ، وإقامة الشرع ، وإبطال الحوادث والمكوسات التى ابتدعتموها وأعدتموها » فقال . ذلك أمر غير ممكن . فإننا إن فعلنا ذلك ، ضاقت علينا المعايش والنفقات . فقال له العلماء : ذلك ليس بعذر لا عند الله ولا عند الناس ، ولماذا تكثرون فى النفقات وشراء المماليك ، والأمير يكون أميراً بالإعطاء ، لا بالأخذ . فقال لهم أيوب بك الدفتردار : أمهلونى حتى أعود لمن أرسلنى ، ولكنه لم يعد لهم بجواب . فعاد المشايخ إلى الأزهر ، واجتمع فيه كثير من أهل القاهرة وأطرافها ، وباتوا فى المسجد . وخشى إبراهيم مغبة الثورة ، فأراد أن يداهنها . فأرسل للعلماء يقول : إنه معهم ويؤيدهم ، وإن ما يقع من المظالم ليس له فيه يد . ثم أرسل إلى مراد بك يخيفه عاقبة عناده . فأرسل مراد إلى العلماء يفاوضهم . ثم أرسل يطلب بعضهم إليه . فذهبوا إلى بيته فى الجيزة حيث لاطفهم ورجاهم أن يتوسطوا فى الصلح .

وفى اليوم الثالث ، حضر الباشا الوالى إلى منزل إبراهيم بك ، واجتمع الأمراء هناك ثم أرسلوا إلى العلماء فى الأزهر ، فحضر منهم المشايخ : السادات ، والشرقاوى والنقيب ، والبكرى ، والأمير ، وطلبوا من الشعب ألا يرافقهم ، بل ينتظرهم حتى يعودوا إليه بالنتيجة . واجتمع العلماء الخمسة بالوالى والأمراء . وطال بينهم الجدل ثم انتهى الأمر إلى أنهم — أى الأمراء — تابوا ورجعوا ، والتزموا بما شرطه العلماء عليهم . وأن يبطلوا المظالم المحدثة ، ويكفوا أتباعهم عن أموال الناس ، وأن يسيروا فى الناس سيرة حسنة » وكان القاضى حاضراً فى المجلس ، فكتب بذلك وثيقة وقعها الباشا وإبراهيم ، وأرسلت إلى مراد فوقعها .

وعاد العلماء وشيخ الأزهر ، وأمام كل واحد منهم ، وخلفه ، جملة عظيمة من الشعب وهم ينادون : بطلت جميع المظالم والمكوس من مصر ، حسب مارسم سادتنا العلماء ، وفرح الناس بذلك فرحا عظيما . وستجد فى الفصل الذى عقدناه عن شعب[1] مصر وكفاحه ، أمثلة أخرى كثيرة رائعة عن شجاعة العلماء .

زهد العلماء وتواضعهم

وقد كانت أخلاق العلماء ، وفضائلهم ، من الزهد ، والبعد عن الصغائر ، والانقطاع للعلم ، والشجاعة ، التى رأينا أمثلة منها . سبباً فى تمتعهم بهذه المكانة العظيمة ، والمحبة عند الشعب . وهذه الكرامة والمهابة ، عند الأمراء والولاة .

الشيخ العفيفى

فمن الزاهدين الذين ترجم لهم الجبرتى ، الشيخ عبد الوهاب العفيفى ، وكان من مشايخ الطرق ، من قرية ميت عفيف ، ومع فضله وعلمه ، كان متواضعاً جدا متحرزا فى مأكله وملبسه ، لا يأكل إلا ما يجيئه من بلده . من الخبز الجاف

---

(١) فى الجزء الثالث من الكتاب

« والدقة » وكان الأمراء يقصدونه للزيارة فينفر منهم. ومن تفضل الشيخُ بمقابلته قدم له من خبزه الذى يأكله.

ومنهم فقيه كان يسمى الشيخ الصائم، وهو تلميذ الشيخ العفيفى، ترك زى العلماء إلى زى الفقراء، وباع كل ما يملك ثم سافر إلى السويس فركب سفينة فانكسرت، وخرج منها بثوبه الذى يستر عورته فقصد بعض الأعراب فأكرمته امرأة منهم، وبقى عندها زمناً يقوم على خدمتها. ثم تركها إلى ينبع، فأقام فى مسجدها، وصعد إلى مئذنته فأذن على الطريقة المصرية فسمعه حاكم ينبع وأعجب بطريقته وصوته، فاستدعاه وسأله عن حاله، فقال: إنه فقير من الفقراء، فأكرمه الحاكم، وكساه. وكان يدعوه إلى قصره كل يوم. وبعد ذلك مات كبير من الأعراب. وتشاحن أولاده على ميراثه. فقدموا إلى الحاكم، فاستمهلهم حتى يرسل بفتواهم إلى علماء مكة. ولكنهم اختلفوا مع الهجان الذى سيسافر بفتواهم إلى العلماء. فلما رأى الشيخ حيرتهم، وتشاحنهم، طلب من الحاكم دواة وورقا ثم ذهب إلى المسجد وعاد لهم بعد قليل بجواب فتواهم مدعمة بالأدلة الفقهية. فلما قرأها الحاكم، وأبدى له عجبه من تواضعه وانكاره فضل نفسه، قال له الشيخ: إنى لو ادعيت معرفة العلم ماصدقنى أحد، لرثاثة حالى. فزاد الحاكم فى إكرامه ورفع منزلته. وأجرى عليه من المال ما يكفيه، وطلب إليه أن يقرأ فى المسجد دروس الفقه والحديث. وعاش بقية عمره عيشة طيبة.

الشيخ الراشدى

ومنهم الشيخ أحمد الراشدى. كان عالماً فى الفقه والحساب والحديث، حافظاً للقرآن، حسن الصوت، عارفا بالموسيقى. فلما بنى محمد بك أبو الذهب مسجده المقابل للجامع الأزهر أراده أن يكون خطيباله فامتنع على الرغم من إلحاح أبى الذهب. وأرسل له صرة من الدنانير الذهب فردها، ولم يقبل. فألح عليه مرة أخرى إلحاحاً

شديدا حتى خطب فيه الجمعة . وألبسه الأمير خلعة ، وأعطاه مقدارا من الدنانير قبلها كارها . ورجع إلى بيته محموماً يدعو الله ألا يخطب بعد ذلك فى هذا المسجد . وقبل الله دعاءه ، فظل فى بيته مريضاً حتى مات .

الشيخ البولاقي

وإلى جانب هذا الشيخ ، الذى لم تغره خلعة محمد بك أبى الذهب ، ولا دنانيره ، نجد آخر ، هو الشيخ أبو ذكرى البولاقى . الذى كان ينتقل من بولاق حيث يقيم ، إلى الأزهر ، راكباً حماره ، ليقرأ على الناس درسه ، ثم يرجع بعد الظهر ، فلما مات حماره ، لم يشأ أن يتخلف عن درسه . بل كان يمشى على رجليه كل يوم من بولاق إلى الأزهر حتى أشفق عليه بعض جيرانه فاشتروا له حمارا .

وكان الشيخ خليل المدابغى عالما كبيرا فاضلا ، ولكنه كان فقيرا . فكان ينسخ للناس الكتب بالأجر ليعيش عيش الكفاف . ويظن من لا يعرفه أنه من العوام .

زهد وعفة

ومن القصص الطريفة التى سجلها الجبرتى عن زهد العلماء ، وكرم أخلاقهم ، أن السلطان محمدا ، سلطان المغرب ، كان يرسل فى كل عام أموالا تنفق على علماء الأزهر . وفى سنة ١١٩٨ وردت هذه الأموال ، وصرفت . وكان لهذا السلطان ولد تخلف فى القاهرة وهو عائد من الحج إلى المغرب ، وأقام فيها زمنا نفد فيه ما معه من المال . وتحدث الناس بقصته . فلما جاءوا للشيخ أحمد الدردير بنصيبه من صلة السلطان ، سأل عن قصة ابنه هذا ، فلما سمعها أبى أن يأخذ نصيبه من الصلة . وقال : والله لا يجوز أن نأخذ أموال أبيه ، ونحن فى سعة ، ونتركه فى الضيق والغربة . ثم أعطاه حقه من الصلة . فلما سافر الولد إلى أبيه السلطان وحدثه بما فعل الشيخ . أرسل إليه عشرة أضعاف ما قدم لابنه . فأدى منها الشيخ فريضة الحج وبنى مما بقى الزاوية التى دفن فيها بعد موته .

الشيخ الشنوانى :

وروى الجبرتى عن الشيخ محمد الشنوانى ، وكان شيخا للأزهر : أنه كان يشمر ثيابه ويكنس مسجد الفاكهانى بيده ويسرج قناديله . ولما طلب لمشيخة الأزهر امتنع واختفى فى مصر القديمة حتى أرغم عليها . وبقى ، وهو شيخ الأزهر ، ملازما مسجد الفاكهانى ، لم يتخل عن كنسه وإسراج قناديله ، حتى مات .

الشيخ على الصعيدى

أما الشيخ على الصعيدى — وقد ذكرنا من قبل بعض الأمثلة من شجاعته — فقد كان فى مبدإ اشتغاله بالعلم ، كثيرا ما يبيت جائعا ، ولا يقدر على ثمن الورق الذى يكتب فيه دروسه . وكان مع ذلك ، إن وجد شيئا تصدق به . وقد بلغ الصعيدى مبلغا جعل الجبرتى يصفه بأنه « شيخ مشايخ الإسلام » وكان شديداً فى نقده الأمراء وذوى النفوذ . يرى تحريم شرب الدخان . فكانوا يخشون بأسه ويتحاشون أن يشربوه فى حضرته « . ومن شربه أمامه كسر آلة الشرب ، ولو كانت فى يد أمير الأمراء . وكان على بك الكبير يوصى حاشيته أن يخبروه بقدم الشيخ الصعيدى حتى يرفع « الشبك[1] » ويخفى أثر الدخان ، قبل دخوله عليه .

ودخل الشيخ عليه مرة ، فقبل يده وأجلسه . وكان على بك مفكرا قليل الكلام فى ذلك اليوم . فظن الشيخ أنه معرض عنه فقال له الشيخ ، بلهجته الصعيدية ، يامن غضبك ورضاك على حد سواء ، بل غضبك خير من رضاك . ثم ترك المجلس وعلى بك يترضاه ويستعطفه وهو لا يجيبه . ثم عرف أن الشيخ

---

(١) الشيشة أو النرجيلة ، أو قصبة التدخين . ويقول إدوار وليم لين — السائح الإنجليزى الذى زار مصر فى القرن التاسع عشر ، وألف عنها كتابا قيما عربه الأستاذ عدلى طاهر نور باسم « المصريون المحدثون » — يقول لين إن طول هذه القصبة ، كان يبلغ خمسة أقدام ، وقد يزيد على ذلك زيادة كبيرة .

كان قادما فى أمر فقضاه له . ومع ذلك بقى الشيخ منقطعا عن زيارته حتى زاره مع والد الجبرتى بعد زمن طويل . فسرّ على بك بذلك سروراً كبيرا .

وكان الشيخ الصعيدى مرعى الجانب عند محمد بك أبى الذهب ، الذى خلف على بك فى الحكم . فكان المظلومون وأصحاب الحاجات يقصدونه ، وهو يدوّن مظالمهم وحاجاتهم ، ثم يقصد بها إلى أبى الذهب فلا يخالفه فى شىء منها . فإذا رأى عنده بعض الضجر قال له : لاتضجر ، ولا تأسف على أمر يفوتك بغير الحق . وقد أمرنا ربنا أن نقوم بنصحك ، ويسألنا يوم القيامة . فها نحن أولاء قد نصحناك وأحيانا كان يزجره ويقول صارخا : اتق الله وعذاب جنهم ، ثم يمسك يده ويقول : إنى أخاف على هذه اليد من النار .

وكان الشيخ مع ذلك كثير التواضع ، لا يركب إلا الحمار ، بارا بأهله ، يرسل إلى فقراء بلده — بنى عدى — الصلات والأكسية ، وإلى النساء منهم الطرح والعصائب والأحذية .

الشيخ سليمان الفيومى

وكان للشيخ الصعيدى هذا غلام اسمه سليمان يمشى خلف حماره ، وعليه ثياب خلقة ، ثم يقصد فى الليل — وهو حسن الصوت — إلى بيوت الأعيان ، ينشد الأناشيد ويقرأ القرآن . ومن ثم اتصل ببيوت الأمراء ، ونسائهم . وكانت له عندهن مكانة . وكذلك أحبه الأمراء حتى أوفده بعضهم برسائل منه إلى دار السلطنة . وتزوج من نساء الأمراء ، واتسع جاهه ، وكثر ماله . ولكنه كان كريم النفس ، سخى اليد ، حسن العشرة ، معينا لكل محتاج . فكان الناس يقصدونه لحوائجهم ، فلا يردهم . وأحيانا يقضى يومه كله فى التردد بين بيوت الأمراء للسعى فى حوائج الفقراء والمحتاجين ، فإذا لقى عند بيته ، وهو عائد ليلا من هذا السعى ، فقيرا أو مظلوما يريده أن يذهب فى حاجته ، رجع للسعى مرة أخرى ، ولا يعود إلى بيته إلا وقد قضى له مايريد . وكان كثير من أصحاب الحاجات هؤلاء يقيمون فى بيته ، وينفق عليهم حتى يقضى حوائجهم ويعطيهم ما يعودون به إلى بلادهم .

ولما قدم حسن باشا الجزائرلى ، وهرب المماليك إلى الصعيد ، أحاط بدورهم وطالب نساءهم بالأموال . وأخذ أولادهم وجواريهم ، وأمهات أولادهم ليبيعهم فى المزاد ، فقصد نساء الأمراء إلى هذا الشيخ مستجيرين ، فآواهن وكافح كفاحا شديداً فى سبيل حمايتهن من ظلم حسن باشا ، ومن ظلم إسماعيل بك من بعده . فلما رجع الأمراء أزواج هؤلاء النسوة عرفوا له مروءته ونخوته . وزاد قدره عندهم . حتى كانوا — على الرغم من الحجاب الصارم فى بيوتهم وعلى حريمهم — يأذنون له فى أن يدخل بيوتهم فى غيبتهم ، ويقصد إلى منزل حريمهم من غير إذنهم . وكانوا يفرحون بذلك . وخاصة نساء الأمراء . وكن يستشرنه فى أمورهن . ويدعونه : أبونا الشيخ المبارك . ويعملن بما يشير به .

وكذلك عندما دخل نابليون مصر . وقف الشيخ لحماية نساء الأمراء ، وأدخل كثيرات منهن إلى داره ، حتى امتلأت ، فأقمن بها شهورا ، واستجار به كثير ممن حاربوا الفرنسيين، فأخذ لهم الأمان من نابليون . ولقى عند الفرنسيين من المحبة والتقدير مثلما كان يلقى عند المماليك من أمراء مصر . فاختاروه عضوا فى الديوان . وقبلوا ضيافته فى بيته . وجعلوه شيخا على مشايخ البلاد . وظل ، بعد خروج الفرنسيين ، متمتعا بحرمة وافرة ، ومكانة كبيرة ، حتى مات ، وصلى عليه فى الجامع الأزهر ، وسارت آلاف من الناس — نصفهم من النساء — خلف نعشه . ووجدوا عليه دينا قدره عشرة آلاف ريال ، وترك بنتين . ولكن أصحاب هذه الديون سامحوه فيها ، ولم يطلبوها من بناته . فقد كانوا يعرفون أنه أفنى ثروته الكبيرة على المحتاجين وفى وجوه البر . وهذا الشيخ هو الشيخ سليمان الفيومى .

وكما أكرم الناس الشيخ سليمان الفيومى بعد موته ، بأن تركوا ديونهم عليه ، كانوا يكرمون أمثاله من العلماء الفقراء فى حياتهم ، بسد حاجتهم ، مع الكرامة والصون . فمن ذلك ما أشرنا إليه من قبل ، ومن ذلك ما ذكره الجبرتى عن الشيخ أحمد الطهطاوى . فإنه لما سكن حى الصليبية ، احتفى به أهله ،

وأسكنوه داراً تليق به ، وبعثوا إليه بالهدايا الكثيرة والصلات ، وبالغوا في إكرامه .

وكان الشيخ محمد البليدى الأندلسى ، يلقى دروس الفقه والحديث فى مسجد الحسين ، فتعلق به الناس ، وخاصة المغاربة ، واشتروا له داراً فى درب الشمسى ، وقسطوا ثمنها على أنفسهم .

وذهب الشيخ عبد الكريم المسيرى ، المعروف بالزيات ، إلى الصعيد واعظا ، فلما وصل إلى بهجورة ، تلقاه أهلها وأكرموه ، واستبقوه عندهم ، وخصصوا له منزلا واسعا أقاموا فيه الخدم يقومون على شأنه . وأقطعوه جانبا من أرضهم فملكوه له . وأقام بينهم دهرا طويلا حتى أصبح ذا ثراء عريض . يملك الزروع ، والعقارات ، والمواشى ، والعبيد .

علماء يفتنون بالدنيا

ولكن ، إلى جانب هذه الصورة المشرفة ، التى رسمها الجبرتى لبعض العلماء ٠ نجد وجهاً آخر لهذه الصورة . صور الجبرتى فيها فريقاً منهم ، فإذاهم ، ظلمة ، جماعون للمال ، مفتونون بالدنيا أشد فتنة ، يقسون على الفلاحين — وهم منهم — قسوة بالغة ٠ بل كان بعضهم أشد قسوة عليهم من الأتراك ، والمماليك ، والفرنسيين. يتاجرون بالفتوى ، ويسارعون إلى مرضاة كل جبار ، ولو غضب الله عليهم

وقد ألهمت هذه التجارة بالفتوى شاعر العصر ، الشيخ حسن الحجازى قصيدة طويلة طريفة . فقد تنازع فريق من المماليك ، ووقعت بينهم حرب طويلة قاسية ، واستطاع كل فريق منهم أن يحصل على فتوى من العلماء بأنه على حق ...! وأنه ، كما أفتى العلماء، يجوز له أن يقاتل الفريق الآخر ٠ وفى هذه القصيدة الطويلة الطريفة يقول الشيخ الحجازى .

والعلما ، أهل الضلال والردى ، لهـــم أباحوا كل ما لا يحمد

أما جمع المال والحرص عليه ، فقد روى الجبرتى أن الشيخ محمد شنن المالكى شيخ الأزهر ، كان أغنى أهل زمانه ٠ وأنه لما مات فى سنة ١١٣٣ ٠ ترك لابنه موسى ، من الذهب البندقى وحده ، أربعين ألفا «خلاف الجنزرلى ، والطولى ، وأنواع الفضة والأملاك ، والضياع ، والوظائف ، والجماكى ، والرزق ، والأطيان ، وغير ذلك » ثم يقول الجبرتى : إن ابنه هذا أتلف جميع ماتركه الشيخ ٠ ثم مات مدينا ٠

وكان الشيخ عبدالله الشبراوى ، شيخ الأزهر أيضاً، واسع الثراء ، بنى دارا عظيمة على بركة الأزبكية ، مسكن الأمراء وأهل الثراء فى ذلك الوقت ، وأنفق عليها أموالا عظيمة . وكان يجمع فيها التحف النادرة والكتب الحسنة الخط ، ويعنى بتجليدها وزخرفتها .

وكان لمطبخ ولده ، عامر ، رأسان من الغنم السمينة ، يذبحان فى كل يوم .

وروى الجبرتى : أن الشيخ عبد الباسط السنديونى ، وكان عالما شديد الذكاء قوي الحافظة ، نازع امرأة عجوزا على فدان ونصف فدان من الأرض ، وظل هذا النزاع سنين طويلة ، ولقى فيه الشيخ مهانة كبيرة . حتى قال له العرومى مرة : والله لو كان هذا الفدان ونصف لى فى الجنة ، ونازعتنى عليه هذه العجوز ، لتركته لها . ولكن الشيخ عبد الباسط لم يترك المرأة العجوز ، وظل فى نزاعه معها حتى مات. ثم يتبع الجبرتى هذه القصة بقوله : إن الشيخ فعل « غير ذلك أمورا يستحى من ذكرها فى حق مثله » .

الشيخ الشرقاوى

وكان الشيخ عبد الله الشرقاوى من أعظم علماء عصره . تولى مشيخة الأزهر واختاره نابليون رئيساً للديوان الكبير الذى أنشأه ليعاونه فى حكم البلاد . ولكنه كان فى بداية أمره فقيرا جدا ، يواسيه إخوانه ، ويرسلون إليه صحائف الطعام أو يدعونه إلى طعامهم ، ولا يطبخ فى داره إلا نادرا . وكان يذهب إلى بيوت الناس ، وإلى المآتم ، يقرأ القرآن ، ويقيم الأذكار . ثم يأكل مع إخوانه المقرئين قصعة الثريد . وفى آخر الليل يأخذ أجره القليل يقتسمه معهم ، فلما أقبلت عليه الدنيا ، وتولى مشيخة الأزهر ، زاد فى تكبير عمامته وتعظيمها ، حتى صار يضرب بعظمها المثل ، على حد تعبير الجبرتى ، وكان الشيخ مصطفى الصاوى ينازعه المشيخة ، ثم انتهى أمرها إليه ؛ على أن تبقى للصاوى وظيفة التدريس بالمدرسة الصلاحية ، المجاورة لضريح الإمام الشافعى . ولكن الشرقاوى طمع ، بعد قليل فى مرتب هذه المدرسة ، فذهب يسعى عند أنصاره من الشيوخ والأمراء فى أن ينالها ، ثم ذهب يوما إلى هذه المدرسة وألقى فيها درساً . واستعان الصاوى بكتخدا إبراهيم بك الكبير . وسامحه فى دين كان له عنده . وطال النزاع واشتد أمره بين الشيخين . وكانت الغلبة للصاوى . فبقى فى المدرسة حتى مات ، ثم أخذها الشرقاوى . وطلب من خدم الضريح مايستحقه من مال ، وشاحنهم فى ذلك ،

وسبهم . فتعصبوا عليه ، وشكوه للوالى ، وأوشك أن يعزل من مشيخة الأزهر بسبب ذلك . ثم وقف عن عمله أياما وعفا عنه الوالى على أن يترك المدرسة الصلاحية (ومما ذكره الجبرتى عن الشيخ الشرقاوى : أنه حصل له ، فى شبابه ، اختلال فى عقله . وأنه بقى أياما فى مستشفى الأمراض العقلية)

ولما اختاره الفرنسيون رئيساً للديوان كان يشتغل بالوساطات والشفاعات لديهم وينال فى ذلك أجرا من أصحاب الحاجات . واستولى ، بما كان له من جاه فى ذلك الوقت ، على ثروات كثيرة هاجر أصحابها ، أوقتلوا أو اختفوا . واتسعت عليه الدنيا ، وكانت زوج الشيخ ، ابنة الشيخ على الزعفرانى ، عندما تزوجها ، فقيرة مثله . فلما كثر ماله ، ترك لها تدبيره . فاشترت له الأملاك ، والعقارات والحوانيت ، والحمامات . مما يغلّ فى كل شهر قدرا كبيرا من المال .

ولما بنى الشيخ الشرقاوى رواقا خاصاً لأهل الشرقية فى الأزهر ، نقل إليه أحجارا وعمودا من مسجد الظاهر بيبرس ، خارج الحسينية . وكان يدخل فى نظارته وقف فيه خانقاه قديمة أنشأتها الخاتون طغاى الناصرية — زوج السلطان الناصر قلاوون — فلما بنى الفرنسيون قلاعهم خارج القاهرة بعد ثورة أهلها ، هدموا هذه الخانقاه ، وكانت فى الصحراء ، خارج المنطقة المعروفة بالدراسة ، قريباً من الأزهر ، فى الطريق إلى القرافة .

ولما خرج الفرنسيون من القاهرة بعد تخريب هذه الخانقاه ، ضمها الشيخ إلى أملاكه ، وبنى مكانها زاوية ، ومدفنا له . وإلى جوارها أقام قصرا كبيرا ، يحتوى على أروقة ومساكن ومطبخ . وكانت إلى جوار الخانقاه ساقية فجعلها بئرا لقصره .

وقد ذكر الجبرتى أنه زار هذه الخانقاه فوجد بها ، روحانية لطيفة . وعددا من الناس يقيم فيها . عدا القائمين بخدمتها . وكان ذلك قبل أن يستولى الشيخ عليها ويضمها إلى أملاكه .

فهو يقول فى ترجمة الشيخ أحمد العريشى ، مثلا ، إنه كان يتدخل فى القضايا والدعاوى ، واشتهر فى ذلك أمره . فاشترى داراً واسعة ، وتجمل بالملابس ، وركب البغال ، وصار له أتباع وخدم . وكان ، مع ذلك ، قاضيا ومفتيا .

وكان الشيخ محمد الدواخلى عالما كبيرا ، وله نسب شريف ، من جهة أمه ، وتولى ، فى أيام محمد على ، نقابة الأشراف . ومع ذلك يصفه الجبرتى بأنه كان يتدخل فى القضايا ، وخاصة أيام الفرنسيين ، وكان يأخذ الأراضى التزاما ، ويؤجرها للفلاحين ، وأدخل فى ملكه كثيرا منها . وجمع من هذا وذاك ثروة طائلة .

وقد أسهب الجبرتى فى ذكر « فتنة » — على حد تعبيره — وقعت فى الأزهر وكان سببها النزاع بين الشيخ أحمد النفراوى ، والشيخ عبد الباقى القلينى على المشيخة . وقد بلغ النزاع بين الشيخين وأنصارهما إلى حد استعمال البنادق فى داخل الأزهر . وقتل بالرصاص من جماعة النفراوى عشرة . عدا الجرحى ، وأغلقت أبواب الأزهر ، ومنعت الصلاة فيه ، وكسرت الخزائن ، وحطمت القناديل . ولم تنته الفتنة إلا بالحجر على النفراوى وأمره بأن يلزم بيته . ونفى الشيخ محمد شنن ، الذى تولى مشيخة الأزهر فيما بعد ، إلى بلده . والقبض على اثنى عشر عالما وحبسهم فى العرقانة ، أى السجن .

ومن العلماء من كان يبيع العلم . كالشيخ حسين المحلى . كان يكتب مؤلفاته بخطه ، ويبيعها لمن يرغب . ويأخذ من طلبته أجرا على تعليمهم . فإذا طلب منه أحدهم أن يقرأ له كتابا معينا ، ساومه فى ذلك وتمنع عليه قائلا له : إنى لا أبذل العلم رخيصا . ولا يقبل منه مايعرضه من مال إلا بعد شدة وعناء وجهد .

ومن الملاحظات الطريفة التى سجلها الجبرتى : أن محمد بك أبو الذهب بعد أن تم بناء مسجده المواجه للأزهر ، اختار ثلاثة من العلماء للتدريس فيه ، والفتوى . وفرض لهم مرتبا يكفيهم ، وشرط عليهم ألا يقبلوا الرشوة ...

الشيخ محمد المهدى

ومن أعظم العلماء الذين ترجم لهم الجبرتى . الشيخ محمد المهدى . كان أبوه صيرفيا يسمى أبيفانوس من حى الصيادين فى الإسكندرية . وجده لأمه يسمى البطاس وكان قبطيا فأسلم ، وهو دون البلوغ ، على يد الشيخ الحفنى الذى احتضنه ورباه فى بيته مع أولاده وعنى به عناية كبيرة . ثم اشتغل بالعلم حتى برّز فيه . ثم أقبلت عليه الدنيا بعد أن تزوج امرأة ثرية . والتصق بالوالى حسن باشا الجزائرلى فأنعم عليه بالخلع والكساوى، ورتب له الوظائف فى الضربخانة، والسلخانة والجوالى[1] . ووقع بمصر طاعون . فكان يضم إلى ثروته تركات من يشاء من الموتى . وزاد ماله زيادة كبيرة . ولكن شهوته للمال كانت تزيد أيضاً . فتاجر وشارك من يتاجر له ، فى القطن ، والكتان ، والأرز . وغير ذلك . وأخذ بلدة « شابور » فى البحيرة التزاما . كما أخذ بلاداً غيرها فى الجيزة ، والغربية ، والمنوفية ، وبنى داراً عظيمة بالأزبكية بناحية الرويعى . ولما قدم نابليون إلى مصر تقدم إليه ولاطفه ، وسايره . فأحبه الفرنسيون ، وقبلوا شفاعته ، وسارعوا مدة إقامتهم فى مصر كلها إلى تلبية رغباته . واختاروه رئيسا إداريا للديوان . ونال فى أيامهم أموالا عظيمة .

وكان إذا سار مشى حوله وأمامه الحراس ، بأيديهم العصى ، يفسحون له الطريق . وأقامه الفرنسيون جابيا لهم فى بلاد كثيرة يجمع لهم منها الضرائب . فيأتى له الفلاحون بالهدايا ، من الغنم ، والسمن ، والعسل وغيرها . فلا يمتنع ، مع ذلك ، من حبسهم وضربهم . وصار له أتباع وأعوان وخدم . ولما خرج الفرنسيون من مصر . نال المكانة نفسها والصدارة ، فى أيام العثمانيين . واستولى على قلوبهم بحيلته . فأبقوا له أراضيه ، والتزاماته ، وزادوه عليها . وأكثر من الزوجات ، وكلما كبر له ولد أسرع بتزويجه ، فتتقاطر عليه الهدايا من المسلمين والنصارى . واشترى داراً كبيرة بناحية الموسكى على الخليج ، وكانت بها قاعات عظيمة ، جدرانها وأرضها مكسوة بالرخام الملون والقيشانى ، وتطل على

---

(١) الجزية التى كانت تفرض على النصارى واليهود .

بستان عظيم . ولما اشترى هذه الدار ، وكان أصحابها عتقاء بعض الأمراء ، دفع لهم بعض ثمنها وأخـذ منهم وثيقة الشراء وانتقل إليها . وكلما طالبوه بباقى الثمن ماطلهم . ثم تركهم وسافر إلى البلاد التى نالها بالالتزام ، أو ملكها . وظل غائبا عن القاهرة خمس سنين ، مات فيها أصحاب الدار ، وبقيت منهم امرأة ظلت تراسله وترجوه ، وهو لا يصغى إليها . فلما عاد إلى القاهرة عرضت العجوز أمرها على نائب الوالى . وبذلك استطاعت أن تنال بعض حقها .

ثم اشترى ولد له اسمه أمين ، أرضا مجاورة لبيت أبيه هذا بنى عليها داراً كبيرة . بقى العمال يصنعون رخامها أربع سنين .

ولـما وقعت الجفوة بين السيد عمر مكرم ، ومحمد على . وجد الشيخ المهدى فى ذلك فرصة للتخلص من السيد . فسعى ، ومعه علماء آخرون . وشهدوا فى عمر مكرم شهادة الزور ، حتى نفاه محمد على إلى طنطا . ثم طلب من محمد على ثمن خيانته لعمر مكرم ، فدفع له ألف جنيه . وفى اليوم الذى خرج فيه السيد عمر منفيا ، طلب المهدى من محمد على نظارة وقفى سنان باشا ، وضريح الإمام الشافعى ، وكانا تحت نظر السيد عمر ، فأعطاها له محمد على .

وكان دائم الحركة ، لايبيت فى بيته إلا مرة أو مرتين فى الأسبوع ، ويقول فى ذلك : أنا بيتى ظهر بغلتى . فإذا أراد المبيت ، نام فى أى مكان ، ولو على حصير . وكثيرا ما كان يأكل الجبن الحلوم ، والفسيخ ، أو البطارخ . مع هذه الأموال العظيمة التى جمعها .

والشيخ المهدى هو الذى كان يكتب منشورات نابليون التى كان يذيعها على المصريين باللغة العربية يدعوهم بهـا إلى مسايرته ، وطاعته . واختير سكرتيرا للدواوين الثلاثة التى أسسها الفرنسيون فى مصر .

ولما فرض الفرنسيون الضرائب الفادحة على أهل القاهرة عقابا على ثورتهم الثانية فى عهد قيادة الجنرال كليبر ، أعفوا من الضريبة كلا من الشرقاوى ، وخليل البكرى . لأن الشرقاوى ، كما يقول الجبرتى ، كان « يستعمل المداهنة ، وينافق الطرفين ، بصناعته وعادته » . ولعل ذلك هو الذى جعل نابليون يثنى

عليه ، ويمدحه ، فيقول إنه : « أذكى علماء الأزهر ، وأفصحهم لسانا ، وأكثرهم علما ، وأصغرهم سناً[١] » .

ومن غريب ما ذكره الجبرتى عن الشيخ المهدى ، أنه ، بعد أن أفرج الفرنسيون عنه ، وكانوا حبسوه فى بعض فتن القاهرة ، نقل متاعه من بيته بالخرنفش . ثم حرق البيت ليوهم الفرنسيين أنه احترق فى الثورة ، وأنه لم يبق له شىء .

وقد قبل نابليون دعوة الشيخ المهدى لزيارته فى بيته . وحضر ومعه كبار قواده ورجاله حفلا أقامه الشيخ لزفاف ابنه .

وكانت توجد فى ذلك الوقت امرأة تسمى السحراوية ، كانت زوجا لبعض الكبراء ، وورثت عنه مالا كثيرا . وهى عجوز . فسعت حتى تزوجت الشيخ سليمان الفيومى حماية لمالها ، ثم اشترت له جارية أعتقتها ، وزوجتها له ، ولم يدخل بها . ثم مات الشيخ الفيومى ، وترك هذه العجوز ، وزوجا أخرى ، وهذه الجارية التى تزوجها بعد العتق . وبعد قليل ماتت هذه السحراوية الغنية بلاوارث . فوضع الشيخ المهدى يده على جميع أموالها وجواريها والتزاماتها ، وزوّج الجارية ، التى كانت أعتقتها لتزوجها للفيومى ، لابنه عبد الهادى .

واشترى المهدى فى آخر عمره داراً فى الكعكيين ، ثم أخذ فى توسيعها وتجديدها ، وكانت إلى جوارها زاوية قديمة بها مدافن ، فهدمها وأدخلها فى داره ، وأخرج عظام الموتى من قبورهم فنقلها إلى قرافة المجاورين . وقد ذكر الجبرتى أنه سمع هذه الواقعة بنفسه من الشيخ المهدى . وبنى فى مكان الزاوية والقبور مساكن لزوجاته .

وقد تولى المهدى مشيخة الأزهر . ومات فى سن الخامسة والسبعين ولم يؤلف كتاباً ولا رسالة . فى فن من الفنون . على الرغم من ذكائه وحسن استعداده . وكان لا يواظب على إلقاء دروسه . لانشغاله بجمع المال ، وحبه للدنيا .

ومما سجله الجبرتى على العلماء ، من مظاهر فتنتهم بالدنيا ، وظلمهم للفلاحين :

---

(١) ص ٣٢٢ — ٣٢٣ من تاريخ الحركة القومية لعبد الرحمن الرافعى الجزء الأول .

أن محمداً عليا كان — فى أول أمره — سامح العلماء فى المغارم التى فرضها على الأراضى . ولكنهم كانوا يجمعون هذه المغارم من الفلاحين لأنفسهم .

وفى سنة ١٢٢٣ (١٨٠٨م) كان النيل منخفضاً جداً ، فطلب محمد على إلى العلماء الخروج إلى الصحراء لصلاة الاستسقاء ، والدعاء إلى الله أن يفيض لهم ماء النيل . فقال الشيخ الشرقاوى لمحمد على : ينبغى أن ترفقوا بالناس ، وأن ترفعوا عنهم الظلم ، حتى يقبل الله دعاءنا ويرحمنا . فقال له محمد على : أنا لست بظالم وحدى فإنكم أنتم أظلم منى . رفعت عنكم المغارم إكراما لكم ، ولكنكم تأخذونها من الفلاحين .

وخرج العلماء ، وأهل الأزهر ، والأطفال ، إلى مسجد عمرو بن العاص لصلاة الاستسقاء ، ولكن النيل فى اليوم التالى زاد انخفاضه . . . ! وعادوا مرة أخرى للصلاة والدعاء . وخرج معهم فى هذه المرة ، النصارى . فزاد الماء ، وفاض النيل كعادته . وقالت النصارى : إن النيل لم يفض إلا بخروجنا .

وقد رسم الجبرتى صورة قوية ، ولو أنها مؤلمة ، للعلماء ، بعد أن أعفاهم محمد على من ضرائب أطيانهم ، وكيف بلغ بهم حب المال ، واستحوذت عليهم الدنيا . وقد يكون الجبرتى قد قسا عليهم فى ذلك قسوة بالغة ، ولكنهم من غير شك ، يستحقون هذه القسوة .

فتنة المال

قال الجبرتى ماملخصه : إن مسامحة العلماء ، ومن يحتمى بهم ، جعلتهم يسرفون فى أخذ الجعالات ، والهدايا ؛ من أصحاب الأراضى ، ومن فلاحيهم ، نظير حمايتهم . وأكثروا من شراء الحصص من المحتاجين ، والمأزومين ، بأدْوَن قيمة . وتركوا مذاكرة العلم ومدارسته . وأصبح بيت أحدهم مثل بيت أمير من الأمراء ، يعجّ بالخدم ، والمقدمين ، والأعوان ، وفيه القيعان لحبس الفلاحين وضربهم بالكرابيج وتعذيبهم ، واتخذ العلماء الكتبة الأقباط لتحصيل أموالهم وتنميتها ، وإنذار الفلاحين ، واستعجالهم ، ومقاضاتهم ، وتهديدهم ، واتخذوا قطّاع الطريق جباة لأموالهم

وحماة لهم ، ورسلا إلى إقطاعياتهم . وتطاول بعضهم على بعض ، بالكراهية والحسد . فإذا اتخذوا مجالسهم فلاحديث لهم إلا الحصص ، والالتزام ، والأراضى ، وحساب الميرى ؛ والفائظ . وغير ذلك من الأمور الدنيوية . وأكثروا من مصادقة الأقباط ، وإقامة الولائم لهم ، لاستشارتهم ، والاستعانة بهم على زيادة الثروة . وزاد بينهم التحاسد والتنافر ، والتحاقد على الرياسة « والتكالب على سفاسف الأمور وحظوظ الأنفس على الأشياء الواهية ، مع ما جبلوا عليه من الشح ، والشكوى ، والاستجداء ، وفراغ الأعين . والتطلع للأكل فى ولائم الأغنياء ، والفقراء ، والمعاتبة عليها ، إن لم يدعوا إليها ، والتعريض بالطلب . وإظهار الاحتياج لكثرة العيال والأتباع ، واتساع الدائرة » .

فى مجلس اللهو

ثم وجه الجبرتى للعلماء لوما قاسيا ، لارتكابهم الأمور المخلة بالمروءة ، المسقطة للعدالة . كاجتماعهم لسماع الأغانى ، والملاهى ، والقيان ، وآلات الطرب . وتقديمهم « النقوط » لأرباب الخلاعة . حتى كان « الخلبوص » ينادى بين النساء والرجال . ويخاطب رئيسة المغنيات « ياستى حضرة شيخ الإسلام والمسلمين ، مفيد الطالبين الشيخ العلامة فلان ، منه كذا وكذا من العملة الذهب » وهم يتزاحمون على ذلك ويتفاخرون فيه ، ويتضاحكون فى مجالس اللهو بأصوات عالية وقهقهة تسمع من بعيد . ويتسابقون فى الهزليات ، والمضحكات ، والألفاظ الكناية « والتنكيت » حتى قلدهم أوباش الناس فى المحرمات ، التى كان واجبهم النهى عنها » .

مكر ووقيعة

أما وقيعة العلماء ، بعضهم ببعض ، ومكرهم السيء ، لإيقاع الأذى بالآخرين ، فقد ذكر الجبرتى منه أمراً عجيباً . وأبرز ما رواه من ذلك وقيعتهم بالسيد عمر مكرم عند محمد على ، ودسائسهم ضده . حتى كتبوا فيه « عريضة » تفننوا فيها بذكر دعاوى مكذوبة . وتهم مختلقة . لأنهم عرفوا أن محمدا عليا تغير على صديقه القديم

الذى كان يناديه بالوالد . والذى أتاح لمحمد حكم مصر ، ومكن له من ملكها .
ثم ضاق بنقده ومعارضته لما كان يقدم عليه من ظلم وقسوة . وقد نجح العلماء
فى وقيعتهم . فنفى السيد عمر ، بأمر محمد على ، إلى طنطا . وأسرع الشيوخ إلى محمد على ،
كل يطلب لنفسه مغنما ، جزاء هذه الوقيعة ، كما أشرنا لذلك من قبل . ولم يشذ
عنهم فى ذلك سوى الشيخ أحمد الطهطاوى . فقد أبى أن يوقع معهم على عريضة
الاتهام والزور لعمر مكرم . فكان جزاؤه الخلع من إفتاء الحنفية .

وكذلك أوقع العلماء بالشيخ الدواخلى . بعد أن اشترك معهم فى وقيعتهم ضد
السيد عمر . وكما نفى مكرم إلى طنطا ، نفى الدواخلى إلى دسوق .

وقد قسا الجبرتى على العلماء ، بسبب هذه الأمور قسوة بالغة . فأصبح يسميهم
« شيوخ الوقت » ويقول : إن هيبتهم زالت من النفوس ولم يبق لهم وقار .

ويدل على فقدان هذه الهيبة ماروواه الجبرتى : من أن إبراهيم بن محمد على ،
كان يحترم العلماء ويجلهم . كما كان أبوه من قبل يستشيرهم فى كثير من الأمر ،
ويعمل بمشورتهم . ولكن إبراهيم فقد احترامه للعلماء لما ظهر من أخلاقهم
وحقدهم ، وكراهة بعضهم لبعض . وكان محمد على ، وابنه ، فى غنية أيضاً عن تملق
العلماء بعد تثبيت الملك ، والانفراد بحكم مصر .

ويدل على فقدان هذه الهيبة أيضاً ماروواه الجبرتى : من أن العلماء ذهبوا لتحية
إبراهيم بعد عودته من حرب الوهابيين ، فلما أقبلوا عليه ، وهو جالس ، لم يقم لهم ،
ولم يرد عليهم السلام . فجلسوا وأخذوا يهنئونه ويحيونه ، وهو لا يجيبهم ،
ولا بالإشارة ، بل جعل يتشاغل عنهم بالحديث إلى شخص آخر .

كذلك يقول الجبرتى : إن « مشايخ الوقت » ذهبوا للسلام على محمد على ، بعد
عودته من سفره ، فلم يأذن لهم فى أن يقابلوه .

وقد بلغ الأمر أن ذهبوا إلى المعلم غالى ، وكان يجمع الضرائب لمحمد على ،
فحدثوه فى أمور من المال تخصهم ، فلم يستجب لهم . وقال : إن الباشا يسعى
لتخليص كعبتكم ، وقبر نبيكم . فيجب عليكم أن تساعدوه . يشير بذلك إلى حرب

الوهابيين فى الحجاز. وهؤلاء العلماء الذين امتهنهم محمد على، وابنه — بعد أن عرفاهم ولم تعد لهما حاجة فيهم — هم الذين استكتبهم محمد على شهادة يصفها الجبرتى بأنها شهادة زور. وذلك عندما جاء فرمان من الدولة بإخراج محمد على من مصر. فلجأ إلى العلماء يستكتبهم فقالوا له اكتب ماتشاء. ثم وقعوه أو بصموا عليه بأختامهم وأرسله إلى الآستانة. وكان سبباً فى تجديد ولايته على مصر.

والقضاة أيضا

وكما قسا الجبرتى على العلماء من أهل الأزهر هذه القسوة البالغة. كان قاسياً أيضاً على بعض القضاة الذين كانت توفدهم الدولة لقضاء مصر. فهو يقول عن بعضهم: إنه كان شديد الحب للمال، وكان يفرض لنفسه الضرائب على الخصومات والتركات. حتى كان بعض اليتامى من الورثة، لا يبقى لهم من مال مورثهم شىء، لأنه كان يستوفى ضرائبه الفادحة أولا. وكان يقدرها كما يشاء. وقال: إن الفرنسيين كان قضاؤهم خيرا من قضائه. ولكنه يرجع فساد القضاة أيضاً إلى فساد العلماء، حيث يقول إنهم — أى القضاة — كانوا يخشون صولة العلماء، عندما كانوا يصدعون بالحق، ولا يداهنون فيه. فلما فسد العلماء وافتتنوا بالدنيا، لم يخشهم القضاة. بل سلكوا سبيلهم.

وقد كانت للعلماء، ولأهل الرياسة منهم خاصة، أعمال وأخلاق، تجعل الجبرتى على كثير من الحق فى القسوة بهم، والعنف عليهم، والزراية بأمرهم وأخلاقهم.

فنحن نجد، غير ماروينا من أمثلة وصور، الشيخ الدواخلى، وكان كما رأينا عالما كبيرا، يصادق الفرنسيين ويتودد لهم، وينحاز إليهم ضد وطنه وأهل دينه. فلما قتل الفرنسيون الحاج مصطفى البشتيلى — وكان صهرا له — تلك القِتلة الفاحشة التى فصلنا أمرها فى موضعه[1] لم يجدوا له وارثاً. فسعى الشيخ سعيه عندهم حتى حاز لنفسه هذه الثروة، وكانت شيئاً عظيما.

(١) الجزء الثالث من الكتاب

ثم نجده ، بعد ذلك ، أو مع ذلك ، يجعل نفسه عيناً للعثمانيين على الفرنسيين وعلى المصريين . ينقل لهم الأخبار ، ويمدهم بما يحتاجونه من أنباء الحوادث والرجال ، يرسله لهم سرّاً ضد الفرنسيين ، وفى غفلة منهم .

مثل لعلماء العصر

هذه خلاصة موجزة ، ولكنها دقيقة صادقة ، عن علماء ذلك العصر الذى أرّخه الجبرتى . ونحن نجد من بين هؤلاء العلماء الذين قسا عليهم قسوته البالغة . أسماء كبار العلماء الذين كانوا يتمتعون بالجاه ، والمكانة الرسمية ، والشعبية أيضاً . فى تلك الأيام . من أمثال الشرقاوى ، والمهدى ، والبكرى ، والسادات .

وهذا الشيخ الأخير سنفرد له ترجمة خاصة صغيرة . لسببين : الأول غرابة هذه الحياة التى كان يعيشها هذا الشيخ . وبُعد أهدافه عن الغايات والأهداف التى يسعى إليها العلماء عادة . والثانى أن الترجمة للشيخ السادات تصور لنا ، إلى حد بعيد ، حياة كبار العلماء الرسميين فى فترة من تاريخ مصر . وأعتقد أن هذه الصورة ستبدو غريبة لدى كثيرين من الناس ، وبعيدة عما كانت تصوره لهم أمانيهم ومعتقداتهم التقليدية فى العلماء . وقد تحدثنا من قبل حديثاً طيباً عن السادات . وكأن الشيخ كان ذا شخصية مزدوجة ، فيها من الخير شىء كثير . ومن غيره أيضاً شىء كثير .

هو شمس الدين ، محمد أبو الأنوار ابن عبد الرحمن . كان كريم الأب والأم ، فأبوه الخواجا عبد الرحمن المعروف بابن عارفين ، وأمه السيدة صفية بنت الأستاذ جمال الدين يوسف بن وفا . تربى مع أخيه الأكبر ، يوسف ، فى سيادة ، وصيانة ، وحشمة . وتلقى العلم على كبار الشيوخ فى عصره ، وسلك طريق أسلافه السادات ، على خاله ، وعلى الشيخ عبد السلام العفيفى ، وغيرهما ، وحج فى سنة ١١٧٩ . وكان قد سعى لمشيخة السادات ، فلم ينلها ، فأراد أن يسرّى عن نفسه بالحج . وكان مما فعله ، لينال مشيخة السادات ، أن تزوج والدة شيخ هذه

السجادة ، الشيخ محمد أبى هادى ، وكان قد توفى ، ونازعه عليها من هو أولى بها منه . ولما توفى هذا المنازع ، ركب فى صباح اليوم الذى مات فى ليلته ، قاصدا على بك الكبير ، فخلع عليه الخلعة . وقد نال الشيخ السادات هذه المشيخة ، وأبعد عنها أخاه ، مع أنه أكبر منه ، بالحيلة والمخادعة ، والتحبب إلى أرباب المظاهر ، واستجلاب الخواطر .

وبعد توليه المشيخة ، كان يشتغل قليلا بالمذاكرة ومجالسة العلماء . ولكن شغله الأكبر كان فى تحصيل المال . وإتقان الأساليب التى ينمى بها أمواله . وكان ، مع كثرة ماله ، يبخل بدفع ما عليه ، مهما كان قليلا ، حتى الضرائب المفروضة .

ولما انقرضت طبقة الشيوخ الذين يهابهم ، التف حوله الباقون وبالغوا فى مدحه ، وتملقه ، وتقبيل يديه ، وإنشاء القصائد فى مناقبه ، ليستفيدوا من جاهه ولتكون لهم بذلك قربى عند أصدقائه من أصحاب النفوذ . وقد زاد ذلك من كبريائه وغروره . حتى بلغ به الأمر إلى حد أنه لا يقوم لقدومهم ، وإذا اقترب أحدهم منه قدر ذراعين ، ضم ثيابه تأدبا ، ثم حبا على ركبتيه ، ومد يمناه ليقبل يد الشيخ ، أو طرف ثوبه . هؤلاء كبار الشيوخ ، أما غيرهم فإنهم لا يطمعون فى تقبيل يده ، بل يقبلون طرف ثوبه . فإذا انصرف الناس عنه ، غسل يديه بالماء والصابون بعد ملامستها أيديهم وشفاههم ، من أثر التقبيل . وكان يقتصر فى رد التحيات المتعالية له على قوله : «خير ، خير» وينقضى مجلسه كله ، مهما طال ، فى الحديث عن أهل مصر وذمهم . وغيبة أهل العصر . وتستريح نفسه لذلك كثيراً .

واستطاع بوساطة الوالى محمد باشا العزّتى ، أن ينال قدراً من المال ، أمرت له به الدولة من خزينة مصر ، لينفقه فى إصلاح بعض زاويا أسلافه ، فلما شرع فى عمارتها . أدخل فيها قبوراً ومدافن لم تكن منها ، وبالغ فى زخرفتها ونقشها بالذهب ، وأنواع الرخام الملون ، والأعمدة الفاخرة ، وأنشأ حولها مساكن ومخادع ، وقصرا لجلوسه ، ومكانا لإقامة حريمه . وبعد ذلك أرسل الشيخ السندوبى إلى دار الخلافة ليرفع عنه الضرائب المفروضة على بلدة « زفتا » وغيرها

مما كان يملكه ، فرفعت عنها . وزاد هو فى الضرائب التى كان يتقاضاها من فلاحيه ، وكان يسجنهم ، ويضربهم بالكرباج ، إذا لم يوفوا ما فرضه عليهم .

واتفق مع السيد محمد البكرى ، على أن يترك له نظارة المشهد الحسينى على أن يترك للبكرى نظارة الإمام الشافعى . فلما سلمه البكرى سجلات النظارة الأولى واستولى عليها فعلا ، نكث ولم يسلمه الثانية ، واستبقى تحت نظارته النظارتين . ! بل طمع فى غيرهما بمساعدة أصدقائه من الأمراء ، فنال نظارة ضريحى السيدة زينب ، والسيدة نفيسة وغيرهما ، من الأضرحة الكثيرة الإيراد .

وكان يحاسب خدم هذه الأضرحة ، ويناكدهم على النذور مناكدة شديدة شاقة ، ويضربهم بالجريد على أرجلهم . وضرب كبيرا منهم كان محترما ، مهيبا ، واستولى على بيته قهرا ، وهدمه ، وبنى مكانه بيتاله . لذلك خشوا بأسه جميعاً ، وخافوا من بطشه فكانوا يسلمون إليه كل إيراد الأضرحة ، من النذور ، والشموع ، والأغنام ، والعجول ، حتى « كان يأخذ المال من الفقير المعدم ، وكسرة الخبز الناشفة من المحتاج » .

واستطاع أن يصل إلى شهود القضاء ليؤثر عليهم فى الشهادة عن الحجج التى تؤول الأوقاف فيها إلى الأضرحة التى يتنظر عليها . وكان يضرب بعض الشهود ، ويجبر بعض مستحقى الأوقاف على مصالحته بأموال يدفعونها إليه ليمكنهم من حقوقهم . وقد أبطل بعض حجج الأوقاف ، ومحاها من سجل القاضى ، حتى يصالحه أصحابها على ما يطلب .

وبلغ من تعاظمه ، وخشية الناس من سطوته ، أن خطيب المسجد الحسينى كان يبالغ فى إطرائه ، وذكر مناقبه ، والتوسل بجاهه عند الله ، ويذكر ذلك فى خطبة الجمعة ، جاعلا من الشيخ وسيلة إلى الله ، ليفرج به الكروب ، ويغفر الذنوب . حتى قال بعض المصلين : لم يبق إلا أن يقول الخطيب اركعوا واسجدوا ، واعبدوا الشيخ السادات ... !

وقد سعى ، لينال نقابة الأشراف بغير حق ، بالوقيعة ، والكذب ، بين

محمد على ، والسيد عمر مكرم ، وحرضه على إخراجه من مصر . ونال بذلك بغيته . وكان قبل ذلك حصل على فرمان من الدولة بتوليته هذه النقابة ، وأخفى هـذا الفرمان حتى مات النقيب ، السيد محمد البـكرى ، فأبرز الفرمان . ولـكن الأشراف لم يرضوا بنقابته ، ولم يمكنوه .

وأنشأ دارا عظيمة له ، جعل فيها رواشن ، وسواقى ، وبستانا عامرا بأنواع الشجر ، وأدخل فيه بيوتا لبعض الأمراء ، كانت متخربة . وكانت لبعض أبناء البـكرى دار عظيمة ، وبستان متسع ، فقهرهم على بيع البستان له بثمن بخس ، وأضافه إلى بستانه . ثم أقام حائطا كبيرا حجب النور والهواء عن بيت البكرى ، حتى باع له البيت أيضا ، بثمن قليل .

ويقول الجبرتى بعد ذلك : إن « الشيخ السادات أفنى غالب عمره فى تحصيل الدنيا ، وتنظيم المعاش والرفاهية ، واقتناء كل مرغوب للنفس ، وشراء الجوارى والمماليك ، والعبيد ، والحبوس ، والخصيان ، والتأنق فى المآكل والمشارب والملابس . واستخراج الأدهان والعطريات ، والمركبات المفرحة والمنعشة للقوة . وتعاظم فى نفسه ، وتعالى على أبناء جنسه ، حتى إنه ترفع عن لبس التاج ، وحضور ليلة المعراج فى الأزهر ، وكذا الحضور فى مجلس نقابتهم . وصار يلبس قاووقا بعمامة خضراء ، تشبها بأكابر الأمراء ، وبعدا عن التشبه بالمتعممين والفقهاء » ثم يقول : إنه « كلما طال عمره ، زاد كبره ، وقلّ بره ، وكثر شره . ولما كبرت سـنه ، تعاظم عن القيـام لأعاظم الناس ، ولازم استعمال المنعشات ، والمركبات المفرحة » .

وفى اليوم الثامن عشر من ربيع الأول سنة ١٢٢٨ — مارس ١٨١٣ — مات بعد مرض غير قصير . وأوصى ببعض أمواله لخاصته . وأن يغسل على سريره الهندى الذى كان ينام عليه . وأرسل خبر موته إلى محمد على ، وكان فى الفيوم ، فأمر بأن تقفل خزائنه . وبيوته ، حتى يعود . وأن يقبض على كاتب حساباته ، عبد القدوس القبطى . وأسرع محمد على بالعودة إلى مصر . فذهب إليه العلماء متشفعين بحرمة بيوتهم ، وأن العادة لم تجر بمصادرة أموالهم

فهم أهل للتكريم والرعاية . ولكن محمدا عليا راوغهم أياما ، ثم قال لهم .
إن الشيخ كان ، كما تعرفون ، طماعا ، جماعا للمال . وكان لايحب أهله ،
ولا يخصهم بشيء وكتب ماتركه ، وهو شيء كثير جداً ، لزوجه . وهى جارية
اشتراها بثمن قليل ، ولم يكتب شيئاً لأولاد أخيه . وخزانة الدولة أحق
بهذا المال .

ثم انتهى الأمر بأن صالحت زوج الشيخ على تركته . بأن دفعت لمحمد على
ألف كيس وخمسة وخمسين[1] . وترك لها محمد على ، مابقى من تركته .

ولكنا نجد بعد هذه الصورة البعيدة عن صفات العلماء ، صورة أخرى من
حياة الشيخ هى موقفه من ثورات القاهرة ضد نابليون . وهى ، كما تراها فى مكانها ،
كفيلة بأن تشرفه . وأن تغفر له شيئاً من هذه السيئات التى أجملنا ذكرها هنا .
كما نجد فى مواضع أخرى مواقف له فيها شجاعة فى الحق وبأس .

مثل كريم للعلماء

ولعل من الخير ، وقد أوردنا هذه الصورة من حياة العلماء الرسميين فى ذلك
العهد ، بترجمة الشيخ السادات ، أن نورد صورة أخرى كريمة ، مشرفة لعالم
كبير من علماء ذلك العصر . لم يتاجر ، ولم يقض حوائج الناس بالرشوة ، ولم
يزور فى الأقضية وحجج الأوقاف ، ولم يقتن مالا ولا أرضا ولابيتا ، ولم يأكل
حقوق الضعفاء من خدم المساجد ، ولم يجعل من بيته دارا لتعذيب الفلاحين
وجلدهم حتى ينال منهم المال ، حلالا وغير حلال ، ولم يسع إلى الحكام لينال
منهم التزاما ، أو ليعفى من ضريبة . بل كان ، كما ترى من ترجمته ، مثلا كريما
للعالم الورع ، المتدين ، الوقور ، الذى يذكر الله ويخشاه .

الشيخ محمد الحفنى ، أو الحفناوى ، أوحد أهل زمانه علما وعملا ، شريف
ينتهى نسبه ، من جهة أمه ، إلى الإمام الحسين . ولد فى سنة ١١٠٠ فى بلدة حفنا ،

---

(١) نحو خمسين ألف جنيه

من أعمال بلبيس بالشرقية . وحفظ بعض القرآن فى قريته ، كما يحفظه أمثاله ، ثم قدم القاهرة ، فأشار بعض الشيوخ على أبيه أن يبقيه فيها ، فأتم بها حفظ القرآن، ثم اشتغل بالعلم ، وتلقاه على كبار علماء عصره .

وجلس بعد ذلك للتدريس ، فتزاحم عليه المستفيدون والطلبة . وكان فى ضيق من العيش . فاشترى دواة ، وأقلاما ، وأوراقا . واشتغل بنسخ الكتب . فشق عليه ذلك ، لأنه صرفه عن العلم والإفادة . واتصل خبر ذلك برجل كريم ، محب للعلم . فبينما الشيخ قد فرغ من درسه وهم بأن يغادر مكانه ، ناداه رجل وطلب أن يختلى به . ثم سار معه حتى دخل المدرسة العينية . ثم جلسا ، فأخرج الرجل محرمة ملأى بالدراهم وقال للشيخ : ياسيدى إن فلانا يسلم عليك ، وقد بعث لك معى بهذه الدراهم ، ويريد أن يحظى بقبولها . فأخذها منه وفتحها ، وملأ كفه من الدراهم يريد أن يعطيها لهذا الرسول فامتنع ، وحلف لا يأخذ منها شيئاً .

وذهب الشيخ إلى بيته، فكسر الأقلام، والدواة، وتفرغ للعلم، وإلقاء الدروس . وقد صرفه ذلك عن التأليف ، فلم يكثر منه . ثم مال إلى التصوف ، فتلقى على السيد الصديقى البكرى أسرار الطريقة الخلوتية . وصار من أقطابها الذين يقصدهم الناس من مصر وأقطار الأرض . وهادته الملوك ، وذهب إليه الأمير والصعلوك . وصار له ، فى كثير من قرى مصر ، نقيب وخليفة ومريدون وأتباع ، وأسلم على يديه كثير من الناس . وسافر إلى بيت المقدس فأقام بها أربعة شهور ، ملازما شيخه البكرى . واختير الشيخ الحفنى ، عضوا فى ديوان الحكومة . فكان فيه مدافعاً عن حقوق الشعب ، قوياً فى معارضته للأمراء ، والولاة . وفى مقاومة ما لا يعتقده خيراً ولا صواباً من التصرفات ، والقرارات ، والآراء .

وكانت للشيخ الحفنى مهابة عظيمة ، لا يستطيع كثير من جلسائه أن يتوجه إليه بسؤال ، لمهابته وجلالته . وكانت على إحدى عينيه نقطة ، ومع ذلك فإن أكثر الناس لم يدركوا ذلك ، لأنهم يغضون الطرف ، عند النظر إلى وجهه .

(وكان كرمه فائق الحد ، ليس للدنيا عنده قدر، ولا قيمة . لو سأله إنسان أعز شيء عنده ، أسرع فأعطاه له ، ويجد فى ذلك سروراً، وانشراحاً . له صدقات،)

ظاهرة وخفية . وراتب بيته من الخبز ، فى كل يوم ، نحو إردب ، وطاحون البيت دائم الطحن ليلا ونهارا ، وكذلك مدقّات البن والسكر . يجتمع على مائدته الخمسون ، والستون ، وينفق على بيوت أتباعه والمنتسبين إليه « وكل من طلب شيئاً من أمور الدنيا ، أو الآخرة ، وجده عنده » .

كما كان كريم الخلق ، حليما ، جميل السجايا ، يصغى لكل متكلم ، ولو تكلم بالخزعبلات . مظهراً له سروره ومحبته .

أما شجاعته فى الحق ، وجرأته على أصحاب القوة والجاه والنفوذ . فقد روينا طرفا منها أول هذا الفصل . كما فصل الجبرتى كثيراً منها فى مواضع متفرقة كثيرة . حتى قال راغب باشا ، أحد ولاة مصر : إن الشيخ الحفنى سقف على أهل مصر ، يمنع عنهم نزول البلاء . وكان ، كما يقول الجبرتى : لا يتم أمر من أمور الدولة وغيرها إلا باطلاعه ، وإذنه .

وكان فى كل ذلك ، يقف دائما إلى جانب الحق ، ناصراً للشعب على حكامه . منصفاً للمظلوم من ظالمه . معيناً للضعيف . وقد تولى مشيخة الأزهر بعد الشيخ الشبراوى الذى مات فى ذى الحجة سنة ١١٧١ .

وكان إلى علمه وتصوفه ، وزهده ، وكرمه ، ظريفاً وشاعرا يقول الشعر ، والمواليا .

كان له رفيق شاعر ظريف ، اسمه الشيخ حسن شمه ، جلسا يوما فى متنزه ، وكان رفيقه يكتب ، فسأله الشيخ ماذا يكتب ..؟ فقرأ عليه هذا البيت من المواليا :

قالوا : تحب المدمس . . ؟ قلت بالزيت حار

والعيش الابيض ، تحبه ..؟ قلت : والكشكار

فضحك الشيخ وقال له : أما أنا فلا أحبه بالزيت حار ، بل بالسمن .

وأنشد :

قالوا تحب المدمس . . ؟ قلت بالمسلى

والبيض مشوى ، تحبه . . ؟ قلت والمقلى

وله أيضا هذه المواليا : —

بحياة ، ياليل ، قوامك ، وصوم الحر

تحجز لنا الفجر . دا ُفوت الرفاقة مرّ

لما يجى الفجر ، يصبح ركبهم منجر

أزداد لوعة ، ولا عمرى بقيت أنسر

وله أيضاً :

إن جدْت ، أو جرت ، أو صدّيت ، أو جافيت

أو حِلت ، أو ملت ، أو واصلت ، أو وافيت

أنت الحبيب الذى ، فى القلب ، قد حليت

وأنا ، على العهد ، ما خنتك ، ولا اختليت

وقوله :

خطر عليّا غزالى ، مرّ ما اتكلم . . .

فوّق جفونه ، وقلبى والحشا ، كلم

إيش كان يضرّه إذا ، بالراس ، لى سلم

حتى أسرْ مهجتى ، لولا السلام سلم

ومن شعره :

لو فتشوا قلبى لألفوا به سطرين ، قد خطا بلا كاتب

العلم والتوحيد فى جانب ، وحب آل البيت فى جانب

وهذان البيتان من شعره ، يمثلان حياته إلى حد كبير . فقد كان عالما كبيراً ، ومتصوفاً مؤمناً طاهر السريرة .

ومن شعره فى التصوف :

أأظما ، وأنت العذب ، فى كل منهل . . . ؟

وأظلم فى الدنيا ، وأنت نصيرى . . . ؟

خبير بضعفى ، راحم لشكايتى
قدير على تيسير كل عسير ....

وعارٌ على راعى الحمى ، وهو فى الحمى ،
إذا ضاع ، فى البيدا ، عقال بعير

وله هذان البيتان الرقيقان اللذان يفيضان يسرا ، وإيمانا ، ورضاً ، وصفاء ، وروحانية :

خبزٌ ، وماء ، وظل هو النعيم الأجل
جحدت نعمة ربى إن قلت : إنى مقل

وكان إلى ذلك ، عالما متبحراً فى علوم الفقه الشافعى ، والنحو ، والأصول ، والحديث ، والتوحيد .

وقد عمر الشيخ طويلا ، حيث توفى ظهر يوم السبت السابع والعشرين من ربيع الأول سنة ١١٨١ ودفن يوم الأحد . بعد أن صلى عليه فى الأزهر ، فى مشهد عظيم جداً . وكان يومُ وفاته يوم هول عظيم .

ويقول الجبرتى : إنه ، بعد وفاة الشيخ الحفنى ، ابتدأ نزول البلاء ، واختلال أحوال مصر ، لأنه لم يوجد ، بعده ، من يصدع بالحق ، ويأمر بالمعروف ، وينهى عن المنكر ، ويقيم الهدى .

وقد جعلت شدة الشيخ الحفنى على الأمراء ، والولاة ، ووقوفه فى وجههم . جعلت هذه الشدة الناس تشك فى أسباب موته . حيث ذكر الجبرتى ، فى أكثر من موضع ، أن الأمراء « أشغلوا الأستاذ وسموه . وعند ذلك لم يجدوا مانعاً ، ولا رادعا » . ويذكر الجبرتى ذلك بصيغة التشكيك . وقد وضع شيخان من شيوخ عصره كتابين فى سيرته ومناقبه . هما صديقه الشيخ حسن المكى ، المعروف بشمّه ، والشيخ محمد الدمهورى الهلباوى . وقيلت فيه مدائح كثيرة .

أزهرى يصف قومه

ولم يكن الجبرتى وحده الذى قسى هذه القسوة الشديدة ، التى أشرنا إليها من قبل ، على علماء عصره . فهذا شاعر كبير من شعراء العصر هو الشيخ حسن البدرى الحجازى — وهو أزهرى — يقول فى العلماء هذا الشعر : —

عن علماء عصرك لا تسألن فإن أحوالهم ظاهرة
نفعك من جانبهم ، منتف فى هذه الدنيا ، وفى الآخرة
قوم إذا لاح لهم مطمع تسارعوا ، كالأكلب العاقرة
والعمل الصالح ما بينهم ، همهم ، عن فعله ، فاترة
فجانباً حِد ، عنهم ، تسترح إذ قربهم صفقتك الخاسرة

ونحن نروى ، عن الجبرتى هذا الشعر ، كما هو ، لما فيه من رأى فى علماء ذلك العصر ، ولا نتعرض لقيمته ، ولا لوزنه أصحيح هو أم مكسور .

ويقول الحسن البدرى أيضاً فى أهل الأزهر : —

الجامع الأزهر ابتلاه رب ، له العز والوجود
بكل فظ ، وجحف ، وطرف عليك بالبشر ، لا يجود
قطعة صخر ، أليس فيه الثقل ، واليبس ، والجمود ؟
عمائماً كبّروا ، وكُمّاً . . . قد وسعوه ، لكى يسودوا
وتحت آباطهم روايا . . . تسعين كراسا ، او تزيد
بها يميلون حيث مالوا . . . لأجل مالٍ لهم تصيد
لولاهم مالت السوارى كل عمود له عمود
تزورهم شاع فى البرايا سيان الأحرار ، والعبيد
حتى غدا حرفة ونخرا ما عنه بد ، ولا محيد
صلوا ، وصاموا ، والليل قاموا والقلب ، عن كل ذا ، بعيد

وهناك شيخ للأزهر كان له طابع خاص ، وميل للتجديد ، هو الشيخ حسن العطار . وتجد ترجمته فى الجزء الخاص بالحياة الفكرية والاجتماعية[1] .

(١) صفحة ٤٨ — ٥٤ من الجزء الأول .

الثقافة والبيئة

وأما الأزهر ، كمعهد للعلم ، أو الثقافة ، أو المعرفة ، وكجماعة من الناس ، لها بيئتها الخاصة ، وحياتها الخاصة . ولها كذلك مكانها الخاص بين الناس . فقد أولاه الجبرتى عناية كبيرة . فوق هذه العناية التى أولاها لتراجم رجاله .

أما العلم ، والثقافة والمعرفة ، فنستطيع أن ندرك مكانها ، وقيمتها ، فى أزهر ذلك العصر ، من معرفة الكتب التى كانت تدرس وتتداول فيه ، إذ ذاك . ومن معرفة المؤلفات التى صدرت عن رجاله خلال هذه الفترة التى أرخها الجبرتى .

وهذه الكتب كلها ، والمؤلفات أيضاً . كانت من الكتب التقليدية . التى تلتزم التقليد . وتتسم بسمة التزمت ، وضيق الأفق . إلى جانب العناية باللفظ والاهتمام به أكثر من الاهتمام بالمعنى ، أو بالعلم ذاته . وكان أبرز ما تعنى به ، الإختصار . فهناك المتن . وهذا « المتن » الموجز له شرح ، والشرح له حاشية ، والحاشية عليها تقرير ، أو هامش . وكان العلم ، والبحث ، والتدريس ، والتقرير ، كل ذلك يدور حول ما فى هذه المتون والشروح والحواشى والهوامش ، ولا يمكن أن يتعداه إلى فكرة جديدة أو رأى أو بحث موضوعى . فإذا هبت على حياة مصر العقلية ، أو الدينية ، فى ذلك العصر ، نسمة من ريح الفهم ، أو الإدراك ، أو التخفف من رق التقليد ، كما رأينا فى قصة الواعظ الرومى [1] ، فإن هذه النسمة الرقيقة تكون بعيدة عن الأزهر . لأنه لا يحتملها ، ولا يبقى عليها .

فالكتب التى كانت تدرس فى الأزهر إذ ذاك . هى الكتب التى مازال الأزهر يعرفها كلها أو جلها إلى الآن . والمؤلفون والشراح هم كذلك معروفون عند أهل الأزهر الآن . فكتب المنهاج ، والتحرير ، والدر المختار ، فى الفقة . والأجرومية . وشرح الشيخ خالد عليها ، والألفية ، ومتن القطر ، فى النحو . وإيساغوجى ، والسمرقندية ، فى المنطق . والجوهرة فى التوحيد . وشرح السعد وحاشية الدسوقى عليه ، فى البلاغة . كانت أكثر الكتب تداولا . وأسماء ،

---

(١) نجدها فى الجزء الأول من الكتاب ص ٩٧ — ١٠٠ .

البحيرى ، والشرقاوى ، والدردير ، والعدوى ، والملوى ، والجوهرى ، والصبان والبرماوى ، والأمير ، والباجورى ، والشنوانى . كانت أكثر الأسماء شهرة وذيوعا.

وهذه كتب ، وأسماء ، لقينا منها ، فى دراستنا فى الأزهر ، مالقينا . وأفدنا منها أيضاً .

ونستطيع ، ونحن نسرد أسماء بعض مؤلفات الأزهريين ، فى ذلك العصر . أن نعرف أذواقهم الأدبية ، أو الفنية . وأن نعرف ، إلى حد كبير ، قيمة هذه المؤلفات ، وما تناولته من موضوعات .

فمن مؤلفات هذا العصر نجد أسماء : مراقى الفرج من مدح عالى الدرج والدر النظيم ، فى تحقيق الكلام القديم . واللمعة الألمعية ، وإتحاف الأحبة ، فى الضبّة . (أى ضبة الباب المفضّضة) . والدر المنثور ، فى الساجور[(١)] ، ومطلع النيرين ، فيما يتعلق بالقدرتين . وإتحاف الإنس فى الفرق بين اسم الجنس ، وعلم الجنس . ورفع التلبيس ، عما يسأل عنه ابن خميس . وكتاب فى التراجم ، سماه صاحبه ، الشيخ مصطفى الحموى : — فوائد الارتحال ونتائج السفر ، فى أخبار أهل القرن الحادى عشر . ومن هذه الأسماء : كوكب الصبح ، فى إزالة القبح . وفتح الملك المجيد لنفع العبيد . وفتح الملك البارى بالكلام على آخر شرح المنهج للشيخ زكريا الأنصارى .

ومن مؤلفات علماء الأزهر فى ذلك العصر ، كتاب للشيخ عبد الله الشرقاوى ، وهو ، كما رأينا ، من كبار العلماء وشيوخ الأزهر ، اسمه : تحفة الناظرين ، فيمن ولى مصر من الولاة والسلاطين . وقد وصف الجبرتى هذا الكتاب بأنه « فى غاية البرود . وقد غلط فيه غلطات » ونجد ذكرا لهذا الكتاب فى موضع آخر من كتابنا[(٢)] وللشيخ الشرقاوى مؤلفات مطولة فى الفقه الشافعى لايزال أهل الأزهر يعرفونها إلى اليوم .

وقد كانت تدرس فى الأزهر ، طبعاً ، إلى جنب هذه الكتب كتب

---

(١) فى القاموس . « الساجور خشبة تعلق فى عنق الكلب » .

(٢) الجزء الأول ص ٥٤ — ٥٨

الحديث والتفسير المعروفة . ولـكن الروح العلمى والبيئة الثقافية . كانت كما أسلفنا من التخلف ، والجمود . بحيث وجد بين العلماء من يقول بتحريم القهوة مثل الشيخ على السيواسى . وكان من كبار علماء عصره . أهداه أصدقاؤه « فرنْق بن »[١]، فى زواج ابنه فألقاه فى المرحاض .

الطب والهندسة

ولـكن من الحق أن نقول : إن بعض العلماء كان فى ذلك الوقت ، يشتغل ويكتب ، ويؤلف ، ويلقى دروسه ، فى غير هذه العلوم التقليدية .

فيفهم من إشارة عابرة ذكرها الجبرتى ، فى ترجمة يوسف باشا حاكم الشام ، أن كتب الطب كانت تدرس فى الأزهر إلى قرب منتصف القرن الثالث عشر الهجرى . كما نجد الشيخ أحمد الدمنهورى ، وكان عالما عظيما ، جليل القدر ، ولى مشيخة الأزهر ، يدرس رسالة قسطا بن لوقا ، فى العمل بالـكرة ، وأشكال التأسيس ، ورسالة ابن الشاط فى الإسطرلاب . كما نجد من مؤلفاته كتبا مثل : إحياء الفوائد بمعرفة خواص الأعداد ، والقول الصريح ، فى علم التشريح . والقول الأقرب فى علاج لسع العقرب . إلى غير ذلك من المؤلفات فى علوم الحساب ، والتاريخ ، والميقات ، والهندسة .

ونجـد الفقيه الأصولى الشيخ على الطحـان ، يؤلف منظومة فى الطب . وقد وجدنا الشيخ حسنا الجبرتى ، والد عبد الرحمن ، قد اتسعت ثقافته ومعرفته ، وبعدت بعداً كبيراً عن هذا النوع من المعرفة ، الذى التزمه أهل الأزهر . والشيخ حسن الجبرتى ، ولو أنه ليس من رجال الأزهر ، فإنه لم يكن بعيداً عنه . وكذلك الجبرتى ابنه مؤلف هذا الـكتاب الذى ندرسه .

---

(١) زنبيل يسع ثلاثة قناطير ونصف قنطار .

الشيخ الفارس

كما نجد عالما كبيرا وأديباً كبيراً أيضاً، ووجيهاً فى عصره، هو ابن النقيب، يتجه إلى ثقافة مترفة. وهواية لم نر بين العلماء من شغل نفسه بالالتفات إليها. وهى معرفة الخيل وأنسابها. فقد كان الشيخ على بن موسى، المعروف بابن النقيب، لأن أجداده كانوا نقباء بيت المقدس، له معرفة جيدة بالخيل وأنسابها، وعناية بتربيتها واستيلادها. وله حظيرة لا تخلو من نجائبها. وقد انتقل من بيت له بالقرب من المشهد الحسينى إلى آخر فسيح، فى الحسينية، ليجد لخيوله متسعاً، وليشبع رغبته فى تربيتها، واستيلادها.

وكان إلى ذلك عالماً بالفروسية. يجيد رمى السهام، واستعمال السلاح، واللعب بالرماح.

ومن العلماء من كان شاعرا غزلا يقول التوشيح فى الغزل والنسيب، فيشتهر بين الناس. ويغنيه المغنون على الأوتار وآلات الطرب. وقائله، مع ذلك، شيخ للأزهر. وهو الشيخ أحمد العروسى.

كان، كما يقول الجبرتى، رقيق الطباع، مليح الأوضاع، لطيفاً، مهذبا. وهو إلى ذلك، شيخ الأزهر ورئيس العلماء، يحبونه ويكبرونه، وكان من مزاياه حفظه صحبة أصدقائه وبره بالمحتاج منهم. ولد فى سنة ١١٣٣ ومات فى شعبان ١٢٠٨ ومن شعره هذا التوشيح:

ماس غصن البان زاهى الخد
وتثنّى معجبا
بين أفنان النّقا، والرّند(١)
وأثيلات الربى
خلت بدراً فوق غصن مائس
قد أمالته نسيمات الصبا

ثم يقول الجبرتى: إن هذا التوشيح كان مشهوراً غاية الاشتهار فى الأغانى والأوتار. ولذلك لم يذكره كله.

(١) شجر طيب الرائحة.

وهناك شيخ آخر ، يصفه الجبرتى بأنه كان رئيس المحققين ، وعمدة المدققين ، النحوى ، المنطقى ، الجدلى ، الأصولى . ويذكر له جملة من الكتب والحواشى فى الفقه والمنطق ، والجبر ، والتوحيد ، والتراجم . وكان مفتيا بالمدرسة المحمدية « أى مدرسة محمد بك أبى الذهب » ويلقى دروسه فى الأزهر ، وكان جيد التقرير ، غاية فى التحرير . ثم يقول ، بعد ذلك : إن الشيخ كان « يميل بطبعه إلى ذوى الوسامة ، والصور الحسان ، من الجدعان والشبان . فإذا رجع من درسه ، خلع زى العلماء ، ولبس زى العامة وجلس بالأسواق ، وخالط الرفاق . سامحه الله » وهذا الشيخ هو أحمد الخليفى . ولد فى سنة ١١٣١ ومات سنة ١٢٠٩ .

غزل شيخ الأزهر

ومن كبار الشيوخ الذين اشتهروا بالغزل ، شيخ الأزهر ، الشيخ عبد الله الشبراوى .

ولد حوالى سنة ١٠٩٢ من بيت علم ومجد . وتتلمذ على الشيخ محمد الخرشى . وكان شيخاً للأزهر ، وعمره ثمانى سنوات . وتولى مشيخة الأزهر وهو فى الخامسة والأربعين . مع وجود عدد من كبار العلماء فى السن والعلم والمكانة . وكانت للشيخ الشبراوى منزلة عظيمة عند الأمراء ورجال الدولة . نافذ الكلمة عندهم مقبول الشفاعة . كما كانت لأهل الأزهر والعلماء فى عهده حرمة كبيرة ومهابة ورفعة مقام عند الأمراء وعند الناس . وبنى داراً عظيمة على بركة الأزبكية حيث كان يقيم سادة القوم وسراتهم . وأنفق على داره تلك أموالاً جمة . وبنى ولده عامر داراً عظيمة أيضاً أمام دار أبيه الشيخ .

وكان الشيخ الشبراوى مغرماً باقتناء التحف ؛ والطرائف من كل شىء . وخاصة الكتب النفيسة الجميلة الخط ، المتقنة التجليد . وكان ابنه عامر كريماً سخياً . يذبح فى مطبخه كل يوم رأسين من الضأن . ويقول الجبرتى : إن طلبة العلم فى مشيخة الشبراوى كانوا « فى غاية الأدب والاحترام » . وقد ألف بعض الكتب فى مدائح الأشراف ، وغزوة بدر ، ألفه بإشارة من الوالى على باشا حكيم . وله ديوان يحتوى

على غزليات ، وأشعار ، وأغان . كان مشهوراً يتداوله الناس، وكانت أغانيه ذائعة معروفة فى عصره وبعد عصره .

ومات الشيخ الشبراوى سادس ذى الحجة من سنة ١١٧١ عن نحو ثمانين سنة . ونجد حديثاً آخر عنه فى موضع آخر[١] .

وللشيخ الشبراوى شعر متوسط لم يذكره الجبرتى[٢] قاله فى نقيب للأشراف اسمه السيد عبد القادر . قدم من تركيا ثم وجد مذبوحاً بعد ليلة واحدة .

وله فى الحنين إلى مصر شعر لابأس به ، نروى بعضاً منه فيما يلى :—

أعدْ ذكر مصر ، إن قلبى مولع
بمصر . ومن لى أن ترى مقلتى مصرا

وكرّر على سمعى أحاديث نيلها
فقد ردّت الأمواج سائله نهرا

بلاد بها مدّ السماح جناحه
وأظهر فيها المجد آيته الكبرى

رويداً إذا حدثتنى عن ربوعها
فتطويل أخبار الهوى لذة أخرى

عسى نحوها يلوى الزمان مطيّتى
وأشهد ، بعد الكسر ، من نيلها ، جبرا

لقد كان لى فيها معاهد لذة
تقضّت ، وأبقت بعدها أنفساً حسرى

ومنه :

أحن إلى تلك المعاهد كلما يجدد لى مر النسيم بها ذكرا

---

(١) ص ١٦٢ من الجزء الأول .
(٢) ص ٢٢٢ من كتاب المنتخب من أدب العرب ، الجزء الأول

أما والقدود المائسـات بسفحها وألحاظ غادات قد امتلأت سحرا

وما فى رباها من قوام مهفهف علا ، وغلا عن أن يباع وأن يشرى

لئن عاد لى هـذا السرور بأرضها وقرّت عن أهواه مقلتى العبرى :—

لأعتنقنّ اللهو فى عرصـاتها وأسجد ، فى محراب لذتها ، شكرا

وهذا شعر لا بأس به فى نسجه ومعناه ، وصدق عاطفته . ولا بأس به فى سماحته من شيخ الأزهر . وهو مما لم يروه له الجبرتى (١) .

العلماء وبطرس السادس

ولا أحب أن أنتهى من هذا الفصل عن « الثقافة والبيئة » قبل أن أسجل حادثا يشرف العلماء ، فى ذلك العصر . وهذا الحادث لم يسجله الجبرتى ولـكنه وقع فى العصر الذى يؤرخه . وقد سجله على باشا مبارك فى خططه .

وخلاصة الأمر أن بطريرك الأقباط ، فى ذلك الوقت ، بطرس السادس ، كان شديداً على شعبه فى مراعاة الأمور الدينية . صلبا فى منعهم مما ينهى عنه الدين وخاصـة فى الزواج والطلاق . ووقع بين البطريرك وبين كبير الأمراء ، فى ذلك الوقت ، ابن إيواظ ، نزاع شديد على أمر من أمور المسيحيين فى مصر . بسبب تشدد البطريرك وصلابته . وناصر ابن إيواظ كثير من أهل الرأى والمـكانة . وعرض النزاع على العلماء ، فأفتوا بحق بطرس السادس فيما يطلب ، ونصروه على ابن إيواظ .

وكان ابن إيواظ رجلاً عادلاً ، حكيما ، فرضى حكم العلماء ، واستصدر من من الوالى أمراً بتمكين البطريرك مما يطلب . وألا يتعرض له أحد بعد ذلك (٢) .

وقد وصف الجبرتى أهل الأزهر ، من العلمـاء والطلبة ، بأنهم جمـاعة من

---

(١) فى مكتبة سوهاج مخطوط برقم ١٠٠ تاريخ ، يتضمن ثلاث رسائل . منها واحدة كتبها الشيخ عبد الله الشبراوى يرجو فيها إبقاء المرتبات التى كانت جارية على العلماء ، والفقراء ، وأرباب الطرق الصوفية . وعلى المساجد والزوايا والتـكايا . وكان السلطان محمود خان أمر بحرمانهم منها .

والرسـالة ، فى أسلوبها ، لا بأس بها . بالنسبة لما كان يكتبه العلماء فى ذلك الوقت .

ومخطوط مكتبة سوهاج هذا صوره معهد إحياء المخطوطات بجامعة الدول العربية .

(٢) ص ٨٥ جزء ٦ من الخطط التوفيقية ، طبع المطبعة الأميرية

« الأخلاط » . وهى كلمة من العسير تحديدها ، ولكنها ، على أى حال ، ليست مرضية لهم ، كما يبدو من سياقها فى حديثه .

الجبرتى بين الفرنسيين

وأجد من الخير هنا أن أنقل عن الجبرتى وصفه لهذه الزيارة التى زار فيها جماعة العلماء الفرنسيين فى مقرهم فى الناصرية إذ ذاك . ووصفه ما وجد من أحاسيس وعواطف من هذه الزيارة وما شهد فيها .

وسيجد القارىء أن هذه القطعة التى أنقلها طويلة ، وقد تكون ثقيلة أيضا إذا قيست بما يقرأ ، ويسمع . ولكنى أرجو أن يقرأها حتى يتمها ، لعدة أسباب . فهى نموذج مما كان يكتب العلماء فى العصر الذى نؤرخه . بل لعله نموذج من أجود ما كانوا يكتبون . والجبرتى مهما قيل فيه . ومع أنه لم يل منصبا من المناصب الأزهرية — سوى مشيخة رواق الجبرت — ولو أنه لم يؤلف كتابا كتلك التى كان يؤلفها العلماء إذ ذاك ، والتى ذكرنا طرفا منها من قبل . مع هذا وذاك فإن الجبرتى من العلماء ما فى ذلك شك . بل هو من كبارهم ومن أعلام الحياة الأدبية والعلمية لعصره . ومن قراءة هذه القطعة التى أنقلها من الجبرتى ندرك البون البعيد بين ما كان يفكر فيه العلماء ، وما كانوا يشغلون به أنفسهم من العلم ، وبين ما شهده الجبرتى عند علماء الحملة الفرنسية . وما أعجبه من تنسيقهم للكتب والمراجع والخرائط والصور . حتى فى المسائل الإسلامية التى لم يكن لهؤلاء العلماء شغل إلا بها .

ونستطيع أن ندرك — أو نتخيل — ما كانت تنال حياة الأزهر العلمية والثقافية والفكرية ، وما كانت تنال حياة مصر والشرق من بعد ، لو أن هؤلاء العلماء لم يغلقوا عقولهم وأذهانهم وعواطفهم حتى لا يتسلل إليها شىء من علم هؤلاء العلماء الفرنسيين ، أو منهجهم فى البحث ، والتنظيم والدراسة ، وذلك مجال يصل فيه التصور والخيال إلى مدى بعيد .

وما أريد بذلك أن ألوم العلماء فى القرن الثامن عشر ولا أن أشق عليهم فيه . وكيف ألومهم وما يزال خلفهم من الشيوخ مغلقة عقولهم وأذهانهم وآفاقهم بعد هذا الدهر الطويل وما جد فيه من علم ورأى .

وهذا هو الوصف : —

« وأفردوا للمدبّرين والفلكيين وأهل المعرفة والعلوم الرياضية ، كالهندسة والهيئة والنقوشات والرسومات، والمصورين والكتبة والحساب والمنشئين، حارة الناصرية ، حيث الدرب الجديد وما به من البيوت ، مثل بيت قاسم بك ، وأمير الحج المعروف بأبي يوسف ، وبيت حسن كاشف جركس القديم والجديد ، الذي أنشأه وشيده وزخرفه وصرف عليه أموالا عظيمة من مظالم العباد . وعند تمام بياضه وفرشه حدثت هذه الحادثة[1] ففر مع الفارين وتركه • فيه جملة كبيرة من كتبهم وعليها خزان ومباشرون يحفظونها ويحضرونها. للطلبة ومن يريد المراجعة فيراجعون فيها مرادهم . فتجتمع الطلبة منهم كل يوم قبل الظهر بساعتين ويجلسون في فسحة المكان المقابلة لمخازن الكتب على كراسى منصوبة موازية لتختاه عريضة مستطيلة، فيطلب من يريد المراجعة ما يشاء منها فيحضرها له الخازن فيتصفحون ويراجعون ويكتبون ، حتى أسافلهم من العساكر . وإذا حضر إليهم بعض المسلمين ممن يريد الفرجة لا يمنعونه الدخول إلى أعزّ أماكنهم ، ويتلقونه بالبشاشة والضحك وإظهار السرر بمجيئه إليهم . وخصوصا إذا رأوا فيه قابلية ، أو معرفة أوتطلعا للنظر فى المعارف ، بذلوا له مودتهم ومحبتهم ، ويحضرون له أنواع الكتب المطبوع بها أنواع التصاوير ، وكرات البلاد ، والأقاليم ، والحيوانات ، والطيور ، والنباتات وتواريخ القدماء وسير الأمم ، وقصص الأنبياء بتصاويرهم ، وآياتهم ومعجزاتهم وحوادث أممهم ، مما يحير الأفكار • ولقد ذهبت إليهم مراراً وأطلعونى على ذلك. فمن جملة ما رأيته كتاب كبير يشتمل على سيرة النبي صلى الله عليه وسلم ومصورون به صورته الشريفة على قدر مبلغ علمهم واجتهادهم ، وهو قائم على قدميه ناظر إلى السماء كالمرهب للخليقة وبيده اليمنى السيف وفى اليسرى الكتاب ؛ وحوله الصحابة رضى الله عنهم بأيديهم السيوف . وفى صفحة أخرى صورة الخلفاء الراشدين • وفى الأخرى صورة المعراج والبراق وهو صلى الله عليه وسلم راكب عليه من صخرة بيت المقدس . وصورة بيت المقدس والحرم المكى والمدنى .

---

(١) يقصد دخول الفرنسيين مصر

وكذلك صور الأئمة المجتهدين وبقية الخلفاء والسلاطين ، ومثال إسلامبول ومابها من المساجد العظام كآياصوفية وجامع السلطان محمد ، وهيئة المولد النبوى وجمعية أصناف الناس لذلك . وكذلك السلطان سليمان وهيئة صلاة الجمعة فيه . وأبى أيوب الأنصارى ، وهيئة صلاة الجنازة فيه ، وصور البلدان والسواحل والبحار والأهرام وبرابى [1] الصعيد والصور والأشكال والأقلام المرسومة بها . ومايختص بكل بلد من أجناس الحيوان، والطيور، والنبات، والأعشاب، وعلوم الطب والتشريح والهندسيات وجر الأثقال ، وكثير من الكتب الإسلامية مترجم بلغتهم . ورأيت عندهم كتاب الشفاء للقاضى عياض ، ويعبرون عنه بقولهم شفاء شريف ، والبردة للبوصيرى ويحفظون جملة من أبياتها ، وترجموها بلغتهم . ورأيت بعضهم يحفظ سورا من القرآن . ولهم تطلع زائد للعلوم ، وأكثرها الرياضة ، ومعرفة اللغات، واجتهاد كبير فى معرفة اللغة والمنطق ، ويدأبون فى ذلك الليل والنهار . وعندهم كتب مفردة لأنواع اللغات ، وتصاريفها ، واشتقاقاتها بحيث يسهل عليهم نقل ما يريدون من أى لغة كانت إلى لغتهم فى أقرب وقت . وعند توت الفلكى وتلامذته فى مكانهم المختص بهم الآلات الفلكية الغريبة المتقنة الصنعة ، وآلات الارتفاعات البديعة العجيبة التركيب ، الغالية الثمن ، المصنوعة من الصفر المموه . وهى تركب ببراريم مصنوعة محكمة كل آلة منها عدة قطع تركب مع بعضها البعض برباطات وبراريم لطيفة بحيث إذا ركبت صارت آلة كبيرة ، أخذت قدرا من الفراغ ، وبها نظارات وثقوب ينفذ النظر منها إلى المرئى ، وإذا انحل تركيبها وضعت فى ظرف صغير . وكذلك نظارات للنظر فى الكواكب وأرصادها ، ومعرفة مقاديرها وأجرامها ، وارتفاعاتها واتصالاتها ، ومناظراتها . وأنواع الساعات التى تسير بثوانى الدقائق الغريبة الشكل الغالية الثمن، وغير ذلك . وأفردوا لجماعة منهم بيت إبراهيم كتخدا السنارى . وهم المصورون لكل شىء ، منهم أريجو المصور ، وهو يصور صور الآدميين تصويراً يظن من يراه أنه بارز فى الفراغ مجسم يكاد ينطق . حتى أنه صور صورة المشايخ كل واحد على حدته فى دائرة ، وكذلك

(١) الآثار التى خلفها الفراعنة

غيرهم من الأعيان، وعلقوا ذلك فى بعض مجالس سارى عسكر [١] ، وآخر فى مكان آخر يصور الحيوانات والحشرات ، وآخر يصور الأسماك والحيتان بأنواعها وأسمائها . ويأخذون الحيوان أو الحوت الغريب الذى لا يوجد ببلادهم فيضعون جسمه بذاته فى ماء مصنوع حافظ للجسم فيبقى على حالته وهيئته لا يتغير ولا يبلى ولو بقى زمناً طويلا ، وكذلك أفردوا أماكن للمهندسين ، وصناع الدقائق . وسكن الحكيم رويا ببيت ذى الفقار كتخدا بجوار ذلك ووضع آلاته ومساحقه وأهوانه فى ناحية ، وركب له تنانير وكوانين لتقطير المياه والأدهان واستخراج الأملاح ، وقدورا عظيمة وبرامات ، وجعل له مكانا أسفل وأعلى ، وبهما رفوف عليها القدور المملوءة بالتراكيب ، والمعاجين ، والزجاجات المتنوعة ، وبها كذلك عدة من الأطباء والجرايحيّة ، وأفردوا مكانا فى بيت حسن كاشف جركس لصناعة الحكمة والطب والكيماوى ، وبنوا فيه تنانير مهندمة وآلات تقاطير عجيبة الوضع ، وآلات تصاعيد الأرواح ، وتقاطير المياه ، وخلاصات المفردات ، وأملاح الأرمدة المستخرجة من الأعشاب والنباتات واستخراج المياه الجلاّءة والحلالة ، وحول المكان الداخل قوارير وأوان من الزجاج البلورى المختلف الأشكال والهيئات على الرفوف والسدلات ، وبداخلها أنواع مستخرجات . ومن أغرب ما رأيته فى ذلك المكان أن بعض المتقيدين لذلك أخذ زجاجة من الزجاجات الموضوع فيها بعض المياه المستخرجة فصب منها شيئا فى كأس ثم صب عليها شيئاً من زجاجة أخرى فعلا الماءان وصعد منه دخان ملون حتى انقطع وجف ما فى الكأس ، وصار حجرا أصفر ، فقلبه على البرجات حجرا يابسا أخذناه بأيدينا ونظرناه . ثم فعل كذلك بمياه أخرى فجمد حجراً أزرق . وبأخرى فجمد حجرا أحمر ياقوتيا ، وأخذ مرة شيئاً قليلا جدا من غبار أبيض ووضعه على السندال وضربه بالمطرقة بلطف ، فخرج له صوت هائل كصوت القربانة [٢] انزعجنا منه ، فضحكوا منا . وأخذ مرة زجاجة فارغة مستطيلة فى مقدار الشبر ضيقة الفم فغمسها فى ماء قراح موضوع

---

(١) نابليون أو من يقوم مقامه .

(٢) البندقية .

المجاورين ، فقبض عليهم الأغا وسألهم فقالوا لسنا بسارقين . ولكننا سمعنا الشيخ محمد الدرقاوى ، شيخ المغاربة المنفصل ، أى المعزول ، ومعه إخوته وآخرون ، نعرفهم بأصواتهم ، وهم يتذاكرون فى ذلك .

وأنكر شيخ المغاربة أول الأمر إنكاراً شديداً . ثم لجأ إلى قريب له من ذوى النفوذ مستجيراً به ، أن يستر عليه وعلى أولاده . ثم فتح خزانة عنده وأخرج منها أشياء مما سرق من قبل . فلما سئل عن صندوق المرأة الرومية ، قال أحضره آخر الليل . ثم جاء به ابنه آخر الليل يحمله له رجل فقير يرقّع الأحذية . فقبض الشرطة على حامل الصندوق ، وفرّ ابن الدرقاوى . ولكن مرقع الأحذية استطاع أن يثبت على هذا الابن السرقة .

وكانت قضية فى « المحكمة الكبيرة » اجتمع الكثيرون لشهودها . كما تقدم إليها كثير ممن سرقت لهم أموال وحاجات . وقطعت فيها أيدى ثلاثة من السرّاق ، منهم ابن الدرقاوى .

ويقول الجبرتى : إنه فى هذا الوقت نفسه ، أخرجت طائفة من القوّادين ، والنساء . سكنوا حى الأزهر ، حتى إن أكابر الدولة وعساكرهم ، بل وأهل البلد والسوقة . جعلوا سمرهم وديدنهم ، ذكر الازهر وأهله .

أزهرى يدعى النبوة ... !

ومن الحوادث التى سجلها الجبرتى : أنه فى أوائل رمضان من سنة ١١٤٧ ظهر بالأزهر رجل يدعى النبوة . فأحضروه بين يدى الشيخ احمد العماوى . فسأله عن حاله . فقال الأزهرى : إنه كان فى شربين ، فنزل عليه جبريل ، وصعد به إلى السماء ليلة سبع وعشرين من رجب ، وأذّن جبريل فصلى الأزهرى ركعتين ، والملائكة من خلفه . فلما فرغ من صلاته أعطاه جبريل ورقة ، وقال له : أنت نبى مرسل . فانزل وبلغ الرسالة ، وأظهر المعجزات . واتهمه الشيخ العماوى بالجنون ، ولكنه أصر على أنه عاقل ، وأنه نبى مرسل . فضربه الأزهريون ، وأخرجوه من الأزهر ، ثم سمع به عثمان كتخدا فأحضره ، وسأله . فقال ماقاله أمام الشيخ من قبل . فأرسل إلى المارستان أياما ثم طلبه الوالى ، عثمان باشا الحلبى ، وسأله أيضاً . فأصر

على أنه نبى مرسل . وبعد حبسه ثلاثة أيام ، دعا عثمان باشا العلماء ، واستجوبه أمامهم . فلم يتحول ، فأمره العلماء بالتوبة ، فامتنع ، وأصر . فأمر الباشا بقتله . وكان وهو يقدم للقتل يتلو قوله تعالى : فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل . وقد قيل فى حادث هذا الأزهرى المتنبئ ، شعر ، ومواليا ، أورد الجبرتى بعضاً منها .

استغاثة أبى مدين . . . !

ومما رواه الجبرتى عن العلماء ، أن الشيخ على الجزائرلى ، المعروف بابن الترجمان وكان عالما ، ذكيا ، يعرف اللغة التركية ، سافر إلى استانبول . وكانت الدولة فى حرب مع روسيا . فأرسل خطابا إلى السلطان مصطفى يقول فيه : إن من قرأ استغاثة أبى مدين الغوث ، فى صف الجهاد ، كان له النصر . فقال السلطان : إن الشيخ الذى كتب لنا هذا لابد أنه رجل طيب . وأنا أحب أن تحلّ بركته على جيوشى . بأن يسير بنفسه مع الجند ، ويقرأ فى صفوفهم هذه الاستغاثة . . . ! وفوجىء الشيخ بطلبه إلى الحرب ، فلم يجد بداً من السفر . وتقدم صفوف الجيش يتلو استغاثة أبى مدين . ولكن الهزيمة كانت على جيش الدولة ، وأسر الشيخ مع من أسر . وسيق إلى موسكو ، وبقى فيها أسيراً . أو كما يقول الجبرتى « لم يفتقده أحد » حتى مات بها سنة ١١٨٥ .

وكان من المألوف أن يطلب الوالى ، أو السلطان ، إلى أهل الأزهر أن يقرأوا البخارى ، لنصرةٍ ، أو رفع بلاءٍ ، أو جدب . تبركا بهم . ففى شهر رجب من سنة ١٢٠٣ قدم القاهرة أغا من إسلامبول ، ومعه ألف قرش ، أرسلها السلطان عبد الحميد خان لتفرق على طلبة العلم فى الأزهر ، ليقرأوا له صحيح البخارى ، ويدعوا له بالنصر . وليدعوا الله أيضاً أن يرفع عن الناس الطاعون . وبعد أيام كتب أهل الأزهر إلى الباشا ، قائلين : إن الألف قرش لم تكف ، فزادها ثلاثة آلاف . وأحضروا أجزاء البخارى وقرأوها ، ولكن الطاعون لم يرفع ، بل زاد وفشا .

وفى رجب ، أيضاً ، من العام التالى ، ورد مرسوم من الدولة ، يأمر بقراءة صحيح البخارى فى الأزهر ، لينصر الله السلطان على الروسيا . ويأمر بأن يدعوا أهل

الأزهر بذلك ، بعد الأذان لكل صلاة . فأمر الباشا باختيار عشرة علماء ، من مختلف المذاهب ، لقراءة البخارى فى كل يوم . ورتب لكل واحد منهم عشرين نصف فضة . ووعدهم بتقريرها لهم على الدوام ، بفرمان من السلطان .

وفى شهر ذى القعدة ، من سنة ١٢٣٢ تلقى أهل الأزهر أمرا من محمد على . بقراءة البخارى ، لينصر الله ابنه إبراهيم ، فى حرب الحجاز ، وكانت أخباره انقطعت فترة طويلة، فلما انتهوا من القراءة « نزل لهم » عشرون كيساً فرّقت بينهم .

ملابس العلماء والإشراف على الأزهر

وقد وصف الجبرتى ، فى مواضع متفرقة ، زى العلماء . الذى كانوا يتميزون به عن بقية الناس . وأبرز ما فيه العمامة الكبيرة . فقد أطنب فى وصف عمامة الشيخ السادات خاصة ، وضخامة حجمها . والصور التى سجلها المصوّرون فى الحملة الفرنسية لكبار العلماء ، فى ذلك العصر ، تشهد بذلك .

وكان للأزهر ناظر ليس من العلماء ، بل من المماليك . يتولى الإشراف على نظافة الأزهر وفرشه . والعناية بمن فيه من الغرباء . إلى غير ذلك من الأمور الإدارية . وقد أبطلت هذه الوظيفة أيام الفرنسيين . ثم أعادها محمد على ، فى أول عهده . واختار لها الشيخ محمدا الأمير .

وكان مما يقدم لطلبة الأزهر ، من ألوان الطعام ، الهريسة . خصص عبد الرحمن كتخدا وقفاً لطبخها ؛ وإطعام الأزهريين منها ، فى يومى الاثنين والخميس من كل أسبوع ، كما ذكرنا فى ترجمته .

الفهرس

نال هذا الكتاب جائزة مجمع اللغة العربية للبحوث الأدبية عن سنة ١٩٥٥

دراسات في تاريخ الجبرتي

مصر في القرن الثامن عشر

الجزء الثالث

١ - شعب مصر وكفاحه

٢ - صفحات من سيرة محمد علي

تأليف
محمود الشرقاوي

١٩٥٦

ملتزم الطبع والنشر
مكتبة الأنجلو المصرية
١٦٥ شارع محمد بك فريد (عماد الدين سابقا)

مقدمة

إذا عرف الشعب تاريخه الحق . وكفاحه فى سبيل العدل والحرية والكرامة . كان اعتزازه بماضيه أقوى . وإدراكه لحاضره أشمل وأعمق . وكان إقدامه واقتحامه لمستقبله ، أشد صلابة وجرأة وإصرارا . ولكنه أقوم نهجا ، وأهدى سبيلا .

وهذه صفحات من تاريخ مصر الحديث . قصصت فيها طائفة من الثورات التى قام بها الشعب فى سبيل الحرية والعدل .

ثورات ولدت فى حجر الشعب . ثم نمت، وزكت ، واشتد عودها . وأوشكت أن تثمر ثمرة الحرية .

وقد جمع هذا الجزء من الكتاب — إلى أبعد غاية — بين تشويق القصة ، وحقائق التاريخ .

وهذه الصفحات تلخص ، فى استيعاب كامل ، مناهضة الشعب للظالمين من حكامه الأتراك فى القرنين السابع عشر والثامن عشر، وثوراته عليهم . كما تلخص مقاومة الشعب للحملة الفرنسية فى نهاية هذا القرن الأخير ، وصدّه للغزو الإنجليزى فى أول القرن التاسع عشر .

ويجب أن نلاحظ ، فيما يختص بمناهضة الشعب لظلم حكامه الأتراك ، أن العاطفة الدينية كانت لها الغلبة القوية والسطوة الجارفة على شعور الناس وإحساسهم . وقد كانت هذه العاطفة ، والرباط الذى توثّق به بين المصريين والأتراك ، عاملا ملطفا ، بل مثبطاً لشعور الأولين نحو ما يقع عليهم من ظلم الآخرين وقسوتهم وجبروتهم . كان حالهم فى هذا شبيها بذلك الذى قال فيه الشاعر الجاهلي :

قومى همو قتلوا أميم أخى فإذا رميت ، يصيبنى سهمى
فلئن عفوت ، لأعفُوَنْ جللاً ولئن سطوت لأوهنَنْ عظمى

أو ذلك الشعر الذى كان يتمثله الإمام على ، متوجها إلى الله ، وهو ينظر إلى مصارع أنصاره ومصارع خصومه ، فى يوم الجمل :

أشكو إليك عُجَرى و بُجَرى شفيتُ نفسى ، وقتلت معشرى

فقد كانت الوشائج الدينية ، ولها من القوة مالها فى ذلك الزمن ، تجعل المصريين على أمل دائم فى أن يفيء الآخرون إلى أمر الله ، من الاستقامة فى الناس ، والعدل فى الرعية . وتجعلهم أقرب أيضا إلى التسامح والرفق والاحتمال لما يلقون من شر كثير ونكر .

فالمصريون ، فى واقع الأمر ، لم يكونوا يقاومون ظالميهم من الأتراك أو المماليك فقط . بل كانوا يقاومون شعورهم النفسى ، وإيمانهم بما يجب على المسلم نحو أخيه . ولعل هذا — إلى جانب عوامل أخرى — من أسباب هذا الاحتمال الطويل والصبر العجيب الذى نجده عند شعب مصر أمام مالقى من مظالم ومحن .

على أن القدْر الذى نجده من كفاحه للظالمين من أبناء دينه ، قدر غير قليل ولا مجحود . كما ترى بعد قليل .

فلما جاءت الحملة الفرنسية ، إنقضى هذا العامل ، بل وجد عامل مضاد له . فكانت هذه الثورات الجارفة القوية المتلاحقة ، التى نرى تفصيلها فى هذا الكتاب .

* * *

ولقد كان لشعب مصر كفاح ، وكانت له هبّات وثورات . تتفاوت عنفاً وضعفاً . بعد هذا الكفاح الذى وقفنا به عند خروج الفرنسيين من مصر . كانت لشعبنا ثورات ، كالثورة العرابية ، وثورة سنة ١٩١٩ وكانت له بينهما هبات شعبية ، أو دستورية ، أو برلمانية . وكانت له بعد ذلك ثورات

شعبية عنيفة أو ضعيفة أيضا ، ضد الاحتلال الإنجليزى ، وضـد الظلمة من سلاطينه وملوكه ، ومن كانوا يحكمون لهم الشعب ، بالقوة والجبروت · وكانت له هبات برلمانية أو دستورية أيضا · حتى جاءت ثورة ٢٣ يوليو سـنة ١٩٥٢ فبطشت — باسم الشعب — بطشتها الـكبرى .

ولـكننا وقفنا فى كتابنا هذا — كما قلت — فى تفصيل هذا الـكفاح ، عند خروج الفرنسيين من مصر .

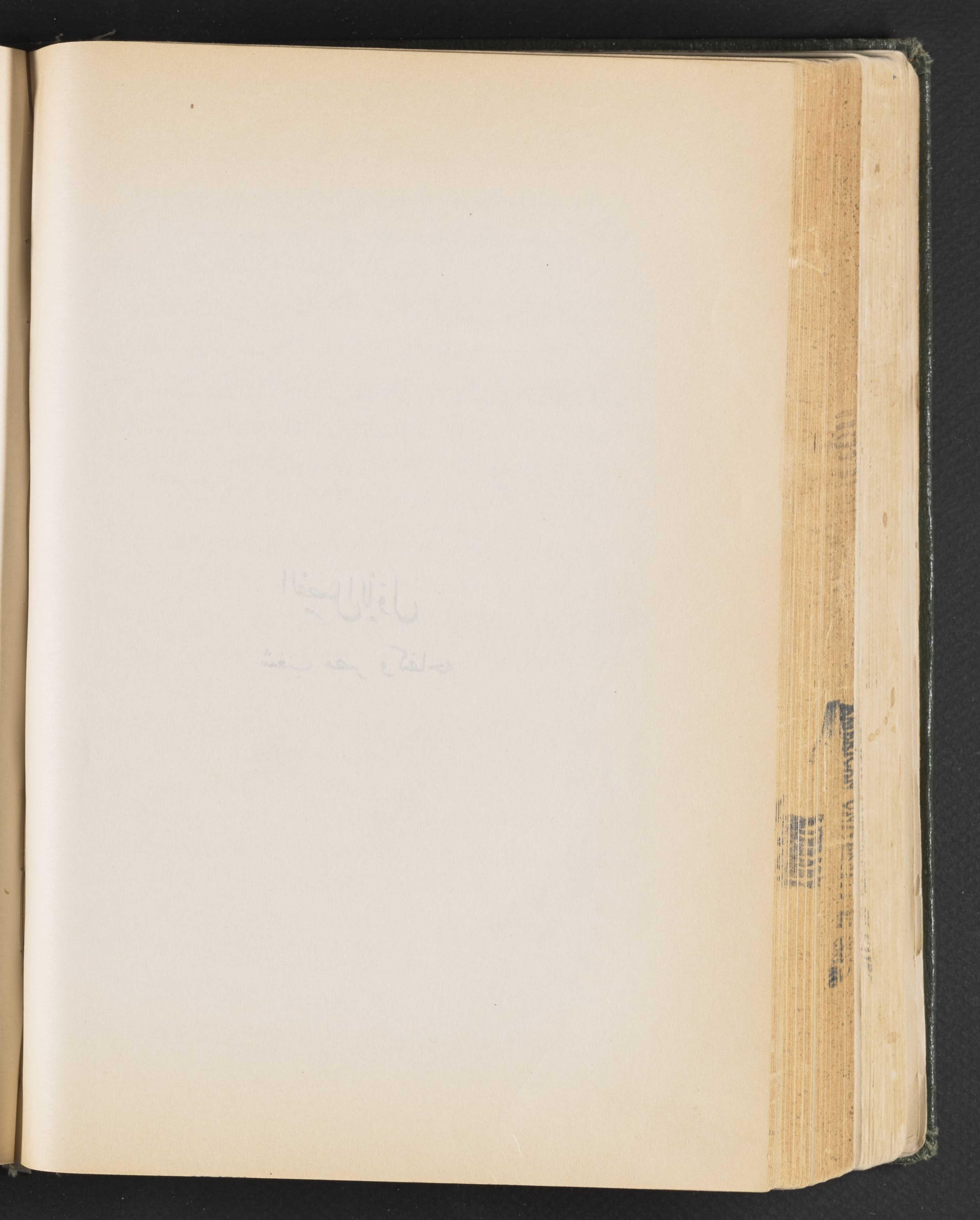
ثم نجد بعد ذلك الفصل الثانى من هذا الجزء ، والأخير من الـكتاب ، وهو صفحات من سيرة محمد على ، كما سجلها الجبرتى .

القاهرة فى { ٣٠ شوال ١٣٧٥
٩ يونيو ١٩٥٦ }

محمود الشرقاوى

الفصل الأوّل

شعب مصر وكفاحه



شعبنا وماضيه

لقى شعب مصر ، فى القرنين السابع عشر والثامن عشر ، كما لقى فى القرنين الأخيرين ، ألوانا من الظلم ، والعنت ، والعدوان ، قل أن لقيها شعب سواه . وكانت حياة الناس ، فى هذين القرنين ، تكاد تكون حلقة متصلة ، مثيرة ، مؤلمة ، من المظالم والنكبات . مظالم من الحاكم المستبد الجاهل . ونكبات من الطبيعة القاسية . نكبات قد يكون ظلم الحاكم سببا فى فداحتها ، وقسوتها وتكرار حدوثها .

وفى ختام هذين القرنين ، تعرضت مصر لأول غزو أوربى منظم . بحملة نابليون عليها ، واحتلالها .

ولكن شعب مصر ، فى غمار هذه المظالم والظلمات . لم يكُف عن الكفاح . ليدفع عن نفسه وشرفه ظلم الظالمين ، وليرد عن وطنه عدوان المعتدين . وقد صمد لهذا كله . وقاوم الظلم والعنت ، والعدوان ، مقاومة باسلة مشرفة كريمة .

ومن يعتقد ، أو يظن ، أن شعب مصر كان فى تاريخه ذاك ، مستسلما للظلم ، راضيا بالهوان . أو أنه استكان للمستبدين . أو خشى بأسهم — وبأسهم شديد — أو صبر عليهم وتركهم لقضاء الله . كما يزعم كثير من الناس ومن المؤرخين . من ظن أن شعب مصر كان كذلك ، فقد ظلم نفسه ، وظلم وطنه .

أما ظلمه لنفسه ، فلأنه لم يعرف ، أو لم يقدر جهاد آبائه وأجداده فى كفاح الظالمين ورد المعتدين . ولم يدرك ما بذل هؤلاء وهؤلاء ، من قوة ومن عزم وصبر ، وما تحملوا من تضحيات غالية ، فى سبيل الحياة الكريمة القويمة الحرة ، التى كانوا يبغونها لأنفسهم ووطنهم .

وأما ظلمه لوطنه ، فلأنه يضعه وضعاً غير كريم ، وغير صادق معاً . ويقبل فى تاريخ هذا الوطن ، ما لبّس المستعمرون والمستبدون ، وما دلسوا وزيفوا من هذا التاريخ الملفق الذى وضعوه لوطننا . فأظهروه ضعيفا متخاذلا ، مستكينا

يقيم على الضيم . ولا يغضب لهوان . ولا يرد كيد الكائدين ، ولا جور الجائرين ، ولا عدوان المعتدين . وحاشاه ذلك .

هذه العقيدة الظالمة الخاطئة ، عقيدة الاستكانة للظلم ، والصبر على البلاء ، والتسليم بحكم القدر . روّج لها فى مصر المستبدون والمستعمرون . ومكّنوا لها فى نفوس الناس وعقولهم دهرا طويلا . حتى أوشكت أن تكون من الحقائق التى تعلو على المناقشة والجدل . والتمكين لهذه العقيدة ، والإيمان بها يفيد هؤلاء المستبدين والمستعمرين . ويوهم شعب مصر بأن قدصدق فيه قول المتنبى :

لكل امرىء من دهره ما تعودا

وقد آن لنا ، أن نراجع تاريخنا ، وأن ننقّى منه الزيوف والعقائد الضارة الخاطئة . وأن ندرك قيمة هذا الشعب الصبور فى غير جبن ، المتسامح فى غير تخاذل ، اللين فى غير ضعف ، الكريم فى غير مذلة ، والذى كان يثور كما يثور الإعصار ، إذا لم يجد سبيلا إلى حقه إلا الثورة والغضب .

آن لنا أن ندرك ، ويدرك الشعب ، قيمة نفسه ، وفخار ماضيه . خاصة فى هذه الفترة الحاسمة ، التى تحاول مصر فيها ، صابرة مثابرة جاهدة ، أن تبنى للمستقبل وأن تبعث فى نفوس أبنائها من جديد ، إحساس الحرية ، والعزة ، والحياة الكريمة .

فى هذه الفترة الحاسمة ، يجب — أكثر من كل وقت آخر — أن نسترجع صور الفخار من تاريخ هذا الكفاح القوى الدائب المشرف لشعب مصر . وأن نقلب صفحات ماضينا ، وما كان لوطننا فيه من بذل وتضحية . ومن إباء وعزة ، على رغم ما كان فيه من بلاء وجهد ، وأن تمتلىء قلوبنا ، وعزائمنا ، بما توحيه هذه الصفحات من فخار ، ومن قوة وتصميم . حتى نواجه مستقبلنا ، ونحن على ذخيرة كافية من العزم والفهم والإدراك . وهى ذخيرة لابد منها لكل كفاح .

وهذا ما نحن بسبيله إذ نكتب هذه الفصول .

فى سبيل العــدل

سردار الإسكندرية وجند بولاق

كانت مصر ، فى القرنين السابع عشر والثامن عشر ، لا تكاد تجد حكومة منظمة ، مستقرة . بل كانت خاضعة لطائفة من أصحاب النفوذ والسطوة . يحكم كل منهم قطعة منها ، أو بلدا . حسبما يشاء ويشتهى . وكان هؤلاء الحاكمون ، من الأتراك أو من المماليك . وكلهم ، فى الجملة ، كان شرا من صاحبه وأشد ظلما ، وأفحش عدوانا .

ولكن شعب مصر ، لم يكن على الدوام ، صابرا على هذا الشر والظلم والعدوان . بل كانت له غضبات شداد على هذا الظلم .

فمن هذه الغضبات ما فعله أهل الإسكندرية بحاكمين من حكامها الأتراك ، ففى شهر يونيو من سنة ١٧٨٥ كان يحكم المدينة رجلان ، قائد الجند التركى ، وكان يسمى أغات القلعة ، والسردار . وكان هؤلاء الجند يعتدون على الناس ، ويسلبون أموالهم ، وينهبون بيوتهم ، ويقتلونهم أيضا إذا شاءوا . ويعلم القائد والسردار أمر هذا الذى يفعله جنودهما بالناس ، فلا يغضبان عليهم . ولا يمنعانهم منه ، ويطلب الناس من القائدين أن يحفظا عليهم أمنهم ، وأموالهم ، وحياتهم من عدوان جندهم ، فلا يستجيبان لهم . ولا يسمعان .

وفى يوم من أيام هذا الشهر ، قتل جند السردار رجــلا من أهل المدينة ، عدوانا وظلما . فلم يشتك الناس ، ولم يطلبوا أمنا ولا عدلا . بل دفعهم الغضب لأن يأخذوا بثأر قتيلهم ، وثأرهم ، بأيديهم ، فثاروا ، وقصدوا إلى حيث كان السردار فقبضوا عليه ، وضربوه ، واشتدوا فى إهانته وتحقيره . ثم جرّسوه — وكانت عقوبة « التجريس » هذه ذائعة فى تلك العهود — حلقوا نصف لحيته ،

وأركبوه على ظهر حمار ، وأخذوا يطوفون به على هـــذه الصورة شوارع الإسكندرية وطرقاتها ، عارى الرأس ، وهم يصفعونه ، ويضربونه بالنعال ٠

وهكذا كان ثأر الشعب لنفسه ، وغضبه على من يجور عليه ، ويمتهنه ٠

ومن هذه الغضبات ما فعله أهل بولاق بجند الدولة ٠ فقد حاربوهم ، وظهروا عليهم .

كان ذلك فى بدء حكم محمد على . وكان هذا يستعين فى ذلك الوقت بطوائف الجند، من الأراك ، والأرنؤود ، وجند الشام ، الذين كانوا يعرفون « بالدلاة » ، وغيرهم . وكان يضرب هؤلاء الأجناس المختلفة المتنافرة بعضها ببعض . ليستريح منها جميعا . كما يضربها بالمماليك ، ويضرب بها المماليك ٠ فكان الناس فى هذه الفوضى الشاملة ، لايجدون أمنا ولا سلاما ٠ فيفزعون إلى زعيمهم عمر مكرم ، نصير محمد على وصديقه فى ذلك الوقت ، ولكن محمد على لايستطيع ، أو لا يريد ، أن يزجر الجند ، ويكفهم عن الإضرار بالشعب ، وعن إيذائه . فلما كثرت شكاية الناس من عدوان الجند ، وأخذهم بيوتهم بالقهر والقوة ٠ أمر محمد على بأن يترك الناس سلاحهم نهارا ، حتى لا يشتبكوا بالجند . وأن يحملوه ليلا ، لحماية أنفسهم . ولكن الشعب أبى أن يترك سلاحه. وقال الناس : إننا عندئذ نكون طعمة للجند نهارا ، وخفراء بالليل ، نحفظ الأمن فى بلد لايستطيع حاكمه أن يحكم على جنده ورجاله ٠ ووافق زعيمهم عمر مكرم على ماقالوا . بل أمرهم بالدفاع عن أنفسهم ، وألا يلقوا سلاحهم نهارا ولا ليلا ٠

وقدم جماعة من الجند الدلاة إلى بولاق ، فى شهر يوليو سنة ١٨٠٥ فدخلوا بيوت الناس ، وأخرجوا منها أهلها ، وسكنوها ، وربطوا فيها خيولهم . فهب أهل بولاق للدفاع عن أنفسهم وحرماتهم ، وكرامة بيوتهم . وحاربوا هؤلاء الجند . وقتل من هؤلاء وهؤلاء قتلى ٠ ولكن أهل بولاق هزموا جند الدولة وظهروا عليهم . وأخرجوهم من بيوتهم .

قتل ياسف

ولم يكن غضب الشعب ولا ثورته ، يقفان عند حد التجريس والحرب . بل كان أيضاً يجازى الظالمين بإهدار دمهم ، وقتلهم . كما نرى فى قصة ياسف .

ففى رمضان من سنة ١١٠٨ (ابريل سنة ١٦٩٧) طلب ملتزم دار الضرب — سك النقود — للسفر إلى إسلامبول . وكان هذا الملتزم اسمه « ياسف » اليهودى . فلما سافر سأله رجال الدولة عن أحوال مصر ، وهل يمكن أن تزاد الجبايات والضرائب على أهلها ... ؟ فقال بإمكان ذلك . وإنه كفيل بتحصيلها . ونظم لهم أمر هذه الزيادة . ففرح رجال الدولة بذلك ، وأعجبهم إخلاصه وتدبيره ، وكتبوا له الفرمانات والأوامر السلطانية ، بزيادة الضرائب . ثم عاد إلى مصر لينفذ مشيئة الدولة . فلما قدم مصر ، تلقاه قومه فى بولاق . وصعدوا به إلى الديوان . وقرئت الأوامر التى قدم بها . ووافقه الباشا على تنفيذها . ونادى رجاله بذلك على الناس فى الطرقات والشوارع .

يقول الجبرتى فاغتم الناس ، وتوجه التجار وأعيان البلد إلى الأمراء — يعنى المماليك — وراجعوهم فى ذلك . فركب الأمراء ، والصناجق وطلعوا إلى القلعة . وفاوضوا الباشا ، فجاوبهم بما لا يرضيهم . فقاموا عليه قومة واحدة ، وسألوه أن يسلمهم ياسفا ، فامتنع من تسليمه . فأغلظوا عليه وصمموا على أخذه منه . فلما لم يجد بداً من تسليمه ، طلب إليهم أن يضعوه فى العرقانة — السجن — ولا يشوشوا عليه ، حتى ينظروا فى أمره . ففعلوا به ذلك . ولكن الجند قاموا على الباشا وطلبوا أن يسلمهم ياسفا ليقتلوه ، فامتنع . فمضوا إلى السجن وأخرجوه ، وقتلوه . وجروه من رجله ، وطرحوه فى الرميلة(١) . وقامت الرعايا — أى الشعب — فجمعوا حطبا وأحرقوه .

وذلك جزاء الظالمين .

---

(١) الآن ميدان المنشية .

وفى حادث ياسف هذا يروى الجبرتى شعرا ظريفا لشاعر معاصر هو الشيخ حسن البدرى الحجازى . فهو يصف ياسفا ، ومتى ، وكيف دخل القاهرة ، على ظهر جواده . ثم ماجرى له بعد ذلك من قص رقبته ، فيقول :

فظ ، غليظ ، عنيف سوء ، كريه لقاه
بعشر صوم أتانا له جـواد علاه
والناس تشتد سعياً أمامـــه ووراه
ومعه أمر وفيـــه ما قـــاده لرداه
فحين قص عليهم ماقص ، قصوا قفاه
بصارم ذى صقال أزال عنا عنــاه

الشيخ الدردير يقود الثورة

وفى هذه الثورات الشعبية التى كان يهب فيها أهل مصر لرد عدوان الظالمين عنهم ، وعقابهم أيضاً . كان العلماء والقادة يشاركون الشعب إحساسه وثورته ، بل كثيرا ما كانوا يقودونه فى ثورته ، ويحرضونه . وللشيخ أحمد الدردير — وكان من أكبر العلماء ، ومفتيا للمالكية — فى ذلك مواقف كريمة ، نذكر بعضاً منها : —

فى يوم من أيام ربيـــع الأول من سنة ١٢٠٠ (يناير ١٧٨٦) قام حسين بك شفت[١] أحد كبار المماليك ، و معه طائفة من جنوده قاصدا منطقة الحسينية واقتحم دار رجل اسمه أحمد سالم الجزار ، كان رئيسا على دراويش الشيخ البيومى ، ونهب الأمير حسين دار هذا الشيخ . وفى صباح اليوم التالى ثار جماعة من الحسينية ، وخرجوا إلى الأزهر ، وشكوا أمرهم إلى الشيخ أحمد الدردير ، فشجعهم فى ثورتهم ، وغضب لهم وقال لهم أنا معكم . فقام الغاضبون

---

(١) يقول الجبرتى إن « شفت » معناها اليهودى . والأرجح أنها محرفة من كلمة « جفت » التركية . بهذا المعنى .

إلى أبواب الأزهر فغلقوها ، وصعدت طائفة منهم على المآذن يصيحون ، ويدقون الطبول ، وانتشر الناس فى الأسواق وقد ظهر عليهم الغضب والتحفز ، وأقفل التجار متاجرهم . فلما رأى الشيخ الدردير ثورتهم هذه قال لهم : موعدنا غد ، لنجمع الناس من أطراف المدينة ، وبولاق ومصر القديمة . وأسير معكم إلى بيوت هؤلاء الأمراء ننهبها كما ينهبون بيوتنا . وسينصرنا الله عليهم ، أونموت شهداء ، وبعد ساعات من النهار ، أرسل إبراهيم بك ، شيخ البلد وكبير المماليك، ونائبهُ، أميرا آخر ، إلى الشيخ الدردير يرجوه أن يرسل إليه قائمة بجميع ما نهب من بيت الشيخ الجزار حتى يرده إليه .

وفى شهر جمادى الآخرة ، من السنة نفسها كان مولد السيد البدوى ، فى طنطا ، وكان الشيخ الدردير فى المولد ، وجاء كاشف الغربية ، أى حاكمها ، من قبل إبراهيم بك ، ففرض على الناس مغارم ثقيلة . وأخذ إبلا لبعض الأعراب كانوا يبيعونها فى المولد . فشكوا أمرهم إلى الشيخ . فأمر بعض أتباعه أن يذهبوا إلى الكاشف ، فخشوا بطشه ، ولم يذهبوا . فركب الشيخ بنفسه ، ومعه بعض أتباعه ، وكثير من العامة . فلما أقبل على خيمة الكاشف ناداه فحضر إليه . وكلمه الشيخ ، وهو على ظهر بغلته وقال له : إنكم لاتخافون الله . واشتد عليه بالتأنيب والزجر . فلما رأى الناس ذلك خرجوا عن طورهم . وضربوا نائب الكاشف . وقامت فتنة بينهم وبين الجند ضرب فيها وأسر واحد من أتباع الشيخ . وذهب كاشف المنوفية وكاشف الغربية بعد ذلك يعتذران إلى الشيخ . ولما عاد إلى القاهرة قدم إبراهيم بك بنفسه إلى منزله معتذرا ومعه كبار المماليك .

وقبل ذلك بعشر سنين ، آلت بعض الأوقاف المحبوسة على طلبة العلم إلى الطلبة المغاربة . ولكن واضع اليد جحد هذه الأيلولة ، وأبى أن يسلم الحق لأصحابه . ولجأ فى ذلك إلى الأمير يوسف بك ، أمير الحاج ، فنصره هذا على باطله . وأقام المغاربة دعواهم أمام القاضى ، فأثبت لهم حقهم . ولكن الأمر كبر

على يوسف بك وأبى أن يمتثل لحكم القضاء . بل أمر بالشيخ عباس — زعيم المطالبين بوقف المغاربة — أن يساق إلى السجن . فلما ذهب رسل الأمير يوسف بك إلى الأزهر لأخذ الشيخ عباس ، طردهم الأزهريون ، وسبّوهم ، ولم يمكنوهم منه . ثم قصدوا إلى الشيخ أحمد الدردير فأخبروه الخبر . فكتب الشيخ إلى يوسف بك ألا يتعرض لأهل العلم ، وألا يعاند فى حكم أصدره القاضى . وأرسل الشيخ كتابه هذا إلى يوسف بك مع شيخين اختارهما لذلك . فلما وصل الشيخان برسالة الدردير ، أمر يوسف بك بالقبض عليهما ، وزجرهما ، زجرا شديدا . ثم سجنهما .

ووصل خبر ذلك إلى الشيخ الدردير ، وأهل الأزهر . فاجتمعوا عند الصباح وأبطلوا دروس العلم ، والأذان ، والصلاة . وأقفلوا أبواب الجامع . وجلس العلماء عند القبلة القديمة . وكان الأزهر يموج بالناس ، فصعد الصغار منهم إلى المنارات والمآذن يكثرون من الدعاء على الأمراء . وشارك الشعب أهل الأزهر شعورهم بالسخط واحتجاجهم على الظلم ، فغلقت الحوانيت والمتاجر . وعرف الأمراء ماجرى فأرسلوا إلى يوسف بك ليطلق سراح الشيخين ، فأطلقهما ، وأرسل شيخ البلد إبراهيم بك ، كبيرا من رجاله إلى العلماء ، فلم يستطع إرضاءهم . وجاء كبير آخر يطلب إلى الناس أن يفتحوا متاجرهم ، وينصرفوا لشأنهم . فذهب إليه طلبة الأزهر ، وجموع من الشعب بأيديهم العصى والمساوق . وضربوا أتباع هذا الكبير ورجموهم بالحجارة . فأطلق عليهم هو ورجاله الرصاص . وقتل ثلاثة من الطلبة ، وجرح بعض أفراد الشعب . وخشى الأمراء بعد ذلك أن يتفاقم الخطب ، وتزيد ثورة الشعب والعلماء اشتعالا ، فأرسلوا فى اليوم التالى كبيرا منهم ، مع الشيخ السادات ، وآخرين من الأمراء . ورأوا من الحكمة ألا يذهبوا إلى الأزهر ، فى وسط هذه الفتنة . فجلسوا فى مسجد الأشرف ، وأرسلوا إلى أهل الأزهر ومن معهم من الثائرين ، أنّ طلباتهم أجيبت ، فلم يقنعهم ذلك ، ولم يتركوا أماكنهم . فلم ير إسماعيل بك ، كبير الأمراء ، بدآ من أن يذهب بنفسه إليهم . فنزل مع الشيخ السادات . ولم يستطع أن يواجه الثائرين

داخل الأزهر ، فجلس مع السادات فى مسجد المؤيد ، وأرسلا إليهم كتابا تعهد فيه إسماعيل بك بأن يجيب رغائبهم ، ويقبل جميع مايطلبون ، وقال : إن ضمينه فى ذلك الشيخ السادات . وظل إسماعيل بك يراسل المتترّسين داخل الأزهر يوما كاملا حتى استجابوا ، وفتحوا أبواب الأزهر ، وكان مما شرطوه على إسماعيل بك ألا يمرّ الأغا ، ولا الوالى أو المحتسب قريبا من الأزهر .

واعظ من الروم

وفى سنة ١٧١١ كان فى القاهرة واعظ رومى ، أى تركى ، جلس فى مسجد المؤيد يدعو الناس إلى ترك البدعة ، والمغالاة فى زيارة الأضرحة والقبور ، والتوسل . وقام بينه وبين مخالفيه فى هذه الدعوة نزاع شديد . استعان فيه المخالفون بفتوى أصدرها بعض العلماء ، واستعان فيه الواعظ الرومى بأنصاره الذين آمنوا بفكرته واعتقدوها . وكانوا جمعا عظيما ، يقرب من الألف . فسار بهم إلى أن دخل بيت القاضى . فلما رآهم القاضى ، وشاهد كثرتهم ، انزعج منهم . ثم سألهم عما يريدون ، فقالوا : نريد أن تحضر الذين أصدروا هذه الفتوى لنباحثهم أمامك . فاحتال عليهم القاضى ليخلص منهم . ولكنهم لم يتركوه حتى استصدروا منه فتوى بصحة رأى الواعظ وغلط مخالفيه . وكانت بين القاضى وترجمانه ، وبين جماهير الشعب ، موقعة صغيرة . ضرب فيها الترجمان ، واختفى القاضى وحريمه . ولكن الواعظ الرومى اختفى أيضا : مُنع من إلقاء درسه . فلما ذهب الناس إلى مسجد المؤيد ولم يجدوه ، ذهبوا بجمعهم إلى المحكمة . فلما رآهم القاضى ومن فيها ، طارت عقولهم من الخوف ، وفر من بالمحكمة من الشهود . ولم يبق إلا القاضى . فدخلوا عليه وقالوا له : أين شيخنا . . . . ؟ فقال لا أدرى . فطلبوا إليه أن يذهب معهم إلى الوالى ليحدثه فى هذا الشأن . ويطلب إليه أن يحضر المخالفين للواعظ ليناقشوهم . فإن أثبتوا دعواهم ، نجوا ، وإلا قتلناهم . فركب معهم القاضى ، وهم يحيطون به ، إلى أن صعدوا إلى القلعة لمقابلة الباشا الوالى . فتحدث هذا إلى القاضى ، حديثا فيه لوم على حضوره مع هذه

الجموع الكثيرة الغاضبة . وفيه توجس وخوف من غضب هؤلاء الثائرين . فقال له القاضى : — انظر إليهم . فهم الذين أرغمونى على أن أجيء معهم إليك .

ونظر الباشا إلى الثائرين على خطف شيخهم . ورأى فى عيونهم نظرة الشر والغضب والتحدى . ولم يستطع أن يصطدم بهم . فأمر بما يريدون . أن يحضر الشيخان اللذان عارضا الواعظ ليجادلاه . وأن يمكن هذا من إلقاء وعظه . وذهب الناس فجاءوا بواعظهم وأجلسوه على مقعده فى مسجد المؤيد[1] .

أحمد باشا الدفتردار

ولم تكن ثورة الشعب على الأمراء ، والجند ، والحكام ، وخدمهم . بل كان يثور على الولاة أنفسهم . يتحداهم ويحاربهم ، وهو بذلك يحارب سلطان الدولة التى ولتهم فى إسلامبول . ونجد فى تاريخ هذه الفترة كثيرا من الثورات الشعبية التى عصفت بحكم الوالى نفسه . ونجد أن أهل القاهرة استطاعوا ، غير مرة ، أن يعزلوا الظلمة من الولاة . وأن ينزلوهم من القلعة ، مقر الحكم إذ ذاك ، وأن يرغموا السلطان على إقالتهم وإخراجهم من مصر ، مقهورين ، مهانين .

فمن ذلك ما حدث للوالى أحمد باشا الدفتردار . ففى سنة ١٠٨٦ هـ ١٦٧٥ م ، اختارته الدولة واليا على مصر . وعرف الناس أنه سيحدث أحداثا من الضرائب والمظالم . وكان له صديق اسمه عبد الفتاح أفندى الشعراوى قدم معه من إسلامبول ، وكان الناس يعتقدون أنه يحرضه على هذه الأحداث . فوقفوا فى طريقه عند نزوله من القلعة وقتلوه وقطعوا أوصاله . ثم ذهبوا إلى أحمد باشا فى القلعة ، وساعدهم الجند والأمراء ، وطلبوا إليه أن يعتزل ، فأبى ، فهددوه بالقتل ، وأن يصنعوا به مثل ما صنعوا بصديقه الشعراوى . ثم نظر فرأى ثورة الشعب ،

---

(١) تفصيل قصة هذا الواعظ فى الجزء الأول من هذا الكتاب ، ص ٩٧ — ١٠٠

وتربصهم به ، وأنهم يحيطون بالقلعة ، يزيد عددهم ولا ينقص . فآثر السلامة ، ونزل ، فوضع فى بيت يحى الصليبة ، حتى جاء خلفه وصعد إلى القلعة .

زحف الجياع

بل نجد أن الفقراء ، والنساء ، والشحاذين . كانت لهم ثورة عزل بسببها وال ظالم .

فقد جاءت سنة ١١٠٧ (١٦٩٥م) ومصر تعانى غلاء شديدا ، ومجاعة . والناس فى كرب عظيم ، بالقاهرة والأقاليم . ونزح أهل القرى إلى مصر ، حتى امتلأت منهم الأزقة . وأكل الناس الجيف ، ومات الكثير من الجوع . وخلت القرى من أهلها . وخطف الفقراء الخبز من الأسواق ، ومن الأفران ، ومن فوق رؤوس الخبازين . يذهب الرجلان والثلاثة مع طبق الخبز يحرسونه وبأيديهم العصى ، حتى يخبزوه بالفرن ثم يعودوا به . وكانت مع ذلك ، خزائن الوالى وكبار رجاله ملآى بالقمح ، وغيره من خيرات مصر .

يقول الجبرتى : « وفى منتصف المحرم ، اجتمع الفقراء والشحاذون ، رجالا ، ونساء ، وصبيانا . وطلعوا إلى القلعة ، ووقفوا بحوش الديوان ، وصاحوا من الجوع . فلم يجبهم أحد ، فرجموا بالأحجار . فركب الوالى وطردهم فنزلوا إلى الرميلة ونهبوا حواصل الغلة التى بها ، ووكالة القمح ، وحاصل كتخدا (أى نائب الباشا) وكان ملآنا بالشعير والفول . وكانت من هذه الحادثة ابتداء الغلاء[1] » .

وكان من نتيجة هذه السياسة الظالمة ، العجيبة . وتخفيفا لغضب الشعب ، أن عزل هـذا الوالى الظالم ، على باشا خازن دار ، واستبدل به إسماعيل باشا ، فلما استقر بالقلعة ، فى يوم الخميس السابع عشر من صفر ، ورأى ما فيه الناس من الكرب والجوع ، أمر بجمع الفقراء والشحاذين ، بقراميدان . فلما اجتمعوا أمر بتوزيعهم على الأمراء والأعيان . كل إنسان على قدر حاله . واختص هو

(١) ما أقتبسه من الجبرتى أنقله بنصه ، وما قد يكون فيه من خطأ .

وأعيان دولته بفريق منهم ، وعيّن لهم ما يكفيهم من الخبز والطعام ، صبحا ومساء ، إلى أن انقضى الغلاء . وجاء بعد ذلك وباء عظيم . فأمر هذا الوالى بتكفين الموتى من الفقراء والغرباء ، من بيت المال . فصاروا يحملونهم من الطرقات ، ويذهبون بهم إلى مغسل السلطان ، عند سبيل المؤمن .

وقد عزل على باشا الظالم ، بعد ثلاثة أيام من زحف الجياع .

وقد نقلت ما وصف به الجبرتى حال الناس من الجوع والمرض ، لنستطيع أن ندرك ما كان عليه الشعب من التلاشى . ومع ذلك فقد كان يثور ، ويفتك بظالميه ، ويعزلهم من الولاية .

وثيقة حقوق الإنسان

واستطاع شعب مصر ، فى ثوراته القوية المتعددة على الظلم والظالمين ، أن ينتزع منهم « وثيقة حقوق الإنسان » فى الحرية ، والعدل ، والأمن . قبل أن يستتب الأمر للثورات الكبرى ، فى أوربا .

ففى شهر ذى الحجة من سنة ١٢٠٩ (١٧٩٥ م) جاء إلى الشيخ عبد الله الشرقاوى جماعة من فلاحى مدينة بلبيس — وكان له أرض بها — فشكوا إليه محمد بك الألفى ، وأنه يفرض عليهم مالا قدرة لهم به . فغضب الشيخ وتوجه إلى الأزهر فجمع شيوخه وأقفلوا أبواب الجامع وأمروا الناس بترك الأسواق والمتاجر .

وركب الشيوخ فى اليوم التالى ، وتبعهم كثير من الناس ، إلى بيت الشيخ محمد السادات . واجتمع جمهور كبير من الشعب . وكان بيت إبراهيم بك ، شيخ البلد ، قريبا من بيت السادات . فلما رأى زحمة الناس وتكاثرهم ، أرسل أيوب بك الدفتردار إلى العلماء ، فوقف بين يديهم ، يسألهم عن مرادهم . فقالوا : نريد العدل، ورفع الظلم والجور ، وإقامة الشرع ، وإبطال الحوادث والمكوسات . أى الضرائب .

وكانت ملحمة كلامية شديدة ، بين العلماء وأيوب بك . قال العلماء فيها مخاطبين الحكام : إن ماتدّعونه من كثرة النفقات : ليس بعذر عند الله ، ولا عند الناس ، وما الباعث على الإكثار من النفقات والأمير يكون أميرا بالإعطاء لا بالأخذ ... ؟

وبلغ الأمر غايته ، وخاف إبراهيم بك مغبة الثورة . فأرسل إلى العلماء — وكانوا يقضون ليلتهم داخل الأزهر — : أنه يؤيدهم فى غضبهم ويبرئ نفسه من تبعة الظلم ، ويلقيها على كاهل شريكه مراد بك . وأرسل فى الوقت نفسه إلى مراد يحذره عاقبة الثورة . واستسلم مراد بك ، فأرسل إلى العلماء ، والشعب من ورائهم ، يجيبهم إلى مايطلبون .

وفى اليوم الثالث — وكان العلماء والناس معهم لايزالون مرابطين داخل الأزهر — حضر الوالى إلى منزل إبراهيم بك ، واجتمع الأمراء أيضا ، وأرسلوا إلى العلماء ، فحضر منهم الشيخ السادات ، والسيد عمر مكرم ، والشيخ الشرقاوى ، والشيخ البكرى ، والشيخ الأمير . وكان هؤلاء رسل الثورة وقوادها ، وطال الجدل بين الشيوخ وبين الأمراء ، ثم انتهى بأن أعلن الظالمون أنهم تابوا ورجعوا ، والتزموا ماشرطه العلماء عليهم . وأعلنوا أنهم سيبطلون المظالم والضرائب المحدثة ، ويأمرون أتباعهم بالكف عن سلب أموال الناس ، ويرسلون أوقاف الحرمين الشريفين ، والعوائد المقررة إليهما . ويسيرون فى الناس سيرة حسنة .

وكان قاضى القضاة حاضرا هذا المجلس . فكتب على الأمراء وثيقة بذلك . أمضاها الوالى وإبراهيم بك ، ومراد بك . وخرج العلماء من هذا المجلس التاريخى تحيط بكل واحد منهم جماعة عظيمة ، وهم ينادون : لقد رسم سادتنا العلماء ، أن المظالم رفعت عن مملكة الديار المصرية ، وفرح الناس .

وهذه وثيقة حقوق الإنسان . أعلنها شعب مصر ، وقهر حاكميه ، على توقيعها منذ ١٦٠ عاما .

خورشيد باشا والفلاحون

أما كفاح الشعب للوالى أحمد باشا خورشيد ، وحصاره له ، وحربه الطويلة الشاقة معه ، ثم عزله . فهو كفاح جدير بشعب مصر حقاً ، وهذه قصته .

كانت مصر فى مستهل القرن التاسع عشر نهبا للأعاصير والزعازع والفتن ، بعد خروج الحملة الفرنسية منها ، وبعد هذه السنين القاسية ، التى كافحت مصر فيها كفاح الأبطال للتخلص من هذه الحملة .

وجاءت سنة ١٨٠٥ وفى ولاية مصر أحمد باشا خورشيد . وكان رجلا ظالماً يستعين على ظلم المصريين بجند « الدلاة » أو « الدلاتية » وكانوا أكثر طوائف الجند قسوة ، وتنكيلا ، وجورا على أهل مصر . كما رأينا من وصفهم فى الجزء الأول .

وارتفع صوت الشعب ، طالبا إلى هذا الحاكم الظالم أن يعتزل حكمه . ولكنه أبى أن يستمع . بل أدلّ بقوته وجبروته . وطلب إلى السيد عمر مكرم — زعيم مصر إذ ذاك — وإلى العلماء أن يجيئوا إليه . فلما جاءوه ، قال لهم بصوت الحاكم المطلق : إنى موَلى بأمر السلطان (وكيل مفوض ودستور مكرم أعزل من أشاء وأولّى من أشاء) ولكن صاحب هذه السطوة كلها لم يفلح فى إرهاب الشعب ، فقد بدأ العلماء يجتمعون ويتشاورون ، ثم انتهوا إلى الامتناع عن إلقاء دروسهم فى الأزهر ، وبدأ الشعب بقيادة زعيمه عمر مكرم ، يتحفز للثورة على مفوض السلطان وصاحب الدستور المكرم ..!

وعندما رأى خورشيد هذه القوة من روح الشعب ، أرسل نائبه إلى العلماء ، وإلى السيد عمر ، يتودّد إليهم فلم ينخدعوا له ، وتربص الشعب بنائب الوالى فأوسعه رجما بالحجارة ، وسبوه ، وشتموه .

ثم اجتمع العلماء والناس ، حتى الصبيان ، فى بيت قاضى القضاة . وأجمعوا أمرهم على التخلص من هذا الباشا الظالم . واتفق رأى الجميع على أن يكتب القاضى إلى كبار أهل الدولة ، فحضروا جميعا ، وطفقوا يتزلفون إلى ممثلى الشعب من العلماء والقادة . ثم جعلوا أنفسهم وسطاء بين الشعب والوالى . وأرسل خورشيد ، بعد أن نقل إليه أنصاره ماشهدوا من غضب العلماء والشعب ، أرسل يطلب إليه القاضى

والعلماء يزعم أنه يستشيرهم . ولـكن السيد عمر ، منعهم من الذهاب . فامتنعوا .
وفى اليوم التالى لهذا الرفض اجتمع الزعيم عمر مكرم بالعلماء ، وبكثير من الشعب فعزلوا خورشيد ، ثم أبلغوه قرارهم ، فـكان جوابه أن قال : إنى موكلى من طرف السلطان فلا أعزل بأمر الفلاحين ... !

عند ذلك خرج الناس ، حتى العلماء ، يحملون سلاحهم وعصيهم . فامتلأت بهم بركة الأزبكية . وكتب قاضى القضاة إلى خورشيد يحذره نتيجة عناده وشططه . وقال له : إنه حضر إلىّ نحو أربعين ألفا من الناس يطالبون بعزلـكم أو حربكم .
وأخذ مكرم والعلماء يحرضون الناس على الحرب ، ويأمرونهم بحصار القلعة ، حتى ينزل منها خورشيد . وأطاع الشعب أمر قادته ، فخرج الناس أفواجاً يتسابقون ويقيمون المتاريس ، ويحكمون الحصار ، وينيرون فى الليل المشاعل ، ساهرين يرقبون ما يفعله خورشيد وجنده . وجاءت جموع المحاربين ثائرة من الحسينية والعطوف والقلعة والأزهر والقرافة والصليبة ومن أطراف القاهرة ، ومعهم طبولهم وبيارقهم وأسلحتهم ملبين أمر قادتهم . وقد بلغت حماسة الشعب حدا فائقا ، حتى كان الفقير يبيع ثيابه أو يستدين ليشترى سلاحا . وشارك القبط إخوانهم المسلمين موقفهم وشعورهم ، وكان كبيرهم المعلم جرجس الجوهرى ، يجتمع بالعلماء الشيوخ : الشرقاوى والأمير وقاضى القضاة فى بيت السيد عمر لتنظيم الثورة وتوجيهها .

وفى غمار هذه الحماسة الفياضة ، جاء كبير من رجال خورشيد . يريد أن يوهن عزيمة السيد عمر مكرم . وأن يثير شكوكه فى صواب ما فعلوا ، وأن يوقع الفتنة بينه وبين غيره من العلماء والقادة . قال الكبير من رجال خورشيد للسيد عمر : كيف تعزلون من ولاه السلطان عليـكم . وقد قال الله تعالى : — وأطيعوا الله ، وأطيعوا الرسول ، وأولى الأمر منـكم ؟ ولـكن الزعيم مكرما أجابه بما أسكته ، ولم يكن يخطر له ببال ، فقال : أولوا الأمر ، العلماء ، وحملة الشريعة ، والسلطان العادل . وهذا الرجل ظالم . وللناس أن يعزلوا الحاكم الظالم ، وأن يخلعوه . حتى الخليفة والسلطان إذا سار فيهم بالجور ، فإنهم يعزلونه ويخلعونه .

وهذا الجواب من عمر مكرم ، يدلنا على مستوى الإدراك السياسى والحرص على حقوق الشعب وسيادته ، عند أهل وطننا منذ مئة وخمسين سنة .

ثم سار عمر مكرم ، بعد هذه المناقشة المفحمة ، على رأس الجموع المسلحة من أبناء الشعب ، ليحكم الحصار على القلعة . وتخلّف بعض من الجند كان يحاصر القلعة مع المحاصرين — وكان ذلك بسبب رواتبهم — فذهب جماعة من المتطوعين فأقاموا مقامهم .

وطال الحصار بخورشيد وأوشك أن يفتك به وبقومه الجوع والعطش . فأرسل كتابا إلى بعض أنصاره ، فى قليوب ، يطلب إليهم أن يخرجوه من حصار « الفلاحين » « صيانة لعرض السلطنة . وناموس الدين » ولكنهم ، خشية من غضب الشعب ، بعثوا برسالته إلى السيد عمر مكرم .

وبقى الشعب يحاصر خورشيد باشا ومن معه فى القلعة زمناً يقرب من شهرين حتى ضاق به وبهم الحال . وكان بعض رجاله يتسلل إلى خارجها لينال شيئا من طعام أوماء ، فكان الناس يأخذونه أسيرا ، أو يقتلونه ، وفى كثير من أيام هذا الحصار الطويل كانت مدافع القلعة ترمى قنابلها على الناس والبيوت ، وبعض هذه القنابل كان يزن قنطارين ، فكان المحاصرون والمتطوعون من أبناء الشعب يرمون قنابل مدافعهم كذلك على القلعة .

ثم جاء بعد ذلك « فرمان » من السلطان بعزل خورشيد ، نزولا على إرادة الشعب . وقدم بالفرمان من إسطنبول رسول خاص هو بشير أغا . ولكن خورشيد أصر على عناده ، ولم يمتثل أمر السلطان وقال إنى وليت حكم مصر « بخطوط شريفة ، وأوامر منيفة ، ولا أنعزل بورقة . . ! » .

وبقيت الحرب ، وبقى الحصار أياما أخرى حتى جاء إلى خورشيد باشا مرة ثانية « سلحدار » من قبل السلطان ومعه أمر بالنزول من القلعة لساعته حيث لم يرض العلماء والناس أن يظل والياً عليهم . وصعد رسولا السلطان ، بشير أغا

والسلحدار ، إلى القلعة فاجتمعا بخورشيد ، وشكا إليهما أصابه من حرب أهل مصر وحصارهم له حتى لم يبق عنده غير الثوب الذى يلبسه . !

وأرسل السيد عمر مكرم مائتين من الإبل فحملت متاع المحاصرين ونساء خورشيد ثم نزل هو فاستضافه مكرم . ولعله أراد أمرا آخر غير الضيافة زيادة فى الحذر والحيطة . لأنه حذر الناس من ترك سلاحهم ومتاريسهم حتى يرحل خورشيد ومن معه ، وقال : — هؤلاء قوم لا عهد لهم ولا ذمة ، ولا يؤمنون .

وبقى خورشيد فى بيت الزعيم مكرم خمسة أيام ثم خرج — فى ١٣ أغسطس سنة ١٨٠٤ — فركب النيل من بولاق ، بعد أن حاربه أهل مصر ، وحصروه فى القلعة حوالى ثلاثة أشهر . خرج الحاكم الظالم مقهورا بعزيمة من كان يسميهم «الفلاحين» .

وعاد العلماء ففتحوا أبواب الأزهر ، وقرأوا دروسهم ، وفتح الناس متاجرهم ، وتركوا سلاحهم فرحين ، وانصرف كل لشأنه .

لقد انتصرت إرادة الشعب .

ويجب أن نلاحظ ونحن نسجل هذا النصر الحاسم لشعب مصر ، أنه كان ثمرة لاتحاد الشعب كله ، قادته وأفراده .

فقد رأينا أصحاب الرأى والسيادة ، وهم العلماء ، يقودون الشعب ويحملون — إذا لزم الأمر — سلاحهم يقاتلون .

ورأينا ممثل السلطة الروحية العليا ، وهو قاضى القضاة ، ولو أنه كان تركيا ، يستجيب لصوت الشعب ، وينصاع له وينصره . ورأينا القبط مع المسلمين يدا واحدة ، وإحساسا واحدا . يشترك كبيرهم مع العلماء والقاضى ، فى السعى والتدبير لنصرة الشعب ، ونجاح ثورته .

ورأينا قبل هؤلاء زعيم مصر السياسى ، عمر مكرم ، يقود هذه الثورة بفكره الراجح ، وشجاعته وفطنته .

ورأينا هؤلاء جميعاً ، يؤمنون بفكرتهم ، وبالشعب . ويؤثرونها ويؤثرونه ،

على راحتهم ، وأموالهم ، وحياتهم . ليس فى نفوسهم حسد ، ولا ضغينة ، ولا أنانية . ولا تستتر فى ضمائرهم أحاسيس خفية ، ولا شهوات ، ولا مطامع .

ورأينا ، خلف هؤلاء وهؤلاء ، شعب مصر المكافح ، يثق بقادته . ويؤمن بهم ، ويطيعهم . كان الشعب ينظر إلى قادته نظرة الرضى ، والثقة ، والأمن والطمأنينة . وكان القادة ينظرون إلى الشعب نظرة المودّة ، والمحبّة والتضحية ، والصدق ، فنجحوا ، ونجح الشعب .

وقد أبرزت هذه الروح بطلا شعبيا كان له أثر عظيم فى هذا النجاح ، وهو حجاج الخضرى[1] .

وصدق مهيار الديلمى إذ يقول :

نام ، على الهــون ، الذليلُ ، ودَرى

جفن العزيز ، لم بات يسهد

---

(١) ترجمة حجاج الخضرى فى أواخر هذا الفصل .

فى سبيل الحرية

توجد فى العالم قوتان ، قوة المادة ، وقوة الروح . وقوة الروح دائماً هى الغالبة .

نابليون

الإنجليز والفرنسيون (*)

بدأ الجبرتي حديثه عن سنة ١٢١٣ ، (١٧٩٨ م) وهى السنة التى قدمت فيها حملة نابليون ، بهذه الفقرات القوية المؤثرة . والتى هى فى الوقت نفسه ، صادقة كل الصدق : — (هى أول سنى الملاحم العظيمة ، والحوادث الجسيمة ، والوقائع النازلة ، والنوازل الهائلة . وتضاعف الشرور . وترادف الأمور ، وتوالى المحن ، واختلال الزمن ، وانعكاس المطبوع ، وانقلاب الموضوع ، وتتابع الأهوال ، واختلاف الأحوال . وفساد التدبير ، وحصول التدمير . وعموم الخراب ، وتواتر الأسباب . وما كان ربك مهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون)

والحق أن حملة نابليون على مصر ، كانت نقطة تحول فى تاريخها . وكانت ذات أثر بالغ فى حياة أهلها ، ومستقبلهم . كما كانت محنة من أشد المحن ، التى لقيتها مصر .

وقد تلقى المصريون حملة نابليون ، كما تلقوا الحملة الإنجليزية بعد ذلك ، بعزيمة الرجال ، ودافعوا عن وطنهم دفاع الأبطال . فلم يمكنوا للإنجليز من البقاء فى الإسكندرية ، وجعلوا إقامة نابليون وجنوده فى بلادهم غير سائغة ، ولا مستطاعة . بعد أن مكنهم مراد وإبراهيم ، بحماقتهم . وجبنهم ، وسوء تدبيرهم . من دخول القاهرة ، بعد مقاومة لم تدم ساعة واحدة .

وكانت المقاومة التى لقيها الإنجليز والفرنسيون ، من شعب مصر . صفحة فخار ومجد وبطولة . قلّ أن نجدلها نظيرا فى تاريخ الشعوب المكافحة عن حريتها ، وكرامتها ، وأوطانها . وكانت الظروف التى يخضع لها شعب مصر فى ذلك الوقت ،

(*) اعتمدت فى هذا الفصل على مصادر أخرى كثيرة ، غير الجبرتى . لقصوره فى كثير من النواحى .

ظروفا غريبة ، شاذة . تضاعف من قيمة هذا الكفاح . وتزيد فى نخارها به .

فقد كانت البلاد خاضعة لحكم فاسد ، كله ظلم ، وظلمات . وكان أهلها بين شقّى الرّحى . من منازعات المماليك ، بين بعضهم وبعض تارة ، وبينهم وبين الدولة تارة أخرى ، أو بينهم وبين محمد على . ومن ظلم الولاة الأتراك وجنودهم . وكان مراد قد تسلط عليها هو وشريكه إبراهيم ، وأذاق أهلها من الظلم ما لم يروه فى تاريخهم الطويل ، فلما قدم الإنجليز ، والفرنسيون من قبلهم ، هب المصريون ، من الفلاحين ، والفقراء ، والعامة ، وطلبة الأزهر ، والنساء . للدفاع عن وطنهم ، الذى لم يجدوا فيه أمناً ، ولا سلاما ، ولا طمأنينة . بل لم يجدوا فيه لقمة العيش . فقد كان الظالمون ينزعونها من أفواههم . ولكن المصريين أيقنوا أنه وطنهم ، فلا بد أن يدافعوا عن ترابه . ولو لم ينالوا منه غير هذا التراب . وأن هؤلاء الظالمين لن يدافعوا عنه لأنهم لا يستحقون شرف هذا الدفاع . وأنهم سيجلون عنه يوما ، عاجلا أو آجلا ، كما تنجلى الظلمات .

وهذه الصفحات ، التى نلخصها عن « كفاح الشعب » ضد الغزو الإنجليزى ، والاحتلال الفرنسى . يجب أن تملأ قلوبنا بالفخار ، والعزة والشمم . كما يجب أن ندرسها بوعى جديد .

ومع أن الحملة الفرنسية على مصر كانت ، من الوجهة التاريخية ، أسبق من الغزو الإنجليزى . فقد قدمته عليها . لأن الحديث عن هذه الحملة طويل .

الإنجليز فى الإسكندرية ورشيد

فى يوم الخميس ١٨ من المحرم سنة ١٢١٣ (٢١ يونيو سنة ١٧٩٨ م) قدمت خمس وعشرون سفينة إنجليزية إلى الإسكندرية . ثم نزل عشرة من رجالها إلى المدينة فالتقوا بكبار رجالها . وسألهم السيد محمد كريّم ، حاكم الإسكندرية من قبل مراد بك ، عن خبرهم ، فأجابوه بأنهم يبحثون عن الفرنسيين . لأنهم قدموا بأسطول كبير ، وجيش عظيم . لا يستطيع المصريون أن يحاربوه . ثم قالوا : ونحن نكفيكم مؤونة هذه الحرب . فأجابهم السيد كريم بجواب خشن ، وأغلظ لهم القول . فعرضوا

عليه أن يقفوا فى البحر ، يحرسون المدينة ، وأن يمدهم بالزاد والماء بثمنه ، فرفض . وأقلع الأسطول الإنجليزى . وكانت هـذه هى المحاولة الأولى ، من الإنجليز ، لغزو مصر .

وبعد ذلك بثمانى سنوات ، وكان نابليون قد غادر مصر ، وغادرتها الجيوش الفرنسية . عاد الأسطول الإنجليزى ، مرة أخرى ، إلى الإسكندرية . ولـكنهم فى هـــذه المرة ، لم ينصرفوا عنها حين ردهم أهلها . بل أطلقوا عليها المدافع ، ودخلوها . بحجة المحافظة عليها من الفرنسيين . . ! ويحــدد الجبرتى لدخولهم الإسكندرية يوم الخميس التاسع من شهر المحرم سنة ١٢٢٢ (١٩ مارس ١٨٠٧ م) أى بعد ثمانى سنوات هجرية من المحاولة الأولى .

وكان الإنجليز ، فى هذه المرة ، قدموا مصر باستدعاء محمد بك الألفى ، كبير المماليك وزعيمهم فى ذلك الوقت . فقد سافر الألفى إلى إنجلترا ، وأقام فيها زمنا . وتحالف معهم على أن يسيّروا حملة على مصر ، لنصرته على محمد على . وقدم الإنجليز بناء على هذا الاستدعاء . وكان الألفى قد سبقهم إلى مصر ، ليجمع أنصاره ، ويكمل تسليح جيوشه ، ويمهد لدخول الإنجليز . وبعد أن أتم ذلك . قدم إلى دمنهور ينتظر جيوشهم . ولـكن أهل هذه المدينة حاربوه ، ومنعوه من دخولها . فلما لم يستطع الاستيلاء على دمنهور ، وطال انتظاره للحملة الإنجليزية . اعتقد أنها لن تجىء ، فترك دمنهور قاصدا الصعيد . ولـكنه مات فى الجيزة [1] . وعلم الانجليز بموته . فاتصلوا بأنصاره ، وبزعماء المماليك الذين كان يحاربهم محمد على . وأسرع محمد على حين أُخبر وهو فى أسيوط بقدوم الانجليز ، فاستعان بالعلماء حتى عقد صلحا مع المماليك . ليفرغ لملاقاة الإنجليز ، وقد كفاه الشعب مؤونة هذه الملاقاة .

وقد وقف بعض المماليك من مصر ، موقفا كريما ، أو قل هو الموقف الطبيعى ، فأبى ن يحارب مع الإنجليز أو يساعدهم . فقد أرسلوا إلى عثمان بك حسن ، وكان معه جيش كبير ، فقال إننى رجل مسلم ، هاجرت ، وجاهدت ، وقاتلت الفرنسيين .

---

(١) تجد تفصيل ذلك وترجمة وافية للالفى فى الجزء الثانى من هـذا الـكتاب ص ٩٢ — ١٠٨ .

فلا أختم حياتى بمحاربة إخوانى ، والإستعانة عليهم بالأجانب . وكذلك فعل أيضا كبير من المماليك ، هو عثمان بك يوسف .

وقد جزع محمد على أشد الجزع ، واستولى عليه الخوف . عندما علم أن الإنجليز دخلوا الإسكندرية . فصالح المماليك ، وأجابهم لما شرطوا من شروط . وسار فى طريق عودته من أسيوط إلى القاهرة ، متثاقلا ، يتلقف الأخبار . فإذا علم أن الإنجليز تقدموا ، ودخلوا القاهرة . سار إلى الشام . ولكن الأنباء جاءت بما لقيه الإنجليز على أيدى أهل رشيد ، فتشجع محمد على ، واطمأن .

أما جند الدولة ، فإنه لما شاع بينهم دخول الانجليز ، داخلهم خوف عظيم ، وتهيأ أكثرهم للفرار ، وأخذوا يستخلصون أموالهم التى كانوا يقرضونها للناس بالربا ، ويستبدلون الدراهم والقروش بالذهب ، ليخف حمله عليهم . وتسابقوا إلى شراء أدوات الرحيل ، وبيع متاعهم وفرشهم ، وطلق كثير منهم نساءهم ، ليرحلوا إلى الشام . وخرجت طائفة ، على رأسها حسن باشا طاهر ، من القاهرة إلى بولاق . موهمة أنها خارجة لحرب الإنجليز . ولكنهم تسلطوا على الناس . فاستولوا على حميرهم ، وجمالهم ، غصباً . وأطلقوا خيولهم فى مزارعهم فأكلتها . ثم انتقلوا بعد ذلك إلى منية السيرج ، وشبرا ، والزاوية الحمراء ، والمطرية . ففعلوا فيها مثل ذلك . وزادوا ، نخطفوا دوابهم ، ومواشيهم ، وفجروا بنسائهم . وافتضوا أبكارهم . والغلمان أيضا ، وأخذوهم فباعوهم ، بعضهم لبعض .

ويعلق الجبرتى على ذلك بهذه الجملة التى تفيض بالحسرة ، والسخرية :
« وهكذا يفعل المجاهدون ... ! » .

ثم يقول إن بعض الجنود كان يشق المدينة إلى بولاق . ثم يعودون متسللين . ويراهم الناس يخرجون مرة أخرى . ثم يعودون .

وكذلك كان أمر الوالى فى القاهرة ، ونائبه ، والخازندار ، والدفتردار ، وأشباه هؤلاء من الحكام . فإنهم ، عندما وردت أنباء الغزو ، اكتفوا بأن أبلغوه إلى محمد على .

أما أهل الإسكندرية ، فقد دافعوا ، عن بلدهم ، وشرفهم ؛ ما وسعهم الجهد . ثم سلموا فى اليوم التالى . ودخل الإنجليز المدينة ، على شروط عقدوها معهم .

ولما وصلت هذه الأنباء إلى أهل دمنهور ، أرسلوا إلى السيد عمر مكرم ، زعيم مصر فى ذلك الوقت ، يستنجدونه . ويبلغونه أن حاكم المدينة أخرج منها جنوده ، ومدافعه وأثقاله هاربا من الإنجليز ، وأنه رفض أن يدافع معهم عنها .

وبعد أيام قليلة . كانت طلائع الحملة الإنجليزية فى رشيد . وكان أهلها فى انتظارهم ، يعاونهم جند الدولة . فتركوا جند الحملة حتى دخلوا المدينة ، ثم صبوا عليهم النيران من كل جانب . وضيقوا عليهم فى الشوارع ، والدروب ، والحارات الضيقة حتى طلبوا من أهل رشيد الأمان ، فأمّنوهم وأسروا من نجا من الموت .

وكانت شجاعة رشيد . وبطولة أهلها سببا فى إثارة الحماسة عند غيرهم . حتى حاكم دمنهور الذى تركها قبل أن يصلها الإنجليز ، عاد إليها ، بعدما سمع أنباء رشيد . ولقى فى طريق عودته بعض الجنود الإنجليز فحاربهم ، وقتل من قتل ، ثم أسر الباقين .

وجاء المبشرون بهذه الأنباء إلى القاهرة . فتلقاها رجالها الرسميون بالفرح والغبطة . وأمروا بإطلاق «الشنك»[1] ابتهاجا . وأباحوا لرجالهم أن يطوفوا على بيوت الأغنياء يطلبون منهم البشارة . أما أهل القاهرة فقد أخذوا فى الاستعداد للمقاومة . وانطلق زعيمهم السيد عمر مكرم ، يأمرهم بحمل السلاح ، والتأهب للكفاح . حتى أنه أمر طلبة الأزهر ، وعلماءه ، بترك الدروس . والاشتغال بما يشتغل به الناس من أمر الحرب . واجتمع العلماء ، وكبار الجند ، فى بيت القاضى ، يتشاورون . ويدعون للألفة والصفاء بين أهل القاهرة والجند . حتى يكونوا يدا واحدة ضد المعتدى . ثم انتقلوا بعد ذلك بأنفسهم ، ومعهم كثير من الناس ، بأسلحتهم ، لإقامة خندق فى طريق الإنجليز .

---

(١) المدافع التى تطلق للابتهاج ، أو للتحية .

وبعد أيام دخل القادمون من رشيد ، ودمنهور ، بأسرى الإنجليز ، وقتلاهم . وكان الكبار من هؤلاء الأسرى يركبون الحمير . وفرح القاهريون بذلك فرحا كبيرا . ثم تواتر ورود المبشرين ، ومعهم الأسرى ، ورؤوس القتلى . فيطاف بهم فى شوارع القاهرة ويقف الناس لمشاهدتهم فرحين متهللين . ولا يكاد يمر يوم من شهر صفر ، فى هذه السنة ، من غير أن يذكر فيه الجبرتى خبرا من ذلك .

ولكن فرح القاهريين بنصر إخوانهم ، وتهللهم عند مسير هذه المواكب من الأسرى ، أو رؤوس القتلى ، لم يلههم ولم يقعد بهم عن الاستعداد لملاقاة الغزاة . فقد شرعوا فى تحصين القاهرة . وقام بينهم شعور رائع من التكافل الاجتماعى ، والتساند ، أوجده ، ونماه ، الاشتراك فى المحنة ، ومواجهة الخطر . فكان أهل اليسار يجمعون العمال ، بعضهم يستأجر المائة ، وبعضهم أقل ، ويدفعون لهم أجورهم ليقيموا الخنادق والمتاريس . والفقراء يعملون بأيديهم . وشرع أهل بولاق فى إقامة حائط فى أسفل قلعة السبتية . اشترك فيه المسلمون وغيرهم ، من الأروام ، والسوريين ، والقبط ، والنصارى .

وتلقى أهل القاهرة رسالة من السيد حسن كريت ، نقيب الأشراف فى رشيد ، وزعيم المقاومة الشعبية فيها ، وفى هذه الرسالة يقول : إن الإنجليز عادوا للانتقام من أهلها ، على مالقيه جنودهم الذين دخلوها من قتل وأسر . وقال : إنهم أقاموا استحكاماتهم حول البلدة ، ونصبوا عليها المدافع الثقيلة . فلما قرأ عمر مكرم هذه الرسالة على الناس ، واستنفرهم للجهاد ، حملوا أسلحتهم ، وخرج كثير منهم ، من المغاربة ، والأتراك ، تجارا وجنودا ، وأهل الصعيد الذين يقيمون فى القاهرة . وذهب عمر مكرم إلى نائب محمد على يستأذن لهم فى السفر إلى رشيد ، ومعاونة أهلها . فلم يأذن ، وقال حتى يعود الوالى ويرى رأيه فى ذلك . ولكن كثيرين من أهل القاهرة سارعوا لنجدة إخوانهم ، ولم ينتظروا إذن الباشا .

وتعرض أهل رشيد فى هذه الحرب لأشد المحن . فإن الإنجليز الذين يحاصرونها

هدموا بمدافعهم كثيرا من بيوتها . وقتلوا كثيرين . ومن لم يقتل منهم أضناه السهر والجهد وملازمة الحراسة ليلا ونهارا .

ثم جاءت بعد ذلك ، لمساعدة أهل رشيد ، وفك حصارها ، جموع كثيرة من أهل مديرية البحيرة ، من قرى أبى منضور ، والحماد ، ودمنهور . ومن أهل القاهرة أيضاً . وحارب هؤلاء وهؤلاء حتى أجلوا المحاصرين عن رشيد . ثم ساقوهم أمامهم إلى العراء ، فأسروا من بقى منهم ، وغنموا سلاحهم ومدافعهم . وأرسلت هذه الغنائم ومعها الأسرى ، ورؤوس القتلى ، إلى القاهرة فى عدة سفن . فلما وصلت هذه الأنباء إلى محمد على ، وكان قد عاد إلى القاهرة ، أمر بإطلاق المدافع من القلعة ، وبولاق ، والأزبكية ، والجيزة ابتهاجا بالنصر الذى أحرزه أهل رشيد والبحيرة .

وتذكر المصادر الإنجليزية أنه قد قتل فى معركة رشيد الأولى ١٨٥ منهم قائد ، وجرح ٢٨١ بينهم جنرال و ١٩ ضابطا . كما خسروا فى معركتها الثانية نحو ٩٠٠ بين قتيل وجريح وأسير . كما قال الجنرال السير جون مور إن هذه الخسائر الفادحة ، وهذه الهزائم ، أدخلت الرعب فى قلوب الجند الإنجليز . ولم يحاول الإنجليز بعد هزيمتهم فى رشيد مرتين أن يتقدموا . بل فرّ من نجا منهم إلى الإسكندرية . ثم تركوا البلاد إلى البحر . ولم يتقدم منهم إلى القاهرة إلا الأسرى .

ففى يوم الأربعاء الثالث عشر من شهر صفر ، أى بعد شهر وأيام من بدء الحملة ، وصلت السفن إلى ساحل بولاق ، تحمل آخر فوج من أسرى الإنجليز ، وقتلاهم ، وجرحاهم ، فلما نزلوا ، مروا بهم من طريق باب النصر ، وشقوا بهم المدينة إلى الأزبكية ، وقد أحصاهم الجبرتى ، فكانوا أربعمائة وستة وستين أسيرا ، وثلاثمائة وأربعين رأس قتيل . وقد رشقت الرؤوس فى نبابيت ، وعلقت فى الأزبكية مع من سبقها من رؤوس القتلى . وكان بين الأسرى عشرون من كبار الضباط . ثم يقول : إن من وقع من صغار هؤلاء الأسرى ، فى يد الجند الأتراك «اختصّوا بهم ، وألبسوهم من ملابسهم ، وباعوهم فيما بينهم . ومنهم من

احتال على الخلاص من يد الفاسق بحيلة » وأورد الجبرتى بعض حيل الأسرى الصغار للخلاص من يد جند الدولة .

ولكى نستطيع الحكم على الأثر الذى أوجدته فى نفوس الشعب ، هذه المقاومة الباسلة من أهل رشيد ، ننقل هذه الفقرة التى وصف بها الجبرتى كيف استقبل القاهريون أسرى الإنجليز ، ورؤوس قتلاهم . وكيف أثار ذلك حميتهم وشجاعتهم . فهو يقول : إن محمدا عليا « تراجعت إليه نفسه ، وأسرع فى الحضور . وتراجعت نفوس العساكر . وطمعوا عند ذلك فى الإنجليز . وتجاسروا عليهم . وكذلك أهل البلاد قويت هممهم . وتأهبوا للبروز والمحاربة ، واشتروا الأسلحة ، ونادوا على بعضهم بالجهاد . وكثر المتطوعون ونصبوا لهم بيارق وأعلاما ، وجمعوا من بعضهم دراهم ، وصرفوا على من انضم منهم من الفقراء . وخرجوا فى مواكب ، وطبول ، وزمور ، فلما وصلوا إلى متاريس الإنجليز ، دهموهم من كل ناحية . وصدقوا فى الحملة عليهم . وألقوا أنفسهم فى النيران ولم يبالوا برميهم . وهجموا عليهم ، واختلطوا بهم ، وأدهشوهم بالتكبير ، والصياح . حتى أبطلوا رميهم ونيرانهم . فألقوا سلاحهم ، وطلبوا الأمان » . وكان الجبرتى معاصرا هذه الأحداث ، ورجلا ذا مكانة مرموقة فى ذلك الوقت .

وهنا يجب أن نلاحظ عدة أشياء . منها أن جند الدولة . وهم المسئولون عن الدفاع عن البلاد ، والمستعدون للحرب ، لم يشتركوا فى ردّ الإنجليز ، وإن كان بعضهم خرج مع المصريين المجاهدين . ومنها أن المماليك ، وهم الذين كانوا أهل السيادة ، والثروة ، والجاه . والمتمتعين بخيرات مصر ، وأموالها . لم يشاركوا أهلها فى رد الإنجليز . بل إن هؤلاء قدموا بدعوة كبيرهم الألفى . وكل مافعله المماليك ، أن بعضهم رفض المعاونة التى طلبها منه الإنجليز . ولعل خروج حاكم دمنهور ، ومعه جنده ، وإخراجه المدافع ، والأثقال ، عندما قدم الإنجليز إليها ، ورفض هذا الحاكم أن يبقى حيث بقى أهلها — وقد طلبوا منه ذلك — يحارب

معهم . لعل هذا كله كان معاونة للإنجليز ، وبالاتفاق معهم . وقد صالح المماليك محمدا عليا ليتفرغ ، فى ظاهر الأمر ، لحرب الإنجليز . ولعلهم تمنوا أن يغلبوه . ليبقى لهم حكم مصر ، ولو تحت سيادة الإنجليز . كما حكم مراد الصعيد ، تحت سيادة الفرنسيين : ولكن محمدا عليا ، لم يحارب الإنجليز ، ولم يتوجه إليهم . وترك مواجهتهم للشعب ليدّخر قوته لحرب المماليك .

بل إن محمدا عليا لم يكن راضيا كل الرضى ، عن هذه الحماسة الجارفة ، التى أبداها الشعب فى المقاومة . لأنه ما كان يرضيه أن يرى شعبا قويا ، متوثبا ، شجاعا ، بل كان يريده « رعية » يأمرها فتطيع ، ويتوجه بها حيثما يشاء هواه ، أو تشاء مطامعه . فقد ذهب السيد عمر مكرم والعلماء إلى محمد على عند ما قدم القاهرة من الصعيد . وتحدثوا إليه فى أمر هؤلاء الإنجليز . وطلبوا إليه أن يخرج المصريون والجند ، ومعهم العلماء والسيد عمر مكرم ، لحربهم . فقال لهم محمد على : « ليس على رعية البلد خروج . وإنما عليهم المساعدة بالمال لعلائف العسكر » ثم خرج مكرم والعلماء من عنده ، ولم يستقر رأيهم على شىء . فالمصريون وحدهم ، هم الذين دفعوا عن بلادهم عدوان الإنجليز ، وهم الذين غلبوهم ، وقهروهم . على الرغم من هذه الملابسات العجيبة ، الشاذة ، التى كانت فيها بلادهم ، وعلى الرغم من نقص الكفاية الحربية ونقص الاستعداد . ومما كانوا قد لقوه ، على يد نابليون وجنده ، من حرب ، وتدمير ومصادرة ، واستنزاف للمال والجهد . قبل ذلك بسنين قليلة .

وعند ما انتصرت هذه « الرعية » على الإنجليز الغزاة ، وردتهم على أعقابهم . استغل محمد على هذا الانتصار إلى أبعد حدود الاستغلال . فأرسل المبشرين من رجاله إلى الدولة يبلغها أنباء هـذا النصر . وأرسل مع هؤلاء المبشرين ، كتابا يصف فيه هذه الحرب مع الانجليز بمايشاء . وقطع آذان القتلى من الإنجليز فدُبغت وملّحت ، ووضعت فى صندوق أرسله إلى الآستانة ، مع هؤلاء المبشرين . ومعهم أسيران من كبار الأسرى .

أما هذا الشعب الذى كافح ، وصبر ، وانتصر . فكان جزاءه عجيبا . . .

تسلّط عليه الجند بالقتل ، والنهب ، والاعتداء . فقد نزل هؤلاء على رشيد ، وما جاورها من البلاد، بعد خروج الإنجليز منها . فاستباحوا أموالها ، ونساءها ، ومواشيها ، قائلين : إنها صارت « دار حرب » بدخول الإنجليز فيها ... !
ثم أحاط الجند برشيد نفسها ، وفرضوا عليها الضرائب والكلف الشاقة ، وأخذوا ما وجدوه فيها من الأرز . حتى ترك أهل رشيد بلدهم هاربين ، إلى القاهرة . فروا من ظلم الجند . وهم الذين لم يتركوها فرارا من مدافع الإنجليز ونيرانهم .

وهكذا حارب شعب مصر الحملة الإنجليزية ، ولم يمكن لها من دخول البلاد .



الحملة الفرنسية

قبل أن نلخص تاريخ هذه الفترة الحاسمة ، فترة دخول نابليون مصر ، وحكمه لها ، وما لقى جنده فيها من مقاومة باسلة ، مثابرة ، قوية . نعود قليلا لنذكر شيئاً عن حكام مصر عند قدوم الحملة الفرنسية .

مراد وابراهيم

بعد وفاة محمد بك أبو الذهب فى عكا ، سنة ١١٨٩ (١٧٧٥ م) خلص حكم مصر لمراد وإبراهيم ، بالاشتراك بينهما . وكان كلاهما من مماليك أبى الذهب .

أما إبراهيم فكان غلاما جركسيا . أعتقه سيده أبو الذهب وزوجه أخته . وكان شجاعاً ، فارساً ، ساكن الجأش ، صبوراً ، فيه حلم وتؤدة ، قريب الانقياد للحق ، متجنباً للهزل ، إلا نادراً ، مع الكمال والحشمة . وكان لطيف المعاشرة ، متساهلا مع مماليكه . حتى طغوا ، وزاد جبروتهم ، وظلمهم .

وأما مراد ، فكان قاسياً ، مهوراً ، مغروراً بنفسه ، متجبراً ، حاد الخلق ، عصبي المزاج ، ظالماً ، غيوراً . وكان يجمع إلى هذه الصفات ، جهلا فاضحاً ، معيباً ، وقصر نظر قلّ أن وصل إليه واحد من حكام مصر .

وقد حكم مراد وإبراهيم مصر فترة طويلة . لعلها لم تر فى تاريخها حكما أسوأ منه . ولا حاكمين فى مثل قسوتهما ، وجبروتهما ، وظلمهما ، وأنانيتهما ، وجهلهما .

وكانت صفات إبراهيم ، وشخصيته اللينة المتساهلة ، كفيلة بإطلاق يد شريكه الطاغية مراد . فى أغلب أوقات حكمهما الذى دام نحو ثلاثين سنة .

وكان لإبراهيم ومراد من النفوذ والسطوة ، ما لم يتح لغيرهما من المماليك . حتى إن الدولة العثمانية أرسلت لحربهما حملة بقيادة حسن باشا قبطان . واستطاع هذا أن يهزمهما ، وأن يستقر فى القلعة بعد هربهما إلى الصعيد . ولكن الدولة

عادت بعد ذلك فأصدرت عنهما عفواً . وأمرت حسن باشا قبطان بترك مصر
— فى سنة ١٧٨٧ — وأن يسافر لحرب روسيا .

وكان لإبراهيم ستمائة مملوك ، ولمراد أربعمائة . وكان ما يملكه غيرهما من كبار المماليك يتراوح ما بين خمسين ومائتين .

ولكن هذه السطوة كلها كانت مسلّطة على أهل مصر . حتى ترك كثير من مالكى الأرض بلادهم ، وزروعهم ، ومواشيهم ، فراراً من الظلم . وكثرت الأوبئة والفتن والمجاعات ، وانعدم الأمن . فكان المسافر يستأجر الأعراب لحراسته . وهاجر الفلاحون إلى القاهرة بنسائهم وأولادهم يضجون من الجوع . ويأكلون قشر البطيخ ، وأوراق الشجر . حتى لا يجد الكناسون شيئاً من ذلك يكنسونه . وأكل الناس لحوم الأطفال ، والخيل ، والحمير ، والبغال . وكان هذا شأن الناس فى القاهرة وغيرها . أما مراد وإبراهيم ، فكانا يعيشان فى قصور زاهرة . وبنى أولهما قصراً شامخاً فى الجيزة ، كما بنى غيره فى الروضة ، وجزيرة الذهب ، والعادلية ، وترسا .

وكان مراد رجلا جاهلا ، ضيق الأفق . يأمر بهدم الكنائس . ويفرض على الأجانب ضرائب باهظة . وكانت سياسته الطائشة نحوهم ، سبباً ، أو ذريعة ، اتخذها نابليون للحملة على مصر . وكانت للفرنسيين خاصة متاجر رابحة ، فى القاهرة والإسكندرية ورشيد . فأثقل مراد على أصحابها بالمغارم والمظالم ، والمصادرات . حتى كثرت شكواهم إلى الدولة فى إسطمبول ، فلم تستطع أن تكف مرادا عن ظلمه لهم . ثم كثرت شكواهم إلى حكومة الجمهورية فى باريس . وقد تكون هذه الشكوى متفقاً عليها بين هذه الحكومة وبين التجار الفرنسيين ، حتى تبرر بها الحملة على مصر . ولكن الذى لاشك فيه أنه كان لهذه الشكوى أكثر من مبرر . وقد أدرك المصريون أنفسهم هذه الحقيقة ، وواجه الشيخ السادات مرادا بها . فقال له بعد قدوم الحملة : « إنك بظلمك واعتدائك على الإفرنج ، ملّكت البلاد للأجانب » أى الفرنسيين .

ولما علم مراد بقدوم حملة نابليون استهزأ به وبها ، وقال لصديقه قنصل النمسا

كيف نخاف هؤلاء الرعاع الذين لا فرق بينهم وبين الواقفين على بابنا ... ! إنهم ليسوا إلا « فستق » خلق للأكل لا للحرب ... ! وسنقضى عليهم بقوة حرسنا الخاص .

هكذا كان يتحدث مراد ، أما موقفه من هؤلاء « الفستق » وحربه معهم فسنعرفه فى موضع آخر من هذا الفصل .

وقد أحسن الجبرتى فى وصف مراد عندما قال إنه: « يغلب على طبيعته الخوف والجبن . مع التهور والطيش . والتورط فى الإقدام ، مع عدم الشجاعة[1] » .

هذه كانت حال مصر فترة طويلة ، وهذا كان حال حكامها ، عندما قدم نابليون بجيوشه لغزوها .

---

(١) فى الجزء الثانى من هذا الكتاب ترجمة وافية لكل من مراد وإبراهيم . ص ٨٠ — ٩٢

Setting up cann[on] in the citadel and firing them at

نابليون فى مصر

ينسب إلى نابليون أنه قال : « توجد فى العالم قوتان . قوة المادة ، وقوة الروح . وقوة الروح دائما هى الغالبة » .

ولعل هذه الكلمة — وقائلها من أعظم رجال القوة المادية الذين شهدهم العالم — لم تصدق ولم يؤيدها الواقع ، مثلما صدقت ، وتأيدت ، مع نابليون نفسه ، ومع جيوشه التى غزا بها مصر . فقد قهرت قوة الروح عند المصريين العزل ، أو ضعاف التسلح ، قوة نابليون القاهرة .

وسنجد تفصيل ذلك فى حديثنا عن المقاومة العجيبة التى لقيتها جيوش نابليون فى الإسكندرية ، عند نزولها فيها ، وفى القاهرة . وفى بلاد مصر وقراها . من دمياط إلى أسوان . وسنجد ، عندئذ ، أن المصريين لم يستكينوا يوما واحدا ، ولم يخضعوا لحكم نابليون . بل كانت ثوراتهم عليه ، وعلى قواده من بعده ، دائمة ، قوية متصلة ، شاملة ، فى مدى السنوات الثلاث التى أقامتها جنوده فى بلادنا .

وقد أظهر نابليون كل ما فى قدرته من الحيل ، واستنفد كل ما عنده وعند رجاله من بلاغة فى اللفظ ، وبراعة فى البيان ، لكى يؤثر على الناس فى مصر ، ويترضى عواطفهم حتى يسالموه . فهو يقول فى منشوراته إليهم تارة ، إنه محب للإسلام ، وصديق دولة آل عثمان . وتارة أخرى إنه عازم « على إقامة مسجد عظيم لا نظير له فى الأقطار ، والدخول فى دين النبى المختار » وتارة إنه ما جاء مصر إلا ليخلصها من ظلم المماليك . وليجعل خيرها لأهلها . فلا يستأثر به « الأباظة » وغيرهم من الأجناس . وهو عند احتلاله جزيرة مالطة ، يجد فيها عدداً من أسرى المسلمين ، يحتجزهم « فرسان مالطة » فيطلق سراحهم — وكانوا سبعمائة — منهم التركى ، والمغربى ، والسورى .

أطلق نابليون سراحهم ، وأمر بأن يعطى لهم اللباس الحسن ، والغذاء الجيد ،

وأن يكرموا . وأعطاهم ما يكفيهم من النفقة ليرجعوا إلى بلادهم • واستبقى طائفة منهم تعرف اللغة العربية ليكونوا عيونا له • أرسل فريقا منهم فسبقوه إلى مصر ، ليبشروا أهلها برحمته وعدله ، وميله إلى الإسلام وحبه أهل مصر ، أو كما يقول نقولا الترك « يبشروا بذلك فى جميع بلدان المسلمين . ويشكروا بذلك فضل الفرنساوية » .

وحرص فى أوامره إلى جنوده ، أن يبتعدوا عن مساجد المسلمين • وأن يمكنوهم من صلاتهم . وأن يحترموا دينهم ، وأموالهم • فلا يعتدى أحد من الجند على ما يملك الأفراد . وأن يدفعوا ثمن ما يشترون منهم . ثم يقول إنه خرّب كرسى البابا ، فى روما ، لأنه كان يحرّض على حرب المسلمين .

قال نابليون ذلك ، وفعله • يترضى به ، بل يتملق ، عواطف المصريين . حتى لا يقاوموه . ولكنهم قاوموه أعنف المقاومة وأشدها . لم يكفوا عن ذلك يوما أو بعض يوم .

عند ذلك سلط عليهم نابليون وخلفاؤه من بعده ، النار ، والعذاب ، والقتل والمغارم الفادحة . ولكن القسوة ، وحرق القرى والبلاد ، والقتل بالجملة ، حتى الأطفال ، والشيوخ ، والنساء . كل ذلك لم يُخف المصريين ، ولم يضعف عندهم شيئاً من روح المقاومة ، والصلابة ، والعناد .

فى الإسكندرية ورشيد والبحيرة

عندما علم أهل الإسكندرية أن نابليون نزل جزيرة مالطة ، أدركوا أنه قادم إليهم بعد حين • فاستعدوا لمقاومته . بتحصين القلاع ، وجمع المتطوعين من أهل المدينة ، والبلاد القريبة إليها ، ومن العرب . ولم ينتظروا نجدة مراد بك لهم . فقد كان يقيم فى قصره الفخم بالجيزة ، يقول ما يقول عن الفرنسيين .

فلما ألح عليه السيد محمد كريم ، حاكم الإسكندرية الوطنى ، فى أن يرسل لهم البارود ، أرسل إليه قنطارين ... ولم يرسل له هذا القدر المزرى من البارود ،

إلا بعد أن أرسل كريم له ثلاثة عشر رسولا يستنجزه . وقد ذكر نقولا الترك ، أنه كان لا يوجد فى قلاع الإسكندرية إلا قليل من البارود ، أكثره كالتراب ، من طول الأيام .

وفى ضحى يوم ٢ يوليو سنة ١٧٩٨ بدأ الهجوم الفرنسى على الإسكندرية . فقاومه أهلها بكل مايملكون من قوة ، بمواردهم المحدودة القليلة ، البالغة الضعف . ولكنهم ، مع ذلك ، استطاعوا أن ينالوا منه ومن جنوده . حتى أوشك نابليون نفسه أن يقتل . فقد ذكر مسيو بورين ، سكرتيره الخاص ، أنه دخل مع نابليون من حارة لا تكاد ، لضيقها ، تسع شخصين متجانبين . فأوقفتهما طلقات الرصاص . التى كان يسدّدها إليهم رجل وامرأة ، من إحدى النوافذ . ولم يستطع نابليون المسير ، إلا بعد أن هاجم عدد من جنوده المنزل ، وقتلوا الرجل والمرأة . وجرح — جرحا بليغاً — الجنرال كابير .

كان دفاع أهل الإسكندرية مشرفا ، رائعاً . ولكنه لم يكن مجديا . فهم قلة ، وسلاحهم قليل . وحصونهم قديمة ، تكاد تكون عزلاء . ولم يكن للعثمانيين فى مياهها سوى ثلاث سفن . إستأذن قائدها « إدريس بك » من نابليون فى أن يخرج بها إلى الآستانة فأذنه . وكان نابليون فى عنفوان قوته ، وكامل عدته . فقهرت قوته أهل الإسكندرية ، ودخل مدينتهم . ومع ذلك ، فقد ظل فريق من أهلها ، بقيادة محمد كريم ، معتصما بقلعة قايتباى ، يقاتل . ولم يكن هذا الفريق أكثر من عشرين مجاهدا . استطاع أن يعوق طليعة الجيش الفرنسى ، وأن يقتل قائدها . ثم سلم مقهورا .

وخسرت الإسكندرية من شهدائها فى هذا الدفاع ، بين سبعمائة وثمانمائة ، قتيل وجريح .

شهادة الفرنسيين

وقد شهد الفرنسيون لأهل الإسكندرية بأنهم كانوا أبطالا ، شجعانا ، فى مقاومتهم . فكتب الجنرال برتييه ، رئيس أركان حرب الحملة الفرنسية ، فى رسالة منه لوزارة الحربية يقول : « إن الأهالى دافعوا عن أسوار المدينة دفاع المستميت . وقد أصيب فى هذه الموقعة الجنرال كليبر بعيار نارى فى جبهته ، فجرح جرحا بليغا . وأصيب الجنرال منو بضربة حجر أسقطته من أعلى السور ، فنالته رضوض شديدة . وأصيب الأدجودان جنرال أسكال بجرح بليغ فى ذراعه من عيار نارى . وقتل اللواء ماس ، وخمسة ضباط آخرون[1] .

وكتب الجنرال منو إلى نابليون يقول : إن الجنود الفرنسيين واجهوا مخاطر عظيمة : لأن الأهالى دافعوا عن المدينة بشجاعة كبيرة ، وثبات عظيم[2] .

نزلت جيوش نابليون الإسكندرية يوم ٢ يوليو سنة ١٧٩٨ . فاجتمع بكبير علمائها الشيخ محمد المسيرى ، وحاكمها المجاهد ، السيد محمد كريم . ثم ألف منهما ومن خمسة من أعيان المدينة مجلسا يتولى الحكم فيها . وبعد أيام تركها نابليون ، فى طريقه إلى القاهرة . وترك الجنرال كليبر حاكما عليها ، وقائدا لنحو تسعة آلاف من الجنود ، تركهم لحمايتها .

وكان عدد جنود الحملة ستة وثلاثين ألفا ، تحرسهم ، وتحملهم مع معداتهم ، وأدوات قتالهم ، ومدافعهم ، أكثر من ثلثمائة سفينة نقل . وخمس وخمسون سفينة حربية . منها ثلاث عشرة بارجة[3] . وعند استيلاء نابليون على مالطة ،

---

(١) ، (٢) ص ١٧٩ جزء أول من تاريخ الحركة القومية . للأستاذ عبد الرحمن الرافعى . الطبعة الأولى .

(٣) ذكر المعلم نقولا الترك أن عدد السفن كان ٤٥٠ وأن عدد رجال الحملة كان ستين ألفا ، منهم ستة وثلاثون ألفاً من المحاربين . والباقون من الصناع ، والبحارة .
أما نقولا الترك هذا ، أو نقولا الأرمنى ، فيؤخذ من الترجمة الفرنسية لكتابه ، ومن مصادر أخرى ، أنه ابن يوسف الترك ، ولد فى سنة ١٧٦٣ فى دير القمر بلبنان . وأصل أسرته من يونانيى القسطنطينية . هاجرت إلى جبل الدروز واعتنقت المذهب الكاثوليكى . وكان المعلم نقولا يشتغل بخدمة الأمير بشير الشهابى الكبير . فأرسله الأمير إلى مصر قبيل الحملة الفرنسية =

وجد فيها ۱۲۰۰ مدفع ، فاستولى عليها وأضافها إلى مدافعه . كما وجد فيها قدرا كبيرا من الذخيرة .

وكانت سفينة القائد نابليون ، التى سماها « الشرق » — ويسميها الجبرتى « نصف الدنيا » — تحمل مائة وعشرين مدفعاً .

ولـكن هذه القوة الجبارة ، التى لم تر مصر مثلها من قبل ، لم ترهب أهلها، ولم تخفهم . فلم تمض أيام ، أفاق فيها أهل الإسكندرية من بغتة المفاجأة والتسليم . حتى بدءوا ينظمون صفوفهم للمقاومة . ويأخذون أهبتهم لحرب سرية أعلنوها على الغزاة ، وابتدعوا فى صنوفها طرائق كثيرة .

لم تمض عشرة أيام على دخول نابليون الإسكندرية ، حتى بدأت هذه المقاومة السرية . فقتل أحد جنود الأسطول الفرنسى فى أحد الشوارع . وفى الوقت نفسه ألقى فى البحر خادم لأحد الضباط وغرق . وغضب كليبر لهذه الحوادث أشد الغضب . فاعتقل بعض أعيان المدينة ، واستدعى حاكمها السيد محمد كريم ، والقاضى الشرعى وغيرها فطلب إليهم البحث عن القتلة . وهددهم بشنق من تقع عليه القرعة من المعتقلين ، إذا لم يسلم له القتلة فى خمسة أيام . ولـكن ذلك كله لم

عليها ليطلعه على أخبارها . ويقول بعض المؤرخين : إنه أقام فى دمياط ثلاث سنين — المدة التى أقامها الفرنسيون فى مصر — وكان يراسل الأمير بشيرا بأخبار نابليون وحملته . لأن الأمير كان يتوقع غزو نابليون الشام . فلما خرج الفرنسيون من مصر عاد نقولا إلى دير القمر ، وكف بصره فى آخر عمره . فـكان يملى على بنته مايريد أن يكتب . ومات فى سنة ١٨٢٨ .

وقد وضع نقولا كتابه « ذكر تملك جمهور الفرنساوية الأقطار المصرية والبلاد الشامية » وطبع فى دار الطباعة السلطانية بباريس سنة ۱۸۳۹ وطبعت معه ترجمته الفرنسية بعنوان « تاريخ الحملة الفرنسية فى مصر » ترجمه مسيو ديجرانج إينيه . ثم طبعه مرة أخرى المعهد الفرنسى للآثار الشرقية فى القاهرة فى سنة ١٩٥٠ بتعليقات المسيو جاستون فييت . وهذه الطبعة تزيد عن الأولى ، وتنتهى حوادثها إلى أغسطس سنة ١٨٠٤ وتتحدث عن مقدمات عهد محمد على .

ونقولا الترك واضح الميل بل التعصب للفرنسيين . له فى كتابه شعر مضحك فى مدح نابليون والإشادة بكفايته وشجاعته ، وشعر فى رثاء الجنرال كليبر . لذلك نجد لشهـادته — التى سنذكرها فى مكانها — قيمة كبيرة ، فيما يتعلق بمقاومة المصريين لنابليون وحملته ، واستبسالهم فى هذه المقاومة . لأنها شهادة ليس من الهين عليه الاعتراف بها .

يُجد نفعا. فقد تستر الناس عليهم حتى هربوا . وعرف فيما بعد أن السيد محمد كريم كان عونا لرجال المقاومة السرية .

وبعد ذلك بأيام، أراد الجنرال كليبر أن يسيّر كتيبة إلى بعض البلاد في البحيرة. فلم تجد هذه الكتيبة ، في اليوم الذى حدده لسفرها، ماتحمل عليه أثقالها، وأزوادها، وماءها ، من الإبل . لأن أهل الإسكندرية وماجاورها ، أخفوا إبلهم وهربوها ، حتى لايستعين بها الفرنسيون . وسارت الكتيبة بلاماء . وبعد يوم واحد من سفرها ، ظهرت الإبل فى الإسكندرية . وعندما سافرت كان العرب يهاجمونها فى الطريق ، ويعرفون سيرها ، وطريقها ، وغايتها . وظهر للفرنسيين أن المهاجمين كانوا على اتصال برجال المقاومة فى الإسكندرية .

ولما وصلت الكتيبة إلى دمنهور . وجدت ستة آلاف من المصريين على استعداد لملاقاتها ، فهابت أن تحاربهم . ولم تتم سيرها ، بل رجعت إلى الإسكندرية بعد أن فقدت عددا غير قليل من رجالها . وسجل قائدها الجنرال ديموى ، غضبه وسخطه على الروح العدائية التى لقيها من الجميع ، فى الإسكندرية ، والبحيرة .

وكان الماء ، فى ذلك الوقت ، لايجرى فى ترعة الإسكندرية « المحمودية » إلا فى زمن الفيضان . فكان الناس يستقون هم ودوابهم ، من الآبار . فأتلف المجاهدون هذه الآبار فى طريق الفرنسيين . وسببوا لهم بذلك مشقة عظيمة ، ومتاعب جمة . وعلم الفرنسيون أن أهل قرية « بركة غطاس » سدّوا مجرى الماء فى الترعة فأحرقوها ونهبوها .

وكما وقف رجال المقاومة بالمرصاد لجنود نابليون ، يعتدون عليهم ، ويقتلونهم حيثما وجدوهم . وقفوا كذلك لرسله ، يتصيدونهم ، ويفتكون بهم .

أرسل نابليون رسالة من القاهرة ، إلى الجنرال كليبر فى الإسكندرية ، مع الكابتن جوليان . يأمره فيها بالقبض على السيد محمد كريم . فلم تصل إليه الرسالة لأن رجال المقاومة قتلوا الكابتن جوليان فى طريقه إليها .

وخرجت سفينة فرنسية من رشيد ، يحمل قائدها رسالة أخرى من كليبر

إلى نابليون . فلم تكد تبتعد عنها قليلا ، حتى هاجمها أهالى مطوبس ، وإدفينا فأرغموها على العودة إلى رشيد . ثم خرجت مرة أخرى إلى وجهتها . ولكن الفلاحين أطلقوا عليها نيرانهم من جانبي النيل ، حتى أرغموها للمرة الثانية على العودة . وأعدم الفرنسيون بالرصاص عمدة إدفينا .

وكان المماليك ، عندما علموا بنزول نابليون الإسكندرية ، قد تركوا مدينة رشيد هاربين ، تركوها بلا سلطة ، ولا حماية ، فأقام أهلها حكومة منهم ، من ثلاثة أعضاء . تولت الأمر فى المديرية — وكانت رشيد مديرية فى ذلك الوقت — ولم تكف هذه الحكومة الأهلية ، ومعها الأهالى ، عن مقاومة الفرنسيين . وإثارة المتاعب فى طريقهم ، والانقضاض عليهم . فلم تكن سلطة الجنرال دوجا ، حاكم رشيد ، تتعدى حدود المدينة نفسها .

وقام الجنرال منو برحلة ، ومعه بعض قواده ، وكتيبة من الجند ، فلما وصلوا بلدة « شباس عمير » وجدوا أهلها متحصنين بالأبراج ، وبدءوا يطلقون عليهم النار . فقتل من الفرنسيين عدد غير قليل ، وأصابت رصاصة جواد الجنرال منو . واشتدت مقاومة المجاهدين حتى لم ير منو سبيلا للغلبة عليهم إلا بإحراق البلدة فأحرقها ليلا ، وكان الفلاحون قد تجمعوا من القرى المجاورة لنصرة شباس عمير . حتى بلغ عددهم ثلاثة آلاف . فلما رأى الجنرال منو ذلك تسلل عائدا إلى رشيد ، ولم يتم رحلته

وخرجت سرية فرنسية تحمل بريد القائد إلى نابليون فى القاهرة ، فهاجمها أهل قرية « السالمية » — مركز فوة — وقتلوا ثمانية من رجالها . فعاقبها الجنرال منو بقتل جميع من يحمل السلاح فيها . ومصادرة سكانها فى مواشيهم ، ثم أضرم النار فيها . وكان من أبطال هذه القرية الذين أعدمهم الفرنسيون ، عمدتها الشيخ سلامة العقدة .

ومن قرى الغربية ، التى كان لها قسط كبير فى شرف المقاومة ، برنبال ، والقنى . والسمدة ، ومطوبس .

وقد أزعجت نابليون هذه المقاومة التى أبداها أهل رشيد والبحيرة ، والغربية فأرسل إليها ١٥٠٠ جندى تعزيزا لحاميتها ، وأمر قائده فيها أن يغلظ لهم العقاب، وأن يأخذهم بالصرامة والقسوة .

هذا هو نصيب المصريين من أهل الإسكندرية ورشيد والبحيرة والغربية ، أو بعض نصيبهم من المقاومة الشعبية . أما الحرب ، فقد اتفق مراد وإبراهيم على أن يقف أولهم فى وجه نابليون عند دمنهور . ثم كانت بينهما موقعة شبراخيت المعروفة، التى هزم فيها مراد . أو كما يقول الجبرتى « داخله الرعب ، وولى منهزما ، وترك الأثقال والمدافع » .

وقد ذكر بعض المؤرخين أن جيش مراد فى هذه الموقعة كان عشرين ألفا ، وذكر بعضهم أنه كان اثنى عشر ألفا، كان منهم تسعة آلاف من الفلاحين والعرب. والباقون من المماليك . فهم على أقل تقدير ، كانوا قريبا من نصف الجيش أو كثرته الغالبة ، على التقدير الآخر . وهو أوثق .

أما من قعد به العجز أو المرض عن هذه الموقعة ، أو فقد السلاح . فكان يسير خلف الجيش الفرنسى يقتنص من يستطيع اقتناصه من جنود المؤخرة ، فيقتله ويجرده من سلاحه . أو يقصد إلى بئر فى طريق الفرنسيين فيسبقهم إليه ويلقى فى مائه ملح النطرون ، حتى لا يستقون منه . أو يتطوع لنقل الرسائل إلى المجاهدين ، وزعماء المقاومة ، فى البلاد التى تقع على طريق نابليون إلى القاهرة .

وقد أزعجت نابليون أيّما إزعاج، أنباء هذه المقاومة السرية ، فأمر، زيادة على ما أوقعه بأهل رشيد والبحيرة والغربية ، بأن يعلن استياءه من سلوك أهل الإسكندرية خاصة . وأن يسلموا جميع سلاحهم ، ومن لم يسلمه فى ثمان وأربعين ساعة ، فجزاؤه الإعدام ، كما أمر بهدم منزل المتهم بقتل جندى الأسطول، وارتهان خمسين رجلا من الأهالى ، إلى أن يحسن أهل المدينة سلوكهم ، وكان نائبه على الإسكندرية ، الجنرال كليبر ، فرض على أهلها ضريبة قدرها مئة وخمسون ألف فرنك . فزادها نابليون إلى الضعف .

نابليون فى القاهرة

لاأريد أن أؤرخ الوقائع التى جرت بين نابليون والمماليك ، ولابينه وبين جند الدولة العثمانية . ولا أن أدون تفاصيل هذه الحروب والأحداث الجسيمة فى تاريخنا . بل أكتب هذه الصفحات لأسجل ، فقط ، كفاح شعبنا وعناده ، وصلابة عوده، أمام هذه الأحداث الجسام ، التى كانت فوق طاقته . وأعظم ، إلى حد كبير ، من قدرته وجهده . ولكنه لقيها بقلب شجاع ، وصمد لها كما يصمد القوى الجلد أمام الخطوب والنكبات. يؤدى فيها واجب الرجولة والشرف . مهما تكن النتائج ، ومهما يلقَ فى سبيل هذا الواجب من محنة وشقاء .

ومامن شعب من شعوب الأرض إلا لقى مثل هذه الخطوب والأحداث الجسام التى تفوق طاقته ، وتعلو على قدرته وجهده . ثم هزم أمام هذه الخطوب والأحداث . ولكن الشعب العزيز الكريم ، هو الذى يواجه جسيم الأحداث وعظيم الكوارث بالقلب الشجاع القوى ، والإيمان والصلابة التى لاتعرف إلا الواجب ، وما يقتضيه الشرف والرجولة . ثم لتكن النتائج ما تكون . وهى عند ذلك لاتكون إلا خيراً . ولو طال عليه الأمد .

وكذلك كان شعب مصر ، عندما نزل عليه نابليون وجنده فى القاهرة .

« حضر العلماء ورؤوس الناس ، وأعملوا رأيهم فى الحادث العظيم . فاتفق رأيهم على عمل متاريس من بولاق إلى شبرا . وكانت العلماء تجتمع بالأزهر كل يوم ويقرؤون البخارى وغيره من الدعوات . وكذلك مشايخ الفقراء من أرباب الطرق وأطفال المكاتب . ويذكرون الاسم اللطيف ، وغيره من الأسماء . وجلس مشايخ العلماء بزاوية على بك ببولاق يدعون ويبتهلون إلى الله بالنصر » .

وترك الناسُ الشيوخَ والعلماء والأطفال، يقرؤون ويستغيثون . وأخذوا يتنادون بالنفير العام ، ويخرجون فى كل يوم لإقامة المتاريس . فكانت كل طائفة من أهل

الصناعات ، يجمع بعضها المال من بعض ، وينصبون لهم خياما . أو يجلسون فى مسجد أو مكان خرب ، يتدارسون أمر الدفاع عن مدينتهم ، وينظمون كيف تنفق هذه الأموال فى شراء السلاح ، وتجهيز الجند ، وملبسهم وغذائهم . وتطوّع القادرون بالإنفاق على غير القادرين . ومنهم من جهز جماعة للحرب ، فاشترى لهم سلاحهم وطعامهم « بحيث إن جميع الناس بذلوا وسعهم ، وفعلوا ما فى قوتهم وطاقتهم . وسمحت نفوسهم بإنفاق أموالهم ، فلم يشحّ فى ذلك الوقت أحد بشىء يملكه . » وخلت القاهرة من القادرين على حمل السلاح ، فقد ذهبوا جميعاً إلى بولاق للدفاع عن القاهرة .

وصعد السيد عمر مكرم ، نقيب الأشراف وزعيم الشعب ، إلى القلعة . فأنزل البيرق النبوى ، فسار به المتطوعون فى شوارع القاهرة يثيرون بذلك حماسة أهلها ، فلما مروا به من القلعة إلى بولاق ، خرج القادرون من الرجال جميعاً يتصايحون بالحرب . ولم يبق فى القاهرة غير النساء والأطفال وضعفاء الرجال الذين لا يقدرون على الحركة .

وقدم إلى القاهرة كثير من عرب البحيرة والجيزة والصعيد ، والخبيرية والقيعان وأولاد على والهنادى ، فسارعوا إلى معسكر مراد بك .

كان أهل القاهرة إذن ، وكثيرون من خارجها ، متهيئين للدفاع عنها ، وبذل ما يملكون من قوة وحول لحرب عدوهم . ولكن مراداً وإبراهيم ومن معهما من المماليك . لم يكونوا جادين فى حربهم أو دفاعهم . واجتمع إلى ضعف عزيمتهم ، جهلهم بالحرب الحديثة التى كان يتبعها نابليون . وجهلهم كذلك بما جد من آلات القتال فى ذلك الزمان .

ويكفيك لتدرك سريرة المماليك وحقيقة شعورهم ، أن تعرف أنهم منذ عرفوا أن نابليون نزل الإسكندرية ، شرعوا ينقلون متاعهم من بيوتهم فى القاهرة ، ويخفونها فى بيوت أتباعهم ، أو فى خارج المدينة . وكانوا لا يستحون من فعل

ذلك أمام الناس . أما العثمانيون وعلى رأسهم بكير باشا الوالى ، فلا يكاد يذكرلهم شأن فى الدفاع عن القاهرة .

وهزم مراد فى موقعة إمبابة ، أو الأهرام . بعد ساعة أو بعض ساعة من بدئها . ثم أسرع بالهرب إلى بيته فبقى فيه خمس عشرة دقيقة ، أخذ فيها ما استطاع أن يأخذ ، من أمواله وجواهره . ثم فر إلى الصعيد .

أما إبراهيم بك ، ومعه الباشا التركى ، فقد ترك المعركة عندما رأى هزيمة مراد ، وفر إلى خارج القاهرة ، فلما وصل إلى العادلية «الوايلية الآن» أرسل فأخذ حريمه . ثم سار إلى الشام . فإبراهيم إذن لم يشترك بأقل مقدار فى الدفاع عن القاهرة . وقد أثارت هذه الخيانة شعور الناس ، فنهبوا بيوت مراد وإبراهيم ، وغيرهما من كبار المماليك . عندما علموا أنهم فروا[1] .

وقد كان المماليك فى جيش مراد عشرة آلاف . وكان معهم أربعة وعشرون ألفا من المصريين ، وعدة آلاف من الفرسان العرب . قتل منهم ، بشهادة نابليون ، سبعة آلاف . وشهدت المصادر الفرنسية بما أبلى هؤلاء المصريون فى هذه الموقعة . على الرغم من ضعف السلاح ، وسوء القيادة ، وفقدان النظام . فذكر الجنرال برتييه أن قرية إمبابة ، دافع عنها ألف وخمسمائة مملوك ، ومثلهم من الفلاحين ، دافعوا عنها دفاع الأبطال ورفضوا التسليم . فماتوا قتلا وغرقا . وقد شهد الجنرال برتييه الموقعة إلى جنب نابليون .

وذكر ريبو — أحد مؤرخى الحملة — أنه كان فى إمبابة أثنا عشر ألفا من الفلاحين ، معهم أربعون مدفعا . وكان منهم كثير من العرب ، والأقباط ، والأحباش .

وقال لاجونكيير — أحد قواد الحملة — إن خسائر الأهالى فى موقعة الأهرام كانت عظيمة . حيث غرق معظمهم فى النيل .

---

(١) يقول الجبرتى فى « مظهر التقديس » إن فرقة الأرنؤود التى قدمت من دمياط هى التى ثبتت حتى قتل معظم رجالها .

القاهرة بعد الهزيمة

استسلمت القاهرة ، بعد فرار المماليك ، للجنرال ديبوى ، فدخلها قبل نابليون ونزل فى بيت إبراهيم بك الصغير . ودخل نابليون القاهرة بعده بيوم واحد ، يوم ٢٤ يوليو سنة ١٧٩٨ ، بعد أن قصده العلماء مستشفعين يطلبون الصلح ، وسكن منزل محمد بك الألفى ، على بركة الأزبكية . وكان الألفى قد أتم بناءه قبل ذلك بقليل . وزخرفه بالزخارف الشائقة . وجلب إليه أفخر الرياش . فأنفق فى ذلك أموالا طائلة . فكأنه كان يفعل ذلك كله لنابليون خاصة .

وقد وصف الجبرتى ، وكان يقيم فى القاهرة يوم ذاك ، شعور أهلها ، ووقع هذه الهزيمة فى نفوسهم . وما أصابهم من حزن وقلق ، وصفاً مؤثرا شيقا يثير الحزن والغصة والمرارة . ثم وصف فرار القادرين من سكانها ، واستكانة العاجزين واستسلامهم لقضاء الله . ثم وصف ، فى مرارة وحزن ، ما لقيه الهاربون من سطو اللصوص والأعراب عليهم ، وسلبهم جميع ما معهم من مال ومتاع . وتجريدهم مما يلبسون من ثياب . ثم يقول « إن الأموال والذخائر التى خرجت من مصر فى تلك الليلة ، أضعاف ما بقى فيها بلا شك » .

وبدأ نابليون ، بعد استقراره فى القاهرة ، يداهن المصريين ، ويتودد إليهم ، ويتملقهم . فأمر بأن ينشأ ديوان لحكم مصر ، حتى يوهمهم بأنهم يحكمون أنفسهم بأنفسهم ، وجعل أعضاءه عشرة من كبار العلماء ، برياسة الشيخ عبد الله الشرقاوى . وضم إليهم القاضى ، ونائب الوالى العثمانى — الذى عاد بعد أن فر مع إبراهيم بك — وبعد أن عاد نابليون من مطاردته لإبراهيم بك فى بلبيس ثم الصالحية . تجددت له المناسبات ليزيد فى مداهنة المصريين وملقهم . فلما حل وفاء النيل ، فى ١٧ أغسطس من تلك السنة ، أمر بأن يجرى له احتفال رائع يفوق ما كان يقام فى عهد المماليك . وصف جنوده من الفرنسيين على حذاء النيل . وحضر بنفسه ، وحوله قواده ، فجلس وإلى جانبه نائب الوالى ، وقاضى

القضاة ، وأعضاء الديوان ووجوه أهل القاهرة ، أو من بقى منهم . وأطلقت المدافع ، وزينت السفن التى تسير فى النيل . ولكن الناس لم يبتهجوا بذلك ، ولم يشاركوا فيه .

ثم جاءت مناسبة أخرى ، وهى ذكرى مولد النبى الكريم ، الذى وافق يوم ٢٤ أغسطس . فأمر نابليون السيد خليل البكرى بأن يقيمه على أبهج صورة . وأعظم عناية ، وأعطاه ثلاثمائة ريال لينفق منها على ذلك . واشترك أفراد الجيش الفرنسى فى المولد بطبولهم وموسيقاهم وألعابهم . وذهب نابليون بنفسه إلى منزل البكرى فألبسه خلعة النقابة على الأشراف — بدلا من السيد عمر مكرم الذى هاجر إلى الشام — وشهد نابليون فى منزل البكرى الليلة الختامية للمولد ، واستمع إلى حفلة الذكر من أولها إلى ختامها . ثم تناول عنده طعام العشاء ، على صحائف من الفضة .

فعل نابليون ذلك وغيره ، ليرضى عنه المصريون . ولكنه من ناحية أخرى ، فرض على أهل القاهرة ٢٤٠ ألف جنيه ، على أن يردها إليهم — كما يقول الجبرتى — « عندما يروق الحال ، ويتسع المجال » . وسلط جُباته على نساء المماليك حتى يفتدين أنفسهن بالمال . فأخذ من السيدة نفيسة ، زوجة مراد بك ، وحدها أربعة وعشرين ألف جنيه . كما أخذ أموالا طائلة من غيرها من نسائهم . وفرضوا ضرائب أخرى على أهل الحرف والصناعات ، وأخذوا يفتشون البيوت يستخرجون منها مخبآتها من الأموال والودائع والسلاح ، ويستعينون بالخدم على معرفة أسرار أسيادهم . ويستولون على الخيل والجمال ، والحمير والأبقار والثيران ، أو يدفع أصحابها فدية . فأخذوا من ذلك شيئا كثيرا . وأخذ نابليون فى سبيل تحصين مواقعه ، يهدم كثيرا من البيوت والأرصفة والمساجد أيضا . ويدك أبواب القاهرة ومساطبها . وسلط على أهل القاهرة رجلا أجنبيا هو برطلمين . وكانت العامة تسميه فرط الرمان — كان أصله مدفعيا عند محمد بك الألفى ، وله حانوت فى شارع الموسكى يبيع فيه قوارير الزجاج . وكان هذا الرجل معروفا بحقده

على المصريين ، وشدة كراهته لهم . فاختاره « كتخدا مستحفظان » أى نائبا لمحافظة القاهرة .

كما أمر نابليون بأن يضع المصريون جميعا شارة الجمهورية الفرنسية على صدورهم أو رؤوسهم . فأبى أكثر الناس ذلك . ولبسها فريق منهم ليدخل عليهم إذا كان له عندهم شأن . وأراد نابليون أن يلبس أعضاء الديوان طيلسانا بألوان هذه الشارة . فلما وضعه على كتف رئيسه الشيخ الشرقاوى ، ألقاه على الأرض غاضبا محتدا ، ولم يعبأ بثورة نابليون عليه .

التحفز للثورة

لم تجد وسائل نابليون فى ترضى المصريين شيئا . وبدءوا بعد أن أفاقوا من أثر الهزيمة التى جلبها عليهم المماليك ، يجمعون قوتهم ، ويثوبون لرشدهم ، ويتحفزون للثورة . وألهبت هذه المظالم وهذا التحدى شعورهم بالغضب . وجاءتهم أنباء موقعة أبى قير البحرية التى حطم فيها أسطول نابليون ، فى أول أغسطس ، فقوت من عزيمتهم .

وقد ذكر الجبرتى قصة طريفة ، تدل على حقيقة الشعور الذى كان يجده عوام القاهرة فى نفوسهم نحو نابليون . فهو يقول : إن نابليون وهو يخرج من بيت الشيخ السادات فى المشهد الحسينى ، مر بعسكره وحاشيته فى زحمة الناس « وهم يلغطون ويخلطون . فلما نظروه ، وشاهد هو جمعيتهم ، داخله أمر من ذلك . فصاحوا بأجمعهم وقالوا بصوت عال : الفاتحة . فشخص إليهم وصار يسأل من معه عن ازدحامهم ، فلطفوا له القول . وقالوا إنهم يدعون لك . . . ! » فهؤلاء الناس من أهل القاهرة ، وقد شاهدوا نابليون بينهم فى حى الحسين ، يريدون أن يظهروا سخطهم عليه . ولكنهم يعلمون أنه لا حول لهم ولا قوة . وهو صاحب الحول والقوة . فلا يجدون متنفساً يعبرون به عن سخطهم وغضبهم إلا هذه الإشارة اللطيفة ، التى تفصح عما يريدون ، ولا تجلب عليهم ضرا ولا شرا . وهى قراءة الفاتحة . فلم تفارق أهل القاهرة فى ذلك لباقتهم ولا ظرفهم . وقد أحس

نابليون من نظراتهم وأصواتهم ، بدخيلة نفوسهم . ولكن مرافقيه هوّنوا عليه ذلك . وقالوا إن القوم يدعون له . . . !

وكان شخوص نابليون بنفسه إلى منزل الشيخ السادات ، فى وقت غير ملائم ، وبلا موعد ، أمرا ذا دلالة أيضاً . فقد نقل إلى نابليون أن رسائل وردت من إبراهيم بك تدعو أهل القاهرة للثورة ، وكان السادات شيخا ذا مكانة كبيرة ، وممن نقل إليه أنهم تلقوا رسائل إبراهيم . فكان ذلك سببا لقلق نابليون وخوفه ، حتى شخص بنفسه بعد الظهر ، إلى منزل الشيخ . ليسأله حقيقة الأمر .

وبدا شعور المصريين واضحا أيضاً فى موقفهم السلبى إزاء نابليون ، فإنهم لم يشاركوا فى مهرجان وفاء النيل الذى أشرنا إليه ، ولم يشاركوا فى حفلات المولد النبوى أيضاً ، على الرغم من مجاملة نابليون لهم فيه ، وعنايته الفائقة به . وكذلك لم يشاركوا فى تلك الحفلات البهيجة التى أقامها بعد ذلك لمناسبة عيد الجمهورية الفرنسية ، يوم ٢٢ سبتمبر من تلك السنة . وأمر بأن تظهر بمظهر غاية فى الفخامة والعظمة . بل إن أهل القاهرة أيضاً اتخذوا من هذه الحفلة مادة لسخريتهم المعروفة . فقد أقام الفرنسيون عمودا عظيما فى وسط بركة الأزبكية ، ألقى نابليون تحت قاعدته خطبة ، وسموه شجرة الحرية . ويقول نقولا الترك فى ذلك « أما أهالى مصر فكانوا يقولون إن هذه إشارة « الخازوق » الذى أدخلوه فينا ، واستيلائهم على مملكتنا . . . ! واستمر هذا العمود نحو عشرة أشهر . وحينما رفعوه ، استبشرت أهل مصر ، وابتهجت بالفرح [١] » .

ومما يدل على ذلك أيضاً ، ما أظهروه من الفرح والتشفى ، عندما وردت إليهم أنباء معركة أبى قير ، وتحطيم الأسطول الفرنسى فيها ، حتى أغاظ هذا الفرح نابليون ، وقتل بسببه بعض القاهريين .

---

(١) ص ٤٥ من كتاب « ذكر تملك جمهور الفرنساوية الأقطار المصرية والشامية » طبع باريس سنة ١٨٣٩ .

ونستطيع أن نذكر فى باب المقاومة السلبية ، ما فعله الشيخ السادات ، من عدم قبوله عضوية الديوان بعد انتخابه له ، وصدور أمر نابليون بتعيينه . مع أنه كان من أعظم العلماء شأنا فى ذلك الوقت . وكان نابليون يقبل شفاعته ، ويزوره فى بيته ، فكان هذا الموقف منه إباء عن الاشتراك فى الحكم تحت إمرة نابليون. ويدل على هذه النية أيضاً ما بدا منه ضد الفرنسيين ، فى ثورة القاهرة عليهم ، كما نرى ذلك فيما بعد .

كانت نفوس الناس فى القاهرة على هذه الحال ، من التحفز ، والسخط ، والكراهية المكبوتة للفرنسيين . وجاءهم نبأ إعدام السيد محمد كريم ، حاكم الإسكندرية وزعيمها الوطنى، فزاد من سخطهم وغضبهم وكراهيتهم . وهيأ هذا الشعور المكبوت للانفجار .

ثورة القاهرة الأولى

بدأ أهل القاهرة يتجمعون للثورة ، ويتحفزون للوثوب على جند نابليون ، حتى انطلقت ثورتهم الجارفة يوم ٢١ أكتوبر . أى بعد أقل من ثلاثة أشهر من هزيمتهم .

الأزهر والثورة

يقول دى لاجونكيير « كانت الدعوة إلى الثورة تختلط علنا بأذان المؤذنين ، فيدعون إلى الله وإلى الثورة على المآذن ، صباح مساء . فبلغ تهييج النفوس أشده ، حتى لتكفى حادثة واحدة لتضرم بركان الهياج القومى[1] » .

ويقول الجبرتى « ... فتجمع الكثير من الغوغاء ، من غير رئيس يسوسهم ، ولا قائد يقودهم . وأصبحوا يوم الأحد — ٢١ أكتوبر — متحزبين ، وعلى الجهاد عازمين . وأبرزوا ما كانوا أخفوه من السلاح ، وآلات الحرب والكفاح . ولهم صياح عظيم ، وهول جسيم . وكذلك اجتمع بالأزهر ، العالم الأكبر » .

وسجل نابليون فى مذكراته أنه كانت هناك « لجنة للثورة » تنظم شئونها ، وتجمع المتطوعين ، وتسلحهم . وأن الشيخ السادات كان رئيس هذه اللجنة . كما ذكر فى تقرير له أن هذه اللجنة كانت تجتمع فى الأزهر .

ويقول نقولا الترك إن عالما من رجال الأزهر خرج قبل الثورة بيوم ، ينادى فى شوارع القاهرة بأن يتجمع الناس فى الأزهر للحرب ، وقد قتله الفرنسيون فيما بعد . وقدرت بعض المصادر الفرنسية عدد الثائرين الذين تجمعوا فى الأزهر بخمسة عشر ألفا .

كانت الدعوة إذن من الأزهر ، وكانت قيادة الثورة من رجاله وفى داخله . فلما جاء وقت العمل ، تجمع الناس فى الشوارع المحيطة به ، وقصدوا إلى بيت القاضى التركى ، إبراهيم أفندى أدهم ، أو « جقمش زاده » ، كما يسميه

---

(١) ص ٢٨٤ جزء ١ من تاريخ الحركة القومية للأستاذ عبد الرحمن الرافعى .

الجبرتى ، فطلبوا إليه أن يذهب معهم إلى نابليون . فأطاعهم القاضى ، ثم رأى أن الجماهير تتكاثر . وأن ثورتها قوية جارفة ، فتركهم بعد أن ركب فرسه ، فضربه الثائرون بالعصى والحجارة ، ونهبوا منزله . ثم ساروا فى طريقهم .

وبعد قليل التقى بهم الجنرال ديبوى ، حاكم القاهرة الفرنسى ،فأراد أن يفرق جمعهم بالقوة ، عند باب القصرين — بالنحاسين — ولكن الثائرين أطبقوا عليه من كل جانب . وما إن أطلق عليهم برطلمين الأجنبى أول رصاصة ، حتى أخذوا ديبوى رجما بالحجارة وضربا بالعصى وطعنا بالسيوف والرماح . حتى أثخنوا جسمه بالجراح ، وأصابوا ياوره الكابتن مورى . ومات ديبوى بعد قليل . بضربة رمح فى ثديه .

وسمع نابليون أنباء الثورة وقتل قائده الجنرال ديبوى ، فجاء إلى حيث يرى بنفسه . وأراد أن يدخل القاهرة — قادما من الجيزة — من جهة مصر القديمة ، فلم يستطع ، لتجمع الثائرين . فدخلها من باب اللوق. حيث كانت الثورة على أشدها . واختار نابليون الجنرال بون خليفة لديبوى ، وأمره أن يحبط الثورة بأى ثمن . وانتهى اليوم الأول للثورة . بعد أن جرت فيه مواقع عديدة بين الثائرين والفرنسيين ، فى أحياء القاهرة .

ثم جاء اليوم الثانى وقد أصبح الأزهر ، مقر القيادة ، يعج بالثائرين . وأحيطت جميع الشوارع والمنافذ الموصلة إليه بالمتاريس . كما أخذت القيادة الفرنسية أهبتها لتحطيم الثورة ، وقمعها . وطلب القائد الجديد ، بون ، إلى نابليون أن يأذن له فى اتخاذ أقسى الوسائل ، وأشدها صرامة ، مع الأزهر وقيادة الثورة فيه . وكان الفرنسيون قد نصبوا مدافعهم الثقيلة على التلال والأماكن العالية التى تحيط بالقاهرة .

فلما أصبح الصبح ، كانت آلاف كثيرة قد دخلت القاهرة ، قادمة لنصرة الثورة فيها من البلاد المجاورة لها . وكان الثائرون قد اتصلوا بأهلها ، وأوقفوا على أبواب المدينة حرساً منهم يأذن لهم بالدخول ويوجههم إلى أماكنهم لتعزيز الثورة .

وكان من الزعماء الذين قدموا لنصرة الثورة من «قليوب» الشيخ سليمان الشواربى، زعيم هذه الأسرة إذ ذاك . وقدم الفلاحون أيضا من الجيزة لهذا الغرض . وقدر نابليون عددهم فى تقرير له بأربعة آلاف أو خمسة ، ولكن الفرنسيين حاربوهم ، وردوهم فلم يدخلوا القاهرة . وقدمت آلاف أخرى فى اليوم التالى، من باب النصر، فذهب الجنرال سلكوسكى لردهم . وطاردهم خارج القاهرة على طريق بلبيس . فلما عاد يدخل من باب النصر ، تلقاه الثائرون . وفى أثناء المعركة كبا جواده، فهجموا عليه وقتلوه . وقتلوا من معه من الجند ، ولم ينج منهم إلا واحد .

وكذلك ردّ الفرنسيون آلافا كثيرة كانت قادمة من الزيتون، والقبة، والمرج، والمطرية ، والقطا ، وسرياقوس ، وقليوب . ويقول أمين باشا سامى إن سكان القاهرة زادوا إذ ذاك إلى مليون نسمة . وكانت هذه الزيادة بلاشك بسبب القادمين لمساعدة الثورة[1] .

ومع حرمان الثائرين من معونة هذه الآلاف العديدة ، فقد استطاعوا أن ينالوا من الفرنسيين منالا شديدا . ولولا المدافع الثقيلة التى نصبها الفرنسيون على المرتفعات، وأطلقوا قذائفها على البيوت ، والمساجد ، والناس جميعا ، لنالوا منهم منالا أشد وأعنف وأقسى .

ففى مذكرات نابليون أن سبعة آلاف من الثائرين كانوا فى منطقة باب الفتوح ، يهاجمون مواقع هذه المدافع ، ببنادقهم ، وعصيهم ، ورماحهم . فكانت قنابلها تفتك بهم أشد الفتك ، وتقتلهم جماعات .

واستطاع فريق من الثائرين أن يصل إلى مقر القيادة الفرنسية ، فى الأزبكية . وتسلقوا مسجدا يشرف عليها فسلطوا على جنودها نيرانهم وقتلوا منهم عددا كبيرا . ولم يستطع الفرنسيون التغلب عليهم إلا باقتحام المسجد ، وقتل من فيه من الثائرين .

---

(١) ص ١٢١ تقويم النيل ، الجزء الثانى . طبع دار الكتب المصرية .

واشترك كل قادر فى هذه الثورة ، حتى النساء . وسنرى بعد قليل أن الفرنسيين أعدموا عددا منهن ، لاشتراكهن فيها .

وكان شعلة الثورة المتأججة ، هو الأزهر ؛ والأحياء المجاورة له . وعلم نابليون أن رجال الثورة تغلبوا على جنده فى أحياء متفرقة ، وأنهم هاجموا مقر البعثة العلمية فى بيت مصطفى كاشف بالدرب الأحمر ، فأراد أن يتخذ كل مايستطيع من وسائل العنف ، والجبروت ، والقسوة ، ليتغلب على الثورة .

أمر بأن يضرب الأزهر بقنابل المدافع ضربا شديدا . وأن يقتحمه الجند بعد ذلك تحت حماية هذه المدافع . وأمر بأن يقتل كل مصرى تلقاه جنوده فى الشوارع المحيطة به . وأن يقتلوا جميع من يجدوه داخل الأزهر . وأن يحرق كل بيت تلقى منه الحجارة على جنوده .

وأطلقت المدافع على الأزهر ، وعلى من فيه . فسقطت أول قنبلة فى داخله ، وظل إطلاقها عليه من الظهر إلى الليل . فتسقط على المسجد ، وفى أحياء الغورية ، والفحامين والصنادقية ؛ وماجاورها . وكان الجند يستولون على كل شارع أو حارة تهدمها القنابل وهم يتقدمون صوب الأزهر .

وقد وصف ريبو أثر هذه القنابل بقوله : « أوشك الأزهر أن يتداعى من شدة الضرب فتدفن تحت أنقاضه الجماهير الحاشدة فيه . وأصبح الحى المجاور للأزهر صورة من الخراب والتدمير . فلم يكن يُرى إلا بيوت مدمرة ودور محترقة . ومات تحت الأنقاض آلاف من السكان الآمنين ، كان يسمع لهم أنين موجع ، وصيحات مرعبة[1] .

ويقول الجبرتى : « . . . ضربوا بالمدافع والبنبات ، على البيوت والحارات . وتعمدوا بالخصوص الجامع الأزهر . وحرروا عليه المدافع والقنبر « القنابل » . . فلما سقط عليهم ذلك ورأوه ، ولم يكونوا فى عمرهم عاينوه ، نادوا ياسلام ....! من

---

(١) ص ٢٩٧ جزء ١ تاريخ الحركة القومية للرافعى .

هذه الآلام ...! ياخفىّ الألطاف ، نجّنا مما نخاف ... وتتابع الرمى من القلعة والكيمان . حتى تزعزعت الأركان » .

وكان من الطبيعى أن يُغلب الثائرون أمام هذه القوة التى لا قبل لهم بها . ولكنهم قبل أن يغلبوا ، ويستسلموا ، أدّوا واجبهم كما يؤديه الأبطال .

ففى مساء اليوم انتهت المقاومة فى جملتها . ولكن أهل الحسينية ، والعطوف ظلوا يقاتلون وحدهم بعد ذلك ثلاث ساعات . حتى نفدت ذخيرتهم .

خيل الفرنسيين داخل الأزهر

وبدأ الجنود الفرنسيون يتقدمون فى حذر ، حتى دخلوا معقل الثـورة ، « ... دخلوا إلى الجامع الأزهر ، وهم راكبون الخيول ، وبينهم المشاة كالوعول . وتفرقوا بصحنه ومقصورته . وربطوا خيولهم بقبلته . وعاثوا بالأروقة والحارات . وكسروا القناديل والسهّارات . وهشموا خزائن الطلبة ، والمجاورين والكتبة ، ونهبوا ما وجدوه من المتاع ، والأوانى والقصاع ، والودائع والمخبئات ، بالدواليب والخزانات . ودشتوا الكتب والمصاحف ، وعلى الأرض طرحوها ، وبأرجلهم ونعالهم داسوها . وأحدثوا فيه وتغوّطوا ، وبالوا وتمخطوا ، وشربوا الشراب وكسروا أوانيه ، وألقوها بصحنه ونواحيه . وكل من صادفوه به عرّوه ، ومن ثيابه أخرجوه » . بذلك وصف الجبرتى هذه المحنة التى لقيها الأزهر وأهله من الفرنسيين .

وكان ذلك فى يوم ١٣ من جمادى الأولى من سنة ١٢١٣ هـ — ٢٢ أكتوبر ١٧٩٨ م .

وبذلك انحلت الثورة وسلمت ، عاجزة ، مقهورة . ولم يبق منها فى اليوم الثالث إلا مناوشات قليلة ، متفرقة ، ضعيفة . فيها من العناد أكثر مما فيها من السداد .

ويقول الشيخ عبد الله الشرقاوى: إن الفرنسيين عندما دخلوا الأزهر « نهبوا منه أموالا كثيرة ، وسبب وجودها فيه أن أهل البلد ظنوا أن العسكر لا يدخله فحوّلوا فيه أمتعة بيوتهم [١] » .

---

(١) ص٧٦ من كتاب « تحفة الناظرين ، فيمن ولى مصر من الولاة والسلاطين .

أما روح الثورة وقوتها المعنوية ، وحماسة أهل القاهرة فيها ، على الرغم من قصورهم المادى ، وضعفهم ، فقد وصفها ريبو فى هذه الكلمات ، التى يذكر فيها بدء تجمعهم ، وظهور سخطهم فى اليوم الأول : « سادت الجلبة ، واختلطت الأصوات ، وعلت الصيحات فكان هذا المنظر يبعث الرهبة فى نفوس أشجع الناس(١) » .

ويصف نقولا الترك هذه الثورة بقوله : « وكان أولئك الأمم — يعنى المصريين — هايجين هيجات وحشية . فتهاربت الفرنساوية، إلى بركة الأزبكية »(٢) أى أن الفرنسيين كانوا يفرون أمام رجال الثورة هاربين إلى مقر قيادتهم فى الأزبكية .

ونستطيع أن ندرك عنف هذه الثورة إذا عرفنا عدد من قتل فيها من الجانبين . فقد أحصى نابليون القتلى من المصريين ، فى أيام الثورة الثلاثة ، بما يتراوح بين ألفين ، وألفين وخمسمائة . وقدرهم ريبو بأربعة آلاف . وهو التقدير الأوفق . وقتل من الفرنسيين مائتان(٣) — منهم قائدان من أعظم قواد نابليون هما ديبوى وسلكوسكى . أما أولهما فكان من أعظم قواد نابليون شجاعة ، وجسارة ، وكفاية ، منحه نابليون رتبة جنرال وهو فى الثانية والثلاثين ، تقديرا لبلائه فى حملته على مصر . وأما ثانيهما فكان بولونيًّا تطوع فى جيش نابليون . فاختاره ياورا له ، لنبله ، وشجاعته ، وذكائه . وكان إلى ذلك عالما وعضوا بالمجمع العلمى الفرنسى . وقد حزن نابليون لقتله حزنا شديدا .

كما كان من قتلى الفرنسيين عدد من الضباط ، والمهندسين ، والأطباء ، والعلماء ، والرسامين . فقد هاجم الثائرون ، فى فورة غضبهم ، مقر العلماء المرافقين للحملة فى بيت مصطفى كاشف ، بالدرب الأحمر ، وكسروا آلاتهم الهندسية ، وأجهزتهم العلمية والفلكية ، وقتلوا بعضا منهم .

بقى جند نابليون داخل الأزهر يوما وليلة ، ثم ذهب إليه العلماء يرجونه

---

(١) ص ٢٨٧ جزء — ١ — من تاريخ الحركة القومية .

(٢) ص ٦٧ من ذكر تملك جمهور الفرنساوية .

(٣) قدر نقولا الترك قتلى المصريين بخمسة آلاف والفرنسيين بألفين .

أن يخرجهم فأمر بخروجهم منه ، على أن يبقى بعض منهم فى الأماكن القريبة منه .

وبعد أن سلّم الثائرون ، أمام القوة الساحقة ، سلط عليهم نابليون سيف القهر والغلبة والانتقام . بالقتل ، والمصادرة ، والسجن . حتى إنه أصدر أمرا إلى الجنرال بون — بعد تسليم الثائرين ، واحتلال جنوده الأزهر — يأمره بهدم الأزهر ليلا ، لو استطاع . وأعدم لجنة الثورة ، وكانت ثمانين من الزعماء والمجاهدين . كما أعدم غيرهم كثيرين . قتلوا ، ووضعت جثثهم فى زكائب ، ثم ألقيت فى النيل ، مابين بولاق ومصر القديمة . وكثير من هؤلاء أعدم بلا محاكمة . وكتب نابليون فى رسالة منه إلى الجنرال رينيه ، الذى كان قائد حاميته فى الشرقية ، يقول : إنه فى كل ليلة ، يقطع رؤوس نحو ثلاثين من الرجال ، وكثير من زعماء الأهالى . وأن هذا سيكون درساً قاسياً لهم .

وكتب الجنرال برتييه فى رسالة له إلى الجنرال دوجا ، قائد حامية المنصورة : إنهم قد نكلوا بالثائرين ، فى مذبحة رهيبة .

وذكر مسيو بورين ، سكرتير نابليون الخاص ، أنه كان يتولى مساء كل يوم كتابة الأوامر القاضية بإعدام اثنى عشر سجينا من سجناء الثورة فى كل ليلة . وأن ذلك استمر لليالى عدّة . وذكر أن نساء كثيرات ، نفذت فيهن أحكام الإعدام . وذكر الشيخ عبد الله الشرقاوى . أنهم قتلوا من العلماء نحو ثلاثة عشر عالما . ذكر الجبرتى بعضاً منهم . سُجن هؤلاء العلماء فى بيت البكرى أياما . ثم عُرّوا من ثيابهم ونقلوا إلى القلعة فقتلوا وألقيت جثثهم فى النيل . وكان قد تشفع فيهم العلماء والشيخ السادات ، فلم تقبل منهم شفاعة .

وقد أوشك نابليون أن يأمر بقتل السادات ، لما رابه من أمره . بل إنه قال فى مذكراته : إن الدلائل قامت عنده على أن الشيخ السادات كان زعيم الثورة ، ورئيس لجنتها . ولكنه خشى من عواقب قتله ، ومن أثر ذلك فى الناس ، لما كان للسادات من حرمة ، ومكانة .

انتقام نابليون

ومما يدل على مبلغ القسوة التى اتخذها نابليون لعقاب أهل القاهرة على ثورتهم ، تلك الرسالة التى بعث بها إلى الجنرال زيونشك . حاكم المنوفية ، والتى يقول فيها : إنه كان — فى القاهرة — يقتل كل يوم ثلاثة ، ويأمر بأن يطاف برؤوسهم فى الشوارع . وأن هذه هى الطريقة الوحيدة لإخضاع هؤلاء الناس . ثم يأمر نابليون قائده زيونشك ، فى هذه الرسالة ، أن يتخذ مع المصريين كل وسائل البطش والقسوة . وأن يجرد سكان البلاد جميعاً من سلاحهم . وتلك الرسالة التى بعث بها إلى الجنرال منو ، فى رشيد ، يقول فيهـا : إنه يأمر فى كل ليلة بقتل خمسة ، أو ستة ، لإرهاب المصريين .

أما الذين لم يقتلوا من أهل القاهرة ، حربا أو غدرا . فلم يَسْلَموا من عنت الفرنسيين وانتقامهم أيضا . فقد ظل جند نابليون أياما طويلة يقفون لهم فى شوارع المدينة ودروبها صفوفا متراصة . لتفتيش الناس وأخذ مامعهم ، وربما قتلوهم . وتسلط عليهم برطلمين يبث أعوانه وعَسسه بحجة البحث عن السلاح ، ثم يفعل بهم مايشاء حقده . فكانت ترى فى أيام كثيرة ، قوافل من المصريين تسير موثقة بالحبال إلى السجن ، حيث تلقى صنوفا من العذاب ، ثم تفرض عليها المغارم الثقيلة . أو تقتل حيث لايعلم بمصيرها أحد . ويقول الجبرتى : إنه « مات فى هذين اليومين . وما بعدهما ، أمم كثيرة ، لا يحصى عددها إلا الله » وكذلك فعل بهم مصطفى أغا الذى اختاره نابليون محافظا للقاهرة .

ولم يكن انتقام نابليون قاصراً على أهل القاهرة وحدهم . بل تجاوزهم إلى أهل البلاد القريبة إليهـا . وخاصة تلك التى اشتركت ، أو حاولت أن تشترك ، فى معاونة الثائرين . فقد أرسل حملة إلى عرب القليوبية . فحرقت خيامهم وبيوتهم . وذبحت رجالهم ذبحا . وقتلت نساءهم ، وأولادهم . ثم أمر نابليون بأن تحمل

رؤوس قتلاهم إلى القاهرة . فحمل منها مائتان ، وضعت فى « أكياس » ونقلت على ظهور الحمير . ثم أفرغت فى شوارع القاهرة ، أمام أهلها ، نكاية بهم ، وتخويفاً . وليروا بعيونهم انتقام نابليون فيخشعوا ، ويخضعوا ، ويذلّوا .

وسارت حملة أخرى إلى « سرياقوس » فنهبت البلاد ، وأحرقت القرى ، وفرضت على أهلها أفدح المغارم . وجاء بالشيخ سليمان الشواربى ، كبير هذه الأسرة ، وثلاثة من رجاله ، فقتلهم . لأنه وجد كتابا منه إلى أهل سرياقوس ، يحرضهم على الثورة .

وسارت فرقة المغاربة ، التى ألفها نابليون فى القاهرة ، إلى كفر عشما ، بالمنوفية ، فقتلوا كبيرها ، ابن شعير ، ونهبوا داره — وكان فيها شىء كثير — ثم قتلوا أولاده وإخوته . ويقول الجبرتى : إن الفرنسيين أحضروا إخوته وأولاده إلى القاهرة ، فقتلوهم فيها .

ولما قتل الفرنسيون ابن شعير . طافوا برأسه فى قرى المنوفية — وكان صاحب النفوذ الأكبر فيها — ليصدق الناس موته .

وكذلك أحرقت قرية « القطا » فى إمبابة ، عقابا لها .

وقد اشترك فى هذه الثورة العامةُ ، فهدم نابليون بيوتهم على رؤوسهم ورؤوس أطفالهم ، ونسائهم . وخاصة من كان منهم فى أحياء الحسينية ، والأزهر . واشترك فيها رجال الأزهر ، فقتل علماءه ، من غير محاكمة ، وألقى جثثهم فى النيل . وامتهن قداسته بما رأينا من صور الامتهان ، والتحقير . واشترك فيها الخاصة ؛ فقتل كبارهم ، كالشواربى ، وشعير . فقد قتلهما ومثل بهما شر تمثيل .

وعاقب الخاصة ، والعلماء ، والمصريين جميعاً بما فرض عليهم من ضرائب ظالمة ثقيلة . وبإبطال جلسات الديوان . ولعله أراد بهذا أيضاً عقاب أعضائه أنفسهم . لأنهم لم يحاولوا تهدئة الثورة ، ولم يحولوا دون وقوعها . بل كانوا يتشفعون عنده فى بعض زعمائها وقادتها .

والحق أن العلماء من أعضاء الديوان ، قصدوا إلى الازهر ، بتكليف من نابليون ، ليتحدثوا إلى قيادة الثورة فيه . علّهم يجدون وسيلة يحفظون بها دماء التعساء من الأطفال والنساء والعجزة ، بإقامة صلح بين الثورة ونابليون . ولكن المترّسين خارج الأزهر ، والمعتصمين فى داخله من رجالها ، ردوا علماء الديوان ردا قبيحا ، واعتدوا عليهم . ومنعوهم من الدخول عليهم فى مقر ثورتهم بالأزهر .

وأراد نابليون أن يأخذ الحذر والحيطة ، حتى لاتقوم ثورة أخرى فى القاهرة . وفى الوقت نفسه ، يمعن فى الانتقام من أهلها . فهدم كثيرا من المساجد ، منها مسجد أولاد عنان ، والكزرونى ، فى الروضة ، ومسجد فى قنطرة الدكة . وآخر فى إمبابة ، واتخذ من مسجد الظاهر قلعة وجعل مئذنته مرصدا . وأقام فى داخله عدة مساكن لجنده ، وحظائر لخيلهم . ووضع على أسواره المدافع .

وأحاط القاهرة كلها بالحصون ، والقلاع ، والمعاقل . فهدم فى سبيل ذلك ، كثيرا جدا من البيوت والقصور ، أو خربها ، وقطع آلافا من الأشجار . وأمر سكان المناطق القريبة من مقر قيادته فى الأزبكية ، أن يتركوا مساكنهم ليسكن فيها جنده ، ورجاله ، وأنصاره .

وقد بلغ عدد القلاع والحصون ، التى أقامها نابليون ، حول القاهرة ، وفى ضواحيها ليسيطر عليها ، وليحول دونها ودون ثورة أخرى ، أو يهدمها بالقنابل إذا ثارت ، تسع عشرة قلعة .

ولكن ذلك كله لم يُجد شيئا ، فقد ثارت القاهرة بعد ذلك ثورتها الكبرى ، كما نرى بعد .

الثورة فى الوجه البحرى

لم تكن القاهرة وحدها هى الغاضبة من عدوان نابليون على أرض مصر ، ولا الثائرة وحدها فى وجه جيوشه . بل شاركتها فى الغضب والثورة بلاد الريف كلها ، فى الوجهين البحرى والقبلى على السواء . ونكاد نجد — ونحن نسجل صفحات هذه المقاومة الباسلة — أن كل مدينة ، وكل قرية فى هذا الريف كله ، كان لها نصيب فى شرف هذه الثورة وهذا الغضب .

فعندما خرجت جنود نابليون لتعقب جيش إبراهيم بك ، وهو فى طريقه إلى « بلبيس » خرج عليهم الناس من قرية « أبو زعبل » بالبنادق والعصى . حتى ردوهم إلى الخانكة . ثم قام أهل الخانكة أيضا فصاروا يقتلون كل من يلقونه من الفرنسيين. ودمروا الأفران التى بناها ميو ، مدير اللوازم لجيش نابليون ، وكان قد بناها لتموين الجيش الزاحف لمطاردة إبراهيم . ودام القتال بين المجاهدين من أهل هاتين القريتين من صباح يوم ٥ أغسطس ١٧٩٨ إلى مسائه ، حتى كادت الدائرة تدور على الفرنسيين ، فانسحبوا من الخانكة . ووثب المجاهدون على الحامية التى بقيت فيها فجردوا أفرادها من السلاح ، وقتلوهم . وارتد من بقى من الجند وقد استولى عليهم الفزع ، إلى المطرية ، والمرج . عائدين إلى القاهرة . ولكن الفرنسيين عادوا بعد ذلك بجيش كبير ، وتغلبوا على المجاهدين ونهبوا قرية أبى زعبل ، وحرقوها ، ثم ساروا إلى بلبيس .

فى الشرقية

وبعد هزيمة إبراهيم بك ، فى بلبيس ، وفراره إلى الشام . بدأت مقاومة أهل مديرية الشرقية فى الظهور والشدة . فأخذوا يرفعون السلاح فى وجه الفرنسيين . ويمتنعون أن يبيعوهم الخيول ، والأطعمة ، وحيوانات الذبح . ويغيرون على مواصلاتهم مع قيادتهم فى القاهرة ، فيقطعونها . ويهاجمون مخافرهم فى الليل والنهار . وقتلوا ترجمان الجنرال رينيه الخاص ، على مقربة من معسكرهم فى بلبيس .

وحارب أهل قرية « بيشة قايد » فرقة فرنسية ، أرادت أن تغتصب منها خيلا .

وقد تطورت مقاومة المجاهدين بعد ذلك ، إلى هجوم على معسكر الفرنسيين الرئيسى ، فى بلبيس ، وتكرر هذا الهجوم أكثر من مرة . واشترك فى بعض الهجمات ١٢٠٠ من المشاة ، و٢٥٠ من الفرسان . واستطاع الجنرال رينيه ، بمن معه من الجند ومن جاء لنجدته من مدد ، أن يصد هذه الهجمات ، ولكن العرب من قبائل « بلى » أعادوا عليه الهجوم بخمسمائة فارس ، وألف وخمسمائة راجل . وكانت مدافع الفرنسيين ذات أثر حاسم فى هذه المواقع . ومع ذلك فقد كانت الحرب سجالا بينهم وبين المصريين من الفلاحين والعرب . واستنجد رينيه مرة أخرى ، بنابليون . فأرسل إليه مددا . وأمره بالقسوة فى عقاب الثائرين والمحرضين. ولكنه وجد أن الشدة غير مجدية . فمال إلى المسايرة والملاينة ، ومع ذلك لم يفلح .

ومن الذين برزوا فى المقاومة ، من أهل بلبيس ، عبد الرحمن أباظه . وقد أخذه نابليون ، كما أخذ كثيرين غيره رهائن ، حتى تسكن الفتنة ، وتنتهى المقاومة. ثم جاء به وبهم . إلى القاهرة ، موثقين بالحبال . ومعهم نساؤهم ، وأولادهم ، ذكورا وإناثا ، وسار بهم الفرنسيون فى شوارعها يزفونهم بالطبول .

وفى بلدة بردين ، فى الشرقية ، تجمع الناس من أهلها أمام بلدتهم ، فلما شاهد القائد الفرنسى كثرتهم ، وسلاحهم ، لم يشأ أن يبادر بحربهم . فدعا عمدتها أن يقْدم إليه ليطلب منه صرفهم ، فلم يحضر . وحارب أهل بردين وما حولها من البلاد ، القوة الفرنسية فهزموها وقتلوا من جنودها خمسة ، وجرحوا غيرهم . وفر من بقى من القوة . فلما بلغ خبر هذه الهزيمة الجنرال دوجا فى القاهرة ، أرسل إلى بردين قوة كبيرة ، ومدافع . فحاربها الفلاحون حتى غلبتهم . ثم دخل الفرنسيون البلدة فحرقوها . ومات من أهلها من الحرب أو الحريق ثلاثمائة شهيد ، ثم سارت القوة بعد ذلك إلى « الزنكلون » لعقاب أهلها على اشتراكهم فى المقاومة ، فوجدت أهلها قد رحلوا عنها .

ومن البلاد التى اشتركت فى الثورة على الفرنسيين فى الشرقية « العصلوجى » و « الغار » و « كفور نجم » وقد وقعت أمام هذه البلدة معركة شديدة ، على بحر مويس ، قتل فيها من المصريين مائة وثلاثون .

وكانت إمارة الحج فى ذلك الوقت ، من أكبر وظائف الدولة . فلما عاد أمير الحج فى تلك السنة ، صالح بك ، أبى أن يدخل القاهرة وفيها نابليون . ولحق بإبراهيم بك ، فى بلبيس . فاختار نابليون بدلا منه ، الأمير مصطفى بك . وأمره بأن يسير خلفه حين خرج لغزو سوريا . وأخرج معه القاضى التركى ، أدهم أفندى ، وبعض العلماء . ولكن الأمير ترك نابليون يسير إلى الصالحية . وعرج هو ، ومعه القاضى ، والشيخ سليمان الفيومى ، إلى « كفور نجم » حيث التقت به جموع كثيرة . وصار يدعو الناس للحرب والثورة . ثم سار الأمير ومعه الجموع الكثيرة من أهل هذه البلاد ، حتى نزل مديرية الدقهلية واستقر فى « ميت غمر » ليقطع مواصلات نابليون فى نهر النيل . وأمام هذه المدينة ، مرت عدة سفن فرنسية ، تحمل المؤن ، والدقيق ، إلى جيش نابليون الذى كان يحارب فى سوريا إذ ذاك فأغارت عليها هذه الجموع ، واستولت على ما فيها . وقتلت من فيها من الجنود . ثم مرت بعد ذلك سفينة حربية فهاجمها المصريون ، بقيادة مصطفى بك ، واستولوا عليها . وغنموا أربعة مدافع كانت تحملها . وقتلوا جنودها وبحارتها .

وقد استشاط الفرنسيون غضبا لهذه الاعتداءات التى أوقفت سير سفنهم فى النيل . فسلطوا على « ميت غمر » قوة كبيرة أحرقتها ، حتى لم يبق فيها حجر على حجر . ثم أقاموا الحصون فيها ، وفى المنصورة ، ومنوف ، لحماية الملاحة فى النيل من هجمات المجاهدين .

أما الأمير مصطفى بك ، فقد صادر الفرنسيون ممتلكاته فى القاهرة ، وقبضوا على نائبه ، الذى كان ناظرا على الكسوة . وفر هو إلى دمياط ، ثم إلى الشام . وأراد أن يترضى الفرنسيين بعد فشله ، وأن يجدد صلاته بهم ، فأبوا ، ويقول نقولا الترك : إن مصطفى بك ذهب ليخدم أحمد باشا الجزار فى عكا ، فاتهمه بالجاسوسية ، وقتله .

وقد أسرع الفلاحون والعرب وأعيان البلاد إلى معونة هذه الثورة التى دعا إليها مصطفى بك ، وكان من أكبر أنصاره فيها كبير من أعيان هذه البلاد اسمه الحبالى ، وبادر الفلاحون بدفع ماطلب من الضرائب ، وكانوا لايدفعونها للفرنسيين ولو أكرهوهم على دفعها .

فى الدقهلية ودمياط والسويس :

وقد كانت مديرية الدقهلية ومدينة المنصورة خاصة ، من البلاد التى أبدت أعنف المقاومة للفرنسيين .

وقد شهد ريبو أكرم شهادة لأهل مديرية الدقهلية . حيث قال : إنها كانت مسرحا للاضطرابات . وإنها هى والبلاد الواقعة على بحيرة المنزلة ، والجزر التى فيها ، يسكنها قوم أشداء ، ذوو نخوة ، لهم جلد وصبر . وهم أغنياء بما ينالون من الصيد فى البحيرة .

ولم يستطع الفرنسيون إخماد الثورات المتأججة فى بلاد هذه المنطقة ، إلا باتخاذ أشد وسائل التنكيل والقسوة . التى أغضبت نابليون نفسه ، وخشى منها على مكانته وسمعته .

فعندما تكررت حوادث الاعتداء على السفن الفرنسية فى النيل ، وقتل الجنود والبحارة ، قصد الجنرال فيال حاكم دمياط ، على رأس حملة تأديبية ، فحرق البلاد الواقعة فى طريقه ، وهى الضهرية ، وكفر المياسرة ، والزرقا ، وميت الخولى ، وقد أباحها لجنوده نهبا وحرقا ، لأن أهلها كانوا أكثر اعتداء من غيرهم على السفن . وقد وجد فيها ثلاثة مدافع . ثم حرق ونهب قرى الأحمدية ، وشرمساح ، وكفر الزعاترة . ثم عاد بحملته إلى دمياط بعد ارتكاب كل هذه الفظائع مع أهل القرى المجاورة . وقد أرسل له نابليون يلومه على مافعل بقرية ميت الخولى ، ويبدى له استياءه من ذلك .

معركة المنصورة :

واتفق أهل مدينة المنصورة وما جاورها من البلاد والقرى ، على أن يفتكوا بالحامية الفرنسية فيها . وتواصوا سرًّا على الاجتماع لذلك فى يوم الخميس الذى

يقام فيه « السوق » الأسبوعى للمدينة ، وفى اليوم الموعود امتلأت المنصورة بالقادمين إلى السوق وبالثائرين . وقصدوا إلى مقر الحامية فأحاطوا به ، ثم دكوه دكا ، وأحرقوه . وكان ذلك مفاجأة للفرنسيين ، فأسرعوا يقصدون النيل ليهربوا بحرا ، ولكن الثائرين كانوا فى انتظارهم ، فقتلوهم جميعا . واستطاع فريق آخر من الجند الفرنسى ، أن يصل إلى النيل . ولكن أصحاب السفن الصغيرة من « المراكبية » أبوا أن يحملوهم ، فلحق بهم الثائرون وقتلوهم . وقدر عدد الجنود من رجال هذه الحامية بمائة وعشرين . وقدره بعض المصادر بمائة وستين « أورثهم أهل المنصورة موارث العدم » على حد تعبير نقولا الترك . وكان عقاب أهل المنصورة على ذلك ، أن أمر نابليون بقتل عشرة من أعيانها . ولكن الجنزال دوجا ، الذى اختير للانتقام منها ، وجد زعماء الثورة قد غادروا المدينة . ورأى ألا يقتل غير مذنب محقق ذنبه . فأعدم اثنين من أهل المدينة . وأمر رجاله فطافوا برأسيهما فى شوارعها . ثم أمر جنوده بتعقب زعيمين كان لهما أثر بارز فى هذه الثورة . هما على العديسي* من منية محلة دمنة ، وآخر اسمه مصطفى ، من بلدة القباب الكبرى . ولكنه لم يظفر بهما . ويقول نقولا : إن الحملة التى قام بها دوجا للانتقام من أهل المنصورة ، كانت ثلاثة آلاف جندى ، كما أمر نابليون بفرض ثلاثة آلاف ريال على أعيان المنصورة ، وألفى ريال على السيد على الشناوى خاصة — وكان أكبر أعيانها — وألفى ريال أخرى على أسوأ القرى سلوكا مع الفرنسيين فى هذه المنطقة . وأمر بأخذ رهائن من أهل هذه القرى ، حتى يسلم أهلها المعتدين والمحرضين . وأن تحرق القرى التى كان أهلها أكثر عدوانا على الفرنسيين .

وفرض على أهل المحلة الكبرى أربعة آلاف ريال . وأمر بأن ترفع الراية الفرنسية على مآذن المساجد فى قرى الدقهلية وبلادها كلها ، وأن تحرق البلاد التى يأبى أهلها ذلك .

وقد كتب الجنزال لوجييه فى مذكراته وصفا لما سلبه الفرنسيون من أهل هذه البلاد ، نستطيع أن ندرك منه مدى ماحل بهم ، قال : « فى اليوم الذى عاد

فيه الجنود إلى دمياط ، بعد هذا النهب ، كانت المدينة أشبه بسوق ، أو مولد ، باع فيه الجنود الفرنسيون إلى الأروام ، مانالته أيديهم من النهب والسلب ، فكانوا يعرضون المواشى ، والطيور ، والثيران والبقر ، والخيول ، والحمير ، والغنم ، والدجاج ، والأوز . وكثيرا من قطع الذهب والفضة التى كانت حليا للنساء[1] » .

ومع كل هذه القسوة الباغية ، لم يستطع الفرنسيون أن يحكموا هذه البلاد ، ولا أن يسيطروا عليها بأقل سلطان ، وفى ذلك يقول لوجييه : « إن السلطة الفرنسية ما زالت منكورة فى معظم جهات الدلتا التابعة لهذه المديرية . وفى دمياط نفسها التى تعتبر من أعظم بلاد القطر المصرى ، ولا يأمن الجندى الفرنسى على حياته إذا هو ذهب إلى حى الوطنيين . والحامية الفرنسية مقصاة فى حى الأروام[2] » .

ويبدو أن مقاومة أهل دمياط لم تفتر طوال مدة الحملة الفرنسية كلها . فقد أصدر الجنرال بليار ، الذى كان حاكما عليها فى أواخر أيام الحملة ، فى قيادة الجنرال كليبر ، أصدر بليار أمرا بفرض مائتى ألف فرنك غرامة على أهل دمياط .

ومن البلاد التى اشتركت فى شرف المقاومة للفرنسيين وتعرضت لعقوباتهم الصارمة من هذا الإقليم ، « دنديط » و « ميت الفرماوى » و « الهوابر » . وقرى « محلة دمنة » و « القباب الكبرى » و « دموه السباخ » . على البحر الصغير ، بين المنصورة وبحيرة المنزلة . و « ميت سلسيل » وقد احرقت بعد أن هجرها أهلها .

وقد حاربت قرية الجمالية ، دقهلية ، الفرنسيين فى معركة كبيرة . أشار إليها نابليون فى رسائله إلى حكومته .

كانت سفن الجنرال داماس تسير على الشاطىء الغربى من بحر أشمون . وعندما واجهت هذه القرية ، الجمالية ، تلقاها أهلها بعاصفة من النار ، والحجارة ، تنهال على

---

(١) ص ٣٥٢ جزء ١ من تاريخ الحركة القومية .
(٢) ص ٣٥٣ جزء ١ من تاريخ الحركة القومية .

السفن من فوق أسوار القرية ، ومن أعلى بيوتها . وفى نفس الوقت كانت جموع من الفلاحين والعرب تحمل البنادق ، والسيوف ، و « الشماريخ » تسرع لمهاجمة السفن ، وبعضهم يركب الخيل . فنزل جنود الجنرال داماس لمحاربة أهل هذه القرية والمهاجمين . حتى تغلبوا عليهم . ولكن المجاهدين استطاعوا أن يتجمعوا مرة أخرى داخل القرية . فعبر الفرنسيون النيل إليها ، واقتحموها بعد مقاومة باسلة من أهلها . وكان الفلاحون يتترسون فى كل بيت ، ويحاربون القوة الفرنسية فى كل شبر من أرضها ، ويدافعون عن كل جدار وحائط . حتى تلاشت قواهم . وألقى من نجا منهم بنفسه فى الماء ، وهو يحمل سلاحه . ليحارب فى مكان آخر . وقدر الفرنسيون من استشهد فى موقعة الجمالية هذه من المصريين بخمسمائة . وقتل من الفرنسيين خمسة ، وجرح خمسة عشر . ودامت المعركة فى عنفها أربع ساعات . وقد وصف الضابط جازلاس ، أحد ضباط الجنرال داماس شجاعة أهل هذه القرية وصفا مشرفا ، فقال فى تقريره عنها : «رأينا أكثرهم شجاعة يغامرون بأنفسهم ويهجمون ، حتى يصيروا فى وسط جنودنا . وقد رأيت بنفسى جماعة من الفلاحين ليس بيدهم سلاح سوى العصى ، يهاجموننا بحماسة . فيستشهدون . وقد تركنا الميدان مغطى بجثث القتلى » .

وقد أحرق الفرنسيون هذه القرية الباسلة بعد هزيمتها .

وكان الفلاحون ، من أهل الدقهلية ، يرفضون رفضا باتا ، أن يدفعوا للفرنسيين ماعليهم من الضرائب . أو يدلوهم على بيوت المماليك وثرواتهم . أو أماكن المحرضين ، والهاربين من المجاهدين . وكانوا يلاقون رسل الفرنسيين إذا قدموا لأحد هذه الأغراض ، بالرصاص .

وفى دمياط ، وبحيرة المنزلة ، جرت كذلك حروب ومواقع عنيفة بين المجاهدين والفرنسيين . كان بطلها رجلا من أبرز عناصر المقاومة للفرنسيين ، وهو الشيخ حسن طوبار . وسنفرد لسيرته فصلا مستقلا فى تراجم زعماء المقاومة .

ففى دمياط ، اتفق الشيخ حسن طوبار [1] مع أهلها على أن يعد أسطولا من السفن لمهاجمة الحامية الفرنسية فيها . على أن يقوم أهلها فى الوقت نفسه بالهجوم عليها . والتقى هؤلاء وهؤلاء فى قرية « غيط النصارى » ثم ساروا إلى دمياط فقتلوا الحرس الفرنسى فى مداخلها . وقامت معركة بين الفريقين دامت ليلة كاملة . تغلب بعدها الفرنسيون ، بعد أن حاربهم الثائرون حربا قاسية . ثم تجمع بعضهم مرة أخرى فى قرية « الشعرا » فسلط عليهم الفرنسيون المدافع . ثم كرّوا على القرية فنهبوها وأحرقوها . وقتل فى هذه المعركة من الفرنسيين اثناعشر ، وجرح ثلاثون .

وعندما كانت الثورة قائمة فى دمياط ، قام أهل « عزبة البرج » القريبة منها ، على الحامية الفرنسية فيها ، فقتلوا من أدركوه من رجالها .

وقد ذكرت المصادر الفرنسية أن عدد الثائرين فى هذه المنطقة كان عشرة آلاف ، وأن قرية « الشعرا » كانت مجتمعهم ، ومقر قيادتهم . كما ذكرت أن من قتل فى هذه القرية ، بالحرب أو الحريق ، أو الغرق فى النيل أو فى بحيرة المنزلة ، كان ألفا وخمسمائة . وجرت معركة أخرى بزعامة الشيخ حسن طوبار أيضاً ، فى بلدة « المنية » غربى دمياط . قاتل فيها المجاهدون قتالا شديدا ، حتى أرسل الجنرال دوجا يدعو زعيمها إلى الصلح . ولـكنه أبى .

ولما تغلب الفرنسيون على مقاومة أهل دمياط ، وبحيرة المنزلة . سارت فرقة من جنودهم قاصدة السويس . فترصد لها المجاهدون فى الطريق وأبادوها .

وقام أهل السويس ، ومعهم حاكمها الوطنى ، فحاربوا الحامية الفرنسية فيها ، ولـكنها تغلبت عليهم . ولم يستسلم المجاهدون ، بل حاربوا حتى قتلوا جميعا . ثم نهب الفرنسيون المدينة . وغصبوا ما فيها من البن والبهار الذى كان فى مخازن التجار . وكذلك أحرق أهل العريش القلعة على من فيها من الفرنسيين ، فقتل منهم عدد كبير .

---

(١) تجد لهذا المجاهد ترجمة وافية فى آخر هذا الفصل .

في المنوفية والغربية :

وكانت مقاومة أهل مديريتى المنوفية والغربية ، باسلة مشرفة أيضاً . فقد سافر الجنرال فوجير ، الذى عين حاكما على الغربية فى أغسطس سنة ١٧٩٨ . وكان نابليون قد أمره بأن يأخذ أهلها بغاية القسوة والشدة . فلما كان سائرا إليها ، خرج عليه أهل قريتين من قرى منوف ، هما « غمرين » و « تتا » يحملون سلاحهم . ولم يمكنوا القائد الفاتح من دخولها . فاستعان بزميله الجنرال زايونشك ، حاكم المنوفية ، فأمده بقوة كبيرة . ومع ذلك لم تستطع القوتان دخول قرية غمرين إلا بعد أن رويت أرضها بالدماء الغزيرة ، وبعد أن قتل الفرنسيون من أهل هذه القرية الصغيرة ، خمسمائة رجل وامرأة .

وشهد الكابتن فيروس — وقد اشترك فى هذه الموقعة — بأن نساء القرية ، كن يهاجمن الجنود الفرنسيين بكل بسالة وشجاعة .

كما أشار نابليون ، فى تقريره إلى حكومة الجمهورية ، إلى موقعة غمرين هذه ، وما لقيته جنوده من مقاومة أهلها . وقد أحرق الفرنسيون القريتين ، بعد اقتحامهما .

وفى ختام أيام الحملة قبل رحيل الفرنسيين ، قصد جنودهم إلى الريف ليأخذوا من أهله نفقات رحيلهم . فلما وصلوا المحلة الكبرى خرج أهلها عليهم ، ومعهم القاضى ، وحاربوهم . ويقول الجبرتى : إنه قتل من أهل المحلة فى هذه المعركة ، أكثر من ستمائة منهم القاضى .

وفرض الفرنسيون على أهلها أربعة آلاف ريال .

وفى طنطا قامت ثورة عاتية ، عندما طلب القائد الفرنسى ، لوفيفر ، أربعة من أهلها رهائن . فأرسل إليه حاكمها ، سليم جوربجى ، أربعة من شيوخ مسجد السيد البدوى . وقد أوشك الثائرون أن يفتكوا بجند الفرنسيين وأن يمنعوا

سفنهم التى تسير بهؤلاء الرهائن فى النيل إلى القاهرة . ولكن القائد الفرنسى تغلب عليهم بعد أن قتل منهم ، وجرح ، ثلثمائة .

وطلب هذا القائد إلى نابليون أن ينتقم له من أهل طنطا . ولكنه رأى من الحكمة ألا يفعل ذلك ، لحرمة السيد البدوى فى نفوس الناس .

وعندما قامت القاهرة ، فى ثورتها الثانية على الفرنسيين فى أغسطس سنة ١٨٠٠ ، ثار أهل طنطا مرة أخرى ، فقاتلهم الفرنسيون . ثم فرضوا خمسين ألف ريال غرامة على علمائها خاصة ، وخمسين ألفا أخرى على أهلها عامة . وأخذ الجنرال كليبر اثنين من علمائها إلى القاهرة فسجنهم فى القلعة .

وقد أصاب آل الخادم ، وهم أكبر الأسر فى طنطا فى ذلك الوقت ، شر كبير من الفرنسيين . فقد اقتحموا بيوتهم ، وأخذوهم منها وقيدوا أرجلهم وأبقوهم فى معسكرهم أياما ، وكانوا يأخذون منهم فى كل يوم من هذه الأيام ستمائة ريال ، غير ما استولوا عليه من أغنامهم ومحاصيلهم . وفرضوا عليهم فوق ذلك خمسة عشر ألف ريال . وأخذوهم إلى الجيزة سجناء ، ثم أطلقوا سراحهم . واحتجزوا كبيرهم مصطفى الخادم ، لأنه كان أكثرهم مالا ، وأكبرهم مكانة . وطالبوه بمال جسيم وتفننوا فى أنواع العقاب ، وألوان التعذيب يوقعونها به . فتارة يضربونه على كفوف يديه ورجليه ، وتارة يلقونه فى الشمس موثق الجسد ، والحر شديد . حتى تورم جسده ، وكان رجلا جسيما ضخما . ويقول الجبرتى : إنهم أخذوا « عساكر المقام » التى كانت منصوبة فوق ضريح السيد البدوى . ثم يقول إنها كانت من الذهب الخالص . وزنتها خمسة آلاف مثقال .

وكان كبير أسرة شعير ، فى كفر عشما ، ممن حاربوا الفرنسيين ، وألحقوا بهم شراً كثيرا . وأرادوا أن يتخلصوا منه بالغدر ، فهاجموه ليلا فى قصره الحصين ، وتغلبوا بالمفاجأة على رجاله . وألقى هو بنفسه فى النيل ، وظل يسبح وهم يطلقون عليه النار ، حتى أصابته رصاصة قتلته . ووجد الفرنسيون فى قصره العظيم ثلاثة

مدافع ، وعددا كبيرا من البنادق ، وشارات وملابس لضباط فرنسيين قتلهم رجاله، وكميات وافرة من الذخائر ، وثلاثين فرسا أصيلة .

وبعد موت ابن شعير ، نهب الفرنسيون بيوته ومزارعه الواسعة ، وأسروا إخوته وأولاده ، ثم قتلوهم ، ولم يتركوا منهم سوى طفل صغير ، جعلوه شيخا على أسرتهم .

وقد ذكر الجنرال لانوس ، الذى هاجم ابن شعير ، فى كتابه إلى نابليون ، أنه لولا مفاجأته له لما تغلب عليه . فقد كان مشهورا بالبطش والشدة . وكان يسير فى حراسة ألف ومائتى رجل مسلح . وأرسل له نابليون تهانئه الحارة على ظفره به .

وعند قريتى « طنوب » و « الزعيرة » من قرى المنوفية ، شاهد الفلاحون سفينة حربية فرنسية فهاجموها ، وحاربوا من فيها من الجند حربا عنيفة . فقتلوا منهم عشرة وجرح أربعون ، منهم الجنرال دومارتان ، قائد مدفعية نابليون ، ومات بعد أسابيع . وأرغم نابليون بسبب الاعتداء على السفن ، على أن ينشىء ثلاثة أساطيل مسلحة لحراستها . وكان أولها يحرس السفن التى تسير على فرع رشيد . وثانيها يحرس التى تسير على فرع دمياط . والثالث لحراسة السفن التى تهبط إلى الوجه القبلى أو تجىء منه إلى القاهرة .

ومن الذين قتلهم رجال المقاومة ، من رجال هذه السفن ، الكابتن چوليان ، ياور نابليون ، فقد جنحت سفينته بقرب رشيد . وكان مسافرا بها يحمل رسالة من نابليون إلى كليبر وبرويس ، فهاجمها أهل قرية « علقام » فى كوم حماده وقتلوا جميع من فيها . وكان جزاء هذه القرية الباسلة أن حرقت حتى لم يبق فيها بيت واحد لم يحرق أو يهدم .

وكذلك جرح من رجال نابليون أيضاً ، مسيوسوس ، مدير مهمات الجيش ، ثم مات من جرحه .

وكان للعرب من قبائل أولاد على والهنادى جهاد مذكور فى المقاومة . وقاومت

بلدة شباس عمير الفرنسيين الذين أرادوا دخولها . فلما فشلوا فى دخولها والتغلب على أهلها أحرقوها .

فى البحيرة :

وفى مديرية البحيرة كانت أيضاً مقاومة منظمة أقرب ما تكون إلى المواقع الحربية الكبيرة . وكان يقودهذه الحركة رجل مغربى تسمى باسم محمد المهدى [1] ، أو الأمير محمد . قاد فى أول أمره قافلة من الحجاج المغاربة ، كان عددها أربعمائة . ثم نزل بها إلى دمنهور فدهم الحامية الفرنسية فيها وهزمها ، وقتل جميع من كان فيها ، لم يُبق منهم أحدا . واستولى على سلاحهم ومدافعهم .

وارتفع ذكره بعد هذا النصر ، حتى تطوع للحرب معه عدد عظيم من الناس مصريين وغير مصريين . وبلغ جيشه أربعة آلاف مقاتل ، وسبعة آلاف فى رواية نقولا الترك . ولما هزمت الحامية الفرنسية فى دمنهور وأبيدت ، قدم قائد الفرقة الفرنسية فى الرحمانية ، ومعه عدد كبير من الجند لحرب محمد المهدى ، فهزموا أمامه ، كما هزمت الفرقة الفرنسية فى دمنهور . ولكن النصر فى هذه المعركة كان غالى الثمن . حيث قتل كثير من المجاهدين المصريين . وكان أكثرهم من الفلاحين الذين تطوعوا للجهاد ، ودخلوا المعركة من غير سلاح .

ولما بلغ أمر المهدى هذا المبلغ من الخطر ، تحرك لحربه حاكما الغربية والمنوفية ، وكلاهما يقود جيشا كبيرا . وسار الجيشان إلى حيث التقيا مع المهدى فى « سنهور البحيرة » وكان جيش المهدى ، كما قدره ريبو ، خمسة عشر ألفا من المشاة ، وأربعة آلاف فارس ، وجرت بين الفريقين معركة عنيفة طاحنة ، دامت سبع ساعات ، يوم ٩ مايو سنة ١٧٩٩ وقد أبلى فيها المجاهدون أعظم البلاء ، وأبدوا ضروبا عظيمة من البسالة . فقتلوا من الفرنسيين ستين قتيلا . وقتل منهم ألفان .

ولم يتغلب الفرنسيون أول الأمر على رجال الثورة . بل ارتدوا إلى الرحمانية .

---

(١) تجد ترجمة له فى آخر هذا الفصل .

ثم عادوا بعدد جديد من السلاح والجند ، فتغلبوا على جيش المهدى . ودخلوا « دمنهور » مرة أخرى .

وكان انتقام الفرنسيين من أهل دمنهور شديدا بالغ الشدة . حيث قتلوا ألفا وخمسمائة من الرجال ، والنساء ، والأطفال ، والعجزة . وأحرقوا المدينة كلها ، وتركوها أطلالا ، وحجارة سوداء . وأباحوها لجنودهم فنهبوها . ولم يستطع الفرنسيون اللحاق بالمهدى ، ففر إلى الصحراء . وبقى رجال الثورة يواصلون كفاحهم ، حيث يستطيعون .

وتقول مصادر فرنسية مشكوك فى صدق روايتها : إن الجنرال لانوس ، الذى حارب المهدى ، ظل يطارده ، ويترصده على حدود الصحراء حتى قتله . ويذكر الجبرتى فى حديثه عن ثورة القاهرة الثانية بعد ذلك ، أنه كان من زعمائها رجل مغربى ، يقال إنه المهدى هذا . وقد استطاع الثائرون ، قبل هزيمتهم ، أن يطهروا المنطقة الممتدة من الرحمانية إلى رشيد ، من الفرنسيين .

وقد جاوز الفرنسيون ، فى انتقامهم من أهل مدينة دمنهور — بسبب ثورتهم — كل منطق ، وحكمة ، وقانون . يصف أحد رجالهم — لاكروا — ذلك بقوله :

« ولما كان أهالى دمنهور قد اشتركوا فى الثورة ، وضربوا مثلا سيئا لأهالى البحيرة . لذلك قضى عليهم ، رجالا ونساء ، وأطفالا بالفناء قتلا بحد السيف . وأشعلت النار فى دمنهور ، حتى احترقت عن آخرها . ولم يبق من دورها ومساكنها غير أطلال قائمة ، وأحجار قاتمة ، وجثث هامدة[1] . »

وقبل أن ننتهى من تفصيل المقاومة فى الوجه البحرى ، نذكر أن معركة أبى قير البحرية التى حطم فيها نلسون أسطول نابليون ، والتى تعتبر من المعارك التاريخية . ذات الأثر البعيد ، ليس فى نتائج حملة نابليون على مصر وحدها ، بل

---

(١) ص ٣٥٥ من كتاب فتح مصر الحديث للمرحوم أحمد حافظ عوض بك .

فى تاريخ العالم كله . هـذه المعركة ذات الأثر البعيد ، لم تخل من يد مصرية ، ليست ضعيفة الأثر .

فقد شهد الفرنسيون أن سفينة مصرية كانت تتقدم أسطول الأميرال نلسون عند دخوله خليج أبى قير لخوض المعركة ٠ وأن هذه السفينة كانت تحمل بحارة مصريين تقدموا لإرشاد الأسطول الإنجليزى فى مسالك الخليج .

وجاء فى تقرير الضابط شاربيه ، الذى كان على ظهر بارجة فرنسية : أنهم فى مساء اليوم الذى ظهرت فيه بوارج نلسون فى أبى قير ، شاهدوا « فى عرض البحر سفينة مصرية قادمة من الإسكندرية تتصل بإحدى السفن الإنجليزية ، ولم تنفصل عنها بالرغم من أن السفينة ألرت « Alerte » أطلقت عليها عدة قنابل[1] . »

وقد أقام نابليون ، بسبب المقاومة المنيفة التى لقيها ، قلاعا منيعة فى الإسكندرية ، ورشيد ، ودمياط ، والرحمانية ، وبلبيس ، والصالحية . لـكسر شوكة المجاهدين المصريين فى الوجه البحرى ٠ وقمع كل ثورة يقومون بها ضده .

كما صادر نابليون وخلفاؤه محاصيل الفلاحين ، من الغلال ، والشعير ، والتبن ، والفول ٠ وفرضوا على كل إقليم أكثر من ألف فرس ، وألف جمل[2] . فوق ما فرضوه من الأموال الباهظة على أهلها . وكانوا يضربون الفلاحين ، وأعيان البلاد بالمقارع على مفاصلهم ، وركبهم ، ويربطونهم بالحبال ثم يجرّونهم بها .

ولـكن ذلك كله ، لم يجده ، ولم يجدهم نفعا . .

---

(١) ص ٢٣٠ من كتاب تاريخ الحركة القومية ، الجزء الأول .

(٢) ص ١٤٧ — ١٤٨ جزء ٢ تقويم النيل للمرحوم أمين باشا سامى .

فى الوجه القبلى

كانت المقاومة فى الوجه القبلى ، تمتاز بميزة التنظيم ، وكثرة التجمعات ، بل الجيوش التى تشترك فيها . وقد وصفها الفرنسيون بأنها كانت مواقع حربية كاملة ، حقيقية .

ومن الأسباب التى جعلت مقاومة الصعيد تمتاز بهذه الميزات ، أن مراد بك ، بعد فراره وهزيمته فى موقعة إمبابة ، التجأ إلى الصعيد ، واتخذ من بلاده ، ومن رجاله سبيلا للانقضاض على الفرنسيين . وكان فى بعض الأحيان ، يشترك مع المجاهدين من المصريين فى المقاومة ، أو يأمر جنوده بذلك . فكان وجود مراد وجنده ، أو من بقى معه منهم ، ومن كان يجمعهم ، كان وجوده مشتركا أومشجعا ، من الأسباب التى جعلت المقاومة فى الوجه القبلى كما وصفنا .

ولكن خصائص أهل الصعيد من الشجاعة والصبر ، مما شهد به الفرنسيون أنفسهم ، كانت من أهم العوامل أيضا فى هذه المقاومة . ولعل أكبر دليل على ذلك ، أن مراد بك نفسه صالح الفرنسيين ، وتولى حكم الصعيد تحت راية الجمهورية الفرنسية . وكان فى حكمه ذاك مثلا للخادم المطيع الأمين . ومع ذلك بقيت مقاومة أهل الصعيد للفرنسيين قوية لم تضعف .

* * *

كان أول اشتباك بين المصريين والفرنسيين ، فى الصعيد ، عند بلدة « القنايات » ثم تبعته موقعة كبيرة فى « سدمنت الجبل » من مديرية الفيوم ، كادت قوات الفرنسيين أن تهزم فيها ، لولا مدفعيتهم التى لم يكن لدى المصريين شىء منها .

ومع هذه الميزة الواضحة للفرنسيين ، فقد قتل منهم فى هذه الموقعة — بتقدير المصادر الفرنسية نفسها — ثلاثمائة وأربعون ، وجرح مائة وخمسون . وقتل أربعمائة من المصريين . وكان عدد الفرسان من المصريين ، بما فيهم جنود مراد بك ، يتراوح بين أربعة آلاف وخمسة آلاف .

وكانت هذه المعركة من أهم المعارك التى خاضتها الجيوش الفرنسية فى مصر . حتى ذكرت بعض مصادرهم : أنها تلى فى الأهمية موقعتى إمبابة ، وشبراخيت . وقد جرت هذه الموقعة يوم ٧ أكتوبر سنة ١٧٩٨ .

وبعد أن احتل الفرنسيون مدينة الفيوم ، هاجمهم فيها ثلاثة آلاف من المجاهدين ، منهم ألفان من الفلاحين ، وألف من العرب والمماليك . واقتحم الثائرون أسوار المدينة ، وتغلبوا على حراسها . ثم اندفعوا كالسيل إلى مقر القيادة الفرنسية ، فظلوا يهاجمونه نهارا كاملا . ولكنهم لم يستطيعوا التغلب عليه ، لمناعته ، ووفرة الذخيرة عند جنوده . وقتل من المجاهدين فى هذا الهجوم مائتان ، وجرح كثيرون .

وكذلك هاجم الثائرون الحامية الفرنسية فى المنيا ، ثلاثة أيام متوالية . وغلبوا الحراس على أبوابها واقتحموها . ولكن الفرنسيين فى اليوم الثالث ، تغلبوا عليهم بعد أن قتلوا منهم عددا كبيرا .

وقد ذكرت مصادر فرنسية أنه لولا تراخى بعض أهالى مدينة المنيا فى نصرة إخوانهم . لما تغلبوا عليهم .

وقد أسقط الفرنسيون ثلث الضرائب التى فرضوها على أهالى المنيا . مكافأة لهم على سكينتهم فى أيام المعركة الثلاثة . وزادوا ما أسقطوه على أهالى القرى التى هاجمتهم .

ومن القرى التى قاومت الفرنسيين « مطرطاش » و «سيلة» و « سرسنا » فى مركز سنورس . وقد حرقت القرية الأخيرة لما لقى الفرنسيون من أهلها . وحرقت أيضا بلدة « الغنايم » لإسرافها فى المقاومة . وكذلك « أبو مناع » وما جاورها من القرى و « أبو جرج » . وهذه الأخيرة قتل وحرق من أهلها ألف مجاهد .

وعندما قهر الفرنسيون أهل « ملوى » واستولوا عليها ، وجدوا فيها ثمانية مدافع . كان المجاهدون يطلقون قنابلها على السفن الفرنسية التى تعبر النيل .

وقامت ، فى سوهاج ، ثورة قوامها أربعة آلاف من الفلاحين ، وسبعمائة من الفرسان . أبدى فيها المصريون كل شجاعة . ولكن مدافع الفرنسيين ، وأسلحتهم الحديثة الوافرة ، كفلت لهم الغلبة على رجال الثورة . بعد أن فتكوا بهم — ولم يكن سلاحهم سوى الحراب والبنادق القديمة — فقتل منهم ثمانمائة .

وفى « الصوامعة » تجمع ثلاثة آلاف من الفلاحين وأطلقوا نيرانهم على الفرنسيين ولكنهم تغلبوا عليهم . فقتل وغرق منهم ألف مجاهد .

ولكن هذه الهزائم ، أو المذابح ، لم تضعف من عزيمة المجاهدين ، بل تجمعوا مرة أخرى من المنيا ، وبنى سويف ، والفيوم وأهل القرى ، والتقى ألفان منهم بالفرنسيين عند طهطا ، فهاجموهم . ولكنهم تغلبوا عليهم أيضا ، بوفرة سلاحهم ، وقتلوا من الثائرين تسعمائة وخمسين .

وقامت معركة بين المجاهدين والفرنسيين ، فى « الردسية » بالقرب من إدفو ، التحم فيها الفريقان بالسلاح الأبيض . وقتل فيها من الفرنسيين سبعة وثلاثون ، منهم ضابط ، وجرح أربعة وأربعون .

وفى قنا هاجم العرب والفلاحون الفرنسيين ، ولكنهم هزموا بعد أن جرحوا القائد الفرنسى جرحا بليغا .

معركة نجع البارود :

وجرت عند قرية « نجع البارود » بالقرب من قوص ، إحدى المعارك الكبرى فى حركة المقاومة بالصعيد . فقد هاجم جيش من المجاهدين — يقدر بعض المؤرخين عدده بعشرة آلاف — الأسطول الفرنسى وكان عدد سفنه اثنتا عشرة سفينة ، منها سفينة القائد العام . وكانت من قبل سفينة نابليون الخاصة ، التى سماها « إيطاليا » تخليدا لذكرى انتصاراته فيها . بدأ المجاهدون هجومهم بإطلاق الرصاص على السفن ، فأطلقت هذه مدافعها عليهم ، وقتلت كثيرين منهم ، ولكنهم لم يتقهقروا ، بل زاد تجمّعهم وكثر عددهم ، ثم نزل كثيرون منهم إلى النيل يسبحون ، ويهاجمون السفن ، حتى استطاعوا أن يستولوا عليها عنوة ، وقهرا . وساقوها إلى شاطىء النيل ، فأفرغوا ما تحمل من ذخيرة ومؤن ، ثم ركبوها وساروا بها ليستولوا على « إيطاليا » سفينة القائد ، التى ضاعف جنودها إطلاق مدافعهم على الثائرين . ولكنهم مع ذلك استطاعوا أن يلحقوها ، وأن

يصعدوا إلى ظهرها . فأمر قائدها عند ذلك بنسف مستودع البارود فيها ، ثم ألقى بنفسه فى النيل ، وكذلك فعل من بقى من رجاله . وانفجرت السفينة ، وقتل بسبب ذلك كثيرون من المصريين . ولكنهم لم يتركوا قائدها ومن سبح معه ، فطاردوهم فى النيل حتى قتلوهم جميعا . وجرح قائد السفينة ، القومندان موراندى ، جرحا قاتلا ، ثم مات فى النيل . ولم ينج من رجال هذا الأسطول أحد . وكانوا خمسمائة من الضباط والجنود ، والبحارة . وقد اعتبر الفرنسيون هذه الخسارة أكبر ما لحقهم فى مصر . وبلغت أنباء هذه المعركة نابليون ، وهو فى حملته على سوريا ، فحزن أشد الحزن ، على خسارة رجاله فيها ، وعلى فقد سفينته الخاصة « إيطاليا » وكانت أثيرة عنده .

وفى « برديس » هاجم الفلاحون قوة فرنسية كبيرة ، وأصلوها نارا حامية ، لم تجد معها سبيلا إلى النجاة إلا بالفرار إلى جرجا . وتبعها المجاهدون ، ومعهم أهل البلاد والقرى التى مروا بها ، حتى بلغ عددهم ثلاثة آلاف . وهاجموا الفرنسيين فى جرجا ، واستطاع بعض المجاهدين دخولها ، ولكنهم ردوا بعد أن قتلوا وجرحوا بعض الفرنسيين . وقتل منهم مائة وخمسون .

وتجمع فى « قفط » ثلاثة آلاف من الفلاحين والعرب ، وحاربوا قوة فرنسية فهزموها . والتقى الجنرال بليار بهم بعد ذلك وهم يحملون رؤوس القتلى الفرنسيين على أسنة حرابهم ، وبعض الفلاحين يلبس ملابس القتلى من الجنود الفرنسيين . وبأيديهم بعض الآلات الموسيقية التى غنموها منهم . وحارب الجنرال بليار المجاهدين وحاربوه حربا عنيفة ، انتهت بهزيمتهم ، وانسحابهم إلى « أبنود » .

وفى هذه المدينة وقعت إحدى المعارك الكبرى ، بين المجاهدين ، والفرنسيين . استخدم فيها المجاهدون ما غنموه من مدافع الأسطول الفرنسى ، الذى استولوا عليه فى معركة نجع البارود . وقد دامت هذه المعركة ثلاثة أيام متوالية ، مستعرة الأوار . وأظهر فيها المجاهدون المصريون أعظم ضروب البسالة والشجاعة . ولما تغلب عليهم الفرنسيون ظلوا يحاربونهم فى شوارع المدينة ، ويدافعونهم عن كل

بيت فيها ، وعن كل شبر من أرضها . فلم يجد الفرنسيون بدا من إشمال النارفيها فأشعلوها ، ولكن المجاهدين تحصنوا فى مسجدها المنعزل ، وفى قصر يجاوره ، وواصلوا إطلاق النار منهما ، فأحرق الفرنسيون القصر ، والمسجد أيضا .

واستطاع الفرنسيون فى اليوم الثالث من المعركة ، أن يقتحموا القصر ، وقد أحالته النار هشيما ، فوجدوا فيه ثلاثين من المجاهدين ، وقد أثخنتهم الجراح ، ومع ذلك فهم يقاومون . وظلوا يحاربون وجراحهم تسيل بالدم ، حتى قتل الفرنسيون أكثرهم .

وفى هذه المعركة المشرفة ، قتل من المجاهدين قريب من ستمائة ، وجرح كثيرون ، ومن الفرنسيين خمسة وثلاثون ، وجرح مائة وأربعة وثلاثون .

وفى « بئر عنبر » على الطريق بين قنا والقصير ، قامت معركة عنيفة بين ألف من المجاهدين وخمسمائة من المماليك ، وبين الفرنسيين ، قتل فيها من الفرنسيين أربعة وأربعون ، وجرح عشرون ، وكان من القتلى عدد من الضباط . وأوشك الجنرال ديزيه نفسه ، القائد العام فى الوجه القبلى ، أن يقتل .

مذبحة بنى عدى

وكانت « بنى عدى » من المراكز الهامة التى تحصن فيها المجاهدون . وتجمع من أهلها ومن غيرهم ، نحو أربعة آلاف مسلحين . وقدمت حملة من الفرنسيين لحربهم . وكانت بين الفريقين معركة مستعرة ، قتل فيها الكولونيل بينون ، قائد الحملة . واشتدت الحرب ، التى استمات المجاهدون فيها ، حتى تحصنوا — وهم يقاتلون — فى شوارع المدينة ، وأزقتها ، وبيوتها . وكانوا يدافعون عنها بيتاً بيتاً . فعمد الفرنسيون — كعادتهم — إلى إشعال النار فيها . وبذلك استطاعوا كسر مقاومتها ، والتغلب على الأبطال من أهلها .

وقد وصف بعض القواد الفرنسيين هذه المعركة بأنها كانت مذبحة شديدة الهول . وقدرت بعض مصادرهم القتلى ، والحرقى ، من المجاهدين بألف . وقدرهم مصدر آخر بثلاثة آلاف .

وبعد أن احترقت « بنى عدى » واستسلم المجاهدون فيها . اقتحمها الفرنسيون ودخلوا بيوت المجاهدين من أهلها فنهبوا منهـا شيئاً كثيرا ، وأموالا عظيمة ، وودائع جسيمة ، كما يقول الجبرتى . وقد ذكر ديزيه القائد العام ، أن كثيرا من الجنود ، استولى الواحد منهم على عدة آلاف ريال . ووصفت بعض المصادر الفرنسية أهل بنى عدى بأنهم « أشجع سكان مصر » . وذكر دافو أن الثورة كانت تشمل « بنى عدى » من أقصاها إلى أقصاها . وأن أهلها كانوا يرسلون جماعات منهم إلى الشاطىء لمهاجمة السفن الفرنسية . وذكر أيضـا أن بعض الجنود نهب من بيوت أهلها خمسة عشر ألف فرنك ذهبا . وبعضهم نهب عشرين ألفاً .

وفى « جهينة » هاجم المصريون الحامية الفرنسية ، وتغلبوا عليها ، واقتحموا البلدة ، واستولوا عليها . ولم يستطع الفرنسيون أن يستردوها إلا بعد أن ضربوها بمدافعهم . وقد تحصن المجاهدون فى بيت من بيوتها ، وحاربوا فيه ساعات متوالية حتى اقتحمه عليهم الفرنسيون . وقتل فى جهينة ، من المجاهدين ، ثلاثمائة .

شجاعة صبى مصرى

ومن الحوادث التى تدل على تأصل روح المقاومة فى نفوس المصريين ، ماسجله الفرنسيون عن طفل ريفى ، من أهل قرية الفقاعى ، مركز ببا . فقد هاجم هذا الطفل ، وعمره اثنتا عشرة سنة ، جنديا فرنسيا وخطف بندقيته . ولـكن جنديا آخر أسرع فضربه بالسيف على ذراعه . ثم أخذه إلى الجنرال ديزيه . فلمـا سأله القائد عما فعل ، أبدى شجاعة فائقة ، واعترف بفعلته . وأبى أن يدل على محرضين له . ثم قال للقائد :

« إليك رأسى فأمر بقطعه » وأعجب القائد ديزيه بهذا الطفل ، وبما أبداه من شجاعة وقوة ، وثقة بنفسه . ثم أمر بضربه ثلاثين جلدة ، تحملها صابرا ، جلدا ، لا يتململ ، ولايتوجع . وبقى ديزيه يذكر هذا الطفل الشجاع من أهل الصعيد . ويقول : لو أحسنت تربية هذا الطفل لـكان منه بطل عظيم .

ومن الأمور ذات الدلالة أيضاً على صلابة أهل الصعيد . ما سجله الفرنسيون

كذلك، من أن البحارة الفقراء ، الذين يسيرون بقواربهم حول جزيرة فيلة « أنس الوجود » جنوبى أسوان . لم يمكنوا الفرنسيين من الاستيلاء على هذه القوارب ، عندما احتاجوا إليها لمطاردة المجاهدين فى الجنوب . وقد قاتل هؤلاء البحارة الفقراء الفرنسيين عن قواربهم قتالا شديدا . وأرى من حقهم ، ومن الوفاء لذكراهم ، أن أنقل ما شهد به الجنرال بليار من حسن بلائهم ، وشجاعتهم ، رجالا ونساء .

يقول بليار فى مذكراته « حمل الأهالى أسلحتهم ، وصاحوا صيحات القتال . ورأينا النساء ينشدن أناشيد الحرب ، ويحثون التراب فى وجوهنا . أما الرجال فأطلقوا الرصاص على رجالنا الذين ركبوا البحر . وكنت قد أحضرت معى مدفعاً لإخضاعهم ، فدعوتهم إلى الصلح والسلام . فكان جوابهم . إنهم لا يقبلون منا كلاما ، وإنهم لا يفرون من أمامنا كما يفر المماليك . . ! واستأنفوا إطلاق الرصاص فجرح ثلاثة من رجالنا . ولم يكن لدينا مراكب نصل بها إلى الجزيرة « أنس الوجود » .

« وفى اليوم التالى ، وصلنا إلى الجزيرة ، فأطلق علينا الفلاحون الرصاص[1] »

واستولى الفرنسيون آخر الأمر على الجزيرة . وكان أهلها الفقراء قد تركوها وتركوا فيها مواشيهم . فأخذها الفرنسيون ، وأخذوا ما كانوا يختزنونه لطعامهم من التمر .

وذكر بليار أنهم قتلوا من هؤلاء المجاهدين الفقراء ثلاثين . واستولوا على مائتى بندقية ، ومائتى طبنجة وسيف . وكثير من التمر واللحم والمؤن .

---

(١) ص ٣٩٩ تاريخ الحركة القومية ، الجزء الأول .

شهادة القواد الفرنسيين

هذه هى وقائع المقاومة المصرية الباسلة فى الصعيد . وقد ذكرت المصادر الفرنسية أن من الذين أظهروا بطولة كبيرة فى هذه الوقائع ، عرب الهوارة ، والجميعات ، والبقوشة . كما ذكر الجنرال دافو أن جميع أهالى البلاد فى الصعيد ، كانوا يحملون السلاح . وكان أهل الصعيد يجمعون إلى هذه المقاومة الإيجابية العلنية ، مقاومة أخرى سلبية ، لا تقل فى عنفها ، وعنادها عن تلك . وكان لها أثر غير قليل فى إضعاف سطوة الفرنسيين . وجعل احتلالهم للبلاد غير مفيد ، بل غير هين ولا يسير . فقد كان الفرنسيون يحسون دائما أنهم فى بلدٍ يكرههم كل من فيه ، ويعاديهم ، ويتربص بهم ، ويعمل جاهدا بكل حيلته وقوته للقضاء عليهم ، وتنغيص حياتهم .

كتب ذلك الجنرال بليار فى يومياته فقال : « إن كل القرى التى نجتازها نجدها خالية من السكان . لأنهم يخلون قراهم قبل أن نصل إليهم[1] » وفى هذا أيضاً دليل على القسوة البالغة ، التى كان يجنح إليها الفرنسيون فى معاملة أهل تلك القرى ، بسبب الروح العدائية التى كانوا يلاقونهم بها .

وكتب بليار أيضاً إلى الجنرال ديزيه يصف المقاطعة السلبية من أهل الصعيد :

« إننا نعيش هنا عيشة ضنكا . فإن جميع القرى تقفر من السكان كلما اقتربنا منها . ولا نجد فيها شيئاً من القوت . ولا نرى فلاحا واحدا يدلنا ، أو يأتينا بالأخبار ، أو يحمل رسائلنا[2] » .

وكتب ديزيه رسالة إلى نابليون يقول فيها : « ليس لدى معلومات عن الجنرال بليار ... إن البلاد فى ثورة . وليس من السهل أن نتبادل الرسائل فى سرعة . وإنى أطلب الذخائر من القاهرة فقد نفدت ذخائرنا .. على أنى لا أكتمك الحقيقة ، وهى أننا لن نكون سادة البلاد . لأننا إذا أخلينا بلدة لحظة واحدة من الجنود ، عادت إلى حالتها القديمة[3] » .

---

(١)، (٢) تاريخ الحركة القومية ، الجزء الأول ص ٤١٣

(٣) المرجع السابق ص ٤١٤ .

ومن رسالة كتبها الأدجودان دنزلو إلى الجنرال برتييه : « إذا لم تتفضلوا بإرسال الأدوية إلينا ، فإن مرضانا الذين يزداد عددهم كل يوم ، سيموتون من البؤس والعذاب ، ويحق لى أن أتساءل : هل نحن فى منفى سحيق بالصعيد فلا يذكرنا أحد . . ؟ إنى أكرر لكم أننا فى بلاد أصعب مراسا من مديرية المنصورة ، وإذا سرنا إلى جهة من الجهات ، ظهرت الثورات فى الأماكن التى يخليها الجنود . فعلينا أن نكون دائما على أهبة الزحف والتدمير . فمتى تنتهى هذه الحالة[1] ...؟»

وواضح من هذه الرسالة الأخيرة خاصة ، أن ما لقيه الجنود الفرنسيون وقوادهم من مقاومة أهل الصعيد ، قد أسخطهم ، وأضعف روحهم المعنوية ، وترك فى نفوسهم أثرا قويا لم يستطيعوا أن يتحملوه .

وليس أدل على ذلك السخط والغضب اللذين امتلأت بهما نفوس الفرنسيين من ذلك الأمر الذى أصدره القائد العام ديزيه ، إلى الجنرال بليار بأن يقطع رأس كل من لا يطيع أمره من العمد . وأن يقطع النخيل ، ويحرق القرى الثائرة . وأن يعاقب أهلها بأشد ما يمكن من القسوة . وأن يفرض عليها غرامة لا تقل عن عشرة آلاف ريال .

وقد جمع ديزيه نفسه مائتى رجل من كبار الأعيان ، ليكونوا رهائن عنده فى أسيوط . حتى لا يثور أهل البلاد التى أخذوا منهـا . وكان هؤلاء الرهائن ، من أهل البلاد الواقعة بين جرجا وأسيوط وحدها . وأمر قواده الآخرين باعتقال رهائن أخرى من مناطقهم .

ومع كل ذلك ، يكتب الجنرال ديزيه رسالة إلى نابليون ، يصف بها حال جنوده فيقول : « إننا نسير بلا انقطاع . وقد ساءت حالة الجنود فى ملابسهم ، وأحذيتهم . ولم نستطع للآن أن نجمع إلا النزر اليسير من أموال الميرى ، على الرغم من الجهود التى بذلناها . إن دعاة الثورة مثابرون على نشر دعايتهم . وإن علينا أن نحارب ثلاث قوات متجمعة . وهم العرب القادمون من القصير ، والمماليك ، والأهالى . فليس من السهل إخضاع هذه البلاد .. إننا هنا — كان ديزيه فى قوص عنـد

---

(١) ص ٤١٤ المصدر السابق .

كتابة هذه الرسالة — كأننا فى أقصى الدنيا . وإن حالتنا محزنة . والملاحة فى النيل تكتنفها الأخطار[١] » .

ويقول ريمو إنه لم يهدأ لهم — للفرنسيين — بال ولم يستقر لهم قرار . بل كانوا هدفا للمفاجآت ، والمعارك غير المنتظرة . لأنهم فقدوا الراحة والطمأنينة . واضطرتهم هذه المقاومة إلى مداومة الحملات ، والرحلات المنهكة للقوى دون أن يتمكنوا من التغلب على خصم لا ينال .

وبعد انتهاء المقاومة ، كان الفرنسيون يعيشون فى قلق دائم ، وخوف . وقد كتب ديزيه إلى نابليون فى ذلك يقول : « إن من الخطر أن نترك جهة واحدة فى مصر العليا ، دون أن نحتلها بجنودنا ، وإننا لم نستطع أن نشتت أعداءنا إلا بمتاعب وحملات شاقة ، لاهوادة فيها . والبلاد مع ذلك مستعدة للثورة » .

ولم يستطع الفرنسيون ، حتى بعد تغلبهم على المقاومة المسلحة فى الصعيد ، أن يجمعوا من أهله أموالا ، ولا غلالا ، ولا جيادا . وفى بنى سويف ، استطاع بعض الجنود الفرنسيين الاستيلاء على بعض الغلال . فخرج أهلها على السفن التى حملتها فى النيل ، واستولوا على الغلال . وأسروا الفرنسيين الذين كانوا يحرسونها .

وقد ذكر ديزيه فى رسالته السابقة ، المماليك ، فيمن ذكر من القوات التى يحاربها . وقد كان للمماليك حقا ، نصيب غير قليل فى إزعاج الفرنسيين ، وفى تعزيز حركة المقاومة فى الصعيد . ولكن النصيب الأكبر ، والعبء الثقيل فى هذه الحروب والثورات ، كان الشرف فيه للفلاحين وأبناء الشعب من سكان هذه البلاد ، كما أوضحنا فى تفصيل حركات المقاومة .

وقد ذكر أمين باشا سامى أن عدد الثائرين من الوطنيين ، أى غير المماليك ، الذين حاربوا الجنرال ديزيه فى الصعيد ، كان عشرين ألفا[٢] » .

وذكر نابليون أن جيش مراد بك الذى حارب جنوده فى « سمهود » كان عدده

---

(١) ص ٤٠٥ من تاريخ الحركة القومية . الجزء الأول .

(٢) ١٢١ تقويم النيل . الجزء الثانى .

اثنى عشر ألفا . منهم سبعة آلاف فارس من المصريين . وثلاثة آلاف من المشاة ، ولم يكن فيه من المماليك سوى ألف وخمسمائة .

وهذه الآلاف المشرة هى، طبعا ، غير عشرات الألوف التى اشتركت فى الثورة على الفرنسيين فى الصعيد . أو تصدّت لهم ، دفاعا عن بلادها ، وقراها ، وأموالها .

ونستطيع أن ندرك نظرة الشعب إلى المماليك وجهدهم فى هذه المقاومة — على الرغم من شجاعتهم — من هذه الإشارة التى أشار بها إليهم أولئك الفقراء ، من أصحاب « القوارب » الذين وقفوا أمام الفرنسيين فى جزيرة فيلة .

وقد كانت مقاومة أهل الصعيد — إلى جنب عوامل أخرى — سببا فى نقص عدد جنود الفرقة التى كان يقودها ديزيه من خمسة آلاف إلى ألفين ، فى مدى شهرين .

ويعترف الفرنسيون بأنهم ، بعد كل هذه التضحيات والجهود ، لا يستطيعون أن يحكموا البلاد ، ولا أن يأمنوا على أنفسهم من ثورتها ، ولا أن ينالوا شيئا من أموالها أو مافرض عليها من الضرائب .

ولكن عندما تجددت بعد ذلك الثورة فى القاهرة على الفرنسيين ، فى مارس سنة ١٨٠٠ — وكان درويش باشا يقيم فى الصعيد ، حاكما من قبل العثمانيين ، بعد صلحهم مع كليبر — تقدم له من أهل الصعيد عشرة آلاف مقاتل ليزحف بهم إلى القاهرة يحاربون الفرنسيين فيها . كما قدم له أهل الصعيد شيئا عظيما من الخيول والأغنام ، والحبوب . ولكن مراد بك ، وكان قد صالح كليبر وتولى حكم الصعيد ، تحت الولاء الفرنسى ، طارد درويش باشا ، وشتت من معه من أهل الصعيد وساق ماقدموه من الخيل ، والأغنام ، والحبوب ، فقدمه هدية للفرنسيين .

وقد كان الألفى على نقيض سيده مراد ، مخاصما للفرنسيين مدة إقامتهم كلها فى مصر ، حاربهم حربا عنيفة فى موقعة إمبابة ، ثم بقى بعد الهزيمة يحاربهم ويغير على جنودهم ما استطاع ، وقد رأينا ذلك فى ترجمته فى الجزء الثانى .

الثورة الكبرى

ليس من التجاوز والمبالغة ، ولا من المجافاة للحق والواقع ، أن نسمى «بالثورة الكبرى» هذه الثورة التى قامت فى القاهرة مرة أخرى ، بعد سبعة عشر شهرا من ثورتها الأولى ، وسنرى من تفصيل أحداثها ، وما بذل فيها القاهريون من جهد ، وما تحملوا فيها من بلاء ، وما أظهروا فيها من ضروب البسالة النادرة ، أنها كانت ثورة كبرى ، من غير تجاوز ، ولا مبالغة ، ولا مجافاة للحق والواقع .

بدأت الثورة فى بولاق يوم ٢٠ مارس سنة ١٨٠٠ حيث قام أهلها بأسلحتهم وعصيهم فهاجموا معسكر الفرنسيين على النيل . فقتلوا من جنودهم ، وشتتوا . واستولوا على جميع ما كان فيه من ذخيرة ومؤن . ثم ذهبوا إلى مخازن الغلال التى يختزنها الفرنسيون فاستولوا عليها . وقاموا بعد ذلك يطوفون بالقاهرة يقيمون من حولها الأسوار والحصون ما استطاعوا .

ثم امتدت نيران الثورة من بولاق ، حتى شملت كثيرا من أحياء القاهرة . فهاجم الثائرون المعسكر العام للفرنسيين بالأزبكية . وكان عدد المهاجمين ، كما تقدره المصادر الفرنسية ، عشرة آلاف . ولكن هذا المعسكر العام كان محصنا غاية التحصين . تملأه الجند والذخائر ، وتحيط به المدافع الكبار . فلم يستطع المهاجمون اقتحامه .

وامتد لهيب الثورة حتى شمل القاهرة كلها . وتنادى الناس جميعا بالكفاح والجهاد والحرب . فلبى نداءهم الرجال ، والنساء ، والأطفال . حتى صار عددهم خمسين ألفا . وعادوا مرة أخرى يهاجمون المعسكر العام ، ومعهم فى هذه المرة المدافع . ولما لم يجدوا لها قنابل ، استعاضوا عنها بكرات الموازين ، من الحديد والأحجار التى يزن بها التجار والبائعون بضاعتهم . وظل هجوم هؤلاء الثائرين يوما ونصف يوم متصلا قويا ، حتى قدمت نجدة أرسلها الجنرال كليبر ، فحاربت

الثائرين من خلفهم حتى رفعت حصارهم عن المعسكر العام . وكان مع الثائرين فى هجومهم هذا عشرون مدفعا ، يضربون بها المعسكر ، وبيت نابليون .

وكانت القلاع التى أقامها الفرنسيون فى أطراف القاهرة ، وعلى مرتفعاتها ، تصب قنابلها ونيرانها على المحاربين ، والمسالمين ، من العجزة والأطفال والمرضى، فى كل أنحاء المدينة .

وتوالت نجدات القوات الفرنسية لحاميتهم فى القاهرة . ونيرانهم ؛ وقنابلهم تفتك بالثائرين ، وتحصدهم كالهشيم . ولكنهم لم يضعفوا ، ولم يستسلموا ، ولم يهابوا الموت . فاستطاعوا أن يقتحموا بيوت القواد الفرنسيين . وأن يستولوا عليها . وكذلك فعلوا ببيت فرقة المهندسين . وأن يقتحموا بيت محافظ القاهرة مصطفى أغا ، صنيعة الفرنسيين الذى تسلط على أهل القاهرة بالأذى والعذاب والتنكيل. اقتحم عليه الثائرون بيته ، وقتلوه . وكذلك قتلوا بعض دعاة الهزيمة ، الذين كانوا يدعونهم المسالمة . واعتدوا على السيد خليل البكرى اعتداء شديدا — وكان صديقا للفرنسيين — واشتركت نساء القاهرة فى الثورة والتحريض عليها ، حتى أخذ الفرنسيون بعضهن أسيرات [١] .

ورأى الثائرون المجاهدون أن يمنعوا عن الفرنسيين ما يأتيهم من المدد فسدوا أبواب القاهرة ، وأقاموا خلفها المتاريس فى باب اللوق ، والمدابغ ، والمحجر ، والشيخ ريحان ، والناصرية ، وقصر العينى ، وقناطر السباع — سوق السلاح — وباب النصر ، وباب الحديد ، والقرافة ، والبرقية — الغريّب والدراسة — والرويعى ، والسويقة . وكذلك أقفلوا شوارع المدينة بالأخشاب ، وجذوع الأشجار ، وكان بعض هذه المتاريس والحواجز يرتفع إلى اثنى عشر قدما . مع المناعة والصلابة . والناس من خلف الحواجز والمتاريس يقاتلون قتال الأبطال . وكان بعض الثائرين يتحصن فى مسجد أبى العلاء ، وعلى مئذنته ، فظلوا يقاتلون حتى قتلوا جميعا [٢] .

---

(١) ظهر الورقة ٨٤ من مخطوط مظهر التقديس .

(٢) » » » » » » »

مصنع للبارود :

وأنشأ الثائرون فى يوم وليلة مصنعاً للبارود ، فى بيت قائد أغا بالخرنفش ، كما أنشأوا مصنعا آخر لإصلاح الأسلحة والمدافع ، وآخر لصنع القنابل ، وجمعوا لهذا وذاك ما وجدوه تحت أيديهم من الحديد فى المخازن والمتاجر ، والمساجد أيضا . وتقدم العمال للعمل فى هذه المصانع ، متطوعين . وتقدموا بما عندهم من الحديد والآلات . وأخذ فريق منهم يجمع مايتساقط من قنابل الفرنسيين فيصلح من أمره ثم يقذف به الثائرون عليهم من جديد .

ومن لم يستطع أن يشارك بيده فى الثورة ، قدم لها المال والقوت والأزواد والمآكل ، وكل مايعين الثائرين وينفعهم .

وظهرت بين المصريين فى هذه المحنة ، روح التكافل والتعاون عظيمة رائعة . يستوى فى ذلك العظيم والحقير ، والغنى والفقير ، والشيخ والفتى . يقول الجبرتى : « باشر السيد المحروقى — كبير تجار القاهرة — الكلف والنفقات والمآكل والمشارب . وكذلك جميع أهل مصر كل إنسان سمح بنفسه ، وبجميع مايملكه . وأعان بعضهم بعضا . وفعلوا مافى وسعهم وطاقتهم من المعونة . وأهل الأرياف القريبة تأتى بالميرة والاحتياجات من السمن ، والجبن ، واللبن ، والغلة ، والتبن ، والغنم فيبيعونه أهل مصر »

فعل ذلك أهل القاهرة وضواحيها ، وكان جند العثمانيين فى نفس اليوم الذى قامت فيه الثورة ، قد هزموا شر هزيمة ، فى موقعة عين شمس أمام الفرنسيين . فاستطاع هؤلاء أن يفرغوا لثورة القاهرة ، وقويت الروح المعنوية عند جنودهم ، وتجددت عزائمهم .

أما من بقى فى القاهرة من العثمانيين ، أو المماليك ، أو فر إليها بعد الهزيمة . فقد شارك فى ثورة القاهرة راضيا أو كارها . ولكنها كانت مشاركة أضرت بالقاهرة وثورتها أعظم الضرر كما نرى بعد .

الخدعة :

وعاد كليبر ، القائد العام ، ونائب نابليون ، إلى القاهرة . بعد سبعة أيام من الثورة . فوجدها شعلة من النار . ووجد أنه لاقبل له بهذه الثورة العاتية ، إلا أن يأخذها بالخديعة والمكر والمخاتلة . فأخذها بهؤلاء جميعا ، من حيث تروج الخديعة وينفع المكر وتستساغ المخاتله ، وكان ذلك هينا سهلا مع العثمانيين والمماليك .

استطاع كليبر أن يستخدم كبيرا منهم هو مصطفى باشا كوسا — القائد التركى الذى أسره الفرنسيون فى موقعة أبى قير — فى إحباط الثورة ، وتبريد نارها . واشترك معه فى هذه الخيانة كبير آخر منهم هو القائد ناصف باشا — الذى دخل القاهرة منهزما فى موقعة عين شمس ، يوم بدء الثورة — فعقد القائدان صلحا مع كليبر ، اشترك فيه معهما بعض المماليك ممن كان يحرض القاهريين على الثورة .

وفى هذا الوقت نفسه ، تقدم مراد بك بعرض صلح على كليبر ، فصالحه حتى يفرغ بعد ذلك للثائرين من أهل القاهرة ، الذين أبوا أن يصالحوا ، ولم يسمعوا لناصف باشا ، ولا لمصطفى باشا ، ولا لغيرهما ممن كان يدعوهم له .

عند ذلك أشار الحليف الجديد مراد بك ، على كليبر ، بحرق القاهرة حتى يتغلب على الثائرين فيها ، وأرسل إليه مراد عددا من السفن ، يحمل الحطب والمواد الحارقة ليحرق المدينة الباسلة المكافحة ، التى أبى أهلها أن يستسلموا . وفضلوا الموت على الهزيمة والعار والتخاذل . وقد كان مراد هذا يتولى يوما حكم المدينة أشبه ما يكون فيها بالملك المتوج ، وهى التى جعلت منه حاكما صاحب سلطان وحول . وكان من قبل غلاما يباع ويشترى .

ولم تقع هـذه الخيانات وحدها ضد ثورة القاهرة . بل شاء الله أن تمطر السماء مطرا غزيرا ، ساعد الفرنسيين فى هجومهم ، وعوّق الثائرين عن دفاعهم ، وجعل حركتهم وانتقالهم شاقا عسيرا ، فى شوارع القاهرة الضيقة وأزقتها وأوحالها .

وقضت القاهرة فى هـذه الحال الشديدة من الضنك ، وهى تقاوم ببسالة ، عشرة أيام . أقام فيها أهلها الحصون المنيعة ، فى بولاق ، ومصر القديمة . وحولوا جميع المخازن والوكائل التى على النيـل ، إلى قلاع ومتاريس . حتى صارت الملاحة فى النيل تحت رحمتهم . ثم ظن الفرنسيون بعد هذه الأيام العشرة أن الثائرين قد ضعفت روحهم ، وأصبحوا مستعدين للصلح بعد هـذه الشدائد . وبعد خيانة العثمانيين والمماليك لهم ، فأرسلوا عن طريق ناصف باشا ونائب الدولة عثمان بك يطلبون العلماء ليوسطوهم فى الصلح عند رجال الثورة. فذهب إلى كليـبر الشيوخ: الشرقاوى ، والمهدى ، والسرسى ، والفيومى ، وآخرون . ثم عادوا إلى رجال الثورة يحدثونهم بما طلب إليهم كليبر . ولـكنهم وجدوا عنـد رجال الثورة ما لم يخطر لهم ببال . فقد قابلوهم أسوأ مقابلة ، وأغلظوا عليهم ، وأهانوهم ، و « قاموا عليهم ، وسبوهم ، وشتموهم ، وضربوا الشرقاوى ، والسرسى ورموا عمائمهم ، وأسمعوهم قبيح الـكلام . وصاروا يقولون : هؤلاء المشايخ . ارتدّوا وعملوا فرنسيس . وأخذوا منهم دراهم » هكذا يصف الجبرتى غضب الثائرين على دعوة الصلح . واتهامهم العلماء بالـكفر والرشوة .

وكان الشيـخ السادات فى بيت الصـاوى ، فخاف غضب الثائرين . ولم يستطع الخروج إلا بحيلة . حيث جعل أمامه مناديا ينادى فى الناس أن يلزموا المتاريس ، ليوهمهم أنه لا يقول بالصلح كما يقول بقية الشيوخ .

وأرسل كليبر رسولا إلى أهل بولاق يطلب إليهم الصلح والتسليم ، فأبوا ، وقتلوا رسوله[١] .

رفض المجاهدون أن يسلموا للفرنسيين ، وأبوا أن يسمعوا كلمة الصلح ، وهم يعلمون ما سيلقون بعد هـــذا العناد من بلاء ومحنة ... ولـكنهم أرادوا أن يضربوا مثلا .

وبدأ كليبر يعمل حيلته ويبذل كل جهده فى تعزيز قواته فى القاهرة ، حتى

---

(١) ص ١٤٤ الجزء الثانى من كتاب تقويم النيل .

تضرب أهلها ضربة لا يفيقون منها أبدا . ولا يستطيعون معها أن يصبروا على الكفاح ، والثورة ، والمقاومة .

القاهرة تحترق :

وكان كليبر ، بعد تعزيز قواته بكل ما يستطيع ويملك ، قد أمن جانب مراد بك بصلحه معه ، بل ضمن معونته أيضا . وكذلك أمن جانب العثمانيين وقائديهم مصطفى باشا وناصف باشا . فبدأت القوات الفرنسية ، بعد ذلك ، يوم ١٥ من إبريل ، تدك القاهرة دكا . وأمر الجنرال كليبر قواده أن يبذلوا جهدهم كله للاستيلاء على باب النصر ، والأزهر ، وأبى الريش . وظلت الحرب مستعرة الأوار خمسة أيام ، تداول فيها الثائرون معهم النصر والهزيمة . خمسة أيام ، كانت كل لحظة من نهارها وليلها حربا وجلادا ، وهجوما ودفاعا . ولكن المجاهدين فى كلا الحالين ، النصر والهزيمة ، كانوا عمالقة حرب . لم يخضعوا ولم يلينوا ولم يجبنوا . ولم يفتر كفاحهم لحظة من ليل أو نهار . كان الشعب ضعيف التسليح ولكن الناس جميعا كانوا محاربين . أو كما يقول الجبرتى « كل من كان فى حارة من أطراف البلد ، انضم إلى العسكر . بحيث صار جميع أهل مصر والعساكر كلها واقفة عند الأبواب والمتاريس والأسوار » .

بولاق الباسلة :

أخذ الفرنسيون فى بدء هجومهم يسقطون قنابلهم على بولاق ، مركز الثورة ومنبعها ، فهدمت بيوتها ، ومتاجرها ، وقصورها . واحترقت كلها . وقتل من أهلها ، محاربين ومسالمين ، خلق كثير . ودفن كثير منهم تحت التراب . واحترق كثيرون أيضا أحياء . وظلت الحرائق مشتعلة فى بولاق أكثر من ثمانية أيام .

وعجز الأبطال المجاهدون عن مواصلة القتال ، وقد أصبحت بولاق كلها حريقا واحدا . فرضوا بالصلح ، وصالحوا الفرنسيين . وجعلوا الخليج ، فى وسط القاهرة ، فاصلا بينهم وبين الفرنسيين . حتى يخرج من بقى من جنود العثمانيين والمماليك .

وبعد أن قبل الفرنسيون صلح رجال الثورة . فرضوا عليهم — على أهل بولاق وحدها — مائتى ألف ريال ، وعلى تجارها ثلاثمائة ألف ، تجبى عروضا من السكر ، والبن ، والزيت ، والقطران ، والتيل ، والحديد ، والرصاص ، وغير ذلك . وأمروهم بأن يسلموا ٤٠٠ بندقية ومائتى طبنجة ، وقتلوا الحاج مصطفى البشتيلى زعيم الثورة (١) . كما غصبوا كثيرات من النساء ، والفتيات . والأطفال .

وقد وصف الجبرتى ، وهو معاصر لهذه الثورة ، ماحل ببولاق ، وأهلها ، وصفا مؤثرا يحزن الفؤاد . ووصف جهاد أهلها ، وصبرهم ، وحسن بلائهم ، وصفا مشرّفا . تشمخ له أنوف أحفادهم ، وتعلوا به رؤوسهم وتسعد قلوبهم .

ونحن نترك ماقال الجبرتى ، إلى ما سجله مؤرخ فرنسى شاهد تلك الأحداث وهو مسيو جالان . والفضل ما شهدت به الأعداء :

« فى يوم ١٤ إبريل سنة ١٨٠٠ أنذرت بولاق بالتسليم ، فرفض أهلها كل إنذار ، وأجابوا بإباء وكبرياء ، أنهم يتبعون مصير القاهرة . وأنهم إذا هوجموا فهم مدافعون عن أنفسهم حتى الموت ، فأخذ الجنرال فريان يحاصر المدينة وبدأ يصب عليها من المدافع ضربا شديدا ، أملاً منه فى إجبار الأهالى على التسليم لكنهم أجابوا بضرب النار ... واستبسل الأهلون فى الدفاع ، ولجئوا إلى البيوت فاتخذوها حصونا يمتنعون بها . فاضطرت الجنود إلى الاستيلاء على كل بيت فيها والتغلب عليها بقوة الحديد والنار . وبلغ القوم فى شدة الدفاع حدا لامزيد بعده . وفى هذا البلاء ، عرض العفو على الثوار ، فأبوه . واستمر القتال ، فجعلنا المدينة ضراما ، وأسلمناها للنهب ، وصار أهلها عرضة لبطش الجنود وتنكيلهم . فجرت الدماء أنهارا فى الشوارع ، واشتملت النار أحياء بولاق من أقصاها لأقصاها . وعادت تلك المدينة العامرة الزاهرة ، هدفا للخراب . وأكلتها أهوال الحرب وفظائعها (٢) .

بعد تسليم بولاق ، بدأ الفرنسيون هجوما آخر على القاهرة من جميع

---

(١) نجد له ترجمة فى آخر هذا الفصل .

(٢) ص ١٧٧ — ١٧٨ تاريخ الحركة القومية ، الجزء الثانى .

أطرافها ، فنسفوا بيت أحمد أغا شويكار ، المقر العام للثورة ، ثم بدأت مدافعهم تلقى قنابلها على المدينة من أوكارها فى الناصرية ، وباب اللوق ، والمدابغ ، والفجالة ، وأبى الريش ، وباب الشعرية . ولكن المجاهدين مع ذلك لم يسلموا ولم يستسلموا . بل ظلوا يحاربون ثلاثة أيام متوالية . وأثخنوا الفرنسيين . وأبلوا فى الدفاع عن شرفهم وشرف مدينتهم الباسلة أكرم البلاء ، ولقوا فى ذلك من الشدة والمحن مالا يوصف .

شهداء تحت النار والتراب :

وعمد الفرنسيون إلى وسيلتهم الأخيرة ، فأضرموا النيران فى الأحياء الآهلة بالسكان فأحرقوا أحياء الأزبكية ، وخط الساكت ، والفواله ، وباب البحر ، والخروبى ، والعدوى ، وباب الشعرية ، ورصيف الخشاب ، وباب الحديد ، وبركة الرطلى ، وكانت من أجمل متنزهات القاهرة ، وفيها من القصور الجميلة كثير .

« وقع الهجوم العام على القاهرة يوم ٢١ من إبريل . وكان هولاً هائلا شاملا جميع الحارات . فصبت المدافع قنابلها على المدينة الثائرة . ودوّى صوت الضرب فى كل مكان . وظل إطلاق القنابل والرصاص متواصلا طول الليل ، وشبت الحرائق فى جهات متعددة ، وأخذت النيران فى كل لحظة تلتهم المنازل بعضها إثر بعض . وأحدثت النار من الخرائب والحرائق ، ما لم يحدث مثله منذ بدء الحصار . وقد قتلنا عددا كبيرا من الناس ، فى تلك الموقعة . . ولكننا فقدنا كثيرا من جنودنا الشجعان قبل أن تصبح المدينة فى قبضة يدنا[1] » هكذا يصف مسيو جالان هجوم الفرنسيين على القاهرة .

ثم يصف أثر العدوان الفرنسى عليها . وامتهان قومه حرمة الموت والقتلى من شهدائها فيقول : « . . وقد لاحظت أن الحصار أضر بالقاهرة أكثر مما كنت أتصور ، فقد عم الخراب أحياء بأكملها . وتمثل لنا شبحه المخيف فى الأزبكية . وأثرت فى نفسى صورته المفزعة . فليس فى الإمكان أن نخطو خطوة إلا على كثبان من الخرائب والأتربة . وكانت رائحة العفونة تنبعث من الرمم المدفونة تحت الردم

---

(١) ص ١٨٠ — ١٨١ تاريخ الحركة القومية الجزء الثانى .

وزاد فى هذا المنظر فظاعة ، أن الجنود ، مدفوعين بفكرة النهب ، كانوا ينبشون الجثث من تحت الأنقاض والخرائب ، فكلما أظهروا جثة ، زاد المنظر هولا وفظاعة[1] » .. وقد احترقت أو دفنت تحت الأنقاض أسر كاملة فى هذا الحريق .

عند ذلك عاد العلماء للسعى فى الصلح ، وإنهاء هذه الحرب التى لا تكافؤ فيها ، والتى دامت أربعة وثلاثين يوما . وحوصرت فيها القاهرة حصارا محكما ستة وثلاثين يوما . لقيت فيها من الهول ما أوجزنا ذكره .

صلح وغدر :

وتم الصلح ، وأعطى الفرنسيون لأهل القاهرة ، أمانا على أنفسهم . وأعلن الجنرال كليبر أنه لن يعاقب أحداً من المصريين . حتى الذين اشتركوا فى الثورة . على شرط ألا يلحق أحد من المصريين بالجيش العثمانى عند خروجه من مصر إلى الشام . مخافة أن يقوى هذا الجيش بهم ، وأن تقع بينه وبين الفرنسيين حرب . وهكذا خرج المماليك ، وخرج العثمانيون . وبقى أهل القاهرة ، وحدهم يتحملون غدر كليبر ، ونقضه عهدهم .

نقض كليبر عهده لأهل القاهرة ، بعد أن صدقوه وآمنوا به ، وتركوا سلاحهم ، أو ما بقى منه ، فإنهم لم يذعنوا إلا بعد أن لم تبق لهم قدرة على المقاومة وحمل السلاح .

بدأ كليبر انتقامه من أهل القاهرة ، بأن فرض عليهم غرامة فادحة . قدرها اثنا عشر مليونا من الفرنكات ، نصفها أموال ، ونصفها عروض . وفرض عليهم أن يسلموا عشرين ألف بندقية ؛ وعشرة آلاف سيف ، وثلاثين ألف طبنجة ، وأربعمائة بغل ، ومائة حصان . وفرض على العلماء من زعماء الثورة ما لا طاقة لهم به . فرض على الشيخ مصطفى الصاوى مائتين وستين ألف فرنك . وعلى الشيخ محمد الجوهرى وأخيه فتوح مثل هذا القدر . وصودرت أملاك السيد

---

(١) ص ١٨٠ — ١٨١ من المصدر السابق

أحمد المحروق جميعاً . وفرضوا على الدور والممتلكات أجر سنة كاملة . أما مافعلوه بالشيخ السادات فسنجمل أمره عند الحديث عنه مع الزعماء والأبطال .

وقد اشترك فى دفع هذه المغارم الثقيلة الفادحة أهل القاهرة جميعا . حتى الزياتون ، والجزارون ، والمزينون ، والنحاسون ، والحواة ،والقرداتية ، والدلالون .

وكذلك فرضوا مغارم ثقيلة على أهل البلاد ، وملاك الأراضى الزراعية . وجعلوا الشيخ سليمان الفيومى جابيا لها . ويقول الجبرتى : إن بعض الذين فرضت عليهم هذه المغارم من أعيان البلاد « كان لا يملك عشاءه[1] » .

وسلطوا على أهل القاهرة رجلا خائنا ، اسمه شكر الله ، اشتط فى التسلط عليهم ، لجمع هذه المغارم الفادحة شططا لا يوصف . فكان يهدم البيوت إذا لم يدفع أصحابها ما عليهم فور طلبه . وكان البيت الذى لا يسكنه أحد ، تفرض ضريبته على مجاوريه ... وكان يجمع الرجال والنساء فى مكان واحد ، ويدخن عليهم بالقطن حتى يكاد دخانه أن يميتهم خنقا . وكان تحت إمرته فريق من جند الفرنسيين ليوقعوا بأهل مصر هذا العذاب .

ومنع الفرنسيون أهل القاهرة من ركوب الخيل والبغال ، سوى أربعة من كبار الشيوخ هم : الشرقاوى ، والمهدى ، والأمير ، والفيومى ، وابن محرم . وكان تاجرا . وجمعوا البغال من أصحابها فصادروها . وطلب كليبر إلى العلماء أن يجيئوا إليه فى بيته . فلما جاءوا ، تثاقل عليهم وأبطأ فى مقابلتهم ، فلما لقيهم امتهنهم ، ثم ألقى إليهم أمره بجمع هذه الضرائب . وإبقاء خمسة عشر عالما منهم

---

(١) فى مخطوط محكمة سوهاج الذى أشرنا إليه فى ص١٦٩ من الجزء الثانى نصوص بعض أوامر أصدرها القواد الفرنسيون فى مصر عنوان الأول منها — كما ورد فى المخطوط — «صورت فرمان من بتوع الفرنساوية سنة ١٢١٤ » وهو يشتمل على قيمة الضرائب التى فرضها الفرنسيون على سكان الإقليمين البحرى والقبلى . وعلى النظم الخاصة بجباية هذه الضرائب . وفى مجموعة المخطوطات هذه صورة فرمان أصدره الجنرال بليار يمنع فيه التسول ويأمر بالقبض على كل متسول ولو كان ذا عاهة على أن تخصص كل طائفة من المسلمين واليهود وغيرهم مكاتب تجمع فيها طوائف المتسولين العاجزين ويتولى رئيس كل طائفة الإنفاق على العجزة من أبناء طائفته . وبعض هذه الفرمانات لم يسجله الجبرتى .

رهينة ، حتى يتم جمعها . ثم تركهم كليبر ، بعد أن ألقى أمره هذا ، مبهوتين ، خائفين من بطشه . حتى خرج بعضهم حافيا .

وأراد كثيرون من أهل القاهرة أن يهاجروا منها ، فرارا من ظلم الفرنسيين . تاركين بيوتهم ، وأهليهم . فأرغمهم الفرنسيون على العودة .

وهدموا أحياء الحسينية ، وباب الفتوح ، وباب النصر . ولم يمكنوا أصحابها من نقل متاعهم ، وأنقاض بيوتهم . بل أخذوه كله . ولم يحتسب لهم من الغرامة .

وقد بلغ الأمر بأهل القاهرة حدا وصفه الجبرتى بقوله :

« . . . . فدهى الناس بهذه النازلة ، التى لم يصابوا بمثلها ، ولا ما يقاربها . ومضى عيد النحر ولم يلتفت إليه أحد . بل ولم يشعروا به . ونزل بهم من البلاء ، والذل ، مالا يوصف » . ثم بقوله : إنه « قد ضاق خناق الناس ، وتمنوا الموت فلم يجدوه » .

وبلغ الأمر بأهل مصر كلهم ، ماوصفه أمين باشا سامى إذ يقول : إن حوادث هذه الفترة تدل « على مبلغ ما وصلت إليه أيديهم — أى الفرنسيين — من نهب وسلب وأسر وقتل ، وتدمير وتخريب ، ومذلة وفناء — للمصريين — وبلاء مستطير . وضروب العذاب الأليم : يذبحون أبنـــاء الناس ، ويستحيون نساءهم[1] . »

(١) ص ١٦٤ تقويم النيل . الجزء الثانى .

إنتقام الشعب

كان لابد لهذا الظلم ، وهذا الجبروت ، وهذه القسوة على شعب مصر ، أن تملأ قلوب أبنائه بالنقمة والسخط والحقد . وأن تدفعه إلى الانتقام . فقام واحد من أبناء الشعب — هو سليمان الحلبي — بالتنفيس عن هذا السخط المكظوم ، الذى فاض به شعور الناس ، بسبب هزيمتهم أمام الفرنسيين فى الحرب ، وبسبب هذه القسوة الشاذة المنكرة ، التى أخذها بهم كليبر .

وكان التنفيس عن غضب الشعب وسخطه المكظوم ، بقتل كليبر نفسه .

وقد يقول قائل إن سليمان الحلبي لم يكن مصريا . ولكنا نجيب بأن وجدان الناس فى ذلك الوقت لم يكن وجدانا وطنيا ، بل دينيا . ولم يكونوا يعرفون حدود الوطن ، بل كانوا يعرفون إحساس الإيمان والعقيدة .

ربما كانوا يحسون بالقومية إحساساً مبهما آنئذ . ولكن إحساسهم القوى الغالب المسيطر ، كانت دوافعه هى دوافع الدين والعقيدة التى هى أشمل وأعم وأوسع من حدود الوطن .

وقد كان سليمان الحلبي من بلاد الشام . ولكنه عرف ما أصاب أهل مصر من جور الفرنسيين وظلمهم وجبروتهم . فتحركت فى نفسه عوامل قوية من الغضب والغيظ لما أصاب عشيرته الدينية ، أو العربية ، من محنة . فلما قدم القاهرة لشفاء ما فى نفسه من هذا الغيظ والغضب . استقر فى الأزهر ثلاثين يوما . والأزهر مركز المقاومة وحجر الثورة . فتأثرت نفسه ، فوق تأثرها ، بهذه البيئة الثورية . وسمع من صغار العلماء ، والمجاورين ، ما أصاب الناس من شقاء ، وما أصاب الأزهر من تهدم ، واعتداء على حرماته وكرامة أهله . فزاد إصراره على الانتقام والثأر . وتفاعلت فى نفسه أكثر من ذى قبل ، عوامل الغيظ والغضب .

على أن سليمان الحلبي عرف مصر والأزهر من قبل . وتأثرت بعواطفها نفسه . حيث طلب العلم فى الأزهر قبل ذلك ثلاث سنين ، ثم عاد إلى الشام .

وقد يقول قائل: — إن الذين حرضوا سليمان الحلبى على قتل كليبر هم الأتراك ، كما ثبت من اعترافه فى التحقيق .

ولكننا نقول إن سليمان إعترف بأن أحمد أغا ، ويس أغا ، حرضاه على السفر إلى مصر ، وقتل كليبر · وأن يس أغا أعطاه أربعين قرشا . . . . ! نفقات سفره من الشام إلى القاهرة · ولكن هذا الاعتراف . كأقوال سليمان كلها ، إنتزعت منه بعد ضربه وتعذيبه . وقد اعترف الفرنسيون بذلك · وكأنهم خجلوا من هذا الأسلوب فى المحاكمة ، فقالوا إن هذا التعذيب كان على «عادة البلد» أى إنه أسلوب جرى عليه النـــاس فى مصر فى ذلك الوقت . ومن مصلحة الفرنسيين أن ينسب اغتيال كليبر لغير المصريين · حتى لا ترتفع روحهم المعنوية ، وتزيد حماستهم فى الحرب والخصومة ، ويكبر اعتبارهم عند أنفسهم وعند الناس .

ومع التسليم بأن أحمد أغا ، ويس أغا حرضا سليمان على قتل كليبر ، فإن ذلك لم يكن سوى توجيه عاطفة موجودة ، والاستفادة منها ، واستغلالها · وهذه العاطفة ، وطنية ، أو دينية ، أو قومية عربية ، لم تكن موجودة عند أحمد أغا ويس أغا نفسيهما · لأنهما كانا من رجال الوالى التركى فى مصر ، ثم فرا إلى الشام أمام الفرنسيين . ولم يجدا عند سليمان الحلبى سوى الرغبة القوية فى الانتقام من الفرنسيين ، ولو ضحّى بنفسه فى هذا السبيل · فأعطاه ثانيهما أربعين قرشا لنفقات سفره . لأنه كان فقيرا معدما .

فشرف هذا الانتقام ، يتوج رأس سليمان الحلبى ، وهو شرف يجب أن ينسب لمصر ، وللأزهر · وقد عرف الفرنسيون أثر الأزهر ورجاله خاصة فى إقدام كليبر على فعلته . فخصّوه وخصوا علماءه بغضب شديد ، كما نرى بعد . فسليمان الحلبى كما رأينا ، يمكن أن يقال فيه إنه مصرى العاطفة ، أزهرى الثقافة .

مقتل كليبر :

كان الجنرال كليبر كثير الحركة . دائم التنقل بين منزله فى الجيزة ، حيث كان يقيم فى ذلك الوقت . ومعسكر جيشه فى الأزبكية . وفى يوم ١٤ من يونيو سنة ١٨٠٠ ذهب كليبر إلى جزيرة الروضة ، فتفقد بعض الجند الفرنسى . ثم عاد إلى مركز القيادة العامة ، وإلى منزل القائد فى الأزبكية . فشاهد ، ومعه المسيو بروتان ، أحد مهندسى الحملة ، ما كان يجرى من الإصلاحات فى هذا المنزل وفى مقر القيادة — وكان ما أصابهما بسبب أعمال الثورة وبأيدى رجالها — ثم ذهب فى عصر ذلك اليوم مرة ثانية ، ومعه بروتان إلى المنزل ومقر القيادة .

وكان كليبر يتحدث إلى رفيقه ، وهما يسيران فى ممر طويل . إذ تقدم إليه رجل بورقة فى يده . فتلفت إليه كليبر ليسمع منه ، أو ليأخذ الورقة . فماجله الرجل بطعنة خنجر فى صدره . ثم اشتبك بالمسيو بروتان ، الذى أسرع ليلحق به ، وطعنه بخنجره ست طعنات ، سقط بعدها إلى الأرض . ثم عاد مرة أخرى ليجهز على كليبر بخنجره ، وكان قد قتل بالطعنة الأولى ، وقد ظهر فيما بعد ، أن سليمان تعقب كليبر أياما كثيرة . وأنه حاول أكثر من مرة أن يلتقى به ليقتله فلم يستطع . وضبط سليمان بعد ذلك فى حديقة مقر القيادة .

وفى اليوم الثانى — الأحد ١٥ من يونيو — أصدر القائد العام الجديد ، الجنرال منو ، أمره بتشكيل المجلس العسكرى الذى يحاكم القاتل ، ثم عقد هذا المجلس — فى اليوم التالى — أولى جلساته .

أربعة من الشهداء :

وتمت المحاكمة ، وشهادة الشهود ، والمرافعة ، من الأدعاء والدفاع فى يومين . وأصدر المجلس حكمه بأن تحرق يد سليمان اليمنى . ثم يجلس فوق الخازوق . وتترك جثته حتى يأكلها الطير . وكانت سن سليمان أربعا وعشرين سنة . وأدان المجلس

أربعة من الأزهريين كان سليمان أفضى إليهم بعزمه على قتل كليبر ، وهم الشيوخ عبد الله الغزى ، وسنه ثلاثون سنه . ومحمد الغزى وسنه خمس وعشرون . والسيد أحمد الوالى ، وقد ذكر أنه لايعرف سنه . وعبد القادر الغزى . وقد حوكم غيابيا لأنه فر . أدان المجلس هؤلاء الأربعة من الأزهرين ، لأنهم لم يخبروا السلطات الفرنسية بما سمعوه من سليمان أو عرفوه من تفكيره فى قتل كليبر . وقد قطعت يد سليمان اليمنى . ثم أجلس على الخازوق ، فوق تل العقارب ، بالنصارية . وأعدم الأزهريون الثلاثة بقطع رؤوسهم ، ثم حرقت جثثهم ، ووضعت رؤسهم على نبابيت ليطاف بها فى شوارع القاهرة وأحيائها . ونفذ حكم الإعدام فى الأزهريين الثلاثة قبل إعدام سليمان ، أمام عينيه .

ودفن جثمان كليبر ، فى احتفال عسكرى كبير ، فى حديقة قصر العينى . ثم نقله الفرنسيون معهم عند خروجهم من مصر ، إلى فرنسا .

بعد ذلك زادت ريبة الفرنسيين فى علماء الأزهر وطلبته . فقد أمضى فيه القاتل ثلاثين يوما . وأفضى لأربعة من طلبته بعزمه على القتل . وكانوا يودون لو استطاعو إدانة شيخ الأزهر ، الشيخ عبد الله الشرقاوى . ولكنهم ، على الرغم من إلحاحهم على سليمان والثلاثة الأزهريين بأن يعترفوا بعلم الشيخ نية القاتل ، أو باتصاله به ، أو بزيارته . لم يستطيعوا إدانة الشيخ .

هذه الريبة فى العلماء والطلبة . وهذا الغضب منهم ، حملا الفرنسيين على أن يصطنعوا معهم البطش والشدة . ففتشوا الأزهر تفتيشا دقيقا . ونقروا فيه نقرا كثيرة . لعلهم يجدون سلاحا . وأخرجوا بعض الطلبة منه . وأخلوا الأروقة ونقلوا مافيها من الكتب ، ودونوا أسماء الطلبة الذين لم يخرجوهم وأخذوا عليهم عهدا بألا يدخل الأزهر غيرهم . وكانت حملة التفتيش على الأزهر بقيادة القائد العام الجديد نفسه ، منو ، ومعه حاكم القاهرة ، الجنرال بليار ، والمحافظ .

الأزهر يقفل :

وعند ذلك رأى العلماء من الخير والحكمة ، أن يقفل الأزهر . حتى لا تكون هذه الريب والشكوك ، سببا فى إعنات أهله وإرهاقهم ، وحتى لا تكون هذه الأحوال القلقة ، والظروف الرهيبة التى تسود القاهرة عامة ، والأزهر خاصة ، مسرحا لفتنة جديدة . فطلب شيخ الأزهر ، الشرقاوى ، والشيخان الصاوى والمهدى إلى منو أن يأذن بقفل الأزهر . فقفل « وسمروا أبوابه من جميع الجهات » كما يقول الجبرتى . وكان ذلك يوم ٢١ يونيو ، أى بعد أسبوع من قتل كليبر ، وبقى الأزهر مقفلا نحو عام . حتى خرج الفرنسيون من مصر . ففتح يوم ٢ يونيو سنة ١٨٠١ .

انتقام وقسوة :

هذا ما أصاب الأزهر ، بعد اغتيال كليبر . أما أهل القاهرة ، فقد أمر القائد الجديد ، الجنرال منو ، بفرض غرامة جديدة عليهم ، قدرها أربعة ملايين فرنك ، ثم مليونا آخر . وأراد كثيرون من أهل المدينة أن يهاجروا منها فرارا من الظلم فمنعهم الفرنسيون ، وأرغموا من خرج منهم على أن يعود ، وإلا نهبت بيوتهم ، وصودرت أملاكهم واعتبروا مذنبين . وامتنع الجنرال منو من مقابلة المصريين ، حتى العلماء . وكذلك فعل قواده .

وأمر منو[1] بأن تقفل جميع المتاجر ، والوكايل ، والخانات . ثم يصفى جميع

---

(١) كان الجنرال منو أشد القواد الفرنسيين قسوة على المصريين . وكان يكره كليبر حتى إنه سمى ابنه من زوجه المصرية « سليمان » على اسم سليمان الحلبى الذى قتل كليبر . ولم يمنعه إظهاره الإسلام وتسمية نفسه باسم عبد الله من اتخاذ كل أنواع القسوة مع المصريين .

وقد اطلعت على وثيقة زواجه من السيدة زبيدة المصرية — كما نقلها الأستاذ على بهجت من سجلات محكمة رشيد الشرعية — وفيها أن صداقها كان مائة دينار ، وألفى ريال . وأنها لم تقبض من مقدم صداقها سوى المائة دينار . وأنها كانت زوجا لسليم أغا نعمة الله . ثم طلقت منه . وأبوها محمد البواب من رشيد . وكان منو حاكما عليها .

وتجد النهاية التعيسة التى انتهت إليها حياة زبيدة هذه، وعلاقة منو بها ، فى الجزء الأول من هذا الكتاب . ص ١٧٢ — ١٧٣ .

مافيها من الأموال والعروض ، ويقدر بأبخس الأثمان ، ويحتسب من قيمة الضريبة التى فرضها . وهدمت بيوت كثيرة ، بل أزيلت أحياء كاملة ، كالحسينية ، والخروبى بمصر القديمة ، وبركة الفيل ، وبركة جناق ، فى باب الشعرية . وهدم سور القاهرة من باب النصر إلى باب الحديد . واقتلعوا أحجار المساطب التى كان الناس يجلسون عليها أمام حوانيتهم فاتخذها المجاهدون متاريس فى أيام الثورة . وأزالوا هذه المساطب كلها من أحياء الصليبة ، وقناطر السباع ، ودرب سعادة ، والجماميز ، وباب الخلق . وأحياء أخرى من القاهرة . وقطعوا الأشجار ، النخيل ، من جميع البساتين فى المدينة ، وبعض البلاد الأخرى . واستولوا على أخشاب السفن والمراكب .

وأمعنوا فى الإساءة إلى شعور الناس . فجعلوا مسجد الأمير أزبك ، فى الأزبكية سوقا يباع فيه مايصادر من متاع أهل القاهرة ومتاجرهم . وجعلوا مسجد الرويعى خمارة . وهدمت مساجد الجنبلاطية ، فى باب النصر ، وجركس ، وخوند بركة ، عند باب البرقية — الغريّب — وعثمان كتخدا القزدُغلى — بالقرب من رصيف الخشاب — ميدان الأوبرا الآن — وخير بك ، بالقرب من بركة الفيل . عبد الرحمن كتخدا ، المقابل لباب الفتوح ، والبنهاوى ، والطرطوشى ، والعدوى . وجعلوا المسجد الناصرى قلعة ، ومسجد الأمير سليم كاشف ، فى أسيوط ، سجنا .

وهدمت غير هذه من المساجد ، والأحياء .

وأمروا أهل القاهرة ، مهما علت مكانتهم ، أن يقفوا تحية لعمال الفرنسيين وموظفيهم عند مرورهم فى الشوارع .

وامتد عدوان الفرنسيين ، وظلمهم ، إلى بلاد الريف . فجعلوا تعيين العمد فى القرى بأمر من القائد العام . ليكونوا تحت سلطانهم . وليستخدموهم فى تنفيذ أوامرهم ، وجمع مايريدون جمعه من المال . ثم فرضوا على البلاد ضرائب ثقيلة . وصف الجبرتى وقعها على الناس بقوله . — «فلما شاع ذلك ضجت مشايخ البلاد . لأن منهم من لايملك عشاءه» ويقول الشيخ عبد الله الشرقاوى — وكان صديقا

للفرنسيين — « إن كل قرية حاربتهم نهبوا أموالها وقتلوا رجالها ، وأخذوا نساءها . وقتلوا من علماء مصر نحو ثلاثة عشر عالما[١] » .

كل ذلك فعله الفرنسيون بأهل مصر ، فى القاهرة والريف ، حتى لا يثوروا عليهم مرة أخرى . وحتى يقهروا نفوسهم بالسطوة والجبروت .

ولكن هذا العنت والظلم ، وهذه القسوة الباغية ، وإن تكن أضعفت من قدرة المصريين على المقاومة ، فإنها لم تضعف فى قلوبهم مشاعر الحقد والغضب على الغاصب الظالم المحتل . بل زادتها اشتعالا ، ورسوخا ، وتمكينا . لذلك عندما قدم الإنجليز والأتراك — بعد ذلك بتسعة شهور — لحرب الفرنسيين ، كان هؤلاء يخشون ثورة المصريين عليهم ، أكثر من خشيتهم الحرب . فجمع الجنرال منو أعضاء الديوان الجديد ، الذين اختارهم جميعا من المصريين ، وأنذرهم محذرا من الفتنة . ولكنه لم يرض عن تصرفهم ، ولم يطمئن إلى نواياهم ، ولا إلى سيطرتهم على الشعب لو أراد الثورة عليه . فأمر باعتقال كبار الشيوخ ، الذين يشك فى إخلاصهم ، وولائهم ، والذين يخشى من أثرهم ، وتحريضهم الشعب على الثورة . وكان أولهم الشيخ السادات . فأخذ إلى القلعة سجينا . ثم اعتقلوا بعد ذلك الشيخ عبد الله الشرقاوى ، شيخ الأزهر ، والشيخ محمد المهدى ، والشيخ مصطفى الصاوى ، والشيخ سليمان الفيومى ، ثم الشيخ محمد الأمير . واعتقلوا أيضاً كثيرا من وجوه الناس ، ومن أبناء الشعب . ولم يغفلوا ، مع ذلك ، أن يتملقوا شعور المصريين ، وأن يداهنوهم .

وكان موقف أهل القاهرة ، وتحفزهم للثورة على الفرنسيين ، عند اشتباكهم فى حرب الإنجليز والعثمانيين ، من الأسباب التى حملتهم على التسليم من غير قتال ، فى ٢٢ يوليو ١٨٠١ ثم قبولهم الجلاء عن مصر كلها فى خمسين يوما .

وقد صرح بهذه الحقيقة — الخوف من ثورة أهل القاهرة — الجنرال بلييار ، الذى خلف منو فى قيادة الجيش ، صرح بذلك فى اجتماع المجلس الحربى

(١) ص ٧٦ من كتاب « تحفة الناظرين فى من ولى مصر من الولاة والسلاطين » .

الفرنسى ، وكان يرأس المجلس . وكان تصريحه بذلك موحيا برغبته فى التسليم . ثم أقره المجلس عليه .

والفضل ما شهدت به الأعداء :

ولكى نعرف أثر هذه المقاومة الباسلة ، المثابرة ، القوية ، التى قاوم بها شعب مصر كله ، عدوان الفرنسيين على أرض الوطن . نذكر طرفا من شهادة المؤرخين ، والقواد الفرنسيين فى ذلك . وقد ذكرنا عند حديثنا عن مقاومة أهل المدن والقرى طرفا من هذه الشهادات ، عن المقاومة المحلية . ونحن هنا نذكر طرفا آخر ، يتناول المقاومة العامة ، من الشعب كله ، وأثرها فى قدرة الجيش الفرنسى على حكم البلاد ، بل مجرد البقاء فيها .

فمن ذلك ما يقوله المسيو مارتان ، أحد مهندسى الحملة ، وعضو اللجنة العلمية الفرنسية : « بالرغم من احتلال الفرنسيين لعاصمة مصر ، فإنهم لم يستقر لهم قرار فى البلاد . وكان مركزهم فيها مزعزعا ، ومحفوفا بالمتاعب . ولم يترك الأهالى وسيلة لمقاومة السلطة الفرنسية إلا اتبعوها . وقد ذهب كثير من الفرنسيين ضحية هذه المقاومة[١] » .

ثم يقول : إن دعاة الفتنة ما فتئوا يشعلون نار الثورة فى مختلف أنحاء القطر المصرى . وقد اتخذ المصريون شعارهم ، ذلك المبدأ المشهور الذى أعلنته فرنسا ، وهو : « إن مقاومة الاضطهاد هى أقدس واجبات الشعب » .

ويقول ريبو : « كان الجنود يعملون على إخماد الثورة بإطلاق الرصاص على الفلاحين ، وفرض الغرامات على البلاد . ولكن الثورة كانت كحية ذات مائة رأس . كلما أخمدها السيف والنار فى ناحية ، ظهرت فى ناحيه أخرى أقوى وأشد مما كانت . فكأنها كانت تعظم ، ويتسع مداها ، كلما ارتحلت من بلد إلى آخر[٢] » :

---

(١) ص ١٦٠ جزء ١ من تاريخ الحركة القومية .

(٢) ص ٣٣٩ من المصدر السابق.

ويقول الجنرال كليبر بعدما تولى قيادة الجيش : « إن مصر ، بالرغم من السكون الظاهرى الذى شملها ، لاتعتبر إلا مذعنة لحكم القوة ، والشعب المصرى موزع الفكر ، قلق على مصيره . ولا يرى فينا — مهما فعلنا — إلا أعداء ملكه وماله . وقلبه متجه دائما ، إلى الأمل فى حدوث الإنقلاب الذى يتوقعه[1] » .

ويقول مسيو بوسليج ، مدير الشئون المالية للحملة : « إن الشعب المصرى بالرغم من ثوراته العديدة ضدنا ، يمكن اعتباره شعبا وديعا ، على أنه يكرهنا ، وهيهات أن يحبنا . مع أننا نعامله بأحسن ما يمكن أن تعامل به بلاد محتلة... إنهم يمقتون المماليك ويرهبون نير الآستانة ، ولا يحبون حكمها . ولكنهم لا يطيقون حكمنا . ولا يصبرون عليه ، إلا بأمل التخلص منه[2] » .

ويقول نقولا الترك — وهو مؤرخ فرنسى — إن الجيش الفرنسى فقد منذ دخل مصر إلى أن خرج منها ، خمسة عشر ألف جندى . وأن المصريين اغتالوا عدداً كبيرا منهم . ثم يقول إن النساء المصريات كن « يأخذن الفرنساوية إلى منازلهم إلزاما — أى قهرا — ويقتلونهم ويرمونهم فى الأبيار ، ويخفون منهم الآثار[3] » .

وقد قدر الجنرال داماس ، رئيس أركان حرب الجيش الفرنسى ، عدد جنود جيشه فى سبتمبر سنة ١٧٩٨ ، بثلاثة وثلاثين ألفا . وقدره فى أغسطس من السنة التالية ، باثنين وعشرين ألفا . فكأنه فقد فى سنة واحدة أحد عشر ألف جندى . مات بعضهم بسبب المرض . وكثير منهم بيد المجاهدين ، وأبناء الشعب .

وقد شهد نقولا فى كتابه هذا — الذى وضعه لخدمة الفرنسيين ، وتمجيدهم — شهادات مشرفة لوطننا فى هذا الكفاح . فقال : إنهم كانوا يخشون ثورة المصريين ، أكثر من خشيتهم حرب المماليك ، أو العثمانيين . وقال : « إن المصريين تظاهرت فى العصاوة والأسية ، على الطائفة الفرنساوية . وقامت الأربع أقاليم المصرية ،

---

(١) و(٢) ص١٢٦ جزء ٢ من المصدر السابق .

(٣) ص ١١١ من كتاب . « ذكر تملك جمهور الفرنساوية » .

القبلية ، والبحرية ، والغربية ، والشرقية . وكان فى كل وقت ، يقع الخصام بينهم وبين الجنرالية ، من الأربع الجهات المصرية . وتحرق البلاد ، وتهلك العباد[١] » .

ومما يزكى شرف جهادنا ، ما ذكره المسيو مارتان ، إذ يقول : « لقد قام المصريون فى ثورة القاهرة ، بما لم يستطع أحد أن يقوم به من قبل . فقد صنعوا البارود ، وصنعوا القنابل من حديد المساجد ، وأدوات الصناع . وفعلوا ما يصعب تصديقه ، وما رآه كمن سمع . ذلك أنهم صنعوا المدافع[٢] » وقد كان المهندس مارتان شاهد عيان لهذه الثورة .

وكذلك ما سجله مسيو ميو ، وكان مرافقا للحملة ، إذ يقول . « طالما ذكرتنى الحرب بموقفنا فى مصر . وهكذا كل حرب أهلية . لأن احتلال جيش لبلد — لا يريد أهلها إلا الحرية — يجعل ذلك الجيش معرضا للخطر . فأما محو تلك الأمة ، وإما ترك البلاد لأهلها[٣] » .

هذا بعض ما شهد به الفرنسيون فى مقاومة المصريين لهم . أما شهادتهم فى أثر هذه المقاومة عندهم ، فنحن نذكر منها — فوق ما تضمنته الشهادات السابقة — ما سجله نقولا من أن الحاميات الفرنسية ، فى داخل البلاد ، خرجت عن طاعة قوادها . فقد سار الجنرال كليبر إلى الصالحية — وكان المجاهدون المصريون حرقوا حامية العريش على جنودها — فوجد الجنود الفرنسيين ، كما يقول نقولا ، « قلوبهم منقسمة ، ووجوههم غير مبتسمة . ونفوسهم قلقانة ، ومن النفور ملآنة . وقلوبهم ، إلى السفر ظمآنة . ومتحسرين من نفور أهل الكنانة[٤] » وكذلك علم كليبر ، من حاكم مدينة بلبيس ، أن الجنود الفرنسيين عصوا أمر قائدهم . وقام جنود من حامية الإسكندرية على بعض الضباط المسافرين إلى فرنسا ، وكانوا يحملون أموالا ، فمنعوهم من السفر . وقالوا لهم : « محال أن

---

(١) ص ٥٢ من الكتاب .

(٢) ص ٥٦ ؛ جزء ٢ تاريخ الحركة القومية .

(٣) ص ١٦٧ من كتاب « فتح مصر الحديث »

(٤) ص ١٣٨ من كتاب « ذكر تملك جمهور الفرنساوية » .

ندعا كم — ندعكم — تسيرون بهذه الأموال ، ونحن نقاسى ألوبال والنـكال[١]».

وكذلك كان من آثار هذه المقاومة أن امتنع جنود حامية العريش عن المقاومة . وسهلوا للحملة التى كان يقودها يوسف باشا ضيا ، دخول القلعة . وكان ذلك فى أثناء مفاوضات الصلح . فـكان مسلك هؤلاء الجند من أكبر الأسباب لقبول الفرنسيين له .

وكان من أثر هذه المقاومة ، أن أخرجت نابليون ، الحـكيم الحليم ، عن حد الاعتدال ، والسداد . ويبدو ذلك واضحا فى الاجتماع الذى التقى فيه نابليون بالعلماء وأعضاء الديوان وأعيان القاهرة فى ١٠ أغسطس سنة ١٧٩٩ — بعد انتصاره على الحملة العثمانية الأولى — ذلك الاجتماع الذى يصوره نقولا الترك تصويرا شيّقا. حتى ليبدو فيه نابليون العظيم المظفر كأنه ممثل هازل . وقد ذكر الجبرتى خبر هذا الاجتماع وحديث نابليون فيه — فى حوادث شهر ربيع الأول سنة ١٢١٤ —[٢] ولـكن تصوير نقولا أصدق فى الدلالة على ما نريد .

ولولا خشية أن أطيل ، لرسمت هذه الصورة . فليرجع إليها من يشاء[٣] .

ونستطيع أن نقول ، فى ختام هذا التلخيص لـكفاح مصر فى سبيل حريتها ، إن شعبها حقق بالفعل ، ما قاله الرئيس ولسون ، رئيس الولايات المتحدة أيام الحرب العالمية الأولى ، بعد ذلك بأكثر من قرن من الزمان وهو :

« إن شرف الأمة أغلى من رفاهيتها . بل أغلى من حياتها » .

---

(١) ص ١٣٩ من كتاب « ذكر تملك جمهور الفرنساوية » .

(٢) ص ٨١ جزء ٣ طبع المطبعة الشرفية .

(٣) ص ١٢١ — ١٢٢ من كتاب نقولا . وقد نقلها حافظ عوض فى ص ٣٩٧ — ٣٩٨ من فتح مصر الحديث .

مقاييس جديدة لدراسة تاريخنا الحديث

تتصل دراسة « المجتمع المصرى » أوثق الاتصال بدراسة تاريخنا . وخاصة تاريخنا الحديث . فمن أحداثه الكبار ، ونتائجها ، وتاريخ الرجال الذين واجهوا هذه الأحداث ، أو واجهتهم . ومن قيم هؤلاء الرجال الحقيقية ، من هذا كله يتكون واقع مجتمعنا المصرى وحاضره ، وبشائر مستقبله . كما يتلون مجتمعنا ، وتتلون أخلاق أهله وطرائق تفكيرهم بلون أو ألوان خاصة ، لأحداث هذا التاريخ ، وفهمها ، أثر كبير فيها ، وفى انسجامها أو تنافرها . واستقامتها ، أو عوجها .

وقد كانت دراسة تاريخنا الحـــديث ، منذ الفتح العثمانى . ومنذ استيلاء محمد على على الحكم خاصة ، خاضعة لمؤثرات غير أمينة وغير منصفة ، وغير مفيدة . بل هى ضارة بالغة الضرر . على وجه التأكيد .

أما أنها غير أمينة ، فلأنها كانت منحازة إلى جانب الخصومة مع شعبنا ، وكأنها لا تؤرخ له ، بل تجمع المآخذ ، والآثام ، والمثالب . فتلصقها بهذا الشعب ، الذى خذل أمام العثمانيين . ولكنه لم يفرط فى حق وطنه ، وشرفه ، بل دافع عنهما أروع دفاع وأكرمه ، كما رأينا منذ قليل . وشعوب العالم كلها يتناوب حياتها النصرُ والهزيمة .

وأما أنها غير منصفة ، فلأنها لم تبحث عن العلل الطارئة . والعوامل الدخيلة . التى انتهت به إلى الهزيمة أمام العثمانيين ، ثم أمام الفرنسيين والإنجليز . بل جعلوا سبب ذلك دوافع أصيلة فى تكوين الشعب نفسه وإدراكه ، والمقاييس التى يقيس بها أهداف الحياة والكرامة والشرف . والحرص على الحرية والعزة . وكان يجب أن نبحث عن هذه وتلك .

وأما أنها ضارة بالغة الضرر . فليس يخفى ذلك على مفكر أو متأمل . لأنها تهدر فى نفوسنا كل معنى كريم ، وكل إحساس بالنخوة الوطنية ، وكل شعور بمجد الماضى وكفاحه .

ولا يزال كثيرون منا ، ومن رجال التربية خاصة ، يذكرون دنلوب وسياسته فى وزارة المعارف . ولم يكن دنلوب شخصاً أكثر مما كان فكرة ومذهباً . الغاية منهما إذابة كل شعور قومى ، وكل معنى من معانى « التربية » الوطنية والفردية والسياسية . ولم يفعل الإنجليز ذلك عبثاً . بل كان هدفهم منه التمكين لسلطانهم واحتلالهم . كأنهما قدر لا مفر منه ، وأن تاريخ مصر كله ، والقيم الفردية والجماعية للمصريين . أساسهما ، وقوامهما . الخضوع لحكم الغير ، والرضى به .

هذه ناحية ، والناحية الأخرى تسخير التاريخ لخدمة أسرة محمد على . فقد أسرف المؤلفون والمؤرخون فى ذلك . حتى أصبحت العقيدة الراسخة ، واضحى المبدأ المقرر . الذى لا يقبل المناقشة . إن محمداً علياً هو « منشىء مصر » و « محيى مجد مصر » .

فماذا بقى لشعب مصر ، بعد ذلك ، من هذا التاريخ الحديث . . ؟

هذه هى دعوتى « مقاييس جديدة لدراسة تاريخنا الحديث » .

فإذا عدونا هذا التاريخ الحديث إلى ماقبله ومابعده من تاريخنا وجدناه لا يعدو تاريخ الملوك والسلاطين والحكام وأهل السيادة . وهو فى تأريخه لهم غير منصف ، ولا محايد ولا موثق .

أعرف أن هذه دعوة شاقة على المؤرخين والمؤلفين . لأن أمامهم بنياناً شامخاً يقوم على هذه الأسس الزائفة الضارة من تاريخنا . ولأن أمامهم عشرات الكتب التى وضعت وألفت وترجمت على هذا الأساس ، وبهذه المقاييس المنحرفة . حتى أصبحت نفوس المؤرخين أنفسهم . من طول الملابسة لهذه المقاييس ، ودوام الألفة لهذه الكتب ، كأنهم يؤمنون بصدقها وصوابها وعدالتها . وأنه يكاد يكون من المستحيل ، أو من العسير الذى يكاد يشبه المستحيل ، أن يبحث هذا التاريخ على أسس تغاير — بل تناقض — هذه المقاييس التى ألفناها وعشنا حياتنا كلها فى جوها وبيئتها ، وبين كتبها ومبادئها ومقرراتها .

هو أمر عسير حقاً ، ولكنه ضرورة لا بد منها ليدرك هذا الشعب قيمته . ويعرف مزاياه الأصيلة ونقائصه .

وليست دعوتى أن نتملق غرائز الشعب ، ونترضى غروره بألفاظ جوفاء لا تبطن وراءها حقيقة . ولا يساندها سند من الواقع أو من التاريخ . بل إنى أدعو

إلى مقاييس جديدة فى بحث تاريخنا الحديث بحثا علمياً . يكون رائده الصدق ، والأمانة ، وسلامة الإدراك . وحسن البصيرة . ووضع الأحداث والرجال حيثما تضعها وتضعهم الحقائق ، لا الأوهام والغايات . وألا نجعل التاريخ خاضعا لمقاييس تقليدية ، غير مدركة . ولا نجعله خادما للملوك والحاكمين وأهل السيادة . بل نضع إلى جانبهم ، المتوسطين ، وأبناء الشعب . الذين كانت لهم صنائع . أو مواقف . تستحق أن يحفظها لهم التاريخ ، وتحمد لهم .

ويحسن أن نضرب مثلا يوضح ما نريد . وليكن هذا المثل السيد عمر مكرم ، فهو ، كما يعرف المثقفون . زعيم من زعماء مصر فى تاريخها الحديث . ويصفه كثير من المؤرخين بأنه « زعيم مصر الأول » . أو زعيم القومية المصرية الأول . وقد كان عمر مكرم زعيم مصر الأول فترة طويلة من الزمن ، لا شك فى ذلك . ولكنه لم يفد من زعامته تلك — إلى نهاية المدى — إلا فى تنصيب محمد على ، وإجلاسه على عرش مصر . وقد كان مكرم ، كما كان بقية مناصرى محمد على ، يعتقدون أنه سيسير فيهم بالعدل ، كما عاهدهم ، ولكن سياسة عمر مكرم ، بعد ذلك ، اتسمت بالمسايرة والملاينة لمحمد على — حتى بعد ظهور خبيئته — بل نستطيع القول بأنها اتسمت بالضعف والتردد .

ولكن السيد عمر مكرم ، عندما جاء نابليون لغزو مصر ، ووقف عند سفح الهرم ، صعد إلى القلعة فأنزل البيرق النبوى . وحمله على رأس مظاهرة رائعة ، يحرض بها الناس على حرب نابليون والدفاع عن القاهرة . فلما دخل نابليون القاهرة ، تركها السيد وفر إلى الشام . حتى إذا فتحها نابليون ولقيه فى مدينة من مدنها ، أعاده إلى مصر ، فبقى فيها مسالما للفرنسيين .

نجد هذا فى سيرة السيد عمر مكرم . ونجد مصريين غيره ، بعضهم أقل منه زعامة ومكانة ومنزلة . وبعضهم دونه فى ذلك بمراحل بعيدة . وبعضهم من عامة الناس وأبناء الشعب . نجد هؤلاء بذلوا أموالهم وأرواحهم فى الحرب أو فى الثورة على نابليون ، أو على الأتراك ، أو فى دفع الحملة الإنجليزية .

وليس فى هذا الذى أقوله عن السيد عمر مكرم تنقيصا لشأنه ، أو تضعيفا لمنزلته. ولا فى هذا الذى فصلته — وأفصله بعد إن شاء الله — تضخيما لشأن هؤلاء المجاهدين لأنهم من أبناء الشعب . بل هذا وذاك وزن للرجال بميزان العدل والعقل . ووضع لهم حيث تضعهم صفاتهم ، وأعمالهم . وقيمهم الحقة من غير تزيد ، ولا تحيف ، ولا مغالاة ، ولا خضوع لمقاييس غير مستقيمة . أو متابعة لقول قائل أو مروج أو مخدوع .

مقاييس جديدة ، عادلة ، مفيدة . من شأنها أن تزن الأحداث بمقدار أثرها فى تقدم الشعب أو تخلفه ، أو وقوفه . وفى استقامة حياته أو انحرافها والتوائها . وتزن الرجال بمقدار اعتصامهم بالشرف والخير ، وحرصهم على القيم الكريمة للحياة . وقيمة الأعمال التى أدوها ، أو شاركوا فيها لخير وطنهم أو كرامته أو مجده أو رفاهيته . فى أى ناحية من نواحى حياته ونشاطه . لا بمقدار سطوتهم أو نجاحهم أو شهرتهم .

ونجد مصداق ذلك فى هذا الفصل الذى عقدناه لتراجم الزعماء والقادة فى هذه الأحداث . وأبرز مثل نسوقه لهذه المقاييس الجديدة . مايراه القارىء فى هذه التراجم من حديث حجاج الخضرى ، والحاج مصطفى البشتيلى . ومايجده فيها من حديث السيد عمر مكرم .

وهذا هو الذى التزمناه أيضاً فى حديثنا عن العلماء فى الجزء الثانى من هذا الكتاب

زعماء وأبطال

الآن وقد انتهينا من ذكر مالقيه الفرنسيون من المقاومة والكفاح والثورات المتلاحقة ، وذكرنا قبل ذلك ، أمثلة ونماذج من كفاح الشعب فى سبيل العدل والكرامة ، ووثوبه مرة بعد مرة ، على الظالمين والمستبدين من حكامه وولاته . نذكر طرفا من سيرة الزعماء والأبطال الذين كان لهم أوفى نصيب من شرف هذه المقاومة والكفاح . وبعض ما كان لهم فى ذلك من أثر .

ونبدأ بذكر بطل شعبى ، يستحق منا ومن وطنه ، كل إشادة وتقدير .

حجاج الخضرى :

هذا رجل من عامة الشعب ، من أهل القاهرة ، الذين نسميهم « أولاد البلد » أصله من بلدة « المنوات » بالقرب من القاهرة . ولكنه — كما ترى من سيرته بعد — عاش حياته بطلا ، ولقى نهاية الأبطال .

وجدت اسم « حجاج الخضرى » يكثر ذكره فى تاريخ الأيام العصيبة من حياة أهل القاهرة ، فى الفترة التى سبقت اختيار محمد على والياً على مصر ، وهى حقبة امتلأت بالفتن والحروب والدسائس ، وكان شعب مصر فيها قد أثبت وجوده ، وحيويته ، حين كافح نابليون ورجاله كفاح الجبارين . وكان الشعب — فى سنة ١٢٢٠ هـ (١٨٠٥ م) — قد عزل الوالى الظالم المستبد أحمد باشا خورشيد . ولكنه رفض أن يذعن لإرادة الشعب ، وقال إنى توليت بأمر السلطان ، فلا أعزل بأمر « الفلاحين » . وكان أهل القاهرة كلهم يحملون سلاحهم ، وعصيهم ، يحاربون جند الدولة . ولا تخيفهم مدافع خورشيد باشا ، التى كان يرميهم بقنابلها من أعلى القلعة ، حيث كان يعتصم . وقد رأينا تفصيل ذلك فى مكان آخر .

وكان حجاج الخضرى شيخا لطائفة الخضرية بالقاهرة ، يقيم فى حى الرميلة « الرفاعى » فجمع من أهل هذه المنطقة عصابة قوية كانت تأتمر بأمره . وتخضع

لتوجيهات الزعيم السيد عمر مكرم . وأخذ حجاج وعصابته يفتكون بجند العثمانيين . ويدفعون عن أهل منطقتهم عدوان خورشيد ورجاله . وكان حجاج رجلا ضخم الجثة مشهوراً بالشجاعة والقوة . عرف يوما أن جند خورشيد خرجوا على فريق من المصريين كانوا خلف أحد المتاريس فى حى المظفر ، فتغلبوا عليهم ، فذهب لنجدتهم وقتل من الجند عدداً ، وشتت باقيهم . وكان حجاج ، إلى شجاعته ، كريم الخلق عظيم الهمة ، له صولة عظيمة بين مواطنيه ، ومحبة كبيرة فى قلوبهم

وأراد خورشيد ، بالاتفاق مع على باشا السلحدار ، أن يخدع رجال الثورة . فأرسل السلحدار رجلين من رجاله إلى السيد عمر مكرم يدعوه للصلح . وطلب إليه أن يأمر أهل القاهرة ، بالكف عن القتال حتى ينتهى الصلح ، وحتى يسير المفاوضون فى أمان . وجاء إلى السيد عمر — بعد الفجر — من يبلغه أنها خدعة ، وأن على باشا وخورشيد باشا سيطبقان على الثائرين ، فى وقت واحد ، عندما يأمرهم بترك القتال . فأرسل عمر مكرم إلى زعماء الثورة يحذرهم ، ويدعوهم إلى اليقظة ومداومة الحذر والترقب . وكان حجاج ورجاله يرقبون الجبل من ناحية القلعة . فرأوا رجالا كثيرين من الجند وغيرهم ، يقتربون ليصعدوا إليها . ومعهم قافلة من الجمال . فقطعوا عليهم طريقهم ، وحاربوهم حتى أخذوا منهم القافلة ، وكانت ستين جملا تحمل الذخيرة . وقتلوا بعض الجند ، وأسروا بعضهم . ثم أخذوا الأسرى ورؤوس القتلى إلى بيت السيد عمر مكرم .

— وقد اختار محمد على طائفة من جنده وضمهم إلى فرقة حجاج ، من المتطوعين ، وجعل حجاجا قائداً لهم . لما ظهر من شجاعته ويقظته ، وحسن تدبيره .

ولما جاء فرمان السلطان لإقامة محمد على والياً على مصر ، تحقيقاً لرغبة الشعب إذ ذاك . كان حجاج الخضرى على رأس المتطوعين من المصريين . وهم يلاقون سفير الدولة ، الذى يحمل أمر السلطان ، ويدخلون معه القاهرة دخول الفاتحين . وقنابل المدافع تتساقط عليهم من القلعة ، بأمر خورشيد أيضا . وبقى هذا الركب سائراً يتقدمه حجاج ، وبيده سيف مسلول ، وإلى جواره زعيم آخر كان شيخ الجزارين اسمه ابن شمعة ، حتى دخل السفير بيت محمد على بالأزبكية فتلا عليهم الفرمان .

وبقى بعد ذلك كثير من جند خورشيد باشا يحاربون . فلم يضع حجاج سيفه حتى أفناهم أو شتتهم . ثم رأى من مستلزمات الحرب أن يقيم حائطا ، وبوابة على الرميلة فأقامهما . وقد ذكر على باشا مبارك فى خططه ، أن هذه البوابة بقيت تعرف باسم بوابة حجاج زمناً طويلا . وكان إلى جوارها قسم بوليس السيدة عائشة . فكان يسمى (قراقول بوابة حجاج) . وكانت تعرف أيضاً ببوابة الخلاء .

وبعد أن حقق شعب مصر لنفسه النصر على خورشيد . تضاءل اسم حجاج الخضرى ، ثم اختفى شخصه . لأنه لم يرض عن سياسة محمد على بعد ذلك . ولم يجد فيه الحاكم الذى اختاره الشعب وحارب هذه الحرب العنيفة ليوليه عرش مصر . ويقول بعض المؤرخين إن حجاجا انحاز إلى جانب الألفى ، كبير المماليك إذ ذاك ، وألد خصوم محمد على . فلما مات الألفى ، وأباد محمد على بقية المماليك فى مذبحة القلعة ، أراد حجاج أن يعود إلى القاهرة . فتحدث السيد عمر مكرم فى ذلك إلى محمد على . وأرسل له هذا إذنا بالعودة ، وأمانا . ولما عاد إلى القاهرة قابله وأكرمه ، وخلع عليه خلعة . ثم أمر فنودى فى القاهرة بأن حجاجا عاد إلى عمله ووجاهته ورياسته على طائفته . وصار يمشى فى المدينة ومعه جندى يلازمه . وكان هذا كله خداعا من محمد على واستدراجا لحجاج حتى يوقعه فى أحابيله . فإن محمدا عليا لم يرع عهده ، ولم يحفظ أمانه . بل أرسل المحتسب مصطفى كاشف فأخذ حجاجا وشنقه على السبيل الذى كان يجاور حارة المبيضة بالجمالية . وكان ذلك وقت السحور من ليلة اليوم السابع عشر من رمضان سنة ١٢٣٢ (أغسطس ١٨١٧) . وبقيت جثة هذا البطل معلقة إلى سحور الليلة التالية . ثم أذن محمد على فى رفعها ، فأخذها أهله ودفنوها . ولم يكن لهذا الغدر ، الذى أقدم عليه محمد على ، أى سبب إلا شفاء مافى نفسه من حقد على حجاج ، نصيره العظيم ، وليخيف به غيره .

وقد بذلت جهداً غير قليل لأجمع من سيرة حجاج وبطولته أكثر من هذا القدر المقتصد فلم أستطع . ولو أن تاريخنا كان يكتب بإحساس وطنى ، أو حتى بعاطفة من الإنصاف والتجرد ، لسطرت صحائف وكتب فى سيرة حجاج هذا . ونسجت من وحى سيرته الأشعار والأناشيد والقصص والمسرحيات .

ولو أن الوعى القومى كان مدركا ، حريصاً على أن يحتفظ ، فى ضمير الأمة ، بسير هؤلاء الأبطال . ماضاعت سيرهم وذكراهم وبطولاتهم . وللقّنها الآباء للأبناء والأحفاد .

أبطال معركة رشيد

كانت معركة رشيد ، بين الإنجليز الغزاة ، وبين الأبطال من أهل هذه المدينة الباسلة ، وغيرهم من الوطنيين ، من المعارك التى يزكو بها الشرف المصرى . وقد رأينا تفصيل ذلك من قبل .

وكان أول أبطال هذه المعركة ، السيد حسن كريت . نقيب الأشراف فيها ، وكبير أعيانها . فهو الذى تولى الزعامة الشعبية فى تلك المحنة التى تعرضت لها رشيد . فترك لقائد حاميتها على بك السلانكلى — وكان رجلا شريف العاطفة مخلصا — قيادة الجند المنظم . وقاد هو جند الشعب ، من المتطوعين لحرب الإنجليز ، والمدافعين عن مدينتهم . وبادر فأرسل كتابا إلى السيد عمر مكرم فى القاهرة ، يستنجده . ويطلب إليه المبادرة بإرسال السلاح والمتطوعين . ولكنه — إلى أن جاءه العون من القاهرة — كافح بجنده من أهل رشيد ، ومن جاء لعونهم . كفاحا قويا ، مشرفا . وتدل على مبلغ مالقيه السيد حسن كريت وجنوده فى هذا الكفاح . الرسالة التى بعث بها ، مرة أخرى ، إلى السيد عمر مكرم ، والتى يقول فيها إن الإنجليز يحيطون برشيد من كل جانب . يضربون بيوتها بالقنابل ، وقد تهدم كثير منها وقتل من الناس كثير . ثم يقول : — « فالله الله فى الإسعاف . فقد ضاق الخناق . وبلغت القلوب الحناجر من توقع المكروه . وملازمة المرابطة . والسهر على المتاريس » . هذه الرسالة التى توشك أن تكون استغاثة ، تدل على مبلغ مالقى هذا المجاهد ومن معه ، من المحنة فى هذا الحصار الذى استمر اثنى عشر يوما . ثم انتصر بعد ذلك أهل رشيد . وأبيد الإنجليز ، أو أسروا جميعا .

وكان لشجاعة حسن كريت ، وصبره ، وإيمانه أثر كبير فى هذا الانتصار .

وكانت للسيد حسن كريت مواقف أخرى كريمة ، للدفاع عن كرامة أهل

الوطن ، وحقوقهم وحرماتهم ، بعد انتصاره على الإنجليز . ذلك أن الحكام الأتراك عادوا إلى رشيد ، والحماد ، وما جاورهما فاستباحوا أهلها ، ونساءها ، وأموالها . وزعموا أنها صارت مفتوحة لهم بالحرب ، بعد هزيمة الإنجليز . وأرسل الناس يستفتون العلماء فى القاهرة . ولكن الأتراك أحاطوا برشيد . وطالبوا أهلها بالضرائب الشاقة . ونهبوا مافيها من الأرز . فبرز لهم السيد حسن كريت ، وأغلظ لهم القول وهددهم بأن يترك مع مواطنيه من أهل رشيد ، بلادهم لهؤلاء الظلمة . وقال إننا نحن الذين دافعنا عنها . وحاربنا الإنجليز ، لننصركم . ولقينا فى سبيل ذلك من الشقاء والمحنة مالقينا . ثم أرسل كتابا إلى محمد على يشكو إليه مايفعله رجاله بالناس . فأرسل محمد على إليهم أن يكفوا .

وكان من أبطال معركة رشيد أيضا ، أخوان لم يحفظ لنا التاريخ من أمرهما شيئا كثيرا . ولكنه سجل لهما ، فى معركة رشيد هذه ، موقفا كريما . فقد بذلا ، من جهدهما ومالهما ، مايشرف ذكرهما ، ويسجل اسميهما فى عداد الأبطال من تاريخ هذا الوطن .

هذان الأخوان هما احمد وسلامة النجارى . كانا من تجار مكة ، يقيمان فى القاهرة . فلما دعا الداعى ، ونفر الناس للحرب ، سافرا إلى رشيد . ومن حولهما مئة من البدو ، والمغاربة . وكانا ينفقان على هؤلاء المئة من الجنود . ويحرضانهم على القتال ويقدمان المعونة لغيرهم من المدافعين . ويشتركان بنفسيهما فى المعارك . وبعد هزيمة الإنجليز ، فرق هذان الأخوان ما غنما ، وما بقى معهما من مال ، ومن شىء ، على من خرج يلاحق الإنجليز ، وهم يهربون .

وبعد أن أبلى هذان الأخوان الكريمان هذا البلاء العظيم ، وبذلا هذا البذال النبيل ، عادا إلى القاهرة ، فلقيهما أهلها أكرم لقاء ، ولقيهما محمد على فشكرهما أعظم الشكر .

* * *

السيد محمد كريم

كان السيد محمد كريّم من غمار الشعب . نشأ «قبانيا» يزن البضائع فى حانوت صغير بالإسكندرية . وكان ذكيا ، خفيف الحركة ، لطيف المعشر . فظل يعمل ، ويتقدم . حتى اتصل بمراد بك . فاختاره حاكما للاسكندرية ، ومدير الجمرك بها ، وأصبح فيها السيد المطلق السلطان . وجاءت الحملة الإنجليزية الأولى لمطاردة نابليون ، سنة ١٧٨٩ وهو حاكم الإسكندرية . وقد رأينا ، عند الكلام عن هذه الحملة ، أنه منعها من النزول إلى الميناء . ولم يأذن لها بشراء ماتحتاجه من الزاد والماء . وقال لرجال نلسون : « إن مصر بلاد السلطان ، وليس للفرنسيين أو غيرهم شيء فيها . فاذهبوا أنتم عنا . ثم قال : — إذا جاء الفرنسيون ، فنحن كفء لحربهم وصدهم عن بلادنا(١) » .

ثم جاءت بعد ذلك بعشرة أيام حملة نابليون ، فأرسل إلى مراد بك رسالة يستنجده فيها قائلا «إن العمارة التى حضرت — يقصد أسطول نابليون — مراكب عديدة مالها أول يعرف ، ولا آخر يوصف . لله ورسوله . أدركونا بالرجال » .

ولم يرسل مراد ما طلب إليه السيد كريم ، فوقف مع أهل الإسكندرية العزل ذلك الموقف المشرف الذى أسلفنا ذكره . وكان نابليون يراسله فى أمر التسليم . فلم يجد من ذلك بدا . وذهب بعد تفكير ، حيث سلم نفسه إليه .

وقد لقى نابليون السيد محمد كريم لقاء كريما ، وقال له : إنى أخذتك وأنت تحمل سلاحك فى وجهى ، ولى أن أجملك أسيرا ، ولكنك أبديت من الشجاعة مايحملنى على احترامك وتقديرك ، لذلك أعيد إليك سلاحك . وأبقيك حاكما على الإسكندرية كما كنت ، وأرجو أن تبدى من الإخلاص للجمهورية الفرنسية ، مثلما أبديت لحكومة المماليك الفاسدة الظالمة .

وقد سجل أحد رجال نابليون ، وهو فيفيان دينون ، هذا اللقاء بين القائد والمجاهد ، فقال : « لقد لاحظت على ملامح هذا الرجل ، السيد كريم ، الذكاء والدهاء . وكأنما كان يكتم عواطفه عنا » وقد ظهر فيما بعد ،

---

(١) ص٩٤ من كتاب « تاريخ مصر من الفتح العثمانى » للأستاذين عمر السكندرى ، وسليم حسن ، ومراجعة الميجر ا . ج . سفدج .

أن كريما عندما استسلم للقوة ، وقبل أن يعمل تحت سيادة نابليون ، قد اعتزم فى نفسه أمرا .

ظهر ذلك فى تلك المقاومة السرية التى لقيتها جنود نابليون فى الإسكندرية والبحيرة . وفى تنظيم هذه المقاومة ، وإحكام تدبيرها . وما عرف بعد ذلك من اتصال المجاهدين بالسيد كريم . وزاد على ذلك أن كليبر فرض على أهل الإسكندرية « سلفة » مالية ، قدرها مائة وخمسون ألف فرنك ، (ستة آلاف جنيه) فمارض كريم فيها ، وتباطأ فى الموافقة عليها ، ثم تراخى فى جمعها ، وكانت هذه الآلاف الستة من الجنيهات ضريبة ثقيلة على أهل الإسكندرية ، إذ كان سكانها كما أحصاهم الفرنسيون ، ثمانية آلاف .

وبدأت الشكوك تساور كليبر نحو السيد كريم ، فألقى القبض عليه يوم ٢٠ يوليو سنة ١٧٩٨ ثم نقله إلى إحدى سفن الأسطول فى أبى قير ، ليضعف من قوة المقاومة التى كان يذكيها وجوده فى الإسكندرية ، ومع ذلك فقد عامله القواد جميعا بالاحترام والتقدير ، وأباحوا أن تؤدى له التحية العسكرية .

ولما أبلغت إلى نابليون ، فى القاهرة ، أنباء هذه المقاومة ، التى كان بطلها السيد محمد كريم ، كتب يقول عن كريم ، إنه قد تحقق من خيانته ، من مراسلات له وجدت فى قصر مراد بك ، ثم أمر بأن يكبل بالحديد وأن يسجن أتباعه وحاشيته ، وأن يعتقل كل من بقى فى بيته ، وأن يختم على داره وأمواله . وفرض عليه ضريبة مقدارها ثلاثمائة ألف فرنك .

وقد كان لإبعاد السيد كريم أثره فى مقاومة أهل الإسكندرية ، وكتب كليبر إلى نابليون يقول ، إن السكينة تسود الإسكندرية ، بعد اعتقال السيد محمد كريم .

ونقل السيد محمد كريم إلى رشيد ، ولكن الحماسة التى أثارها قدومه بين أهلها جعلت القائد يبادر بإرساله إلى القاهرة ، فبلغها يوم ١٢ من أغسطس ، وأرسل إلى السجن رهن التحقيق . وتولى الجنرال ديبوى ، حاكم القاهرة ،

محاكمته على تلك الرسائل التى دعا فيها مرادا للحضور إلى الإسكندرية ، وتعهده بأن يسلمها إليه ، وتهوينه من شأن الفرنسيين وتشجيعه على حربهم ، ثم على رسائل أخرى أرسلها إلى عرب البحيرة ، يحرضهم فيها على المقاومة .

واعترف السيد البطل بكل ذلك ، فحكم عليه نابليون بالإعدام رميا بالرصاص ، ومصادرة أملاكه ، وأمواله ، ثم سمح له بأن يفتدى نفسه بثلاثين ألف ريال ، يدفعها فى يوم وليلة .

وتلقى البطل حكم الإعدام بشجاعة نادرة ، ورفض أن يفتدى نفسه ، وقد قال له فانتور ، كبير تراجمة الحملة الفرنسية : — « إنك رجل غنى ، فلماذا لا تفتدى نفسك بهذا المال ؟ » فأجابه : إذا كان مقدرا على أن أموت ، فلن يعصمنى من الموت أن أدفعه ، وإذا كان مقدرا لى الحياة ، فعلامَ أدفعه ..؟ » وظل على عناده حتى أعدم بالرصاص فى ميدان الرميلة « الرفاعى الآن » يوم ٦ سبتمبر سنة ١٧٩٨[١] » .

وعندما فتحت خزانته ، وبيوته ، وجد فقيرا ، لا يملك شيئا .

وقد ذكر نقولا الترك أن علماء القاهرة وأعيانها تشفعوا فيه ، وعرضوا أن يفتدوه بخمسين كيسا (مايقرب من ألفين وخمسمائة جنيه) فلم يقبل نابليون ، ثم قال : إنه والجند تسير به إلى ساحة الإعدام ، كان ينادى فى الناس ، محرضاً لهم ، ومشجعا « يا أمة محمد : — اليوم بى ، وغدا بكم » . «وحين قتل كان حزن عظيم عند المصريين ، وزاد نفورهم وحقدهم ، على الفرنسيين » .

أما الجبرتى ، فيصف مقتله بقوله : إن الفرنسيين « أركبوه حمارا ، واحتاط به عدة من العسكر ، بأيديهم السيوف المسلولة ، ويتقدمهم طبل يضربون عليه ، ويشقون به الصليبة إلى أن ذهبوا به إلى الرميلة وكتفوه ، وربطوه ، وضربوا عليه

---

(١) يحدد الجبرتى فى مظهر التقديس تاريخ قتله بيوم ١٥ من ربيع الأول سنة ١٢١٣ وهو يسبق هذا التاريخ بنحو أسبوع .

بالبنادق كعادتهم فى من يقتلونهم ، ثم قطعوا رأسه ورفعوها على نبّوت ، وطافوا بها بجهات الرميلة ، والمنادى يقول : هذا جزاء من يخالف الفرنسيس .

ثم إن أتباعه أخذوا رأسه ودفنوها مع جثته» .

وهكذا كانت نهاية بطل الإسكندرية ، السيد محمد كريم .

الشيخ حسن طوبار

كان الشيخ حسن طوبار ، زعيما على إقليم المنزلة ، وشيخا لبلدتها . وهو أقليم لقى الفرنسيون فيه مقاومة من أشد وأعنف مالقوا فى مصر ، كما رأينا من قبل . وكان محور هذه المقاومة ، ومدبرها ، هو حسن طوبار .

وكان طوبار واسع الثروة ، واسع الجاه والنفوذ . محبوبا غاية الحب . من سكان هذه المنطقة . وهم يشتغلون بالصيد فى البحيرة . وكان لهم أسطول يزيد على ستمائة مركب . وبعض المصادر الفرنسية يقدره بألف . ويزيد نقولا الترك هذا العدد فيجعله « ينوف على خمسة آلاف» وهذا الأسطول كله ، ومن فيه من الرجال الأقوياء ، كان فى طاعة حسن طوبار ، وفى خدمة أغراضه الوطنية لحرب الفرنسيين .

وزاد فى مكانة الشيخ حسن طوبار تلك الثروة الطائلة التى كان يمتلكها . وكانت تقدر بملايين الفرنكات . ومناطق واسعة من الأراضى الزراعية ، ومصانع لنسج القطن ، ومصانع أخرى ، ومتاجر . وكان إلى ذلك ينتسب إلى أسرة عريقة . تداول أفرادها مشيخة المنزلة مئات السنين ، ولهم عصبية وافرة ونفوذ قوى . ويذكر الجنرال لوجييه : أنهم فى جميع الجهات التى مروا بها ، من المنصورة إلى المنزلة ، لم يسمعوا من الأهالى سوى الثناء على طوبار . وعند ماعين الجنرال فيال حاكما على دمياط ، أرسل إلى حسن طوبار ، فأهدى إليه سيفا مذهبا ، وأبقاه فى منصبه . ولكنه لم يرتض الجاه والنعيم والثروة ، فى ظل العبودية ، فبدأ ينظم المقاومة التى أقلقت راحة نابليون وقواده . وكان يذهب بنفسه إلى البلاد والقرى ، يحرض

أهلها على الحرب ، ويطمئن على وسائلها لديهم . وجهز من أمواله الخاصة الأسطول البحرى من القوارب التى حاربت الفرنسيين فى البحيرة ، وهاجمهم فى دمياط ، وأوشكت أن تخرجهم منها .

وكان الفرنسيون يرغبون أشد الرغبة فى أسر هذا الزعيم ، ولكنهم لم يستطيعوا لمكانته عند قومه ، وشدة حرصه . فأرادوا أن يستميلوه إليهم . وأرسل إليه الجنرال فيال ليلتقى به . فرفض . وقال : إن إحراق الفرنسيين لبلدة الجمالية أساء إلى شخصه . . لأن هذه البلدة ، وجميع بلاد المنطقة ، تعتبر نفسها فى حمايته . وأنه لايستطيع ، وقد فعل الفرنسيون بالناس مافعلوا ، أن يجتمع بقائدهم . وأرسل نابليون إليه بعض الهدايا من القاهرة ، فأبى قبولها . وكان امتناعه عن ملاقاة الجنرال فيال ، حذرا منه وحيطة . وأرسل له الجنرال داماس أيضا ليجتمع به . فرفض . وأظهر استعداده لأن يدفع الضرائب للفرنسيين . ولكنه كان بذلك يخدع داماس . ويستر ما كان يدبره سرا ، من تجهيز حملة بحرية للهجوم على دمياط .

وبعث إليه الجنرال دوجا يدعوه للصلح . وكأنه فى هذه المرة لم يكن محتاجا للمخادعة . فأجابه بأنه لايريد أن يرى أحدا من الفرنسيين .

ووجد نابليون أنه لابد من إخضاع هذا الزعيم بالحرب . وانه لن يكون له سلطان على بلاد هذه المنطقة . ولن تنتهى مقاومة أهلها وثوراتهم على جنوده إلا بالقضاء عليه . فأمر بتجريد حملتين كبيرتين إحداهما بحرية ، بقيادة الجنرال أندريوس ، والأخرى برية بقيادة داماس ، وجعل الجنرال دوجا قائدا عاما لهما .

واستطاعت هذه الحملة القوية أن تخضع الزعيم الثائر . وأن تدخل المنزلة فى ١٦ أكتوبر سنة ١٧٩٨ . ولما رأى الفرنسيون منازل حسن طوبار ؛ راعهم جمالها واتساعها . ولكنها كانت خالية من سكانها ، فقد استطاع طوبار أن يفر إلى الشام . وكذلك كانت المدينة خالية ، إلا من النساء ، والصبيان ، والعجزة .

وأراد القائد الفرنسى أن يدخل بيوت حسن طوبار ، ولكنه لاحظ المكانة

الممتازة ، التى يحفظها الناس له ولبيوته . فتركها ، واتخذ قيادته فى مكان آخر . خشية أن يغضبوا لحرمة زعيمهم ومنازله .

هاجر حسن طوبار إلى غزة ، وبدأ ينظم فيها أمر المقاومة من جديد . وعلم الفرنسيون فى مصر أنه جهز فريقا من المجاهدين ، وأعد خمسين سفينة لحملهم منها إلى دمياط ، ليهاجموهم فيها . فأخذوا لذلك أهبتهم . ولكن هذه الحملة لم تتم ، لاستحالة نجاحها . وعاد بعد ذلك حسن طوبار إلى مصر بإذن من نابليون . ولعله أذن له ليأمن هجومه على دمياط أو غيرها ، وتحريضه أهل بلاده على تجديد الثورة . ولم يأذن نابليون لهذا الزعيم فى أن يدخل مصر ، إلا بشرط أن يبقى ابنه رهينة عنده فى القاهرة ، وأن يقيم هو فى دمياط .

وعاش طوبار فى دمياط فترة قصيرة ، وكان الجنرال كليبر ، بعد أن تولى القيادة العامة ، يوصى قائده فيها بأن يحذره ، ويتشدد فى مراقبته . ومات فى ٢٩ من يونيو سنة ١٨٠٠

وقد شهد له نقولا الترك ، هذه الشهادة المشرفة حيث يقول : — « تشاهر هذا الشيخ المذكور ، فى خبث النية ، ضد الفرنساوية [١] »

ومما يدل على المنزلة الرفيعة التى كان يتمتع بها طوبار فى نفوس الناس ، ويدل فى الوقت نفسه على شجاعتهم ووطنيتهم ، أن الفرنسيين عندما تغلبوا على مقاومته ، وجاء وفد من رجاله يطلب الصلح . تحدث الفرنسيون إليهم فى أمر زعيمهم فأثنوا عليه أعظم الثناء .

---

(١) ص ٥٥ من « ذكر تملك جمهور الفرنساوية »

محمد المهدى أو الأمير محمد

يسميه المؤرخون محمد المهدى . ويذكره الجبرتى تارة بهذا الإسم ، وتارة بلقب « السكيلانى » كما يلقبه نقولا (بالجيلانى) والأسماء الثلاثة لشخص واحد . ولقب «السكيلانى» أو « الجيلانى » من الألقاب الشائعة فى بلاد المغرب حيث قدم محمد المهدى .

كان هذا المجاهد من مدينة « درنة » فى طرابلس الغرب . عرف بالصلاح والتقوى ، حتى اعتقده كثير من الناس وتبعوه . وامتاز بفصاحة اللسان ، والجرأة والغيرة الدينية . فلما وصلت أنباء الغزو الفرنسي لمصر إلى بلاد المغرب ؟ خرج محمد المهدى قاصدا إليها لينصر أهلها ، ويحارب معهم الفرنسيين . فلما وصل إلى واحة سيوة . التقى فيها بقافلة من الحجاج المغاربة ، فاستولى على قلوبهم بفصاحته ، وقوة شخصيته ، حتى تبعوه ، وجعل منهم جيشه الذى نزل به إلى دمنهور ، وحارب فيها الفرنسيين ، فأبادهم أول الأمر . وكانت هذه القافلة أربعمائة من الرجال الأشداء .

وقد زعم الفرنسيون ، ويوافقهم الجبرتى ، أن المهدى قتل فى حربه مع الجنرال لانوس . ولكن أحد رجال الحملة الإنجليزية التى قدمت مصر بعد ذلك بالاشتراك مع العثمانيين ، لحرب الفرنسيين . وهو السكولونيل « روبرت توماس ولسون » يقول إنه لم يقتل ، وأنه اجتمع بالحملة الإنجليزية عند الرحمانية وسار معها حتى بلغ القاهرة[١] ووصف السكولونيل ولسون هذا المجاهد بأنه لم يكن شخصا عاديا ، بل كان أميرا من أمراء المغرب ، إسمه مولاى محمد . وأنه اجتمع به فوجده رجلا مهيب الطلعة ، نبيل النفس ، أنيق الثياب . وكان يركب جوادا عربيا من أجمل الجياد ، ويضع على رأسه عمامة ناصعة البياض ، ويلبس عباءة فى نصاعة بياضها أيضاً . موشاة بالذهب . تتدلى منها على كتفيه عقود من الحرير الأحمر .

ويؤيد رواية هذا السكولونيل ، فى أن المهدى لم يقتله الفرنسيون ، ماذكره

---

(١) ص ٣٥٦ — ٣٥٧ فتح مصر الحديث .

الجبرتى بعد ذلك فى تسجيله لثورة القاهرة الثانية من أنه اشترك فيها . ويؤيد الرواية فى شقها الثانى ، وهو مكانة الرجل وامتيازه . ماذكره نقولا عند حديثه عن ثورة البحيرة حيث وصف زعيمها هذا بأنه من «الأشراف». أما ما ذكره الجبرتى أولا من قتل المهدى . فلعله سمعه عن الفرنسيين .

وقد ذكرنا بلاء هذا المجاهد ، فى حديثنا عن ثورة مديرية البحيرة .

الشيخ السادات

كان الشيخ السادات ، من أكبر الشيوخ مقاما ، وأعظمهم شأنا ، وأوسعهم جاها وثروة ، وأعزهم منزلة لدى الناس ، ولدى الأمراء على السواء . ولكنه ، مع اختيار نابليون له عضوا فى الديوان ، وزيارته له فى بيته ، كان من أكبر خصوم الفرنسيين ، والمحرضين على الثورة عليهم .

فعند ما قامت ثورة القاهرة الأولى تبين أن زعيمها الأول هو الشيخ السادات . وثبت لديهم ذلك حتى أمر الجنرال كليبر بإعدامه ، ولكن نابليون ردّه عن ذلك مع يقينه من زعامته للثورة ، وقال : إن قتل شيخ فى مكانة السادات يضر أبلغ الضرر بمركز الفرنسين ، ويزيد فى حقد المصريين وكراهتهم له .

ثم قامت ثورة القاهرة الثانية على الجنرال كليبر . وكان السادات من المحرضين عليها . فجاءت فرصة كليبر لشفاء مافى نفسه من السادات . وكان يذكر نصيحة نابليون فلم يقتله . ولكنه أوقع به من العذاب والمهانة شيئا كثيرا . حيث فرض عليه ضريبة فادحة ، قدرها مائة وخمسون ألف فرنك . فلما رفض أن يدفعها أمر بسجنه فى القلعة . وكان ينام على التراب ، ويمشون به على قدميه فى شوارع القاهرة ، ويضرب فى صباح كل يوم خمس عشرة عصى ، ومثلها فى كل مساء . وحبسوا أتباعه وخدمه . وطلبوا زوجه وابنه فلم يجدوهما . فعذبوا خادما له عذابا شديدا حتى دل على مكانهما ، فسجنوهما . ووضعوا معه زوجته فى سجن واحد ، فكانوا يضربونه أمامها ، وهى تبكى . وهاجموا داره ، ففتشوها ، ونهبوا ما كان فيها من مال ومتاع وحفروا أرضها للبحث عما فيها من سلاح ومال . وجعلوا على بيته عشرين حارسا .

وعند ما أعادوا تشكيل الديوان أخرجوه منه .

وبعد أن أزلوه من القلعة عادوا فسجنوه فيها مرة أخرى خمسين يوما ، ثم أخرجوه بعد أن أتم دفع مافرضوا عليه ، ولكنهم عادوا فصادروا جميع ممتلكاته، وإقطاعياته — وكانت شيئا كثيرا — وحبسوا مرتباته وأوقافه هو وزوجاته، وربع الأوقاف التى كانت محبوسة على زاوية أجداده . وشرطوا عليه ألا يجتمع بالناس ، وألا يخرج إلا بإذنهم ، وأن يقتصد فى نفقاته ، وينقص أتباعه .

وعند ماقدمت الحملة التركية الإنجليزية لحرب الفرنسيين سنة ١٨٠١ وعلم الجنرال منو أنها نزلت فى أبى قير ، أمر للمرة الرابعة بالقبض على الشيخ السادات ، حتى لايثير المصريين عليهم . وسجن فى القلعة . وبقى سجينا فيها حتى بارح الفرنسيون مصر .

وقد مات ابنه وهو فى السجن ، فلم يخرجوه ليراه . بل أذنوا له بالسير فى جنازته تحت الحراسة ، ثم عادوا به إلى السجن .

وعند ما أضرت الحرب والحصار بالثائرين فى القاهرة ، التزم السادات بالإنفاق على المحاربين والمجاهدين فى المنطقة التى كان يقيم فيها . عند قناطر السباع .

ومات الشيخ السادات بعد ذلك فى مارس سنة ١٨١٣ فى عهد محمد على . ونجد له ترجمة وافية ، فى الجزء الثانى من الكتاب .

شهداء من العلماء

كانت قيادة ثورة القاهرة الأولى، كما ذكر من قبل ، مقرها الأزهر ، وكان علماء الأزهر وطلبته هم المحرضون عليها ، والمقدمون فيها . فلما انتهت الثورة قتل الفرنسيون ستة منهم رميا بالرصاص . وهم الشيوخ سليمان الجوسقى ، وأحمد الشرقاوى ، وعبد الوهاب الشبراوى ، ويوسف المصيلحى ، وإسماعيل البراوى ، والشيخ عبد الكريم .

أما الشيخ سليمان الجوسقى ، فقد كان من قرية جوسق ، بالشرقية ، بالقرب من بلبيس . اختير شيخا لطائفة العميان وزاويتهم التى كانت تجاور الأزهر . وكان

الجوسقى شديد الصرامة على أهل طائفته ، حتى جمع ثروة طائلة ، وحاز عقارات عظيمة ، وكان إذا طالب أعيان البلاد بمال له عندهم فماطلوه ، بعث إليهم بجيوش من العميان ، فلا يجدون بدًّا من الدفع . وكانت تسير إليه السفن المشحونة بالغلال ، والسمن ، والعسل ، والسكر ، والزيت ، من الصعيد إلى القاهرة . فيطحن الغلال على طواحينه ويبيعه دقيقا . ويعجن نخالته خبزا لفقراء العميان ٠ ويبيع مابقى من السمن والعسل وغيره بالثمن الكثير . وصار الشيخ فى آخر حياته من أعيان الناس وصدورهم ، وأصحاب السطوة فيهم . يلبس الثياب الحسنة العالية ، ويتزوج الكثير من الجميلات . ويقتنى الكثير من الجوارى البيض والسود . ويقرض كبار الناس الأموال الجزيلة .

وعند ما ثار القاهريون على نابليون ، كان الشيخ الجوسقى من أكبر المحرضين وأبرزهم أثرا . وأعتقد أنه هو الذى أشار نقولا الترك إلى أنه كان يدعو الناس للاجماع فى الأزهر غداة الثورة ، ويحرضهم علناً على الكفاح والحرب .

وأما الشيخ أحمد الشرقاوى فكان يدرس لطلبة الأزهر طول يومه ، وكان الفلاحون يجيئون إليه ليفصل فى قضاياهم ، وخصوماتهم ، فيقبلون حكمه ، وربما ضرب غير المستقيم منهم وزجره. فكانوا يقبلون منه ذلك، ويطيعونه . وكان أبوه الشيخ إبراهيم ، يدرس فى الأزهر أيضا .

وكان الشيخ عبد الوهاب الشبراوى تلميذا لكبار العلماء فى عصره . ثم اشتغل بالتدريس فى المشهد الحسينى ، والجوهرية ، وأقبل عليه كثير من العامة يسمعون منه الحديث وفقه الشافعية ٠ وكان حسن الإلقاء ، جيد الحافظة ، جميل السيرة ، قليل الخلطة بالناس .

وكان الشيخ يوسف المصيلحى يلقى دروسه فى جامع الكردى ، بسويقة اللالا ، وكان نجيبا مهذب النفس ، لطيف الذات ، مقبول الطلعة ، خفيف الروح ، حلو الحديث . قتل وهو فى سن الشباب .

وكان الشيخ إسماعيل البراوى متوسط الحال فى العلم ، ولكنه كان لسِناً ، ذكيا . وكان أبوه عالما ، وعمه من كبار العلماء .

أما أخيرهم ، الشيخ عبد الكريم . فلانستطيع أن نعرف عنه شيئا .

أخذ الفرنسيون هؤلاء العلماء الستة ، فسجنوهم فى القلعة ، وفى بيت البكرى ، بتهمة الاشتراك فى الثورة ، والتحريض عليها . ثم أنزلوهم خلسة ، فخلعوا عنهم ثيابهم كلها ، وقتلوهم . ثم قطعوا رؤوسهم ، وألقوا جثثهم فى النيل ، وخفى أمرهم على الناس وقتاما . قبل أن يعرفوا استشهادهم .

ولم يكن هؤلاء العلماء وحدهم هم الذين قتلهم الفرنسيون غدرا وغيلة وظلما ، بل قتلوا غيرهم عشرات ومئات . منهم المصرى ، والتركى ، والشامى ، والمغربى ، ومنهم الحاكم ومنهم الصعلوك . ولكنهم جميعا ماتوا أبطالا وشهداء .

الحاج مصطفى البشتيلى :

وكان من هؤلاء الذين قتلهم الفرنسيون ، الحاج مصطفى البشتيلى . من قرية « بشتيل » المجاورة لإمبابة ، بالقرب من القاهرة . اشتغل بالتجارة فى بولاق ، حتى أصبح من أعيانها ، وكبار تجار الزيت فيها . فلما قامت ثورة القاهرة الثانية ، كان البشتيلى من رجالها . فجعل وكالته مخزنا للبارود يمدّ به الثائرين . وحفظه فى قدور الزيت ، حتى لا يكشف الفرنسيون أمره . ولكن بعض الخونة وشى به عندهم ، فهاجموا وكالته ، ووجدا قدور الزيت مملوءة بالبارود ، فأخذوه ، واعتقلوا البشتيلى وحبسوه ، ثم أطلقوا سراحه بعد انتهاء الثورة ، فلما نقض صلح العريش ، وتجددت الحرب فى القاهرة ، عاد البشتيلى للاشتراك فيها . وكان من أكبر المحرضين عليها . كان يتمنطق فى وسطه بحزام ، وينتقل من مكان إلى آخر ، يقوّى عزائم المحاربين ويجمعهم ويوجههم للحرب ، ويجمع لهم ما يستطيع من سلاح ، وعصى . وكان من أكبر الدعاة للثورة والمحرضين عليها والعاملين فيها . هجم على مخازن الغلال التى خزنها الفرنسيون ففتحها وفرق مافيها على المقاتلين .

وحرض على قتل الرسول الذى بعث به الفرنسيون للصلح . وقاد الثورة التى فتكت بالحامية الفرنسية فى بولاق .

ولما عرض كليبر الصلح على أهل القاهرة ، كان من أكبر المعارضين فيه ، والداعين إلى مواصلة الكفاح والحرب . مهما لقى المجاهدون من بلاء وقتل وتنكيل .

فلما انتهت الثورة ، جد الفرنسيون فى البحث عنه ، حتى وجدوه . فأخذوه هو ووكيله ، وسجنوه فى القلعة وحده . ثم أخرجوه بعد ثلاثة أيام ليقتلوه. وكانت القتلة التى اختارها الفرنسيون لهذا المجاهد ، قتلة فاجرة . حيث جمعوا من بقى من رجاله الذين كان يحرضهم على الكفاح وسلموه إليهم تحت حراسة جنودهم . وأمروا هؤلاء المجاهدين بأن يقتلوا زعيمهم بأيديهم . على أن يطوفوا به ، قبل أن يقتلوه ، أنحاء القاهرة . وقتل المجاهدون زعيمهم البشتيلى ، بالنبابيت . خضوعا لقوة الفرنسيين وجبروتهم .

ووقع فى يد كليبر كتاب أرسله الحاج مصطفى البشتيلى إلى بعض رؤساء الجند ، يقول فيه : إن « الكلب » دعانا إلى الصلح فأبينا . وكان يقصد بالكلب « الجنرال كليبر » . ولعل ذلك كان من أسباب هذه القسوة الفاجرة فى قتله .

وقد كان البشتيلى فى غنية عن خصومة الفرنسيين ، كان فقد غنيا واسع الثراء . فلما قتلوه لم يكن له وارث . وكان عديله الشيخ الدواخلى صديقا لهم قريبا منهم . فاستولى ، بجاهه عندهم ، على ثروة هذا المجاهد العظيم .

عمر مكرم والمحروقى :

ويبدو غريبا أن نترجم للزعماء والأبطال فى هذه الفترة من تاريخ مصر . ونصف السيد عمر مكرم بأنه زعيم مصر فيها . ثم لانجد له مكانا فى صدر هؤلاء الزعماء والأبطال . وكذلك لانجد هذا المكان للسيد أحمد المحروقى ، وكان من أعظم الناس شأنا فى ذلك الوقت .

ولكنى التزمت فى هذه الفصول أن أقدم أبرز من كان لهم أكبر الجهد فى الكفاح . ومن واجهوا ، بسبب كفاحهم هذا ، الموت ، والسجن ، والمصادرة ، والعذاب . ولو كانوا من عامة الشعب ، كحجاج الخضرى . ولم ألتزم ما اصطلح عليه الناس والمؤرخون من تقديم أصحاب المكانة الاجتماعية والسيادة . وذلك فى اعتقادى ، أزكى لذكراهم ، وأقرب لما أريد من تعريف الشعب بماضى كفاحه ، وأصحاب الأثر البارز فى هذا الكفاح .

هذا مع اعترافى بما كان للزعيم مكرم ، والسيد المحروقى ، من جليل الأثر فى ذلك . وتسليمى بأن انحياز واحد منهما للثورة ، أو لخصومها ، أو وقوفه موقفا سلبيا ، كان مما يرجح ، إلى حد كبير ، إحدى الكفتين . وقد انحاز كلاهما إلى جانب الثورة .

أما السيد عمر مكرم ، فقد دعا الناس منذ اليوم الأول لمقاومة نابليون . وصعد إلى القلعة ، قبل موقعة الأهرام ، فأنزل منها البيرق النبوى ؛ وطاف به من القلعة إلى بولاق ، وألوف الناس من خلفه . يستحثهم بذلك على صد المغيرين وحربهم . ويستنفرهم للدفاع عن وطنهم . وكان لهذا العمل منه ، وهو نقيب الأشراف ، أثر أىّ أثر .

فلما هُزم المماليك ، والمصريون . ودخل نابليون القاهرة ، هاجر عمر مكرم إلى الشام . وترك فى مصر أملاكه ، وأمواله الطائلة . ولم يقبل عضوية الديوان التى اختاره نابليون لها .

وبقى فى منفاه الاختيارى ثمانية أشهر فى مدينة يافا ، حتى فتحها نابليون فقربه إليه ، وأكرم لقياه وأعاده إلى مصر عزيزا كريما . فبقى فى القاهرة بعيدا عن الفرنسيين وعن الحياة العامة ، حتى قامت ثورتها الثانية ، فكان من زعمائها . وكان يطوف بالثائرين فى أماكنهم يثبّتهم ، ويشجعهم . ويدعو غيرهم للكفاح والثورة .

ولما انتهت الثورة ، هاجر مرة ثانية ، وخرج من القاهرة مع الجيش العثمانى . ثم عاد إليها مع هذا الجيش ، بعد خروج الفرنسيين ، فتلقاه الشعب بترحيب عظيم . وقد صادر الفرنسيون أموال السيد عمر مكرم ، فى كل مرة هاجر فيها . ولما عاد فى المرة الأولى ، تركوا له بعض ماله ليعيش منه . ولم يطالبهم هو بما بقى .

وكانت للسيد عمر مكرم مواقف كريمة فى مجابهة الظالمين من المماليك ، والعثمانيين. كما كان زعيما موجها للشعب — على طريقته وطبيعة نفسه من الهدوء ، والقصد فى العنف — كان زعيما فى الثورة التى ثارها الشعب على المماليك بعد خروج الحملة الفرنسية بثلاث سنوات . كما كان له أكبر نصيب فى اختيار صديقه محمد على وتمكينه من حكم مصر . وهو الذى ألبسه ، مع الشيخ عبد الله الشرقاوى ، خلعة الولاية ، باسم الشعب ، فى بيت القاضى سنة ١٨٠٥ . ولكنه كان كثير المعارضة لمحمد على ، بسبب مظالمه . ولما كثر سخط الناس على هذه المظالم . وشكا العلماء ، والسيد مكرم ، ذلك إليه . أرسل محمد على إليهم ليقابلوه . فامتنع السيد عمر . وظل يرفض الذهاب إليه ستة أسابيع . وأراد هذا أن يغريه بالمال . فوعده بأن يرتب له فى كل يوم كيسا ، أى أربعين جنيها ، ولكنه رفض . وأبى أن يذهب حتى يرجع محمد على عما فرض على الشعب من الضرائب الظالمة ، فأرسل إليه محمد على رسالة خاصة لمقابلته فأجابه عمر مكرم بأنه على استعداد لأن يقابله فى بيت الشيخ السادات . فذهب محمد على إلى بيت ابنه إبراهيم . وطلب العلماء فحضروا إليه ، ولم يحضر السيد عمر .

وانتهى الأمر إلى الخصومة بينهما ، حتى خلعه محمد على من نقابة الأشراف ، وأمر بنفيه إلى دمياط فى أغسطس سنة ١٨٠٩ فحزن الناس لذلك حزنا شديدا ، وخرجوا لوداعه حين سافر من بولاق ، لأنه لقى ما لقى فى سبيل الدفاع عنهم . وبقى السيد عمر منفيا فى دمياط نحو ثلاث سنين ، ثم أمر محمد على بنقله إلى طنطا. فبقى فيها أربع سنين . وكان فى منفاه منعزلا عن الناس ، كثير القلق والشكوى

مما يفعل محمد على بأهل وطنه . يتألم لأنه كان سببا فى تمكينه من الولاية . فلما
كانت سنة ١٨١٨ أرسل السيد عمر رسالة مع حفيده السيد صالح يهنىء فيها محمدا عليا
بالنصر الذى أحرزه فى حروب الحجاز . فلقى محمد على الحفيد والرسالة أكرم لقاء .
وذكر صديقه القديم بالإكبار والثناء وقال : إنه أبى ، ولم أتركه فى هذه الغربة
الطويلة الشاقة إلا مخافة الفتنة . لأنه كان يحرك الشعب ضدى وهو مسموع الكلمة
عنده . وأرسل محمد على إليه كتابا رقيقا فى منفاه ، يحييه ، ويأذن له فى أداء
فريضة الحج ، كما طلب .

ثم أطلق سراح الزعيم مكرم ، فعاد إلى القاهرة شيخا فانيا فى يناير سنة ١٨١٩ ،
ففرح الناس بقدومه أشد الفرح . واحتفوا به أكبر احتفاء .

ونجد فى مواطن أخرى من الكتاب ، بعض مواقف هذا الزعيم ، وخاصة
فى حرب خورشيد باشا .

وأما السيد أحمد المحروقى فكان تاجرا كبيرا ، بل كبير تجار القاهرة ، وأوسعهم
ثراء وأكثرهم مالا . وكان حريصا على مكانته هذه وثروته . لذلك حرص على أن
يكون قريبا قوى الصلة بأصحاب السلطان ، حتى الفرنسيين ، فقد اتصل بنابليون ،
وصحبه حين سافر إلى السويس قبل غزوه الشام .

ولكننا نسجل له موقفه من مساعدة الثورة التى قام بها أهل القاهرة على
كليبر . فقد بذل فى ذلك مالا كثيرا ، وكان ينفق على المحاربين ، ويطعمهم ،
ويشترى لوازمهم كلها ، وأدوات حربهم . وحبسه الفرنسيون فى القلعة مع العلماء ،
وظل فى محبسه مائة يوم . ولما انتهت الثورة هاجر مع العثمانيين ، فصادر الفرنسيون
جميع ما يملك . ولم يعد إلى القاهرة إلا بعد جلائهم عنها .

وكانت للسيد المحروقى يد أخرى على العثمانيين فى حربهم للفرنسيين . فقد
ظل وهو فى منفاه بالشام ، دائم الاتصال بأصدقائه ، وعماله فى مصر . يستطلع
أخبار الفرنسيين ، ويتعرف أمورهم ، ويقدم ما يعرف من ذلك إلى العثمانيين .

فكانت لهم من ذلك فائدة عظمى . ولما قدم جيشهم القاهرة كان يوسف باشا المعدنى ضعيف الهمة قليل الخبرة وجيشه لا ذخيرة عنده ، ولا مدافع . فلما نقض الفرنسيون صلح العريش ، واشتد القتال بين العثمانيين وأهل القاهرة ، وبين الفرنسيين ، جمع المحروقى الذخيرة والمدافع . وقدمها للجيش وللثائرين . وهذه الذخيرة والمدافع ، هى التى مكنت يوسف باشا وأهل القاهرة من الدفاع عن مدينتهم ، ومقاومة حصار الفرنسيين لها أربعة وثلاثين يوما . ويقول الجبرتى : إن السيد المحروقى بذل فى ذلك « ما لا يدخل تحت طوق البشر » .

ومات المحروقى فى يناير ١٨٠٥ (٢٢ من شعبان ١٢١٩ هـ) .

عبرة الأيام والحوادث

إنك ، ياهنيبال ، تستطيع أن تنتصر .
ولكنك لا تعرف كيف تفيد من انتصاراتك ...

* * *

يقول ابن دريد فى مقصورته العظيمة : —

من لم يعظه الدهر ، لم ينفعه ما راح به الواعظ يوما ، أو غدا

والأمم كالأفراد ، يجب عليها — لكى تستقيم حياتها وتفلح — أن تعرف مواضع العبرة من حياتها وتاريخها وأيامها .

فهى عندما تعرف خطأها وصوابها فى ذلك . تأخذ من ماضيها لحاضرها . ومن كليهما لمستقبلها . وما أشد حاجتنا نحن لاستخلاص هذه العبرة من تاريخنا .

فما هى عبرة الأيام والحوادث فيما قصصنا من فصول هذا الكتاب ... ؟

أما أولى هذه العبر ، فهى تلك الروح السمحة الكريمة التى بدت بين المصريين ، فلم تجعل لفوارق العقيدة مدخلا فى نفوسهم . على الجملة .

فقد كانت أوضاع الحياة ، وتقاليد الناس وثقافتهم ، تجعل للعقيدة الدينية سلطانا كبيرا فى العقول والقلوب . كما تجعل لها أثرا بارزا فى التصرفات والاتجاهات . ولما جاء نابليون وجيشه ، كان طبيعيا أن يجد فى مصر من يلقاه بهذه العاطفة الخاضعة لهذه العقيدة . بدل أن يلقاه بالعاطفة الوطنية . كما فعل المعلم يعقوب ، أو الجنرال يعقوب . لذلك قلت : على الجملة .

ولكننا نجد أيضاً كثيرا من المصريين المسلمين ، تلقوا نابليون وجيشه بعاطفة لا هى بالوطنية ولا بالدينية . بل نجد من علمائهم من كان كذلك ، كما

سيجيء بعد قليل . وكلا الأمرين شأن طبيعى لاغرابة فيه . ولايسىء إلى تاريخنا، وشعبنا . ولا يجرح أى كرامة له .

اليهود والنصارى :

أما تلك الروح السمحة الكريمة ، التى هى أولى العبر . فنحن نجد أمثلة كثيرة منها. نجد بعض المسيحيين يسجن فى القلعة مع المسلمين لحربه الفرنسيين. كما سجن المعلم نقولا ، وكان رجلا ذا مكانة . ونجد الأقباط يحاربون ويقتلون فى معركة إمبابة ضد نابليون. ونجد كذلك ستة من اليهود — كما أحصاهم أمين باشا سامى [١] — قتلهم الفرنسيون خنقا، أو رميا بالرصاص ، لأنهم حاربوهم . كما نجد ذلك فى قصة الشيخ الصاوى والقبطى . وخلاصتها أن الفرنسيين رموا رجلا من الأشراف ، وقبطيا ، بتهمة أنهم يروّجون أنباء ضدهم وفرضوا على كل منهما مائة ريال . فإذا لم يدفعا قطع لسانهما. وتشفع العلماء فى القبطى والشريف فلم تقبل لهم شفاعة . فطلبوا أن يطلق سراحهما وأن يلتزم العلماء بدفع الغرامة ، فرفض الفرنسيون . فأرسل الشيخ مصطفى الصاوى، وكان من الشفعاء، وأحضر مائتى ريال دفعها للفرنسيين ، فدية القبطى والشريف . وكأن الفرنسيين أخجلهم مافعل الشيخ. فردوا عليه ماله . وكان قد أخذه من آخر ، فرده له . وكان الشيخ الصاوى من أعضاء الديوان الذين اختارهم نابليون .

وعندما أنشأ الفرنسيون هذا الديوان ، ليحكموا مصر عن طريقه ، أثاروا فى جلسة من جلساته أمر المواريث عند النصارى . وأثاروا بذلك شيئاً من خلاف بين العلماء وبعض القبط من أعضاء الديوان. ولعل ذلك ما أرادوه. ولكن ميخائيل كحيل الشامى ، وكان من أعضاء الديوان ، أعلن أن النصارى يتركون للعلماء أمر المواريث لأبناء طائفتهم وملّتهم وانتهى الأمر على ذلك .

---

(١) تقويم النيل ، الجزء الثانى . فى أثناء تسجيله لحوادث الاحتلال الفرنسى .

نجد كذلك ، من اليهود ، من يعرض نفسه للموت ، ثم لا يفشي سراً ائتمن عليه . ولا يخون زعيما مجاهدا من أشراف المسلمين . فقد أمر نابليون ، كما رأينا من قبل ، بإعدام السيد محمد كريم ، زعيم الإسكندرية ، وأن تستصفى أمواله . فجاء كليبر بأخيه ، وبحاسب أمواله ، وكان يهوديا ، وهددهما بالقتل حتى يبوحا بما خبأ السيد الشهيد من مال ، فأبيا ، ولم يبح أيهما بشيء .

وقد اختار السيد محمد كريم — وهو زعيم وشريف وحاكم — هذا اليهودي أمينا على ماله . فميّزه وأكرمه ، وأبره . فكان جديرا به أن يحفظ أمانته ، ويرعى عهده ، ويصون سره . وقد فعل .

كانت العاطفة الوطنية إذن ، هي التي سيطرت على المصريين ، عندما كان وطنهم في محنة الاحتلال . ولكي ندرك مبلغ هذه العاطفة من القوة ، نذكر — إلى جانب ما أسلفنا من شعور الإخاء والمودة والتضامن بين عناصر المصريين على اختلاف عقائدهم — نذكر ما فعل أهل القاهرة بالسيد خليل البكري . فبهذه المقارنة ، نستطيع أن نصل إلى شيء كثير .

الكرامة للمخلصين :

كان السيد خليل البكري ، يجمع إلى شرف النسب ، جاه المال ، وجاه المكانة الاجتماعية الممتازة . فكان واسع الثراء ، مترفا في معيشته . ونقيبا للأشراف . وهو منصب من أرفع المناصب ، وأعلاها شأنا . ولكن الشيخ لم يشارك شعب مصر إحساس الكراهية والبغضاء للفرنسيين . بل كان قريبا إليهم وصديقا لهم ولنابليون خاصة . وعندما قدم هذا من غزوة الشام ، أهدى إليه الشيخ جوادا عربيا أصيلا ، له سرج مطرز بالذهب ، والياقوت واللؤلؤ . يقوده رستم المملوك ، الذي كان له بعد ذلك شأن كبير مع نابليون في فرنسا بل في أوربا كلها ، كما أهدى إليه الشيخ عددا من الجواري البيض والسود . وكثيرا من الأسلحة المذهبة . وغير ذلك شيء كثير . فعل الشيخ ذلك بعد ثورة القاهرة الأولى ، التي لقي فيها مواطنوه من قبل ، من أصدقائه الفرنسيين ما أجملنا ذكره .

وأسخط ذلك كله المصريين على السيد الشيخ ، وزاد فى اشمئزازهم وغضبهم ، ما عرفوه عن ابنته زينب [(١)] . وما كان منها مع الفرنسيين ، أو مع نابليون نفسه . فذهبوا إلى بيته فنهبوه . ثم أخرجوا الشيخ ومعه حريمه وأولاده ، فساقوه فى شوارع القاهرة حافى القدمين ، عارى الرأس . والناس من حوله ومن خلفه يسبونه ، ويشتمونه ، ويلقون فى أذنيه أوجع القول وأشده إيلاما . ولم يستطع الشيخ وأهله أن ينجوا من غضب الناس إلا على يد السيد أحمد محرم ، وكان تاجرا كبيرا ، فقد أخذه وآواه فى بيته ، ومعه أهله ، حتى انتهت الثورة .

وكان رجال الثورة يتهمون الشيخ بأنه يرسل الطعام من بيته إلى الفرنسيين المحاربين .

وهكذا كان شعب مصر فى ثورته . نسى كل شيء ، ونحّى كل عاطفة ، إلا عاطفة الوطنية . فالمجاهد ، عنده ، أخ كريم مرعىّ الجانب ، ولو كان غير مسلم . والذى ينحرف وينحاز إلى جانب أعداء الوطن ، خصم ، ممتهن ، مهان . ولو كان سيدا عظيما ، وشيخا كبيرا ، وغنيا واسع الثراء . ونقيبا للأشراف .

وهذا غاية ما تصل إليه الوطنية من قوة ، ومن سداد ، وحسن إدراك .

سماحة وشرف :

وعبرة ثانية نجدها فى حوادث هذه الأيام من تاريخنا . وهى سماحة أهل مصر مع غير المحاربين من الأجانب .

فقد قدم الفرنسيون مصر فاتحين غازين معتدين . وكان ذلك كفيلا بأن يثير حقد المصريين وغضبهم على الأجانب جميعا ، وعلى الفرنسيين خاصة . وأن يدعوهم إلى كثير من الانحراف ، والشطط أيضا فى هذه الخصومة .

ولكننا نجد ، بدلا من ذلك ، السماحة والمروءة وشرف الخصومة . ونجد من هذه الصفات النبيلة ، عند شعبنا ، حديثا عجبا .

---

(١) نجد تفصيل قصتها فى الفصل الخاص بالحياة الاجتماعية . الجزء الأول ص ١٨١ — ١٨٢

كانت الثورة عنيفة أشد العنف ، قاسية أبلغ القسوة . فى حربها للمعتدين من الفرنسيين . وكانت كريمة أعظم الكرم ، سمحة أطيب السماحة . مترفعة ، نبيلة إلى أرفع ما يسمو إليه النبل والمروءة ، مع المسالمين منهم .

ومن أبرز مظاهر هذا النبل ، أن أهل مدينة المنصورة ، عندما هاجموا معسكر الفرنسيين فيها وحرقوه . شاهدوا سيدة فرنسية ، ومعها ابنة لها ، تفران من النار والحرب . فأخذهما الثائرون ، برفق ، ومحبة ، وحفظوا عليهما حياتهما . وردّوا عليهما أمنهما . ثم نقلوهما إلى قصر شيخ كبير من زعماء هذه المنطقة واسع الثراء . اسمه « أبو قورة » فتزوج الفتاة . وبقيت زوجاً له عشر سنين . وولدت له . فلما مات تزوجها أخوه . وظلت تذكر زوجها الأول بكل خير . حتى ماتت بعده بست وعشرين سنة .

وقد نقل على باشا مبارك فى خططه ، عن كلوت بك ، أنه زار هذه السيدة فى أواخر عمرها . ولقى إبناً لها من زوجها المصرى . وعرف منها أنها إيطالية ، ولدت فى البندقية . وكان اسمها الأول « چوليا » وسمع منها كلوت بك تفصيل ما لقيت من إنقاذ الثائرين لها ، وبرهم بها . وما لقيت من كرم زوجها وعطفه ومودته . قبل أن يتزوجها . ثم ما لقيت من رغد العيش والنعيم ، وهى زوج له .

ومن ذلك ما فعله أهل القاهرة فى ثورتهم الأولى . من حمايتهم الفرنسيين المسالمين من بطش الثائرين . فقد لجأ كثير منهم إلى بيوت أهل الطبقة المتوسطة فنجوا من الموت ، ووجدوا عندهم الأمن والطمأنينة والرعاية . وشهد الفرنسيون أنفسهم بذلك .

وذكر فيفيان دينون — عضو المجمع العلمى الفرنسى — أن المصريين أظهروا فى هذه الثورة ، أسمى عواطف الإنسانية والمروءة . نحو الفرنسيين الذين احتموا بهم ، وخاصة بالطبقة المتوسطة منهم ، فكانوا يأوونهم . ويتكفلون بحاجاتهم . ويدفعون عنهم عدوان الثائرين . وقص فيفيان فى ذلك قصة مؤثرة . هى أن سيدة

مصرية ، فى حى الناصرية ، أباحت له ولمن حوله من رجال المجمع العلمى أن يهدموا حائطاً بينهم وبينها ، ليستطيعوا دخول دارها ليحتموا فيها .

كما ذكر قصة أخرى عن رجل مصرى ، قدم لهم كل حاجتهم من الطعام حيث لم يكن يباع أو يشترى . وفعل ذلك متطوعاً دون أن يطلبوا منه ذلك . ومحا كل دليل يرشد إلى مكانهم . ثم جلس بعد ذلك يدخن «الشبك»، الغليون ، ليصرف عنهم الأنظار . وذكر أن بعض المصريين وجد فرنسيين أعزلين ، وخافوا أن يفتك بهما الثائرون ، فأرادوا أن ينقذوهما . ولكن الفرنسيين أساءا بهم الظن : فلم يجد المنقذون بداً من خطفهما ، فلما أبديا العصيان والمقاومة وظهر عليهما الخوف ، قدموا إليهما أطفالهم، ليطمئنا . ثم نقلوهما إلى بيت آمن ، ونجيا .

هكذا رعا المصريون العزل من الفرنسيين ، وكان مواطنوهم من الجنود يهدمون القاهرة بالمدافع . ويهدرون دم النساء والأطفال من أهلها . ويعلقون الأبطال من رجالها فى المشانق ويلقونهم فى النيل .

وهكذا بلغ المصريون أرفع ما تصل إليه نفوس الناس من الصفاء والبر والمروءة والشمم والشرف وطهارة القلب . أرفع ما تبلغه نفوس الناس من هذه الفضائل فى أيام أمنهم وسلامهم وهدوئهم . فكيف وقد بلغوه فى أشد أيام المحنة والقتال .

وذكر المؤرخون أنه عندما دخل الفرنسيون مصر ، كان فى القاهرة وحدها ، من الأجانب إثنان وعشرون ألفاً ، وأربعمائة من الفرنسيين . وكان الجميع يعيشون فى أمن وسلام مع أهل القاهرة . وقد بقى ، بعد خروج نابليون ، كثير من الفرنسيين الذين قدموا معه ، آثروا أن يعيشوا فى مصر ، لما وجدوا عند أهلها من السماحة والنبل وكرم الخلق .

وقد بلغ من سماحة المصريين ، أن أذنوا لهؤلاء الفرنسيين فى أن يحتفلوا بعيد نابليون — فى سنة ١٨٠٧ — أى بعد جلاء الفرنسيين عن مصر كلها بست سنوات ، بإقامة مهرجان فى « حارة الفرنساوية » وأولم الفرنسيون فى مهرجانهم

هذا ، الولائم . وأوقدوا القناديل فى وسط القاهرة ، وأشعلوا الصواريخ والألعاب النارية فى سمائها .

وهؤلاء الفرنسيون الذين آثروا أن يعيشوا فى مصر . والذين أكرمهم أهلها كل هذا الإكرام ، هم الذين قدمت جنودهم إلى مصر غزاة فاتحين . ولعل كثيرين منهم أيضاً ، شاركوا فى حرب أهلها .

وهم الذين أشقوا أهل مصر — وأشقاهم أهل مصر كذلك — ثلاث سنين فى حرب لا تهدأ ولا تلين .

أما المصريون والمماليك الذين هاجروا من مصر إلى فرنسا حين خرج نابليون ، فقد قام عليهم أهل مرسيليا ذات ليلة فقتلوهم جميعا .

هذه مروءة المصريين ، أو سهولتهم وليونتهم فى عصر كان فيه العالم كله ، أقرب إلى التعصب الضيّق منه إلى السماحة الكريمة الرحبة . وكان الناس فيه ما زالوا قريبين إلى بقايا الحروب الصليبية . وما تزال أصداء الأجراس ، التى دعا إلى دقها بطرس الراهب ، باقية فى آفاق أوطانهم . وما يزال آباؤهم وأجدادهم يحدثونهم عن وقائع من هذه الحروب ، فى دمياط وغيرها من الثغور . وما يزال « فرسان مالطة » يحتجزون أسراهم . ويتربصون بسفنهم فى البحر الأبيض . متأثرين بهذه الحمى التى ملأت بها رؤوسهم نواقيس بطرس الراهب . كما ذكرنا ذلك فى الجزء الأول من الكتاب [1] .

فى هذه الأيام نفسها ، وتحت تأثير هـذه المشاعر التى توحى بالانحراف والشطط . لم يجد غير المسلمين فى مصر ، إلا الأخوة ، والمعزة والكرامة :

وعبرتنا من هذا كله ، أن نذكر ، على الدوام . هذه الفضائل النادرة التى هى بعض خصائص شعبنا ، وبعض عيوبه أيضا . وأن نجعل من هذه الفضائل ، دستوراً لنا ومنهاجاً فى كل وقت وآن . وان ندرك منها المثل والعبرة حتى نكون على بصيرة من أمرنا فيما نأخذ وندع .

---

(١) ص ١٥٤ — ١٥٥ .

ومن العبر ، والظواهر ذات الدلالة على طبيعتنا وخلقنا ومنهج تفكيرنا . ما ندركه من قصة السيد حسن كريت ، بعد أن هزم هو وأهل رشيد ، الحملة العسكرية الإنجليزية . فنحن نجد من حديثه الذى فصلناه [1] أن الأتراك عادوا إلى رشيد ، بعد هزيمة الإنجليز التى لم يشاركوا فيها ، فعاثوا فيها فسادا ، واستولوا على خيراتها . وقتلوا رجالها ، واستباحوا نساءها . فلم يفعل بهم السيد كريت وأهل رشيد ، مثل ما فعلوا بالإنجليز . بل أرسل إلى العلماء فى القاهرة يستغيث ويستجير ويستنجد . وكان موقفه الذى عدّ من مواقف الشجاعة ، أنه حاج هؤلاء العثمانيين بقوله ولسانه . وكانت حجته فى دفع شرهم أنه هو وأهل رشيد ، هم الذين حاربوا الإنجليز وردّوهم عن وطنهم «لينصروا العثمانيين ... !» وهكذا قال . ولم يقل :— لنحرر وطننا وأنفسنا .

وكان أكبر ما هدد به حسن كريت ليخيف العثمانيين ، أنه سيترك مع أهل رشيد ديارهم وبلادهم ومساكنهم لهؤلاء العثمانيين ... ! كأنه يقول :—

فلن تجدوا عند ذلك من يعمل ومن يخدم ومن يفلح الأرض ومن يدفع الأموال والمغارم ... ! وهذا مثل من أبرز الأمثلة للإستسلام و «السلبية» فى حياتنا وأخلاقنا .

ولو أن أهل رشيد حاربوا العثمانيين كما حاربوا الإنجليز ، أو حاولوا ذلك ، ولو أن واحدا منهم قتل أو غالَ عثمانيا كبيرا كما فعل سليمان الحلبى بكليبر ، لو أن قومنا يوم ذاك فعلوا ذلك أو حاولوه . ما لقوا هذا الذى لقوا من الهوان والذل والعذاب . وما وقع بهم ما وقع على يد العثمانيين ، وعلى يد محمد على بعد ذلك بقليل .

وهذه ظاهرة من اليسر ، أو التهاون ، ذات دلالة كبيرة يجب ألا يفوتنا تسجيلها ونحن نتحدث عن عبرة الأيام والحوادث من تاريخنا الحديث . وهى ظاهرة نجد لها كثيرا من الأشباه والنظائر فى هذا التاريخ .

---

(١) ص ١١٦ — ١١٧ من هذا الجزء .

عبرة العبر :

أما ختام هذه العبر · بل هو عبرة العبر فيما قصصنا من قبل ، فهو النتائج التى كانت تنتهى إليها ثورات هذا الشعب وكفاحه .

فقد رأينا أن شعب مصر كان يثور على حكامه الظلمة ويوجههم أول الأمر بالحسنى . كما كان يفعل العلماء وأهل الرأى · ثم يزجرهم ويقسوا عليهم فى القول والنصيحة ، كما فعل السادات والدردير وعمر مكرم وغيرهم · فإذا لم تفدهم الحسنى ، ولم يقوّم الزجر عوَجهم . قومتهم أيدى الشعب ، ورماحه وبنادقه · كما فعل بالسردار فى الإسكندرية ، وبياسف والشعراوى فى القاهرة . أو نحّاه الشعب ونزعه من عرشه وسلطانه كما فعل بالدفتردار وخورشيد .

فعل شعبنا ذلك بالظالمين . ولكن الظلم لم ينقطع . وجاء غيرهم فسار سيرتهم وظلمهم . ذلك لأن الشعب كان طيب السريرة ، يسارع إلى حسن الظن بالناس فينخدع فيهم . وكأنه كان حسبه أن يقتص من الظالم ، لا أن يمنع وقوع الظلم ، وشتان بين الأمرين · ولو أن أمثال الشيخ الدردير ، والسادات ، وعمر مكرم ، ممن قادوا ثورات الناس أو عبروا عن سخطهم وغضبهم ، لو أن هؤلاء وضعوا لهم منهاجاً يحرصون على تحقيقه . وغاية تسعى لها ثوراتهم، حتى إذا تحققت حرصوا على بقائها ، ونمائها . وجعلوا عليها حراساً من يقظة الشعب واستعداده للبذل والتضحية . لو أنهم فعلوا ذلك أو شيئاً منه ، لما بقى فى مصر هذا الحال الذى وصفناه ، كلّ هذا الزمن: حتى وثيقة حقوق الإنسان ، نالها الشعب ولم يصنْها .

ولقد سبق لرجل من أقطاب الاستعمار الإنجليزى — ولعله لورد ملنر — أن قال عن حركتنا الكبرى فى سنة ١٩١٩ : — إن ثورة المصريين يطفئها قليل من الماء · بل هو لم يذكر الماء · فقد ذكر لفظاً آخر قبيحاً لا أريد أن أعيد ذكره .

ولكن من الإنصاف أن نذكر ظروف الناس ، وأحوالهم فى ذلك الزمن · فقد كان من العسير عليهم أن يقوموا بثورة شاملة ، كالثورة الفرنسية · وكانت

العاطفة الدينية ، التى تجمع بينهم وبين المماليك ، والعثمانيين ، تلطف من حدة هذه الثورات . وتجعل الشعب أميل إلى افتراض الصلاح والاستقامة والعدل ، عند من يزعم ذلك لهم من أولئك الحكام .

وكان ذلك خطأ لا شك فيه . ولكن له ما يبرره بعض الشيء . على ضوء الظروف والملابسات التى كانت تسيطر على الناس . وكان ضعف الثقافة ، وضيقها . وانعدام المواصلات الحديثة . من الأسباب التى تجعل الثورة محدودة ببيئتها ومكانها .

ولكن العبرة ، أو الخطأ الأكبر . كان فى تراخى الشعب عن جنى الثمرات التى هيأها له جهاده ، بعد خروج الحملة الفرنسية .

فقد كافح الشعب الفرنسيين ، وبذل فى ثوراته عليهم ما بذل من ماله ومن دمه . وآتت هذه الثورة أكلها ، وأثمرت ، أو كادت ، ثمرة الحرية . ولكن الشعب لم يرعها ، بعد نجاحها . ولم يسهر عليها . فجفّت شجرة الحرية ، بعد أن أورقت ، وتساقط ثمرها . وقد أينع .

مقاومة الشعب وكفاحه ، هما اللذان أخرجا جيش نابليون من مصر :

١ فالمماليك وقفوا فى موقعة إمبابة ساعة أو بعض ساعة . ثم فر بعضهم إلى الشام ، مع إبراهيم . وبعضهم إلى الصعيد ، مع مراد . ثم عاد هذا فقبل أن يكون واليا على الصعيد تحت الراية الفرنسية . وكان لهم واليا ذليلا يترضاهم من كل سبيل . وجيش الدولة الذى أرسلته لحرب نابليون وإخراجه . كان زاهداً فى الحرب غير راغب فيها ، ولا قادر عليها . وكان قائده ، يوسف باشا ضيا ، حريصاً كل الحرص على ألا يحارب جنود فرنسا . كان — كما يقول نقولا الترك — «باذلا جهده بإخراج الفرنساوية ، من المملكة المصرية . من غير حرب ولا قتال . فكان يريهم الحرب والمصادمة ، ويتهددهم بالأوامر الصارمة . وأما قصده فكان أن يخرجوا بسلام . وتستخلص دار الكنانة[1] » .

---

(١) ص ١٣٩ — ١٤٠ ذكر تملك جمهور الفرنساوية .

هذا ما فعله المماليك ، وفعله قائد جيش الدولة . وتحت أمرهم الجند الكثيف ، والسلاح الوافر ، والمدافع الكثيرة . أما شعب مصر ، فلم يكن له من سلاح ، إلا العزيمة والإيمان ، والتصميم . والبنادق الخربة ، والعصى والحجارة . فلما انتصر الشعب ، بعزمه وإيمانه وتصميمه ، تخلى عن رعاية الثورة ، أو موالاتها ، وترك أمر الصلح — وهو ثمرة كفاحه — لرجال الدولة .

نجد فى مفاوضات الصلح ووثائقه ، أسماء الجنرال سميث ، واللورد كايط ، الإنجليزيين . ومصطفى كوسا ، الباشا التركى الذى أخذه نابليون أسيراً مع ابنه ، ويوسف الترزى الأرمنى ، وحسين باشا قبطان ، والقائد بليار الفرنسى . والذى يضع شروط الصلح هو الصدر الأعظم يوسف باشا ضيا المعدنى ، الذى يتحاشى الحرب ، ومعه اثنان من رجاله . ولم يشترك فى هذا الصلح ، ولا فى تحرير شروطه ، أحد من رجال مصر ...

ولم يرد لمصر ذكر فى هذه الشروط ، إلا بأنها عادت ، مرة أخرى ، تابعة للدولة . وأن عليها نفقات خروج الحملة الفرنسية من البلاد . وكانت هذه النفقات نحو ١٥٠ ألف جنيه . « اجتهد السيد أحمد المحروقى فى توزيعه على الناس ، وجمعه فى أيام قليلة . فكان من توجه عليه مقدار من ذلك ، اجتهد فى تحصيله ، وأخرجه عن طيب قلب ، وانشراح خاطر . وبادر بالدفع من غير تأخير . لعلمه أن ذلك لترحيل الفرنساوية . ويقول : سنة مباركة ، ويوم سعيد »[1] وتكتب وثائق الصلح باللغتين الفرنسية والتركية دون العربية .

ويدخل يوسف باشا القاهرة فى موكب سلطانى حافل ، لم تر القاهرة مثله ، من أيام سلطانها ومجدها . فنجد أمامه الصفوف الكثيرة المختلفة من الجند . الأرنؤود ، والانكشارية ، والشامية ، والمماليك ، والمغاربة ، والقليونجية . ونجد أسماء الأغوات ، والكتخدا ، والخازندار ، والجمدارية ، والشاويشية . ثم نجد

---

(١) ص ٩٢ الجزء الثالث من الجبرتى . طبع المطبعة الشرفية .

العلماء وشيوخ التكايا والدراويش . تجدهم للرمز والبركة وإبراز فخامة الموكب . لا للإقرار بأن الدولة صارت لأهلها . وأن الشعب أصبح السيد المهيمن .

خرج الفرنسيون آخر الأمر . ولكن مصر ، التى لم ترع ثورتها ، ولم تسهر عليها . لم تجن ثمرة الحرية التى سقاها شعبها بدمه . وبذل فيها من الأرواح والأموال ، هذا البذل الكريم الرائع المشرف ، فعادت إلى حكم الدولة . ولحق بالناس فى القاهرة من الظلم والعذاب ما نقرأ اليوم صفحاته فتضيق صدورنا ، وتدمع عيوننا ، وتكاد أن تنشق مرائرنا من الحزن . وامتد بعد ذلك ظلم رجال الدولة . إلى الأقاليم . وعادت إلى هذه وتلك ، سمات حكمهم ، من الاستبداد والظلم ، والتسلط والغلظة .

ذلك لأن الشعب لم يرع ثورته ، ولم يحرص على جنى ثمراتها . وقد حان قطافها .

وإنى لأذكر هنا من مقصورة ابن دريد قوله : —

من ترك الحزم ، جنى لنفسه ندامة ، ألذعَ من سفع الذكا

أى النار .

وكذلك فعل شعبنا الطيب مع محمد على . نصره على المماليك ، وعلى رجال الدولة . ولقى فى سبيل ذلك ما لقى من البلاء والعنت والمحنة . ولما جاء الإنجليز لحربه . كان على وشك أن يفر إلى الشام ، ويترك مصر ، ويودع ما كان يبنى لنفسه فيها من أحلام المجد والملك . فحارب الشعب الإنجليز حتى دحرهم . ولكنه ترك ثمرات نصره فجناها محمد على . وسقا الشعب ، بعدها ، الصاب والعلقم . وسامه العذاب . وبقينا فى هوة سحيقة مظلمة ، قرناً ونصف قرن . وسقط علينا فى هذه الهوة ، بل سطا علينا ، الاحتلال الإنجليزى ، بجناية توفيق وخيانته .

وكان استيلاء هذا الرجل على حكم مصر ، وسلوكه فيه بعد ذلك ، هو عبرة العبر من هذا كله .

ولكى ندرك مقدار الردّة ، ومدى الخذلان الذى أصاب وطننا بعد كفاحه هذا ، باستيلاء محمد على على مقاليد الحكم ، بالغدر والخديعة والمداهنة ، لكى ندرك ذلك ونقدره حق قدره ، نخصص مابقى من هذا الكتاب لذكر صفحات من سيرته · وهى ليست تاريخا له ، بل هى صفحات قليلة تومىء وتشير ، وتدل على كثير .

وقبل أن أبدأ هذه الصفحات ، يجب أن أذكر أنها « صفحات من سيرته » كما سجلها الجبرتى . وليست تاريخا لحياته ولا لحكمه . والجبرتى ، على الرغم من أمانته ودقته وإخلاصه ، لا يصلح أن يكون مصدراً منفردا لتاريخ محمد على . لعدة أسباب . منها أنه لم يكن محايدا فى حديثه عنه ولا فى شعوره نحوه · فهو وأبوه من قبله صديق حميم للمماليك · وهو محب غاية الحب ، معجب كل الإعجاب بالألفى منهم خاصة · والألفى هو ألد الخصوم لمحمد على · ومنها أن اتصالاته بمحمد على وشيعته كانت مقطوعة أو معدومة · فكان حكمه عليه قائما على السماع والعاطفة . ومنها أن التاريخ الصحيح لا يكتبه المعاصرون . لأن الحوادث والأشخاص · لا تستبين لهم على حقيقتها ، ولا يخلو حكمهم من الشطط فى الميل والانحياز والمدح · أو من عكس ذلك ونقيضه .

على أن الجبرتى لم يشهد سوى فترة من حكم محمد على · كانت أمامه فيها أوضاع خاصة عالجها بأسلوبه الخاص الذى ارتضاه · وتاريخ محمد على ، كغيره من تواريخ الرجال ، لابد أن ينظر إليه وأن يحكم فيه كلاً غير مجزء ولا منجّم · ليكون حكمنا عليه عادلا منصفا ·

فهذه الصفحات هى رأى الجبرتى عن محمد على · وهو لاشك ، رأى له قيمة ووزن كبير · وفيه أيضاً ، صدق كثير وسداد .

الفصل الثانى

صفحات من سيرة محمد على

طرف من سيرته :

عندما بدأت فى تنسيق المراجع التى اعتمدت عليها فى كتابة هذه الصفحات من سيرة محمد على . كان الحكم الملكى ، حكم فاروق ، لا يزال قائما . وعندما انتهيت من هذا التنسيق ، كان حكم فاروق قد انتهى ، بثورة الجيش . ولكن النظام الملكى كان ما يزال قائما معترفا به . وكنت ، فى ظل هذا الحكم . أعمل فكرى وجهدى لستر مالا يمكن الكشف عنه من هذه السيرة . وللتحايل على التزام أمانة المؤرخ ، مع عدم الاصطدام بما فرضته قوانين هذا النظام . حتى أباعد بين كتابى وبين المصادرة . وأباعد بين نفسى وبين السجن . ثم أتممت مراجعاتى ودوّنت ما أحتاج إليه ، وبدأت أكتب، فيشاء الله ألا أخط حرفا واحدا فى ظل هذا الحكم ، ولا فى ظل هذا النظام . وأن أبدأ الكلمات الأولى من هذه الصفحات ، فى ظل الحكم الجمهورى . وبذلك لم أعد أحتاج إلى التحايل والتستر . بل خرجت منهما إلى الإبانة الصريحة والإفصاح . ولكنى — فى كلا الحالين — ملتزم أمانة المؤرخ وصدقه .

وهذه الصفحات التى أبدأ فى كتابتها ، ليست ، كما قلت ، تاريخا لمحمد على . فقد وضعت فى تاريخه عشرات الكتب ، فى لغات مختلفة متعددة . وأعتقد أنه ستوضع ، أو يجب أن توضع ، كتب جديدة تفصح عن سيرته . وتبين عن شخصيته، وتؤرخ له التأريخ النزيه الصادق ، بعد أن أضفت كتب التاريخ السابقة على شخصه وحياته كثيرا من الزيوف والألقاب . وسترت ، على وجه الخصوص ، كثيرا من عيوبه ، ونقائص حياته . بل أحال بعضها هذه النقائص إلى فضائل وأمجاد .

وهذه الصفحات التى أكتبها ليست إلا محاولة فى هذا السبيل . أسجل فيها طرفا من سيرة محمد على ، كما تؤرخها وقائع حياته وأفعاله ، ومظاهر سلوكه .

أقول إنى أسجل « طرفا » من سيرته لأنى لم أتناول سوى الفترة التى دون أحداثها مؤرخنا المنصف الأمين عبدالرحمن الجبرتى . والتى تابع فيها ، يوما بعديوم، خطوات محمد على منذ أصبح رجلا يحفل المؤرخ بشأنه ويسجل أثره فى حوادث مصر فى ذلك الزمن . حتى ينتهى الجبرتى من تدوين تاريخه بنهاية سنة ١٢٣٦ (١٨٢٠ م) .

فهى تتناول نحو ست عشرة سنة من حكمه . كما تتناول السنوات السابقة لولايته والمحاولات التى بذلها ليصل إلى هذه الولاية . والأساليب التى لجأ إليها ، وبرع فيها ليتم له ما يريد . ولم يكن الجبرتى هو المصدر الوحيد الذى اعتمدت عليه فى رسم هذه الصورة ، وتسجيل ماسجلت من نتائج ، كما يرى القارىء فيمايلى من الصفحات ، على أن الجبرتى وحده مصدر كاف جد الكفاية لإبراز ما نريد .

ويرى القارىء أنى لم أكتب تاريخ هذه الفترة كما اعتاد المؤرخون أن يكتبوا. فلن أسجل وقائع الأيام والسنين . بل سأجمل من هذه الوقائع مادة لرسم الصورة التى أعتقد أنها تمثل حقيقة محمد على ، وتفصح عن خصائصه النفسية وصفاته الخلقية. فإذا ذكرت بعض الحوادث فإنما أذكرها للاستشهاد والإبانة والإيضاح وإبراز الصورة .

وقد رسم الجبرتى على الخصوص ، صورة صادقة إلى حد كبير عن محمد على فى هذه السنين الأولى من حكمه . وكان فيها غير مجامل له ولا مشفق عليه . ولكنه لايبخل عليه بالثناء عندما يرى أنه يستحقه . فقد كان الجبرتى ، بعاطفته، لا يحب محمد على ، ولكنه بأمانة المؤرخ ، سجل له أموراً حسنة . ومدحه عليها . وهذا ما نلتزمه نحن أيضاً .

التمهيد لمحمد على :

كانت أحوال مصر وظروفها ، بعد خروج الحملة الفرنسية منها ، مجالا يستطيع أن يقتحمه كل مغامر . بل كانت مغرية بالاقتحام والمغامرة لكل من تحدثه نفسه بالاقتحام والمغامرة .

فقد عاد إلى القاهرة ، بعد خروج الفرنسيين ، الأتراك ، وحلفاؤهم الانجليز . ولكن لم تكن هناك سلطة واحدة تبسط سلطانها على البلاد . فكانت القاهرة تحت حكم الوالى التركى . ولو أن سلطانه عليها كان مشوباً بالضعف والاضطراب والتخبط . وكان الصعيد تتنازعه فلول المماليك ، بزعامة محمد بك الألفى ، وجند الأتراك الذين لم يكونوا يخضعون لحكم الوالى فى القاهرة . وكان الإنجليز فى الإسكندرية ، وفى الجيزة ، يجمعون من الفلاحين وأهل المدن ضرائب خاصة بهم . وكانت بلاد الوجه البحرى يعبث فيها جند الأتراك ما يشاءون . ومن استطاع أن يستولى على بلد أو أكثر ، إستولى عليه وحازه لنفسه . فقد كان عرب أولاد على مثلا ، يغيرون على إقليم البحيرة ويوشكون أن يستولوا عليه كله ، ويستقلون به . وكانت المعارك فى بلاد الوجه البحرى . ماتزال تقع بين العثمانيين والمماليك . وكان الوالى يأمر جنوده بنهب البلاد فى القليوبية لأخذ مرتباتهم .

وكان الجند العثمانيون يدخلون القاهرة ، فيأمرون الناس بإخلاء بيوتهم . فإذا دخلوا دارا خربوها . وحرقوا أخشابها . ثم انتقلوا إلى غيرها ففعلوا بها مثل ذلك . فإذا رجاهم الناس برفق ، أن يكفوا عن ذلك . قالوا لهم : لقد كنتم تخلون دوركم للفرنسيين ليسكنوها ... !

وأراد الوالى التركى ، محمد خسرو باشا ، أن يخرج الألفى من الصعيد . وعرض عليه أن يذهب إلى إسلامبول ، لينال من رفد السلطان وبره ، ولكن الألفى أجابه بقوله : « إن الأرض لله . ونحن خلق الله . نذهب حيث نشاء . ونأكل من رزق الله ما يكفينا ... ! » وطلب إلى خسرو باشا أن يترك له بلاد أسيوط ، وما بعدها ، إلى أسوان . فإن لم يقبل فسيحارب كل من يجىء إليه .

ولم يستطع خسرو — أو لم يرد — أن يبذل للجند رواتبهم ومخصصاتهم التى توقّف صرفها لهم سبعة أشهر متوالية . فكثر اعتداؤهم على الناس . وزاد خوف الناس منهم . فكانوا يسارعون إلى قفل متاجرهم كلما سمعوا أن فريقا من الجند تحرك من مكان إلى آخر . وكان الجند ، وخاصة فى المساء ، يتسلطون على الناس بالضرب والسرقة ، والقتل أيضاً . ويغتصبون أموالهم ، وثيابهم . ويكثرون من خطف النساء والصبيان .

وقد ثارت الفتنة بين الجند ، بسبب رواتبهم ، وقامت الحرب بينهم وبين خسرو ، حتى تغلبوا عليه . فخرج من القاهرة ومعه نساؤه وجواريه — وكن سبع عشرة امرأة — وحرق الجند والناس بيته ، ونهبوا مافيه . وخرج هذا الوالى من القاهرة إلى دمياط ، ففرض مظالم كثيرة على أهل البلاد التى مر بها فى الغربية والدقهلية . وبقى فى دمياط حتى قدم إليه عثمان بك البرديسى — أحد كبار المماليك وصديق محمد على فيما بعد — فحاربه وتغلب عليه ، وأخذه أسيرا . ثم سجن فى القلعة ثمانية شهور .

وجاء بعد خسرو باشا ، الوالى طاهر باشا ، فكان أسوأ من سابقه تدبيرا . وأفسد رأياً .

تعصب مع جند الأرنؤود ، ضد الانكشارية ، ومطل هؤلاء حقوقهم . فذهب إليه فريق منهم يطلبونها . وطال بينه وبينهم الجدل . حتى استل واحد منهم سيفه وضربه ، وحزّ به رأس طاهر باشا ، وألقى به من نافذة حجرته . ولم تطل ولايته أكثر من عشرين يوما . فاختار الانكشارية رجلا اسمه أحمد باشا ، كان فى طريقه إلى ولاية جدة . ووجد فى القاهرة بمحض الصدفة ... ! وعلم أحمد باشا هذا بأن المماليك لايريدونه . وأن محمدا عليا — وكان يعمل من وراء ستار — يكيد له . فخرج من القاهرة — بعد ولاية يوم وليلة — تاركا أمتعته . وخرج معه كبار أتباعه يمشون على أقدامهم . ويحملون فوق أكتافهم ماخف من متاعهم ... ثم أخذ أحمد باشا بعد ذلك أسيرا . وكانت كفة المماليك لاتزال راجحة . فانتهى الأمر بتنصيب

إبراهيم بك شيخا للبلد ، وقائمقام عن الوالى . ورضى كل من محمد على وصديقه البرديسى بهذه الولاية .

ثم جاء بعد ذلك على باشا الطرابلسى ومعه فرمان من الدولة بولايته على مصر ، ولكن البرديسى حاصره فى رشيد . ثم استدرجه المماليك إلى قرب القاهرة . وقبضوا عليه . ثم أخرجوه منفيا إلى غزة . وعاد الحراس الذين رافقوه يقولون إنه مات فى مديرية الشرقية ، عند القرين ... ! والراجح أنهم قتلوه .

وبقى إبراهيم بك نائبا عن الوالى ثمانية أشهر وأيام ، حتى جاء أحمد باشا خورشيد واليا من قبل الدولة . فظل محمد على يدس له الدسائس . ويؤلب عليه طوائف الجند ويحرض عليه العلماء والجماهير . حتى أخرجه من ولاية مصر ، بعد أربعة عشر شهرا . وانتزع لنفسه الولاية والسلطان .

محمد علي سر نشأته :

يذكر الجبرتى اسم محمد على ، فى غمار هذا الاضطراب والقلق فى فترات متباعدة ، ولكنها مقرونة باشتداد الأزمات ، وتعقد الأمور . ويستطيع القارئ اليقظ أن يربط بين ذكره وبين تأزم الأمور وتعقيدها . وكأنه كان يعمل على ذلك ليزيد الهوة اتساعاً بين هؤلاء الولاة وبين أهل مصر . وليزيد من شذوذ هؤلاء الولاة وقسوة الحياة التى كان الناس يحيونها إذ ذاك . فكلما تأزمت الأمور وزادت قسوة الحياة والولاة على الناس وعلى الجند ، أظهر لأولئك طرفا من حلاوة اللسان ، ولهؤلاء شيئا من المال ، أو الأزواد أو « العلف » . فلا يجد الناس من يلاطفهم أو يتقرب إليهم سواه . ولا يجد الجند من يعطيهم بعض حقهم أو رواتبهم غيره . فيتعلق الأولون به وينحاز الآخرون إليه أو إلى من يريد هو أن ينحازوا إليه . ويرى الطامعون من المماليك أو غيرهم أنه يستطيع أن يعينهم على تحقيق أطماعهم ، فيخشون بأسه ويتنافسون فى التقرب إليه .

وتستطيع أن تسمى ذلك براعة . أو مرونة ، أو سمة حيلة ، أو غير ذلك من الأسماء. وهى براعة وصل بها محمد على إلى ضرب طوائف الجند بعضها ببعض. وإلى أن اعتقد الناس والزعماء ، والعلماء ، ومعهم السيد عمر مكرم ، أن محمدا عليا — لاسواه — هو الذى سيجد عنده الناس الرفق والعدل. وقد اختاروه فعلا على أساس الرفق والعدل بالرعية . وأظهر لهم ، أول الأمر ، العفة والزهادة فى الولاية فزادهم ذلك تمسكا به ، وتقديرا له .

تستطيع أن تسمى ذلك براعة ، أو مرونة ، أو سمة حيلة . ولكن له من غير شك ، إسما آخر فى عرف الأخلاق والفضائل .

وكان اللقب الذى يضاف إلى اسم محمد على أول الأمر هو « سرششمة » أو « سارى جشمة » ويقول أمين باشا سامى ، نقلا عن كلوت بك ، إنه يعنى « قائد ألف » أى ما يساوى فى ألقاب الجيش الآن رتبة « بكباشى [1] » ويظهر من بعض الملابسات أنه كان متصرفا فى أطعمة الجيش ، كأن يكون أمينا عليها. وكان حبسه لهذه الأطعمة ، وصرفه لها ، خاضعا لمصالحه الخاصة ، أو مطامعه. وقد أفاد من ذلك فى التأثير على فرق الجند وفى تأريث خصومتها للولاة الذين لم يرض عنهم ، أو أراد إحراجهم .

وكان فساد الحكام ، وظلمهم ، وسوء تدبيرهم . وتنازع المماليك ، من أكبر الأسباب التى أفاد منها محمد على ، وساعدته على الانفراد بحكم مصر . كما كان ما لقيه المصريون أثناء الحملة الفرنسية من الحرب والظلم والمغارم الثقيلة . وما أصابهم بعد خروجها من الجحود والعنت والقهر ، سببا آخر فى مقتهم للولاة الأتراك وللمماليك على السواء .

ولنعرف مبلغ ما كان عليه استهتار الولاة الأتراك بمصالح الناس إذ ذاك ، نذكر أن واحدا منهم ، وهو على باشا الطرابلسى ، كسر سدّ أبى قير الذى كان

---

(١) سرجشمة ، أى بكباشى . عن اسماعيل سرهنك باشا فى كتابه « حقائق الأخبار عن دول البحار »

يمنع ماء البحر الأبيض من التدفق إلى الأراضى الواقعة بين رشيد والإسكندرية فسال ماءه حتى قارب دمنهور ، وخربت البلاد الواقعة بينهما ، وتلفت المزارع . وهاجر أهل الإسكندرية لأنهم لم يجدوا ماء يسقونه . وكانت ترعة المحموديه لم يتم امتدادها إليها .

ونذكر أن الضرائب زادت وثقل أمرها على الناس ، حتى خرب الكثير من البلاد والقرى . وجلا أهلها عنها . خصوصا إقليم البحيرة فإنه «خرب عن آخره» كما يقول الجبرتى . وإقليم الدقهلية ، الذى لم يبق به « إلا خمس وعشرون قرية فيها بعض سكان ، والباقى خرائب . ليس فيها ديار ، ولا نافخ نار » .

وزاد من بلاء الناس نقصان النيل نقصا فاحشا فى سنة ١٢١٨ حتى عز وجود القمح والخبز . وكان الناس يذهبون إلى سوق الغلال ، فى بولاق ، لشراء حفنة من القمح ، ثم يرجعون باكين ، وبيعت البهائم بأرخص الأثمان ، لأن أصحابها لا يجدون مايطعمونها إياه . وكانت المراكب التى تصل إلى بولاق محملة بالغلال ، يصادرها الأمراء ، والوالى ، ويدخلونها مخازنهم ، ولو لم تكن لهم ، ولا يعطون أصحابها شيئا .

وبلغ الأمر إلى حد أن الناس كانوا لا يستطيعون أن يسيروا بشىء اشتروه مهما يكن قليلا . فقد يخطفه الجند . فكانوا يستأجرونهم لحراستهم حتى يصلوا إلى بيوتهم بما اشتروه . وكان الرجل يربط عمامته ، خوفا عليها من الخطف ، وكان الجند يترصّدون من يذهب إلى الأسواق ، لشراء الجبن أو الزبد أو الدواجن أو غيرها ، ، فيأخذون مامعهم . ثم يهجمون على السوق فيستولون على ماجلبه الفلاحون لبيعه فيه . ولا يستطيع إنسان أن يذهب إلى بولاق أوشبرا ، ولو كان مع جماعة قليلة .

وضاق الأمر بالناس ، حتى خرج الفقراء والعامة والنساء صارخين ، يضربون الدفوف . والنساء يندبن ، وقد صبغن أيديهن بالنيلة . وسار هذا الجمع حتى دخل الجامع الأزهر ، يشكوا إلى العلماء . وذهب العلماء إلى الأمراء ، وأرسل محمد على

رسولا إلى العلماء فى الأزهر يبلغهم تخفيف الضرائب . وكانت هذه إحدى الحركات البارعة ، التى كسب بها محمد على محبة الناس ، وأثار بها فى نفوسهم كراهة العثمانيين والمماليك والجند .

ثم جاءت السنة التى تليها ، فلم تكن أقل من سابقتها شراً . فقد انتشر الجند فى إقليمى الشرقية والقليوبية وهم « يسعون فى الفساد ، ويهلكون الحصاد . فما وجدوه مدروساً من البيادر أخذوه . أو قائما على ساقه رعوه . أو غير مدروس أحرقوه . أو كان من المتاع نهبوه . أو من البهائم ذبحوه وأكلوه » .

أما ما بلغه سوء أخلاق المماليك ، وظلمهم . فنذكر منه أن البرديسى عندما تغلب على محمد باشا خسرو فى دمياط ، لم يكتف بذلك . بل نهب دمياط ، وأسر جنوده النساء ، واعتدوا على العذارى . وأخذوهن أسيرات . وباعوهن كالإماء . وأخذوا ما على أجساد الناس من الثياب . ونهبوا المتاجر والمنازل . وكان شيئاً كثيراً جداً ، حتى بيع ما قيمته خمسمائة ريال بريالين .

ولما عاد أحد رجال البرديسى ، وكان قد قتل كبيراً من رجال خسرو ، أنعم عليه إبراهيم بك ببلاد المقتول وأملاكه و « زوجته » .

وقد كان ذلك يحدث فى أوقات كثيرة غير هذه الفترة . ولكنه لم يبلغ هذا المبلغ . ولم يصل إلى هذا الحد . الذى جعل الناس ، كما يقول الجبرتى ، يتمنون لو بقى الفرنسيون ... ! والذى جعل العلماء يتركون دروسهم فى الأزهر ، ويسيرون مع الناس إلى بيت القاضى . وهم يتوجهون إلى الله صائحين داعين : « حسبنا الله ونعم الوكيل . يامتجلى أهلك العثمنلى » . وأمثال ذلك من الدعاء[1] .

فى هذه الظروف ، وبسببها ، تولى محمد على حكم مصر فى ١٣ من مايو سنة ١٨٠٥ — ١٣ صفر سنة ١٢٢٠ .

---

(١) تجد تفصيلا وافياً لحياة مصر الإجتماعية وعبث الجند فى الجزء الأول من الكتاب .

محمد على يسعى سعيه :

وقد صور الجبرتى تصويراً صادقاً بارعاً ، ذلك السبيل الذى سلكه محمد على حتى استطاع أن يحمل الزعماء والشعب على حسن الظن فيه ، والإصرار على اختياره والياً . فهو يقول إنه سعى ، بحيلته ونفاقه ، فى إحراج خسرو باشا ، بالتواطؤ مع طاهر باشا . ثم غدر بطاهر باشا وأغرى على قتله . وخدع المماليك عن نفسه ، فتودد إلى زعمائهم ،وصادقهم ، ووضع نفسه فى خدمتهم . واستخدم واحدا منهم — هو عثمان بك البرديسى — عندما عرف فى نفسه الطموح والغرور والخيانة . فمناه بالأمانى الكبار ليتخذ منه عضداً لحرب الآخرين . وأعانته غفلة البرديسى وغروره على أن يصل لما يريد . ثم اتخذه مرة أخرى وسيلة للقضاء على الألفى ، خصمه اللدود وكبير الأمراء . وزعم أنه سيضع نفسه وجنده تحت إمرة البرديسى إذا أوقع بالألفى ، أو حال بينه وبين دخول القاهرة . فلما مات الألفى لم تبق له حاجة فى البرديسى ، فدبر له مع طائفة من الجند كيدا : — أحاطوا ببيته وصبوا عليه رصاص بنادقهم ، وأوشكوا أن يقتلوه . لولا أنه فر منه وترك القاهرة إلى الصعيد . ومات فيه غريباً كما مات الألفى .

ورأى محمد على أنه لن يستقيم له أمر ، ولن ينال مشتهاه من الحكم والولاية إلا بمعونة السيد عمر مكرم . فتقرب إليه . وأظهر له المحبة والتعظيم . وأكثر من زيارته فى بيته ، وكان لا يناديه إلا بقوله يا والدى . ثم عاد بعد ذلك . وبعد أن تولى وحكم ، فنفى والده السيد عمر مكرم،مرة فى دمياط ومرة فى طنطا . ولم يسمح له بالعودة إلى القاهرة إلا وقد أصبح شيخاً فانياً محطماً لا يستطيع أن يكيد كيداً ، أو يظهر خلافاً .

وكذلك فعل مع العلماء حين كان محتاجاً لعونهم . ثم أهملهم وحقرهم وصادر أموالهم ، حتى لا يبقى لهم رأياً ولا شوكة ولا جاها ولا حرمة .

وفعل هذا أيضاً مع الشعب ، حتى حارب فى سبيله تلك الحرب الشاقة العنيفة التى فصلنا أمرها من قبل . فلما تولى حكمه ، ظهرت حقيقة نفسه . وبدا من خلقه

وعمله ما نذكر منه فى هذا الفصل شيئاً يسيراً جداً . ولكنه كما قلنا ، يومىء ويشير ، ويدل على كثير .

وكما استطاع محمد على ، بحيلته وخبثه ، أن يوجه غضب الناس وسخطهم ، فى هذه الفترة الحاسمة ، قوياً جارفاً ، إلى العثمانيين . فقد استطاع أيضاً أن يوجه شيئاً كثيراً من هذا الغضب القوى والسخط الجارف إلى المماليك — وإلى البرديسى منهم خاصة — حيث أظهرهم وأظهره للناس على أنهم سبب من أكبر الأسباب لشقائهم ومحنتهم . حتى خرجوا يمشون فى الطرقات يتصايحون قائلين : « إيش تاخذ من تفليسى يا برديسى » .

لا أريد أن أتتبع سيرة محمد على فى الولاية والحكم . ولا وقائع الأيام والحوادث التى جرت فى عهده . بل أكتب ، كما قلت ، صفحات من سيرته . أرسم فيها أبرز الخصائص التى كان يتصف بها ، كما صورها الجبرتى ، ثم أسوق من الحوادث ما يؤكد هذه الخصائص ويبرزها ويدل عليها .

الحيلة والغدر :

فنحن نرى ، فى هذه الصفحات من سيرته ، أنه كان رجلا واسع الحيلة شديد الغدر . أما سعة حيلته فقد رأينا بعض مظاهرها فيما مضى من الحوادث التى مهدت له سبيل الحكم والسلطان . ونجد مظاهر أخرى لذلك ، من سيرته بعد أن أصبح واليا على مصر . فمن ذلك ما فعله مع قبطان باشا ، فى السنة الثانية من ولايته . فقد جاء هذا الباشا إلى مصر ومعه أمر من الدولة فى إسطنبول بولاية موسى باشا على مصر ، وبخروج محمد على إلى ولاية سلانيك . ومعه كذلك أمر بعودة الألفى ومماليكه إلى القاهرة ، بضمان العلماء لهم ، فسعى محمد على لدى العلماء حتى كتبوا إلى قبطان باشا وإلى السلطان أنهم لا يستطيعون أن يضمنوا طاعة المماليك ، واستقامة أمرهم ، ولا خضوعهم للدولة . وأنهم يرون بقاء محمد على فى ولاية مصر ، لأن الجند يطيعونه . وأرسل إليه محمد على هذه الوثيقة التى كتبها العلماء ، مع ابنه إبراهيم . ثم سعى ، فى الوقت نفسه ، لدى قبطان باشا ، بالوسيلة

الناجحة فى ذلك الزمان ، فأرسل إليه ما أرضاه من مال ومن هدايا . وكان محمد على قد وضع سبباً للنفرة بين البرديسى والألفى ، كبير الأمراء المماليك ، فلم يجد قبطان باشا سبيلا لجمعهما على رأى واحد . وانتهى الأمر بأن أرسل قبطان باشا إلى إسطنبول يثنى على محمد على ، ويرجو من السلطان إبقاء ولايته على مصر . واستجاب السلطان إلى رجاء رسوله فأبقاه .

وقد استخدم محمد على حيلته الواسعة فى إضعاف شوكة المماليك ، وتفريق شملهم ، كما أشرنا من قبل . ولما مات الألفى ، جعل يتألف من بقى من كبار المماليك ، ويترضاهم ، ويستدرجهم للقدوم إلى القاهرة ، ليكونوا تحت سلطته ، استقدم شاهين بك ، أحد كبار المماليك الألفية ، وأسكنه قصراً فى الجيزة ، وأمر بأن تطلق المدافع تحية لقدومه . وأقطعه إقليم الفيوم ، وثلاثين بلداً فى « البهنسا » ، وعشرا فى الجيزة . وجعله كاشفاً عليها وعلى البحيرة ، وأرسل ابنه طوسون يستقبله عند حضوره . فلما استقر فى الجيزة ، دعاه إلى مضرب النشاب ، فتسابقا وتلاعبا بالسيوف والرماح . ثم أقام له فى القلعة وليمة غداء . وأراد شاهين بك أن يتزوج إحدى نساء المماليك ، فصرفه عنها محمد على بحجة أنه دعى ابنته للقدوم من قوله ، وأنه سيزوجها إياه ، ليكون صهراً له . وبعد ذلك بقليل زوجه إحدى جواريه . كما زوج مماليك آخرين ، ودفع عنهم المهور الطائلة . ولكن شاهين ، لأمر ما ، ترك القاهرة إلى الصعيد ، ومعه كثير من المماليك . وترك ما أعطاه محمد على من مال . وما مهد له من نعيم . فساء ذلك محمد على ، وخشى عقباه . ولكنه توجه بحيلته إلى « خشداشين [١] » شاهين بك، وكانوا ينفسون عليه ما نال من نعيم ومال ، فأطمعهم فى أن يتركوه ، ويعطيهم محمد على أكثر مما أعطاه . فأقبلوا عليه طائعين . وكان شاهين بك هذا من المماليك الذين استدرجهم محمد على بعد ذلك إلى وليمة القلعة ، ثم قضى عليهم فى المذبحة التاريخية فيها . وكذلك فعل بمرزوق بك ، ابن الأمير الكبير إبراهيم بك . قربه إليه وقلده ولاية جرجا ، وإمارة الصعيد . ثم قضى عليه فى تلك المذبحة .

(١) زملائه فى الرق . وقد سبق شرح هذا الاصطلاح فى الجزء الثانى . ص ٧٤ .

وقد بلغت مرونة محمد على وحيلته إلى حدٍّ خدع معه المماليك عن كيده وطبيعة نفسه من الغدر . فكان يعاهد من يخشى بأسه منهم « عهد الدم » بأن يجرح كلاهما يده ثم يمص من دمها تأكيدا للإخلاص والمودة . فعل ذلك مع عثمان بك البرديسي . وبعد قليل فر هذا مع إبراهيم بك وبقية الأمراء هاربين من كيد محمد على وسعيه عليهم لدى الجند والناس . ولم يدم حلف الإخلاص والمودة بين محمد على وبينهم سوى ثلاثة أسابيع خرجوا بعدها على أسوإ حال ، ونهبت بيوتهم ، وأخذت زوجاتهم سبايا.

ومن حيلته أن جماعة من رؤساء الجند ساءهم ما أدخله على نظم الجيش من تقليد جديد . احتذى فيه حذو الفرنسيين . وكبر عليهم أن يلبسوا « الملابس المقمّطة » التى كان يلبسها جيش نابليون . فاجتمع هؤلاء الساخطون فى بيت عابدين بك وتآمروا على قتل محمد على . وكان عابدين بك على صلة به فأبلغه ما يدبره القوم من غيلته ، فصعد إلى القلعة حتى لا ينالوه . فلما فشل تدبير المتآمرين خرجوا ومعهم بعض الجند فنهبوا متاجر الناس وبيوتهم فى القاهرة . وأراد محمد على أن يستفيد من جرمهم ، فأمر السيد المحروق ، كبير تجار القاهرة ، بأن يرسل إليه مقادير الخسائر التى خسرها التجار فى هذه الفتنة حتى يردها إليهم من ماله . وجمع البنائين والنجارين فعمروا ما تخرب من الأسواق ومن بيوت الناس ، على نفقته . ورأى المتآمرون أنهم فشلوا ، وأفاد محمد على مما فعلوا . فذهبوا إليه معتذرين ، وكان لا يزال محتاجا إلى الحيلة ، فقبل عذرهم . وأمرهم بأن يردوا على الناس ما نهبوه أو نهبه جنودهم .

ومن حيلته ما كان يفعله بمن لا يريده من الحكام وولاة الأقاليم . فيلبس غضبه عليهم ثوب الغيرة على الناس والشفقة بهم . حتى يزيد تودده إليهم ، ويزيد حبهم له . وما كان يفعله بمن يخرج على طاعته من الجند .

أراد أن يعزل حكام الأقاليم ، لأنه لا يطمئن إليهم . فأمر بعزلهم جميعا . وأظهر أنه فعل ذلك بسبب ظلمهم الفلاحين . وأخذ يحاسبهم ، ويأخذ أموالهم . وبعد

عزلهم ، ومصادرة أموالهم ، وجه بعضهم إلى حرب الحجاز ، والآخر إلى حرب بعض الخارجين عليه فى داخل البلاد .

وبذلك أخذ أموالا عظيمة ، وتقرب إلى الناس بإظهار العطف عليهم والغضب على من يظلمهم — ولو كان غضبه من ظلمهم لرد على الناس ما سلبه منهم حكامه —

وتخلص بعد ذلك من طائفة لا يريد بقاءها فأبعدها ووجهها إلى الحرب .

ومن مظاهر الحيلة فى تودده إلى الناس ، فى بداية حكمه ، أنه طلب إلى السيد عمر مكرم أن يكون نائبا عنه عندما فكر فى الخروج لمحاربة خصمه القوى محمد بك الألفى . وكان محمد على يطمئن غاية الاطمئنان ، للسيد عمر ، ولا يخشى منه خروجا ولا غدرا . وكانت للسيد مكانة عظمى عند أهل مصر . ومشاكل محمد على ومتاعبه متشعبة وكثيرة . فلو أن السيد عمر قبل نيابته لخفف عنه كثيرا من المتاعب ، وحل له كثيرا من المشاكل ، ولم يكن محمد على بخاسر على أى حال . لأن المصريين ، فى ذلك الوقت ، كانوا لا يرون أحدا منهم كفأً للحكم والولاية .

ومما فعله بالجند ، أن طائفة منهم خرجت عن طاعته . وائتمرت به ، فأحبط كيدها وبقى يتربص بها سنة . حتى أتيحت له فرصة أخرج فيها هؤلاء الجند من القاهرة إلى الثغور . وظهر فى ذلك بمظهر المشفق على أهل القاهرة من شرهم .

أما غدره فنحن نستطيع أن نكتفى فيه بمذبحة المماليك . وما ذكرناه من قبل عن غدره بالسيد عمر مكرم ، والبرديسى ، وغيرهما . ولكننا نذكر وقائع أخرى تدل على أن هذا الغدر كان إحدى الصفات البارزة فى خلق محمد على .

فمن أمثلة غدره ، ما فعله بأحمد أغا لاظ ، فقد كان هذا الرجل حاكما على قنا . وكان من رؤساء الدولة الذين لهم نصيب كبير فى ترجيح كفة محمد على على المماليك . وهو الذى حاربهم فى الصعيد وتغلب عليهم بشجاعته وجرأته ، وكفايته الحربية . فلما فرض محمد على ابنه إبراهيم حاكما على الصعيد . كان أحمد أغا يعارضه فى كثير من تصرفاته . وخاصة ما يفرضه على الفلاحين من الضرائب . وقامت جفوة بين الرجلين أرسل أحمد أغا بسببها كتابا إلى محمد على فى القاهرة ، أعلن فيه أسباب

غضبه . فأرسل إليه محمد على يستدعيه ويلاطفه ، ويقول له إنه سيعمل كل ما يرضيه ، وقدم أحمد أغا فى عدد قليل من رجاله . والتقى بمحمد على وكان بينهما حديث عنيف . وقد استطاع رجال محمد على أن ينتهوا به إلى حيث يريد سيدهم . ثم أخذوا الأغا إلى مكان آخر يلاطفونه . ويهدئون من ثورته ، على أن يلتقى بمحمد على مرة أخرى وقت السحور ، فقد كان ذلك فى رمضان ، وتحايلوا على من معه من الرجال حتى انصرفوا . ثم دعى الأغا للدخول على محمد على ، عند نصف الليل . فلما خرج من مكانه تلقفوه ونزعوا سلاحه ، وأوثقوا يديه تحت السلم ، ثم قطعوا رأسه . وأرسل محمد على من استولى على دوره وأمواله .

وكذلك فعل بكبير من العرب فى الصعيد . الشيخ كريم ، شيخ طرهونة ، وكان هذا الشيخ لم يقدم لملاقاة محمد على ، ولم يظهر له المودة . فأخذ ابنه إبراهيم يتودد إليه ويظهر له الحب . ويوهمه أنه يسعى للصلح بينه وبين أبيه . وصدق الرجل هذه الخدعة . وساق إلى محمد على فى القاهرة هدية ، ومعها أربعون من الإبل ، وقدم هو معها . فلما لقيه محمد على ، قبل منه هديته ، وأمر برمى عنقه فى الرميلة .

وقصته مع حجاج الخضرى . مثل من أبرز الأمثلة على الغدر والخديعة والقسوة . وقد فصلنا أمره وأمرها فى الفصل السابق .

وقد فعل مثل ذلك من الغدر أيضا ، بالشريف غالب فى مكة . فقد تعاهد هو وابنه طوسون مع الشريف على الصفاء والمودة . وأقسم كل منهم على ذلك فى جوف الكعبة . ثم استدرج الشريف إلى بيته وأسره . واحتال على أولاده الثلاثة حتى أسرهم وأرسلهم إلى مصر . ونصب ابن أخيه الشريف يحيى أميرا على مكة بدلا منه .

وقد أراد محمد على أن يتخلص من خصمه العنيد ، محمد بك الألفى بالحيلة ، والغدر . بعد أن عجز عن التخلص منه بالمواجهة والحرب . فاتفق مع رجل من الأرنؤود اسمه رجب أغا ، على أن يذهب إلى الألفى مظهرا له الطاعة . ومعلنا الغضب والعصيان على محمد على . موهما له بأنه قدم إليه ليحميه من ظلم محمد على ، وخشية منه على حياته . ووعد محمد على رجب أغا أن يعطيه خمسين كيسا — ما يقرب من ألفى جنيه — إذا أدخل هذه الحيلة على الألفى ثم قتله . وذهب الأغا

إلى الألفى وصاحبه زمنا على الخديعة. ولكن يقظة الألفى وحيطته لم تمكنه من إتمام مؤامرته وتدبيره. فلما يئس من ذلك عاد إلى محمد على، فأمره بالخروج من القاهرة.

أما مذبحة المماليك، فقد قتل فيها ما يزيد على ألف منهم. دعاهم محمد على إلى القلعة لمناسبة تقليد ابنه طوسون إمارة جيش الحجاز. فى يوم ٦ من صفر سنة ١٢٢٦ — ٢ مارس سنة ١٨١١ م — فلما قدموا دعا كبارهم إلى مجلسه فشرب معهم القهوة. ثم بدأ سير الموكب وفيه المماليك على أبهى زينة. فلما خرجت الطوائف التى تسبقهم، وبدأ خروجهم، غلقت الأبواب. وسلط عليهم، من أعلى، الرصاص والموت. وكانوا فى مضيق لا يستطيعون الخروج منه، ومن لم يقتله الرصاص، أخذ فقطعت رأسه [1]. ثم خرج جند محمد على يبحث عمن لم يحضر منهم، وعلى صغارهم الذين لم يدعوا فقتلوهم فى بيوتهم. ونهبوا أموالهم، ونساءهم وأولادهم. وأرسل إلى حكامه فى الأقاليم ففعلوا بمن فيها مثل ما فعل بإخوانهم فى القاهرة. وبقيت رؤوس من قتل من المماليك، وجثثهم، ملقاة فى القلعة ثلاثة أيام: ودامت المذبحة، فى داخل القلعة نهاراً كاملا، وفى أحياء القاهرة التى يسكنها المماليك، يومين كاملين.

حذر ونشيط وقاس

ومن الصفات التى نجدها عند محمد على، شدة الحذر، وسرعة الحركة، فلا يكاد الجبرتى يذكر سفرا له، أو عودة من سفر. إلا وهو يقول إنه عاد على حين غفلة. وهو لا يصعد إلى مقره فى القلعة، أو إلى بيته فى الأزبكية، إلا بعد أن يقيم خارج القاهرة، فى قصر شبرا، يومين أو ثلاثة. وعندما خرج من القاهرة ليلحق بجيشه فى الحجاز، كان خروجه عند طلوع الفجر.

ولما عاد من أسيوط، بعد حرب المماليك، نزل من السفينة متنكراً. وركب إلى القلعة. وأمر رجاله ألا يعرف أحد قدومه، إلا بعد أن يصل إلى القلعة، وتطلق مدافعها. ويقول الجبرتى إنه سار من أسيوط إلى القاهرة فى ثلاثين ساعة. وقدم مرة أخرى، ومعه دليل بدوى واحد، من السويس إلى القاهرة فى أربع عشرة

(١) لم يستطع أحد من المماليك الهرب، سوى أمين بك الألفى فقد قفز بفرسه من فوق سور القلعة، ثم اختفى وهرب إلى الصعيد.

ساعة ، على هجين . وسافر على بغلة ، من بنى سويف إلى الفيوم ، فى أربع ساعات
ومات بعض مرافقيه فى هذا السفر ، بسبب الإجهاد والتعب .

وكانت فى نفس محمد على ، كما تصوره الوقائع والأحداث ، قسوة بالغة . نذكر
مثلا واحدا عليها . ولكنه مثل يغنى عن كثير ، ويدل على كثير . فقد سرقت
من بيته فى شبرا أدوات للقهوة . فأحضر حارس الدار وأمره بإحضار السارق
والمسروق ، وإلا أذاقه أشد العذاب . وأحضر الحارس بعد أيام ، خمسة من
السراق ، ومعهم جميع ماسرق ، لم ينقص منه شىء . ولكن محمد على لم يكتف
بعقابهم وحدهم . بل أخذ كل من تحوم حوله الشبهة . فأمر بالخمسة السراق فقتلوا
بإجلاسهم على « الخازوق » فى أماكن متفرقة . ثم أخذ أكثر من خمسين رجلا
فأمر بقتلهم جميعاً . وأرسل بهم إلى بلاد مختلفة فى الغربية ، والقليوبية ، والمنوفية
فشنقوا فى بلادها وقراها .

وكأن محمدا علياً كان يأمر أبناءه وجنوده بأن يكونوا على نهجه فى هذه القسوة
الشاذة البالغة . أوهمْ ساروا على نهجه بالمثل والقدوة . فإن الجبرتى يقول عن ابنه
إبراهيم إنه ، عندما جعله أبوه حاكما على الصعيد ، فعل بأهله «مافعل التتار ، عندما
جالوا فى الأقطار . وأذل أعزة أهله » وروى أنه ربط رجلا إلى خشبة . وأمسك
رجال بأطرافها وجعلوا يقلبون الرجل المسكين على النار المشتعلة «مثل الكباب» .

كما ذكر أن رجلا أراد أن يستحلفه على أمر . فقال له : « وحق من أعطاك .
فقال له إبراهيم : «ومن الذى أعطانى ... ؟ قال له : — ربك . فقال له : «إنه لم يعطنى
شيئا ... والذى أعطانى أبى ... ! .

ويقول إن إبراهيم تولى « إمارة الصعيد » وهو دون سن العشرين . جاهل
غشوم .

وقد كان محمد على يوما فى « الرحمانية » من إقليم البحيرة ، وأرسل يطلب
شيخ مدينة دسوق . فخاف الرجل على نفسه ، وأراد أن يدفع إلى رسله ما يطلب
من مال . ولكن سفنا أخرى قدمت فى النيل تتعجل الشيخ لملاقاة محمد على . فزاد
خوفه وساءت ظنونه بهذا الطلب . وانتهى الأمر إلى حرب بين الشيخ ومدينته

وبين الجند . فلما تغلب الجند ، بعد مشقة وعناء ، اقتحموا بيوت الناس فنهبوا ما فيها . وتهجموا على مقام السيد إبراهيم الدسوقى فذبحوا من فيه من طلبة العلم ، حتى العميان .

حب المال

وقد روى الجبرتى عن طمع محمد على ونهمه فى حب المال وشراهته فيه أشياء عجيبة .

ذكر أنه كان يبيع ما ينبت من زراعة أرضه ، وحدائق قصوره. حتى الفجل، واللفت ، والكرنب ، والملوخية . فكان البائعون ينادون عليها يقولون : فجل الباشا، وكرنب الباشا وملوخية الباشا . وكان يحتكر جميع التجارات ، حتى الخشب والحطب الرومى . يستولى عليها بثمن زهيد يحدده ، ثم يتاجر فيها . وكان ابنه إبراهيم يستولى على السكر الناتج من جميع بلاد الصعيد . ويرسله إلى القاهرة ليتاجر فيه أبوه . ويبيعه لطابخ البيوت . واستولى محمد على على جميع المحاصيل التى يزرعها الفلاحون فلا يبيع مالكها أى شىء منها . وأخذ جميع ذلك ، حتى ما كان فى بيوتهم . وفرض ثمانية عشر قرشا ثمنا للأردب من القمح ، وعلى الزراع نقله على نفقتهم إلى مخازنه . ثم يبيعه بمائة قرش . وفرض ضرائب على الأقمشة والملح والحصر ، والأدوات المنزلية ، والأحذية . وعلى «البلاناب» اللواتى يقمن على خدمة النساء فى الحمامات العامة . وأمر أصحاب المساكن والعمائر بأن يجددوا أملاكهم . فمن لم يستطع منهم إصلاح ملكه قام هو بإصلاحه أو تجديده . وأخرج منه صاحبه ثم أضافه إلى ملكه . وكان ، هو ورجاله ، يأخذون أحجار المدارس ، والملاجىء ، والمساجد ، ويبنون بها بيوتهم وقصورهم .

ومن عجيب ما فعله أنه أصدر أمرا بتنظيم الربا بين الجنود وأفراد الشعب ...!

فقد كان جنوده يجمعون بعض مالهم . أو ما يصادرونه من أموال الناس ، ثم يقرضونه لمن يشاء بربا فاحش . ورأى هو أن فى ذلك تخفيفا عليه فيما يدفعه من أجور الجند . وملهاة لهم أيضاً . فأصدر أمراً إلى الشرطة ، وإلى الجند ، والناس ، يبيح هذا التعامل ويفرض أن يكون « ربى القرض من العسكر ستة عشر قرشا ،

فى كل شهر عن كل كيس » . ويقول الجبرتى تعليقا على هذا الأمر إنه « عدّ من غرائب الحكام . حيث ينادى على الربا جهاراً فى الأسواق ، من غير احتشام ولا مبالاة » .

وكان محمد على ، لشرهه فى حب المال ، لايجد حرجا ولا حياء فى أن يطلب الهدايا والهبات من الناس . ففى شهر رجب من سنة ١٢٢٩ أراد والد محرم بك — زوج بنت محمد على — أن يسافر إلى بلده . فأرسل هذا « إلى الأعيان تنابيه بالأمر لهم بمهاداته ، ففعلوا . وعبّوا له بقجا وبنا ، وأرزا ، وأقمشة هندية ومحلاوية كل أمير على قدر مقامه » .

الإنجليز وآثار الفراعنة

وكان لحبه المال ، وتفانيه فى خدمة الأجانب وتمييزهم ، ولجهله أيضا ، يفرط تفريطا معيبا فى آثار مصر القديمة النادرة . فقد ذكر الجبرتى أن جماعة من علماء الآثار الإنجليز قاموا برحلة إلى الصعيد ، جمعوا فيها كثيرا من التماثيل والنواويس ، والجثث المحنطة لقدماء المصريين . ويبدو مما ذكره عن قيمة المال الذى دفعوه أجرا لنقلها على النيل إلى القاهرة — وهو ستة عشر كيسا — يبدو من ذلك أنها كانت شيئا كثيرا . وقد نقل العلماء هذه الآثار كلها بعد ذلك إلى إنجلترا .

كما يذكر أن علماء آخرين نقبوا حول تمثال أبى الهول ، وكشفوا جوانبه ، فوجدوا بين مرفقيه صندوقاً مستطيلا أحمر اللون ، عليه نقوش فرعونية . وفى داخله تمثال سبع من حجر أحمر ، باسط ذراعيه . وهو فى حجم الكلب . فنقلوا هذا الصندوق إلى بيت القنصل الإنجليزى . وقال الجبرتى إنه ذهب فشاهد هذه الآثار وهذا الصندوق ، ومعه رجل اسمه سيدى إبراهيم المهدى الإنجليزى . كما قال إن الأولين أنفقوا مالا كثيراً فى تنقيبهم فى الصعيد الأقصى . وإن الآخرين ظلوا أربعة أشهر ينقبون حول أبى الهول ويكشفون ما يحيط به من الرمال .

ولم يأخذ محمد على ، فقط ، أحجار المساجد والملاجىء لتبنى بها قصوره وقصور رجاله . بل أخذ ما يملكه الناس من الأراضى والممتلكات . فقد أصدر

أمراً يهدر قيمة الحجج التى يمتلكون بها ٠ وأمرهم أن يستخرجوا حججاً جديدة فى نظير ضريبة فرضها ٠ ومن لم يستطع ذلك منهم أضيفت أملاكه إلى الدولة ، أى إلى ملك محمد على ،وكان كثيرون جداً من الناس يملكون بالميراث أو بالشراء من غير حجة ولا توثيــق . أو بكتابة غير موثقة ، فنزعت أملاكهم ، مهما علت قيمتها ، ومهما كان حقهم فيها واضحاً ٠ وتملكهم لها يمتد إلى سنين طويلة ٠ وقد فعـل ذلك أيضاً فى أوقاف المساجد والأسبلة ، وجهات البر والصدقات ٠ وقد أحصاها محمد على فكانت ستمائة ألف فدان ٠

وقد أمر محمد على بأن يأخذ لنفسه ، على كل فدان من هذه الأراضى الموقوفة ثلاثة ريالات ونصف ، وعلى غيرها سبعة ، فلما ذهبت إليه العلماء يشكون أن هذه الضريبة ستكون سبباً فى خراب المساجد والأسبلة وما وقفت عليه هذه الأراضى ، لم يقبل منهم ، ولم يستمع إليهم ٠

قطارات الحمير :

أما فى القاهرة ، فقد قام بحركة واسعة من البناء شغل بها جميع أهل المعمار ٠ فكان من يريد بناء جــدار أو حجرة أو « كانون » — كما يقول الجبرتى — لا يجد من يبنيه . والحمير — وهى أكثر من ألفين — تنقل طول النهار ، ما يوجد بالحمامات من الرماد . وتنقل الطوب ، وأنقاض البيوت وغير ذلك إلى عمائره فى القلعة وغيرها ٠ « فترى الأسواق والعطف مزدحمة بقطارات الحمير الذاهبة والراجعة » وكذلك كان يفعل ابنه إسماعيل وسليمان أغا السلحدار فى بولاق وإمبابة والجيزة ٠٠ والأرمن المقربون إليه ، فى مصر القديمة ٠

ولم تـكن سطوة القانون والمصادرة وحدها ، سبيل محمد على لأخذ أموال الناس ٠ بل كانت القوة والقهر أيضاً من وسائله فى ذلك . فقد روى الجبرتى أنه أمر بعض رجاله بالذهاب إلى عرب أولاد على ، ليحاربوهم ٠ وساعد فريق منهم رجاله فى هذه الحرب . فلما دهموهم فى بيوتهم واستولوا على أموالهم . أودعوها عند قوم منهم فى مدينة الفيوم ٠ ثم قدموا إلى محمد على فى القاهرة ليبشروه بالنصر ٠

وكان معهم هذا الفريق من العرب الذى كان سبباً فى نصرة رجاله . وانتظر هؤلاء أن يشملهم محمد على ببره وتقديره ، وأن يكافئهم . ولـكنه أمر بسجنهم . ثم أرسل إلى الفيوم بمن جاء بأموال أولاد على . فكان منها ، من الغنم ، ستة عشر ألفاً ، ومن الجمال والنوق ، ثمانية آلاف .

الغلاء والقحط :

وكان من الطبيعى أن يزيد الغـلاء زيادة فاحشة ، بسبب هذه الضرائب والمصادرات ، والتحكم فى سوق البيع والشراء ، واحتكار الدولة لكل شىء . وأن يصيب الناس من ذلك أشد الضيق . أما الغلاء فقد ذكر الجبرتى أن الشىء الذى ثمنه مائة ، كان يباع بألف . وأما ما أصاب الناس من ضيق ، فقد ذكر فيه أن كثيرين من الفلاحين خرجوا مهاجرين إلى الشـام وغيرها ، فراراً من الضرائب والمغارم التى كان يثقل عليهم بها . وأن كثيرين من ذوى الثروة واليسار ، أصبحوا فقراء محتاجين . ثم يقول ، فى حوادث شهر جمادى الأولى من سنة ١٢٣٢ (١٨١٧ م) إن الغلال لم تعد موجودة فى الأسواق ، بسبب احتكارها ونقلها إلى الإسكندرية للمتاجرة فيها مع الأوربيين . وأن محمد على أمر كشافيه فى الأقاليم بألا يبيع الفلاحون أى قدر من غلالهم إلا له ، بالثمن الذى فرضه . ثم يقول إن الحال بلغت حداً بعيداً من الشدة ، حتى قل الخبز فى أسواق القاهرة . بل امتنع فى بعض الأيام وجوده . وأقبل الفقراء من الرجال والنساء بمقاطفهم إلى الأسواق والرقع التى يباع فيها القمح . ثم رجعوا من غير شىء . فلما رأى محمد على شبح المجاعة . أخرج من مخازنه الوافرة قدراً من القمح وأمر بألا يشترى أحد أكثر من نصف كيلة ، أو كيلة . بالثمن الذى يفرضه أيضاً .

ثم يقول إنه جاءت من الريف أغنام وجواميس فكانت هزيلة جداً ، من الجوع ، فلما ذبحت لم يجىء غيرها ، ولم يجد الناس ما يطبخونه . ولم يجدوا خضاراً ولا سمناً ولا زيتاً ، لأن محمد على أخذ ذلك كله ليتاجر فيه . فأغلقت المعاصر والسيارج ومتاجر الشمع . ولم يجدوا دجاجا ولا بيضاً لهذا السبب أيضاً . وكثيراً

ما كانت تؤخذ بلا مقابل على أن يخصم ثمنها من الضرائب التى تستحق أو تفرض فيما بعد .

كما أمر فى هذه السنة أيضاً ، بالاستيلاء على ما تغزله المغازل من القطن ، والحرير والخيش والكتان ، وما يصنع من « الحصير » و « الزعابيط » و « الدفافى » فإذا أخذه رجاله ، دفع لأصحابه ثمنا قليلا ، ثم خصص أماكن لبيعه بالثمن الذى يرتضيه . وكذلك فعل بكل شىء ، حتى البلح والعجوة ، والجريد ، والخوص ، والليف ، والنشوق ، واللبان والصمغ ، والحنّاء .

هذا ما كان يفعله محمد على بأهل مصر فى سنة ١٢٣٢ ، مع أنه قبل ذلك بتسع سنين ، اعترف بأن « البلاد خربت » من كثرة ما تحمل الناس من المظالم والمغارم .

ففى اليوم الحادى عشر من شوال ، سنة ١٢٢٥ (١٨١٠ م) عقد محمد على اجتماعا فى بيت ابنه إبراهيم بالأزبكية ، حضره كبار العلماء ورؤساء الجند وتحدث هو إليهم فقال إنه لا يريد أن يفرض ضرائب جديدة على البلاد « لأنها خربت ولا تستطيع أن تتحمل زيادة » . ثم عرض عليهم طريقة أخرى للحصول على ما يريد من المال .

وقد كان محمد على فى ذلك الوقت جديداً فى ولاية الحكم . محتاجاً إلى عطف العلماء والتودد إلى الشعب . لم ينته من البطش بخصومه ولم يقض على المماليك ، فكان طبيعياً أن يجمع العلماء ليستشيرهم . وكان طبيعيا أن يظهر بعض الرعاية للشعب ، وأن يعترف بما ناله من إرهاق وأنه لا يريد أن يزيد فى إرهاقه .

فلما تغير الحال ، وقضى على المماليك . وبطش بخصومه ، أو أغراهم بالمال والمنصب واستدرجهم إليه . لم يعد محتاجاً إلى عطف العلماء ولا إلى التودد للناس وإظهار الرفق بهم والرعاية لهم . ولم تعد مصر ذلك البلد الذى خرب « ولا يحتمل زيادة » بل يأخذ من أهله كل شىء ، بكل سبيل . حتى لا يجد الناس طعامهم .

ويذهب العلماء والناس والأطفال إلى مسجد عمرو يطلبون من الله الرحمة بهم « فخطبوا وصلوا . وأضر بالمجتمعين الجوع ، فلم يجدوا ما يأكلونه » .

وحديث المظالم والمصادرات التى أوقعها محمد على بشعب مصر حديث طويل مثير . كتب فيه كثير من المؤرخين مثل ما كتب الجبرتى ، ولكنى لا أريد أن أتجاوز الجبرتى إلى غيره إلا بمقدار .

هدايا لأم العروس :

ولم يكن محمد على وحده محبا للمال كل هذا الحب . متخذا كل سبيل فى الحصول عليه وحيازته . فقد ذكر الجبرتى عن زوجه فى ذلك قصة عجيبة مؤلمة ، مثيرة .

ففى شهر المحرم من سنة ١٢٢٩ (يناير سنة ١٨١٤) زفت إحدى بنات محمد على إلى محمد بك الدفتردار[١] . وذهبت نساء الأمراء والمماليك والأعيان إلى أم العروس يقدمن إليها الهدايا « من الجواهر والتحف والأمتعة » وقد تحملن فى ذلك فوق طاقتهن ، وكان والد العروس هو الذى صادر أموالهن وأموال أزواجهن ، وقتل كثيرين منهم وشتتهم فى البلاد . فلما قدمت الهدايا إلى زوج محمد على أخذت تقلب « ما فيها من المصاغ والجوهر ، والمقصبات ، وغيرها . فإن أعجبتها تركتها . وإلا أمرت بردها قائلة : « أهذا مقام فلانة التى كانت بنت أمير مصر أو زوجته ... ؟ فتتكلف المسكينة للزيادة ، مع ما يلحقها من كسر الخاطر ، وانكساف البال » .

وقد صدق الجبرتى كل الصدق ، فى إشارته المهذبة إلى ما فى هذا التصرف من الغلظة ، والبعد عن اللياقة ، والمجافاة لكل كرامة ومروءة وخلق . ومن الطمع فى موقف يجب أن يكون فيه البذل والإعطاء .

---

(١) الأميرة توحيدة .

الأجانب هم الحكام والسادة :

ومن الحقائق التى سجلها الجبرتى على محمد على ، نظرته إلى المصريين كأنهم خدم له وأتباع . وإلى مصر كأنها مزرعة ليس لأصحابها فيها حقوق . ومظهر هذه النظرة نراه فى إهماله المصريين إهمالا شائنا معيبا ، فى كل ماله شأن أو خطر من أمور الدولة والحكم والولاية العامة . واعتماده كل الاعتماد فى ذلك على الأجانب من كل صنف ، وخاصة الفرنسيين ، والأرمن .

وقد كان لمصر « ديوان » أنشأه نابليون ، وجمع فيه طائفة من أهل الرأى والمكانة من المصريين . وكان هذا الديوان يناقش المسائل العامة ، والقوانين ومشروعات الضرائب ، فهو أشبه ببرلمان له شئ من السلطة ، ويستطيع المصريون عن طريقه ، أن يبحثوا أمور وطنهم العامة . وأن يعبروا فيه ، بقدر الإمكان ، عن رغبات الشعب ومشاكله وآلامه . ولكن محمدا عليا ، أبطل هذا الديوان وحرم الشعب المصرى من هذا « التنفيس » الذى كان يعبر عن رغباتهم ويشعرهم بأن لهم بعض شئ فى توجيه الأمور العامة ، والإشراف على تصرفات حكامهم ، أو على الأقل ، مشاورتهم .

وكان من الممكن ، أن تستقر ، أو توجد ، فى مصر ، حياة ديمقراطية صحيحة . لو جعل هذا الديوان نواة لها ، وسبيلا لقيام « الرأى العام » السياسى فيها . ولكن سياسة محمد على ، وفهمه لسلطة الحاكم ، ومستوى الحكام فى الشرق لهذا العهد على وجه العموم ، كانت بعيدة كل البعد عن هذا التفكير ، بل مناقضة له .

كان محمد على يختار مستشاريه ومعاونيه فى الحكم ، من غير المصريين ، فكتخداه ، أى نائبه . ألبانى ، أو أرنؤودى . ووزير التجارة باغوص بك أو يوسف كنعان ، أو المعلم منصور أبو سبرعون . ومدير الجمارك . كرابيت الأرمنى . ومنفذ الأحكام ، السلحدار ، سليمان أغا — وكان من أفحش الناس قسوة بالمصريين — أو صالح بك ، التركى . وكذلك وزير المالية ، الخاندار ، محمود بك . والدفتردار ،

محمد بك صهره . والروزنامجى ، أغا مستحفظان . حسن أغا البهلوان . وقواد الفرق المختلفة للجند أيضا . والمحتسب ، مصطفى أغا كرد ، أو عثمان أغا الوردانى . وحاكم الوجه القبلى ، ابنه إبراهيم ، أو صهره محمد بك الدفتردار . وأصحاب الرأى والمشورة عنده عابدين بك ، ، وإسماعيل باشا ، ابنه ، وخليل باشا ، حاكم الإسكندرية . وصالح أغاقوج ، الذى كرهه فيما بعد . وشريف أغا ، وحسين بك دالى باشا ، وحسين الشماشرجى حاكم الفيوم ، وحجو بك ... إلى آخر هذه الأسماء ، التى لا تجد بينها اسما مصريا . والتى لم تكن تشعر نحو مصر وأهلها إلا شعور المقت والبغضاء والزراية .

قطارات من الفلاحين :

ونستطيع أن ندرك إحساس محمد على وقومه نحو الفلاحين من أهل مصر ، بتأمل هذه السطور التى كتبها الجبرتى فى حوادث شهر شوال من سنة ١٢٣٤ :
« ... كان الباشا — أى محمد على — بجهة الإسكندرية ، بسبب ترعة الأشرفية — المحمودية — وأمر حكام الجهات بجمع الفلاحين للعمل . فكانوا يربطونهم قطارات ، بالحبال ، وينزلون بهم فى المراكب ... وتعطلوا عن زرع الدراوى الذى هو قوتهم . وقاسوا شدة بعد رجوعهم فى المرة الأولى . ومات الكثير منهم ، من البرد والتعب . وكل من سقط أهالوا عليه من تراب الحفر ، «ولو فيه الروح» ، ولما رجعوا إلى بلادهم للحصيد ، طولبوا بالمال . وزيد عليهم عن كل فدان حمل بعير من التبن . وكيلة فول . وأخذ ما يبيعونه من الغلة بالثمن الدون ، والكيل الوافر . فما هم إلا والطلب للعود إلى الشغل فى الترعة ، ونزح المياه التى لا ينقطع نبعها من الأرض ، وهى فى غاية الملوحة . والمرة الأولى كانت فى شدة البرد . وهذه المرة فى شدة الحر . مع قلة المياه العذبة . فينقلونها بالروايا على الجمال مع بعد المسافة » .

ثم يقول بعد ذلك ، فى حوادث ربيع الأول من سنة ١٢٣٥ إن الفلاحين عادوا إلى بلادهم من العمل فى حفر هذه الترعة « بعد ما هلك معظمهم » . وكيف لا يموت

معظمهم وقد رأينا ، فى وصفه السابق ، أنهم كانوا يربطون بالحبال ، ويرغمون على العمل المرهق ، فى البرد القارس والحر الشديد . فمن ضعف عن العمل · وخارت قواه ، دفن فى التراب وهو حى لم يمت .

هذا كان حال الفلاحين من المصريين · أما رجال محمد على من الأجانب ، فيذكرهم الجبرتى بقوله ، إنهم « ترأسوا ، وعلت أسافلهم ، ولبسوا الملابس الفاخرة · وركبوا البغال ، والرهوانات · وأخذوا بيوت الأعيان التى بمصر القديمة وعمروها وزخرفوها وعملوا فيها بساتين ، وجنائن ، وذلك خلاف البيوت التى لهم بداخل المدينة . ويركب « الكلب » منهم وحوله وأمامه عدة من الخدم ، والقواسة يطردون الناس من أمامه وخلفه » .

ويقول عن أحد رجال محمد على ، وهو سليمان أغا السلحدار ، إنه كان « يتمم عمائره فى أسرع وقت . لعسفه ، وقوة مراسه على أرباب الأشغال والمؤنه . ولا يطلق للفعلة الرواح . بل يحبسهم على الدوام إلى باكر النهار ، ويوقظهم من آخر الليل بالضرب · ويبتدؤون فى العمل من وقت صلاة الفجر إلى قبيل الغروب . حتى فى شدة الحر فى رمضان · وإذا ضجوا من الحر والعطش أحضر لهم السقاء ليسقيهم . وظن أكثر الناس أن هذه العمائر لمخدومه — أى لمحمد على — لأنه لا يسمع لشكوى أحد فيه · واشتد فى هذا التاريخ — سنة ١٢٣٥ — أمر المساكن بالمدينة ، وضاقت بأهلها ، لشمول الخراب ، وكثرة الأغراب » ثم يقول عن هؤلاء الأغراب إنهم « الآن أعيان الناس ، يتقلدون المناصب ، ويلبسون ثياب الأكابر ، ويركبون البغال ، والخيول المسوفة ، والرهوانات · وأمامهم وخلفهم العبيد والخدم ، يطردون الناس ، ويفرجون لهم الطرق · ويتسرّون بالجوارى بيضا وحبوشا · ويسكنون المساكن العالية الجليلة . يشترونها بأغلى الأثمان ، ومنهم من له دار بالمدينة ودار مطلة على البحر ، للنزاهة . ومنهم من عمر دارا وصرف عليها ألوفا من الأكياس » .

ومن أعجب الأمور التى ذكرها الجبرتى فى تمييز الأجانب على المصريين ،

أنه — أى محمد على — كان يفرض على البضائع التى يملكها الأولون أو يتاجرون فيها ضريبة قدرها اثنان ونصف فى المائة . أما المصريون فكانت الضريبة على بضائعهم عشرة فى المائة ... !

لهذا كان من الطبيعى أن يظهر هؤلاء الأجانب سرورهم من حكم محمد على ، وأن يحتفوا به إذا قدم إليهم . كما حدث عند زيارته الإسكندرية فى صفر سنة ١٢٣٤ (ديسمبر سنة ١٨١٨) فقد نصبوا «طريقا من باب البلد إلى القصر الذى هو سكن الباشا ؛ وجعلوا بناصيتيه ، يمنى ويسرى ، أنواع الزينة، والتماثيل، والتصاوير والبلور والزجاج ، والمرايات ، وغير ذلك من البدع البديعة الغريبة»

وكذلك فعل الأجانب فى خارج مصر . حيث يقول إن الإنجليز أرسلوا هدية إليه من بلادهم « فيها طيور مختلفة الاجناس والاشكال . كبار وصغار وفيها من يتكلم ويحاكى . وآلة مصنوعة لنقل الماء . يقال لها «الطلمبة» وهى تنقل الماء إلى المسافة البعيدة ، ومن الأسفل إلى العلو . ومرآة زجاج نجف كبيرة قطعة واحدة . وساعة تضرب بمقامات موسيقى فى كل ربع يمضى من الساعة ، بأنغام مطربة . وشمعدان به حركة غريبة . كلما طالت فتيلة الشمعة ، غمز بحركة لطيفة ، فيخرج منه شخص لطيف من جانبه ، فيقط رأس الفتيلة بمقص لطيف ويعود راجعا إلى داخل الشمعدان » .

وكان من الطبيعى أيضا، وهذه سياسة محمد على فى تفضيل الأجانب على المصريين، أن يزيد عددهم ، بل يتضاعف ، فى عدد قليل من السنين . فقد ذكر على باشا مبارك أنهم فى سنة ١٨٤٠ كانوا ١٦٫١٥٠ ثم زادوا إلى خمسين ألفا فى سنة ١٨٤٦ أى بعد ست سنوات . ثم صاروا فى سنة ١٨٧٠ مائة وخمسين ألفا[1]

وقد أشرنا فى أول هذا الفصل إلى أن عاطفة الجبرتى نحو محمد على لم تكن عاطفة المحبة والتقدير . ولكن ذلك لم يمنعه من الإشارة إلى ما فعل من عمل صالح أو نافع . بل من الثناء عليه فى بعض المواقف أيضا .

---

(١) الخطط التوفيقية ص ٥٤ جزء ٧

إنصاف

فمن ذلك إشادته بإنشاء سد الإسكندرية ووصفه ذلك بأنه « من محاسن الأفعال » التى عجز السابقون عن فعلها . وإنشاء مصانع البارود ، وسبك المدافع وصنع القنابل ، ومصانع السفن وتسييرها فى البحرين الأبيض والأحمر ، ومدرسة الهندسة . ومصانع نسج القطن والحرير بالآلات ، بعد أن كانت تنسج بالأيدى . وإنشائه مصنعا لنسج الصوف الملون ، المعروف « بالجوخ » . وكانت الآلة التى استخدمت فيه من صنع ناظر المهمات ، محمد أفندى الودنلى المعروف بطبل ، أى الأعرج .

وهو لا يضن على محمد على بذكر ذلك مفصلا فى بعض المواطن . كما نجد فى حديثه عن دار الصناعة وإنشائها ، وهو : « فى هذه السنة ١٢٣٣ هـ (١٨١٧ — ١٨١٨ م) أشار الباشا ، بناء على مشورة بعض الإفرنج ، بإنشاء عمارة بين السورين وحارة النصارى المعروفة بخميس العدس ، المتوصل منها إلى جهة الخرنفش ليجتمع بها أرباب الصنائع الواصلون من بلاد الافرنج ، وغيرهم . وهى عمارة عظيمة بدءوا فيها من العام الماضى واستمروا مدة فى صناعتها بالآلات الأصولية التى يصطنع بها اللوازم ، مثل السفدالات ، والمخارط ، والحديد ، والقواديم ، والمناشير والترجات ، وغير ذلك . وأفردوا لكل حرفة وصناعة مكانا وصناعا . يحتوى المكان على الأنوال والدواليب ، والآلات الغريبة الوضع والتركيب لصناعة القطن ، وأنواع الحرير والأقمشة والمقصبات . وطلبوا مشايخ الحارات وألزموهم بجمع أربعة آلاف غلام من أولاد البلد ، ليشتغلوا تحت أيدى الصناع ويتعلموا ، ويأخذوا أجرة يومية . فمنهم من يكون له القرش والقرشان والثلاثة . بحسب الصناعة وما يناسبها . ويرجعون إلى أهاليهم آخر النهار . وهى دار صناعة عظيمة ، صرف عليها مقادير عظيمة من الأموال . وربما تحتاج إلى عشرة آلاف غلام » .

وكذلك يذكر ، بشيء من التفصيل والإشادة ، إنشاءه لترعة الأشرفية ، المحمودية .

ويقول إنه أمر بجمع مائة ألف فلاح للعمل فيها . وصنع خمسين ألف فأس ومسحة للحفر : وهو العمل الذى مات فيه ألوف من الفلاحين، كما رأينامنذقليل .

التوت والحرير

وكذلك سجل لمحمد على أنه أصلح منطقة فسيحة من الأراضى فى مديرية الشرقية ، تعرف باسم رأس الوادى . ونقل كثيرين من فلاحى هذه المديرية ،الذين لا يملكون أرضا ، فاستوطنوا هذه الأراضى المستصلحة .وزرعوا أشجارالتوت . وأقاموا فيها أكثر من ألف ساقية للرى . وكان دود القز يربى فى هذه الأشجار ، ويستخرج منه الحرير ، «كما بنواحى الشام ، وجبل الدروز» . فقداستقدم محمدعلى جماعة من المتخصصين فى تربيته ، وفى استخراج الحرير منه لتعليم الفلاحين المستوطنين هذه الصناعة . « سمع محمد على بخبرة اللبنانيين فى زراعة التوت وتربية دودة الحرير فاستدعى فى سنة ١٨١٦ نحو ثلاثين أسرة لبنانية للاشتغال بغرس التوت وتربية دودة القز وتدريب المصريين على ذلك ، وأحل تلك الأسر فى شبرا وبهتيم وأقطعها الأراضى الواسعة . ولما أعطت تجاربهم نتيجة طيبة استقدم من لبنان فى سنة ١٨١٨ جالية أخرى أكبر عدداً من الأولى ، ووهبها أربعة آلاف فدان فى رأس الوادى على مقربة من الزقازيق ، وحفرلها ألف ناعورة وأقام عليها أربعمائة معلم . وكان رؤساء هاتين الجاليتين متصلين رأساً بمحمد على .

ونمت أشجار التوت التى تغذى أوراقها دودة القز فى سنوات قليلة ،وراجت منتجات الحرير فى مصر ،وأثبت الباحثون أن مائة وخمسين ألفاً من العمال كانوا يشتغلون فى نسج الحرير فى مصر . وبلغت إيرادات مصر منه فى إحدى السنين مليوناً من الجنيهات»[1]

وذكر الجبرتى أن السواقى كانت تصنع فى القاهرة ثم تنقل على الجمال إلى رأس الوادى .

---

(١) من مقال للأب الدكتور مسعد بولس فى عدد خاص عن محمد على أصدرته مجلة «الكتاب» . عدد شهر نوفمبر ١٩٤٩ ص ٥٤٨ .

وأتى الفلاحين الذين نقلهم للعمل فيه ، أقيمت لهم السكفور والمساكن . وصرفت لهم النفقات ، حتى يستخرج الحرير ويباع . فيكون لهم ربع ثمنه . وقد زار محمد على هذه المنطقة بنفسه . ويقول إنه زرع أشجار التوت فى شوارع القاهرة ، وفى جسور الطرق فى بلاد الريف[1] . كما زرع بعض الأراضى بأشجار الزيتون ، وأقام مصانع للصابون استخدم فيها زيت هذه الأشجار . وجلب من إنجلترا كثيراً من السواقى ، لتحسين حالة الرى . ولكن الجبرتى يقول إن تجربتها لم تفلح .

ونظم الدورة الزراعية فى مصر . حيث أمر بتحديد المساحات التى تزرع بالقطن والكتان والسمسم والحمص ، وغير ذلك من المحاصيل .

وذكر أنه أجرى ماء النيل ورفعه إلى القلمة ، فخفف ذلك من مشقات الناس . وكانت السواقى التى ترفع الماء إليها قد تخربت منذ زمن طويل .

بل إن الجبرتى لصدق عاطفته التاريخية ، وأمانته العلمية . أثنى على محمد على ثناء كبيرا ، لإقامته سد رشيد . وقال إن ذلك « من أعظم الهمم الملوكية ، التى لم يسبق بمثلها » .

العلماء والعسكر :

وسجل له أنه ترك للعلماء أن يختاروا شيخ الأزهر . بالانتخاب . فقدذهبوا إليه ، بعد وفاة الشيخ الشرقاوى ، يستأذنونه فيمن يجعلوه شيخا . فقال لهم « اعملوا رأيكم ، واختاروا شخصاً يكون خاليا عن الأغراض » وتنازع الشيوخ فيما بينهم ، ثم اختاروا الشيخ محمد المهدى . ولكن محمدا عليا لم يعينه . وأمر بتعيين

---

(١) نقل على باشا مبارك عن كلوت بك ، أن ماغرسه محمد على من شجر التوت فى الوجه البحرى ، بلغ ثلاثة ملايين شجرة . فى عشرة آلاف فدان (ص ٤٣ ج ١٠ من الخطط)

الشيخ محمد الشنوانى . وكان قد ترك القاهرة عندما علم أن العلماء يريدون أن يختاروه للمشيخة[١] .

ومما ذكره الجبرتى أنه أمر بمنع العسكر ، حتى كبارهم ، من أخذ مزروعات الفلاحين حين مرورهم بها . أو أكل شىء منها . وكانوا يسرفون فى ذلك إسرافا شديدا يؤثر أسوأ الأثر على المحاصيل . كما يذكر أنه نزل يوما من القلعة، فى رمضان من سنة ١٢١٩ وقتل جنديا كان يغتصب حمل تبن من رجل آخر . ثم وجد سبعة جنود ، يغتصبون قصعة من الزبد ، من فلاح ، وهو يستغيث ، فقتل منهم ثلاثة ، وهرب الباقون . ونزل إلى قنطرة الدكة وبولاق ، فقتل أربعة رجال كانوا ينهبون. ويقول إنه قتل ، فى ذلك اليوم ، أكثر من عشرين شخصاً ، من النهابين . وكذلك منع الجند من التعرض للباعة فى دخولهم من أبواب القاهرة ، وأخذ شىء منهم .

ولكن يحسن أن نلاحظ أن ماذكره الجبرتى فى ذلك ، كان فى أول عهد محمد على . وكان فى ذلك الوقت محتاجا إلى تأليف الناس ، والظهور بمظهر الحاكم العادل . كما كان محتاجا إلى إقرار الأمن ، الذى كان مختلا إلى درجة خطيرة. وكانت هذه الصرامة وإظهار الغيرة على الشعب ، مما يساعده كل المساعدة على الإنفراد بالحكم . وتوجيه سخط الشعب نحو خصومه من المماليك وغيرهم .

ولعل هذا أيضا هو السبب الذى دعا محمدا عليا إلى تلك القسوة البالغة التى سجلها الجبرتى ، والتى أخذ بها التجار والباعة ، إذا زادوا فى أسعار السلع ، عن الثمن الذى حدده لها . حتى إنه حكم على بعضهم بالإعدام .

ودعاه أيضا إلى إبطال بعض العادات الثقيلة التى اعتاد الجند أن يفعلوها ليأخذوا من الناس أموالا بغير حق ، كعادة الجمعية ، التى ذكرناها فى الحياة الاجتماعية[٢] .

---

(١) أنظر فصل الأزهر والعلماء فى الجزء الثانى من الكتاب .

(٢) الجزء الأول من هذا الكتاب .

حسين عجوة :

ومما ذكره الجبرتى من الحسنات القليلة التى سجلها لمحمد على ، أنه علم أن مصريا ، من أولاد البلد ، اسمه حسين شلبى عجوة ، اخترع آلة لضرب الأرز وتبييضه . لاتحتاج إلى جهد كبير . فطلبه إليه ، وأعطاه مالا ، وأمره بأن يسير إلى دمياط ليقيم فيها مصنعا تستخدم فيه هذه الآلة التى اخترعها . وأمر بأن يسلم إليه مايحتاجه من الأخشاب والحديد وأدوات البناء . فلما أقامه حسين عجوة ، ونجحت آلته ، أمره بإقامة مصنع آخر فى رشيد ، وأنعم عليه بمال ، مكافأة له . ثم تنبه — أى محمد على — لما عند المصريين من قدرة ونشاط ، فأمر بإنشاء مدرسة ، فى فناء قصره ، جمع فيها طائفة من الصبية المصريين ، ومن مماليكه . وخصص لهم معلمين ، بعضهم من الأوربيين ، وأحضر لهم الأدوات الهندسية من إنجلترا ،وخصص لكل صبى راتباً شهرياً وكسوة ، وكانت هذه بداية مدرسة « المهندسخانة » .

وهكذا نجد أن الجبرتى ، لم يظلم محمدا عليا ، ولم يغمطه قدره ،ولم ينشر شروره ويطو خيره ، بل كان منصفا أمينا ، يذكر ماله ، وما عليه . بل نجد أن الجبرتى ، فى موقف من المواقف ،لايضن عليه بالثناء الكثير ، والمدح الشامل .مع تحفظ لا ينكره محمد على نفسه ، كما سنرى بعد قليل .

فقد ذكر الجبرتى مشاريع محمد على لإصلاح سد الإسكندرية . ثم قال إنه كانت « له مندوحة لم تكن لغيره من ملوك هذه الأزمان — أى ملوك مصر السابقين — فلو وفقه الله لشئ من العدالة — على مافيه من العزم والرياسة ،والشهامة ،والتدبير ، والمطاولة — لكان أعجوبة زمانه ، وفريد أوانه »

الجبرتى لم يظلم محمد على :

وهذا التحفظ الذى أورده الجبرتى مشيراً به إلى تجاوز محمد على وإسرافه فى الظلم والاستيلاء على الأموال والأراضى . لم يستطع مؤرخ من أكبر مؤرخى محمد على أن ينكره ، وهو على باشا مبارك . فقد ذكر على مبارك أن محمداً علياً وجد أمامه مشاكل معقدة ، كان عليه أن يواجهها ، ويتغلب عليها « فمنها مااستعمل فيه الرفق واللين . ومنها مااستعمل فيه بذل الأموال . ومنهـــا ما استعمل فيه القهر ، والغلبة ، والسيف . حتى تمكن من جميع أغراضه [1] »

وعلى مبارك مدين باسمه ، ومجده ، لمحمد على . تعلم فى المدارس التى أنشأها . وسافر مع أولاده إلى فرنسا . وتولى أهم مناصب الدولة من يد أولاده وسلالته . ولقى عندهم — ماعدا سعيد — أكرم منزلة . وألف خططه ، وسماها باسم واحد منهم . وهو توفيق . فلا يمكن أن يتهم على مبارك بالتحامل على محمد على . بل المعقول أن يتهم بالتحيز له .

فإذا ترجمنا هذه الكلمات التى وصف بها محمداً علياً ، إلى لغة الجبرتى . نجد أن كلمات « الرفق واللين » لاتبعد كثيراً عن الرياء والمداهنة . ونجد كلمات « بذل الأموال » هى بعينها رشوة المماليك لتفريق كلمتهم ، وكسر شوكتهم . ثم لايبقى بعد ذلك سوى كلمات القهر ، والغلبة ، والسيف . وهذه قد التقى فيها كل من على مبارك والجبرتى أتم لقاء . وانفرد الجبرتى بتفصيلها والتدليل عليها . على أن محمد على نفسه لم ينكر فى آخر حياته ، هذه الكبائر التى اقترفها فى حق مصر ، والمماليك . ولا هذه الكبائر التى اجترأ بها على الفضائل والأخلاق . حتى تمكن من « جميع أغراضه » كما يقول على مبارك . فقد روى المؤرخون أن الأمير بكلر سكاوى ، أحد أصدقاء محمد على فى آخر حياته ، سأله عن تاريخ السنوات الأولى

(١) ص ٥٥ جزء ٧ من الخطط التوفيقية . طبع المطبعة الأميرية .

من حكمه — وهى التى أرخ لها الجبرتى — فقال محمد على « إنه لايحب تلك الفترة من حياته[1] » ولعل ضميره كان يحاسبه على مااقترف فيها . أو لعله لايريد أن يسجلها عليه التاريخ . أو كلا الأمرين معا ، جعله يكره هذه الفترة من حكمه .

هذه هى الصفات التى نجدها لمحمد على ، عند الجبرتى . وهذه صفحات من سيرته ، كما سجلها فى الست عشرة سنة الأولى من حكمه ، تسجيلا أمينا ، منصفا ولو أنه مشوب بعاطفة المقت ، والكراهية له .

محمد على القوَلى :

وتبدو هذه العاطفة صادقة قوية ، فى السطور التى يبدأ بها الجبرتى تدوينه لأحداث طائفة من هذه السنين . فهو يبدأ حديثه عن سنة ١٢٣١ بهذه الكلمات :

«استهل شهر المحرم بيوم السبت . وحاكم مصر ، وصاحبها وأقطاعها ،وثغورها، وكذلك بندر جدة ، ومكة ، والمدينة المنورة ، وبلاد الحجاز . محمد على باشا . وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء » . ثم يذكر هذه الكلمات نفسها فى بدء حديثه عن السنة التالية ، ويزيد عليها وصف محمد على « بالقولّى » — نسبة إلى قوله — ثم يذكر أسماء وزيره ، ونائبه ، وكبار رجاله . وكأنه يقول إن مصر لايحكمها أحد من أبنائها . ثم يفعل ذلك فى السنتين التاليتين أيضا . كأنه كان يترقب أمرا، أو يرجو تغير الحال . فوجده كما كان .

وتبدو هذه العاطفة ، صادقة قوية أيضا . عندما يذكر نزاع المماليك بعضهم لبعض — وكان صديقا محبا لهم — فهو يقول ، مثلا، إن هذا النزاع كان سببا فى أن انقلبت أوضاع الديار المصرية، وزالت حرمتها بالكلية « وهو يقصد بذلك عهد محمد على . ثم يذكر فى ختام حديثه عن هذه المنازعات . كلمات « والحكم لله العلى القدير »

---

(١) ص ٦٠ من كتاب محمد على الكبير للأستاذ محمد شفيق غربال .

وأمثال ذلك . كما نجد طابع التشاؤم ، والحزن ، والألم · واضحا قويا فى هذه الصفحات التي سجل فيها وقائع حكم محمد على . وكأنه كان يحس ، بوجدانه ، ماستلقى مصر فى أيامها المقبلة منه ، ومن ذريته ، وقد صدق وجدان الجبرتى وحسه . بما رأينا وعرفنا من تاريخ وطننا فيما تلا ذلك من السنين ·

لقد بذل محمد على كل دهاءه وحيلته حتى اختاره شعب مصر وزعماؤها واليا عليهم · على شروطهم . وهى أن يسير فيهم بالعدل، وأن يقيم الشريعة ، ويرفع الظلم ، وألا يبرم أمرا إلا بمشورة العلماء والزعماء . وأنه متى خالف هذه الشروط ، عزلوه ، وأخرجوه· فلما مكّن لنفسه من الأمر ، سار فيهم سيرته التى روينا طرفا يسيرا منها فيما مر من هذه الصفحات · وكانت هذه هى الخدعة الكبرى والشر العظيم ·

مصطلحات فى عجائب الآثار

شرحنا فى الأجــزاء الثلاثة من الـكتاب كثيرا من الـكلمات والتعابير الإصطلاحية التى يذكرها الجبرتى فى تاريخه ، ولم تعد مفهومة فى عصرنا . وهناك كلمات ومصطلحات أخرى لم نشرحها فى كتابنا لأن سياق البحث لم يقتض ذكرها . ونحن نذكر منها طرفا يسّهل على من يقرأ تاريخ الجبرتى فهم مدلولاتها ، أو يزيدها إيضاحا . وكثير من هذه المصطلحات يجده القارىء لتاريخ مصر قبل عهد الجبرتى بعدة قرون ، لذلك قد يعترى معناها بعض التغيير . وهى إما تركية أو فارسية ، وقليل منها محرف عن العربية :

الأمراء المصرية : المماليك

الغـز : صغار المماليك « ولا يزال معروفا فى مصر المثـل العامى الذى يقول : آخر خدمة الغز علقة »

الجماكى ، أو الجامكية : مرتبات الجند

المهاترة : رجال الموسيقى الذين يعزفون النوبة فى أوقاتها .

الخزنة أو الخزينة : ما تبقى من جباية أموال مصر ، بعد إنفاق ما رتبه السلطان سليم منها لينفق فى مصر .

الصنجق : حاكم مديرية كبيرة . وكان الصناجق يحكمون مديريات : جرجا ، والشرقية والغربية ، والمنوفية ، والبحيرة

الـكشاف : حكام المديريات الذين هم أقل شأنا من الحـكام السابقين

القلق : مركز رجال البوليس ، ويطلق على ضابطه .

أمين الخردة : الأمين المعين لجمع الضرائب المفروضة على الملاهى والخواطى « البغاء » والحواة وأمثالهم .

الشاجرتية أو الجاجرتية : المعلم أو المتعلم . وكانا من محرري دفاتر الأراضي

قلفاوات : جمع « قلفة » وهي محرف « خليفة » العربية ، بمعنى وكيل الصنعة أو معلمها ، أو الكاتب .

الرزقة : أراض توقف على الخير ولا تفرض عليها ضرائب .

أرض الدشيشة : أرض أو مجموعة أراض موقوفة لإطعام أهل الحرمين ، والدشيشة حساء يصنع من القمح .

الإلتزام : أن يعهد إلى شخص ، عن طريق التكليف أو المزايدة ، إلتزام دفع أموال الحكومة ، في نظير ضرائب يفرضها على المديرية أو المنطقة التي التزم بدفع أموالها .

الداوات : جمع « داو » إسم للسفن التجارية التي تسير في البحر الأحمر خاصة

بصّاص : بوليس سرى

ديوان المكس : الجمرك

صارى : الأصفر

البيرشانة : عمامة

مهدارة : وقاية توضع على رأس المرأة

التفكْجية : حملة البنادق ، أو من يقومون بإصلاحها .

الينكجرية : طائفة من الجند ولعلها الإنكشارية

الكاف : الغرامات

القلقات : حراس أبواب المدينة

ألجى : سفير

ططرى : رسول من الباب العالى قادم عن طريق البر «الشام»

قابجى : » » » » البحر

اليرق : السوار

خشخانة : السلاح

الألضاشات : أتباع المماليك من العناصر الأخرى

صارى عسكر : القائد العام

شلنج : غطاء للرأس مرصع بالجواهر .

سلخور : إحدى وظائف الدولة .

اليسق : الحرس

القليونجية : البحارة «نسبة إلى غليون ، أى سفينة»

السفاشية : جند الخيالة

الفِـردة : ما يفرض من الضرائب على الأفراد .

قناطيش : نوع من الثياب

المهم : الحفلة

وجاق : بالتركية :— أوجاق أى الموقد ، ثم استعملت للفرقة من الجند

قِش : الشتاء

عزبان : اسم قديم لرجال البحرية العثمانية ثم أطلق على طائفة من الجند

خاتون : لقب احترام لكل سيدة كبيرة المقام

كشكبة : جماعة من الناس

مستحفظان : رئيس حرس أو فرقة الحرس المنوط بها حفظ الأمن

اختيار طائفة : كبار السن

دعا كيوى : الذين يقرءون الدعاء ويطلبون الرحمة

علوفة : بدل تعيين « طعام » للخيل أو للإنسان .

باش قلفة : قلفة معلم ، وباش رئيس . والمعنى رئيس المعلمين . فإن كانت امرأة فهى الرئيسة المكلفة بشؤون الملابس .

الخجا : كاتب السر والإيراد والمنصرف .

اختيار أغاسى : صاحب مفتاح القصر ، أى أمين القصر .

رنكار : شعار وجمعه رنوك .

دخولية : ضرائب تفرض على البضائع التى تدخل القاهرة والمدن الكبيرة .

الشحنة : المأمور أو الرئيس .

البلص : الرشاوى

جوربجى : عمدة

المشاعلية : المشتغلون بالأعمال الدنيئة ، مثل نزح الآبار والحمامات والمجارى . وكان منهم السياقة والجلادون الذين ينفذون أحكام الإعدام والجلد . والذين ينادون فى الطرقات بأحكام الوالى . وكانوا يسيرون لذلك ليلا يحملون المشاعل . ومن هنا جاء اسمهم . وكان يسمون الضوّية أيضا ، نسبة للضوء .

القنبر : القنابل

حرمدان : جراب أو صندوق

مراجع الكتاب

١ — تقويم النيل لأمين باشا سامى . الجزء الثانى

٢ — الخطط التوفيقية لعلى باشا مبارك .

٣ — ذكر تملك جمهور الفرنساوية الديار المصرية والأقطار الشامية للمعلم نقولا الترك طبع باريس ١٨٣٩ .

٤ — تاريخ الحركة القومية للأستاذ عبد الرحمن الرافعى ، الأجزاء الثلاثة الاول .

٥ — المماليك فى مصر للأستاذ أنور زقلمة .

٦ — فتح مصر الحديث ، أو نابليون فى مصر للمرحوم أحمد حافظ عوض بك

٧ — مصر من عهد المماليك إلى نهاية الحكم العثمانى تأليف جورج يانج وتعريب الأستاذ على أحمد شكرى .

٨ — تاريخ مصر من الفتح العثمانى إلى قبيل الوقت الحاضر تأليف عمر الإسكندرى وسليم حسن ومراجعة الميجر ا . ج سفدج .

٩ — تاريخ دولة المماليك فى مصر لوليم موير ترجمة محمود عابدين وسليم حسن « وبخاصة الملحق الذى كتبه يعقوب أرتين باشا وأرسله للمؤلف ، ونشر فى آخر الكتاب »

١٠ — المنتخب من أدب العرب للأساتذة : الدكتور طه حسين ، وأحمد الإسكندرى ، وأحمد أمين ، وعلى الجارم ، وعبد العزيز البشرى ، وأحمد ضيف .

١١ — المجمل فى تاريخ الأدب العربى للأساتذة : الدكتور طه حسين ، وأحمد الإسكندرى ، وأحمد أمين ، وعلى الجارم ، عبد العزيز البشرى ، وأحمد ضيف

١٢ — بدائع الزهور ووقائع الدهور المعروف بتاريخ ابن إياس

١٣ — سلك الدرر فى أعيان القرن الثانى عشر للمرادى .

١٤ — مظهر التقديس بذهاب دولة الفرنسيس للجبرتى [مخطوط درسناه دراسة مفصلة فى الفصل الأول من الجزء الأول من الكتاب]

١٥ — رسائل العطار للشيخ حسن العطار .

١٦ — ترويح البال وتهييج البلبال للسيد عبد الرحمن العيدروس طبع المطبعة الأميرية ١٢٨٣ .

١٧ — تحفة الناظرين فى من ولى مصرمن الولاة والسلاطين للشيخ عبدالله الشرقاوى .

١٨ — قاموس العادات والتقاليد والتعابير المصرية للمرحوم الأستاذ أحمد أمين .

١٩ — زعيم مصر الأول ، السيد عمر مكرم ، للأستاذ محمد فريد أبو حديد

٢٠ — عبد الرحمن الجبرتى للأستاذ خليل شيبوب .

٢١ — محمد على الكبير للأستاذ محمد شفيق غربال .

٢٢ — محمد على الكبير للكاتبة الألمانية لويزا مولباخ . ترجمة دار الهلال

٢٣ — تاريخ آداب اللغة العربية لجورجى زيدان « الجزء الرابع » .

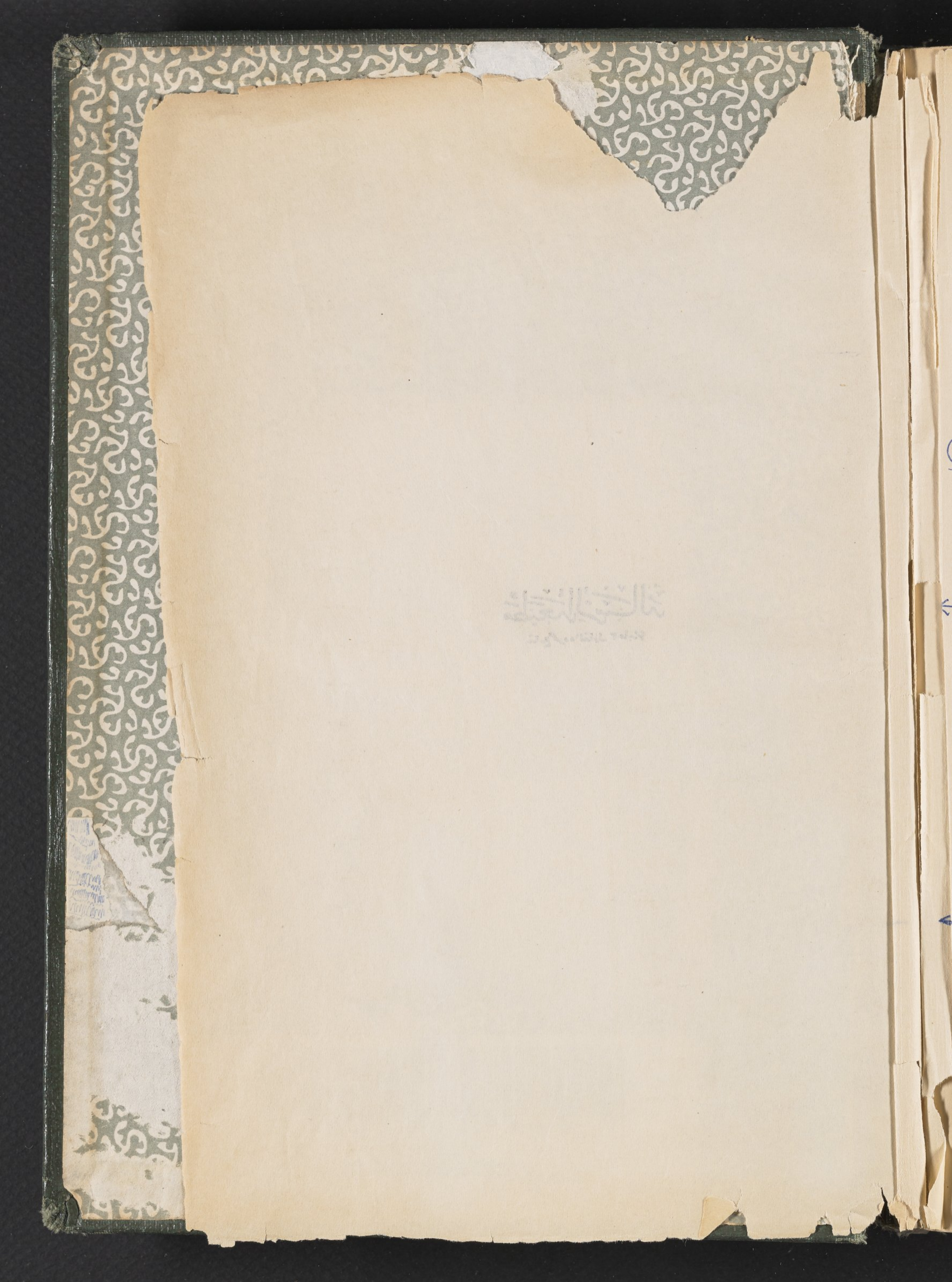
٢٤ — تاريخ الشعوب الإسلامية فى القرن التاسع عشر لبروكلمان تعريب الدكتور نبيه فارس والدكتور منير البعلبكى .

٢٥ — أجزاء مختلفة من دائرة المعارف الإسلامية .

٢٦ — مجلة كلية الآداب بجامعة القاهرة [عدد مايو ١٩٣٦] دارسة الأستاذ محمد شفيق غربال لوثيقة « ترتيب الديار المصرية فى عهد الدولة العثمانية » لواضعها حسين أفندى الرزنامة فى عهد الحملة الفرنسية .

٢٧ — مخطوط فى مكتبة سوهاج مسجل برقم ١٠٠ تاريخ .

الفهرس



مطبعة الرسالة
شارع حموده الغارل ٣ عابدين


main
00000019444
DT 97 S5 1955/v.1

